أن تعيش لتحكي

سنابل للكتاب
٥ شارع صبرى أبو علم
باب اللوق - القاهرة
الإدارة :
(+202) 23 92 65 93
المكتبة :
(+202) 23 93 56 56
e-mail
sanabooks@maktoob.com
web:
www.sanabil.net

أن تعيش لتحكى

المؤلف:
جابرييل جارثيا ماركيز
ترجمة وتقديم:
د. طلعت شاهين

الطبعة الأولى: 2003
الطبعة الثانية: 2009

رقم الإيداع:
2003/3360
الترقيم الدولى:
977-5634-05-9
حقوق الطبع محفوظة

صور الغلاف:
أرشيف سنابل للنشر والتوزيع

تصميم وتنفيذ الغلاف:
كامل جرافيك

جابرييل جارثيا ماركيز

أن تعيش لتحكي

ترجمة وتقديم

د. طلعت شاهين

2009

تقديم

لم يتوقع أحد أن يقوم الكاتب الكولومبي، الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام 1982 بكتابة مذكراته الشخصية وإصدارها في كتاب أو عدة كتب؛ لأنه لم يكن معروفاً عنه أنه يميل إلى ذلك النوع من الكتابة، خاصة أنه كان يعلن دائماً أن رواياته هي إعادة لكتابة حياته التي عاشها، وبشكل خاص ذكرياته خلال الطفولة التي عاشها في بيت جده "الكولونيل" السابق في الحرب الأهلية والذي قضى عمره في انتظار رسالة حكومية تشكره على شجاعته، وتكافئه على حُسن بلائه من أجل الوطن بمعاش مالي، يقيه شر الحاجة والفقر الذي كان يعيش فيه في قرية "آراكاتاكا" التي تقع على نهر "ثيناجا" في قلب مزارع الموز الشهيرة، التي كانت تسيطر الشركات الأمريكية من خلالها على مقدرات البلاد، ومن ثم فإنه لا مجال لكتابة مذكرات شخصية؛ لأن تلك المذكرات تتضمنها رواياته التي كتبها طوال حياته منذ إصداره أول مجموعة قصصية قبل نصف قرن من الزمان.

لكن عندما وقف الكاتب أمام الجمهور في مهرجان كبير في المكسيك، عام 2000 ليقرأ صفحات كتبها عن حياته الخاصة، اكتشف أنها عقدت ألسنة الواقفين والجالسين، وكانت الكتابة التي قرأها "جابرييل جارثيا ماركيز" عبارة عن ذكرياته وقت أن كتب روايته التاريخية "الجنرال في مصيدته"، وكيف أن تلك الرواية وليدة لمذكرات الجنرال التي قرأها الكاتب، لكنه أعلن أن هذه الكتابة التي يعتبرها البعض مذكرات شخصية ليست سوى بعض الكتابات التي قرر أن يسجل فيها أشياء خاصة بحياته حسب ترتيبها التاريخي.

وهذا الجزء الأول الذي بدأ بِه جابرييل جارثيا ماركيز مذكراته يقص فيه جزءاً من حياته منذ أن قرر أن يمتهن مهنة الكتابة حتى يتوقف عند عام 1955، أي: عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره.

الجزء الأول من تلك المذكرات، الذي حمل عناوين كثيرة منذ بدء التفكير في الكتابة حتى انتهى به إلى عنوان: "أن تعيش لتحكي"، ظل سراً طوال ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً لم يُصرِّح خلالها الكاتب الكبير أنه يريد أن يقص ما مرَّ به من أحداث، ولكن بعد نجاح قراءة هذا الفصل خرج عن صمته ليصرح أنه عاد ليكتب تلك المذكرات، ولكن كان عليه أن ينفصل عن تاريخه الروائي المعروف، وليبدأ من جديد عملية تعلم الكتابة حتى يستطيع أن يجد الشكل الفني المناسب والمقبول لكتابة مذكراته، كي تصل رسالته إلى القارئ بشكل متميز.

ثم ذكر بعد ذلك في حديث مع بعض القنوات التليفزيونية أن كتابة ذكرياته كانت تحتاج إلى شكل خاص من النثر الفني، ولا تصلح معها الكتابة التي اعتاد ممارستها في أعماله الروائية والقصصية وحتى عند ممارسته مهنة كتابة السيناريو السينمائي التي أجادها وبرع فيها، ومنذ أن قرر كتابة تلك المذكرات ظل يعيش بإحساس طفولته وفترات شبابه الأولى، وهي أحاسيس كانت تواجهه طوال تلك الفترة ويلتقي بها في طريقه أينما ولَّى وجهه، وكان إحساسه أكبر بأهمية كتابة هذه المذكرات عندما كان غارقاً في كتابة روايته "الجنرال في مصيدته" التي اعتمد فيها على تاريخ حياة الجنرال سيمون بوليفار محرر أمريكا اللاتينية من الاستعمار الإسباني، فكان يخرج من عملية كتابة تلك الرواية في بعض الأحيان ليسجل نقاطاً يحتاجها في كتابة مذكراته الشخصية التي كانت تلح عليه.

بعد تلك الرواية عادت إليه أحاسيس الطفولة وفترات الشباب الأولى وأصبح يشعر بالأحاسيس التي كان يشعر بها في تلك الفترات، بل ويشم من حوله

روائح تلك الفترة، لكن تقاطعت مع تلك الفترة رغبته في كتابة الرواية، فترك مذكراته ليبدأ كتابة روايته "الحب وشياطين أخرى"، وعاد أيضاً إلى ممارسة الكتابة الصحافية، فانشغل بالمشاركة في إنشاء قناة إخبارية تلفزيونية في كولومبيا، وأنشأ "مؤسسة الصحافة الجديدة في أمريكا اللاتينية" التي تضم حلقات ومعامل بحث وتطوير لتدريب الصحافيين الشبان في مجموع دول أمريكا اللاتينية، وتبعها انشغاله بالأخطار التي كان يتعرض لها الصحافيون في بلاده على أيدي تجار المخدرات والجماعات المسلحة الأخرى التي تتقاتل في بلاده كولومبيا، فكانت رواية "نبأ اختطاف" الصادرة عام 1996، والتي تعالج واقعة خطف حقيقية.

مارس جابرييل جارثيا ماركيز نشاطاً سياسياً ملحوظاً بعد هذه الرواية في محاولة منه للبحث عن وسيلة تعيد الهدوء والسلام لبلاده التي كانت ولا تزال تعيش أقدم حرب أهلية في العالم، لكن اكتشاف إصابته بالسرطان عام1999 ، جعله يتوقف قليلاً عن هذا النشاط المحموم، فينحصر نشاطه في التنقل ما بين العاصمة المكسيكية التي اتخذ منها مقراً للإقامة الدائمة ومدينة لوس أنجليس الأمريكية، حيث كان يتلقى علاجاً كيماوياً للسرطان، وكانت تلك فترة عصيبة من حياته واجه فيها الموت عدة مرات، على الرغم من بيانات التكذيب الصادرة من المحيطين به لنفي إشاعة إصابته بهذا المرض الخطير.

وربما كان نشره للفصل الأول من مذكراته بشكل منفرد في جريدة الباييس عام 1998كان نوعاً من الرد على من أشاعوا خطورة مرضه، واقتراب لحظات موته، تناول في هذا الفصل ذكريات رحلته الأولى إلى قريته "بارانكيا" لبيع بيت الجد القديم، ودور أمه في تخفيف وقع اتخاذه من مهنة الكتابة حرفة لكسب عيشه على الأب الذي كان يحلم له بمستقبل أكثر بريقاً من تلك المهنة التي لا تجلب سوى الشقاء على من يحترفها.

خلال كتابته لهذا الجزء الأول من مذكراته وصل إلى ما يزيد على تسعمائة صفحة، وهو- بلا شك- عدد كبير من الصفحات يجعل قراءة تلك المذكرات أمراً صعباً، من هنا جاءت مرحلة المعاناة مع الحذف والتخفيف، وإعادة الصياغة التي بدأت عام 2000 لتنتهي عام 2002 بحذف ما يقرب من 300 صفحة من تلك الكتابة، لتصبح تلك المذكرات في 596 صفحة فقط.

خلال كتابة مذكراته، كان جابرييل جارثيا ماركيز يخشى إطلاع أي من أصدقائه على المخطوطة قبل اكتمالها، لكنه لم ينجح في إخفائها على صديقه الحميم الكاتب الكولومبي أيضاً والمقيم في العاصمة المكسيكية أيضاً: "الفارو موتيس" أحد كبار شعراء وروائيي كولومبيا المعاصرين، والحائز على جوائز أدبية عديدة منها جائزة ثرفانتيس، الذي قرأ هذه المذكرات خلال ثمانية أيام متتالية، حيث كان يقرأ فصلاً كل يوم، وليعلن بعدها أن هذا الكتاب ليس فقط مذكرات شخص عاش وخبر الحياة، وإنما هو كتاب يمكن التعامل معه على أنه أحد الكتب المرجعية المهمة في تاريخ الأدب العالمي.

نشْر هذه المذكرات أو اختيار دار نشر لها لم تكن مسألة سهلة، بل كانت مسألة صعبة للغاية، فقد تكالبت دور النشر عليه، وتحوَّل الأمر كما لو كان أقرب إلى عملية مزاد علني، فالكتاب مضمون بيعه ومكاسبه بالتالي مضمونة، وظل الصراع بين دور النشر الكبرى يشتعل لفترة طويلة لينتهي في النهاية إلى دار نشر "موندادوري" التي تُعتبر داراً متوسطة الأهمية، ويرجع ميل المؤلف إلى هذه الدار إلى أنها الدار التي اكتشفته، وغامرت بنشر أعماله الأولى قبل أن تتحدد ملامح الكاتب الذي يمكنه أن يحوز على جائزة نوبل للآداب عام 1982 .

لكن ظل تاريخ نشر الجزء الأول لهذه المذكرات لغزاً بين جابرييل جارثيا ماركيز ودار النشر؛ نظراً لإصرار الكاتب على مراجعة كل صغيرة وكبيرة قبل نشر الكتاب، وحتى يتم تحديد موعد نهائي حدثت مشادات وتراجعات من المؤلف

أحياناً، ومن دار النشر في أحيانٍ أخرى، وأخيراً تقرر أن يكون يوم 10أكتوبر الجاري، وربما لعبت الصدفة أن يكون هذا التاريخ له معنى في حياة شعوب أمريكا اللاتينية، فهو يقع قبل يومين فقط من الاحتفالات التي تقيمها تلك الشعوب لتخليد ذكرى اكتشاف العالم الجديد ودخول اللغة الإسبانية إلى تلك البلاد.

صدرت هذه المذكرات الأسبوع الماضي في طبعة من مليون نسخة تم تقديمها في كل من برشلونة (إسبانيا) وبوجوتا (كولومبيا) وبوينس أيريس (الأرجنتين) ومكسيكو (المكسيك)، في وقت واحد، لتكون أضخم طبعة لكتاب واحد في التاريخ. ولا يعرف أحد ولا الكاتب نفسه عدد الأجزاء التي ستصدر لاحقاً لاستكمال هذه المذكرات، ولكن دار النشر أعلنت أن لديها جزأين آخرين تُعدهما للنشر في وقت لاحق، ويقول البعض: إنه ربما يصل عدد أجزاء هذه المذكرات إلى أكثر من خمسة أجزاء، وهناك من يبالغ ويتوقع أن يصل عدد أجزاء هذه المذكرات إلى ثمانية أو تسعة؛ نظراً لشخصية الكاتب التي عاشت أحداثاً جساماً، وممارسته مهنة الصحافة قبل وبعد حصوله على جائزة نوبل للآداب عام 1982 وتعدد مواهبه التي تنقَّلت به ما بين الريبورتاج الصحفي والقصة القصيرة والرواية والسيناريو السينمائي.

د. طلعت شاهين

(1)

طلبتْ مني أمي أن أرافقها لبيع البيت، كانت قد وصلت هذا الصباح من تلك القرية البعيدة التي تعيش فيها الأسرة، ولم تكن تعرف أين يمكنها أن تعثر عليّ، ويسؤالها بعض الأصدقاء والمعارف هنا وهناك، أشاروا عليها بالبحث عني في المكتبة العامة، أو في المقاهي القريبة من المكتبة، تلك المقاهي التي أذهب إليها يومياً في الواحدة والسادسة مساء للتسلي بالحديث مع الأصدقاء من الكُتَّاب، ومن أخبرها عن مكاني حَذَّرها:

– كوني حذرة في تعاملك معهم، إنهم مجانين.

وصلت أمي في الثانية عشرة تماماً، شقت طريقها مباشرة بين أكوام الكتب المعروضة وهي تسير بمشيتها الخفيفة. وقفت أمامي مباشرة، ونظرت في عيني بابتسامتها الخبيثة المعروفة عنها منذ أيامها الطيبة. وقبل أن أستعيد توازني– قالت لي:

– أنا أمك.

شيء ما تغيَّر فيها لم يجعلني أتعرف عليها منذ الوهلة الأولى، كانت في الخامسة والأربعين من عمرها، ولم نكن قد التقينا منذ أربع سنوات. لو حسبنا المواليد حيث ألقت بأطفالها الأحد عشر إلى العالم، إضافة إلى عشر سنوات من الانتظار ومثلها لتربية أولادها، فإننا نجد أن الشيخوخة أصابتها قبل الأوان. كانت عيناها الواسعتان تحملقان فيّ من خلف عويناتها مزدوجة الزجاج، وكانت ترتدي السواد الكامل الجاد حزناً على موت أمها الذي وقع قبل قليل، لكنها كانت لا تزال تحافظ على ذلك الجمال الروماني الذي بقي كاملاً في صورة زفافها،

وتحوَّل الآن إلى نوع من الجمال الأرستقراطي. قبل كل شيء، وقبل أن تعانقني، قالت لي بطريقتها الرسمية المعروفة عنها دائماً:

– جئت أطلب منك جميلاً، أن ترافقني لبيع البيت.

لم تقل لي أي بيت، ولا أين يوجد هذا البيت، لأنه بالنسبة لنا لم يكن لنا سوى بيت واحد في هذا العالم: بيت الأجداد القديم في "آراكاتاكا"، الذي كان من حظي أن أُولد فيه، والذي خرجت منه بلا عودة قبل أن أكمل الثامنة من عمري. في تلك اللحظة التي جاءت فيها أمي كنتُ قد تركت الدراسة في كلية الحقوق بعد ستة أشهر من بدئها، وقررت التفرغ تماماً للقراءة والكتابة، وأحفظُ عن ظهر قلب أشعار العصر الذهبي الإسباني. قرأتُ جميع الكتب المؤلفة والمترجمة عن تعلُّم فن كتابة الرواية، ونشرتُ أربع قصص في ملاحق الصحف، أثارت تشجيع أصدقائي، ولفتت انتباه بعض النقاد. كنتُ على وشك أن أُكمل الثالثة والعشرين من عمري في الشهر التالي، أصبحتُ متهرباً من أداء الخدمة العسكرية، أدخن ستين سيجارة في اليوم بلا توقف، أوزع أوقات فراغي ما بين "برانكيو" و"كارتاخينا دي انديا س" على شاطئ الكاريبي في كولومبيا. كنت أحاول أن أعيش بكل ما أستطيع من خلال القليل الذي يدفعونه لي ثمناً لما كنت أحرره من أخبار في الصحف، والتي لم تكن تعني شيئاً. كنت أحاول أن أنام على أفضل ما أستطيع في أي مكان يفاجئني فيه الليل، أفعل ذلك ليس حباً في المكان بقدر ما هو قلة ذات اليد، كنت أسبق "الموضة" بعشرين عاماً: شارب كث متوحش، وشعر منفوش، وبنطلون جينز "كاوبوي"، وقمصان مشجرة بزهور كبيرة ملونة، وصندل يشبه صنادل الحجاج الفقراء. سمعت بعض الأصدقاء مرة يتحدثون عني في إحدى صالات السينما المعتمة دون أن يعرفوا أنني كنتُ بالقرب منهم. قالت إحدى الصديقات لرفيقها:

– جابيتو المسكين حالته ميئوس منها.

لذلك عندما طلبتْ مني أمي أن أرافقها لبيع البيت لم أمانع في ذلك. أخبرتني أنها لا تملك مالاً كافياً. وحفاظاً على الكرامة أخبرتها أنني سأتولى مصروفاتي. لم يكن ممكناً الحصول على المال المطلوب من الصحيفة التي كنت أعمل فيها، كانوا يدفعون لي ثلاثة بيزات عن الخبر اليومي، وأربعة عن كتابة الافتتاحية عندما كان يغيب مُحررها، لكنها لم تكن كافية لأعيش منها، حاولت الحصول على قرض، لكن المدير ذكَّرني بأنني مدين بما يزيد على ثمانمائة خبر يومي. يبدو أنني طلبت أكثر مما يجب، لذلك لم يكن أي من أصدقائي قادراً على تلبية طلبي. عند خروجي من مقهى "كولومبيا" الواقعة إلى جوار المكتبة، التقيت بالسيد "رامون فينيس"، الأستاذ وبائع الكتب القطالوني العجوز، وطلبتُ منه عشرة بيزات على سبيل الاقتراض، لكنه لم يكن يملك سوى ستة فقط.

لا أمي ولا أنا كان يمكننا تصور أن تلك الرحلة القصيرة لمدة يومين، كان يمكن أن تكون رحلة حاسمة في حياتي، وحتى أطول حياة يمكن أن أعيشها تجعلني أستطيع أن أسيطر على ذلك التأثير. الآن، وبعد أن بلغت السبعين، أعرف أن تلك الرحلة كانت القرار الأهم من كل القرارات التي اتخذتها طوال حياتي ككاتب، أي في حياتي كلها.

لم أكن قد زرت "آراكاتاكا" منذ أربعة عشر عاماً، منذ أن مات جدي لأمي، وأخذوني لأعيش مع والدي في "بارانكيا". خلال مراهقتي كانت ذاكرتي أكثر وعياً بالمستقبل منه بالماضي؛ ذلك أنه عند هذه الزيارة لم تكن ذكرياتي في القرية قد تمثلتها الذاكرة بعد. كانت الذاكرة تعي القرية كما كانت: مكان طيب للحياة فيه، حيث كل الناس تعرف كل الناس، قريبة من شاطئ نهر ذي مياه هادئة، تهبط من مهد من الحجارة المنحوتة، بيضاء وضخمة، وتشبه بيضاً يعود إلى فترة ما قبل التاريخ. في لحظة غياب الشمس، خاصة في شهر سبتمبر، وبعد لحظات المطر الذي يُحَوِّل الهواء إلي قطع من الماء، كانت جبال "سييرا نيفادا دي سانتا مارتا"

تبدو كما لو كانت تقترب بصدرها الأبيض من مزارع الموز الموجودة على الشاطئ المقابل. من هناك كان يمكن رؤية الهنود الحمر يسيرون في طوابير كالنمل الزاحف على جوانب الجبال، يحملون على ظهورهم أحمال الزنجبيل، ويمضغون كرات الكوكا ليوقفوا مسيرة الحياة. كنا نحن الأطفال نحلم بصنع كرات من الثلوج الأبدية، ونلعب لعبة الحرب على أرض الشوارع الحارقة. فقد كانت الحرارة ثقيلة لا تُحتمل، خاصة في أوقات القيلولة. يشتكي الكبار من الحرارة كما لو لم تكن مفاجأة كل يوم فقط. منذ مولدي وأنا أسمع بلا انقطاع أن خطوط السكك الحديدية ومعسكرات شركة "اتحاد الفاكهة" تمت إقامتها ليلاً؛ لأنه كان من المستحيل الإمساك بالعدد اليدوية الساخنة تحت الشمس.

الطريقة الوحيدة للوصول من "بارانكيو" إلى "آراكاتاكا" هي استخدام قارب بخاري قديم من تلك القوارب التي كانت تسير بقوة دفع تجديف العبيد في زمن الاستعمار الإسباني، يسير في تلك المياه العكرة إلى أن يتم الوصول إلى تلك القرية الغريبة المسماة "ثيناجواس". من هناك يمكن استخدام القطار العادي الذي كان يوماً من أفضل ما يوجد في البلاد، يسير المسافة المتبقية عبر حقول الموز الشاسعة، مسافة تتخللها وقفات في العديد من القرى المتربة الحارقة، أو المحطات المنعزلة. تلك كانت الرحلة التي بدأناها أمي وأنا، في السابعة من مساء شهر فبراير عام 1950 - كان يوم أحد الكرنفال- السماء تمطر ثلجاً على غير العادة، ولم نكن نملك سوى اثنين وثلاثين بيزو، احتفظنا بها تحسباً للعودة إذا لم يتم بيع البيت طبقاً لما خططناه له.

كانت الرياح قوية في تلك الليلة، مما جعلني أبذل مجهوداً كبيراً لإقناع أمي بالصعود إلى القارب البخاري، كانت محقة في رفضها، المركب عبارة عن هياكل مشابهة لتلك المعروفة في "نيو أورليانز"، لكنها تعمل بموتورات جاز تهز أجساد الركاب بشكل عنيف، مُكوَّنة من صالون صغير بخطاطيف لتعليق أسرَّة "الهاماكا"

على مستويات مختلفة، إضافة إلى كراسي من الخشب، على الركاب أن يحاولوا الجلوس عليها كيفما اتفق، إلى جوار حاجياتهم من البضائع وأقفاص الدجاج، وحتى الخنازير الحية. هناك عدة قمرات بسريرين من تلك الأسرَّة التي تشبه أَسرَّة الجنود في المعسكرات، تشغل هذه القمرات بشكل شبه دائم "عاهرات" من أسفل الدرك في تلك المهنة، يقدمن خدماتهن السريعة خلال الرحلة. ولأننا لم نجد قمرة خالية، ولم تكن معنا أَسرَّة متنقلة "هاماكا"، استولينا عنوة على كرسيين من الكراسي الحديدية الموجودة في الممر الرئيسي، وقررنا تمضية الليلة هناك.

كما كنتُ أتوقع، هاجمت العاصفة المركب خلال إبحارها في مياه نهر "المجادلينا"، الذي كانت مياهه في حركتها تشبه مياه المحيط رغم ضيق مجراه. اشتريت في الميناء مؤونتي من أرخص أنواع السجائر، المصنوعة من التبغ الأسود الملفوف في ورق جاف مكرمش، وبدأت في التدخين على الفور على طريقتي في تلك الأيام، إشعال السيجارة من بقايا السيجارة السابقة. أثناء انهماكي في قراءة لرواية "ضوء في أغسطس" لوليم فوكنر، ذلك الكتاب الذي كان أقرب الكتب إلى قلبي؛ أمسكت أمي بمسبحتها وبدأت صلاتها وكأنها تشد إلى يديها طائرة معلقة في الهواء، وكعادتها لم تطلب لنفسها شيئاً، كل أمنياتها طول العمر والصحة والعافية لأبنائها اليتامى الأحد عشر. يبدو أن صلاتها وصلت إلى المكان الذي كانت تتوجه إليه، فالمطر العنيف خَفَّفَ من حدته عندما تعمقنا في مجرى النهر، وهبَّ نسيم خفيف، كان كافياً لإزاحة الذباب. ثم قامت بإخفاء المسبحة، وبقيت لفترة طويلة تتأمل الصمت وعجيج الحياة التي تجري من حولنا.

وُلِدت أمي في بيت متواضع، وشبت على الحياة المرفَّهة لشركة الموز، وهو ما أتاح لها تعليماً رفيعاً في مدرسة خاصة بأبناء الأثرياء في "سانتا مارتا"، وكانت في إجازات أعياد الميلاد تُمارس فن التطريز مع صديقاتها، وتعزف

الأكورديون في الحفلات الخيرية، وكانت تذهب برفقة عمة لها إلى حفلات الرقص التي كانت تقيمها الأرستقراطية المعروفة في ذلك الوقت، لكن لا أحد كان يعرف لها رفيقاً، حتى زواجها الفجائي من عامل التلغراف ضد رغبة والديها. من فضائلها المعروفة: حبها للفكاهة، وصحتها الحديدية التي لم تستطع الأوضاع السيئة للحياة أن تنال منها، لكن الأكثر إدهاشاً محاولتها إخفاء شخصيتها القوية بشكل يثير الإعجاب. إنها مجموعة من التراكيب المكتملة، هذا جعلها تفرض على من حولها سلطة أمومية استطاعت أن تفرضها حتى أبعد الأقرباء منها في العائلة. كانت سلطتها تبدو كتركيب كوكبي تديره من مطبخها الخاص، بصوت خفيض حاد لا يضيع في غليان زهور المريمية.

مشاهدة تَقبُّلها لمتاعب تلك الرحلة المفجعة، يجعلني أتساءل كيف استطاعت الدخول بسرعة في بؤس الفقر والظلم، ولم يكن هناك أفضل من تلك الليلة لامتحان قدرتها العجيبة. ما بين الذباب القاتل والحر الثقيل، والمثير للغثيان بسبب تلك المياه الراكدة التي تقلبها المركب في طريقها، وحركة المسافرين القلقين الذين لم يعجبهم حال الرحلة، كما لو كان كل هذا مُعداً بشكل مسبق لامتحان قدراتها. كانت أمي تحتمل كل هذا ساكنة في كرسيها، فيما كانت فتيات الليل تُمارسن عملهن في قمراتهن القريبة. إحداهن خرجت ودخلت عدة مرات من قمرتها الملتصقة بكرسي أمي، وفي كل مرة تتأبط ذراع رجل مختلف. اعتقدتُ أنها لم تلاحظ هذا، لكنها في المرة الرابعة أو الخامسة التي خرجت ودخلت فيها الفتاة خلال ساعة واحدة، تابعتها أمي بنظرة أسف حتى نهاية الممر، ثم تنهدت:

- مسكينات تلك الفتيات، ما يفعلنه لمواجهة الحياة ألعن من العمل نفسه.

ظللتُ هكذا حتى حلول منتصف الليل عندما تعبتُ من متابعة القراءة بسبب اهتزازات المركب التي لا تُحتمل وأضواء الممر الشاحبة، جلستُ إلى جوارها أدخن، محاولاً عبور الرمال المتحركة لمقاطعة "يوكناباتوافا". كنتُ قد هربتُ من

الجامعة قبل عام مضى، في محاولة لممارسة مهنة الصحافة والأدب دون أن أكون في حاجة إلى دراستهما، شجعني على هذا جملة لـ "برنارد شو" تقول: "منذ صغري توقفت عن الذهاب إلى المدرسة. لم أكن في حاجة إلى مناقشة هذا مع أي شخص؛ لأنني كنت أشعر أنني غير قادر على إقناع الآخرين، وأسبابي لن تكون مفهومة من أي شخص آخر غيري".

محاولة إقناع والدي بقبول مثل هذا الجنون بعد كل الآمال التي وضعوها فيّ، والأموال التي أنفقوها، كان مجرد تضييع للوقت، خاصة أبى، الذي كان على استعداد للتسامح معي في أي شيء، إلا أن أُعلِّق على الحائط أية شهادة أكاديمية لم يستطع هو شخصياً الحصول عليها. العلاقات بيننا انقطعت تماماً. بعد مرور حوالي سنة، حاولتُ أن أزوره لأشرح له أسبابي، لكن أمي عندما ظهرت من جديد طلبت مني أن أرافقها لبيع البيت. مع ذلك، لم تحاول أن تفتح الموضوع معي حتى حلول منتصف الليل، عندما شعرت بشيء غير طبيعي يؤكد أنها وجدتْ الطريق إلى الحديث في السبب الرئيسي لزيارتها لي، وبدأت باكتشافها للطريقة ورنة الصوت والكلمات الموزونة المناسبة، التي نضجت في غفواتها الوحيدة قبل أن تبدأ الرحلة بفترة طويلة. قالت لي:

– أبوك حزين جداً.

حلتْ لحظة مواجهة الجحيم، إنها تبدأ كالمعتاد في اللحظة غير المتوقعة، بصوتها الواثق الذي لا يهتز في مواجهة أي شيء، وسألتها فقط حتى يكتمل الطقس، لأنني كنت أعرف الإجابة مسبقاً:

– لم كل هذا؟

– لأنك تركت الدراسة.

قلت لها:

– لم أتركها، فقط غيَّرت اتجاه الدراسة.

فكرة الدخول في حوار عميق حول الموضوع زادها حماساً، فقالت:

- أبوك يقول إن الأمر سيان.

قلت لها:

- هو أيضاً ترك الدراسة ليعزف على الكمان.

ردت هي بحيوية:

- الأمر مختلف، كان يعزف الكمان فقط في الاحتفالات والأعياد، وإذا كان قد ترك الدراسة ذلك لأنه لم يكن يملك شيئاً، لكنه تعلم التلغراف في أقل من شهر، كانت في ذلك الوقت مهنة ممتازة، خاصة في "آراكاتاكا".

كذبتُ عليها:

- أنا أعيش من الكتابة في الصحف.

قالت هي:

- أنت تقول هذا لتنكد عليّ، لكن سوء أحوالك يبدو واضحاً، عندما التقيتك في المكتبة لم أتعرف عليك.

قلت لها:

- أنا أيضاً لم أتعرف عليكِ.

قالت هي:

- لكن ليس لنفس السبب، اعتقدتُ أنك شحاذ.

نظرتْ إلى الصندل القديم، وأضافت:

- وبلا جوارب.

قلت:

- أكثر راحة، قميصان وقطعتان من الملابس الداخلية، إحداهما أرتديها والأخرى تجف، ماذا أحتاج لأكثر من ذلك؟

قالت هي:

- شيء من الكرامة.

لكن يبدو أنها قالت ذلك دون أن تفكر في معناه، لأنها خفَّفتْ من حدة كلامها على الفور:

– أقول لك هذا لأنني أحبك كثيراً.

قلت لها:

– أعرف ذلك، لكن قولي لي شيئا، لو كنتِ مكاني ألا تفعلين مثلي؟

قالت هي:

– لا أفعل ذلك، لو كان هذا ضد رغبة والدي.

تذكرتُ موقفها المتعنت الذي أجبرت فيه أبويها على قبول زواجها، قلت لها ضاحكاً:

– هل تستطيعين مواجهتي؟

لكنها تحاشت كلامي بجدية؛ لأنها تعرف تماماً ما كنت أفكر فيه. قالت:

– لم أتزوج قبل حصولي على موافقة والدي، كان الأمر صعباً لكنني حصلت على موافقتهما.

قطعتْ النقاش، ليس لأنني استطعت إقناعها، بل لأنها كانت تريد الذهاب إلى المرحاض، وكانت تشك في حالة المرحاض الصحية. تحدثتُ مع قبطان المركب سائلاً إياه عن مكان أفضل لقضاء حاجتها لكنه أفهمني أنه هو نفسه يستعمل المرحاض العام، أنهى حديثه معي كما لو كان انتهى من قراءة "كونراد":

– في البحر الجميع سواء.

وهكذا خضعت أمي لقانون الجميع. عندما خرجت من المرحاض على عكس ما كنت أتوقع، كانت لا تكاد تكتم ضحكاتها، قالت لي:

– تصور، ماذا سيقول أبوك لو عدت بمرض من أمراض هذه الحياة التعسة؟

بعد منتصف الليل حدث لنا تأخير مدته ثلاث ساعات؛ لأن أبواب الدفة علقت بمراوح المركب، وفقد القبطان السيطرة على الدفة، غرست المركب مما دفع العديد

من المسافرين إلى الهبوط لجرها من الشاطئ باستخدام حبال الأسرَّة المعلقة "الهاماكا". كانت درجة الحرارة والأعمدة غير محتملة، لكن أمي تحاشت الأمر بغفوات سريعة من النعاس اللحظي المتقطع، التي أصبحت شهيرة بها في العائلة، والتي كانت تسمح لها بالراحة دون أن تغفل عن الحوار الدائر حولها، عندما عادت المركب إلى سيرها المعتاد، وتحركت نسمات الريح، عادت أمي إلى وعيها الكامل. تنهدت:

– على أي حال، يجب أن أحمل لأبيك إجابة على الأقل.

قلت لها بالبراءة نفسها:

– الأفضل له ألا يشغل نفسه بذلك، سوف أذهب إليه في ديسمبر، وأشرح له الأمر.

قالت هي:

– لا زالت هناك عشرة أشهر.

قلت لها:

– على الأقل لا يمكن عمل أي شيء بالنسبة للجامعة.

– هل تعدني جدياً بالذهاب؟

– أعدك بذلك.

لأول مرة يبدو في صوتها شيء من التشوق:

– هل أستطيع أن أقول لأبيك أنك ستذهب؟

أجبتها مقاطعاً:

– لا، هذا لا.

كان واضحاً أنها تبحث عن مخرج آخر، لكنني لم أمنحها الفرصة.

قالت هي:

– إذن يجب أن أقول له الحقيقة، حتى لا يبدو الأمر خداعاً.

قلت لها:

- حسناً، قولي له الحقيقة.

اتفقنا على ذلك، من لا يعرفها يعتقد أن الأمر انتهى عند هذا الحد، لكنني كنت أعرف أنها مجرد لحظات من الهدنة تلتقط فيها أنفاسها. بعد قليل نامت بعمق، هبت نسمة هواء خفيفة هزت الأعمدة ونشرت هواء معبقاً برائحة الزهور، بعدها اعتدلت المركب، وبدت كما لو كانت مركباً شراعياً.

كنا في نهر "ثيانجا جراندي"، إنها أسطورة أخرى من أساطير طفولتي، سبحتُ فيه عدة مرات، عندما كان يأخذني جدي الكولونيل "نيكولاس ريكاردو ماركيز ميخيا" من "آراكاتاكا" إلى "بارانكيو" لزيارة أبويَّ. قال لي مرة وهو يتحدث عن تقلبات أحوال مياهه: "لا يجب الخوف من نهر ثيانجا، ولكن يجب احترامه"، تبدو مياه النهر أحياناً كمياه بحيرة راكدة، وفي أحيان أخرى تبدو كمياه المحيط. في فصل الأمطار يصبح تحت سيطرة عواصف الجبال، وخلال الأشهر من ديسمبر إلى إبريل، عندما تصبح الرياح قوية، فإنها تهب عليه وتجعل من كل أمسية مغامرة. جدتي لأمي "ترانكيلينا ايجواران" لم تكن تجرؤ على عبوره إلا تحت ضغط إلحاح قضاء حاجة عاجلة، وجاءها هذا الرعب من النهر بعد تلك الرحلة العاصفة التي اضطروا خلالها إلى الاختباء في مدخل النهر حتى الفجر.

لحسن الحظ فإنه في تلك الليلة، خرجتُ عبر نوافذ القمرة قبل الفجر بقليل لتنسم بعض الهواء، كانت أضواء قوارب الصيد الصغيرة تضيء وتنعكس على سطح الماء كالنجوم، كانت كثيرة لا يمكن حصرها، والصيادون الذين يخفيهم الظلام يتحادثون كما لو كانوا في اجتماع عائلي، الأصوات لها رنين قوي يسبح مع نسمات الفجر، ارتكزتُ بكوعي على حافة النافذة، محاولاً تبين شكل الجبال، فاجأتني في تلك اللحظة الذكريات الأولى.

في لحظة مثل هذه، كنا نعبر نهر "ثيناجا جراندي"، كان جدي قد تركني نائماً، وذهب إلى الكانتين، لم أكن أعرف في أية ساعة كنا عندما استيقظتُ على أصوات

لأناس كثيرين تأتيني من خلال فتحات التهوية الصدئة، وقرقعات حوائط صفيح القمرة الصدئة، لم أكن قد بلغت الخامسة من عمري، شعرت بفزع كبير، لكن سرعان ما حل الهدوء، واعتقدت أنني كنت في كابوس. في الصباح كنا في نهاية نهر ثيناجا، كان جدي يحلق ذقنه أمام المرآة المعلقة على الجدار والباب مفتوح، لا زلت أتذكره جيداً: لم يكن قد ارتدى قميصه بعد، لكنه كان يرتدي على ملابسه الداخلية حَمَّالات طلقات الرصاص المطاطية العريضة ذات الخطوط الخضراء. بينما يحلق ذقنه كان يتجاذب الحديث مع رجل آخر لا زلت أذكر ملامحه، ويمكنني أن أتعرف عليه الآن من أول وهلة، كان يشبه الحمل، لا يمكن أن تخطيء العين هيئته، على ذراعه اليمنى وشم لبحار، وفي عنقه عدة سلاسل ذهبية ثقيلة، وفي كلا رسغيه يرتدي أيضاً أساور ذهبية. كنت مرتدياً ملابسي أحاول أن أضع قدمي في الحذاء، عندما قال الرجل لجدي:

– لا تشك في هذا يا كولونيل، ما أرادوه هو إلقاء حضرتك إلى الماء.

ابتسم جدي دون أن يتخلى عن حلاقة ذقنه، وبنغمة معروفة عنه، رد عليه:

– من حسن حظهم أنهم لم يحاولوا فعل ذلك.

عندها فقط فهمتُ ما حدث بالليل، فشعرتُ بالرهبة من فكرة أن يقوم شخص ما بإلقاء جدي في نهر "ثيناجا". أراه الآن بكل التفاصيل الدقيقة، ويبدو أمامي مرفوعاً على الأعناق كما لو كان "سانشو بانثا" في خمَّارة، ومُلقى على جانب النهر، لكن لحظة حدوث الواقعة كانت قد انمحت من ذاكرتي بالكامل، بعد عشرين سنة عادت تلك الذكريات فجأة إلى ذاكرتي بلا سبب، عادت واضحة وكما حدثت، وعندما كنت أتناول الغداء مع عمي "استيبان كاريو" في أحد مطاعم "ريواتشا" في تلك الفترة التي كنت أبيع فيها كتب الموسوعات والوصفات الطبية.. قاطعاً قرى منطقة "جواخيرا"، وكان الجد وقتها قد مات، قصصتُ الواقعة على عمي "استيبان" باعتبارها طرفة، لكنه انتفض في قفزة واحدة، وكان غاضباً؛ لأنني لم

أقص تلك الواقعة عند حدوثها، وكان متشوقاً إلى التعرف على شخصية ذلك الرجل، حتى يمكنه أن يكشف لنا عن شخصية من أرادوا إغراق جدي، ولم يحاول أن يفهم عدم مقاومة جدي لهؤلاء، خاصة أنه كان يُجيد التصويب وإطلاق الرصاص، وكان لا يترك سلاحه أبداً، ينام والمسدس تحت وسادته، إنه خلال حربين أهليتين كان يقاتل دائماً في خطوط النار الأولى، وفي زمن السلم قتل شخصاً دفاعاً عن نفسه، قال لي عمي "استيبان":

– إن الوقت لم يفت بعد بالنسبة له ولأشقائه الكثيرين للانتقام من المعتدين على الجد.

إنه قانون "جواخيرا"، على أي فرد من أسرة المعتدي أن يتحمل وزر ما فعله أقرباؤه، وإنه على جميع رجال أسرة المعتدي أن يتحملوا وزر ما حدث. كان عمي استيبان مُصراًّ على الانتقام، أخرج مسدسه من تحت الوسادة ووضعه على المائدة أمامي لحين الانتهاء من التحقيق معي، منذ تلك اللحظة، عندما كنا نلتقي خلال رحلاتنا في منطقة الكاريبي، يعود لتعنيفي لعدم تذكري تلك الواقعة، وفي إحدى الليالي جاء في زيارة مفاجأة لمكتبي بالصحيفة التي كنت أعمل فيها، في ذلك الوقت الذي كنت أحاول فيه أن أجمع معلومات أولية عن أسرتي لكتابة روايتي الأولى، وعرض عليَّ أن نقوم معا ببحث دقيق عن ملابسات واقعة الاعتداء على جدي. إن عمي لم يتخل عن فكرة الانتقام أبداً، وفي آخر مرة رأيته فيها في "كارتاخينا دي اندياس" وكان قد بلغ أرذل العمر، وقلبه مريض، ودَّعني بابتسامة حزينة قائلاً:

–.لا أفهم كيف استطعت أن تكون كاتباً بتلك الذاكرة السيئة.

ذكرى تلك الواقعة، التي لم تتضح أبداً، فاجأتني في ذلك الفجر الذي كنتُ أتجه فيه مع أمي لبيع البيت. وبينما كنت أتأمل الجليد على قمم الجبال التي تلوَّنت بالأزرق مع أشعة الشمس الأولى، منذ تلك اللحظة وحتى اليوم، أصبحتُ أسيراً للذكريات.

التأخير في تلك الليلة أتاح لي أن أرى في وضوح النهار تلك المساحة الرملية التي تفصل البحر عن نهر "ثيناجا"، حيث كانت تبدو على مرأى البصر بيوت الصيادين التي تنتشر عليها شباك الصيد المعرَّضة للشمس على هذا الجزء من الشاطئ، والأطفال يلعبون الكرة المصنوعة من الخرق. كان المشهد مدهشاً أن أرى العديد من الصيادين يسيرون في الشوارع بأذرع مقطوعة بترها الإهمال في سرعة إلقاء الديناميت. وعندما مرت المركب كان الأطفال يلقون بأنفسهم في النهر، ويغوصون لالتقاط القطع المعدنية التي يلقيها إليهم المسافرون. كانت الساعة قد تعدت الثامنة عندما ألقت المركب بالمسافرين بالقرب من بحيرة راكدة لا تبعد كثيراً عن قرية "ثيناجا". استقبلنا عدد كبير من الحمالين بأربطة ملفوفة على سيقانهم، وحملونا على أكتافهم حتى رصيف الميناء.

بينما كنا نتناول طعام الإفطار ببطء على موائد الميناء، التي يقدمون عليها الخبز المزوج بالموز الأخضر المقلي، استغلت أمي الفرصة لتبدأ شن حملة جديدة في حربها الشخصية ضدي. كانت تجلس إلى جواري، ودون أن ترفع بصرها نحوي عادت لتسألني فجأة:

- إذن قُل لي بكل وضوح، ماذا أقول لأبيك؟

حاولت أن أكسب بعض الوقت قبل أن أجيب على سؤالها:

- عن أي شيء؟

قالت بشيء من العصبية:

- عن الشيء الوحيد الذي يهمه، دراستك.

كان حُسن حظي أن شخصاً أراد التدخل في الحوار خلال تعجلها للتعرف على أسبابي الخاصة، هذا التدخل لم يصبني بالخرس، بل فاجأها هي نفسها، تلك التي كانت تحاول دائماً أن تخفي مشاعرها الخاصة. قلت:

- أريد أن أصبح كاتباً.

قال الرجل بجدية:

- إن كاتباً جيداً يمكنه أن يكسب أموالاً كثيرة، بالطبع إذا عمل لحساب الحكومة.

لا أعرف إن كانت أمي حاولت إنهاء الحديث تجنباً للخصوصية، أم خوفاً من كلام الرجل المتطفل، ولكنهما انتهيا معاً إلى الحديث عن ضياع جيلي وعدم معرفته لما يريد، وانتهيا إلى التحسُّر على الذكريات القديمة، ثم انتهيا إلى التعرف على أسماء لأصدقاء مشتركين، وإذا بهما يكتشفان أنهما أقارب من ناحية أسرة "كوتيس واجواران". وكان هذا يحدث تقريباً بمعدل اثنين من كل ثلاثة أشخاص نلاقيهم في الشاطئ الكاريبي، وكانت أمي تفرح لهذه المناسبة كما لو كان الأمر مناسبة عائلية.

ذهبنا إلى محطة القطارات مستقلين عربة يجرها حصان واحد، ربما كان الحصان الأخير من نوعية خاصة بدأت تنقرض من العالم كله، كانت أمي غارقة في التفكير تتأمل السهل المحترق من تأثير المساحات الملحية التي تمتد من الميناء وتنتهي في الأفق، كان المكان بالنسبة لي تاريخياً: في يوم من الأيام، عندما كنت في الثالثة أو الرابعة من عمري، سحبني جدي من يدي عبر ذلك السهل الحارق سيراً على الأقدام بخطوات سريعة ودون أن يخبرني إلى أي مكان نحن ذاهبون، وفجأة وجدنا أنفسنا أمام أفق من الماء الأخضر المخطط بالزبد الأبيض، وكانت تعوم على سطحه أعداد لا حصر لها من الدجاج الغارق. قال لي:

- إنه البحر.

وأنا في حالة من الغثيان سألته عما يوجد على الطرف الآخر من الشاطئ، ودون أن يشك لحظة، أجابني:

- لا يوجد شاطئ على الطرف الآخر.

اليوم بعد كل ما شاهدته من محيطات يميناً ويساراً لا زلت أعتقد أن إجابته

كانت إحدى أكبر الإجابات التي كان يقدمها لي عن تساؤلاتي.

لا أذكر متى سمعت الحديث عن البحر لأول مرة، ولا أذكر مشهده الذي دخل ذاكرتي من خلال حديث الكبار عنه، وإن كان جدي حاول أن يريني إياه من خلال قاموسه القديم المهتريء، لكنه لم يعثر عليه، وعندما استعاد توازنه أمام سؤال حاول أن يشرحه لي من خلال تعبيرات تستحق التسجيل، قال:

– هناك كلمات لا يحتويها القاموس؛ لأن الناس جميعا تعرف معناها.

لهذا السبب طلب أن يعيروه من مدرسة "سانتا مارتا" قاموساً موسوعياً بصور ملونة، مرسوم عليها المحيط الأطلنطي في كرة أرضية يحملها إنسان على كتفيه. وكان هذا المشهد أول القواميس العديدة التي حصلت عليها في حياتي، وقرأته كما لو كان رواية مقررة على الفصول الابتدائية في المدرسة، تابعت القراءة طبقاً للفهرس الأبجدي ودون أن أفهم منه شيئاً، لكن هناك وجد جدي المعنى الدقيق لكلمة "بحر"، التي لم يستطع الحصول عليها في القاموس الآخر:

– مساحة ضخمة من الماء المالح التي تغطي جزءاً كبيراً من الكرة الأرضية.

إزاء هذه المعاني غير المفهومة بالنسبة لي، ما كان يمكنني أن أفهم معناها لو لم يأخذني جدي ويضعه أمام عيني، لم تكن أي صورة في ذهني تساوي هذا المشهد المرعب، لم يكن بالاستطاعة السير على شاطئه المليء بالبقايا المتعفنة وقطع القواقع. كان المشهد مقززاً.

ربما كانت أمي تفكر في المشهد نفسه وهي ترى نهر "ثيناجا"، ما إن رأته من خلال نافذة العربة حتى تنهدت:

– لا يوجد بحر مثل بحر "ريواتشا".

في هذه الفرصة قصصت عليها ذكرياتي عن الدجاجات الغارقة، وكيف أن الكبار كانوا يعتقدون أنها لم تكن سوى تخيلاتي الطفولية، تابعت هي بعد ذلك المشاهد المتتالية في الطريق، وكنت أعرف ما تفكر فيه عن كل مكان من خلال فترات الصمت المتتالية، مررنا أمام حي "توليرانثيا" في الطريق المقابل لخطوط

السكك الحديدية، ببيوته الصغيرة الملونة ذات الأسقف الصدئة وببغاواتها التي تنادي على الزبائن باللغة البرتغالية من على حلقاتها المعلقة في الأسقف، مررنا أمام موارد تغذية القطارات بالمياه، بخزاناتها المستديرة التي تنتهز الطيور المهاجرة والنوارس التائهة الفرصة لتنام عليها لالتقاط أنفاسها. مررنا أمام البيت الكئيب الذي اغتالوا فيه "مارتينا فونسيكا"، ومررنا حول المدينة دون أن ندخلها، لكننا لاحظنا الشوارع الكبيرة الخالية من المارة، والبيوت القديمة التي فقدت بريقها، كانت من تلك البيوت ذات النوافذ العالية، التي كانت تنطلق منها نغمات التدريب على آلة البيانو منذ مطلع الفجر بلا انقطاع، وفجأة أشارت أمي بإصبعها، وقالت:

– انظر، هناك حيث كان ينتهي العالم.

تابعت أنا إصبعها حيث تشير، رأيت محطة القطارات، كانت مكونة من: مبنى من الخشب الكالح، وسقف زنكي مموج، وشرفات مستديرة، في مواجهة ميدان صغير لا يستطيع أن يحتوي على أكثر من مائتي شخص، هناك– حيث أخبرتني أمي– قتل الجيش عام 1928عدداً غير معلوم من عمال الموز.

فاجأتني المعلومات التي قدمتها لي أمي؛ لأنني كنت دائماً أعتقد أن تلك المذبحة كانت في مكان ما أمام محطة "آراكاتاكا"، ومرات عديدة عندما كنت أرافق جدي لاستقبال القطار أستعيد في خيالي ذكرياتها المرعبة: عسكري يقرأ القرار الذي يعلن أن العمال المضربين ينتمون إلى الجماعات الإرهابية، ويمنح العسكري آلاف الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا ينتظرون تحت الشمس الحارقة مهلة خمس دقائق لإخلاء الميدان، ثم أسمعُ أمر إطلاق النار، وأسمعُ طلقات الرصاص ذات الأزيز، والجمع يسيطر عليه الرعب، ويخلي الميدان شبراً شبراً، بينما المدافع الرشاشة لا تتوقف عن إطلاق النار، أعتقد أن جدي كان على علم بتخيلاتي المزيفة، فقد سألته مرة في محطة "آراكاتاكا":

- أين كانوا يضعون المدافع الرشاشة؟

كان هو يقرأ رسالة تلقاها، ودون أن ينظر إليّ، أشار إلى سقف بعض عربات القطار وقال:

- هناك.

ثم واصل بعدها قراءة الرسالة، ما إن انتهى من قراءتها حتى قام بتمزيقها قطعاً صغيرة ليتأكد أن زوجته لن تقرأها، ثم سألني مندهشاً:

- ما الذي كنت تريد أن تعرفه عن المدافع الرشاشة؟

قدرتي على تصوير بعض الأشياء كما لو كانت أشياء عشتها بنفسي، كانت في طفولتي كبيرة جداً، وهذا سبَّبَ لي الكثير من اختلاط الذاكرة، لكنها لم تكن أبداً مثل تلك التي كنت أعتقد فيها أن المذبحة وقعت في محطة "آراكاتاكا"، مع ذلك، فإن تأكيد أمي لا يقبل الجدل، خاصة بعد أن سألتها عن عدد القتلى، فقد أجابتني بالطريقة نفسها:

- سبعة.

ثم نبهتني على الفور ألا آخذ الرقم على أنه مؤكد؛ لأنه يوم وقوع المذبحة، سمعتْ هي أن عددهم يتعدى المائة، ثم بدأ العدد بعدها يتناقص شيئاً فشيئاً إلى اللاشيء، ولم يعد من ذكرياتي أي شيء قابل للحقيقة سوى أن الجنود أطلقوا النار من على سطح القطار.

رؤية أمي للواقعة كانت تتضمن أعداداً قليلة، والمشهد كان فقيراً مقارنة بالمشهد البطولي الذي تخيلته، وهذا أشعرني بنوع من خيبة الأمل، بعدها تحدثت مع شهود أحياء من تلك الواقعة، وعدت إلى القصاصات الصحافية والوثائق الرسمية، فتأكدت أن الحقيقة كانت مخالفة تماماً لكل الروايات، لكن رواية أمي كانت أقربها إلى الواقع. البعض يقول إنه لم يكن هناك أي قتيل، والذين يعارضون الحكومة كانوا يؤكدون أن القتلى يتعدون المائة، وأنهم شاهدوهم

بأنفسهم ينزفون في الميدان، وأنهم حملوهم في القطار لإلقاء جثثهم في البحر كما لو كانوا موزاً متعفناً. وهكذا ضاعت الحقيقة إلى الأبد بين الروايات المختلفة ما بين النقيضين.

ذكرياتي الكاذبة ظلت تُلح عليَّ حتى أنني أشرت إلى المذبحة في إحدى رواياتي بكل تفاصيلها الدقيقة، والرعب الذي أعتقد أنه سيطر على "آراكاتاكا"، وذلك لأنني لم أستطع أن أضعها في أي من الروايات المختلفة التي توصلت إليها بعد ذلك، وهكذا رفعت عدد القتلى إلى ثلاثة آلاف بدلاً من سبعة، لأحافظ على قيمة الأرقام الدرامية، الحياة الواقعية لم تتركني طويلاً لتقدم لي اعترافها بعبقريتي: منذ قليل في حفل إحياء الذكرى السنوية للمذبحة، طلب المتحدث الوقوف دقيقة حداداً على أرواح الثلاثة آلاف قتيل المجهولين من ضحايا المذبحة الذين قتلتهم قوات الأمن.

كان القطار يصل إلى محطة "ثنياجا" في الثامنة صباحاً، يأخذ المسافرين في المراكب والمسافرين من الجبال، ويواصل طريقه بعد ربع ساعة باتجاه عمق منطقة زراعات الموز، وصلت أنا وأمي إلى المحطة بعد التاسعة صباحاً، لكن القطار لم يكن قد وصل بعد، ومع ذلك كنا المسافرين الوحيدين في المحطة، انتبهت هي إلى ذلك منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيه عربة القطار الخالية، فانطلقت بلهجة مرحة:

- يا لها من رفاهية، القطار كله لنا وحدنا.

كنت أفكر دائماً أنها لهجة كاذبة كانت تحاول من خلالها التمويه على شعورها بالإحباط. مرور الزمن كان واضحاً تماماً على كل كراسي القطار، كانت كراسي الدرجة الثانية القديمة بعد أن تم تحويلها إلى درجة موحدة، بعد أن أزالوا كراسي المامبو وفقدت الشبابيك أبوابها الزجاجية التي كانت ترتفع وتنخفض، وتحولت الكراسي إلى كراسي خشبية من تلك التي يتم قطعها كيفما اتفق على طريقة الفقراء، ومقارنة بالماضي فإن هذا القطار كله يعتبر شبحاً لما كان عليه القطار في

الماضي، كان فيما سبق مُكوَّناً من ثلاث درجات، الدرجة الثالثة كان يسافر فيها الفقراء، كانت عرباتها هي نفسها العربات المكوَّنة من قطع خشبية لتحميل الموز أو الحيوانات، يتم إعدادها بألواح خشبية، الدرجة الثانية كانت كراسيها من المامبو ومُزَيَّنة بالبرونز، الدرجة الأولى، حيث كان يسافر موظفو الحكومة ومديرو شركات الموز، كانت مفروشة بالبسط في الممرات، وكراسيها مكسوة بالقطيفة الحمراء ويمكن تعديل وضعها الرأسي حسب رغبة المسافر. وعندما كان يسافر مفتش الشركة أو أفراد أسرته أو ضيوفه من المقربين، كانوا يضمون إلى العربة الأخيرة عربة خاصة لها شبابيك زجاجية حاجبة للشمس وستائر مذهبة، وكان هناك كرسيان في الهواء الطلق لتناول الشاي أثناء السفر، لا أعرف أي شخص شاهد تلك العربة المدهشة من الداخل، كان جدي في منصب عمدة القرية مرتين وكانت نظرته للمال ممتعة، لكنه كان يسافر في عربات الدرجة الثانية عندما تكون برفقته إحدى سيدات الأسرة، وعندما كنت أسأله لماذا يسافر في عربات الدرجة الثالثة، كان يجيبني: "لأنه لا توجد درجة رابعة"، وما كنت أتذكره عن القطار في تلك الفترة مواعيده المضبوطة. يتم ضبط ساعات القرى على صافرته.

في ذلك اليوم لسبب أو آخر، انطلق من المحطة بتأخير ساعة ونصف، انطلق ببطء شديد وبانطلاقة خفيفة، لكنه سرعان ما عاد إلى طبيعته، قالت أمي:

– هذا القطار ينقصه تزييت عجلاته.

كنا المسافرين الوحيدين، ربما في كل القطار، وحتى تلك اللحظة لم يلفت نظري أي شيء له أهمية خاصة، فغرقت في قراءة رواية "ضوء في أغسطس"، وكنت أدخن بلا انقطاع، ومن لحظة لأخرى ألقي بنظرة سريعة على المناطق التي نمر بها. عَبَر القطار نهر "ثيناجا" بصافرة طويلة، وانطلق بكل قوة خلال ممر صخري، ضجيج العربات لا يُحتمل، لكنه خفف من سرعته بعد خمس عشرة دقيقة، ودخل في سرعة خفيفة بين سهول المزارع الرطبة، أصبح الوقت ثقيلاً بعد

أن ابتعدت نسمات البحر، لم أقطع القراءة لأعرف أننا دخلنا عالم زراعات الموز المغلق.

العالم تغيَّر، من جانب إلى آخر كانت خطوط السكك الحديدية المتقاطعة تمتد في مزارع الموز التي تمتد بلا انقطاع، حيث يمكن مشاهدة العربات التي تجرها الثيران محملة بعناقيد الموز الخضراء. فجأة في منطقة خالية من الزراعة كان يقوم هناك معسكر مبني من الطوب الأحمر اللون، ومكاتب أبوابها وشبابيكها وفتحات تهويتها من الأسلاك، وبها مراوح هوائية معلقة في الأسقف، إنه مستشفى وحيد في الخلاء. كل نهر له قريته وجسره المعدني الذي يعبر عليه، والفتيات يسبحن في المياه الباردة، ويقفزن عند مرور القطار ليجذبن أنظار المسافرين بنهودهن البدائية.

في قرية "ريوفريو" صعدتْ إلى القطار عدة أُسر من الهنود الاروهاكوس محملة بسلال فاكهة "الأجواكتي" الجبلية، التي تعتبر من أجمل فاكهة البلاد. عبروا العربة في قفزات صغيرة بحثاً عن مكان للجلوس، لكن عندما انطلق القطار من جديد بقيت امرأتان بيضاوان إحداهما تحمل طفلاً حديث الولادة، وقس شاب. الطفل لم يتوقف عن البكاء طوال الرحلة، كان القس يرتدي حذاءً عالياً وقبعة، ورداءً كنسياً من الكتان الأملس، وكان يتحدث مع بكاء الطفل، وكان حديثه مرتفعاً دائماً كما لو كان يخطب في الناس، وكان موضوع حديثة إمكانية عودة شركة الموز مرة أخرى. منذ تلك اللحظة لم يتوقف الحديث في المنطقة كلها عن هذا الموضوع، وكانت الآراء منقسمة بين الذين يريدون والذين لا يريدون أن تعود الشركة، لكن الجميع كانوا يعتقدون أن الأمر جاد. كان القس ضد عودة الشركة، أبدى أسبابه الشخصية جداً التي جعلت المرأتين تعتقدان أنها أسباب غير مقبولة على الإطلاق، قال: "الشركة تنشر الفقر حيث توجد"، كان السبب وجيهاً لكنه لم يستطع شرحه أو إقناع الآخرين به، حتى أن المرأة التي تحمل الطفل اعتقدت أن

الله لا يمكنه أن يكون غير موافق على عودة الشركة.

بما أن الحنين يمحو دائماً الذكريات السيئة ويرفع من قيمة الذكريات الطيبة، لذلك فإنه لم ينج أحد من أضراره. يمكن من نافذة القطار رؤية الرجال يجلسون أمام أبواب بيوتهم، ويكفي إلقاء نظرة على وجوههم لمعرفة المستقبل الذي ينتظرهم. والنساء اللاتي يغسلن على الشاطئ يلتفتن إلى القطار بالأمل نفسه. كل غريب يصل القرية بحقيبة رجال الأعمال، يُخيل إليهم أنه ممثل شركة "يونيتد فرويت كومباني" يعود ليحيي الماضي. في كل لقاء وفي كل زيارة وفي كل رسالة تعود الجملة المقدسة: "يقولون إن الشركة ستعود". لا أحد يعرف من الذي قالها، ولا متى ولا لماذا قالها، لكن لا أحد يشك في أنها قيلت.

كانت أمي تعتقد أنها مُحصنة ضد الأحزان؛ لأنها قطعت كل علاقة لها بقريتها "آراكاتاكا" منذ أن مات أبواها، إلا أن أحلامها تخدعها، على الأقل عندما تريد أن تقص أحد أحلامها على مائدة الإفطار، فقد كانت منطقة مزارع الموز عالقة دائماً بأحلامها. استطاعت أن تتخطى أقسى لحظات حياتها دون أن تقرر بيع البيت، في انتظار أن تحصل على أربعة أضعاف ثمنه عندما تعود الشركة إلى نشاطها. وأخيراً انتصرت عليها ضغوط الواقع المرير. لكنها عندما سمعت القس يقول في القطار إن الشركة على وشك أن تعود، انطلقت منها إشارة تدل على فراغ الصبر وقالت لي في أذني:

- خسارة أننا لا نستطيع الانتظار أكثر من ذلك.

بينما كان القس يتحدث، كنا نمر سريعاً على مكان يتجمع فيه عدد كبير من الناس، وفرقة موسيقية تعزف تحت أشعة الشمس الحارقة، كل تلك القرى كانت تبدو لي واحدة، عندما كان يأخذني جدي إلى "سينما أولمبيا" الشهيرة، كانت ألاحظ أن محطات القطارات في أفلام رعاة البقر تشبه كثيراً محطة قطاراتنا، بعد ذلك عندما بدأت أقرأ أعمال فوكنر لاحظت أيضاً أن قُرى رواياته تشبه

قُرانا، ولم يفاجئني أنها بُنيت تنفيذاً لأوامر الشركة المتحدة للفواكه، وعلى الطراز نفسه الذي كانت تُبني به المعسكرات المؤقتة. وكنت أذكَّرُ الجميع بذلك، عدا "آراكاتاكا". كانت الكنيسة في الميدان الرئيسي وبيوتها التي تشبه بيوت قصص الجنيات مدهونة بألوان بدائية، تشبه حظائر الزنوج العبيد في غنائهم تحت أشعة الغروب، وعمال التراحيل الجالسون أمام بيوتها يشاهدون مرور قطارات الشحن الطويلة، كنت أتذكر المدن الخاصة التي يقيمها الأمريكيون في "آراكاتاكا" و"أشبيلية"، على الطرف الآخر من خطوط السكك الحديدية، وقد أحاطت بها الأسيجة المعدنية، وحظائر الدجاج الكهربائية والتي كانت تبدو في صباحات أيام الصيف الرطبة مليئة بالعصافير المحترقة. تذكرت حدائقهم الزرقاء المليئة بالديوك الرومية والسمّان، البيوت ذات الأسقف القرميدية الحمراء، والشبابيك ذات الأسلاك المانعة للحشرات، والموائد الدائرية والكراسي المتحركة المعدة لتناول الطعام في الشرفات المفتوحة، وما بين أشجار النخيل وأشجار الورد. أحياناً ما بين فتحات الأسلاك يمكن رؤية نساء جميلات ونحيلات، يرتدين ملابس شفافة وقبعات ضخمة من الأقمشة الخفيفة، كن يقطعن الزهور في حدائقهن بمقصات ذهبية. وفجأة كما لو كان حلماً سريعاً، في إحدى الأمسيات مر مفتش شركة الموز في شوارع القرية راكباً سيارة فارهة مكشوفة، وإلى جواره امرأة بشعر ذهبي طويل مسترسل يتطاير في الهواء، وكلب "باستور" ألماني يجلس في المقعد الخلفي كملك، كانت مشاهد وقتية سريعة لعالم قديم بعيد الاحتمال يغزونا نحن الأحياء.

في طفولتي لم يكن سهلاً التفرقة بين قرية وأخرى، وبعد عشرين سنة أخرى كان الأمر أكثر صعوبة، لأن العلامات الدالة على المحطات وأسمائها كانت قد تساقطت، أسماء مثل: توكورينكا، ونييرلانديا، وجواكاميال، وما تبقى من قرى أخرى كانت عالقة بغبار الذاكرة.

توقف القطار في "أشبيلية" في حَوالي العاشرة صباحاً لتغيير القاطرة والتزود بالماء، واستغرق ذلك خمس عشرة دقيقة لا تنتهي، لحظتها بدأ الحر، وعندما عاد للانطلاق من جديد كانت القاطرة الجديدة تُلقي بنا من مكان إلى آخر، ولسوء الحظ فإن كمية من غبار الفحم اقتحمت علينا النافذة التي تساقط زجاجها، وغطتنا بسحابة من اللون الأسود، كان القس والمرأتان قد هبطوا في إحدى القرى دون أن ننتبه إليهم، وهذا رسّخ في ذاكرتي أنني وأمي نسافر وحدنا في قطار ينطلق بلا اتجاه محدد، كانت تجلس أمامي تنظر عبر النافذة، كانت قد غفت مرة أو أكثر، لكنها استيقظت فجأة وواجهتني بالسؤال المخِيف:

– إذن، ماذا أقول لأبيك؟

كنتُ أعرف أنها لن تستسلم أبداً، وسوف تظل تبحث عن علة يمكنها من خلالها أن تثنيني عن قراري. عرضت عليّ قبلها العديد من الأشكال التي تعني نوعاً من الالتزام تجاه رغبة والدي، لكني رفضتها جميعاً دون إبداء الأسباب، كنت أعرف أن تراجعها عن محاولاتها لن يطول، والآن تأخذني على غرة في محاولتها الجديدة. استعداداً لمعركة طويلة وخاسرة، قلت لها:

– قولي له إن الشيء الوحيد في هذا العالم الذي أريده هو أن أصبح كاتباً، وسأصبح كاتباً.

قالت:

– هو لا يعترض على أن تكون كاتباً، لكن بعد أن تحصل على شهادتك الجامعية.

كانت تتحدث دون أن تنظر إليَّ، محاولة أن تُبدي لي عدم اهتمامها بحوارنا، وأن اهتمامها منصب على الحياة التي تجري خارج نافذة القطار. قلت لها:

– لماذا تصرين حضرتك على كل هذا، وحضرتك تعرفين تماماً أنني لن أستسلم.

في لحظة خاطفة نظرت إليّ في عيني، وسألتني:

– لماذا في رأيك أنني أعرف أنك لن تستسلم؟

قلت:

– لأنني وحضرتك شبيهان.

توقف القطار في محطة بلا قرية، وبعدها بقليل مر أمام مزرعة الموز الوحيدة التي لا يزال اسمها مكتوباً على البوابة: "ماكوندو". هذه الكلمة لفتت انتباهي بشدة منذ السفرات الأولى برفقة جدي، ولكني عندما كبرت اكتشفت أن حبي لتلك الكلمة يعود إلى جرسها الشعري، لم أسمع هذه الكلمة من قبل، ولم أسأل أحداً عن معناها. رغم أنني استخدمتها اسماً لقرية متخيلة في ثلاث روايات، لكني عرفت مصادفة من خلال إحدى الموسوعات أن هذه الكلمة اسم لشجرة استوائية لا تزهر ولا تثمر، وخشبها الإسفنجي يصلح لصناعة القوارب وأواني المطبخ، بعدها عرفت من خلال الموسوعة البريطانية أن قبائل "الماكوندو" الرحل يعيشون في تنجانيقا، وأعتقد أن المعنى الأصلي لهذه الكلمة ربما يأتي من هناك، لكني لم أشاهد تلك الشجرة أبداً. رغم أنني سألت عنها في منطقة مزارع الموز عدة مرات، ولم أجد من يجيب على سؤالي. ربما أن هذه الشجرة لم تُوجد على الإطلاق.

في الحادية عشرة مر القطار أمام مزرعة "ماكوندو" وبعدها بعشر دقائق وصل إلى "آراكاتاكا". يوم ذهابي مع أمي لبيع البيت وصل القطار متأخراً ساعتين ونصف الساعة. أنا كنت في المرحاض عندما بدأ القطار ينطلق بسرعة أكبر، فدخل من النافذة الزجاجية المحطمة هواء جاف وحار مختلط بغبار العربات القديم وصوت صفارة القاطرة. تزايدت ضربات القلب وشعرت بغثيان يعتريني من الداخل، خرجت مسرعاً يدفعني شيء يشبه الدخان الذي ينطلق لحظة وقوع الزلازل، وجدت أمي في وضعها المعتاد دون أدنى تغير، كانت تذكر بصوت مرتفع

القرى التي تمر عبر النافذة بسرعة كبيرة كما لو كانت جزءاً من تلك الحياة التي ذهبت ولن تعود أبداً، قالت:

- تلك هي الأرض التي حفرها أبى بحثاً عن الذهب ولكنه لم يجد شيئاً.

كان هناك بيت بحديقة وأزهار تنمو على البوابة، وكانت هناك لافتة مكتوب عليها: The sun shine of allوقالت:

- تلك الكلمات كانت أول ما تعلمته من اللغة الإنجليزية.

قلت لها:

- ليست أولها، بل الوحيدة التي تعلمتها.

مر الجسر الأسمنتي بمساقيه ذات المياه العكرة، عندما قام الأمريكيون بتحويل مياه النهر لري مزارع الموز، قالت أمي:

- حي العاهرات، كانت نساؤه ترقصن مع الفتيان وقد أشعلوا أوراق البنكنوت للرقص على ضوئها.

في لحظة خاطفة كان أمامي المشهد الكامل للقرية المضاءة يوم الرابع عشر من فبراير، يمر بشكل خاطف من خلال النافذة، وصرخت أمي:

- إنها المحطة، لقد وصلنا، كم تغيرت الدنيا، لم يعد أحد ينتظر القطار.

كانت القاطرة انتهت قد من صفيرها وخَفَّفتْ من سرعتها، ثم توقفتْ بأنين طويل.

أول ما أثارني هو الصمت المخيم على المحطة، صمت مادي حاد يمكنني أن ألمسه وأميِّزه مغمض العينين عن غيره من أي صمت آخر في العالم، كان الحر ثقيلاً حتى أن الأشياء كانت تبدو كما لو كان يفصلها زجاج مجعد، وعلى أرض الميدان الحجرية لم يعد هناك أثر لضحايا المذبحة الذين سقطوا برصاص قوات الأمن، لم يكن هناك أي شيء يدل على وجود حياة على مرمى البصر، كل شيء مُغطى بشبورة من التراب الحارق. ظلت أمي ساكنة في مقعدها لعدة دقائق،

ناظرة إلى القرية الميتة والممتدة في الشوارع الخالية، وأخيراً صرخت برعب:

- يا إلهي!.

ولم تنطق بأي شيء آخر.

(2)

في اليوم الذي ذهبتُ فيه مع أمي لبيع البيت، تذكرتُ كل ما شدَّ انتباهي خلال طفولتي، لكني لم أكن متأكداً من أن تلك الذكريات كان يمكن أن تعني شيئاً في حياتي لا قبل تلك اللحظات أو بعدها، فلم أكن واعياً أنه خلال الرفاهية الكاذبة لشركة الموز أن زواج أبويَّ كان مكتوباً في سيرة اضمحلال "اراكاتاكا". ومنذ أن بدأت في التذكر، كنت أسمع- في البداية بهمس، وبعد ذلك بصوت مرتفع- تكرار تلك الجملة المشئومة: "يقولون إن الشركة ستصفي أعمالها". لكن يبدو أن أحداً لم يصدق ذلك أو لم يجرؤ على التفكير في نتائجها المريرة.

كانت وجهة نظر أمي تتضمن أرقاماً يسيرة، وكان المكان فقيراً جداً بالنسبة لهول المأساة الرهيبة كما أتذكرها، والتي سببت لي إحساساً بالإحباط. تحدثت بعد ذلك بزمن مع الأحياء وشهود العيان، ونبشت في الصحف والوثائق الرسمية، فتوصلت إلى أن الحقيقة كانت غائبة تماماً، فالقانطون كانوا يقولون إنه لم يسقط موتى في تلك الحادثة، وفي المقابل كان الآخرون يؤكدون دون أدنى شك أن القتلى يفوق عددهم المائة، وإنهم شاهدوا الساحة مخضبة بالدماء، وإنهم حملوهم في قطار مخصص لنقل البضائع ليلقوا بهم في البحر كالموز التالف. وهكذا ظلت حقيقتي الوحيدة ضائعة في مكان ما بين النقيضين، ولكنها ظلت تلح عليّ حتى أنني أشرت إلى المذبحة في إحدى رواياتي بشكل محدد ومرعب تنامى في مخيلتي طوال سنوات. وحتى أحافظ على تأثير المأساة قلت إن عددهم كان ثلاثة آلاف، وجاءت الحياة الواقعية لتؤكد صحة حقيقتي الخاصة: في خلال الاحتفال بذكرى تلك المأساة طلب متحدث في مجلس الشيوخ الوقوف دقيقة حداداً في

ذكرى الثلاثة آلاف من الشهداء المجهولين الذين وقعوا ضحية لقوات النظام.

ضحايا مذبحة عمال الموز كانت القطرة التي فاضت بها المذابح التي سبقتها، بالإضافة إلى أنهم وصفوا زعماءها بأنهم شيوعيون، ربما كان هذا صحيحاً، وعرفت بعدها بسنوات أهم هؤلاء الزعماء الذين قادوا الاحتجاج وهو "إدواردو ماهيتشو" الذي تعرَّفتُ عليه مصادفةً في سجن "بارانكيو". الحديث خلال الأيام التي كنت أرافق فيها أمي لبيع البيت، وتوثقت بيننا الصداقة منذ أن قدَّمت له نفسي على أنني حفيد "نيكولاس ماركيز". وكان هو من أخبرني أن جدي لم يكن محايداً بل كان يلعب دور الوسيط في إضراب عام 1928، وأنه يعتبره رجلاً عادلاً، وأكمل معلوماتي عن فكرتي حول تلك المذبحة، مما جعلني أتوصل إلى إحساس أكثر موضوعية عن القضية الاجتماعية. الخلاف الوحيد في ذكريات الجميع حول تلك المأساة كان في عدد الموتى، وعلى أي حال لن يكون هذا هو الخلاف الوحيد حول وقائع تاريخنا.

اختلاف الروايات الكثيرة كان وراء السبب في ذكرياتي الخاطئة، ومن بينها وأكثرها حضوراً في ذاكرتي: عندما كنت أقف أمام باب بيتنا النمساوي الطراز، حاملاً بندقية لعب أشاهد مرور طابور من الجنود الذين غطاهم العرق، فيما نظر إليّ أحد الضباط الذين يقودون الطابور، وكان يرتدي زي الاستعراض العسكري، حياني بقوله:

– مع السلامة يا كابتن "جابي".

أذكر ذلك بوضوح، لكن ليست هناك أية إمكانية لأن يكون ذلك حدث حقيقة؛ الملابس العسكرية والخوذة والبندقية كان لهم وجود بالفعل، لكن بعد عامين من الإضراب، وبعد أن انتهى وجود القوات الحربية في "اراكاتاكا"، سبَّب لي العديد من تلك الذكريات سمعة سيئة في البيت، باعتبار أنني أدعي تذكري لأحداث وأحلام لم تحدث في الواقع.

كان هذا وضع العالم عندما بدأت أعي بمحيطي العائلي، ولا أستطيع أن أتخيله على نحو آخر: هموم وحنين وتشكك في عزلة بيت ضخم، ظللت طوال سنوات أعتقد أن تلك الفترة تحولت إلى كابوس متكرر في كل الليالي. كنتُ أستقبل الصباح بالرعب نفسه الذي كنت أشعر به عند دخولي غرفة القديسين. خلال المراهقة، كنت في مدرسة داخلية باردة في "الانديز"، أستيقظ في منتصف الليل باكياً. واحتجت إلى هذه الشيخوخة لأفهم أن تعاسة الجدين في بيت "اراكاتاكا" كانت ناتجة عن حياتهم المغلفة بالحنين، وأنها تزيد كلما حاولا التخلص منها.

وببساطة أكثر: أنهما كانا في "اراكاتاكا"، ولكنهما ظلا يعيشان في مقاطعة "باديا"، والتي لا نزال نسميها فقط مقاطعة، دون أي تحديد من أي نوع، وكأنه لا توجد مقاطعة غيرها في العالم. ربما كنا نفعل ذلك دون أدنى تفكير. كانا قد بنيا البيت في "اراكاتاكا" مطابقاً تماماً لبيت "بارانكياس"، ومن نوافذ هذا البيت كان يمكن رؤية المقابر الحزينة على الجانب الآخر من الشارع، حيث كان يرقد جثمان "ميدرادو باتشيكو". كان الجدان محبوبين في "اراكاتاكا" ومُحاطين بالاهتمام، لكن حياتهما كانت محكومة بالحنين إلى الأرض التي ولدا فيها، وتحصنا خلف ذوقهما الخاص ومعتقداتهما وأحكامهما على العالم، وانغلقا ضد كل ما هو مختلف عنهما.

صداقاتهما القريبة إليهما كانت دائماً للقادمين من المقاطعة، كانت لغتهما اليومية هي لغة أجدادهما التي جاءوا بها في القرن الماضي من إسبانيا عبر فنزويلا، وكان يتم خلطها ببعض اللغات المحلية من الكاريبية ولغة العبيد الأفريقية، وبعض المفردات من لغة "الجواخيرا"، التي كانت تدخل قطرة قطرة في لغتنا. كانت جدتي تستخدم هذه اللغة لتوقظني في الصباح دون أن تعرف أنني كنت أفهمها أفضل منها بسبب تعاملاتي المباشرة مع الخدم، ولا زلت أذكر الكثير

من كلماتها: أتتونكيشي، أي يغالبني النعاس، وخاموسايتشي تايا، أي أنا جائع، وايبوتس، أي امرأة حامل، وأرخونا، أي الغريب. وكانت جدتي تستخدم هذه الكلمة الأخيرة أحياناً لتشير بها إلى ذوي الجنسية الإسبانية، وكذلك للإشارة إلى الرجل الأبيض، أو الأعداء بشكل عام. الجواخيريون من ناحيتهم كانوا يتحدثون لغة إسبانية بعيدة عن تشكيلها البراق، تماماً كما كانت تفعل خادمتنا "تشون" بشكل كان يجعل جدتي تحرم عليها الحديث بهذه الطريقة؛ لأن الأشياء كانت تختلط عليها، وكانت تقول لها:

- احتفظي بشفتيك في فمك.

كان اليوم لا يكتمل ما لم تصل أنباء من "بارانكياس" عن اسم مولود جديد، أو عدد الذين قتلهم الثور في حلبة "فونسيكا"، ومن تزوج في "ماناورو"، أو من مات في "ريوأتشا"، وكيف أصبح الجنرال "سوكاراس" الذي كان يعاني سكرات الموت في "سان خوان ديل سيثار". كانوا يبيعون في إدارة شركة الموز الكثير من البضائع بسعر مُغرٍ: تفاح كاليفورنيا المغلف بورق حريري، وكرات الثلج المجمدة، واللحوم الجيليقية المقددة، والزيتون اليوناني، إلا أننا لم نكن نأكل شيئاً في البيت ما لم يكن ممزوجاً بمرق الحنين: تحويج الشوربة لابد وأن يكون من "ريوأتشا"، والذرة التي تُصنع منها فطائر الصباح يجب أن تكون من "فونسيكا"، والماعز يجب أن تكون تربيتها مختلطة بملح "الجواخيرا"، أما السلاحف والجمبري يجب أن تأتي حية من "ديبويا".

لذلك فإن معظم الزائرين الذين يأتون في القطار يومياً من المقاطعة، أو أرسلهم شخص ما من بعيد، يحملون دائماً اللقب نفسه: "آل رياسكو"، و"آل نوجيرا"، و"آل أوبايي"، وفي كثير من الأحيان مختلطون بالعوائل الشهيرة من "آل كوتيس" و"آل إيجواران"، كانوا يأتون خفافاً لا يحملون سوى مخلاة على الكتف، وعلى الرغم من أن زيارتهم كانت تتم دون سابق موعد إلا أنهم يبقون دائماً

لتناول طعام الغداء. لم أنسَ مطلقاً جملة الجدة التي تبدو كما لو كانت طقساً، عندما تدخل المطبخ:

– يجب طبخ جميع الأنواع؛ لأنه لا أحد يعرف ما يحبون من الطعام أو ما يناسبهم منه.

كانت روح الهروب الدائم تلك قائمة على واقع جغرافي، تقوم المقاطعة في شكل عالم مستقل، وتجمعها وحدة ثقافية متماسكة وقديمة، فهي تقع في مفصل جبلي بين "سييرا نيفادا" وجبال "بيرخيا"، في الكاريبي الكولومبي، واتصالها بالعالم الخارجي أسهل من اتصالها بباقي الوطن، وحياتها اليومية تتفق أكثر من واقع جزر "الأنتيل"، نظراً لسهولة الوصول إلى "جامايكا" أو "كوثاو"، ويكاد يخطئها المرء مع فنزويلا، نظراً لحدودها المنفتحة على مستويات وألوان مختلفة. أما من الداخل الذي يكاد ينفصل بهدوئه وحركته البطيئة، كانت تأتي غرائب السلطة: القوانين، والضرائب، والجنود، والأنباء السيئة التي يتم صنعها على ارتفاع ألفي متر وثمانية أيام من الإبحار عبر نهر "ماجدلينا" في مركب بخاري يتم تغذيته بالحطب.

تلك الطبيعة الجزيرية أنجبت ثقافة ساكنة لها شخصية الأجداد الذين نشأوا في "اراكاتاكا". لم تكن مكاناً فقط، كان البيت قرية متكاملة، دائماً ما كانت هناك موائد متعددة للطعام، كانت المائدتان الأولى والثانية مقدستين منذ طفولتي وحتى أكملت ثلاث سنوات من عمري: الكولونيل على رأس المائدة وأنا على جانبه الأيمن، الأماكن الأخرى يجلس على الأولى منها الرجال وتأتي بعد ذلك النساء، منفصلون عن بعضهما البعض دائماً، كان يتم التخلي عن هذه القواعد فقط في مناسبة العيد الوطني يوم 20يوليو، وتظل مائدة الغداء ممتدة حتى يأكل الجميع، أما في الليل فلا تستخدم المائدة، بل يتم توزيع فناجين كبيرة من القهوة بالحليب من المطبخ مباشرة، ومعها حلوى الجدة اللذيذة، وعندما يتم إغلاق الأبواب يقوم

كل فرد بتعليق سرير الحبال في المكان الذي يمكنه النوم فيه، وفي أي مستوى، حتى على أشجار الفناء.

أكبر الاحتفالات وأجملها في تلك الأيام، عشتها في اليوم الذي وصلتْ فيه إلى البيت جماعةٌ من الرجال المتشابهة الملابس والأقمطة وسروج الخيل، وجميعهم بصليب رمادي مرسوم على الجبهة. كانوا الأبناء الذين أنجبهم الكولونيل بطول المقاطعة وعرضها خلال حرب الألف يوم، جاءوا من قراهم لتهنئته بمناسبة عيد ميلاده بعد شهر على الأقل من مروره. قبل وصولهم إلى البيت ذهبوا لسماع قداس الأربعاء الحزين، وكان الصليب الرمادي الذي رسمه القس "أنجاريتا" على جباههم يبدو كعلامة أسطورية ظل سرها خافياً عليّ لسنوات طويلة، على الرغم من فهمي بعد ذلك لمعنى احتفالات الأسبوع المقدس.

معظمهم وُلِد بعد زواج جدي من جدتي، كانت تسجلهم الجدة "مينا" بأسمائهم وألقابهم في كتيب صغير منذ اللحظة التي تعلم فيها بميلادهم، تسجلهم بشكل معقد ينتهي بضمهم إلى تعداد الأسرة، لكن لا هي ولا أحد غيرها تمكَّن من تمييزهم عن بعضهم البعض قبل تلك الزيارة الضاجة والتي كشف كل منهم فيها عن شخصيته المتميزة. كانت تبدو عليهم الجدية وحب العمل، رجال يحبون بيوتهم، رجال مسالمون، لكنهم لم يكونوا ليخشوا فقدان اتزانهم خلال الغناء الجماعي، حطموا الأطباق، ودمروا أشجار الزهور خلال مطاردتهم عجلاً صغيراً لذبحه، وقتلوا الدجاج بطلقات البنادق، وأطلقوا خنزيراً في ممرات البيت، لكن لم يغضب أحد من أفعالهم بسبب السعادة التي نشروها من حولهم.

كنت ألتقي كثيراً بالخال "استيفان كاريو" الشقيق التوأم للخالة "البيرا" والخبير في فنون الأعمال اليدوية، كان يسافر بصندوق يحتوي على أدوات إصلاح أي شيء معطل في البيوت التي كان يزورها. بميله للفكاهة وذاكرته الجيّدة، ساعدني على استكمال الكثير من الفراغات في تاريخ العائلة، والتقيت

كثيراً أيضاً بالخال "نيكولاس جوميث"، الأشقر المليء بالبقع الملونة، والذي حافظ دائماً على سمعته كأفضل بائع بقالة في منطقة المؤسسة القديمة. كان مُعجباً بسمعتي كشخص لا أمل يُرجى منه، كان يودعني بكيس مليء بالأشياء المفيدة لأواصل رحلتي. وكان "رفائيل أرياس" يصل في رحلات سريعة ومتعجلة على ظهر بغلة ويرتدي ملابس الركوب، لا يكاد يبقى حتى يحتسي القهوة واقفاً على قدميه في المطبخ. الآخرون التقيت بهم مبعثرين خلال رحلات الحنين التي قمت بها بعد ذلك في قرى المقاطعة كعلامة على الهوية العائلية.

بعد سنوات من موت الجدين، وهجر البيت الكبير، وصلتُ إلى المؤسسة في القطار الليلي، وجلستُ في المكان الوحيد الذي كان مفتوحاً لتقديم الطعام في المحطة في تلك الساعة، لم يكن هناك الكثير مما يمكن تقديمه، لكن صاحبة المكان أعدت طبقاً محترماً على شرفي، كانت ظريفة وخدومة، ولكن من خلال طباعها الهادئة تبينتُ قوتها كواحدة من النساء القادرات على قيادة عائلة بأكملها. تأكدت من ذلك بعد سنوات: الراهبة الجميلة كانت "سارة نورييجا"، كانت واحدة من خالاتي المجهولات.

أما العبد القديم صغير الحجم "أبولينار" كنت أتذكره دائماً كأحد أخوالي، اختفى من البيت طوال سنوات، وظهر فجأة في إحدى الأمسيات، مرتدياً ملابس الحداد المكونة من بدلة قطيفة سوداء وقبعة ضخمة، كانت سوداء أيضاً، غارقة في رأسه حتى عينيه. عندما مر بالمطبخ قال إنه جاء لحضور الجنازة، لكن لم يفهم كلامه أحد حتى اليوم التالي، عندما وصل نبأ يقول إن الجد مات قبل قليل في "سانتا مارتا"، حيث أخذوه إلى هناك على عجل وفي سرية تامة.

الخال الوحيد الذي كانت له شهرة عامة كان الأكبر بين أخوالي جميعاً، والوحيد الذي كان محافظاً فكرياً، إنه "خوسيه ماريا فالديبلانكيث" الذي وصل إلى عضوية مجلس الشيوخ في الجمهورية خلال حرب الألف يوم، وبحكم منصبه

حضر توقيع استسلام الليبراليين في مزرعة "نييرلانديا" القريبة. في مواجهته كان أبوه يقف بين المهزومين.

أعتقد أن طريقتي في رؤية الأشياء والتفكير أُدين بها في الواقع لنساء العائلة والنساء اللاتي كن يُشَكِّلن الخدم اللاتي سَهرن عليّ في طفولتي، كانت شخصياتهن قوية ولهن قلوب حانية، وكن يعاملنني كما لو كنت أعيش في الجنة الأرضية، من بين الكثيرات اللاتي أذكرهن، كانت "لوثيا" التي فاجأتني بدهائها الصبياني، عندما أخذتني إلى ركن الضفادع ورفعت فستانها حتى وسطها لتريني شعر عانتها. إلا أن ما لفت انتباهي كانت البقعة الصدفية التي تمتد على بطنها كخريطة العالم المرسومة بالكثبان الرملية الحمراء والمحيطات الصفراء. الأخريات كن يحملن صفات الملائكة في صفائها: كن يُغيِّرن ملابسهن في حضوري، كن يغسلنني أثناء اغتسالهن، كن يجلسنني لقضاء حاجتي ويجلسن لقضاء حاجتهن في مواجهتي ليتخلصن من أسرارهن، وأحزانهن، كما لو كنت لا أفهم شيئاً، دون أن ينتبهن إلى أنني كنت أفهم كل شيء، حيث كنت أجمع خيوط الكلام الذي كن يلقينه أمامي.

كانت "تشون" من الخدم، أتوا بها من الشارع، جاءت إلى "بارانكيا" مع الجدين وهي لا تزال طفلة صغيرة، تربت في المطبخ لكنها دخلت في عداد الأسرة، وتم التعامل معها على أنها واحدة منا منذ أن ذهبت إلى المقاطعة مع أمي العاشقة. خلال سنواتها الأخيرة انتقلت تشون للحياة في غرفة بالجزء الأكثر فقراً من القرية، كانت هذه رغبتها، وكانت تعيش من بيع كرات الذرة المثلجة في الشوارع منذ الفجر وحتى غروب الشمس، وكانت تنادي على بضاعتها بطريقة أصبحت شعبية جداً تنطلق في صمت ساعات الفجر الأولى: "مثلجات تشون العجوز".

كانت تحمل الجمال الهندي الخاص، تسير حافية القدمين، على رأسها عمامة بيضاء وترتدي ملابس من القماش الأبيض. تسير ببطء شديد في منتصف الشارع، مُحاطة

بمجموعة من الكلاب الوديعة الصامتة التي تتقدم من حولها في شكل دائرة. تحول موكبها إلى إحدى عادات القرية التقليدية، ظهر في أحد أعياد القرية التنكرية قناع يشبهها تماماً بالقماش الملتف حول جسدها وأغنيتها الشهيرة، وإن فشلوا في تشكيل حراسة من الكلاب مثلها، وصيحتها منادية على كراتها المثلجة تحوَّلت إلى أغنية يعزفها عازفو الأكورديون. في يوم مشئوم هاجم كلبان متوحشان كلابها الوديعة؛ نتج عن ذلك سقوط "تشون" على الأرض، فأصيب عمودها الفقري بكسور أدت إلى وفاتها، على الرغم من المحاولات الطبية التي بذلها جدي.

ذكرى أخرى لها أهميتها في تشكيلي العقلي وهي عملية ولادة "ماتيلدي أرمنتا"، الغسّالة التي كانت تعمل في البيت. عندما كنت في حوالي السادسة من عمري، دخلت غرفتها خطأ فوجدتها عارية وملقاة على سرير من الكتان، وكانت تعوي من الألم بين جماعة من النسوة يحيطن بها بشكل عشوائي. أحطن بجسدها لمساعدتها في عملية الولادة بالصراخ، واحدة تمسح العرق عن وجهها بمنشفة مبللة، وأخريات يمسكن بذراعيها وساقيها بقوة، ويدلكن بطنها للإسراع بالولادة، وكانت "سانتوس فاليرو" هادئة وسط هذه الفوضى، تحوقل بالأدعية بعينين مغمضتين، كما لو كانت تحفر في عضلات النفساء. كانت الحرارة في الغرفة خانقة، والبخار يتصاعد من أواني المياه الساخنة التي يأتين بها من المطبخ. مكثت في أحد الأركان، موزعاً ما بين الخوف وحب الاستطلاع، إلى أن أخرجت الداية قدمين لشيء مكون من لحم حي كعجل صغير، معلق من حبل سري. اكتشفت إحداهن وجودي في الركن، وأخرجتني من الحجرة بالقوة.

قالت لي:

– إنها خطيئة كبرى.

ثم عادت إلى تحذيري:

– انسَ ما شاهدت إلى الأبد.

أما المرأة التي أخذت مني عذريتي لم تكن تقصد أو تعرف أنها فعلت ذلك، كان اسمها "ترينيداد"، ابنة أحد خدم البيت، كان الوقت في بداية أزهار الربيع. كانت في الثالثة عشرة من عمرها وترتدي ملابس لا تكاد تصلح لها في سن التاسعة، كانت ملابس ملتصقة بجسدها فبدت كما لو كانت عارية. كنا وحيدين في إحدى الليالي بالفناء، وفجأة بدأت تعزف موسيقى راقصة تنبعث من البيت المجاور، فطلبت مني "ترينيداد" أن أراقصها باحتضان عنيف قطع أنفاسي، لا أعرف ما كان إحساسها وقتها، لكني لا أزال حتى اليوم أستيقظ في منتصف الليل بفعل إحساسي في تلك اللحظة، وأعرف أنني أستطيع أن أتعرف عليها في الظلام الحالك من خلال ملمس كل بوصة في جسدها وبرائحتها البدائية، في تلك اللحظة شعرت بمدى أهمية جسدي وتفتح وعيي على إحساس لم أكن وعيته أبداً من قبل، وأنني أستطيع أن أتذكره الآن كميتة لذيذة، منذ تلك اللحظة عرفت أنه كان هناك سر حقيقي أو متخيل يمكن الإحساس به وكنت أجهله، لكنه يحيرني كما لو كنت أعرفه من قبل، على عكس نساء العائلة الأخريات اللاتي قدنني باتجاه طريق العفة القاحل.

فقدان العذرية علمني أن هدايا أعياد الميلاد لا يرسلها إلينا الإله المسيح الطفل، لكني احترست حتى لا أكشف تفكيري هذا، وعندما بلغت العاشرة كشف لي أبي هذه الحقيقة كما لو كانت سراً يجب أن يبقى بين اثنين بالغين؛ لأنه كان يعتقد أنني أعرف هذا السر، أخذني معه إلى الحوانيت لاختيار ألعاب إخوتي الصغار، حدث الأمر نفسه عندما شاهدت عملية ولادة "ماتيلدة": كنت أموت من الضحك عندما كانوا يقولون لنا إن الأطفال تأتي بهم طيور "البشاروش" من باريس، لكن عليّ أن أعترف بأنه لا وقتها ولا الآن أربط ما بين الجنس وعملية الولادة. على أي حال فإن حياتي بين الخادمات من الممكن أن تكون الخيط السري الذي ربط تواصلي بالنساء، وجعلني خلال بقية حياتي أشعر بالراحة والطمأنينة

بينهن، هن اللاتي يحافظن على العالم، بينما نحن الرجال نغرقه في الفوضى بجبروتنا التاريخي.

كانت "سارا إيميليا ماركيز" واحدة من اللاتي صنعن مستقبلي دون أن تعرف، كانت مُحاطة بالعديد من العشاق، ولم تكن تعتني بمجرد إلقاء نظرة عليهم، ومنحت قلبها لأول من اعتقدت أنه يستحقها وإلى الأبد، من اختارته كان يشترك مع أبي في بعض الصفات، فقد كان غريباً ولا يعرف أحد من أين جاء ولا كيف جاء ولكن صفحة حياته كانت ناصعة، لكنه لم يكن ليمتلك مصدر دخل معروف، كان اسمه "خوسيه ديل كارمن أوريبي برخيل" وإن كان يوقع أحياناً فقط باسم "خ. ديل. ك". مر زمن قبل أن يعرف أحد أصله الحقيقي، حتى عرفنا صدفة أنه كان يعمل كاتباً لدى بعض موظفي الحكومة، وقصائد الحب التي كان ينشرها في مجلته الثقافية الخاصة، والتي كانت تصدر حسب تساهيل ربنا. أثار إعجابي منذ اللحظة الأولى التي ظهر فيها في البيت بسبب شهرته ككاتب، كان أول كاتب أتعرف عليه في حياتي، ومنذ تلك اللحظة أردت أن أكون كاتباً مثله تماماً، ولم أهدأ حتى تمكنت الخالة ماما من تسريح شعري مثله تماماً.

كنت أنا أول من عرف بأسرار قصة حبها. دخل البيت المقابل لبيتنا بينما كنت ألعب مع أصدقائي، أخذني بعيداً وكانت العصبية بادية عليه، أعطاني رسالة لـ"سارا إميليا"، كنت أعرف أنها كانت جالسة أمام باب بيتنا بصحبة صديقة جاءت لزيارتها. عبرتُ الشارع واختبأت خلف إحدى أشجار اللوز وألقيت الرسالة بدقة بحيث سقطت أمام العتبة، رفعتها بين يديها برعب، لكن صرختها سكنت عندما تعرَّفت على خط المظروف، من حينها أصبحت "سارا" و"خ. ديل. ك." صديقين لي.

أما "ألبيرا كاريو" الشقيقة التوأم للخال "استيبان"، فقد كانت تعصر عود قصب السكر بيديها الاثنتين وتحوله إلى عصير بفضل قوتها التي تشبه قوة

معصرة، كانت لها شهرة بسبب صراحتها القاتلة أكثر من شهرة حنانها تجاه الأطفال وقدرتها على تسليتهم، خاصة أنا وشقيقي "لويس انريكي"، الذي يصغرني بعام واحد، والذي عمدها باسم الختاة "با". كانت تختص الخالة بحل المشاكل المستعصية، كانت وشقيقها "استيبان" أول من وصلا إلى بيت "اراكاتاكا"، لكن بينما وجد هو حياته في كل أنواع المهن اليدوية والتجارة الرابحة، ظلت هي الخالة التي لا غنى عنها دون أن تنتبه إلى السبب في ذلك، كانت تختفي عندما لا يحتاجها أحد، وعندما تكون هناك حاجة إليها لا يعرف أحد من أين أتت، في لحظاتها التعيسة تتحدث مع نفسها بينما تحرك الحلة، وتكشف بصوت عالٍ عن مكان الأشياء التي اعتقدنا أنها فقدت، بقيت وحدها في البيت بعد أن تم دفن الكبار، وبدأت الحشائش تزحف في كل مكان، وتتجول الحيوانات داخل الردهات والغرف.

كانت الخالة "فرانثيسكا سيمودوسيا" جنرال العائلة- ماتت عذراء في التاسعة والستين- تختلف عن الجميع في عاداتها ولغتها، لم تكن ثقافتها من ثقافة مقاطعة الفردوس العائلي لـ"سيمون بوليفار"، التي ينتمي إليها أبوها "خوسيه ماريا ميخيا فيدال"، الذي هاجر منذ شبابه المبكر من "ريواتشا"، تركت شعرها ينمو ويطول ليصل حتى خاصرتها وبقي على سواده حتى تقدمها في السن، كانت تغسله بمياه الورود المختلفة مرة في الأسبوع، وتجلس أمام باب غرفتها تمشطه لساعات عديدة في شكل طقسي مقدس، فيما تدخن بشراهة سيجارة بالمقلوب، النار داخل فمها كما كان يفعل الجنود الليبراليون حتى لا يكتشفهم العدو في ظلام الليل، أيضاً طريقتها في اللبس كانت مختلفة، بفستان من الخيوط الطبيعية وحذاء من القطيفة.

على عكس أصالة الجدة كانت لغة الخالة "ماما" الأكثر انطلاقاً فيما يختص باستخدام الألفاظ الشعبية، لم تكن تخفي ذلك أمام أي شخص ولا تخجل من

الحديث الصريح أمام أي شخص في وجهه، حتى الراهبة، معلمة أمي في داخلية "سانتا مارتا"، التي أوقفتها بعنف بجملة شعبية: "أنتِ من اللاتي لا يعرفن الفارق ما بين المؤخرة والطبلة"، إلا أنها كانت تخرج من المواقف المحرجة دائماً بشكل لا تبدو فيه خارجة عن حدود الأدب.

خلال ما يقرب من نصف حياتها كانت حاملة مفاتيح المقابر، تُوقِّع شهادات الوفاة وتقوم في البيت بعمل قرابين التناول لصلاة الكنيسة، كانت الشخص الوحيد من العائلة من الجنسين التي لا تحمل في قلبها حباً مكلوماً، عرفنا ذلك في ليلة حاول الطبيب أن يدخل فيها منظارا فرفضت هي بجملة لم أفهمها: "أريد أن أحذرك يا دكتور، أنا لم أعرف الرجال أبداً".

منذ تلك اللحظة ظللت أستمع إليها، ولكني لم أشعر أبداً أنها كانت نادمة بل كشيء قائم لم يترك علامة واحدة في حياتها، بالعكس، كانت تحب المتزوجين وكانت تُعد فراش الغرفة لأبويَّ.

أعتقد أنها كانت تتفاهم مع الأطفال أكثر من الكبار، هي التي اعتنت بـ"سارا إميليا" إلى أن انتقلت إلى غرفة الكتب في الحارة، حينها أخذتنا شقيقتي "مارجوت" وأنا مكانها، على الرغم من بقائها على خدمة الجدة كانت تعمل على إعدادي كرجل.

أما أكثر ذكرياتي إقلاقاً فتعود إلى زمن الخالة "بترا"، الشقيقة الكبرى لجدي، تركت "ريواتشا" لتعيش معهم بعد أن أصابها العمى، عاشت في الغرفة المجاورة لغرفة المكتب، التي تحولت بعد ذلك إلى غرفة التطريز، وضعت لنفسها طريقة سحرية للتحرك في البيت دون مساعدة أحد، لا زلت أذكرها كما لو كانت بالأمس، تسير بلا عصا كما لو كانت تستعمل عينيها، بطيئة ولكن بثقة، تتحرك طبقاً للروائح المختلفة، تتعرف على غرفتها من رائحة غرفة التطريز المجاورة لها، وتتعرف على الممرات برائحة ياسمين الحديقة، وغرفة الجدين برائحة

الكحول الذي كانا يدهنان به جسديهما قبل النوم، وغرفة الخالة "ماما" برائحة زيت القناديل، ونهاية الممر برائحة المطبخ القوية، كانت نحيلة وخفيفة الحركة، لجلدها ملمس السوسن، وبشعر مشع وعينين خضراوين يتغير لونهما بتغير الضوء وحالتها النفسية، على أي حال كانت تحركاتها قليلة، فقد كانت تبقى وحيدة تقريبا في غرفتها، أحيانا تغني بصوت منخفض ويشبه صوتها صوت الجدة "مينا"، لكن أغانيها مختلفة وحزينة، سمعت أحدهم يقول إنها أغنيات شعبية من منطقة "ريواتشا"، لكني عرفت فيما بعد أنها كانت تؤلفها خلال غنائها. مرتان أو ثلاث لم أقاوم رغبة الدخول إلى غرفتها دون أن ينتبه أحد إلى ذلك، لكني لم أجدها، بعد ذلك بسنوات وخلال إجازات المدرسة الثانوية، قصصت على أمي تلك الذكريات، إلا أنها حاولت التهرب مني. وكانت تؤكد أن الخالة "بترا" ماتت قبل أن أُكمل العام الثاني من عمري.

بالنسبة للخالة "ويلفريدا" كنا نسميها "نانا" وكانت الأكثر انطلاقاً وظُرفاً في كل العائلة، لكني لا أستطيع أن أتذكرها إلا في سرير مرضها، كانت متزوجة من "رافائيل كينتيرو أورتيجا" – الخال كينتي – محامي فقراء مولود في "تشيا"، على بعد خمسة عشر فرسخاً من العاصمة "بوجوتا"، اعتاد على مناخ الكاريبي بشكل جيد حتى أنه في جحيم "اراكاتاكا" كان يحتاج إلى زجاجات ماء ساخن تحت قدميه لينام في قيظ ديسمبر، لم تكد العائلة تستعيد توازنها من مأساة "ميداردو باتشيكو" حتى قتل الخال "كينتي" محامي منافسيه في إحدى القضايا، كان طيباً ومسالماً، لكن منافسه مارس عليه ضغوطاً ولم يجد طريقة لمواجهته إلا بحمل مسدس. كان الخال صغير الحجم إلى درجة أنه كان يرتدي أحذية أطفال، كان يسخر أصدقاؤه منه؛ لأن المسدس كان يبدو تحت قميصه كما لو كان مدفعاً، حذَّره جدي بجملته الشهيرة: "حضرتك لا تعرف ثقل حمل ميت"، لكن الخال "كينتي" لم يسعفه الوقت للتفكير عندما اعترضه منافسه

بزعيقه أمام غرفة المحاكمة، وهجم عليه بجسده الضخم، قال لي الخال "كينتي" قبل موته بقليل: "لم أنتبه إلى أنني أخرجت المسدس وأطلقت طلقة في الهواء بكلتا يدي وبعينين مغلقتين، عندما فتحت عيني شاهدته واقفاً على قدميه بحجمه الضخم وكان شاحباً، ثم انهار ببطء إلى أن بقي جالساً على الأرض"، حتى تلك اللحظة لم ينتبه الخال "كينتي" إلى أنه أصابه في منتصف الجبهة. سألته عن إحساسه عندما شاهده يسقط، ففاجأني بصراحته:

– أحسست براحة كبيرة!

آخر ذكريات مع زوجته "وليفريدا" كانت في ليلة ممطرة، لم تكن مشعوذة عادية بل امرأة ظريفة، حسنة الهندام وعلى أحدث تقليعة، كانت تطرد الداء من الجسد باستخدام زهور الأورتيجا وهي تغني أغاني الشعوذة كما تغني أغنية مهد، فجأة، انحنت "نانا" بشكل عنيف وخرج طائر بحجم دجاجة من بين الشراشف، أمسكت به المرأة في حركة حاذقة وألقت به في النار. وشفيت "نانا" من دائها.

بعدها بقليل عادت نيران الفناء إلى الاشتعال عندما وضعت دجاجة بيضة سحرية بدت ككرة بنج بونج بطرف يشبه القبعة، وعرفتها جدتي على الفور: "إنها بيضة كنسية"، وألقت بها بنفسها في النار مصحوبة بتلاوات سحرية.

لم أتمكن مطلقاً من تذكر الجدين في عمر آخر غير العمر الذي عرفتهما فيه، فهو نفسه عمر الصور التي التقطوها لهما قبل سن الشيخوخة، والتي انتقلت نُسخ منها إلى جميع أعضاء العائلة عبر أجيال، خاصة الجدة "ترانكيلينا" أكثر النساء شكاً من اللاتي عرفتهن في حياتي، بسبب رعبها من أسرار الحياة اليومية. تحاول التخفيف من السحر الأسود برفع صوتها العجوز بأغنيات الحب، وفجأة تقطع تلك الأغاني بصرخة قتالية:

– بحق مريم العذراء.

كنت أرى "آل مرثيدس" يرتجون بلا سبب، والحمى القرمزية سكنت غرف نومهم، وروائح زهور ياسمين الحديقة تحوم من حولهم كأشباح غامضة، وأي حبل مُلقى على الأرض في شكل رقم ما يصبح رقم اليانصيب الفائز، وأي طائر أعمى دخل البيت خطأً لا يمكن مطاردته إلا بغناء تعاويذ سحرية، يعتقدون أنهم قادرون على فك الرموز السحرية لأبطال الحكايات ومعرفة أماكن الأغنيات التي تأتى من المقاطعة، يتخيلون كوارث قد تقع اليوم أو غداً، يحسون بالقادمين من "ريواتشا" بقبعة بيضاء أو مصابين بمغص أمعاء لا شفاء منه إلا بشربة ديك عجوز. إضافة إلى أنها كانت متنبئة محترفة فإنها كانت مطببة أيضاً.

لها نظام شخصي جداً في تفسير أحلامها الخاصة وأحلام الآخرين التي تحكم سير الحياة اليومية لكل واحد منا، وتحدد مسار الحياة في البيت، مع ذلك كانت على وشك الموت صدفة عندما نزعت بعنف الشراشف عن السرير فانطلق المسدس الذي كان يحتفظ به الكولونيل تحت مخدته؛ فالرصاصة التي انطلقت واصطدمت بالسقف مرت بالقرب من وجهها.

منذ وعيت وأنا أعاني التعذيب اليومي الناتج عن قيام الجدة بتنظيف أسناني، بينما تمتلك هي قدرات سحرية تجعلها تنزع أسنانها وتنظفها خارج فمها، بل وتركها في المياه أثناء نومها. كنت مؤمناً بأن أسنانها الطبيعية التي تنزعها وتضعها بفضل السحر الشعبي، وطلبتُ منها مرة أن تريني فمها لرؤية عينيها مقلوبة من الداخل، وكذلك مخها وأنفها وأذنيها، كانت صدمتي كبيرة عندما لم أرَ سوى حلقها، ولم يحاول أحد أن يكشف لي السر لزمن طويل حتى أنني فكرت في الذهاب إلى طبيب الأسنان ليفعل بأسناني مثلما تفعل الجدة، حتى يمكنها أن تغسل لي أسناني بينما أنا ألعب في الشارع.

كان بيني وبين الجدة إشارات سرية تجعلنا نتواصل مع العالم الخفي، نهاراً، كان عالمها السحري يدهشني، ولكنه يشيع فيّ الرعب ليلاً. الخوف من الظلام،

خوف سابق على وجودنا، ظل يطاردني طوال حياتي في مساراتي الوحيدة، في بيت الجدين لكل قديس غرفة، ولكل غرفة ميت، لكن البيت الوحيد المعروف رسمياً باسم "بيت الموتى" كان البيت المجاور لنا، والميت فيه كان الميت الوحيد الذي كشف عن هويته في جلسة روحية وكان له اسم إنسي: "ألونسو مورا"، شخص قريب منه قرر البحث عنه في دفاتر المواليد والتعميد والموتى، فوجد العديد من الأسماء الشبيهة ولكن لا يوجد من بينها من يمكنه أن يكون ميتنا هذا. كان ذلك البيت مستشفى طوال سنوات، ولكن هناك شائعات تؤكد أن الشبح الخفي لم يكن سوى القس "أنجاريتا" الذي كان يحاول إبعاد الفضوليين الذين كانوا يتلصصون على مغامراته الليلية.

لم يكن لي حظ التعرف على "ميمي" تلك الخادمة الهندية التي جاءت بها العائلة من بارانكيا"، وهربت في ليلة رعدية مع شقيقها المراهق "أليريو"، لكنني كنت أسمعهم دائماً يتحدثون عن تأثير لغتها البدائية في أحاديث أفراد العائلة، ولغتها الإسبانية تشبه لغة الشعراء، ولا ينسون أنها عندما عثرت على علبة كبريت العم "خوان دي ديوس" الضائعة، قدمتها له قائلة بتفاخر:

- أنا هنا علبة الكبريت الخاصة بك.

من الصعب فهم أن الجدة "مينا" والنساء الطيبات المحيطات بها كن سند البيت الاقتصادي، عندما بدأت المصادر المالية العائلية في النضوب. كان لدى الكولونيل بعض الأراضي الزراعية المتفرقة التي يزرعها فلاحون رفض إجلاءهم عنها، وفي لحظة ضيق رهن بيت "اراكاتاكا" لإنقاذ أولاده من الجوع، وكلفت استعادة البيت كنزاً حقيقياً. وعندما لم يعد هناك شيء ظلت الخالة تقيم أود العائلة بخبز الفرن وصناعة الحلوى وبيعها، وبالدجاج البري وبيض البط وخضراوات الفناء الخلفي. تخلت عن جزء كبير من الخدم وبقي منهم من لا يمكن الاستغناء عنهم، وفقدت النقود وجودها في عادات البيت، لذلك عندما اشتروا البيانو لأمي بعد عودتها من المدرسة قامت الخالة بحساب ثمنه بالنقد المنزلي:

- هذا البيانو ثمنه خمسمائة بيضة.

بين كل هذا الجيش النسائي الإنجيلي كان الجد يُشَكِّلُ أمني المطلق. في حضوره يختفي القلق وأشعر أن قدميَّ ثابتتان على أرض الحياة الواقعية، الغريب أنني عندما أفكر في ذلك الآن أكتشف أني وددت أن أكون مثله، واقعي، وشجاع، وواثق، ومع ذلك لم أقاوم مطلقاً حب الاستطلاع الذي تملكني لاستكشاف حياة الجدة، أتذكر جدي ربعة القامة ومتورد، مع قليل من الشيب في رأسه اللامع، وبشارب خشن مشذب بعناية، وعوينات مستديرة بإطار من الذهب، حديثه متقطع، متفهم ومتصالح مع الزمن المسالم. لكن أصدقاءه المحافظين يتذكرونه كعدو مخيف في زمن الحرب.

لم يرتدِ الزي العسكري أبداً؛ لأن درجته كانت ثورية ولم تكن أكاديمية، إلا أنه ظل حتى وقت طويل بعد الحرب يرتدي زي المقاتلين الثوار، والذي كان زياً يستخدمه كل قدامى المحاربين الكاريبيين، وعندما تم توقيع قانون المعاشات للعسكريين قدم بياناته وأوراقه الرسمية ليحصل على معاشه، وظل مع الجدة والأحفاد ينتظرون هذا المعاش حتى وفاتهم، كانت الجدة "ترانكلينا" التي ماتت بعد ذلك بعيدة عن ذلك البيت، عمياء ومقعدة ونصف مجنونة، تقول لي في لحظات وعيها الأخيرة:

- سأموت مطمئنة؛ لأنني أعرف أنكم ستحصلون على معاش نيكولاس.

كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها تلك الكلمات الأسطورية التي زرعت في الأسرة جرثومة الأمل الأبدي: المعاش. دخلت هذه الكلمة البيت قبل مولدي، عندما أعلنت الحكومة عن معاشات لقدامى المحاربين في حرب الألف يوم..استكمل الجد شخصياً ملفه، المليء بالعديد من الشهادات الموثقة والأوراق الداعمة وحمله بنفسه إلى "سانتا مارتا" ليوقع على قرار التسليم، وطبقاً لأقل الحسابات تفاؤلاً كان المعاش أكثر من كافٍ بالنسبة له ولأحفاده حتى الجيل الثاني، كانت تقول لنا الجدة:

- لا تقلقوا، قيمة المعاش ستكفي الجميع.

وتحول البريد الذي لم يكن متعجلاً أبداً بين أفراد العائلة، تحول إلى ما يشبه رسول عناية المقاطعة المقدسة.

أنا نفسي لم أستطع تجاهله، نظراً إلى قلقي حول هذه المسالة، إلا أن الجدة "ترانكيلينا" كانت على نحو قلق لا يتفق مع اسمها الذي يعني الهدوء. خلال حرب الألف يوم عرف جدي السجن في "ريواتشا"، وكان ضابط السجن هو ابن عمها هي، حيث كان ضابطاً في الجيش الحكومي المحافظ، لكن الأقارب الليبراليين وهي نفسها اعتبروا أن وضع الجد في السجن عمل عسكري لا علاقة للقرابة به، لكنها عندما علمت أنهم وضعوا الجد بين المجرمين العاديين أعلنت غضبها على الضابط، واستطاعت أن تخرج الجد من السجن باعتباره ثورياً لا يستحق هذا.

كان عالم الجد مختلفاً، فقد كان حتى سنواته الأخيرة خفيف الحركة، حاملاً حقيبة أدواته من مكان إلى آخر لإصلاح ما يمكن إصلاحه في البيت، أو لرفع المياه إلى الحمام برافعة المياه اليدوية طوال ساعات، أو يصعد السلالم ليتأكد من كمية المياه في الخزانات، في المقابل كان يطلب مني أن أربط له رباط أحذيته؛ لأنه كان يصاب بالتعب عندما يقوم بهذا العمل بنفسه. في أحد الأيام نجا من الموت بمعجزة وذلك عندما حاول الإمساك ببغاء فانزلق وسقط إلى الأرض من ارتفاع أربعة أمتار. لم يصدق أحد أنه عاش بعد هذه السقطة على الرغم من التسعين كيلوجرامات التي يزنها، وأعوامه التي كانت تتعدى الخمسين، لا يمكنني أن أنسى هذا اليوم الذي فحصه فيه الطبيب عارياً في السرير شبراً شبراً، وسأله عن جرح قديم لا يتعدى نصف البوصة، اكتشفه في فخذه، فقال الجد:

- إنه جرح رصاصة خلال الحرب.

لا أزال أذكر تلك اللحظة بحميمية، تماماً كما أذكر اليوم الذي كان يطل فيه إلى الشارع من نافذة مكتبه ليفحص حصاناً معروضاً للبيع، وشعر فجأة أن

إحدى عينيه امتلأت بالماء، وعندما حاول حمايتها بيده بقيت في كفه مياه سائحة، لم يفقد عينه اليمنى فقط بل أن الجدة منعته من شراء الحصان المسكون بالشيطان، فظل يضع على عينه عَصابة كعَصابات القراصنة إلى أن غيَّرها له طبيب العيون بعيونات زجاجية، وطلب منه أن يسير بعصا معدنية تحولت مع مرور الوقت إلى علامة مميزة له، تماماً كساعة جيب الصديرية الذهبية، التي تفتح واجهتها بقفزة موسيقية، كان دائماً رجلاً عاماً ومع تقدمه في العمر لم يتخل عن دوره كمغازل سري وعشيق محبوب.

في حمَّام الصباح الطقسي في السادسة صباحاً، والذي كان يرافقني فيه خلال سنواته الأخيرة، كنا نتبادل إلقاء مياه البركة بكوز وننتهي بإغراق أنفسنا بمياه زهور "لانمان" التي كان يبيعها المهربون في صناديق معلبة، تماماً كالبراندي وقمصان الحرير الصيني. كان يقول إنه العطر الوحيد الذي يستخدمه، لأنه لا يشعر به إلا من يستخدمه، لكنه تراجع عن هذه الفكرة عندما تعرف عليه أحد الأزواج من عطره على مخدة سرير زوجته. قصة أخرى كنت أسمعها خلال سنوات، أنه في إحدى الليالي انقطع النور، فوضع الجد على رأسه زجاجة حبر، معتقداً أنها زجاجة عطره المفضل.

كان الجد يستخدم بنطلونات القطن الخام ذات الشراشيب الكلاسيكية خلال أعماله اليومية في البيت، وأحذية خفيفة وغطاء رأس من القطيفة، أما بالنسبة لقداس الأحد، الذي تخلَّف عنه مرات قليلة في حياته ولأسباب قاهرة، كان يرتدي بدلة كاملة من التيل الأبيض، وياقة بلاستيكية ورباط عنق أسود، تلك المناسبات جعلته مشهوراً بأنه مغفل أو متعجرف، وأنا أعتقد الآن أنه كل البيت، لأن الجد كان موجوداً، زواجه كان زواجاً فريداً مُعبِّراً عن الأسرة الذكورية الأبوية، التي يكون فيها الرجل هو الملك المطلق للبيت؛ فيما تحكم الزوجة البيت؛ أي، كان هو الرجل الرقيق الحنون في السر فيما الزوجة تبذل كل جهدها لتضفي عليه السعادة.

ذهب الجدان في رحلة أخرى إلى "بارانكيا" خلال الاحتفال بالمئوية الأولى لميلاد "سيمون بوليفار" عام 1930، ولحضور ميلاد شقيقتي الصغرى "عايدة روسا"، الرابعة في الترتيب العائلي، عند عودتهما إلى "اراكاتاكا" جاءوا بأختي "مارجوت"، كان عمرها لا يتعدى العام الواحد، فيما بقي مع أبويَّ شقيقي "لويس أنريكي" والمولودة الجديدة، جاءت "مارجوت" إلى البيت كما لو كانت كائناً من عالم آخر، كانت نحيلة جداً، وتحمل عالماً داخلياً مغلقاً، عندما شاهدتها "إبيجاييل" أم "لويس كارميلو" لم تفهم سبب تحمل جدي لهذه المسئولية، وقالت:

- هذه البنت في طريقها إلى الموت.

على أي حال كانوا يقولون ذلك عني أيضاً؛ لأنني كنت قليل الأكل، وأرمش بعيني كثيراً، والأشياء التي كنت أقولها يعتبرونها أكاذيب كبرى، دون أن يفكروا أنها كانت صحيحة في الكثير من تفصيلاتها، وعلمت بعد ذلك بسنوات أن الدكتور "باربوثا" كان الوحيد المدافع عني، معلناً أسباباً علمية بقوله:

- أكاذيب الأطفال علامة على موهبة كبيرة.

مر وقت طويل قبل أن تتطبع "مارجوت" بالحياة العائلية، كانت تجلس في ركن قصي لتمص إصبعها، لم يكن يلفت نظرها أي شيء، عدا جرس الساعة، التي كانت تبحث عنها كل ساعة بعينيها الواسعتين المندهشتين، فشلوا في إقناعها بتناول الطعام خلال أيام عديدة، كانت ترفض الطعام في هدوء، وكانت تلقي به أحياناً في بعض الأركان، لم يفهم أحد كيف كانت لا تزال على قيد الحياة، حتى انتبهوا إلى أنها كانت تحب طين الحديقة الرطب وقطع الكلس التي كانت تنزعها بأظافرها من الجدران، عندما اكتشفت الجدة هذا وضعت روث البقر في أرض الحديقة وخبأت قرون الشطة في أصص النباتات. عمدها الأب "أنجاريتا" في حفل التعميد المتعجل نفسه الذي أقاموه لي. تلقيت تعميدي واقفاً على كرسي وتحملت ببطولة ملح البحر الذي وضعه القس على لساني وكأس الماء الذي دلقه على

رأسي، على عكس "مارجوت" التي رفضت الملح والماء بصراخ وحش جريح، وانتفض جسدها إلى درجة أن المحيطين بها بذلوا جهداً كبيراً للإمساك بها على كرسي التعميد.

أعتقد اليوم أنها في علاقتها بي كانت أكثر تعقلاً من الكبار في علاقاتهم ببعضهم البعض. كانت علاقتنا غريبة جداً إلي درجة أننا في أحيانٍ كثيرة يقرأ كل منا تفكير الآخر، كنت ألعب معها ذات صباح في الحديقة عندما سمعنا صفارة القطار، تماماً مثلما كان يفعل في الحادية عشرة من كل صباح، لكن هذا الصباح شعرت بأن في هذا القطار سيأتي طبيب شركة الموز الذي كان قد حقنني قبل شهور مما سبب لي قيئاً شديداً، جريت بطول البيت وعرضه معلناً وصول الطبيب بصرخات هيستيرية لكن لم يصدقني أحد، عدا شقيقتي "مارجوت" التي ظلت مختبئة معي إلى أن انتهى الطبيب من تناول طعام الغداء وعاد إلى القطار من جديد، وعندما عثرت علينا الجدة صرخت:

– يا للعذراء الطاهرة، مع هؤلاء الأطفال لسنا في حاجة إلى التلغرافات.

لم أستطع التغلب مطلقاً على الخوف من البقاء بمفردي وبشكل خاص في الظلام، لكني أعتقد أن هذا الخوف له أصل محدد؛ لأنني أعيش في الليل تخيلاتي ممتزجة بتشاؤمات الجدة، وأنا الآن في السبعين من عمري لا أزال أرى في الحلم اشتعال روائح الياسمين في الممرات، وأرى أشباح الغرف الغارقة في الظلام مختلطة دائماً بالأحاسيس التي كانت تغرق طفولتي: حرارة الليل. وكثيراً ما شعرت، خلال أرقي المرافق لي في رحلاتي عبر العالم، أنني أتحمل وزر ذلك البيت الأسطوري في عالم سعيد نموت فيه يومياً.

الغريب أن الجدة كانت تحافظ على البيت من خلال حاستها الواقعية، كيف كان ممكناً الحفاظ على ذلك القطار بتلك المصادر الشحيحة؟، الحسابات لا تستقيم، الجد تعلم مهنته كأب من أبيه الذي تعلمه بدوره من أبيه. وعلى الرغم من

أن أسماكه الذهبية التي كان يصنعها بيديه منتشرة في كل مكان، إلا أنها لم تكن حرفة مربحة، إضافة إلى أنني عندما كنت طفلاً كنت أشعر أنه يصنعها ليملأ أوقات فراغه أو يقدمها كهدايا الزواج، إلا أن شهرته كموظف جيد بقيت قوية منذ أن فاز حزبه الليبرالي في الانتخابات، وكان خلال تلك الفترة أمين صندوقه طوال سنوات، وتولى إدارة الضرائب لعدة سنوات.

لا يمكن أن أتخيل نفسي في وسط عائلي مفيد في مهنتي مثل بيت الجنون هذا، وبشكل خاص بسبب ملامح نسائه الكثيرات اللاتي تولين تربيتي. لم يكن هناك من رجال سواي والجد، وتولى هو نقلي إلى طور الرجولة الحزينة من خلال حكاياته عن المعارك الحربية الدموية، إضافة إلى شروح مدرسية حول الطيور وبرق الأمسيات، وشجعني على تنمية موهبة الرسم، كنت في البداية أرسم على الجدران، إلى أن أعلنت النساء انزعاجهن من ذلك، فقد كانت الجدران هي أوراق الرسم التي أمارس عليها هوايتي، فغضب الجد، وأمر بطلاء حائط غرفة الأشغال اليدوية باللون الأبيض واشترى لي أقلاماً ملونة، وبعدها اشترى لي علبة ألوان مائية، حتى أرسم كما يحلو لي، بينما كان يصنع هو أسماكه الذهبية الشهيرة، وسمعته يقول في إحدى المرات إن حفيده سيصبح رساماً، لكن هذا لم يلفت انتباهي؛ لأنني كنت أعتقد أن الرسامين هم من يدهنون الجدران .

من عرفوني في سن الرابعة يقولون إنني كنت شاحباً وشارد الذهن، وإنني ما أن افتح فمي حتى أقول أشياء مزعجة، لكن قصصي لم تكن سوى مقاطع من الحياة اليومية، وأنا كنت أجعلها أكثر جاذبية بإضافة تفصيلات متخيلة ليلتفت الكبار إليّ. كانت محاورات الكبار أمامي ومن حولي أفضل مصادر تخيلاتي؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنني لا أفهمها، أو تلك التي يلغزونها عن قصد حتى لا أفهمها، بينما كنت على عكس كل هذا: أمتصها كالإسفنج وأعيد تفكيكها قطعة قطعة، وعندما أقصها على من قصّوها من قبل كانوا يندهشون من تطابق ما كنت أقوله بما كانوا يقصدونه في محاوراتهم.

كنت أعجز أحياناً عن السيطرة على معرفتي فكنت أموهها بالترميش السريع، إلى درجة أن أحد البارعين من العائلة طلب عرضي على طبيب عيون، الذي عزا ترميش عيني على أنه ناتج عن التهاب اللوزتين، ووصف لي شراب الفجل المخلوط بالنبيذ الذي استمتعت بشربه في حضور الكبار، لكن الجدة من ناحيتها توصلت إلى نتيجة خاصة بها تقول إن حفيدها عرّاف، وهذا جعلها تصبح ضحيتي المفضلة، إلى اليوم الذي أُصيبت فيه بالإغماء لأنني رأيت في منامي طائراً يخرج من فم الجد، فكان الاعتقاد بموت الجد كافياً لكي أخفف من حدة تنبؤاتي. أعتقد الآن أنها لم تكن تهيؤات طفل كما كان يعتقد البعض، بل كان تقنية راوٍ يحاول أن يجعل الواقع مفهوماً وأكثر جمالاً.

كانت خطوتي الأولى في الحياة الواقعية اكتشاف لعب كرة القدم في الشارع أو في أفنية الجيران، كان أستاذي في هذه اللعبة هو "لويس كارميلو كوريا" المولود بموهبة طبيعية لممارسة الرياضة وموهبة فذة في الرياضيات، أنا كنت أكبره بخمسة شهور لكنه كان يسخر مني لأنه كان أكبر حجماً، ويزداد طولاً وأسرع مني، بدأنا اللعب بكرات الشراب، واستطعت أن أكون حارس مرمى ممتاز، لكن عندما بدأنا نلعب بالكرة الحقيقية أُصبت بضربة في بطني من ركلة قوية سددها "لويس"، قضت على تطلعاتي في هذه اللعبة. في اللقاءات التي جرت بيننا بعد أن كبرنا كنت سعيداً لأننا كنا لا نزال نتعامل بالطريقة التي كنا نتعامل بها في طفولتنا. إلا أن أكثر ذكريات تلك الفترة إثارة كان مرور لاعب شهير بقريتنا بدعوة من شركة الموز استضافوه على عربة مكشوفة إلى جوار فتاة شقراء محلولة الشعر وإلى جوارها كلب حراسة ألماني، تلك كانت حادثة غير عادية.

بدأت في التعاون في أداء القداس الكنسي دون اعتقاد حقيقي أو إحساس إيماني، جاء ذلك بعد دعوة الأب "أنجاريتا" لي بعد تعميدي الأول مباشرة عندما

بلغت السادسة، أدخل هذا التعميد تغييرات مهمة في حياتي، علمني الشماس الأكبر كيفية المساعدة في أداء القداس، لكن مشكلتي الوحيدة كانت عدم معرفتي للحظة التي يجب أن أقرع فيها الجرس، فكنت أقرعه كلما عَنَّ لي ذلك، في ثالث مرة، استدار القس ناحيتي وطلب مني بجفاء ألا أقرع الجرس أبداً بعد الآن، أجمل ما في تلك الفترة أنه عندما كنا نبقى وحدنا: المساعد الآخر والشماس وأنا، لترتيب مائدة القداس كنا نلتهم القرابين ونشرب بقايا كأس النبيذ.

قبيل التعميد الأول طلب مني القس الاعتراف بلا ستائر، كان جالساً على كرسي مرتفع يشبه كرسي بابا حقيقي، وأنا راكع أمامه على مخدة من الصوف الاصطناعي، إلا أن القس استقبلني بقاموس من الخطايا، حتى أجيبه عن أيها ارتكبته قبل الاعتراف وأيها لم أرتكبه بعد، أجبته بشكل جيد إلى أن سألني إن كنت فعلت أشياء سرية مع الحيوانات، كانت لدي فكرة مشوشة عن ارتكاب الكبار خطايا مع الحيوانات، لكني لم أفهم أبداً تلك العادات السرية، إلا أنني علمت في تلك الليلة أنه من الممكن ارتكاب تلك الخطايا حتى مع الدجاج أيضاً. لذلك أعتبر أن تعميدي كان درجة جديدة باتجاه فقدان العذرية، لهذا السبب لم أجد ما يدفعني إلى العمل مساعداً للصلوات في الكنيسة.

أول تجربة حقيقة لي بعد ذلك كانت بعد أن رحل أبويَّ إلى "اراكاتاكا" برفقة شقيقي "لويس إنريكي" وشقيقتي "عايدة"، أما أختي "مارجوت" التي لا تكاد تتعرف على أبي، كانت تُصاب بالرعب من رؤيته، وأنا أيضاً كنت أخافه، إلا أنه كان دائماً حريصاً في تعامله معي، فقط خلع حزامه الجلدي مرة واحدة لضربي، إلا أنني وقفت أمامه متحدياً وعضضت على شفتي مستعداً لاحتمال الألم حتى لا أبكي. فأنزل ذراعه، وبدأ يرتدي الحزام من جديد فيما كان يعنفني بالكلام على ما ارتكبت من أفعال. واعترف لي بعد ذلك خلال الحوارات الطويلة التي دارت بيننا بعد أن كبرت، فقال إنه كان يشعر بالألم عندما كان يهم بضربي، ولكنه كان يفعل

ذلك خوفا من اتباعي طريقاً سيئاً، كان ظريفاً جداً في لحظات سعادته، كان يحب إلقاء النكات أثناء تناول الطعام على المائدة، بعض تلك النكات كانت جيدة إلا أنه كان يكررها كثيراً إلى درجة أن شقيقي "لويس إنريكي" وقف مرة وقال:

- أخبروني عندما تنتهون من الضحك.

إلا أن العلقة التاريخية كانت عندما اختفى شقيقي ولم يعثروا عليه لا في بيت والدي ولا في بيت الجدين، وبحثوا عنه في القرية كلها إلى أن عثروا عليه في السينما. كان بائع المرطبات قد باع له مشروباً، واختفى دون أن يدفع الثمن أو يُعيد الكوب، وبائعة الشاندوتشات باعت له بعض الحلوى وشاهدته يتحدث مع بواب السينما، الذي تركه يدخل مجاناً لأنه قال له إن أباه ينتظره في الصالة، كانت السينما تعرض فيلم "داركولا" بطولة "كارلوس فياريا"، و"لوبيتا توفار"، من إخراج "جورج ميلفورد"، وظل "لويس إنريكي" يقص عليّ لسنوات طويلة لحظات الرعب التي عاشها عندما أضيئت أنوار السينما في اللحظة التي أنشب فيها "داركولا" أسنانه في عنق الفتاة الجميلة، ثم شاهد أبى والجد يبحثان عنه يرافقهما صاحب السينما واثنين من رجال البوليس، وكانوا على وشك مغادرة المكان عندما اكتشفه كشاف الصالة في الصف الأخير وأشار إليه قائلاً:

- إنه هناك.

أخرجه أبي بجذبه من شعره، ثم كانت العلقة التي أوجعه بها في البيت حدثاً تاريخياً يمثل جزءاً من تاريخ العائلة، رعبي اختلط بسعادتي من هذا الحدث الذي حاول شقيقي أن يمارس خلاله استقلاليته، إلا أنه كان يشعر بالبطولة كلما مر بحدث مثل هذا، لكن تمرده لم يكن يمارسه عندما لا يكون أبى في البيت.

اختبأت أنا طوال طفولتي في ظل الجد، كنا معاً دائماً، في الصباح في حجرة الأشغال اليدوية أو في مكتب إدارة الضرائب، حيث أوكل إليّ عملاً لذيذاً: رسم شعارات البقرات التي تقرر ذبحها، كنت أُمارس عملي هذا بجدية جعلته يتخلى

لي عن مكانه أمام المكتب، وكنت أجلس معه على رأس المائدة، ساعة الغداء. هو إلى جواره دورق الماء المثلج المصنوع من الألمونيوم، وأنا أمسك بملعقتي الفضية التي كنت أفعل بها كل شيء. كان يلفت الانتباه مد يدي في الدورق لإخراج قطع الثلج، فكانت تعوم على سطح الماء سحابة من الدهن بسبب يدي الملوثتين، وكان جدي يدافع عن فعلي هذا بقوله:

- إنه يتمتع بحق فعل أي شيء.

كنا نخرج في الحادية عشرة ساعة وصول القطار. كان ابنه "خوان دي ديوس" الذي كان يعيش في "سانتا مارتا"، يرسل له رسالة كل يوم مع سائق الرحلة مقابل خمسة سنتات، يجيب عليها جدي برسالة مع قطار العودة تكلفه خمسة سنتات. في المساء، عندما تنخفض الشمس باتجاه الغروب، كان يأخذني من يدي للقيام ببعض المهام الشخصية، نذهب إلى صالون الحلاقة- كانت تلك الزيارة أطول ربع ساعة في طفولتي- أو لرؤية استعراضات الاحتفالات الوطنية التي كانت تصيبني بالرعب، أو لرؤية مواكب الأسبوع المقدس- كانوا يحملون مسيحاً من لحم ودم- كنت ارتدي وقتها طاقية ملونة تشبه الألوان الاسكتلندية، جدي يمتلك واحدة مثلها، اشترتها لي الجدة "مينا" لأكون شبيهاً به، إلى درجة أن الخال "كينتي" كان يرانا كما لو كنا شخصاً واحداً في عمرين مختلفين.

كان جدي يأخذني في أية ساعة من ساعات النهار للتسوق من مركز شركة الموز التجاري، لمست هناك الثلج لأول مرة في حياتي فأصابتني برودته بالرعب، كنت سعيداً بحريتي في أكل كل ما أريد. لكن جلسات لعب الشطرنج التي كان يشارك فيها جدي ذلك المدعو بالبلجيكي كانت تصيبني بالسأم. أعرف الآن أننا خلال جولاتنا تلك، كنا نرى عالمين مختلفين، جدي يرى عالمه في أفقه، وأنا أرى عالمي فقط على مستوى عيني، هو يحيي أصدقاءه في شرفاتهم وأنا أشتاق إلى اللعب المعروضة للبيع على الأرصفة.

في أول ليلة ننام فيها في بيت الأركان الأربعة، كان جدي يتحدث مع السيد "أنطونيو داكونتي" الذي استقبله على باب حانوته المشوش وأنا مندهش من الأشياء الجديدة التي أطل عليها. يصيبني حواة الموالد بالجنون حين يخرجون الأرانب من القبعات، وأكلة اللهب، وعازفو الأكورديون الذين يغنون أحداث المقاطعة بصراخهم، أتذكر الآن أن أحدهم كان عجوزاً جداً وله لحية بيضاء من الممكن أن يكون الشهير "فرانسيسكو أومبرى".

عندما يكون الفيلم مناسباً لي، كان "أنطونيو داكونتي" يدعونا إلى الحفلة المبكرة في صالون "أوليمبيا"، مما كان يثير الجدة التي كانت ترى فيه تحرراً لا يليق بالحفيد البريء، إلا أن الجد كان يطلب مني في اليوم التالي أن أحكي الفيلم أثناء تناول الطعام وكان يذكرني بالأحداث التي أنساها، وإعادة بناء المشاهد الصعبة، كانت كدروس فنون الدراما التي ساعدتني كثيراً فيما بعد، خاصة عندما بدأت في رسم أشرطة رسوم متحركة قبل أن أتعلم الكتابة، التي كانوا يتلقونها بالتحية وإن كنت بدأت أحب تصفيق الكبار لي، لكنها انتهت بإصابتي بالسأم تماماً كما كان يحدث عندما كانوا يطلبون مني غناء مواويل الحب.

كنا نقضي بعض الوقت في ورشة البلجيكي قبل أن تحين ساعة النوم، وهو عجوز ظهر في "أراكاتاكا" بعد الحرب العالمية الأولى ولا أشك في أنه بلجيكي نظراً لنطقه اللغوي الغريب، وحنينه إلى الإبحار. الكائن الحي الآخر في ذلك البيت كان الدنماركي الضخم، كان ثقيل السمع ولوطياً، كان اسمه يشبه اسم الرئيس الأمريكي: "ودرو ويلسون"، عرفت البلجيكي عندما كنت في الرابعة، كان الجد يلعب معه مباريات شطرنج خرساء ولا تنتهي، أدهشني أنه لم يكن في بيته ما لا أعرف أنه يصلح لشيء، كان فناناً في صنع كل ما هو حي وفوضوي: مشاهد بحرية من الحلوى، صور لأطفال يحتفلون بأعياد ميلادهم، ونسخ من الحلي الآسيوية، وتماثيل مصنوعة من قرون البقر، ودواليب من مختلف الأشكال، متراكمة على بعضها.

لفت نظري جلده الملتصق على عظامه، ولونه الذي يشبه لون شعره الشمسي، وتنداح خصلة من الشعر على جبهته، وتمنعه من الحديث أحياناً، يدخن غليوناً من عظم عجل البحر لا يشعله إلا عندما يلعب مباراة شطرنج، وكان جدي يقول إنها شرك يشوش به على خصمه، كانت له عين زجاجية مخلخلة في مكانها، وتبدو كما لو كانت تتابع الجالس أمامه أكثر من العين السليمة، نصفه الأسفل عاجز عن الحركة، يميل بجذعه نحو الجانب الأيسر، لكنه كان يتحرك في ورشته كسمكة في بحر، لم أسمعه يتحدث أبداً عن رحلاته البحرية، التي يبدو أنها كانت كثيرة، هوايته الوحيدة خارج بيته كانت السينما، ولم يكن يتخلف عن مشاهدة أي فيلم من أفلام حفلات نهاية الأسبوع.

لم أحبه مطلقاً، خاصة خلال مباريات الشطرنج التي كان ينتظر فيها ساعات ليحرك إحدى القطع بينما أكاد أموت من النعاس، شاهدته في يوم من الأيام شاحباً جداً حتى أنني توقعت موته في أية لحظة، فشعرت تجاهه بالأسى، ومع مرور الوقت تمنيت له الموت.

في تلك الفترة علّق الجد صورة "سيمون بوليفار" في الغرفة، عانيت كثيراً لأفهم سبب عدم وجوده في الصورة ملفوفاً في كفنه الذي كان فيه في صورته الجنائزية، فقد كان يبدو في الصورة واقفاً خلف مكتب ومرتدياً زيه العسكري خلال أيامه المجيدة، إلا أن جدي أنهى شكوكي بجملة نهائية:

– لقد كان هو المستقبل.

بعدها، أردف بصوت مزغرد لا يكاد يشبه صوته، بقراءة قصيدة عصماء معلقة إلى جوار الصورة، لم يبق منها في ذاكرتي سوى هذا البيت: "أنت، "سانتا مارتا"، كنت مضيافة، وفي حضنك، منحته قطعة من شاطئك البحري ليموت فيها". منذ ذلك الحين، ولسنوات طويلة، ظللت على اعتقادي بأنهم عثروا على "بوليفار" ميتاً على رمال الشاطئ، وكان جدي هو من علمني وطلب مني ألا أنسى

أبداً أن ذلك الرجل كان من أعظم من ولدوا في تاريخ العالم، أصابتني تلك الجملة بالتشوش؛ لتعارضها لجملة قالتها لي الجدة من قبل، فسألت الجد: إن كان "بوليفار" أعظم من المسيح، فأجابني بعدم اقتناع:

- هذا شيء وذاك شيء آخر.

عرفت الآن فقط أن الجدة فرضت على الجد اصطحابي معه في جولاته؛ لأنها كنت تعتقد أنه كان يقوم بها كغطاء لزيارة عشيقات متخيلات، ربما كان صحيحاً أن نزهاته كانت غطاء لمثل تلك الزيارات، لكن في الحقيقة لم يصحبني معه في تلك الزيارات أبداً، إلا أنني لا زلت أذكر أني شاهدت الجد في أحد الأيام صدفة عبر باب بيت لا أعرف صاحبه، كان الجد جالساً كما لو كان هو سيد البيت، لم أفهم لماذا شعرت بأنه من واجبي ألا أجكي هذا على أي شخص، واحتفظت بهذا سراً إلى طلوع شمس اليوم.

كان لجدي أيضاً شرف وضعي أمام أول حرف مكتوب عندما بلغت الخامسة، كان ذلك في أمسية اصطحبني فيها لمشاهدة حيوانات سيرك، كان ينصب خيمة ضخمة في "اراكاتاكا" تشبه الكنيسة، لفت نظري وجود حيوان اجتراري يشبه الأم المرعبة، وقال لي الجد:

- إنه جمل.

عارضه شخص ما كان قريباً منا بقوله:

- معذرة، يا سيدي الكولونيل، إنه هجين.

أستطيع أن أتخيل الآن إحساس الجد لأن شخصاً صحح له معلوماته في حضور الحفيد، لكنه أجاب سريعاً بسؤال معاكس، قائلاً:

- ما الفرق؟

قال الآخر:

- لا أعرف الفارق، لكني متأكد من أن هذا هجين.

لم يكن الجد مثقفاً، ولم يرغب في أن يكون كذلك، هرب من المدرسة الحكومية في "ريواتشا" ليقاتل أثناء الحروب الأهلية الكثيرة المشتعلة في منطقة الكاريبي، لم يعد بعدها إلى الدراسة أبداً، إلا أنه ظل طوال حياته واعياً بفراغ ذهنه من الثقافة، لذلك اكتسب معارف حياتية لتغطية عجزه من هذه الناحية. عاد من أمسية السيرك بإحساس المهزوم ودخل إلى المكتب وطالع القاموس بحماس طفولي، وحينها عرف هو وأنا الفارق بين الهجين والجمل، وأخيراً وضع في أحضاني القاموس قائلاً:

– هذا الكتاب يعرف كل شيء، وأيضاً هو الكتاب الوحيد الذي لا يخطئ.

كان مجلداً ضخماً مزيناً بالرسوم وعلى كعبه تمثال هائل على كل كتف من أكتافه قبة كونية، لم أكن أعرف لا الكتابة ولا القراءة، تخيلت أن الكولونيل كان لديه الحق؛ لأن المجلد يحتوي على ما يقرب من ألفي صفحة من القطع الكبير، محشوة برسوم جميلة. إذا كان كتاب الصلوات الكنسية أدهشني بحجمه، فإن القاموس كان أكبر حجماً، كان هذا الحدث كما لو أنني أطل على العالم أجمع دفعة واحدة، سألت:

– كم كلمة يحتويها؟

أجاب الجد:

– كل الكلمات.

الحقيقة أنني لم أكن وقتها في حاجة إلى الكلمة المكتوبة؛ لأنني كنت أُعبِّر بالرسم عن كل ما يدهشني، عندما كنت في الرابعة رسمت ساحراً يقطع رأس امرأة ثم يعيدها إلى مكانها، كما فعل "ريتشاردين" في صالون سينما "أوليمبيا"، كان الرسم يبدأ بقطع الرقبة بالمنشار، ثم تتلوها صورة التفاخر بالرأس الذي يقطر دماً، وتنتهي بالتصفيق والرأس في مكانه كما كان. الحكايات المصورة تم اختراعها قبلي، ولكني عرفتها فقط من خلال الملحق الملون للصحف الأسبوعية.

حينها بدأت أؤلف حكايات مرسومة بلا حوار، إلا أنه عندما أهداني الجد القاموس أيقظ في داخلي حب الاستطلاع للتعرف على الكلمات حتى أنني قرأته كرواية من خلال التصنيف الأبجدي ودون أن أفهم شيئاً. كانت تلك اللحظة الأولى للاقتراب من الكتاب الذي غيَّر حياتي باتجاه الكتابة.

يحكون على الأطفال حكايات، الهدف منها جذب انتباههم، ويجب بذل جهد كبير ليستمعوا إلى الحكاية الثانية، لكنني أعتقد أن وضع الأطفال الروائيين مختلف، وهذا لم يكن في حالتي فقط، كنت أريد المزيد من الحكايات، نهمي لسماع الحكاية الأولى كان يدفعني إلى انتظار حكاية أفضل في اليوم التالي، خاصة تلك الحكايات التي لها علاقة بأسرار التاريخ المقدس.

كان كل ما يحدث لي في الشارع ينعكس على البيت، نساء البيت يحكين في المطبخ حكاياتي للغرباء القادمين بالقطار، الذين لديهم أشياء أخرى لحكايتها، وكل هذه الحكايات تعود إلى تيار الحكايات الشفهية، بعض الوقائع نعرفها أولاً من خلال عازفي الأكورديون في الموالد، ويعود المسافرون إلى حكايتها من جديد وإثرائها بتفاصيل أخرى، إلا أن الأكثر إدهاشاً في طفولتي، وجدته في الصباح الباكر لأحد أيام الأحد، عندما كنا في طريقنا للقداس، كانت جملة عابرة لجدتي:

- "نيكولاس" المسكين لن يتمكن من اللحاق بالقداس.

فرحت جداً؛ لأن قداس الأحد كان طويلاً جداً على من هم في مثل سني، وأعتقد أن خطب الأب "أنجاريتا" الذي أحببته في طفولتي تبدو كما لو كانت أوامر، لكن فرحتي لم تتم، حيث أخذني الجد إلى ورشة البلجيكي رغم أنفي، بملابسي القطيفية الخضراء التي ارتديتها خصيصاً للقداس، وكانت ضيقة على ساقي. تعرَّف الحراس على الجد من بعيد وفتحوا له الباب بحركات طقسية:

- تفضل يا سيدي الكولونيل.

عندها فقط علمت أن البلجيكي تناول سم السيانور الذهبي، تقاسمه مع كلبه، بعد أن شاهد فيلم "لا جديد على الجبهة"، فيلم "لويس ميلستون" عن رواية "إريك ماريا ريمارك"، الحاسة الشعبية التي تأخذ الحقيقة إلى حيث لا يعتقد أحد، هذه الحقيقة التي فهمها البلجيكي عندما فقد جزءاً من جسده خلال إنزال نورماندي.

كانت صالة الاستقبال مظلمة بسبب النافذة المغلقة، لكن أول أضواء النهار أضاءت الغرفة، حيث كان العمدة ينتظر برفقة اثنين من الحرّاس وصول جدي، كان الجسد هناك مغطى ببطانية وجزءٍ من قماش خيمة عسكرية، وإلى جواره عكازيه، حيث تركهما قبل أن يموت، وعلى مائدة خشبية قريبة منه كانت الزجاجة التي تطاير منها السيانور، وورقة مكتوبة بحروف كبيرة مرسومة بريشة تقول: "لا تتهموا أحداً بموتي، قتلت نفسي، لأنني لست سوى جثة". أنهى الجد الإجراءات الرسمية وإجراءات الجنازة بسرعة، كانت أكثر عشر دقائق مؤثرة في حياتي.

كان هواء الغرفة أول ما أثارني منذ دخولي من الباب، عرفت بعدها بسنوات أنها كانت معبقة برائحة اللوز المر للسيانور الذي تناوله البلجيكي ليموت، لكن هذه الرائحة أو غيرها لم تكن مثيرة كالجسد عندما أزاحه العمدة ليلقي عليه الجد نظرة أخيرة، كان عارياً ومتخشباً وملتوياً على نفسه، وكان جلده خشناً ومغطى بالشعر الأصفر، وعيناه ساكنتان تنظران نحونا كما لو كان حياً. رؤية الموت ظلت تطاردني لسنوات، وأتذكرها كلما مررت إلى جوار مقابر المنتحرين الخالية من الصلبان خارج الجبانة بأمر من الكنيسة، إلا أن أكثر ما أستعيده في ذاكرتي ويُثير فيّ الرعب ليس رؤية الجثة بل الليالي التي أمضيتها في بيته، وربما لهذا السبب قلت لجدي أثناء مغادرتنا البيت:

– البلجيكي بالطبع لن يعود إلى لعب الشطرنج مرة أخرى.

كانت فكرة سهلة، لكن جدي رددها على العائلة كما لو كانت فكرة عبقرية، وقامت النساء بنشرها بحماس شديد، إلى درجة أنني كنت أهرب من الزوار خوفاً

من إجباري على ترديدها أمامهم، كشف لي هذا أيضاً، أن مثل تلك الأفكار أفادتني كثيراً ككاتب: كل واحد يحكي الموقف مع بعض التفاصيل المختلفة عن الحكاية الأصلية، ولا يتخيل أحد مدى إحساسي من وقتها تجاه الأطفال الموهوبين الذين يجبرونهم على الغناء أو تقليد الطيور، وحتى الكذب لجذب اهتمام الضيوف، فهمت اليوم أيضاً أن تلك الجملة البسيطة كانت أول نجاح أدبي أحصل عليه.

هكذا كانت حياتي حتى عام 1932، عندما أعلنوا أن الجيش البيرواني بقيادة الجنرال "لويس ميجيل سانشيث ثيرو" احتل قرية "ليتيثيا" الخالية من الجنود، على نهر الأمازون في أقصى جنوب كولومبيا. كان للنبأ وقع الطبول في كل الوطن، حيث أعلنت الحكومة حالة الاستنفار العام، وفتحت باب التبرع بالحلي والجواهر العائلية، وانتشرت حمى الوطنية بطول البلاد وعرضها، ولم يكن لدى الجباة الوقت لجمع كل التبرعات فتطوع العديد لجمع التبرعات من البيوت، خاصة خواتم الزواج ذات القيمة العاطفية أكثر من قيمتها المادية الحقيقية.

بالنسبة لي كانت تلك الفترة من أكثر الفترات سعادة بسبب الفوضى التي تسببت فيها تلك الحرب؛ حيث تم تحطيم النظام العقيم في المدارس التي تحولت إلى الشوارع وبيت الإبداع الجماهيري، وتم تشكيل جيش مدني من الشباب دون تمييز بين الطبقات والألوان، وتشكيل وحدات نسائية للصليب الأحمر، وتم ارتجال أغنيات عن الحرب والموت أمام العدو الغاصب، وانطلقت صرخة موحدة في كل الوطن: "عاشت كولومبيا، تسقط البيرو".

لم أعرف أبداً كيف انتهت تلك المسألة نظراً لهدوء المسألة بعد مرور بعض الوقت دون تفسير يُذكر، وجاء السلام إثر اغتيال الجنرال "سانشيث ثيرو" على أيدي معارضي حكومته الدموية، وتحولت صرخات الحرب إلى صرخات إعلان الانتصارات في مباريات كرة القدم المدرسية، لكن أبويَّ اللذين تبرعا للحرب بخاتميّ زواجهما لم ترضيهما تلك التسوية.

أعتقد أن موهبتي الموسيقية بدأت تظهر خلال تلك الفترة بتعلقي بعازفي الأكورديون وأغانيهم المرتجلة، كنت أحفظ بعضها عن ظهر قلب، كتلك التي كانت تغنيها الخادمات بصوت خفيض في المطبخ؛ لأن جدتي كانت تعتبرها أغانٍ منحطة، إلا أن تانجو "كارلوس جارديل" كان أول تحقق شخصي لي، كنت أرتدي ملابس تشبهه، وأضع على رأسي قبعة من الفلين، وحول عنقي ملفحة من الحرير، ولم أكن في حاجة إلى أن يلح عليّ أحد لأغني، إلي أن جاء ذلك الصباح الحزين الذي أيقظتني فيه الخالة "ماما بنبأ" وفاة "جارديل" في حادث طائرة بالقرب من مدينة "ميديين" الكولومبية. وكنت قبلها غنيت في حفل خيري أغنيته "المنحدر". وكان نجاحاً منقطع النظير، إلى درجة أن أمي لم تتمكن من معارضتي عندما أعلنت أنني أريد أن أتعلم العزف على البيانو بدلاً من الأكورديون الذي لا تحبه الجدة.

في تلك الليلة نفسها أخذتني أمي إلى الأخوات "تشاباري" ليعلمنني العزف، وبينما كانت تتحدث معهن، كنت أنا أتأمل بولهٍ البيانو من الطرف الآخر من الصالة، وأحاول التوصل إلى حجم المسافة بين ساقي القصيرتين والبدالات، كانت زيارة مفعمة بالآمال الجميلة، لكنها ذهبت هباء؛ لأن المدرِّسات قلن لنا في النهاية إن البيانو معطل، ولا تعرفن متى يأتي الفني لإصلاحه، وتم تأجيل الفكرة، وبعد سنوات عندما ذكَّرتُ أمي بهذه الفكرة وإلى أي مدى كان الألم الذي شعرت به لعدم تحقيقها، تنهدت قائلة:

- الأسوأ من كل هذا أن البيانو لم يكن معطلاً.

حينها عرفت أنها اتفقت معهن على إعلان عطل البيانو لتجنيبي عذاب الدروس التي مرت بها من قبل خلال سنوات المدرسة الخمس، جاء العزاء في فتح مدرسة في "اراكاتاكا" تقوم مدرساتها على تنمية الحواس الخمس من خلال الغناء، كانت مديرتها "روسا إلينا" تقوم بمهمتها بسحر خاص، معها تعلمت تنمية حاسة الشم،

لنشعر بالحنين، وحاسة التذوق التي نميتها إلى درجة أنني تذوَّقت مشروبات لها طعم النافذة، وخبز قديم له طعم الصندوق، ومشروبات ساخنة لها طعم القداس، نظرياً من الصعب فهم تلك الملذات الشخصية، لكن من جربها يفهم هذا على الفور.

لا أعتقد أن هناك منهجاً أفضل من منهج المدرسة المونتسيوريانية لتعليم الأطفال جمال العالم، وإيقاظ حبهم لمعرفة أسرار الحياة، وإن اتهموهم بأنهم يوقظون في الأطفال الاستقلالية والفردية. ربما كان هذا صحيحاً في حالتي أنا لكن الحقيقة أنا فشلت في تعلم القسمة أو الجذر التربيعي، أو التعامل مع الأفكار المجردة. كنا صغاراً حتى أنني لا أكاد أتذكر سوى زميلين من زملاء الدراسة: "خوانيتا ميندوثا" ماتت بالتيفود في عمر السابعة، بعد افتتاح المدرسة بفترة قليلة، وفجعت فيها حتى أنني لا أستطيع أن أنساها بتاجها الأبيض وملابس العرس في جنازتها، الآخر كان "جييرمو أبالدا"، صديقي منذ أول راحة للعب، وطبيبي الحميم لعلاجي من آثار سكرات سهراتي الأسبوعية.

ربما كانت شقيقتي "مارجوت" تعيسة في تلك المدرسة، وإن لم أتذكر أنها قالت ذلك، كانت تجلس في كرسيها بالفصل الأول وتظل صامتة حتى في ساعات اللعب، تنظر إلى نقطة غير محددة حتى تسمع جرس نهاية اليوم الدراسي. لم أعرف مطلقاً أنها كانت تمضغ في الدرس طيناً من حديقتنا تحمله معها في جيب مريلتها.

واجهت صعوبة كبيرة في تعلم القراءة، لم أكن أعتقد أنه من المنطقي أن ننطق حرف "الميم" على أنه "ما"، ولا منطقية ربط هذا الحرف بالحرف المتحرك التالي له دون أن يتغير نطقه، وعندما دخلت المدرسة لم يعلمني المدرس الأسماء بل علمني أصوات الأحرف الساكنة، وبعدها تمكنت من قراءة أول كتاب عثرت عليه مترباً في مخزن بيتنا، كان مفرّد الأوراق إلا أنه سحرني إلى درجة أن خطيب خالتي

"سارا" عندما رآني أطالعه قفز صارخاً:

- "يا الله، لدينا طفل سيصبح كاتباً".

وكما قال فأنا أعيش من الكتابة. أدهشني الكتاب جداً، ومرت سنوات طويلة قبل أن أعرف أن هذا الكتاب هو جزء من "ألف ليلة وليلة"، وأكثر حكاياته التي أعجبتني كانت حكاية قصيرة جداً وبسيطة جداً لا أزال أعتقد أنها أجمل حكاية مكتوبة، تقول: "إن صياداً وعد جارته أن يهديها أول سمكة يخرجها من البحر، وعندما فتحت المرأة بطن السمكة عثرت على ماسة بحجم اللوزة".

ربطت دائماً بين الحرب مع البيرو وأفول الحياة في "اراكاتاكا"، فما أن تم توقيع اتفاقية السلام حتى بدأت سلسلة من المشاكل تلاحق أبي انتهت بانتقال العائلة إلى قريته الأصلية "سينثي"، رافقناه "لويس إنريكي" وأنا في رحلة استطلاعية كانت في الحقيقة مدرسة حياتية بالنسبة لنا. الثقافة هناك مختلفة عن ثقافتنا حتى تصورنا أننا من كوكبين مختلفين، بدأنا من اليوم التالي لوصولنا في تعلم ركوب الحمير وحلب البقر وخصي العجول ونصب الشراك لصيد السمان، وصيد السمك بالسنارة، وعرفنا لماذا يشتبك الكلب مع أنثاه أثناء أداء فعل الحب. كان "لويس إنريكي" يسبقني دائماً في اكتشاف العالم الذي أخفته عنا الجدة "مينا"، والذي حدثتنا عنه الجدة "أرخيميرا" في "سينثي" دون أدنى خجل، كان الأعمام والعمات وأبناء العمومة مختلفي الألوان، ووجدنا أنفسنا بين الكثير من الأقارب من مختلف الألقاب، ويتحدثون بلهجات مختلفة مما سبب لنا في البداية بعض الخلط، إلى أن توصلنا إلى أنها طريقة جديدة لإعلان المحبة، والد والدنا السيد "جابرييل مارتينيث" الذي كان في السابق مدرساً في إحدى المدارس المعروفة، استقبلنا أنا و"لويس إنريكي" في فناء تحت ظلال أشجار عملاقة كانت الأكثر شهرة في القرية كلها بحبات المانجو الكبيرة، كان يحكي علينا واحداً واحداً أول محصول سنوي جناه، كان يقطفه بيديه، ويبيعها بسنتيم واحد للحبة،

وهو أعلى سعر في ذلك الوقت، عندما ودعناه بعد ثرثرة طويلة حول ذاكرته كمعلم ممتاز، قام بقطف حبة مانجو ضخمة أهداها لنا نحن الاثنين.

أقنعنا أبي بـأن تلك الرحلة تعتبر خطوة مهمة للحفاظ على وحدة العائلة، لكن منذ لحظة وصولنا اكتشفنا أن هدفه السري من تلك الرحلة هو افتتاح صيدلية في الساحة الرئيسية للقرية، تم إلحاق شقيقي وأنا في مدرسة "لويس جابرييل ميسا"، التي كنا نشعر فيها بحرية أكثر وتسهل اختلاطنا في المجتمع الجديد. أجّرنا بيتاً كبيراً في أفضل مكان بالقرية، من طابقين وشرفة بطول الساحة، كانت غرفه فارغة وواسعة.

كان كل شيء مُعداً لوصول الأسرة السعيدة، عندما وصلنا تلغراف بنبأ موت الجد "نيكولاس ماركيز"، كان قد أُصيب فجأة بالتهاب في الحلق تم تشخصيه على أنه سرطان في حالة متأخرة، فنقلوه إلى مستشفى "سانتا مارتا" بسرعة ليموت هناك. كان شقيقي "جوساتبو" الوحيد من الأسرة الذي شاهده في لحظاته الأخيرة، كان شقيقي في شهره السادس وقام أحدهم بوضعه بين يدي الجد ليودعه، وقام الجد بمداعبته المداعبة الأخيرة، كنت في حاجة إلى فترة طويلة من الزمن لأفهم معنى موته غير المتوقع.

لم يكن الرحيل إلى "سينثي" فقط بالإخوة، بل شمل الجدة "مينا" والخالة "ماما" المريضة، وكلتاهما كانتا تحت رعاية الخالة "با"، إلا أن فرحة الانتقال وحزن الفشل حلا معاً في وقت واحد، قبل مرور عام واحد، فقد عدنا جميعاً إلى البيت القديم في "اراكاتاكا"، وبقي أبي في "بارانكيا" يدرس الطريقة المثلى لافتتاح صيدلية هناك.

آخر ذكرياتي عن بيت "اراكاتاكا" في تلك الأيام كانت النار الموقدة في الفناء التي أحرقوا فيها ملابس الجد، وقبعاته الحربية، وملابسه الكتانية البيضاء ككولونيل مدني التي كانت تبدو مثله تماماً، كما لو كانوا يحرقونه بداخلها، خاصة

قبعاته القطيفية التي كانت تعتبر جزءاً من هويته، من بين تلك القبعات كانت قبعتي الأسكتلندية التي احترقت صدفة لوجودها بين متعلقات الجد، أشعر اليوم بوضوح أن شيئاً مني قد مات مع موت الجد، وأعتقد أيضاً، أنني كنت كاتباً في مدرسة أولية.. ما ينقصني هو تعلم الكتابة فقط لأكون روائياً.

كان هذا هو إحساسي لحظة خروجي من البيت برفقة أمي بعد أن عجزنا عن بيعه، وبما أن قطار العودة كان يمكن أن يعود في أية لحظة، فقد ذهبنا إلى المحطة مباشرة دون أن نحيي أياً من الجيران، قالت أمي: "سنعود في يوم آخر ويكون لدينا الوقت لذلك"، كانت تقولها بنية أننا لن نعود أبداً بعد اليوم، بالنسبة لي لم أكن أعرف أنه في تلك اللحظة سأشتاق دائماً إلى برق أمسيات القرية.

كنا الشبحين الوحيدين في المحطة، بالإضافة إلى عامل التحويلة الذي كان يبيع التذاكر أيضاً، ويقوم بأعمال عشرين أو ثلاثين من العمال في زمننا هذا. كان الحر يذيب الحديد، لم يكن على الجانب الآخر من السكك الحديدية سوى بقايا شبحية لمدينة شركة الموز المحرمة، كانت مبانيها الضخمة بلا أسقفها الحمراء، وتساقطت النخلات بين الحشائش، وتهدمت أسوار المستشفى.

بمجرد النظر إلى أي شيء كان ذلك يوقظ فيَّ إحساساً بالتشوق للكتابة حتى لا أموت، شعرت بهذا الإحساس نفسه مرات عديدة، لكنني في ذلك الصباح شعرت أنها حالة من حالات بداية الإلهام، تلك الكلمة الكريهة الواقعية جداً التي تهز الكيان.

لا أذكر أنني تحدثت مع أمي عن أي شيء آخر، ولا حتى أثناء العودة في القطار. وفي اللنش، فجر الاثنين، وتحت تأثير نسمات النهر النائم، انتبهت أمي إلى أنني لم أنم، فسألتني:

- فيما تفكر؟

أجبتها بطريقة حاولت أن تكون لطيفة:

- أنا أكتب، أعني، أنا أفكر فيما سأكتب عندما أصل المكتب.

- ألا تخاف أن يموت أبوك من الحسرة؟

انفجرت فيها بشكل عفوي:

- كانت لديه أسباب كثيرة ليموت، وهذا السبب أقلها تأثيراً.

لم يكن هذا الوقت مناسباً لأبدأ رواية ثانية بعد أن غرقت في الأولى حتى أذني، نجاحي في كتابة شكل جديد من عدمه لم يكن مهماً، إلا أنني في تلك الليلة عاهدت نفسي أن أكتبها أو أموت، أو كما قال "ريلكه": "إذا كنت تستطيع أن تعيش دون أن تكتب، فلا تكتب".

من خلال نافذة التاكسي الذي أقلنا من المحطة وحتى مرسى اللنشات، بدت مدينتي غريبة وحزينة تحت أضواء الصباح الأولى في ذلك اليوم من فبراير. دعاني قبطان اللنش "ألين مرثيدس" أن يرافق أمي حتى قرية "سينثي" حيث تعيش العائلة منذ عشر سنوات، ودون تفكير ودعتها بقبلة، ونظرت هي في عيني، وابتسمتْ لأول مرة منذ الليلة الماضية، وسألتني بطريقتها الماكرة:

- إذن، ماذا أقول لأبيك؟

أجبتها من كل قلبي:

- قولي له إنني أحبه جداً، وإنني بفضله سأصبح كاتباً.

ثم واصلتُ بقوة لا تدع مجالاً للشك:

- لن أكون سوى كاتب.

كنت أقول لها ذلك هازلاً في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى بجدية، لكني لم أكن أبداً واثقاً مما أقول مثل تلك المرة، وقفت على الرصيف أردُ على تحيات أمي البطيئة التي كانت تبعث بها من اللنش إلى أن اختفى بين بقايا السفن، حينها انطلقت إلى مكاتب صحيفة "الهيرالدو" بإحساس لذيذ للإقبال على الكتابة، ودون أن أترك مجالاً للراحة بدأت الرواية الجديدة بالجملة التي قالتها أمي: "جئت أطلب منك أن ترافقني لبيع البيت".

منهجي في الكتابة حينها كان مختلفاً عنه بعد ذلك ككاتب محترف، كنت أكتب حسب الترتيب المفهرس، لا زلت أمارس هذه الطريقة لكني لم أكن أترك المقطع حتى أنتهي منه تماما- كما أفعل الآن- كنت أكتب كل ما أحمله بداخلي دون ترتيب. أعتقد أن ذلك نظام من الكتابة كانت تفرضه نوعية الورق المستطيلة المقطوعة من بكرات المطبعة، والتي كان يصل طولها أحياناً إلى ما يقرب من خمسة أمتار. فتكون النتيجة أن النص يشبه أوراق البردي المستطيلة التي تخرج من الآلة الطابعة، وتمتد على أرضية الغرفة ولا يتوقف الطول حتى الانتهاء من الكتابة. لم يكن مدير التحرير يطلب الكتابة بعدد معين من الصفحات، أو بعدد الكلمات أو حتى بعدد الحروف، بل بعدد السنتيمترات من الورق، كان يقول: "أريد تحقيقاً بطول متر ونصف المتر"، ظللت أحن وأنا في كامل نضجي لهذا الشكل من الكتابة، حتى انتبهت إلى أن تلك الطريقة تشبه الكتابة على شاشة الكمبيوتر.

الاندفاع الذي بدأت به الرواية كان شديداً إلى درجة أنني فقدت الإحساس بالزمن، كتبت حوالي المتر بحلول الساعة العاشرة، لدرجة أن "ألفونسو فوينماير" وقف مشدوهاً عند الباب الرئيسي وظل ممسكاً بالمفاتيح في القفل، كما لو كان أخطأ الطريق ودخل الحمَّام بدلاً من حجرة المكتب، ولم يخرج من دهشته حتى انتبه إلى أنني أنا، فقال بدهشة:

- وأنت، ماذا تفعل هنا في هذه الساعة بحق الشيطان؟

قلت له:

- إنني أكتب رواية عمري.

قال بسخريته المعهودة:

- رواية أخرى، إذن أنت لك أرواح أكثر من عدد أرواح القط.

وحتى لا أتورط في شروح لا قيمة لها، قلت له:

- إنها الرواية نفسها ولكني أكتبها بطريقة مختلفة.

أخرج من حقيبته المهلهلة كتباً وأوراقاً ووضعها على المكتب فيما قدمتُ له شرحاً مسهباً ومحموماً لحكاية رحلتي. في النهاية لم أستطع مقاومة تلخيصها في جملة واحدة، فقلت له:

– إنه أعظم شيء حدث لي في حياتي.

قال "ألفونسو":

– لحسن الحظ أنه لن يكون الحدث الأخير.

لم يفكر فيما قال؛ لأنه هو أيضاً لا يستطيع إلا أن يقيس الأشياء بحجمها المناسب، إلا أنني كنتُ أعرفه جيداً إلى درجة أنني فهمت أن حماسي للرحلة لم يؤثر فيه كما حدث معي، لم يكن هناك شك في أنها لفتت انتباهه، لذلك بدأ من اليوم التالي في طرح أسئلة تبدو اعتيادية في كل الاتجاهات، لكنها كانت أسئلة كاشفة عنْ سير الكتابة في الرواية، وكانت مجرد إشارة منه كافية لأتوقف عن الكتابة، وأفكر في تصحيح شيء ما.

بينما كنا نتبادل الحديث قمت بجمع أوراقي لأترك له المكتب خالياً، كان على "ألفونسو" أن يكتب افتتاحية العدد، إلا أن النبأ الذي حمله إليّ أسعدني كثيراً، فقد تم إرجاء إصدار العدد الأول للمرة الخامسة بسبب نقص في توريد الورق، وقال إنه في أفضل الحالات لن نصدر قبل مرور ثلاثة أسابيع.

فكرت في أنه وقت كافٍ لتتضح معالم الرواية؛ لأنني كنت لا أزال عديم الخبرة حتى أعرف أن الرواية لا تبدأ كما يريد الكاتب، بل كما تريد الرواية نفسها أن تكون، إلى درجة أنه بعد مرور ستة أشهر، وعندما اعتقدت أنني قاربت على الانتهاء، أعدت كتابة الصفحات العشر الأولى بشكل مختلف حتى أستطيع أن أقنع القارئ، ولا زلت حتى هذه اللحظة أعتقد أنها لم تكن كما يجب، وأن التأخير كان مناسباً أيضا لـ"ألفونسو"، لأنه بدلاً من التأسي على التأخير خلع الجاكتة وبدأ في تصحيح الطبعة الحديثة لقاموس الأكاديمية

اللغوية، الذي وصلنا قبل أيام، كانت تلك هوايته المفضلة منذ أن اكتشف خطأ في قاموس اللغة الإنجليزية، وأرسل بالتصحيح الموثق إلى الناشر في لندن، ربما كان هدفه مجرد مداعبتهم على طريقتنا بقوله: "أخيراً يدين الإنجليز للكولومبيين بشيء". أجابوا على رسالته برسالة رقيقة يعترفون فيها بالخطأ، ويطلبون منه أن يستمر في التعاون معهم. وظل هكذا لعدة سنوات، ولم يكتشف فقط أخطاء في هذا القاموس بل اكتشف أخطاء في قواميس لغات أخرى، وما إن مضى وقت على علاقته بالناشر حتى تحوَّلت الهواية إلى إدمان، فقد كان يُصحح قواميس باللغات الإنجليزية والإسبانية والفرنسية، وعندما يكون لديه الوقت للانتظار عند إجراء مقابلة أو انتظار الأوتوبيس، كان يقتل الوقت باصطياد الأخطاء بين أعشاب اللغة.

في الثانية عشرة كان الحر المشبع بالرطوبة شديداً، ودخان سجائرنا خفف كثيراً من ضوء النافذتين الوحيدتين في الغرفة، ومع ذلك لم يتحرك أي منا لفتح النوافذ لتهوية المكتب، ربما بسبب الإدمان كنا نرغب في امتصاص الدخان نفسه حتى الموت، لكن الدخان مع الحر كان أمراً مختلفاً، كنت محظوظاً لأنني أحتمل الحر حتى ثلاثين درجة في الظل، لكن "ألفونسو" لم يكن يحتمل ذلك فظل يخلع ملابسه قطعة وراء قطعة دون أن يتوقف عن مهمته: ربطة العنق، والقميص الداخلي، الهدف طبعاً أن تظل الملابس جافة ونظيفة فيما كان هو غارقاً في عرقه، حتى يمكنه أن يرتديها مجدداً عندما تغيب الشمس، فتكون على جسده جافة ومكوية كما في الصباح، وهذا كان وراء سر ظهوره في أية لحظة بملابسه البيضاء، وأربطة عنقه سيئة العقدة، وشعره الهندي الجاف المفترق في المنتصف بخط هندسي. في الواحدة عند منتصف النهار كان على هذه الهيئة، وعندما خرج من الحمَّام كان كما لو كان كأنه خارج من حلم، وعندما مر إلى جواري سألني:

– نتناول الغداء؟

قلت له:

- لا أشعر بالجوع يا معلمي.

كانت إجابتي في عُرف المهنة مباشرة، لو قلت: نعم أنا جائع كان هذا يعني أنني في أزمة عاجلة، ربما لم أكن قد أكلت ليومين سوى بعض الخبز والماء، في هذه الحالة كان يجب عليّ أن أذهب معه دون أدنى شرح، وكان عليه أن يُضيِّفني بأية طريقة كانت، أما الإجابة: لا أشعر بالجوع يمكن تفسيرها بأي شيء، وكانت تلك طريقتي الخاصة للقول إنه ليست لدي مشكلة لتناول الطعام، واتفقنا على اللقاء في المساء كالعادة في مكتبة "موندو".

جاء بعد منتصف النهار بقليل فتى يبدو كما لو كان فناناً سينمائياً، أشقر جداً، ملمس جلده خشن بعض الشيء، وله عينان زرقاوان وصوت متناسق رخيم، فيما كنا نتحدث عن المجلة قريبة الصدور، رسم ثوراً فخيماً بست علامات مضفرة ووقَّع عليها، وأرفقها برسالة لـ"فونماير" ثم تركها على المكتب إلى جوار القلم ورفع ذراعه مُحيياً وغادر المكان، كنت غارقاً في الكتابة ولم أكلف نفسي النظر إلى اسمه، وما إن بدأت أشعة المساء في الاختفاء، حتى كنت قد بدأت أعرف البقايا الأولى للرواية، وكنت سعيداً بأنني استطعت أن أجد طريقة لكتابة شيء حلمت بكتابته منذ أكثر من سنة.

علمت الليلة أن الزائر لم يكن سوى الفنان "أليخاندرو أوبريجون"، وصل قبل قليل من إحدى رحلاته المتعددة إلى أوروبا، لم يكن لحظتها واحداً من كبار فناني كولومبيا فقط، بل من أكثر المحببين إلى أصدقائه، وأنه عاد من الرحلة قبل أن تصل إلى نهايتها ليشارك في إصدار مجلة "كرونيكا"، عثرت عليه في كانتين لا اسم له برفقة بعض المقربين منه، في عمق الحي السفلي أطلق عليه زميلنا "فوينماير" اسم كانتين "الرجل الثالث" وهو عنوان أحدث كتب "جرهام جرين". كانت عودته من رحلاته دائما تاريخية، وحفل تلك الليلة انتهى بغناء صرصار

مُدَرَّب حسب نظام صاحبه، كان يجعله يقف على قدميه ويفرد جناحيه ويغني بصفير إيقاعي ويرد على التصفيق بحركات مسرحية، وفي النهاية وتحت سيطرة مدربه السكران بالتصفيق، أمسك "أوبريجون" الصرصار من جناحيه بأطراف أصابعه، ووضعه في فمه أمام دهشة الجميع، ومضغه حياً بلذة شبقية، علمت بعدها أنه لم يكن أول صرصار يأكله حياً في مشهد عام، ولن يكون الأخير.

لم أشعر مطلقاً أنني جزء من تلك المدينة وهذه الجماعة من الأصدقاء مثلما شعرت خلال تلك الأيام، فقد كنا معروفين في الأوساط الصحافية والثقافية في البلاد باسم "مجموعة بارانكيا". كنا جماعة من الكُتَّاب والفنانين الشبان نلعب دوراً ثقافياً ريادياً في حياة المدينة، تحت قيادة المعلم القطالوني "رامون فينيس"، الكاتب المسرحي وصاحب المكتبة الشهيرة التي تضم الموسوعة الإسبانية اسمه منذ عام 1924 .

تعرَّفتُ على أفراد الجماعة في سبتمبر من العام السابق خلال زيارتي "كارتاخينا"، التي كنت أعيش فيها حينئذ، وذلك عن طريق "كليمنتي مانويل ثابالا" رئيس تحرير صحيفة "يونيفيرسال"، التي كتبت فيها أول مقالاتي. قضينا الليلة نتحدث وانتهينا بصداقة عميقة وتبادل الكتب والرسائل الأدبية، وانتهيت بالعمل معهم. كان هناك ثلاثة من المجموعة يتميزون باستقلاليتهم وتفرد موهبتهم: "خيرمان فارجاس"، و"ألفونسو فوينماير"، و"ألفارو ثيبيدا ساموديو"، كانت تجمعنا أشياء كثيرة لدرجة أنهم كانوا يقولون عنا إننا أبناء لأب واحد، كانت لنا شهرة جعلتنا غير محبوبين في بعض الأوساط بسبب استقلاليتنا، وموهبتنا الرافضة للتبعية، وكان تميزنا الإبداعي يفرض نفسه برغم خجلنا، فكان كل واحد يتغلب على خجله بطريقته وإن لم تكن النتيجة النهائية طيبة دائماً.

كان "ألفونسو فوينماير" كاتباً وصحافياً في حوالي الثامنة والعشرين، ظل يعمل في "الهيرالدو" لسنوات طويلة يكتب مقالاً بعنوان "هواء النهار" تحت اسم

شكسبيري مستعار هو "بوك". كلما تعرفنا على فوضويته وحبه للمداعبة، نندهش لقراءته كل تلك الكتب في أربع لغات يعرفها، آخر تجاربه الحيوية عاشها في الأربعين من عمره من خلال السيارة الضخمة التي كان يقودها بسرعة عشرين كيلومترٍ في الساعة، فكان سائقو التاكسي وأصدقاؤه وقراؤه يعرفونه من بعيد فيفسحون له الطريق.

كان "خيرمان فارجاس" ناقداً أدبياً حاد البصيرة وكاتب مقال، وعمل نائباً لرئيس التحرير بصحيفة "الناسيونال"، نثره يقنع القارئ بالأشياء التي تحدث لأنه يحكيها هو فقط لا غير، وكان واحداً من أفضل مذيعي الإذاعة، ولا شك في أنه كان أكثرهم ثقافة في تلك الأيام، كان أشقر وبعينين زرقاوين خطرتين، ولم يكن معروفاً اللحظة التي يحب فيها قراءة ما يكتب، لم يكن يتعب من البحث عن المواهب الخفية في أقصى المقاطعة وتقديمها للأضواء، وكان من حسن حظه أنه لم يتعلم قيادة السيارات مطلقاً بين هذه الجماعة فاقدة الوعي؛ لأننا كنا نخشى أن يمارس هواية قراءة الكتب أثناء قيادة السيارة.

"ألفارو ثيبيدا" على العكس من ذلك، فقد كان سائقاً ماهراً في قيادة السيارات أو حتى في قيادة الحروف كان قاصاً من البارعين، خاصة عندما كان يجلس على المكتب ليكتبها، وكان ناقداً سينمائياً رائعاً، ولا شك في أنه كان الأكثر ثقافة، بارع ومثير للمعارك الفنية، يبدو كغجري من الجنوب بجلده الخشن، ورأسه ذي الشعر الأسود، له عينا مجنون لا تخفي ما في قلبه، ينتعل صنادل من القماش الرخيص، ويضع بين أسنانه سيجاراً ضخماً مطفأً في معظم الوقت، بدأ خطواته الأولى في صحيفة "الناسيونال" التي نشر فيها أولى قصصه، وفي تلك السنة كان في نيويورك لإنهاء دراساته العليا في الصحافة بجامعة كولومبيا.

أحد أفراد الجماعة الأكثر تحركاً وتفرداً إلى جانب السيد "رامون"، كان "خوسيه فيليكس فوينماير"، والد الصحافي "ألفونسو"، نشر عام 1910 كتاباً

شعرياً بعنوان "ملهمات استوائيات"، وروايتين: الأولى عام 1927 بعنوان "كوزمي"، والثانية عام 1928بعنوان "المغامرة التعسة لأربعة عشر عالماً". لم يحقق أي من هذه الكتب نجاحاً في المبيعات، لكن النقد المتخصص اعتبر "خوسيه فيليكس" واحداً من أفضل كُتَّاب القصة.

عندما تعرفت عليه لم أكن قد سمعت عنه من قبل، لكن تصادف أن التقينا ظهر أحد الأيام في مقهى "جابي"، وسحرني على الفور بثقافته وبساطته في الحديث، كان من محاربي حرب الألف يوم القدامى، لم يكن متعلماً مثل "فينيس"، لكنه كان أقرب إليّ بسبب طريقته في الحياة وثقافته الكاريبية، لكن أفضل ما كنت أحبه فيه طريقته الغريبة في نقل ثقافته كما لو كان الأمر يتعلق بشيء بسيط للغاية، كان مُحدثاً لا يُبارى ومعلماً له خبرته في الحياة، وطريقته في التفكير مختلفة عن كل من عرفتهم حتى تلك اللحظة، كنت و"ألفارو ثيبيدا" نستمع إليه طوال ساعات، خاصة بفكرته المبدئية التي ترى أن الفارق بين الحياة والأدب ليس سوى خطإٍ في الشكل، بعد ذلك كتب "ألفارو" جملة مؤكدة: "كلنا خرجنا من عباءة خوسيه فيليكس".

تكونت الجماعة بشكل عفوي، بفعل الجاذبية تقريباً، وكانت تجمعها ألفة غير مفهومة لأول وهلة، وكثيراً ما كانوا يسألوننا كيف نجتمع على رأي نحن المختلفين جداً في ميولنا، فكنا نرتجل أية إجابة حتى لا نقول الحقيقة: لم نكن دائماً متفقين، لكننا كنا نتفهم أسباب كل منا، كنا نعي أننا خارج نطاقنا معروفون بأننا عنيفون ونرجسيون وفوضويون، خاصة في توجهاتنا السياسية. كان "ألفونسو" معروفاً بأنه ليبرالي متطرف، و"خيرمان" متحرر الفكر، و"ألفارو" فوضوي غير منتمٍ، وأنا كنت معروفاً كشيوعيٍّ متشكك، ومُرشح للانتحار. إلا أنني أعتقد بلا أدنى شك أننا جميعاً في أقصى حالات الغضب يمكننا أن نفقد صبرنا، لكننا لا نفقد حس السخرية.

كنا نناقش اختلافاتنا القليلة فيما بيننا، وكنا نصل في نقاشاتنا أحياناً إلى درجة خطرة، لكننا ننساها بسرعة فائقة بمجرد وقوفنا للانصراف، أو عندما يصل إلى المكان أي صديق من خارج الجماعة، وربما كان الدرس الذي لا يمكنني نسيانه تعلمته في مشرب "لوس ألمندروس" في ليلة من تلك الليالي التي كان فيها "ألفارو" حديث الوصول من السفر، واشتبكنا في حوار حول "فوكنر"، كان "خيرمان" و"ألفونسو" شاهدين وحيدين وظلا على هامش الحوار ولم يتدخلا، لا أتذكر اللحظة التي ارتفعت فيها حدة الحوار إلى درجة كبيرة واستعد كل منا لمغادرة المكان كي نتعارك في الشارع، إلا أن صوت "خيرمان فارجاس" الهادئ أوقفنا بجفاء وأعطانا درساً لا يمكن نسيانه:

– من يقف أولاً يخسر المعركة.

لم يكن أي منا قد تعدى الثلاثين من عمره، أنا كنت في الثالثة والعشرين، أصغر أفراد الجماعة، وتبنوني منذ وصولي في ديسمبر الماضي، أما على طاولة "رامون فينيس" فقد كنا نحرص على أن نبدو كدعاة إصلاحيين، نكاد نتحدث معاً دائماً عن الأشياء نفسها ونسخر من كل شيء، وكنا متفقين على مخالفة أي رأي على الرغم من أننا كنا نبدو متفقين قبلها بقليل.

كانت "ميرا ديلميرا" المرأة الوحيدة التي نعتبرها فرداً في الجماعة، كانت في خطواتها الأولى على طريق كتابة الشعر، نتحدث معها فقط عندما نتخلى عن عاداتنا السيئة، جلساتنا في بيتها لا تُنسى، تجمع كُتَّاباً وفنانين من المشاهير الذين يمرون بالمدينة، و"ثيثيليا بوراس" صديقة أخرى لم تكن منتظمة بيننا، تأتي من "كارتاخينا" من وقت لآخر، وترافقنا في جولاتنا الليلية، لا تهتم بانتقاد الناس لها كامرأة تصادق رجالاً معروفين بسكرهم.

كنا نحن أفراد تلك الجماعة نلتقي مرتين في اليوم في مكتبة "موندو"، التي تحوَّلت مع الوقت إلى مركز للاجتماعات الأدبية، كانت ملتقى هادئاً في ضوضاء

شارع "سان بلاس"، شريان الحركة الاقتصادية الذي يظل يغلي حتى السادسة مساء. نظل أنا و"ألفونسو" نُمارس الكتابة في المكتب حتى الساعات الأولى من الليل في غرفتنا الملاصقة لصالة تحرير "الهيرالدو"، يكتب هو الافتتاحية فيما أكتب أنا مقالات في شتى الاتجاهات. كثيراً ما نتبادل الأفكار من طابعة إلى أخرى ونتبادل استعارة الصفات، بل ونتبادل المعلومات إلى درجة أنه كان من الصعب معرفة أي من أجزاء المقال كتبه الآخر.

حياتنا اليومية تكاد تكون معروفة بشكل مسبق، عدا في ليالي الجمعة التي كنا نتركها للصدفة، وفي كثير من الأحيان تتواصل سهراتنا حتى إفطار صباح الاثنين، ولو عثرنا على موضوع أدبي مثير كنا نواصل أحاديثنا بلا انقطاع، نبدأ سهرتنا في كانتين "الرجل الثالث" بين حرفيي الحي وميكانيكية السيارات، إضافة إلى الموظفين المهملين وإن كان بعضهم أقل إهمالاً. أكثر زبائن هذا المكان غرابة كان لص المساكن الذي يصل المكان قبيل منتصف الليل بقليل، مرتدياً ملابس المهنة: بنطلون راقص باليه ضيقاً جداً، وحذاء لاعب تنس، وغطاء رأس لاعب بيسبول، وحقيبةَ عِددٍ مختلفة. أحد أصحاب البيوت التي تعرضت للسرقة تمكن من رسم صورته ونشرها في الصحف ليتعرف عليه الجمهور، الإجابة الوحيدة التي حصل عليها كانت رسائل غاضبة لتجرؤه على منافسة فناني البورتريه المساكين في مهنتهم.

كان اللص من ذوي الميول الأدبية، لم يكن يترك كلمة أدبية أو فنية تمر دون الانتباه إليها، وكنا نعرف أنه مؤلف للكثير من قصائد الحب يقرأها على زبائن المكان في غيابنا، يمارس مهنة السرقة بعد منتصف الليل في الحي الثري من المدينة، كما لو كانت السرقة مهنة عادية، وبعد ثلاث أو أربع ساعات من العمل كان يعود لإهدائنا بعض ما حصل عليه. يقدمها لنا بقوله: "هذه للبنت"، دون أن يهتم بالسؤال إن كانت لدينا بنات بالفعل، كانت تلفت نظره بعض الكتب فكان

يسرقها ليقدمها لنا على سبيل الهدية، وعندما يكون للكتاب قيمة نضمه إلى مكتبة شقة "ميرا ديلميرا".

حواراتنا المتنقلة خلقت لنا شهرة سيئة بين حضور قداس الخامسة، فكانوا يُغيِّرون أماكن سيرهم حتى لا يلتقون مع سكارى الفجر، لكن الحقيقة لم يكن هناك من هو أكثر شرفاً وكدحاً منا، وربما من انتبه إلى هذا كنت أنا، فكنت أصرخ فيهم بأبيات من أشعار "جون دوس باسوس" الخليعة، أما بالنسبة لاهتماماتنا الكروية، فكنا من مشجعي "الديبورتيفبو جونيور"، إلى درجة أن جارة لحانة "القط الأسود" يأست من حواراتنا فصرخت فينا:

- لو أنكم تعملون كما تصرخون لكنا الآن من الأثرياء.

في أحيان كثيرة نذهب فجراً إلى ماخور بلا اسم يقع في الحي الصيني عاش فيه "أورلاندو ربيرا" لسنوات مضت، عندما كان يرسم لوحة حائطية نالت شهرة كبيرة، لم أعرف في حياتي شخصاً مثله في غرابة الأطوار، كانت له لحية جدي، وكرم يتيم، تعلق منذ دراسته في المدرسة الابتدائية بالأغاني الكوبية وانتهى إلى أن أصبح شهيراً بـ"الكوبي"، لهجته ورقصه وحياته ورسومه كانت كوبية، كان كوبياً، مات دون أن يعرف كوبا.

لم يكن ينام، عندما كنا نزوره في الفجر يهبط من على السقالات قفزاً ملوثاً بألوان أكثر من الألوان الموجودة على اللوحة الحائطية التي يرسمها، مطلقاً لعناته بلغة نهاية سكرة الماريجوانا، كان "ألفونسو" وأنا نقدم له قصصاً ومقالات ليعد رسموها، نقصها عليه بصوت عالٍ؛ لأنه لم يكن لديه الصبر لقراءتها، يرسمها في لحظات مستخدماً تقنية الكاريكاتير، رسومه مُعبِّرة تقريباً رغم أن "خيرمان فارجاس" كان يقول إنها أفضل عندما تكون سيئة.

هكذا كانت "بارانكيا"، مدينة لا تشبهها مدينة أخرى، خاصة في الفترة من ديسمبر إلى مارس، عندما كانت رياح الشمال تُرَطِّب حرارة الأيام الملتهبة

بنسماتها الليلية مثيرة الدوامات في أفنية البيوت وتثير الدجاج، وتظل الفنادق الرخيصة وحانات الميناء مفتوحة، فيما تنتظر نساء الليل زبائن السفن النهرية لأمسيات طويلة، تعزف أحياناً فرقة نحاسية فالساً طويلاً تحت الأشجار، دون أن يستمع إليها أحد بسبب صرخات سائقي التاكسي في نقاشهم حول مباريات كرة القدم، المكان الوحيد الصالح هو مقهى "روما"، مقهى للمهاجرين الإسبان لا يغلق أبوابه أبداً؛ بسبب بسيط وهو أنه لم يكن له باب أصلاً، وبلا سقف أيضاً، في مدينة معروفة بأمطارها الاستوائية الشديدة، رغم أنه لم يحدث أن ترك أي زبون طبق العجة بسبب المطر المنهمر. في الحادية عشرة، عندما ننهي الصحف المسائية- "الهيرالدو" و"لا برنسا"- يجتمع محررو الفترة الليلية لتناول الطعام، يكون المهاجرون الإسبان هناك منذ السابعة بعد استماعهم للنشرة الإخبارية المسائية بصوت "خوان خوسيه بيريث دومينيش"، الذي كان يواصل تقديم أخبار الحرب الأهلية الإسبانية بعد مرور اثنتي عشرة سنة على خسارتها. في ليلة .'يية، وصل الكاتب "إدواردو ثالاميا" بعد عودته من "جواخيرا"، وأطلق على نفسه رصاصة من مسدسه لم تكن نتائجها خطرة، ظلت طاولته في المقهى كما لو كانت قطعة أثرية مهجورة يعرضونها على السائحين دون السماح لهم بالجلوس، بعد سنوات نشر "ثالاميا" شهادته على مغامرته في كتاب بعنوان: "أربع سنوات ممتطياً نفسي"، فكانت رواية فتحت آفاقاً جديدة أمام جيلنا.

كنتُ أنا أكثر أعضاء الفرقة فقراً، فكنت ألجأ إلى مقهى "روما" لأكتب في ركن قصي حتى الفجر؛ لأن العملين اللذين كنت أمارسهما- على الرغم من أهميتهما- لا يكفي راتبهما شيئاً، أظل في المقهى حتى أشعة الفجر الأولى، وأنا أقرأ بلا رحمة، وعندما يعضني الجوع أتناول ساندوتشاً مع فنجان الشيكولاتة، وأتنزه مع الساعات الأولى للنهار تحت أشجار الطريق المزهرة، كنت في الأيام الأولى أكتب في مقر الصحيفة لساعات طويلة، وأنام بضع ساعات في المقر الخالي، أو

منطرحاً على بقايا بكرات ورق المطبعة، إلا انه مع مرور الوقت وجدت نفسي مُجبراً على البحث عن مكان أكثر راحة.

الحل، مثل كل الحلول الأخرى، قدَّمه لي سائقو تاكسي الطريق الرئيسي في المدينة، فندق قريب من الكاتدرائية، حيث يمكن النوم منفرداً أو برفقة أحد مقابل بيزو ونصف البيزو، المبنى قديم جدا لكنه مُحاط بعناية كبيرة، وكان مقراً لنساء الليل الباحثات عن زبائن الحب الضائع من السادسة وحتى طلوع الصباح، كان البواب اسمه "لاثيديس" كانت له عين زجاجية مائلة الطرف، ويتهته خجلاً، لا زلت أذكره بحب منذ الليلة الأولى التي وصلت فيها إلى هناك، ألقى بالبيزو ونصف البيزو على مائدة المدخل المليئة بالأوراق النقدية الملقاة بلا ترتيب، وقدم لي مفتاح الغرفة رقم ستة.

لم أعش في حياتي في مكان هادئ مثل هذا المكان، أكثر الأصوات التي يمكن سماعها عبارة عن خطوات هادئة، وبعض الهمهمات غير المفهومة، ومن وقت لآخر يمكن سماع خشخشة بعض الحديد المؤكسد، لكن لم يكن هناك غنج ولا غيره، كان الحر هو الشيء الوحيد الصعب هناك، بسبب النافذة المغلقة بإحكام بصلبان خشبية، قرأت في الليلة الأولى براحة "ويليام إيريش" حتى الفجر.

كان الفندق سكناً لقباطنة السفن القدامى، له أعمدة مبطنة بالرخام والرسوم المذهبة، تدور حول فناء داخلي مغطى بقبة زجاجية تشع بضوء شتوي، يحتل مكتب التسجيل العقاري الطابق الأسفل، وكانت هناك ستة أعمدة رخامية في كل طابق من طوابقه الثلاثة الأخرى، هذا المكان السعيد كان في يوم من الأيام اسمه فندق نيويورك، فيما أطلق عليه "ألفونسو فوينماير" اسم ناطحة السحاب، تكريماً لذكرى المنتحرين الذين كانوا يلقون بأنفسهم في تلك الأيام من على سطح مبنى الإمبراطورية.

على أي حال كان مركز تحركات حياتنا في مكتبة "موندو"، نلتقي في الثانية عشرة نهاراً والسادسة مساء، كان "خيرمان بارجاس" الصديق الحميم لصاحب

المكتبة، السيد "خورخي روندون". أقنعه "خيرمان" بفتح هذه المكتبة التي تحولت في وقت قليل إلى مركز للقاءات الكُتَّاب والصحافيين والسياسيين الشبان، لم تكن لدى "روندون" أية خبرة في هذا المجال، لكنه تعلمها بسرعة، وبفضل حماسه وكرمه تحول إلى راعٍ للفنون والآداب لا يمكن نسيانه، كان "ألفونسو" و"خيرمان" و"ألفارو" مستشاريه في وضع قائمة طلبات الكتب، وبشكل خاص الجديدة منها القادمة من "بوينس أيريس"، التي بدأ ناشروها يترجمون وينشرون ويوزعون الجديد في الأدب العالمي، خاصة الصادر بعد الحرب العالمية الثانية، وبفضلهم استطعنا أن نقرأ مبكراً الكتب التي لم تكن تصل إلى المدينة، وكانوا هم أنفسهم يحمّسون الزبائن حتى تحولت "بارانكيا" إلى مركز القراءة التي تراجعت خلال السنوات الأخيرة.

لم يمض وقت طويل منذ وصولي حتى أصبحت واحداً من هذه الجماعة التي كان أفرادها ينتظرون باعة الكتب الجائلين كما لو كانوا مبعوثين من السماء، وبفضلهم كنا من المعجبين المتحمسين لـ"خورخي لويس بورخيس" و"خوليو كورتاثار"، و"فيليسبرتو هيرنانديث"، وكذلك الروائيين: الإنجليز والأمريكيين الذين ترجمتهم "فيكتوريا أوكامبو". رواية "مصهر المتمرد" لـ"أرتورو باريا" كانت رسالة الأمل الأولى التي تدل على أن إسبانيا تستعيد في صمت توازنها بعد الحرب. أحد الباعة الجوالين "جييرمو دافالو" كان يقاسمنا جلساتنا الليلية، فكان يهدينا كتبه الغريبة الباقية بعد انتهاء جولته في المدينة.

أفراد الجماعة الذين يعيشون بعيداً عن وسط المدينة لم يكونوا ليذهبوا إلى مقهى "روما" في المساء، إن لم يكن هناك سبب محدد، فيما كان المقهى بيتي الذي لا أملكه، أعمل في الصباح في تحرير "الهيرالدو" وأتناول غدائي حسبما اتفق، أكاد أكون الضيف الدائم على الأصدقاء الطيبين والسياسيين الراغبين في مصادقتي كصحفي، وفي المساء أكتب زاويتي "الزرافة"، أو أي نص آخر للنشر

السريع. وفي منتصف النهار وفي السادسة مساء، كنت الأكثر التزاماً في مكتبة "موندو"، مشهيات الغداء التي يتناولها أفراد الجماعة بمكتبة "موندو" انتقلت بعد ذلك إلى مقهى "جابي"، على الرصيف المقابل؛ لأنه كان أكثر تهوية، وكنا نستخدمه في استقبال الضيوف وإجراء المقابلات الصحافية، وكمكان سهل لمقابلاتنا.

كان لطاولة السيد "رامون" في مقهى "جابي" قوانين لا يمكن خرقها، تم وضعها بقوة العادة، هو أول من يصل بسبب ساعات عمله كمدرس فيكون هناك في الرابعة مساء، والطاولة لا تتسع لأكثر من ستة أفراد، وكل منا اتخذ مكانه طبقاً لوجوده بيننا، ولم يكن مسموحاً بوضع كرسي غير هذا العدد للجلوس إلى جوار الطاولة. طبقاً لأقدمية الجلوس، كان "خيرمان" يجلس إلى يمين المعلم منذ اليوم الأول، وكان المكلف بالمسائل المادية، يتولاها متطوعاً حتى لو لم يتلق أمراً بذلك؛ لأن المعلم لم يكن يجيد التعامل مع صغائر الحياة اليومية، وكانت مشكلته في تلك الأيام بيع كتبه إلى مكتبة المقاطعة العامة، وإنهاء بعض الإجراءات قبل سفره إلى "برشلونة"، لم يكن "خيرمان" مجرد سكرتيره الخاص بل كان ابناً باراً.

علاقة "رامون" بـ"ألفونسو" كانت على العكس تماماً، فقد كانت مبنية على سلسلة من المشاكل الأدبية والسياسية صعبة، أما بالنسبة لـ"ألفارو" كنت أراه قانطاً في كرسيه وفي حاجة إلى وجود الآخرين ليبدأ إبحاره في الحياة، و"خوسيه فيليكس" الكائن البشري الوحيد الذي له الحق في اختيار مكانه بحرية، لم يكن السيد "رامون" يذهب إلى مقهى "جابي" مع أصدقاء اللجوء الإسباني، بل كان يذهب إلى مقهى "روما".

كنت أنا الأخير الذي انضم إلى طاولته، وامتلكت الحق في الجلوس على كرسي "ألفارو ثيبيدا" طوال وجوده في "نيويورك"، واستقبلني السيد "رامون" كتلميذ جديد؛ لأنه كان قد قرأ قصصي في "الاسبكتادور". إلا أنني لم أتصور مطلقاً أنه سيأتي اليوم الذي أطلب منه قرضاً مالياً لإعانتي في رحلتي مع أمي

إلى "أراكاتاكا"، بعدها بقليل حظيت بأول وآخر حوار بيننا على انفراد عندما ذهبت إلى مقهى "جابي" مبكراً عن الآخرين لأعيد إليه البيزوات الست التي أقرضني إياها، حياني كما كان يحييني دائماً ولكن شيئاً أزعجه في وجهي:

- أهلاً بالعبقري، هل أنت مريض؟

أجبته منزعجاً:

- لا أعتقد يا سيدي، لماذا؟

قال:

- أراك مختلفاً بعض الشيء، لكن لا تهتم، كلنا نشعر بشيء ما هذه الأيام.

وضع البيزوات الست في حافظته بشكل بدا معه كما لو كانت أموالاً غير مرغوب فيها، شرح لي المسألة:

- سآخذها منك، كذكرى من فتى فقير جداً دفع ديونه دون أن يطلبوها منه.

حرْت في الإجابة عليه، والتزمت صمتاً ثقيلاً احتميت فيه كبئر عميق، لم أحلم أبداً بأنني سأحظى بمثل تلك اللحظة، وأعتقد أنه في الحوارات الجماعية كان كل منا يسهم بشيء في الفوضى، حتى أن إيجابيات أو سلبيات كل منا تختلط بإيجابيات وسلبيات الآخرين، لم أحلم بالحديث مع رجل يعيش منذ سنوات بيننا كموسوعة متنقلة، وكثيراً ما كنت أثناء قراءاتي الليلية أتخيل حواراً معه حول شكوكي الأدبية لكنها تنتهي مع أشعة الشمس الأولى، فقد كان خجلي يزداد كلما تدخل "ألفونسو" في الحديث بيننا بأفكاره الغريبة، فيما كان "خيرمان" يناقض بعض آراء المعلم أو أن "ألفارو" يعرض علينا مشروعاته التي تثيرنا جميعاً.

لحسن الحظ أنه في ذلك اليوم في مقهى "جابي"، كان السيد "رامون" البادئ في سؤالي عن قراءاتي، كنت قرأت حينها كل ما كان يمكن أن يعثر عليه الجيل الضائع، باللغة الإسبانية، وبشكل خاص كتابات "فوكنر"، الذي كنت أمتصه امتصاصاً، محاولاً فهمه جيداً؛ لأنني كنت أخشى أن يكون كاتباً مخادعاً، حاولت

أن أكون حريصاً في حواري حتى لا أبدو مجرد مثير للشغب، فحاولت إيضاح رأيي إلا أن السيد "رامون" لم يترك لي الوقت، فأجابني بهدوء:

– لا تنزعج يا "جابيتو"، لو كان "فوكنر" يعيش في "بارانكيا" لكان معنا الآن على هذه الطاولة.

من ناحية أخرى، كنت مهتماً بالسيد "رامون جوميث دي لا سرنا" إلى درجة أنني كنت أذكره في زاويتي "الزرافة" إلى جانب روائيين آخرين معروفين، فأوضحت له أنني لا أفعل ذلك بتأثير رواياته، ورغم أنني أحببت كثيراً روايته "شاليه الزهور"، إلا أنني كنت أذكره بسبب عبقريته وملكته في التعامل مع اللغة؛ لأنها كانت بالنسبة لي كالتمرينات الرياضية التي تعلمني الكتابة، لأنني لا أتذكر طريقة أخرى لإثارة اللغة والذكاء مثلها، فقاطعني السيد "رامون":

– الخطر أنك تتعلم الكتابة بشكل سيئ دون أن تنتبه.

اعترف قبل إغلاق الحوار حول هذا الموضوع أنه شاعر جيد، كانت هذه طريقته في الرد، لغته مباشرة ومتعالية، كنت أخشى حضور أحد حتى لا ينقطع هذا الحوار في هذه المناسبة الفريدة، فقد كان يعرف كيف يدير هذا الحوار، جاءه جرسونه المعتاد بزجاجة الكوكاكولا التي يتناولها في الحادية عشرة والنصف صباحاً، كان يبدو أنه لم ينتبه إليها لكنه شربها دفعة واحدة دون أن يتوقف عن حديثه، معظم الزبائن كانوا يحيونه عن بعد بصوت مرتفع: "كيف حالك يا سيد رامون"، وكان يجيبهم برفع يده بشكل مسرحي دون أن ينظر إليهم.

بينما كان السيد "رامون" يتحدث كان يلقي بنظرات متقطعة إلى الحقيبة الجلدية التي كنت أضمها بيدي الاثنتين فيما كنت أستمع إليه، عندما انتهى من تناول زجاجته الأولى، نحَّاها جانباً وطلب الثانية، طلبت أنا مثلها وكنت أعرف أنه على هذه الطاولة كل واحد يدفع حسابه الخاص، وأخيراً سألني ما الذي في هذه الحقيبة التي أتعلق بها كما لو كانت قشة الغريق؟

حكيت له الحقيقة: كانت تضم الفصل الأول للرواية التي بدأتها حديثاً بعد عودتي مع أمي من "اراكاتاكا"، وبحركة جريئة لا أعتقد أنني يمكن أن أعيدها بعد الآن، وضعت الحقيبة على الطاولة مفتوحة أمامه، كنوع من الإثارة البريئة، رَكَّز عليّ حدقتيه المسطحتين بلونهما الأزرق الخطر، وسألني باندهاش:

- هل تسمح لي؟

كانت مكتوبة على الآلة الطابعة مع الكثير من التصحيحات، على ورق مطبعة صحفية مطوية كالأكورديون. وضع نظارته على عينيه ببطء، ليبدأ القراءة، نشر الورق بأستاذية حرفية ووضعه على الطاولة، قرأ دون اهتمام، ودون أن يطوي الورق، أو تتغير تعبيرات وجهه، عندما انتهى من ورقتين كاملتين عاد إلى طيها في صمت، وأغلق الحقيبة، أعاد النظارة إلى جرابها ثم وضعها في جيبه، وقال ببساطة كبيرة:

- يبدو أنها لا تزال مادة خام، كما هو منطقي، لكنها بداية جيدة.

ألقى ببعض التفسيرات حول استخدام الأزمنة، التي كانت مشكلة حياتي، والتي تُعتبر من أكثر المشاكل صعوبة، ثم أضاف:

- يجب أن تكون واعياً بأن الحدث الدرامي قد وقع بالفعل، وأن أبطاله لا يعيشون وإنما هم هنا ليتحدثوا عن الحدث، لذلك عليك أن تصارع مع زمنين مختلفين.

بعد مجموعة من التفسيرات التقنية التي لم أتمكن من تقييمها لانعدام خبرتي، نصحني بألا أسمي مدينة الحدث باسم "بارانكيا"، كما كنت أسميها في الكتابة الأولية؛ لأنه اسم محكوم بواقعه فلا يترك للقارئ مساحة للتخيل، وأنهى حديثه بجملة ساخرة:

- إما أن تظل قروياً أو تنتظر أن تهبط عليك السماء، فأثينا "سوفكليس" لم تكن أثينا "أنتيجون".

لكن الجملة التي احتفظت بها إلى الأبد كانت تلك التي ودعني بها في ذلك المساء:

- أشكرك على اهتمامك، لذلك سأعطيك نصيحة: لا تترك أحداً يطلع على شيء لا يزال في طور الكتابة.

كان ذلك حواري الوحيد معه على انفراد، لكنه كان حواراً أفضل من كل الحوارات السابقة، لأنه سافر إلى برشلونة يوم 15 إبريل 1950، كما كان متوقعاً منذ عام قبلها، بمظهره الشاذ، وبدلته القطيفية السوداء وقبعته. كان سفره يشبه إرسال طفل إلى المدرسة، كان متمتعاً بالصحة ورجاحة العقل وهو في الثامنة والسبعين من العمر، ونحن من ودعناه في المطار كنا نودعه كإنسان في طريقه إلى مسقط رأسه ليشهد جنازته بنفسه.

في اليوم التالي انتبهنا للفراغ الذي تركه غيابه فقط، عندما وصلنا إلى مقهى "جابي" لنجلس على الطاولة كالمعتاد، ولم يجرؤ أحد على الجلوس على كرسيه إلى أن اتفقنا على أن يجلس عليه "خيرمان"، وكنا في حاجة إلى مرور بضعة أيام لنعتاد على نظام الحوار اليومي الجديد، حتى وصلتنا أول رسالة من "رامون"، بدت كما لو كانت مكتوبة بصوت جهير، بخطه المنمق المكتوب بحبر أسود ضارب إلى الاحمرار، وبهذه الرسالة بدأت علاقة مع الجميع عبر "خيرمان"، علاقة متواصلة وعميقة، يحكي لنا القليل عن حياته الخاصة ومعظمها يتناول الأوضاع في إسبانيا التي لا يزال يعتبرها دولة عدو في ظل "فرانكو" وبقائها محتلة لقطالونيا.

- فكرة إصدار صحيفة أسبوعية كانت فكرة "ألفونسو فوينماير"، وكانت سابقة على تلك الأيام، على الرغم من أنني أكاد أجزم أن سفر "رامون" عجل بتنفيذها. أخبرنا "ألفونسو" أنه استعد تماماً لها، وأنها ستكون من حجم التابلويد في عشرين صفحة، صحيفة عامة وأدبية واسمها "كرونيكا"، ولن أخبر أحداً أكثر من

ذلك، اعتقد معظمنا أنه مجرد هذيان؛ لأنه بعد أربع سنوات على عدم حصولنا على مساعدات، كيف سنحصل عليها الآن، لكن "ألفونسو فوينماير" حصل على المال من الحرفيين وميكانيكية السيارات والمعلمين المحالين على التقاعد، وحتى من أصحاب المقاهي والمشارب المتحمسين الذين قرروا دفع الاشتراك بكأس من البيرة أو الكونياك، وكان هناك اعتقاد بأن الصحيفة ستنجح نظراً لوجودنا في مدينة تعشق الشعراء، على الرغم من الأزمات الصناعية والتجارية التي كانت تعيشها.

كنا نحن القائمين على إخراجها، إضافة إلى عدد قليل من المتعاونين من خارج الجماعة، كان "كارلوس أوسيو نوجيرا" المحترف الوحيد الذي لديه خبرة. كان شاعراً وصحافياً يتمتع بحس فكاهي نابع من جسده الضخم، كان موظفاً حكومياً ومستشاراً لصحيفة "الناسيونال"، التي عمل فيها "ألفارو ثيبيدا" و"خيرمان بارجاس"، والآخر سيكون "روبرتو بريبتو" الشهير باسم "بوب"، شخصية غريبة من الطبقة الاجتماعية العليا يفكر بالفرنسية والإنجليزية تماماً كتفكيره باللغة الإسبانية، ويعزف على البيانو العديد من المقطوعات الكبرى من الذاكرة، إلا أن القائمة ضمت بعض الأسماء غير المفهومة مثل "خوليو ماريو سانتودومنجو" الذي فرضه علينا "ألفونسو فوينماير" باعتباره مختلفاً عنا جميعاً، لكننا لم نفهم وجود اسمه في قائمة مجلس التحرير، في الوقت الذي كان فيه هذا الشخص مرشحاً ليكون روكفلر أمريكا اللاتينية، كان ذكياً ومثقفاً ولطيفاً، لكنه كان مرشحاً أيضاً للاندماج في السلطة الحكومية والفناء في دخانها، قليلون منا كان يعرف أن حلمه السري أن يكون كاتباً.

بالطبع سيكون "ألفونسو" رئيس التحرير، أما "خيرمان بارجاس" فهو كبير المحررين، والمنتظر أن أتعلم المهنة إلى جواره عندما يكون لدينا الوقت، أما "ألفارو ثيبيدا" فكان من المنتظر أن يتعاون معنا من نيويورك خلال دراسته هناك

بجامعة كولومبيا. في آخر الطابور كنت أكثر المتشوقين إلى تعييني مديراً لتحرير صحيفة أسبوعية مستقلة ذات مستقبل مجهول، كما حدث بالفعل.

كان لدى "ألفونسو" مخزون من سنوات من المواد الأدبية والتحقيقات والمقالات ووعود بالإعلان من أصدقائه الأثرياء، لم يكن لمدير التحرير ساعات عمل معينة لكن الراتب كان أفضل من أي صحافي آخر، إلا أنه كان مرتبطاً بالدخل الإعلاني المستقبلي، وعلى عاتقه يقع إعداد الصحيفة في موعدها، وأخيراً، يوم السبت التالي دخلت إلى مكان عملنا في "الهيرالدو"، في الخامسة مساء، قال "ألفونسو فوينماير" دون أن يرفع رأسه عن المقال الذي يكتبه:

– اخرج سيفك من غمده يا معلم، "كرونيكا" ستصدر الأسبوع القادم.

لم يصبني الرعب، لأنني كنت سمعت تلك الجملة مرتين من قبل، إلا أنها هذه المرة كانت الثالثة والنهائية. أكبر حدث صحفي كان في ذلك الأسبوع، هو وصول النجم الكروي البرازيلي "هيلينو دي فريتاس" ليلعب في "الديفورتيبو جونيور"، إلا أننا لم نحاول أن ننافس الصحافة المتخصصة فيه، ولكن النبأ كان بالنسبة لنا له أهمية ثقافية واجتماعية، ومن المفترض أن "كرونيكا" لا يجب أن تنغلق على نفسها في حدودها الضيقة، ويجب أن تنفتح على أشياء أخرى، خاصة كرة القدم التي تعد اللعبة الأكثر شعبية، كان القرار جماعياً والعمل متقناً.

أعددنا الكثير من المواد ولم نترك لآخر لحظة سوى تحقيق "هيلينو" الذي كتبه "خيرمان بارجاس"، الخبير في هذا المجال والمتعصب لكرة القدم. خرج العدد الأول في موعده في صباح السبت 29 من إبريل من عام 1950، يوم القديسة "سانتا كتالينا دي سينا"، كاتبة الرسائل الزرقاء في أجمل ساحة في العالم. وضعت تحت اسم "كرونيكا" عنواناً فرعياً ابتدعته من عندي "أفضل نهاية أسبوع"، كنا نعرف أننا نحاول الرقي بصحافة كولومبيا في تلك الأيام، وما كنا نريد أن نقوله لم يكن له سابقة في الصحافة المكتوبة باللغة الإسبانية، تصدرت

الصفحة الأولى صورة اللاعب "هيلينو دي فريتاس" رسمها الفنان "ألفونسو ميلو"، أكثر رسامينا الثلاثة قدرة.

نفدت الطبعة، على الرغم من الاستعجال ونقص الدعاية، قبل موعد وصولها إلى ملعب البلدية في اليوم التالي، 30 إبريل، حيث كانت المباراة المهمة بين "الديفورتبو جونيور" و"الإسبورتنج"، كليهما من "بارانكيا"، الصحيفة نفسها كانت منقسمة على نفسها؛ لأن "خيرمان بارجاس" و"ألفارو" كانا من مشجعي "الإسبورتنج"، إلا أن اسم "هيلينو" وتحقيق "خيرمان بارجاس" كانا وراء شهرة "كرونيكا" كصحيفة كولومبيا الرياضية الأولى.

كان الملعب ممتلئاً حتى آخره، وبعد ست دقائق سجل "هيلينو" أول هدف له في كولومبيا بقدمه اليسرى ومن منتصف الملعب، رغم أن "الإسبورتنج" كسب المباراة 3 مقابل 2. فقد كانت تلك أمسية "هيلينو"، وبعدها كانت أمسيتنا لنجاحنا في توقع النجاح، إلا أنه لم تكن هناك سلطة بشرية أو إلهية قادرة على إقناع الجمهور أن صحيفة "كرونيكا" ليست صحيفة رياضية بل أسبوعية ثقافية منحت خبر "هيلينو" شرف صفحتها الأولى باعتباره نبأ العام.

لم يكن الخطأ يعود إلى قلة الخبرة، فقد كان هناك ثلاثة من كُتَّابنا يتناولون الموضوعات الرياضية في مقالاتهم العامة، منهم "خيرمان بارجاس"، وبالطبع "ألفونسو فوينماير" كان مشجعاً كروياً دائماً، وكان "ألفارو ثيبيدا" خلال سنوات طويلة مراسل "الإسبورتنج نيوز" التي تصدر في "سان لويس" بولاية "ميسوري" الأمريكية، رغم أن القراء استقبلونا بأذرع مفتوحة في الأعداد التالية، ألا أن متعصبي كرة القدم هجرونا بلا كثير من الندم.

في محاولاتنا لجبر الصدع قررنا في مجلس التحرير أن أكتب تحقيقاً رئيساً مع اللاعب "سيباستيان بيراسكوتشيا"، النجم البرازيلي الآخر في فريق "الديفوتيبو جونيور"، على أمل الجمع بين الكرة والثقافة من جديد، تماماً كما

فعلت مع أشياء أخرى خلال كتابتي لمقالي اليومي، لكن حُمى كرة القدم التي زرعتها في شوطة "لويس كارميلو كورييا" عندما كنت أريد أن أصبح حارس مرمى في "اراكاتاكا"، كانت قد انخفضت حرارتها حتى الصفر، إضافة إلى أنني كنت متعصباً في ذلك الوقت للعبة البيسبول، لكني قررت تحمل المسئولية.

كان تحقيق "خيرمان بارجاس" النموذج الذي احتذيته، واطلعت أيضاً على تحقيقات كروية أخرى، وكان حواري مع اللاعب "بيراسكوتشيا" اللطيف سهل عليّ العمل، لأنه كان يفهم أهمية صورته التي يجب نقلها إلى الجمهور، الخطأ الذي ارتكبته هو تقديمه على أنه "باسكي" الأصل متأثراً بلقبه ذي الأصول الباسكية الإسبانية، دون انتبه إلى أنه كان أسود زنجياً إفريقياً، فكان أكبر فشل في حياتي وجاء في أسوأ أوضاع الصحيفة، مما جعلني أتقبل تماماً رسالة القارئ الذي وصفني بأنني الصحفي الرياضي الذي لا يستطيع التفريق بين الكرة والترام، حتى أن "خيرمان بارجاس" نفسه المعروف عنه حرصه على إصدار أحكام متزنة قال في كتاب يضم مذكراته صدر بعدها بسنوات، أن الحوار مع "بيراسكوتشيا" كان أسوأ ما كتبت في حياتي، أعتقد أنه متحامل بعض الشيء، ولكن ليس كثيراً؛ لأنه خبير في هذه المهنة، وله الكثير من التحقيقات والمقالات التي تبدو كما لو كانت مكتوبة على اللينوتيب بالصوت المرتفع.

لم نتخلَ عن كرة القدم ولا البيسبول؛ لأنهما كانتا لعبتين شعبيتين في الشاطئ الكاريبي، لكننا ركّزنا على الحدث اليومي والأحداث الأدبية الساخنة، إلا أن كل هذه كانت جهوداً ضائعة في الفراغ: لم نستطع أن نقنع أحداً بأن "كرونيكا" صحيفة غير رياضية، وهجرنا متعصبو كرة القدم، وظللنا نكتبها كما قررنا منذ البداية، إلا أنه بعد العدد الثالث كانت الصحيفة تسبح على قمة اللا تحديد.

لم يصبني الفزع، فرحلتي مع أمي إلى "اراكاتاكا"، والحوار التاريخي مع "رامون فينيس"، وعلاقتي الحميمة مع جماعة "بارانكيا"؛ منحتني نفساً جديداً ظل

معي إلى الأبد، منذ تلك اللحظة لم أكسب سنتيماً واحداً بغير استخدام الآلة الطابعة، وأعتقد أن هذه موهبة لا يستطيع أحد أن ينكرها، لأن أول حقوق نشر لكتبي وقصصي التي سمحت لي بالحياة، حصلت عليها وأنا في الأربعين من عمري، بعد نشر أربعة كتب حققت أرباحاً قليلة، قبلها كانت حياتي تسير بفضل الكثير من الألاعيب والآمال والسخرية من أحلام كثيرة، تحاول أن تدفعني لأكون أي شيء إلا أن أكون كاتباً.

(3)

باكتمال كارثة "آراكاتاكا"، موت الجد وانتهاء ما تبقى من جبروته الخفي، تحول من يعيشون في البيت فريسة للحنين، بقي البيت مهجوراً منذ أن انتهى السفر بالقطار. والجدة "مينا" والخالة "فرانثيسكا سيمودوسيا" تحوَّلتا إلى كفالة الخالة "إلفيرا كاريو"، التي كانت ترعاهما كما لو كانت خادمتهما المطيعة، عندما فقدت الجدة البصر وخف عقلها أخذها أبواي معهما لتعيش أيامها الأخيرة في سلام. أما الخالة "فرانثيسكا" العذراء الشهيدة ظلت كما هي على حياتها المشعوذة وكلامها الفظ، ورفضت تسليم مفاتيح المقابر ومخبز القرابين بادعاء أن الله منحهما إياها، جلست في يوم من الأيام أمام باب غرفتها بين شراشفها البيضاء الناصعة وخاطت كفناً على مقاسها، إلى درجة أن الموت أمهلها أكثر من أسبوعين حتى تنتهي من عملها. في تلك الليلة ذهبتْ إلى فراشها دون أن تودع أحداً، لم تكن تشعر بمرض ولا أي ألم يذكر، وماتت وهي في أفضل حالاتها الصحية، عرفوا بموتها في اليوم التالي عندما عثروا على شهادة الوفاة وكل أوراق دفنها موثقة وكاملة. وكذلك "إلفيرا كاريو"، التي لم تعرف في حياتها رجلاً عن سبق إصرار، عاشت وحيدة في البيت الكبير، كانت توقظها في الليل كحة مرعبة تتردد في جنبات الغرف المجاورة لكنها لم تهتم أبداً بمعرفة مصدرها؛ لأنها كانت معتادة على مقاسمة حياتها مع الحياة السفلية.

على عكس من ذلك كان شقيقها التوأم، "إستيفان كاريو"، ظل محتفظاً بكامل قواه العقلية، وحيوياً حتى تقدم في السن بدرجة كبيرة. في يوم من الأيام خلال تناول طعام الإفطار معه، ذكرت له على سبيل المزاح كل التفاصيل الدقيقة لحادثة

الذين حاولوا إلقاء والده من على ظهر السفينة في نهر "تينيجا"، فوقف غاضباً رافعاً كتفيه كما لو كان "سانشو بانثا" تابع "دون كيخوته"، لأنني لم أذكر هذا عند وقت وقوع الحدث، وطلب مني أن أفتش في ذاكرتي عن الرجل الذي تحدث مع جدي في ذلك اليوم، ليبحث عنه ويسأله عن الذين حاولوا إغراق الجد، ولم يفهم لماذا لم يدافع "باباليو" عن الجد على الرغم من أنه كان قناصاً ماهراً خلال الحرب الأهلية وحارب في الصفوف الأولى، كان ينام والمسدس تحت مخدته، وقتل مرة رجلاً خلال مبارزة. قال لي "إستيبان" إنه يمكنه ومعه أشقاؤه الانتقام للجد في أي وقت، إنه قانون "الجواخيرا": الاعتداء على أي فرد من العائلة يجب أن يدفع ثمنه رجال عائلة الجاني. كان الخال "إستيبان" مُصراً على تنفيذ فكرته إلى درجة أنه أخرج المسدس من حزامه ووضعه على الطاولة حتى لا يضيع، بعد استجوابي حول الجاني. ومنذ ذلك الوقت كنا كلما التقينا أخبره أنني سأتذكر ذلك الرجل في يوم ما، وجاء في إحدى الليالي إلى مكتبي في الصحيفة، عندما كنت أحاول إعادة تركيب تاريخ العائلة لكتابة روايتي الأولى، وعرض عليّ أن نقوم معاً بالتحقيق حول الهجوم على الجد، لم يُسلِّم بالأمر الواقع أبداً، وأذكر أنه في آخر مرة ودعني في "كارتاخينا" عندما كان في أواخر أيامه وقلبه لا يزال جريحاً، قائلاً:

- لا أفهم كيف استطعت أن تصبح كاتباً بهذه الذاكرة الضعيفة.

عندما لم يعد هناك ما نفعله في "آراكاتاكا"، أخذنا أبي لنعيش في "بارانكيا" مرة أخرى، وليفتتح صيدلية جديدة دون أن يمتلك سنتيماً واحداً من رأس المال، لكنه كان يتمتع بسمعة طيبة لدى الموردين من شركائه في تجارة سابقة، لم تكن الصيدلية الخامسة كما كنا نقول في العائلة، بل كانت الوحيدة التي كنا نأخذها معنا من مدينة إلى أخرى طبقاً للحالة التجارية لأبي: مرتان في "بارانكيا" ومرتان في "آراكاتاكا"، ومرة في "سينثي". حقق فيها جميعاً مكاسب قليلة جداً وديوناً

غير قابلة للسداد، بلا جد ولا جدة ولا أخوال ولا خدم، تقلصت العائلة جداً لتصبح مكونة من الأبوين والأبناء فقط، فقد كنا ستة- ثلاثة ذكور وثلاث إناث- حصيلة تسع سنوات من الزواج.

كنت قلقاً من هذا الوضع الجديد في حياتي، ذهبت إلى "بارانكيا" عدة مرات في زيارات لأبويَّ، عندما كنت طفلاً، وكانت زيارات قصيرة جداً، وذكرياتي عنها في تلك الأيام قليلة ومتشظية، زيارتي الأولى عندما كنت في الثالثة من عمري، عندما أخذوني إلى هناك بمناسبة ميلاد شقيقتي "مارجوت"، أتذكر رائحة طين الميناء الكريهة عند الفجر، وعربة الخيل التي كان سائقها يفزع الحمالين بسوطه عندما كانوا يحاولون التعلق بها في ارتفاعات الشوارع القائظة المهجورة والمتربة، أتذكر الجدران البنية وأبواب وشبابيك مستشفى الولادة الخضراء التي وُلِدتْ فيها أختي، ورائحة الأدوية القوية المنتشرة في الغرفة. الوليدة الحديثة كانت تنام وحيدة في سرير حديدي بسيط جداً، موضوع في ركن قصي من الغرفة، وكانت هناك امرأة لا شك في أنها كانت أُمي، لا أستطيع أن أتذكر سوى وجودها بلا ملامح محددة عندما مدت لي يدها الطويلة، وقالت:

- أنت لم تعد تتذكرني؟

ليس أكثر من هذا، لذلك فإن أول صورة لأمي كانت بعد ذلك بسنوات، كانت صورة واضحة ولا شك في حقيقتها، إلا أنني لا أستطيع تحديد زمنها، ربما كانت خلال زيارة قامت إلى "اراكاتاكا" بعد ميلاد "عايدة روسا"، أختي الثانية، كنت في الفناء ألعب مع خروف حديث الولادة حمله إليّ "سانتوس فييرو" بين ذراعيه من "فونسيكا"، حينها جاءت الخالة "ماما" تجري لتخبرني بصوت عال أزعجني:

- لقد جاءت أمك.

سحبتني إلى الصالة بالقوة، حيث كانت جميع نسوة البيت وبعض الجارات جالسات على كراس متراصة إلى جوار الحائط كما لو كن في مأتم، انقطع

الحوار بدخولي المفاجئ، ظللت ساكناً إلى جوار الباب، دون أن أعرف أيهن أمي، إلى أن فتحت لي ذراعيها بصوت من أكثر الأصوات التي أذكرها رقة:

- ها قد أصبحت رجلاً.

كان لها أنف روماني جميل، معتزة بنفسها وشاحبة، تميزت عن الجميع بموضة السنة: فستان من الحرير عاجي اللون ضيق عند الوسط، وعقد من اللؤلؤ يلتف حول عنقها عدة مرات، وحذاء فضي بأربطة وكعب عال، وقبعة من القش الرقيق على هيئة جرس تشبه قبعات ممثلات السينما الصامتة، لفني حضنها برائحتها الخاصة التي شعرت بها دائماً، فأحسست لحظتها بالذنب يعتصرني روحاً وجسداً؛ لأنني كنت أعرف أن واجبي أن أحبها ولكن شعوري تجاهها لحظتها لم يكن حقيقياً.

على العكس من ذلك فإن أقدم ذكرى أحتفظ بها لأبي لازلت أذكرها جيداً وبوضوح يوم 1 ديسمبر 1934، يوم عيد ميلاده الثالث والثلاثين. شاهدته يدخل بيت جدي في "اراكاتاكا" بقفزات سريعة وسعيدة، كان يرتدي حلة كاملة من التيل الأبيض وقبعة فلترية، هنأه أحدهم بعناق وسأله عن عدد السنوات التي أكملها. لم أنسَ أبداً إجابته؛ لأنني لم أفهمها وقتها:

- في عمر المسيح.

دائماً ما أسأل نفسي لماذا تبدو تلك الذكرى قديمة جداً، خاصة أنه في تلك السنوات كنتُ ألتقي بأبي كثيراً.

لم نعش معاً أبداً في بيت واحد، لكن بعد مولد "مارجوت" أخذني جدي معه لزيارة "بارانكيا"، لذلك عندما ولدت "عايدة روسا" كنت أكثر قرباً منهم، أعتقد أنه كان بيتاً سعيداً، كانت لديهم هناك صيدلية، وبعدها افتتحوا أخرى في المركز التجاري. عدنا لرؤية الجدة "أرخيميرا" - الأم "خيمي" - وابنين لها، "خوليو" وأنا، كانت جميلة جداً، ولكنها كانت شهيرة في العائلة بسوء حظها، ماتت في عمر

الخامسة والعشرين، دون أن يعرف أحد السبب، ولا يزالون يؤكدون أن وفاتها كانت نتيجة سحر أسود من خطيبها. بينما كنا ننمو كنت أرى الماما "خيمي" أكثر لطفاً وأقل كلاماً.

تسبب أبواي في تلك الفترة في إصابتي بأزمة عاطفية تركت في داخلي جرحاً من الصعب أن يندمل، كان ذلك في يوم أصاب أمي حنين للماضي، فجلست إلى البيانو لتعزف مقطوعة "عندما انتهت الرقصة"، إنه "فالس" حبها التاريخي السري، وما كان من أبي إلا أن نفض التراب عن آلة الكمان ليرافقها في العزف، على الرغم من أن الكمان ينقصه وتر، تناغما معاً في شكل رومانتيكي، وعزفا معاً من أجمل ما يمكن، إلى أن نظر إليها من طرف عينيه بحب، وانتبهت إلى دموع تغمم عينيه، فسألته أمي ببراءة عنيفة: "من التي تذكرتها الآن؟"، فأجابها تحت تأثير الفالس: "تذكرت المرة الأولى التي عزفناها معاً". حينها ضربت أمي البيانو بكلتا يديها في غضب وصرخت بأعلى صوتها:

- لم يكن ذلك معي يا "خوسيتو"، أنت تعرف جيداً مع من عزفت وتبكي الآن من أجلها.

لم تذكر الاسم، لا وقتها ولا في أي وقت آخر، لكن الصرخة نشرت الرعب في جميع أرجاء البيت، "لويس إنريكي" وأنا كانت دائماً لدينا أسباب خفية للخوف، اختبأنا تحت السرير، وهربت "عايدة" إلى بيت الجيران، وأُصيبت "مارجوت" بحمى مفاجئة استمرت معها لثلاثة أيام، على الرغم من أن إخوتي الصغار كانوا معتادين حالات الغيرة التي تصيب أمي، فتبدو عيناها مشتعلتين، وأنفها حاد كالسكين، شاهدناها تنزع لوحات الصالون بهدوء غريب وتلقي بها على الأرض واحدة بعد الأخرى فتنتثر سحابة من الزجاج المحطم، فاجأناها تتشمم ملابس أبي قطعة قطعة قبل أن تضعها في سلة الغسيل، لم يحدث أي شيء بعد ليلة الثنائي التراجيدية، لكن عامل الترميم أخذ البيانو لبيعه، أما الكمان- ومعه المسدس- فقد بقيا يتعفنان في دولاب الملابس.

كانت "بارانكيا" في ذلك الوقت متقدمة من الناحية المدنية، في ظل ليبرالية هادئة والتعايش السياسي، فكانا أساساً للنمو والازدهار طوال أكثر من قرن من الزمان سيطرت فيه الحروب الأهلية التي انتشرت في البلاد منذ استقلالها عن إسبانيا، وجاء بعد ذلك انهيار منطقة الموز الجريحة بالقمع الذي مارسته ضدها السلطات على إثر الإضراب الكبير.

إلا أنه حتى ذلك الوقت لم يوقف أحد حب المغامرة الذي يتحلى به سكانها، في عام 1919 قام الفتى "ماريو سانتودومينجو"- والد "خوليو ماريو"- بانفراده بالمجد المدني حين كان البادئ في افتتاح أول خط للبريد الجوي الوطني بسبعة وخمسين رسالة بريدية في حقيبة من المشمع تم إلقاؤها على شاطئ ميناء كولومبيا على بعد خمسة أميال من "بارانكيا"، من طائرة بدائية قادها الأمريكي "وليام كنوكس مارتين". بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بقليل، وصل إلى البلاد مجموعة من الطيارين الألمان- من بينهم "هيلموت فون كرون"- وافتتحوا خطاً للنقل الجوي بطائرات الجونكر اف- 13؟وكذلك أول قوارب برمائية قطعت نهر "ماجدالينا" كالجراد وكانت تحمل ستة ركاب إضافة إلى أكياس البريد. كانت تلك البويضة التي ولدت منها الشركة الكولومبية- الألمانية للنقل الجوي، التي تُعتبر واحدة من أقدم الشركات في العالم.

آخر انتقال لنا إلى "بارانكيا" لم يكن في رأيي مجرد تغيير مدينة أو بيت، بل تغييراً للأب في الحادية عشرة من العمر، الأب الجديد كان رجلاً عظيماً ولكن مفهومه للأبوة كان مختلفاً عن تلك الأبوة السعيدة التي عشتها وشقيقتي "مارجريتا" في بيت جدي، نحن المعتادين على امتلاك أمر أنفسنا بذلنا جهداً كبيراً للتطبع مع الوضع الجديد، الجانب المثير للإعجاب في أبي عصاميته المطلقة، فقد كان من أكثر القراء الذين عرفتهم نهماً للمعرفة، وإن كان أقلهم انتظاماً، انهمك وحده على دراسة الصيدلة منذ أن غادر مدرسة الطب، التي لم تكن مهنتها

في ذلك الزمن في حاجة إلى دراسة أكاديمية، واستطاع الحصول على رخصة ممارسة الصيدلة مع مرتبة الشرف، وبالمقابل لم يكن يتمتع بحس أمي في مواجهة الأزمات، ففي أسوأ تلك الأزمات أمضى الوقت مستلقياً على سريره المعلق بالغرفة يقرأ كل ما يقع بين يديه من أوراق مطبوعة، أو يحل الكلمات المتقاطعة. ومشكلته مع الواقع من الصعب حلها. كان معجباً بالأثرياء بشكل أسطوري، لكنه إعجاب بمن استطاعوا جمع المال بعرقهم ومواهبهم وشرفهم، فيما كان هو مستلقياً على سريره يُكَوِّن ثروات وهمية بإنشاء شركات سهلة لا يفهم لماذا لم تخطر على باله من قبل. ودائماً ما يتحسر بذكر الثروات الغريبة في أماكن بعيدة عن بيتنا، لأنها في معظمها توجد في بلاد عرفها خلال عمله كعامل تلغراف. ظللنا نعيش تحت رحمة انعدام واقعيته ما بين الفقر والبؤس، ووصل الأمر بنا إلى أننا كنا ننتظر أن تمطر السماء خبزاً. على أي حال خلال الأيام السيئة أو السعيدة، طلبوا منا أن نسعد بالأيام السعيدة، وأن نحتمل الأيام السيئة بخضوع وكرامة كاثوليكية على الطريقة القديمة.

التجربة الوحيدة التي كانت تنقصني وهي السفر بمفردي بصحبة أبي، وحصلت عليها كاملة عندما سافرنا إلى "بارانكيا" لمساعدته في إعداد الصيدلية ومجيء الأسرة. فاجأني أنه عندما كنا وحدنا كان يعاملني كما لو كنت رجلاً، بحب واحترام، إلى درجة أنه كلفني بأشياء تبدو صعبة على من هم في مثل سني، لكنني أنجزتها بشكل جيد، وأنا سعيد، وإن لم يكن متفقاً معي في ذلك دائماً، كان معتاداً على حكي حكايات طفولته عندما كان يعيش في مسقط رأسه، لكنه كان يكررها عاماً بعد عام للمواليد الجدد، مما جعل تلك الحكايات تفقد جاذبيتها؛ لأننا كنا نحفظها عن ظهر قلب، إلى درجة أننا نحن الكبار كنا نغادر الطاولة عندما كان يبدأ في حكيها بعد تناول الغداء. وأغضبه "لويس إنريكي" في واحدة من تعليقاته المباشرة بقوله:

– أخبروني عندما يعود الجد إلى الموت من جديد.

هـذه الانفعالات الوقتيـة كانت تُخرج أبي عن هـدوئه، وكانت تضـاف إلى مـا تراكم لديه من أسباب ليرسل شقيقي "لويس إنريكي" إلى ملجأ في "ميديين"، لكنه كان معي شخصاً آخر، ترك الحكايات الشعبية جانباً وقص عليّ فصولاً من حياته الصعبة مع أمي، وبخل أبيه الشهير، والصعوبات التي واجهها لاستكمال دراسته، سمحت لي تلك الذكريات احتمال بعض تطلعاته وفهم الكثير من تصرفاته غير المفهومة.

تحدثنا في تلك الفترة عن الكتب التي قرأناها والتي سنقرأها، وجمعنا من باعة الكتب القديمة بالسوق مجموعة تاريخية من روايات "طرزان" ومخبري البوليس وحروب الفضاء، وكدت أن أكون ضحية لميوله العملية، خاصة عندما طلب أن نكتفي بتناول وجبة واحدة في اليوم، كانت المواجهة الأولى بيننا عندما فاجأني بطلب أن أسد خروم بطني بالخبز والمشروبات الغازية بعد ست ساعات من تناولنا طعام الغداء، ولم أعرف كيف أخبره بمصدر النقود، لم أجرؤ على الاعتراف له بأن أمي أعطتني سراً ما يُعينني على تحمل نظامه الصارم في أسفاره، ذلك التواطؤ بيني وبينها استمر طوال الفترات التي كانت تستطيع فيها الحصول على ما يسد احتياجاتي، وعندما كنت في المدرسة الثانوية الداخلية كانت تضع في حقيبتي احتياجات مختلفة من تلك التي أحتاجها في الحمّام، وقدمت لي ثروة تقدر بعشرة بيزوات في علبة صابون ماركة "رويتر" معتمدة على أنني لن ألمسها إلا عند الحاجة إليها، وهذا ما كان، فأثناء الدراسة بعيداً عن البيت تكون أية لحظة مناسبة مثالية للتفتيش عن البيزوات العشرة.

كان أبي يحتال على ألا يتركني ليلاً في الصيدلية بمفردي، لكن أفكاره لم تكن دائماً الأكثر مناسبة لسنواتي الاثنتي عشرة حينها، فزيارات العائلات الصديقة ليلاً كانت تبدو لي طويلة لا تنتهي، لأن من لديها أبناء في مثل عمري كانوا يجبرونهم على النوم في الثامنة، فيتركوني فريسة للسأم وعقم أحلام النقاشات

الاجتماعية. يبدو أنني نمت أثناء زيارة أسرة طبيب صديق لأبي، ولم أعرف كيف ولا في أية ساعة استيقظت في شارع مجهول، ولم تكن لدي أدنى فكرة عن مكان وجودي. ولا كيف وصلت إلى ذلك المكان، ولم يكن هناك تفسير سوى أنني سرت نائماً، لم تكن هناك سابقة مثلها في العائلة ولم تتكرر بعدها حتى اليوم، لذلك لم يكن هناك تفسير ممكن آخر، أول ما فاجأني عند استيقاظي واجهة محل حلاقة مليء بالمرايا المشعة، حيث كانوا يستقبلون ثلاثة أو أربعة زبائن تحت ساعة تشير إلى الثامنة وعشر دقائق. وهي ساعة لا يمكن أن يبقى فيها طفل في الشارع بمفرده. تحت سيطرة الرعب اختلط عليّ اسم الأسرة التي كنا نزورها وتذكرت العنوان خطأ، لكن بعض المارة تمكنوا من ربط المعلومات ببعضها وأخذوني إلى العنوان الصحيح. وجدت كل الجوار مصاباً بالرعب تحت العديد من التفسيرات حول اختفائي. كل ما يعرفونه عني أنني قمت من على الكرسي أثناء أحاديثهم فاعتقدوا أنني ذاهب إلى الحمّام. تفسير الأمر على أنه حالة من حالات السير نائماً لم تقنع أحداً، وكان أبي الأقل اقتناعاً بها، الذي اعتقد أنها لم تكن سوى واحدة من أعمالي الشيطانية الفاشلة.

لحسن الحظ أنه استعاد ثقته فيّ بعدها بأيام عندما تركني في بيت آخر ليحضر عشاء عمل، كانت العائلة كلها مشغولة بمسابقة شعبية لحل الألغاز تذيعها إذاعة "أتلانتكو" على الهواء مباشرة، وكان اللغز ساعتها يبدو صعباً: ما الحيوان الذي يتغير اسمه عندما ينقلب على ظهره؟"، كنت قرأت شرح هذه المسألة في اليوم نفسه في آخر طبعات مجلة "الماناكي بريستول"،وكنت أعتقد أنها نكتة سخيفة، تقول إن الحيوان الوحيد الذي يتغير اسمه بانقلابه على ظهره هو الخنفس، (في اللغة الإسبانية ترجمة هذا الاسم حرفياً تعني "وجهه إلى أسفل" فعندما ينقلب على ظهره يتحول إلى "وجهه إلى أعلى"– المترجم)، وشوشتُ بالإجابة سراً لطفلة من بنات البيت، فقامت الأخت الكبرى بإمساك التليفون

واتصلت بالإذاعة لتقول الإجابة، وحصلت على الجائزة الأولى، التي تكفي لدفع إيجار البيت لثلاثة أشهر: مائة بيزو. امتلأت الصالة بالجيران الفرحين الذين استمعوا إلى البرنامج وجاءوا لتهنئة الأسرة الفائزة، لكن ما كان يهم الأسرة أكثر من النقود الفوز الذي حققوه في برنامج كان من أشهر البرامج في تلك الفترة في كل الشاطئ الكاريبي ولم ينتبه أحد لوجودي بينهم، عندما جاء أبى ليصطحبني معه انضم إلى الزفة العائلية وشرب نخب الفوز، لكن لم يخبره أحد بالفائز الحقيقي.

انتصار آخر حققته في تلك الفترة كان تصريح أبي لي بحضور حفلات مسرح كولومبيا المسائية أيام الأحد، كانوا يعرضون هناك مسلسلات سينمائية على حلقات كل يوم أحد، كانت تخلق حالة من الترقب تظل حية في عقل المشاهد الأسبوع كله، كان"غزو مانجو" أول أسطورة فضائية احتلت قلبي ولم تخرج منه إلا بعد ذلك بسنوات لاحتلال "أوديسا الفضاء" مكانها، إلا أن السينما الأرجنتينية هزمت كل هذه السلاسل جميعاً بأفلام "كارلوس جارديل" و"ليبرتاد لاماركي".

أعددنا الصيدلية في أقل من شهرين، وحصلنا على سكن للعائلة وفرشناه. كانت الصيدلية على ناصية مزدحمة في المركز التجاري، على بعد أربعة شوارع من طريق "بوليفار"، فيما كان البيت في شارع جانبي في بالحي القديم البائس. لم يكن الإيجار على قدر قيمة البيت الحقيقية ولكن بقدر ما كان منه سابقا: بيت مدهون باللونين الأصفر والأحمر وعلى جانبيه برجان عسكريان.

علقنا أسِرتنا في حوائط مخزن الصيدلية في اليوم الأول الذي استلمناه فيها، ونمنا هنا تحت وطأة الحر البطيء غارقين في بحر من العرق. وعندما تسلمنا البيت اكتشفنا عدم وجود حلقات بالحوائط لتعليق الأسِرَة، ففرشنا المراتب على الأرض ونمنا كيفما اتفق، وحصلنا على قط بشكل مؤقت لطرد الفئران من البيت، وعندما جاءت أمي ببقية الملابس لم تكن الدواليب قد اكتملت بعد ولم تكن هناك أدوات مطبخ ولا أشياء أخرى لازمة لممارسة الحياة.

كان البيت عادياً ويكاد لا يكفينا، مُكوَّن من صالة وغرفة طعام وغرفتي نوم وفناء صغير مكسو بالحجارة، قيمته لا تساوي ثلث الإيجار المدفوع فيه، انزعجت أمي بمجرد رؤيته، لكن زوجها هدَّأ من روعها برسم صورة ذهبية للمستقبل، كانا دائماً على هذا الحال، من المستحيل العثور على كائنين مختلفين جداً لكنهما متفاهمان ومتحابان بشكل لا يُصدق.

أفزعني مشهد أمي، فقد كانت حاملاً للمرة السابعة، أعتقد أن جفنيها وقدميها كانت منتفخة تماماً كبطنها، كانت وقتها في الثالثة والثلاثين، وكان ذلك البيت هو الخامس الذي نفرشه، أفزعتني حالتها النفسية، التي تدهورت منذ الليلة الأولى، كانت مرتعبة من الفكرة التي اخترعتها بنفسها دون أدنى علاقة بالواقع، فقد اعتقدت أن السيدة "إكس" عاشت في هذا البيت قبل أن تموت طعناً بالسكاكين، وقعت تلك الجريمة قبل سنوات، خلال وجود أبويَّ في هذه المدينة أول مرة، حدثت جريمة مرعبة إلى درجة أن أمي أقسمت ألا تعود للحياة في "برانكيا" مرة أخرى، ربما كانت قد نسيتها قبل عودتها هذه المرة، ولكن ذكرى الجريمة عادت إلى ذاكرتها فجأة في الليلة الأولى بالبيت الكئيب الشبيه بقلاع "دراكولا".

أول نبأ عن السيدة "إكس" كان عند العثور عليها عارية ومشوهة الملامح بسبب حالة التعفن الشديد، قيل إنها امرأة أقل من ثلاثين عاماً، لها شعر أسود وملامح جذابة، اعتقدوا أنهم دفنوها حية؛ لأنها كانت تضع كفها الأيسر على عينيها وتبدو على ملامحها حالة الرعب، فيما كانت ذراعها اليسرى مرفوعة حتى مستوى رأسها، الدليل المادي الوحيد على هويتها شرائط زرقاء ومشط ذهبي لضم الشعر. أقرب التكهنات تحدثت عن راقصة فرنسية متساهلة في حياتها اختفت في التوقيت نفسه.

كانت "برانكيا" مدينة معروفة بإنها أكثر المدن أمناً في البلاد، ولكن هذا لم يمنع حدوث جريمة بشعة كل عام، لكن لم تقع جريمة أثارت الرأي العام مثل هذه

القتيلة المجهولة، إلى درجة أن صحيفة "لابرنسا" التي تُعتبر من أكثر الصحف الوطنية أهمية في تلك الأيام، نشرتها مصورة على الصفحات الأولى لطبعتها الأسبوعية، تماماً مثل "بوك روجرز" و"طرزان" والقرود، وظلت تثير رعب المدينة لفترة من الزمن بنشر المانشيتات الرئيسية وتقديم اكتشافات مفاجئة اشتهرت في البلاد كلها.

حاولت السلطات وقف النشر بادعاء أن نشر تلك المعلومات يعرقل التحقيق، ولكن انتهى الجمهور إلى تصديق ما تنشره الصحيفة أكثر من تصديق ما تقوله السلطات، وظلت المواجهة قائمة بينهما لعدة أيام، ووصلت إلى حد أنها أجبرت المحققين على تغيير توجهاتهم، وقتها كانت صورة السيدة "إكس" مغروسة في عقول الجماهير بقوة، إلى درجة أن الكثير من البيوت كانت تُغلق أبوابها بالجنازير الحديدية وفرضت حراسة ليلية قوية، خوفاً من عودة المجرم الهارب إلى مواصلة جرائمه البشعة، وطالبوا بعدم خروج المراهقات بعد السادسة مساء.

إلا أن الحقيقة، لم يكتشفها أحد، ولكن كشف عنها المجرم نفسه بعدها بعدة سنوات، فقد اعترف "أفراين دونكان" أنه قتل زوجته "أنخيلا أويوس"، في الوقت الذي حدده الطب الشرعي، وأنه دفنها في المكان الذي عثروا فيه على القتيلة، وتعرّف أهلها على الأشرطة الزرقاء والمشط الذي كانت تحمله "أنخيلا" عندما خرجت من بيت أسرتها برفقة زوجها يوم 5 أبريل بدعوى السفر إلى "كلامار"، وتم إغلاق ملف القضية باعتراف الجاني الذي بدا كما لو كانت نهاية رواية كتبها مؤلف فاشل، كانت لـ"أنخيلا" شقيقة توأم تشبهها تماماً سهَّلَ التعرف عليها.

انهارت أسطورة السيدة "إكس" وتحولت إلى جريمة عاطفية عادية، لكن سر الشقيقة التوأم ظل يحوّم على البيوت، وقيل إنها هي السيدة "إكس" نفسها عادت إلى الحياة بفعل السحر، من وقتها والبيوت تغلق أبوابها بترابيس وتضع قطع الموبيليا خلف الأبواب لمنع القاتل الهارب من السجن من الدخول ليلاً، وفي الأحياء

الثرية بدأت ظاهرة اقتناء كلاب الصيد المدربة على مطاردة المجرمين القادرين على اختراق الجدران، في الواقع أن أمي لم تستطع التغلب على خوفها إلى أن أقنعها الجيران أن هذا البيت بني بعد حادثة السيدة "إكس" بزمن.

في 10 يوليو 1939، أنجبت أمي طفلة لها ملامح هندية جميلة، عمدوها باسم "ريتا" تيمناً بالقديسة "ريتا دي كاسيا"، التي نالت شهرتها بالعديد من الكرامات وصبرها على تحمل الحياة مع زوجها السكير، وقصت علينا أمي أن الزوج عاد إلى البيت في إحدى الليالي في حالة سكر بيِّن بعد دقيقة واحدة من تبرز إحدى الدجاجات على مفرش المائدة، ولما لم تجد القديسة وقتاً لتنظيف المفرش غطت براز الدجاجة بطبق حتى لا يراه الزوج، ولإبعاد نظره وسألته:

– ماذا تريد أن تأكل؟

هتف الزوج المناكف:

– براز.

فرفعت الزوجة الطبق وقالت له بحلاوة قدسية:

– إنه أمامك.

تقول القصة أن الزوج اقتنع وقتها بقدسية زوجته واعتنق الديانة المسيحية.

كانت صيدلية "برانكيا" الجديدة فشلاً ذريعاً، قام أبي بإغلاقها سريعاً، بعد عدة أشهر من التعامل بالقطاعي، فكان يقترض مرتين ليدفع ديناً واحداً، وأصبح لا يطاق، وفي يوم من الأيام أغلقها بالضبة والمفتاح ورحل بحثاً عن الثروة في قرية لا تخطر على بال أحد بالقرب من نهر "ماجدلينا". أخذني قبل رحيله مع شركائه وأصدقائه وأعلن بجدية أنني سأحل محله في البيت، لم أعرف مطلقاً إن كان فعل ذلك مستغلاً الظروف كما كان يحلو له أن يقول أم لا. أعتقد أن كلاً منا فهم الأمر على طريقته، لأنني في الثانية عشرة كنت نحيلاً وشاحباً ولا أكاد أصلح لشيء غير الرسم والغناء، إلى درجة أن المرأة التي كانت تبيع لنا الحليب بالأجل

قالت لأمي أمام الجميع وأمامي بحسن نية:

– معذرة إن قلت لك، يا سيدتي، هذا الطفل لن يعيش طويلاً.

تملكني الرعب لفترة طويلة خوفاً من موت مفاجئ، وحلمت كثيراً أنني عندما كنت أنظر في المرآة لم أكن أرى نفسي بل أرى عجلاً في بطن أمه، وشَخَّصَ طبيب المدرسة حالتي على أنني مصاب بالملاريا والتهاب اللوز والصفراء الناتج عن القراءات غير المنظمة، لم أحاول أن أخفف وقع الصدمة على أحد، على العكس تماماً، كنت أعلن عن مرضي حتى أتجنب عمل الواجبات المدرسية، إلا أن أبي قفز على العلوم قبل ذهابه، وأعلنني مسئولاً عن البيت والأسرة في غيابه وقال:

– كما لو كنت أنا نفسي.

جمعنا يوم رحيله في الصالة، وأعطانا أوامره، وعنفنا على ما يمكن أن نسيء عمله في غيابه، لكننا انتبهنا إلى أنها محاولات من جانبه حتى لا يذرف الدموع، أعطى لكل منا قطعة من فئة الخمس سنتيمات، كانت ثروة صغيرة لأي طفل في تلك الأيام، ووعدنا بأن يبادلنا إياها باثنتين أكبر منها لو أننا حافظنا عليها كما هي إلى حين حضوره، وأخيراً توجه نحوي بنغمة إنجيلية:

– أتركهم في رعايتك، وعليَّ أن أجدهم عند عودتي كما تركتهم لك.

تمزق قلبي وأنا أراه يخرج من البيت بملابس الركوب وعلى كتفه مخلاته، وكنت أول من انخرط في البكاء عندما نظر إلينا لآخر مرة قبل أن يختفي على الناصية وودعنا بتلويحة من يده، وقتها فقط، وللأبد، شعرتُ إلى أي حد كنت أحبه.

لم يكن صعباً تنفيذ وصيته، فقد بدأت أمي تعتاد على الوحدة غير المحسوبة، وكانت تتعامل معها بحنق ولكن بيسر كبير، تَطلب العمل في المطبخ وتنسيق البيت أن يساعد الجميع في القيام بواجبات البيت، وكانوا يقومون بواجبهم بشكل جيد.

بدأت أشعر في تلك الفترة بإحساس الرجولة عندما بدأ أشقّائي يتعاملون معي وكأنني العم.

لم أتمكن من هزيمة خجلي أبداً، عندما كان عليّ أن أقوم بالأعمال التي تركها لنا الأب المرتحل دائماً، تعلمت أن الخجل شبح لا يمكن هزيمته، ففي كل مرة كنت أطلب فيها قرضاً متفقاً عليه من قبل مع بعض الأصدقاء كنتُ أتأخر بالدوران حول البيت محاولاً كتم رغبتي في البكاء إلى أن أتجرأ في النهاية على الحديث بفكين منطبقين، إلى درجة أن أحد بقالي الحي كان يقول لي:

- أيها الطفل المكرم، لا يمكن الحديث بفم مغلق.

وعدت أكثر من مرة خالي اليدين وتعللت بأسباب أختلقها أنا، وربما لم أشعر في حياتي بالتعاسة كتلك المرة التي حاولت فيها الحديث بالتليفون في البقالة المجاورة، ساعدني البقال على الحديث مع عاملة التليفون؛ لأن الخدمة الآلية لم تكن موجودة بعد، شعرت بإحساس الموت عندما دق الجرس وكنت أنتظر صوتاً مستعداً لمساعدتي وإذا بي أسمع نباح شخص يتحدث معي من الظلام في ذات الوقت الذي أتحدث فيه، واعتقدت أن محدثي لا يفهمني كما لا أفهمه فرفعت صوتي بقدر ما استطعت. رفع الآخر، رفع صوته غاضباً:

- وأنت، لماذا تصرخ بحق الشيطان.

وضعت السماعة مرتعباً، وعليّ أن أعترف أنه على الرغم من قدرتي على الاتصال لا زلت أبذل جهداً عندما أتحدث في التليفون أو أصعد الطائرة، ولا أعرف إن كان هذا نتيجة تلك الأيام، كيف يمكنني أن أصبح شيئاً مهماً في المستقبل؟ لحسن الحظ، أن أمي كانت تردد مثلاً يقول:

- يجب أن تعاني لتخدم.

وصلنا أول خبر من أبي بعد أسبوعين في رسالة مهمتها إعانتنا على الصبر أكثر منها لتخبرنا بأي شيء، وفهمتها أمي على هذا النحو، وغنت أثناء غسل

الأطباق في ذلك اليوم لترفع من معنوياتنا، كانت الحياة بدون أبي مختلفة: كانت تتعامل مع أخواتي كما لو كانت شقيقتهن الكبرى، وكانت تتباسط معهن حتى أصبحت أكثرهن استمتاعاً باللعب الطفولي، خاصة اللعب بالعرائس. ووصلت إلى حد نسيانها الخجل فكانت تتعارك معهن نداً لند. وبالأنباء نفسها تلقينا رسالتين أخريين من أبي تتحدثان عن مشروعات واعدة تساعدنا على النوم بشكل أفضل.

المشكلة الكبرى كانت تكمن في الملابس التي كانت تضيق على أجسادنا بسرعة رهيبة، ولم يكن هناك من يرث "لويس إنريكي" ملابسه ولا كان ممكناً أن يرث ملابسه أحد لأنه كان يأتي من الشارع زاحفاً وملابسه قد تحولت إلى خرق، دون أن نفهم السبب أبداً، كانت أمي تقول يبدو كما لو كان يسير بين أسلاك شائكة. الشقيقات- ما بين السابعة والتاسعة في العمر- كن يتبادلن الملابس بشكل مدهش، وفكرت دائماً أن حالة الطوارئ في تلك الأيام عجَّلت بنموهن قبل الأوان، كانت "عايدة" كثيرة الحيل، فيما تغلبت "مارجوت" على جانب كبير من خجلها وكانت تبدو متفهمة وحنونة على شقيقتها حديثة الولادة، كنت أنا أكثر الجميع قسوة، ليس لأنني كنت مكلفاً بالقيام بأعمال مختلفة في طبيعتها عنهم، ولكن لأن أمي، المحمية بحماس الجميع، دمرت ميزانية العائلة بتسجيلي في مدرسة "كارتاخينا"، على بعد عشرة شوارع سيراً على الأقدام.

طبقاً لعملية التقديم كنا حوالي عشرين متقدماً. كان علينا أن نحضر في الثامنة صباحاً لدخول امتحان القبول، ولحسن الحظ إنه لم يكن امتحاناً مكتوباً، بل كان هناك ثلاثة من الأساتذة ينادون علينا طبقاً لوجودنا في كشف التقديم ويمتحنوننا طبقاً للشهادات الحاصلين عليها من قبل. الشهادة الوحيدة التي كانت معي هي الشهادة الابتدائية؛ لأني لم أتمكن من تقديم شهادات الدراسة في "مونسوري" لضيق الوقت، واعتقدت أمي أنهم لن يقبلوني لنقص الأوراق، إلا أنني قررت أن أمثل دور المجنون، أخرجني أحد المدرسين من الطابور عندما اعترفت له

بأنني لا أملك شهادات، إلا أنه قرر أن يأخذني معه إلى مكتبه ليمتحنني بلا شهادات، سألني عن حجم القاروصة، وكم سنة في القرن، وكم في العقد، وطلب مني أن أذكر له عواصم المقاطعات الواقعة عل الأنهار الوطنية، والدول المجاورة. سار كل شيء روتينياً إلى أن سألني عن الكتب التي قرأتها، ولفت نظره أنني قرأت كتباً كثيرة ومختلفة على الرغم من حداثة سني، وأنني قرأت "ألف ليلة وليلة" في طبعة للكبار التي لم يحذفوا منها بعض المقاطع الصعبة التي أثارت حفيظة الأب "أنجاريتا". أدهشني أنه كان كتاباً مهماً، لأنني اعتقدت دائماً أن الكبار لا يمكنهم أن يصدقوا أن الجان يخرج من الزجاجات أو أن الأبواب تفتح بكلمة سحرية. المتقدمون قبلي لم يكونوا ليتأخروا عن ربع الساعة في الامتحان، سواء نجحوا أم رسبوا، وأنا أمضيت أكثر من نصف ساعة أتناقش مع المُعلم في موضوعات مختلفة، ومسحنا معاً مجموعة من الكتب المتراصة خلفه في دواليب معلقة بالحائط والتي كان من بينها كتب شهيرة، مثل: "كنز الشباب" الذي سمعتهم يتحدثون عنه، إلا أن المُعلم أقنعني بأن أكثر الكتب مناسبة لسني هو "دون كيخوتي"، لكنه لم يجده في المكتبة، ووعدني إعارته لي فيما بعد. بعد نصف ساعة من التعليق على "السندباد البحري" أو "روبنسون كروز" رافقني إلى الصالة دون أن يقول لي كلمة واحدة، لكن عندما خرجنا إلى الشرفة ودعني بالشد على يدي على أن نلتقي الاثنين في الثامنة صباحاً، لأسجل اسمي في الدورة الدراسية العليا من المدرسة الابتدائية: الصف الرابع.

كان المُعلم هو المدير العام، اسمه "خوان بنتورا كاسالينز"، ولا زلت أذكره كصديق طفولتي، لم يكن فيه أي شيء من الصورة المرعبة التي نعرفها عن مُعلمي تلك الفترة، فضيلته التي لا تُنسى، كانت معاملتنا على أننا كبار مثله تماماً، وإن كان منحني رعاية خاصة، فكان يسألني في الدرس أكثر من التلاميذ الآخرين، وكان يساعدني على الإجابة لتكون صحيحة، وسهلة. كان يسمح لي باستعارة

خارجية من كتب المكتبة لأقرأها في البيت، منها كتابان كانا مخدري الجميل في تلك السنوات المدهشة: "جزيرة الكنز" و"الكونت دي مونتي كريستو". التهمتهما حرفاً حرفاً تحت وطأة الرغبة في معرفة ما الذي سيحدث في السطر التالي، وفي الوقت نفسه الرغبة في ألا أعرف المزيد حتى لا تفقد القصة سحرها، مع هذين الكتابين و"ألف ليلة وليلة" تعلمت أشياء منها أن نقرأ حتى لا ننسى القراءة أبداً.

على العكس من ذلك فإن قراءتي لرواية "دون كيخوتي" كانت فصلاً آخر مختلفاً؛ لأنها لم تسبب لي الإحساس الذي نقله لي المُعلم "كاسالينز". كانت تضجرني حوارات الفارس المرتحل وأكثر منه إضجاراً كان تابعه، ووصل شعوري بالضجر إلى درجة أنني اعتقدت أنه ليس الكتاب الذي حدثني عنه المُعلم كثيراً، فقلت لنفسي إن مُعلماً يعرف الكثير لا يمكنه أن يخطئ، وبذلت جهداً كبيراً لأبتلعه كالدواء بالملعقة، وعدت إليه في محاولة لقراءته أثناء دراسة البكالوريا، فدرسته كمادة إجبارية، مما أضجرني أكثر، إلى أن نصحني صديق أن أضعه جانباً وأقرأ فيه ما بين وقت وآخر أثناء القيام بواجباتي اليومية. اكتشفته بهذه الطريقة، تحت وطأة الاحتراق البطيء واستمتعت به، إلى درجة أنني حفظت منه مقاطع كاملة.

تركت في تلك المدرسة المحلية ذكريات أخرى حول تلك المدينة التاريخية التي لا تُنسى. كانت المدرسة عبارة عن بيت مبني على منحدر أخضر، يمكن من خلال شرفتها رؤية أركان العالم جميعاً، من اليسار كان حي "ألبرادو"، الأكثر تميزاً وثراء. من النظرة الأولى بدا لي كحظيرة الدجاج المكهربة التي كانت تمتلكها شركة الفاكهة، التشابه لم يكن صدفة: فقد بنته الشركة الأمريكية من نموذج واحد وأسعار موحدة وبمواد البناء المستوردة، كانت منطقة جذب سياحي لباقي البلاد، وعلى اليمين كان هناك حي الطبقة السفلى المترب الذي نسكن فيه، بشوارعه المتربة الحارقة، والبيوت الطينية ذات الأسقف الجريدية والتي تُذكِّرنا

الآن بأننا لم نكن سوى بشر من لحم وعظم. لحسن الحظ، كنا نحصل من شرفة المدرسة على صورة بانورامية للمستقبل: حيث توجد الدلتا التاريخية لنهر "مجدلينا"، الذي يُعد أحد أكبر الأنهار في العالم، وقمم جبال "لاس بوكاس نقراس" الرمادية.

في 28 مايو 1935، شاهدنا ناقلة البترول "تاراليت" بالعَلَم الكندي تدخل الميناء بقيادة "دي. اف. ماكدونالد"، وبمصاحبة الموسيقى والألعاب النارية، لتنهي جهوداً مدنية، لسنوات طويلة تحولت بعدها "بارانكيا" لتكون إلى أول ميناء بحري ونهري في البلاد.

بعدها بقليل، مرت طائرة بقيادة الكابتن "نيكولاس رييس مانوتاس" على أسطح البيوت بحثاً عن مكان لإجراء هبوط اضطراري، لم يكن الطيار يحاول إنقاذ نفسه ولكن أيضاً إنقاذ المؤمنين الذين وجدهم في طريقه. كان هذا الطيار من أوائل الطيارين في تاريخ كولومبيا، أهدوه تلك الطائرة البدائية في المكسيك، وطار بها بمفرده من أقصى شمال وسط أمريكا إلى أقصى جنوبها، وكانت مجموعات هائلة قد أعدت له استقبالاً حافلاً في مطار "برانكيا" بالمناديل والموسيقى والأعلام. لكن "رييس" أراد أن يدور دورتين شرفيتين لتحية المدينة قبل هبوطه في المطار؛ فأصيبت طائرته بعطل ميكانيكي، وتمكن من السيطرة عليها بمعجزة، وهبط على سطح مبنى بالمركز التجاري، لكنه وقع في شراك الأسلاك الكهربائية، وظل مُعلقاً في القوائم الخشبية التي تشدها، تابعناه- شقيقي "لويس إنريكي" وأنا- بين الجماهير المتزاحمة إلى أن هدّنا التعب، وتمكّنا من مشاهدة الطيار بعد محاولات إنقاذه بكامل عافيته وسط صيحات الجماهير التي عاملته كبطل.

وأيضاً بدأ أول بث إذاعي في المدينة، وتم تحويل مجاري مائية قديمة إلى مكان سياحي وتعليمي لعرض الطريقة الجديدة في تنقية المياه، وتحوّلت صفارات وأجراس عربات بوليس المطافئ إلى لعبة الصغار والكبار المفضلة منذ أن بدأت

في العمل بالمدينة، ومن تلك المنطقة دخلت السيارات الأولى المدينة، لتجري في شوارعها بسرعة جنونية. وأُنشئتْ أول شركة لتجهيز ودفن الموتى تم استلهامها من السخرية من الموت، وضعت إعلاناً دعائياً على طريق الخروج من المدينة يقول: "لا تُسرع، نحن ننتظرك".

في الليل، عندما لم تكن هناك نار سوى نار البيت كانت أمي تجمعنا لقراءة رسائل أبي، معظمها حكايات لإلهائنا، لكن رسالة منها كانت صريحة جداً حول انتشار ظاهرة الطب التجانسي في أعلى نهر "ماجدالينا"، يقول فيها: "توجد حالات هنا تبدو كما لو كانت معجزات". كان دائماً ما يترك لدينا انطباعاً بأنه سيكشف لنا عن شيء كبير، ولكن ما يأتي بعد ذلك هو شهر آخر من الصمت، في الأسبوع المقدس، أُصيب اثنان من أشقائي بمرض تمدد الأوردة، ولم نستطع أن نتصل به، لأنه لم يكن هناك من يعرف مكانه بالضبط.

تعلمت في تلك الأيام كلمة لها علاقة بالحياة الواقعية كان يرددها جدي وجدتي: الفقر. أنا كنت أفهمها في بيت جدي على أنها الحالة التي كنا نعيشها هناك منذ أن بدأت شركة الموز تُنهي أعمالها. كان جدي يشكو من الفقر في كل ساعات النهار والليل، ولم يعد الجلوس إلى المائدة ثلاث مرات أو حتى مرتين، كما كان في السابق، بل كان مرة واحدة، وحتى لا نتخلى عن طقوس الغذاء المقدسة، عندما لم نكن نمتلك ما نحافظ به عليه، تحوَّلنا إلى شراء الطعام من المطاعم؛ لأنه كان جيداً وأرخص ثمناً، خاصة بعد مفاجأة أن الأطفال كانوا يحبونه أكثر، ولكن تلك الأطعمة توقفت عندما علمت "مينا" أن بعض الضيوف قرروا عدم العودة إلى البيت مرة أخرى، لأنهم لم يعودوا يستمتعون بالطعام كما كان في الماضي.

فقر أبويَّ في "برانكيا" كان مختلفاً؛ لأنه كان منهكاً، ولكنه سمح لي أن أُقيم مع أمي علاقة ممتازة، أكثر من كونه حباً أُمومياً، ولكنه كان إعجاباً كبيراً بشخصيتها كأنثى الأسد الصامتة المرعبة في مواجهة المواقف الصعبة، ولعلاقتها

بالله، التي لم تكن علاقة خضوع بل علاقة مواجهة، كانا أساسين منحاها ثقة في الحياة لا تُقاوم، كانت تسخر من أفعالها في أسوأ حالات الحياة، كما حدث عندما اشترت رِجْل عجل كانت تغليها يوماً بعد يوم لصنع شربة للطعام إلا إذا لم يكن ممكناً غليها أكثر من ذلك، فقامت بإضافة شحم الخنزير إليها. وعندها انقطع التيار الكهربائي، ولم تجد ما تضيء به البيت، نشرت الخوف بين الصغار كي لا يتحركوا من السرير حتى الصباح التالي.

في البداية كان أبى وأمي يزوران العائلات الصديقة المهاجرة من "آراكاتاكا" على إثر أزمة شركة الموز، وتدهور الأمن العام، كانت زيارات دائرية تدور دائماً حول الأوضاع السيئة التي وقعت في أُسْرِها القرية. ولكن عندما اشتد الفقر علينا في "بارانكيا"، لم نعد نشكو مما كان يشكو منه الآخرون، وتحول حديث أمي إلى جملة واحدة: "الفقر يمكن رؤيته في العيون".

إلى أن أكملت الخامسة من عمري، كنت أعتقد أن الموت نهاية طبيعية تحدث للآخرين، وملذات السماء ورعب جهنم كانت مجرد دروس لحفظ الكتاب المقدس. وأن كل هذا لا علاقة له بي، إلى أن علمت بشكل عرضي في إحدى الجنازات أن القمل يهرب من شعر الميت وينتشر على الوسائد، ولكن ما أخافني من وقتها ليس الموت بل الخجل من هروب القمل من شعري أمام الحاضرين في الجنازة، مع ذلك لم أنتبه- عندما كنت في المدرسة الابتدائية في "بارانكيا"- إلي أن القمل انتقل إليّ لدرجة أنني نقلت عدواه إلى الأسرة كلها، مما جعل أمي تؤكد من جديد على قوة شخصيتها، فقد قامت بتنظيفنا واحداً بعد الآخر بسم قاتل للصراصير أطلقت عليه اسم: "البوليس"، المؤسف أنه بعد عملية النظافة هذه، عدنا إلى نقل عدوى القمل من المدرسة من جديد، وقتها قررت أمي اتخاذ إجراء حاسم وهو أن نحلق شعرنا من جذوره، فكان عملاً بطولياً أن أذهب إلى المدرسة الاثنين التالي وعلى رأسي قبعة من الخرق، لكني انتصرت على سخرية الزملاء بشرف، وأنهيت

العام بأفضل النتائج. لم أعد أرى- بعد- المُعلم "كاسالينز"، ولكن بقي الإحساس بالامتنان تجاهه.

ألحقني صديق لأبي لم نكن نعرفه من قبل بالعمل خلال الإجازات في مطبعة قريبة من البيت، الراتب لا يكاد يكون شيئاً يذكر، فقد كان هدفي تعلم المهنة، مع ذلك؛ لم أشاهد المطبعة أبداً؛ لأن عملي كان رص ألواح الطباعة المعدنية لإعدادها لمرحلة أخرى، ربما كان المغري أن أمي سمحت لي أن أشتري براتبي الملحق الأسبوعي لصحيفة "لابرنسا" التي كانت تنشر حلقات مرسومة من "طرزان"، و"بوك روجرز"، التي كانوا يسمونها "بينتين وانياس"، وخلال عطلات أيام الأحد تعلمت رسم تلك القصص من الذاكرة، بل كنت أواصل إكمال القصة بطريقتي الخاصة، بهذه الرسوم جذبت بعض الكبار من الجيران وبعت بعضها لهم بأسعار وصلت إلى سنتيمين.

كان العمل مُنهكاً وبلا قيمة، ومهما بذلت من جهد، فقد كان رؤسائي يتهمونني بعدم الحماس للعمل، وإرضاءً لعائلتي أخرجوني من المطبعة، وكلفوني بتوزيع إعلانات في الشوارع عن مشروب لدواء الكحة يؤكد أشهر نجوم السينما نجاعته. اعتقدت في البداية أنه عمل جيد؛ لأن ورق الدعاية كان مرسوماً بشكل جذاب، وعلى ورق حريري، إلا أنني اكتشفت أن توزيع هذه الدعاية لم يكن شيئاً سهلاً كما كنت أعتقد؛ لأن الناس لم تكن تهتم بها لكونها مجرد هدايا، وأكثرهم يعرضون عن قبولها، كما لو كانت مكهربة. عدت في اليوم الأول بما تبقى معي منها لاستكمالها، إلى أن التقيت أحد الزملاء لي في "آراكاتاكا"، غضبت أمه من رؤيتي أمارس هذه المهنة التي تعتبرها أقرب إلى التسول، وعنَّفتني بسبب تسكعي في الطريق بصندل من الخرق اشترته لي أمي حتى لا يبلى حذائي.

قالت لي:

- قل لـ"لويسا ماركيز" أن تفكر فيما يمكن أن يقوله أبواها لو رأوا حفيدهما المفضل يوزع دعاية للمصابين بالسل في السوق.

لم أُبلغ أمي لأجنبها الحزن، ولكني بكيت دموعاً على وسادتي غضباً وخجلاً لعدة ليالٍ، أنهيت الدراما كلها بعدم العودة إلى توزيع الدعاية، كنت ألقي بها في مصرف المياه الصحية بالسوق دون أن أنتبه إلى أنها مياه ساكنة، والورق الحريري يطفو على سطحها إلى أن يُكَوِّن غطاءً جميلاً من الألوان، كان مشهداً غريباً للسائرين على الجسر.

يبدو أن أحد موتى أمي كتب لها رسالة في أحد أحلامها، لأنها أخرجتني من المطبعة قبل أن أُكمل شهرين من العمل دون أن تقدم لي تفسيراً لذلك، وإن رفضت حتى لا أفقد الملحق الأسبوعي لصحيفة "لابرنسا" الذي كنا نتلقاه في العائلة كما لو كان هدية من السماء. إلا أن أمي واصلت شراءه حتى لو كان هذا يعني تقليل عدد البطاطس في الحساء. وكانت النقود التي أرسلها لي الخال "خوانيتو" لشهرين متتاليين نجدة غير متوقعة، فهو لا يزال يعيش في "سانتا مارتا" بمكاسبه القليلة كمحاسب محلف، بعد أن كلف نفسه مشقة إرسال رسالة لنا– كل أسبوع– في كل منها ورقتان من فئة البيزو، كان يسلمها لي قبطان اللنش "أوروا" صديق العائلة، في السابعة صباحاً، فكنت أعود من السوق ومعي ما يكفي من غذاء أساسي لعدة أيام.

لم أستطع تنفيذ ما طلبته مني أمي في أحد الأيام، فكلفت شقيقي "لويس إنريكي"، الذي لم يستطع مقاومة رغبته في المقامرة في ماكينة النقود بكانتين أحد الصينيين. لم يتوقف عندما خسر أول قطعتي نقود، وواصل المقامرة في محاولة لاسترداد ما خسره إلى أن وصل إلى القطعة قبل الأخيرة، حكى لي هذه الحكاية بعد أن كبرنا، قال: "أصابني الرعب إلى درجة أنني قررت عدم العودة للبيت أبداً"، فقد كان يعرف أنه بالبيزوين يمكن شراء احتياجات تكفي البيت لأسبوع، لحسن حظه أنه مع القطعة النقدية قبل الأخيرة، ارتعشت الماكينة كوحش وتقيأت دفقة متواصلة من القطع النقدية التي فقدها في المقامرة، وقال: "أنار الشيطان عقلي

حينها، وقررت ألا أخاطر بالنقود بعد ذلك أبداً". لكنه كسب فعاد إلى المقامرة وكسب مرة أخرى وأخرى، وقال: "الرعب الذي تملكني وقتها كان أكبر من الذي تملكني عندما خسرت إلى درجة أنني أُصبت بإسهال"، وفي النهاية كسب البيزوين بضعفين من قطع نقدية من فئة الخمس سنتيمات، ولم يجرؤ على تغييرها بعملات ورقية خوفاً من شكوك الصيني، وامتلأ جيبه إلى درجة أنه قبل أن يقدم لأمي ورقتي الخال "خوانيتو" من فئة البيزو، دفن الأربعة الأخرى التي كسبها في حفرة بالفناء، حيث كان معتاداً على إخفاء النقود التي يحصل عليها سراً، أنفقها شيئاً فشيئاً دون أن يكشف سرها لأحد حتى مرت سنوات طويلة، وظل رعبه من المخاطرة بآخر قطعة نقدية يلازمه لسنوات طويلة بعد ذلك.

علاقته بالنقود كانت علاقة شخصية جداً، فاجأته أمي في إحدى المرات وهو يحاول سرقة بعض النقود من حافظتها المخصصة للمشتروات، فكان دفاعه غريباً ولكنه كان عبقرياً: أن النقود التي يأخذها من حافظة الأبوين ليست سرقة، لأنها نقود الجميع، وأن الأبوين يرفضان أن نحصل عليها حسداً، لأنهما لا يعرفان ما يفعلان بها مثل ما يفعل الأبناء، دافعت أنا عن حججه إلى درجة الاعتراف بأنني أيضاً أخذت نقوداً من الأماكن المخبوءة فيها لسد حاجات عاجلة، فقدت أمي أعصابها وقالت: "لا تكن أحمقاً"، ثم صرخت في وجهي: "لا أنت ولا أخوك سرقتما أي شيء؛ لأنني كنت أترك النقود حيث هي لتأخذاها عندما تكونان في حاجة مُلِّحة إليها"، وسمعتها في لحظات عصبية تقول: "إن على الله أن يسمح بسرقة أشياء معينة عندما يتعلق الأمر بإطعام الأبناء".

سِحْر "لويس إنريكي" ومهارته في الشيطنة كانت صالحة لحل مشاكل مشتركة، لكنه لم يستطع أن يجذبني نحو مشاركته في أفعال أخرى، بل على العكس كان يحاول ألا تنكشف حتى لا يشتبهون في علاقتي بها، وهذا زاد من ثقة دامت إلى الأبد. فيما حاولت ألا أدعه يعرف كم كنت أحسده، وكم كنت أعاني

عندما كان يعاقبه أبي، كنت أتعامل بطريقة مختلفة عنه، ولكني كنت لا أستطيع في كثير من الأحيان ضبط شعوري تجاهه بالحسد.

في أقصى حالات القنوط، أرسلتني أمي برسالة إلى رجل كان معروفاً بأنه الأكثر ثراءً والأكثر إحساناً بالمدينة، وكانت أخبار قلبه الطيب تنشر بشكل مبالغ فيه تماماً كما كانت تنشر أنباء نجاحه المالي، كتبت له أمي رسالة تطلب فيها إعانة مالية عاجلة ليست لسد حاجتها الخاصة ولكنها تفعل ذلك بسبب حبها لأبنائها. يجب معرفة أمي لمعرفة إلى أي حد كانت محتاجة لتحتمل هذا الذل، وحذرتني بأن يظل هذا سراً بيننا نحن الاثنين، وهذا ما كان، إلى هذه اللحظة التي أكتب فيها.

طرقتُ بوابة البيت، التي كانت تشبه الكنيسة، وفي لحظات قليلة انفتحت طاقة في الباب أطلت منها امرأة لا أذكر منها سوى عينيها، أخذت الرسالة دون أن تقول شيئاً وأعادت إغلاق الطاقة من جديد، كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحاً، وجلست أنتظر إلى الثالثة مساء، عندها قررت العودة إلى طرق الباب من جديد بحثاً عن إجابة، عادت المرأة نفسها لفتح الباب، وتعرفت عليّ مندهشة، وطلبت مني أن انتظر لحظات، وكانت الإجابة أن أعود الثلاثاء من الأسبوع القادم في هذه الساعة نفسها، وهذا ما فعلته، فكانت الإجابة أنه لا يمكن قبل مرور أسبوع آخر، ربما عدت ثلاث مرات أخرى، وكانت دائما الإجابة نفسها، إلى مرور شهر ونصف عندما قالت لي امرأة أخرى أكثر جفاء من الأولى إن السيد يقول إن ذلك البيت ليس بيت إحسان.

درتُ عدة مرات في الشوارع الحارقة محاولاً استجماع شجاعتي لأخبر أمي بالإجابة التي تعيد إليها الأمل، وعندما حل الليل، وبقلب جريح واجهتها بالخبر دون مواربة أن السيد المحسن مات منذ عدة أشهر، وأكثر ما آلمني الصلوات التي صلتها ترحماً على روحه.

بعد أربع أو خمس سنوات، استمعنا إلى نبأ موته الحقيقي من الراديو، انتظرت إجابة أمي برعب، إلا أنني لم أفهم أبداً كيف أنها استمعت إلى النبأ باهتمام وتنهدت من أعماق نفسها:

– فليحفظه الله في مملكته المقدسة.

قريباً من البيت أقمنا علاقة صداقة مع "آل موسكيرا"، عائلة تنفق ثروة في شراء مجلات القصص المصورة، وكانت تُخَزِّنها في الفناء حتى السقف، ونحن كنا المحظوظين الوحيدين، أمضينا أياماً كاملة نقرأ "ديك تريسي" و"وبوك روجرز". الاكتشاف الآخر السعيد كان الصبي الذي كان يرسم إعلانات الأفلام للسينما القريبة، كنت أساعده لأستمتع فقط برسم الحروف، وكان هو يساعدنا على الدخول مجاناً مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع لمشاهدة الأفلام الجيدة والمسلسلات. الترف الوحيد الذي كان ينقصنا هو الحصول على جهاز راديو لسماع الموسيقى في أية ساعة فقط بلمسة زر. من الصعب أن نتخيل اليوم إلى أية حد كانت أجهزة الراديو قليلة في بيوت الفقراء. كنا– "لويس إنريكي" وأنا– نجلس على دكة بالبقالة الواقعة على الناصية لسماع الدردشة، وكنا نمضي أمسيات كاملة لسماع برامج الموسيقى الشهيرة، حتى حفظنا عن ظهر قلب مقطوعات كاملة لـ"ميجيليتو فالديس" بأوركسترا كازينو الشاطئ، و"دانييل سانتوس" بعزف أوركسترا "سنوروا ماتانثيرا"، وأغنيات "أغوستين لارا" بصوت "تونيا لانجرا". لقضاء الوقت خلال الأيام التي قطعوا فيها التيار الكهربائي عنا لعدم دفع الفواتير، كنا نُعلِّم أمي وإخواتي تلك الأغاني، خاصة شقيقتي "ليخيا" وشقيقي "جوستافو"، كانا يحفظانها ويرددانها كالببغاوات دون أن يفهما كلماتها، وكنا نضحك حد الانفجار لأخطائهما الغنائية. لقد ورثنا جميعاً ذاكرة خاصة لسماع الموسيقى من الأبوين، وكانت لدينا حاسة سمعية جيدة لحفظ أية أغنية من المرة الثانية لسماعها، خاصة "لويس إنريكي" الذي ولد موسيقياً وتخصص

بمفرده في العزف المنفرد على الجيتار لعزف أغنيات الحب الحزينة. ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفنا أن أبناء العائلات التي لا تملك جهاز راديو في بيوتها حفظ أبناؤهم الأغاني من أشقائي، وبشكل خاص من أمي، التي تحوَّلت إلى واحدة من الشقيقات في بيت الأطفال هذا.

برنامجي المفضل كان "ساعة من كل شيء.. شيء" للمؤلف الموسيقي والمُعلم "أنخيل ماريا كاماتشو أي كانو"، يجذب المستمعين من الواحدة ظهراً بكل ما تتخيل من منوعات، وبشكل خاص ساعة الهواة الأصغر من خمسة عشر عاماً، يكفي أن تسجل اسمك في مكاتب إذاعة "صوت الوطن" وأن تصل البرنامج قبل نصف ساعة من بدايته. كان المَعلم "كاماتشو إي كانوا" يقوم شخصياً بمرافقة المتسابق بالعزف على البيانو، ويقوم مساعده بإعلان الحكم القاطع من خلال جرس كنيسة عند أدنى خطأ، جائزة أفضل أغنية أكثر مما يمكننا أن نحلم به- خمسة بيزوات- لكن أمي كانت واضحة في أن المهم هو الغناء في برنامج له سمعته.

حتى هذا الوقت كنت معروفاً بلقب أبي وحده- جارثيا- واسْمَيّ المجردين- جابرييل خوسيه- ولكن في هذه الفرصة التاريخية طلبت مني أمي أن أسجل أيضاً لقب- ماركيز- حتى لا يشك أحد في شخصيتي، كان حدثاً تاريخياً في البيت، ألبسوني باللون الأبيض كما في التعميد الأول، وزفوني قبل خروجي، ووصلت إلى "صوت الوطن" قبل الموعد بساعتين. وكان تأثير الوصول مبكراً سلبياً حيث كان عليّ أن أنتظر؛ لأنهم لا يسمحون بالدخول إلى الأستوديو حتى ربع ساعة قبل بداية البرنامج. في كل دقيقة تمر كانت تنمو في داخلي عناكب الرعب، وأخيراً دخلت مرتعباً، بذلت جهداً كبيراً حتى لا أعود إلى البيت بحجة أنهم لم يتركوني أتسابق لأي سبب من الأسباب، قمت بتجربة سريعة مع المُعلم لضبط نغمة صوتي مع البيانو، كانوا قد استمعوا إلى سبعة قبلي طبقاً لقائمة التسجيل،

دقوا الجرس لثلاثة بأسباب مختلفة، وأنا أعلنوا اسمي جابرييل ماركيز مجرداً، غنيت أغنية "البجعة" أغنية عاطفية عن بجعة أكثر بياضاً من الثلج اغتالها وحبيبها صياد قاسي القلب. منذ النغمات الأولى انتبهت إلى أن النغمة كانت عالية جدا بالنسبة لنغمتي خلال البروفة، فأصابني الذعر لحظة عندما أشار لي المساعد بإشارة شك، واستعد لدق الناقوس، لا أعرف من أين جاءتني الشجاعة لأشير عليه بألا يدق الجرس، لكن كان الوقت متأخراً: دق الناقوس بلا قلب، وذهبت البيزوات الخمسة، بالإضافة إلى هدايا أخرى، إلى فتاة شقراء جميلة جداً غنت جزءاً من "مدام بترفلاي". عدت إلى البيت محطماً بالهزيمة، ولم أفلح في تعزية أمي وإعادة الأمل إليها، مرت سنوات طويلة قبل أن تعترف لي أن خجلها نتج عن أنها طلبت من الأهل والأصدقاء أن يستمعوا إلي وأنا أغني، وأنها لم تكن تعرف كيف تتجنبهم.

وسط هذا النظام المكوَّن من الضحكات والدموع، لم أتخلف عن المدرسة مطلقاً، وحتى بلا إفطار، لكن وقت قراءاتي في البيت تضاءل؛ لأننا لم نكن نملك ميزانية للنور كي أقرأ حتى منتصف الليل، كانت هناك ورش أتوبيسات في طريق المدرسة، وكنت أتوقف أمام إحداها لساعات طويلة أشاهد كيف يرسمون الحروف والمسارات والاتجاهات، في يوم من الأيام طلبت من الخطاط أن يتركني أرسم حرفاً ليعرف مدى قدرتي، مُندهشاً من قدراتي الطبيعية سمح لي أن أساعده أحياناً مقابل بيزوات متفرقة كانت تساعد في ميزانية البيت، حلمي الآخر كان علاقة الصداقة مع الإخوة "جارثيا" الثلاثة، أبناء بحار في نهر "ماجدالينا"، نظَّموا ثلاثياً للموسيقى الشعبية ليشاركوا في احتفالات الأصدقاء والأعياد مجاناً، تلبية لنداء حب الموسيقى، أكملت معهم الرباعي "جارثيا" للتسابق في ساعة الهواة بإذاعة "الأتلانتكو"، فزنا منذ اليوم الأول بتصفيق حاد، لكنهم لم يدفعوا لنا البيزوات الخمسة بسبب خطأ في التسجيل. واصلنا التدريبات معاً باقي السنة،

وكنا نغني مجاناً في الاحتفالات العائلية، إلى أن انتهت الحياة إلى تفريقنا.

لم أفهم أبداً أن الطريقة التي كان يتعامل بها أبي مع الفقر كانت بسبب انعدام مسئوليته، على العكس: أعتقد أنها دلالات على التجانس بينه وزوجته، وأن هذا كان يسمح لهما بالاحتفاظ بحياتهما إلى أقصى درجات المخاطرة، كان يعرف أنها تسيطر على الرعب أفضل من سيطرتها على القنوط، وأن هذا كان سر استمرارنا على قيد الحياة، ربما كان ما لم يفكر فيه أنه بينما كان يشعر بالراحة في الحزن تكون هي في أفضل حالاتها. لم نفهم أبداً أسباب سفره، فجأة، وكما كان يحدث دائماً، أيقظونا في منتصف ليل يوم سبت ليأخذونا إلى وكالة محلية لشركة بترول "كاتاتومبو"، حيث كانت تنتظرنا مكالمة تليفونية من أبي، لا أستطيع أن أنسى أبداً أمي الغارقة في دموعها، في حوار موحل بالتقنية.

قالت أمي:

- أي "جابرييل"، انظر كيف تركتني مع هذا القطيع من الأبناء، وكنا في عدة مرات لا نملك ما نأكله.

أجابها هو بنبأ سيء، فقد كان كبده منتفخاً، وأن هذا كان يحدث له كثيراً، لكن أمي لم تكن تصدقه؛ لأنه استخدم هذا المرض مرة لإخفاء بعض مغامراته، فقالت له هازلة:

- هذا يحدث لك عندما ترتكب فعلاً سيئاً.

كانت تتحدث كما لو كان أبي في التليفون، وفي النهاية حاولت أن ترسل له قبلة، فقبَّلت التليفون، بعدها لم تستطع أن تمنع قهقهاتها، ولم تستطع أبداً أن تحكي هذه الحكاية دائماً؛ لأنها كانت تنتهي غارقة في الدموع والضحكات، إلا أنها في ذلك اليوم ظلت ساكنة، وأثناء الجلوس إلى مائدة الطعام، قالت:

- أشعر بشيء غريب في صوت "جابرييل".

أفهمناها أن نظام التليفون اللاسلكي لا يُغيِّر من ملامح الصوت فقط، بل يغير من

الشخصية أيضاً، قالت في الليلة التالية وهي نائمة: "على أي حال سمعت صوته كما لو كان أكثر نحولاً". كان أنفها حاداً كما في الأيام السيئة، وكانت تتساءل من بين تنهداتها كيف تكون تلك القرى التي تعيش بلا رب ولا قانون التي يتنقل فيها رجلها دون رقابة من أحد، وضجت مخاوفها الخبيئة أكثر خلال حديث تليفوني آخر، عندما أجبرت أبي على أن يقسم على العودة إلى البيت إن لم يحدث تقدم خلال أسبوعين، إلا أننا قبل الموعد المحدد تلقينا تلغرافا محزناً من كلمة واحدة "بلا قرار"، رأت أمي في التلغراف تحقق مخاوفها واتخذت قرارها الذي لا رجعة فيه:

- إما أن تأتي قبل الاثنين أو أذهب الآن إلى حيث توجد.

كان علاجاً مقدساً، كان أبي يعرف سلطة تهديداتها، وقبل أن يمضي أسبوع واحد كان في طريق عودته إلى "بارانكيا". أفعمنا دخوله، مرتدياً ملابس غير مهندمة وجلده يميل إلى الاخضرار، وغير حليق، إلى درجة أن أمي اعتقدت أنه مريض، لكنها كانت رؤية وقتية، لأنه في يومين فقط استعاد مشروعه الشبابي بافتتاح صيدلية متعددة في قرية "سوكري"، على بعد ليلة إبحاراً من "بارانكيا"، عاش فيها خلال شبابه الأول كعامل تلغراف، وقلبه يقشعر عندما يتذكر الرحلة عبر القنوات الغسقية في نهر "تينيجا" الذهبي، والرقص الأبدي. ظل عاماً يحاول الحصول على مكان هناك لكنه لم يكن محظوظاً كما في مرات سابقة، كما في "آراكاتاكا"، التي تعتبر أكثر إلحاحاً. عاد للتفكير في تلك القرية خمس سنوات بعد ذلك، بعد أزمة الموز الثالثة، لكنه وجدها مغلقة في وجهه بتجار الجملة، إلا أنه قبل شهر واحد من عودته إلى "بارانكيا" التقى بعضهم صدفة، لم يرسموا له فقط مستقبلاً معاكساً بل عرضوا عليه قرضاً جيداً لافتتاح صيدلية "سوكري"، لم يقبل القرض؛ لأنه كان على وشك تحقيق حلمه الذهبي في "آلالاتو روساريو"، لكن عندما فاجأه قرار الزوجة بحث عن مُورِّدين في "ماجانيجي"، الذين كانوا لا يزالون يتجولون بين قرى النهر وأنهوا الاتفاق.

بعد حوالي أسبوعين من الدراسات والاتفاقات مع المورِّدين الأصدقاء، ذهب وهو في حالة طيبة، ورغبته في الوصول إلى "سوكري" كانت عارمة، إلى درجة أنها انعكست على رسالته الأولى: "الواقع كان أفضل من الذكريات". أجر بيتاً بشرفة في الميدان الرئيسي، واستعاد علاقاته مع الأصدقاء القدامى الذين فتحوا له أبوابهم، كان على الأسرة أن تبيع ما استطاعت من أشياء، وشحن الباقي الذي لم يكن بالشيء الكثير، وأخذه معها في إحدى السفن البخارية التي كانت تقطع نهر "ماجدالينا" في رحلات معتادة، أرسل أبي في الرسالة أيضاً مبلغاً من المال محسوباً بشكل دقيق للمصاريف العاجلة، وقال إنه سيرسل مبلغا آخر لمصاريف السفر. لم أستطع أن أتخيل أنباء أفضل من هذه لإرضاء أمي الحالمة، لذلك فإن استجابتها لم تكن فقط عن تعقل لتشجيع الزوج، بل لتجّمل له الأخبار، أعلنت عن حملها للمرة الثامنة.

قمت بعمل المطلوب وحجزت التذاكر في باخرة "كابتن كارو" وهي سفينة شهيرة تقطع المسافة بين "بارانكيا" و"ماجانجي" في ليلة ونصف يوم، بعدها نكمل الرحلة في لنش بموتور عبر نهر "خورخي"، ثم بترعة "لامونخا" حتى نصل إلى وجهتنا.

قالت أمي التي كانت لا تؤمن مطلقاً برحلة "سوكري":

– كل هذا حتى لا نبقى هنا، ولا يجب ترك أي زوج بمفرده.

استعجلتنا جداً لدرجة أننا قبل ثلاثة أيام كنا ننام على الأرض بعد أن فككت الأسرِّة والموبيليا لبيعها، وما عدا ذلك كان في صناديق، وثمن التذاكر كان مخبأ في مكان أمين من الأماكن التي تعرفها أمي، بعد أن حسبته وأعادت حسابه عدة مرات.

استقبلني موظف شركة النقل، كان واضحاً لدرجة أنني لم أكن في حاجة إلي مساعدة للتفاهم معه، وأنا متأكد أنني كتبت حرفياً كل الأسعار التي أملاها عليّ

بوضوح. وربما أكثر ما أسعدني ونسيت تسجيله أن الأطفال أقل من اثني عشر عاماً يدفعون نصف ثمن التذكرة العادية، وطبقاً لهذه القاعدة جنبت أمي النقود اللازمة للرحلة، وأنفقت كل ما تبقى حتى آخر سنتيم.

ذهبت- الجمعة- لشراء التذاكر، فاستقبلني الموظف بمفاجأة أن الصغار أقل من اثنتي عشر عاماً لا يحصلون على خصم نصف ثمن التذكرة بل خصم يساوي ثلاثين بالمائة فقط، مما يخلق فارقاً في السعر لا يمكننا دفعه. وادعى أنني سجلت كلامه خطأ؛ لأن هذه التعليمات كانت مسجلة في ورقة رسمية وضعها أمام عيني، عدت مهموماً إلى البيت ولم تقل أمي شيئاً بل لبست فستانها الذي كانت ترتديه في جنازة أبيها، وذهبنا إلى مكتب شركة السفر البحرية، أرادت أن تكون عادلة: واحد منا أخطأ وهذا الذي أخطأ يمكنه أن يكون ابنها، لكن كل هذا لا أهمية له، الحقيقة أنه ليست لدينا النقود المطلوبة. وشرح لها الموظف بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً.

قالت له:

- إنهم أطفال صغار.

أجابها:

-الأمر ليس أنني أريد أو لا أريد أن أقدم لك خدمة، إنها تعليمات الشركة التي لا يمكنني مخالفتها.

قالت أمي:

- إنهم أطفال صغار.

وأشارت بيدها نحوي كمثال:

- تخيل أن هذا هو أكبرهم وعمره اثنا عشر عاماً.

ثم صنعت إشارة بيدها:

- إنهم بهذا الحجم.

لم يكن الأمر يتعلق بالطول، حسب رأي الموظف، بل بالسن، ولا يمكن أن يدفع أحد أقل من الثمن، عدا حديثي الولادة يسافرون مجاناً، فبحثت أمي عن مساعدة اكبر:

- مع من يجب أن أتحدث لإنهاء هذه المشكلة.

لم يكد الموظف يجيبها، حتى خرج المدير، كان كبير السن وله كرش كحامل، فوقف الموظف بمجرد رؤيته، كان ضخماً وغارقاً في عرقه، استمع لأمي باهتمام ثم أجابها بصوت هادئ بأن قراراً مثل هذا يكون ممكناً بتعديل التعليمات وهو ما يتطلب اجتماع الجمعية العمومية للمساهمين بالشركة:

- صدقيني أنا آسف جداً.

شعرت أمي بسلطتها وزادت من تأكيد أسبابها. قالت:

- عندك كل الحق يا سيدي، ولكن المشكلة أن موظفك لم يشرح لابني جيداً، أو أن ابني فهمه خطأ، وأنا تعاملت مع هذا الخطأ، وشحنت كل شيء وجهزته للسفر، وننام على الأرض ونقود الطعام لا تكفينا حتى اليوم، والاثنين يجب أن أسلم البيت لمؤجريه الجدد.

انتبهت إلى أن موظفي المكتب كانوا يستمعون إليها باهتمام، حينها توجهتْ إليهم:

- ما أهمية كل هذا بالنسبة لشركة مهمة؟

ودون أن تنتظر إجابة، سألت المدير، ناظرة في عينيه مباشرة.

- هل تعتقد في وجود الله؟

أبدى المدير انبهاراً، ظل المكتب كله منتبهاً لفترة الصمت الطويلة، حينها جلست أمي على الأريكة وضمت ركبتيها وبدأت في الارتعاش، ضمت يديها على حقيبتها، وقالت بتأكيد كبير:

- لن أتحرك من هنا حتى تتوصلوا إلى حل.

وقف المدير مندهشاً، وتوقف الموظفون جميعاً عن العمل ونظروا إلى أمي، كانت هادئة، وأنفها حاداً، شاحبة وغارقة في العرق، كانت قد أنهت حزنها على أبيها لكن فستان الحزن كان أكثر مناسبة لها في تلك اللحظة، لم يعد المدير إلى النظر إليها، بل نظر إلى موظفيه دون أن يعرف ما يجب أن يفعله، وأخيراً صرخ في الجميع:

- هذا يحدث لأول مرة.

لم ترمش عينا أمي "كانت دموعها في حلقها لكنها قررت أن تقاومها"، قالت لي ذلك فيما بعد. ثم طلب المدير من الموظف أن يأخذ له التذاكر إلى مكتبه، وبعد خمس دقائق عاد غاضباً، ولكن بين يديه جميع التذاكر جاهزة للسفر.

وصلنا في الأسبوع التالي إلى "سوكري"، كما لو كنا ولدنا فيها، قد يكون عدد سكانها حوالي ستة عشر ألف نسمة، مثلها مثل العديد من قرى البلاد في ذلك الوقت، كل الناس تعرف كل الناس، بأسمائهم وحياتهم السرية. لم تكن القرية وحدها بل المنطقة كلها كانت عبارة عن مياه راكدة تُغيِّر ألوانها بالزهور المنتشرة على سطحها طبقاً لكل فصل، وطبقاً للمكان وطبقاً لحالتنا النفسية، وبريقها يذكر ببريق الأحلام بالجنوب الشرقي الآسيوي. خلال السنوات الطويلة التي عاشتها الأسرة هناك لم يكن في القرية أية سيارة، كان مستحيلاً السير بالسيارة هناك؛ لأن الشوارع المستقيمة من تراب طيني صالحة لسير الحفاة، وكثير من البيوت كانت لديها أرصفة بحرية في مطابخها معدة لاستقبال وسائل النقل المحلية.

أول إحساس لي كان الشعور بالحرية المطلقة، كل ما كان ينقصنا نحن الأطفال أو الذي كنا نحلم به تم وضعه بين أيدينا، الواحد منا كان يأكل عندما يكون جائعاً أو ينام في أية ساعة، ولم يكن سهلاً أن يكون مسئولاً عن أحد؛ لأنه على الرغم من صرامة قوانين الكبار كان وقتهم مشغولاً إلى درجة أنه لم يكن لديهم الوقت ولا حتى للانشغال بأنفسهم. الأمان الوحيد بالنسبة للأطفال كان

تعلم السباحة قبل المشي، فقد كانت القرية منقسمة إلى نصفين بترعة مياه قاتمة كانت تستخدم كمورد ماء ومغسل في الوقت نفسه. عندما يكمل الأطفال عامهم الأول يلقون بهم من الشرفات إلى المياه أولاً ليتغلبوا على خوفهم من الماء، وبعدها يلقون بهم بلا أطواق نجاة ليتغلبوا على خوفهم من الموت. بعد ذلك بسنوات، تم إنقاذ شقيقي "خايمي" وشقيقتي "ليخيا" من أخطارهما الأولى، فقد فازا في مسابقة للسباحة بين الأطفال.

ما حَوَّلَ "سوكري" بالنسبة إليّ قرية لا تُنسى كان الإحساس بالحرية المطلقة التي كنا نتحرك بها في شوارعها نحن الأطفال. في أسبوعين أو ثلاثة كنا نعرف من يعيشون في كل بيت، وندخلها كما لو كنا معروفين فيها منذ زمن بعيد، كانت العادات الاجتماعية- المبسطة- حياة متطورة داخل ثقافة نهرية: فالأغنياء- مربو الماشية وصناع السكر- يسكنون في وسط القرية، والفقراء يسكنون حيث يمكنهم أن يعيشوا. هذه القرية كانت بالنسبة للإدارة الكنسية أرضاً صالحة للتبشير ومفتوحة لتكون إمبراطورية للبحيرات، وسط كل هذا العالم المتكامل كانت الكنيسة مقامة في الميدان الرئيسي، كانت نسخة طبقة الأصل من كاتدرائية "كولونيا"، نَسخها من الذاكرة قس إسباني يمارس المعمار، ممارسة السلطة كان مباشراً ومطلقاً، ففي كل ليلة وبعد الصلاة كانوا يطلقون من أجراس الكنيسة النوعية الأخلاقية للفيلم المعروض بالسينما المجاورة، طبقاً لقواعد مكتب السينما الكاثوليكي. ويجلس القس المناوب كل يوم أمام باب مكتبه ويراقب مدخل المسرح ليعاقب من يخالفون أوامره.

خيبة أملي كانت في العمر الذي وصلت به إلى "سوكري"، كان ينقصني ثلاثة أشهر فقط لأعبر الخط الفاصل بإكمالي ثلاثة عشر عاماً، وفي البيت لم يكونوا يقبلون حياتي كطفل ولا يريدون التعامل معي على أنني فتى ناضج. وفي هذا اللامكان كنت الوحيد بين إخوتي الذي لم يتعلم السباحة، لم أكن أعرف هل أجلس

على مائدة الأطفال أم مع الكبار، والخادمات لم يعدن يُغَيِّرن ملابسهن أمامي ولا حتى في الظلام، لكن إحداهن نامت عدة مرات عارية في سريري دون أن تقلق نومي. لم أكن قد تمتعت كثيراً بالحياة الحرة حتى عدت مرة أخرى إلى "بارانكيا" في يناير من العام التالي لأبدأ دراسة البكالوريا، لم يكن في "سوكري" مدرسة للحاصلين على درجات عالية.

بعد حوارات ونقاشات طويلة دون مشاركة تذكر مني، قرر أبواي أن أدرس في مدرسة "سان خوسيه دي لاكومبانيا دي خيسوس" في "بارانكيا". لم أفهم كيف استطاعوا توفير مؤن كافية في أشهر قليلة، فالصيدلية والعيادة كانا لا يزالان في علم الغيب، قالت أمي شيئاً لا يمكن معارضته: "الله كبير دائماً". فقد كانت مصاريف الانتقال تتضمن الشحن وإطعام الأسرة، لكنها لم تتضمن مصروفات مدرستي، وبما أنني لم أكن أملك سوى حذاءٍ قديم وملابس أرتديها عندما تكون الأخرى في الغسيل، اشترت لي أمي ملابس جديدة وصندوقاً بحجم تابوت دون أن تنتبه إلى أن طولي سيزداد ربع المتر في ستة أشهر، واتخذت أيضاً قراراً انفرادياً أنه عليّ أن أرتدي بنطلونات طويلة، بخلاف العادات الاجتماعية التي كان أبي يحترمها كثيراً، ولم يستطع أن يرتديها إلى أن تغيَّر صوته.

الحقيقة أنه في كل نقاش حول تعليم كل واحد من الأبناء كنت أحلم أن ينفعل أبي ويقسم ألا يذهب أي منا إلى المدرسة، لم يكن مستحيلاً أن يحدث هذا، فقد كان هو عصامياً علَّم نفسه بنفسه تحت ضغوط الفقر، وكان أبوه متعلقاً بالأخلاقية الحديدية للسيد "فرناندو" السابع، الذي كان يطالب بالتعليم الفردي في البيت للحفاظ على وحدة الأسرة، فأنا كنت أخاف المدرسة أكثر من خوفي من السجن، فقد كانت ترعبني فقط فكرة أن أعيش محكوماً بنظام دقات الجرس، ولكنها في الوقت نفسه كانت فرصتي الوحيدة لأستمتع بحياة الحرية في عمر الثالثة عشرة، والحفاظ على العلاقات طيبة مع الأسرة، ولكن بعيداً عن نظامها، وحبها للتمدد السكاني، وأيامها المشئومة، وأن أقرأ بكل ما أستطيع.

سبب رفضي الوحيد لمدرسة "سان خوسيه"، إحدى أغلى وأكثر مدارس الكاريبي صعوبة، هو نظامها العسكري الصارم، إلا أن أمي أسكتتني بحزم: "هناك يُعدون حكاماً"، وعندما لم يعد هناك احتمال للتراجع رفع أبي يده:

– عليكم أن تعرفوا أنني لم أقل لا ولا نعم.

كان هو يفضل المدرسة الأمريكية لأتعلم الإنجليزية، لكن أمي رفضتها؛ لأنها كما تقول عش للوثيريين، وعليّ أن أعترف اليوم بأن أبي كان محقاً؛ لأن أحد أخطائي ككاتب أنني لم أتعلم الحديث باللغة الإنجليزية.

العودة إلى رؤية "بارانكيا" من على سطح السفينة "كابتن كارو"، التي سافرت عليها قبل ثلاثة أشهر، هز قلبي كما لو كنت أشعر أنني سأعود إلى الحياة الحقيقية. لحسن الحظ، أن أبويَّ رتبا عملية الإقامة والطعام مع ابن عمي "خوسيه ماريا بالديبلانكيث" وزوجته، شريفين وظريفين وشابين، شاركاني معهما حياتهما الهادئة في صالون صغير وغرفة نوم وفناء صغير في الظل دائماً؛ بسبب الملابس المنشورة على الحبال لتجف، كانا ينامان في الغرفة مع صغيرتهما ذات الستة أشهر، وأنا أنام على الأريكة بالصالة، التي تتحول ليلاً إلى سرير.

كانت مدرسة "سان خوسيه" على بعد ستة شوارع من البيت، في حديقة من شجر اللوز أُقيمت مكان مقابر المدينة القديمة والتي لا تزال تظهر بعض عظامها وخرق كفنِ الموتى على الأرض، في اليوم الذي دخلت فيه فناء المدرسة كانوا يقيمون احتفال الصف الأول، بملابس الأحد البيضاء وقميص أزرق، ولم أستطع السيطرة على رعبي من أن يعرفوا ما أجهله، لكني انتبهت إلى أنهم كانوا حديثي العهد وخائفين مثلي، في مواجهة المستقبل المجهول. .

شبحي المرعب كان الأخ "بدرو رييس"، مسئول القسم الابتدائي، الذي بذل جهداً ليقنع الإدارة بأني لم أكن مؤهلاً لدراسة البكالوريا. فتحوَّل إلى شبح أتعثر فيه في أي مكان، وكان يمتحنني فجأة بأسئلة شيطانية، فكان يسألني دون أن

يترك لي وقتاً للإجابة: " هل تعتقد أن الله يصنع صخرة ثقيلة جداً لا يمكن رفعها؟"، أو ذاك الشرك الملعون: "لو أننا وضعنا على خط الاستواء حزاماً من الذهب بعرض خمسين سنتيمترا، ترى ما حجم زيادة وزن الأرض؟"، لم أكن أفهم أياً من تلك الأسئلة، حتى لو كنت أعرف الإجابة عليها، لأن لساني كان يحترق منذ يوم حديثي الأول بالتليفون، وكان رعبي له أسبابه؛ لأن "رييس" كان على حق، فأنا لم أكن مؤهلاً للبكالوريا، لكني لم أستطع أن أرفض قبولي بلا امتحان، كنت أرتعش فقط بمجرد رؤيته، بعض الزملاء كان يفسرون هذا الحصار بتفاسير سيئة لكني لم أجد أسباباً لهذا التفسير. إضافة إلى أنني نجحت في أول امتحان شفهي بشكل ممتاز، عندما قرأت من الذاكرة أشعار "فراي لويس دي ليون"، ورسمت على الصبورة صورة للمسيح بالطباشير الملون حتى أنه بدا كما لو كان من لحم ودم. عقدت الدهشة ألسنة أعضاء اللجنة إلى درجة أنهم نسوا سؤالي في الحساب والتاريخ.

تم حل مشكلة الأخ "رييس" في الأسبوع المقدس؛ لأنني رسمت بعض الصور لدروس الأشجار التي كان يقوم بتدريسها، فلم يتوقف عن محاصرتي فقط بل كان يقضي أوقات الراحة الدراسية ليعلمني الإجابة على تلك الأسئلة التي لم أستطع إجابته عليها. أو الإجابة على أسئلة أخرى أكثر غرابة تظهر في الامتحانات كما لو كانت عفوية، إلا أنه في كل مرة كان يراني بين مجموعة من التلاميذ كان يسخر مني بقوله: إنني الوحيد من الصف الثالث الابتدائي الذي أصلح للحصول على البكالوريا. انتبهت اليوم إلى أنه كان على حق، خاصة بسبب دروس الإملاء، التي كانت مشكلتي المعقدة طوال فترة الدراسة ولا تزال ترعب مصححي كتبي، فيصححونها باعتقاد أنها ناتجة عن سوء الكتابة على الآلة الطابعة.

تعيين الفنان والكاتب "هيكتور روخاس هيريثو" مدرساً للرسم كانت استراحة نفسية كبيرة في حياتي المليئة بالمتاعب، كان في حوالي العشرين من عمره، دخل

الفصل برفقة القس المشرف، ورَنَّتْ تحيته في حر الثالثة مساء، كان أنيقاً من ذلك النوع من الأناقة السهلة لممثلي السينما، كان يرتدي "جاكيت" من وبر الجمل منضبطاً جداً، بأزرار ذهبية، وصدرية ملونة ورباط عنق حريري مطبوع، ولكن الغريب فيه كانت القبعة الطويلة، في درجة حرارة لا تقل عن الثلاثين في الظل، كان طويلاً جداً، لذلك كان عليه الانحناء ليرسم على السبورة، إلى جانبه، كان القس المشرف يبدو كشخص غادرته عناية الله.

من البداية تبين أنه لم يكن لديه منهج ولا صبر على التعليم، لكن سخريته المريبة كانت تجعلنا منتبهين دائماً، وكانت تدهشنا الرسوم التي يرسمها على السبورة بالطباشير الملون، لم يستمر أكثر من ثلاثة أشهر في التدريس؛ ولم نعرف أبداً سبب ذلك، ولكن كان واضحاً أن تربيته لم تكن تتوافق مع النظام العقلي للجيزويت.

اكتسبت شهرتي كشاعر منذ أن انتظمت في الدراسة، أولاً لسهولة حفظي للشعر وقراءة القصائد الكلاسيكية وقصائد الرومانتيكيين الإسبان بصوت رخيم، وبعد ذلك بقصائدي الساخرة المقفاة عن تلاميذ الفصل التي أنشرها في مجلة المدرسة، لو أنني اهتممت بها لكانت استحقت طبعها في المطابع، في الحقيقة لم تكن سوى سخرية لطيفة يتناقلها زملاء الفصل في قصاصات ورقية، عثر القس "لويس بوسادا" مشرف القسم الثاني على واحدة من تلك القصاصات، قرأها وعنفني أول مرة، ثم وضعها في جيبه. وطلبني القس "أرتورو ميخا" في مكتبه ليبلغني أن السخرية المضبوطة سيتم نشرها في مجلة "الشباب" الناطق الرسمي باسم تلاميذ المدرسة. لأول وهلة أصابني خليط من الدهشة والخجل والسرور، أنهيت اللقاء بالرفض لأسباب غير مقنعة، بقولي:

- إنها أشيائي العبيطة.

سمع القس "ميخيا" الرد ونشرها في العدد التالي من المجلة وبموافقة

الضحايا تحت عنوان "أشيائي العبيطة" وبتوقيع "جابيتو"، في العددين التاليين نشر ست قصائد أخرى بطلب من زملاء الفصل، لذلك فإن هذه الأشعار الطفولية، تصدقون ذلك أم لا، كانت باكورة أعمالي.

هواية قراءة ما يقع بين يدي كانت تشغل أوقات فراغي ووقت الدراسة كله تقريباً، كنت ألقي العديد من القصائد الشعبية المتداولة وقتها في كل كولومبيا، وقصائد من أجمل ما كتب في العصر الذهبي والرومانتيكية الإسَبانية، الكثير منها حفظتها من الكتب المدرسية نفسها، هذه المعارف التي تنتمي إلى فترات أخرى كانت مخصصة للمدرسين. عندما أواجه سؤالاً صعباً كنت أرد عليه بجملة أدبية أو فكرة من كتاب لا يعرفون تقييمها، قال القس "ميخيا": "إنه طفل فصيح"، حتى لا يقول إنه لا يُحتمل. لم أعتصر ذاكرتي أبداً، فالقصائد ومقاطع كثيرة من النثر كانت تنطبع في ذاكرتي عند القراءة الثالثة أو الرابعة لها، وأول جائزة حصلت عليها كانت من القس المشرف؛ لأنني قرأت بلا أدنى خطأٍ الستة والخمسين بيتاً من "الدوار" لـ"جاسبار نونييث دي أرثي".

كنت أقرأ في الفصل، والكتاب مفتوح على ركبتي، بطريقة تجعل من المعتقد أن الحماية التي كنت أتمتع بها ترجع إلى تساهل المُعلمين معي، الشيء الوحيد الذي فشلت فيه هو أن أحصل على إذن بعدم حضور الصلاة اليومية في السابعة صباحاً، وإضافة إلى كتابة أشيائي العبيطة كنت أغني منفرداً في الكورال، وأرسم كاريكاتيراً ساخراً، وأقرأ القصائد الجادة، وأشياء أخرى خارج أوقات الدراسة والمدرسة، إلى درجة أن أحداً لم يفهم متى أستذكر دروسي، والسبب بسيط للغاية: لم أكن أستذكر.

ما بين كل هذه الحركة الزائدة عن الحد، لم أفهم لماذا اهتم المدرسون بي دون أدنى اهتمام بأخطائي الإملائية، بعكس أمي التي كانت تخبئ رسائلي عن أبي وتعيد لي أخرى بعد تصحيحها، وأحياناً تحدثني عن بعض التقدم النحوي

والاستخدام الصحيح للكلمات، لكن بعد مرور عامين لم يكن هناك أمل في إحراز بعض التقدم، وإلى اليوم لا تزال مشكلتي: أنني لم أفهم أبداً لماذا توجد في اللغة أحرف لا تنطق، أو وجود حرفين مختلفين لهما النطق نفسه، إضافة إلى قواعد أخرى تُعتبر مضيعة للوقت.

بهذه الطريقة اكتشفت هواية رافقتني طول حياتي، وهي حبي للحوار مع من هم أكبر مني سناً، وحتى اليوم عندما أتحاور مع من هم في سن أحفادي أبذل جهداً حتى لا أبدو أصغر سناً منهم، وهذا ما فعلته مع زميلين لي كانا أكبر سناً مني، ورافقاني بعد ذلك في مختلف مراحل حياتي، أحدهما "خوان ب. فرنانديث"، ابن أحد مؤسسي صحيفة "الهيرالدو" الثلاثة في "بارانكيا"، حيث بدأت أولى خطواتي في عالم الصحافة، وحيث بدأ هو كتابة أول كلماته وإلى أن وصل إلى منصب المدير العام، والآخر كان "إنريكي سكوبيل"، ابن مصور فوتوغرافي كوبي شهير في المدينة، وأصبح مصوراً صحفياً، إلا أن علاقتي الحميمة معه لم تكن بسبب قيامنا معاً بعمل تحقيقات مشتركة ولكن بسب الجلود المتوحشة التي كان يُصَدِّرها إلى نصف العالم، وفي أولى رحلاتي إلى الخارج أهداني جلد تمساح بطول ثلاثة أمتار، وقال لي بهدوء:

– هذا الجلد ثمنه باهظ، لكني أنصحك بعدم بيعه، إلا إذا أوشكت على الموت جوعاً.

ولازلت أتساءل إلى أي حد قدم لي "كيكي سكوبيل" عكازاً أبدياً؛ لأنني في الحقيقة كنت في حاجة إلى بيعه عدة مرات على مدى عمري، ومع ذلك لا زلت أحافظ عليه مترباً ومتحجراً تقريباً، لأنني منذ حملته معي في حقيبة سفري لم أعد في حاجة إلى سنتيم واحد.

مُعلمو "الجزويت"، القساة في فصولهم، كانوا مختلفين في أوقات الراحة، كانوا يعلمونا في تلك الراحات ما لا يستطيعون في الفصول، ويتخففون من حمل ما

يريدون تعليمه حقيقة، وما يمكن أن أتذكره في تلك الفترة المبكرة، أعتقد أن ذلك الاختلاف كان يمكن الإحساس به كثيراً، فالقس "لويس بوسادا"، كان شاباً بعقلية تقدمية، عمل لسنوات طويلة مع النقابات، كان يمتلك أرشيفاً من البطاقات بكل أنواع التصنيفات الموسوعية الملخصة، وبشكل خاص عن الكُتَّاب والمؤلفين، أما القس "إجناثيو سالديبار" فقد كان جبلياً من بلاد الباسك ظللت على علاقة به في "كارتاخينا" وإلي شيخوخته في دير "سان بدرو كليفار"، والقس "إدواردو نونييث" كانت لديه رواية على وشك الاكتمال عن تاريخ الأدب الكولومبي، والتي لا أعرف مصيرها، والعجوز القس "مانويل هيدالجو" أستاذ الغناء، كان متقدماً في السن، فقد كان يكتب الموسيقى بطريقته الخاصة، وكثيراً ما كان يسمح بغناء موسيقى بدائية لم تكن في الحسبان.

حدثت بيني وبين القس "بييسشاكون"، المدير، حوارات متقطعة، ومن تلك الحوار استشفيت أنه كان يرى فيّ شخصاً ناضجاً، ليس فقط بسبب الموضوعات التي كنت أناقشها بل بسبب شروحي الجريئة، كنت دائماً في حياتي قاطعاً في رؤيتي بالنسبة للجنة والجحيم، والتي لم أتمكن من ربطها مع قوانين الكنيسة بسبب عقبات خاصة بالجغرافيا. في مقابل تلك الأفكار الجامدة، فإن المُعلمين خَفَّفوا عني فترة الدراسة بأفكارهم التقدمية، فالجنة، كانت دون حاجة إلى شروح فقهية، ليست أكثر من وجود الله، والجحيم، بالطبع العكس من ذلك، وإنْ اعترف لي مرتين بأن لديه مشكلة وهي "أنه على أي حال ستكون هناك نار"، لكنه لم يتمكن من فهمها، خاصة في دروس الراحة أكثر من الدروس الرسمية، أنهيت العام الدراسي بصدر مدرع بالميداليات.

أولى أجازاتي في "سوكري" بدأت يوم أحد في الرابعة بعد الظهر، على رصيف مُزَيَّن بالهدايا والبالونات الملونة، وميدان تحوَّل إلى سوق عيد، ما أن وطئت قدماي الأرض اليابسة حتى تعلقت برقبتي فتاة جميلة جداً، شقراء،

وخنقتني بقبلاتها، لقد كانت شقيقتي "كارمن روسا"، ابنة لأبي قبل زواجه من أمي، جاءت لقضاء بعض الوقت مع عائلتها المجهولة، وجاء بهذه المناسبة أيضاً ابن آخر لأبي، "أبيلاردو"، يعمل ترزياً وافتتح محلاً بأحد جوانب الميدان وكان مُعلمي في حياة المراهقة.

بيتنا الجديد حديث الفراش كانت تخيم عليه مسحة الأعياد وشقيق جديد: "خايمي"، المولود في مايو تحت تأثير برج الجوزاء، وما يتلوه من زلازل، لم أعرف بمولده حتى وصولي، وكان يبدو أن أبويّ اتفقا على تخفيف المواليد السنوية، لكن أمي شرحت لي أن ذلك كان بفضل القديسة "ريتا" والرخاء الذي عم على البيت، كانت تبدو أكثر شباباً وسعادة، ومغنية أكثر من أي وقت مضى، وكان أبي يعيش في حالة من الرضا، العيادة مليئة بالزبائن والصيدلية تغص بالبضائع، خاصة أيام الآحاد التي يأتي فيها مرضى الجبال القريبة، لا أعرف إن كان هذا الازدهار بسبب شهرته كممرض جيد، برغم أن سكان الحقول لم يكونوا ليروا الشفاء في كراته السكرية ولا في مياهه العجيبة، بل في فنونه السحرية.

كانت "سوكري" أفضل من صورتها في ذاكرتي، بحكم العادة كانت في أعياد الميلاد منقسمة إلى حيين كبيرين: "ثوليا"، إلى الجنوب، و"كونجفيو"، إلى الشمال، إضافة إلى حيين ثانويين، فكانت تقيم مسابقة للعربات كتحدٍ فني بين الحيين التاريخيين. في ليلة عيد الميلاد، يتجمع الناس في الميدان الرئيسي، في وسط خليط كبير، ويقرر الجمهور أياً من الحيين الفائز هذا العام.

أضافت "كارمن روسا" بحضورها مزيداً من الازدهار للأعياد، كانت متحضرة وحلوة الحديث، وسرعان ما أصبحت ملكة حلبات الرقص. أمي الغيورة دائماً على بناتها، لم تكن غيورة عليها، بل على العكس كانت تهنئها على خُطَّابها الكثيرين الذين أضفوا على البيت مناخاً غريباً، كانت هناك علاقة مشاركة بينهما، وهو لم يكن بين أمي وبين بناتها، أما "أبيلاردو"، من ناحيته، فقد توصل إلى حل لحياته

بطريقة أخرى، في ورشة من مكان واحد مقسم بحاجز، الجزء الذي يعمل فيه ترزياً كان الأفضل، لكنه لم يكن في مثل شهرته كفحل، فقد كان يقضي الوقت وحيداً بماكينة الخياطة.

عَنَّتْ لأبي في تلك الإجازة فكرة أن يُعدني للعمل في التجارة، "احتياطاً"، حسب قوله، أول ما دربني عليه كان تحصيل ديون الصيدلية من البيوت، في يوم ما أرسلني لتحصيل عدة منها في "لا أورا"، كان عبارة عن "بيت دعارة" يقع خارج القرية.

نظرتُ عبر الباب الموارب لغرفة مطلة على الشارع، فشاهدت إحدى نساء البيت تنام القيلولة على سرير هوائي، كانت حافية وترتدي ملابس داخلية تكاد لا تغطي فخذيها، قبل أن أبادرها بالحديث جلست على السرير، نظرتْ إليّ بعينين ناعستين وسألتني عما أريد، قلت لها لدي طلبا من أبي للسيد "اليخيو مولينا"، صاحب البيت، ولكن بدلاً من أن تدلني عليه طلبت مني أن أدخل وأن أضع الترباس في الباب، أشارت لي بإصبعها إشارة كانت تعني الباقي:

- تعال هنا.

وذهبت إلى هناك، وكلما اقتربت، كانت أنفاسها المجهدة تملأ الغرفة كما لو كانت نهراً متزايداً، إلى أن أمسكت ذراعي بيدها اليمنى ونزعت بنطلونها القصير باليسرى، فشعرت برعب جميل.

- إذن أنت ابن دكتور الكرات السكرية.

قالت لي بينما كانت تدغدغني بداخل البنطلون بإصبعين سريعي الحركة كما لو كانا عشرة أصابع، نزعت بنطلوني دون أن تتوقف عن الإسرار في أذني بكلمات رقيقة، خلعت قميصها من أعلى ونامت على ظهرها، ولم يتبق عليها سوى كلوتها المرسوم عليه أزهار ملونة، وقالت:

- هذا تنزعه أنت، هذا واجبك كرجل.

حاولت بحياء، لكني لم أستطع بسبب السرعة، وكان عليها أن تساعدني بمد ساقيها وحركة سباحة سريعة، ثم رفعتني إلى أعلى ووضعتني عليها، والباقي قامت به بطريقتها، إلى أن نمت عليها وحدي، غارقاً في عرق فخذيها القويين.

سكنتْ في صمت، وضعتني جانباً، ناظرة في عيني بقوة فيما ركَّزتُ نظري عليها على أمل البدء من جديد، ولوقت أطول، فجأة قالت إنها لن تأخذ ثمن خدمتها؛ لأنني لم أكن مستعداً، بعدها رقدت على ظهرها وأمعنت النظر في وجهي. وقالت لي:

- ثم إنك شقيق "لويس إنريكي"، أليس كذلك؟ لك نبرة الصوت نفسه.

ببراءة سألتها:

- كيف تعرفه؟

فضحكت:

-لا تكن عبيطاً، أعرفه لدرجة أنني أحتفظ بقطعة من ملابسه الداخلية هنا غسلتها في آخر مرة.

اعتقدت أنها كانت تبالغ لعلمي عمر شقيقي، ولكنها عندما أظهرتها عرفت أنه كان صحيحاً، بعدها قفزتْ من السرير بسحر راقصة باليه، وبينما كانت ترتدي ملابسها قالت:

- إنه في الباب التالي من البيت، على اليسار، هناك السيد "إليخيو مولينا".

وأخيراً سألتني:

- هذه المرة الأولى، أليس كذلك؟

قفز قلبي، وكذبت عليها:

- ماذا تقولين، ربما تكون السابعة.

قالت بإشارة ساخرة:

- على أي حال، يجب أن تطلب من شقيقك أن يُعلِّمك بعض الدروس.

البداية في هذا العالم منحتني قوة وحيوية، كانت الإجازة من ديسمبر إلى فبراير، وسألت نفسي كم من المرات يمكنني أن أحصل على بيزوين حتى أعود إليها، شقيقي "لويس إنريكي" الذي كان خبيراً بالجسد، كان يموت من الضحك؛ لأن من في عمرنا لا يجب أن يدفع مقابل شيء يسعد الطرفين في وقت واحد.

في الروح العائلية لحي "موخانا"، فإن سادة الأرض كانوا يسعدون عذراوات ممتلكاتهم ببدئهن، وبعد عدة أيام من الاستخدام السيئ يتركونهن لحظهن التعس، كان علينا أن نختار من نصطادهن في الميدان بعد الرقص، إلا أن تلك الإجازة سببت لي الخوف نفسه الذي سببه لي التليفون، فكنت أراهن يعبرن أمامي كالسحاب في الماء، ولم يكن لدي لحظة واحدة من السعادة التي تركتها في جسدي تلك المغامرة غير المحسوبة، لا ولن أعتقد أنها كانت السبب في الحالة التي عدت بها إلى المدرسة، مبهوراً بالكامل بالمبالغة الجميلة للشاعر البوجوتي السيد "خوسيه مانويل ماروكين"، الذي كان يصيب المستمعين بالجنون من أول مقطع.

لم يكن يُدخل الفوضى في تسلسل القصيدة بل تعلمت منه الكلام بسهولة ابن البلد الأصيل الذي يعرف مكانه، حدث معي كثيراً: كنت أجيب على أي شيء، لكن إجاباتي كانت في معظمها تبدو غريبة أو مسلية، فتخرج المدرسين عن أطوارهم، إلى درجة أن بعضهم شك في صحتي العقلية، عندما قدمت له في الامتحان إجابة صحيحة، لكنها عسيرة على الفهم لأول وهلة، لم أكن أقصد سوءاً من تلك السخرية السهلة التي تسلي الجميع.

لفت انتباهي أن الرهبان كانوا يتعاملون معي وكأني غائب عن وعيي، فكنت أجاريهم في حديثهم، السبب الآخر المثير للإزعاج أنني اختلقت أزجالاً مقدسة لتغنيها المجموعات الكنسية بكلمات ملحدة ولحسن الحظ لم يفهمها أحد، وبعد موافقة أبويَّ أخذوني إلى مختص أخضعني لاختبار عسير لكنه كان مسلياً؛ لأنه

بالإضافة إلى سرعة البديهة كانت له جاذبية شخصية ومنهجاً لا يقاوم، طلب مني أن أقرأ ورقة مكونة من جمل معكوسة وعليّ أن أقرأها بالشكل الصحيح، وفعلت ذلك باهتمام كبير، إلى درجة أن الطبيب لم يقاوم الرغبة في مشاركتي هذه اللعبة، وحدثت لنا معاً تجارب عبقرية إلى درجة أنه سجلها ليضيفها إلى اختباراته المستقبلية، وبعد فحص دقيق لعاداتي سألني كم عدد المرات التي مارست فيها العادة السرية، أجبته بأول إجابة تخطر على بالي وهي إجابة ما كنت أبوح بها لأحد، لم يصدقني، لكنه شرح لي أن الخوف يعتبر عنصراً سلبياً بالنسبة للصحة الجنسية، ورأيت أن عدم تصديقه نوعاً من الدفع في هذا الاتجاه، أعتقد أنه كان رجلاً ممتازاً، وتمنيت أن ألتقي به بعد أن كبرت وبدأت العمل كصحفي في "الهيرالدو"، ليخبرني بالنتائج التي توصل إليها من اختباراتي، وكل ما عرفته عنه أنه رحل منذ سنوات ليعيش في الولايات المتحدة، وأحد زملائه القدامى كان صريحاً معي وقال لي إنه يحترمه جداً، وإنه ليس غريباً أن يكون في مستشفى للأمراض العقلية بشيكاجو، لأنه اعتقد دائماً أنه كان أسوأ من مرضاه.

كان التشخيص إرهاقاً عصبياً زائداً ناتجاً عن القراءة بعد تناول الطعام. ونصح بالراحة التامة لمدة ساعتين بعد الأكل ونشاط رياضي أكثر قوة من المعتاد، ولا زلت مندهشاً للجدية التي أخذ بها أبواي والمعلمون أوامر الطبيب، فقد جدولوا لي قراءاتي، وصادروا مني الكتاب أكثر من مرة عندما وجدوني أقرأ في الفصل والكتاب تحت الطاولة، أبعدوني عن المواد الصعبة وأجبروني على ممارسة رياضة بدنية لعدة ساعات يومياً؛ وبينما كان الآخرون في الفصل كنت أنا في ملعب كرة السلة ألقي بالكرة في رميات عبيطة وأقرأ من الذاكرة، فانقسم زملائي في الفصل: البعض صدقوا أنني مجنون فعلاً، والبعض الآخر اعتقدوا أنني أدعي الجنون لأستمتع بالحياة، وهناك من اعتقدوا أن المجانين هم المعلمون أنفسهم. ومن هنا جاءت إشاعة أنني طُردت من المدرسة؛ لأنني ألقيت بدواة الحبر على

مدرس الرياضيات عندما كان يكتب التمارين على السبورة، لحسن الحظ أن أبي فهم الأمر بشكل مختلف وقرر عودتي إلى البيت دون أن أكمل العام الدراسي، أو تضييع الوقت والمال بسبب حالة يمكن أن تكون ناتجة عن التهاب كبدي.

أما شقيقي "أبيلاردو" على العكس من ذلك فقد كان يرى أنه لا توجد مشكلة في الحياة لا يمكن حلها في السرير، وبينما كانت شقيقاتي يعالجنني بإبداء الشفقة، كان هو يعلمني الوصفة السرية منذ أن رآني أدخل الورشة:

– ما ينقصك هي ساق جميلة.

وأخذ الأمر على محمل الجد، فقد كان يذهب كل يوم لمدة نصف ساعة إلى صالة البلياردو على الناصية، ويتركني خلف ساتر ورشته برفقة صديقات من كل الألوان، ولم أكرر مع واحدة أكثر من مرة، كانت فترة من فترات عبقرية تحطيم التقاليد، التي تؤكد نظرية "أبيلاردو" الطبية، فقد عدت في العام التالي إلى المدرسة بكامل قواي العقلية.

لا أستطيع أن أنسى أبداً السعادة التي استقبلوني بها في مدرسة "سان خوسيه"، والإعجاب الذي قابلوا به كرات أبي المدهشة، لم أذهب هذه المرة للعيش مع ابن عمي، الذي لم يعد بيته يكفي بعد ميلاد ابنه الثاني، بل للعيش في بيت "لييثير جارثيا"، شقيق لجدتي من أمي، شهير بكرمه وشرفه. عمل في بنك إلى أن أًحيل إلى التقاعد، أكثر ما أثار إعجابي به شغفه الأبدي باللغة الإنجليزية، درسها طوال حياته منذ طلوع الفجر وفي الليل حتى وقت متأخر، وكان يمارس تمارينها مُغنياً بصوت جميل ولحن جيد، إلى الحد الذي سمح به السن، كان يذهب أيام الأعياد إلى الميناء يصطاد السائحين ليتحدث معهم، ووصل إلى حد تحدث اللغة الإنجليزية تماماً كما يتحدث اللغة الإسبانية، لكن خجله منعه من أن يتحدث بها مع أي شخص معروف له، فلا أبناؤه الثلاثة من الذكور، كلهم أكبر مني، ولا ابنته "فالنتينا" استمعوا إليه يتحدث بها أبداً.

عن طريق "فالنتينا" - التي كانت صديقتي وقارئة موهوبة - اكتشفت حركة "رمال وسماء" التي كانت مكونة من مجموعة من الشعراء الشبان التي وضعت نصب عينيها تجديد الشعر على امتداد الشاطئ الكاريبي متخذين من "بابلو نيرودا" مثالاً لهم، في الحقيقة كانوا تقليداً جيداً لمجموعة "حجر وسماء" التي كانت تفرض سيطرتها في ذلك الوقت على مقاهي شعراء "بوجوتا" وفي الملاحق الأدبية التي كان يديرها "إدواردو كارانثا"، تحت تأثير الشاعر الإسباني "خوان رامون خيمينيث"، بهدف صحي وهو القضاء على الأوراق الساقطة من القرن التاسع عشر. لم يكونوا ليزيدوا على نصف الدستة من الشعراء لم يتعدوا المراهقة إلا بقليل، لكنهم سيطروا بقوة على الملاحق الأدبية للشاطئ التي بدأوا بالظهور فيها كمواهب واعدة.

قائد مجموعة "رمال وسماء" كان اسمه "ثيسار أوجوستو ديل باليي"، كان في الثانية والعشرين تقريباً، الذي أخذ اندفاعه المجدد ليس على مستوى الموضوعات والمشاعر فحسب بل أيضاً في الكتابة الإملائية والقواعد اللغوية لقصائده، مما اعتبره شعراء الشعر الصافي كفراً، أما الأكاديميون فقد اعتبروه غباء والكلاسيكيون رأوا فيه تخبطاً، إلا أنه في الحقيقة بعيداً عن انتمائه المعدي - مثل "نيرودا" - فقد كان رومانتيكياً غير قابل للإصلاح.

أخذتني ابنة عمي "فالنتينا" في أحد أيام الأحد إلى بيت "ثيسار" الذي يعيش فيه مع أبويه في حي "سان روكي"، الأكثر تسلية بالمدينة، كان قوي البنية، مكتملاً ونحيلاً، وله أسنان أرنب كبير، وشعره كثيف كشعراء زمنه، وبشكل خاص كان مُسلياً وفقيراً، ينتمي بيته إلى الطبقة المتوسطة الفقيرة، كانت جدرانه موشاة بالكتب ولم يكن هناك مكان لكتاب جديد، كان أبوه رجلاً جاداً ويميل إلى الحزن، له شكل موظف محال على التقاعد، ويبدو أنه كان متبرماً من موهبة ابنه العقيمة، استقبلتني أمه بشيء من الأسى كما لو كنتُ ابناً آخر مصاباً بالداء الذي جعلها تبكي كثيراً على ابنها.

كان ذلك البيت بالنسبة لي كشفاً لعالم ربما كنت أتخيله وأنا في الرابعة عشرة من عمري، لكنني لم أتخيله على هذا النحو أبداً، منذ ذلك اليوم الأول تحولت إلى زائره الدائم، وأخذت من وقت الشاعر الكثير إلى درجة أنني إلى اليوم لم أفهم كيف أمكنه تحملي، ووصلت إلى حد التفكير في أنه كان يُجرِّب فيَّ نظرياته الأدبية، ربما كانت حادة لكنها كانت مبهرة، مع مستمع مندهش ومسالم مثلي، كان يُعيرني كتباً لشعراء لم أسمع بهم من قبل، وكنت أتناقش معه حولهم دون أدنى وعي بجرأته، خاصة مع "نيرودا"، الذي حفظت قصيدته "القصيدة العشرون" عن ظهر قلب لأغيظ بعض "الجزويت" الذين لم يعبروا مجاهل الشعر. في تلك الأيام أفعمت الحياة الأدبية بقصيدة لـ"ميرا ديلمار" في "كارتاخينا" التي انتشرت عبر جميع وسائل الإعلام بالشاطئ، وكان صوت "ثيسار دي باليي" محكماً عندما قرأها لدرجة أنني حفظتها بعد القراءة الثانية.

في مرات أخرى كثيرة لم نستطع الحديث؛ لأن "ثيسار" كان يكتب على طريقته الخاصة، سائراً على قدميه بين الغرف والممرات غارقاً في عالم آخر، وكل دقيقتين أو ثلاث كان يمر أمامي كما لو كان يسير نائماً، وفجأة يجلس إلى الآلة الطابعة، ويكتب شطراً، أو كلمة، وربما نقطة ويبدأ من أول السطر، ويعود إلى السير من جديد، كنت أراقبه مشوشاً بالانفعال السماوي بأثر اكتشافي السر الوحيد لكتابة الشعر، هكذا كانت سنوات دراستي في مدرسة "سان خوسيه"، التي منحتني الأساس لإطلاق مواهبي. آخر ما وصلني من أخبار ذلك الشاعر الذي لا يُنسى، بعد عامين في "بوجوتا"، كان تلغراف من "فالنتينا" فيه كلمتان وحيدتان لم تجد الشجاعة لتوقيعهما: "مات ثيسار".

أول إحساس لي في "بارانكيا" بعيداً عن أبويَّ هو الإحساس بالحرية الاختيارية، كانت لي صداقات حافظت عليها خارج المدرسة، من بينها صداقتي لـ"ألفارو ديل ألتورو"– كان صوتي الثاني خلال فترات الاستراحة الدراسية–

وأيضا مع عـائلة "آل ارتيـتا"، الذين كنت أهرب معهم للذهاب إلى المكتبة أو السينما، فقد كان أقصى حد غير مسموح به في بيت العم "إليثيير"، للحفاظ على شخصيته، ألا أصل البيت بعد الثامنة مساء.

في يوم من الأيام كنت أنتظر عودة "ثيسار دي باليي" وأنا أقرأ في صالون بيته، جاءت تبحث عنه امرأة مدهشة، اسمها "مارينا فونسيكا" وكانت بيضاء في جسد خلاسية، ذكية واستقلالية، من الممكن أن تكون عشيقة الشاعر، عشت لذة الحديث معها لساعتين أو ثلاث، إلى أن عاد "ثيسار" وذهبا معاً دون أن يقولا إلى أين، لم أعد أعرف عنها شيئاً حتى أربعاء الرماد في تلك السنة، عندما خرجت من القداس الأكبر، ووجدتها تنتظرني على كرسي بالحديقة العامة، اعتقدت أنه مجرد خداع بصري، كانت ترتدي وشاحاً من التيل المطرز يضفي نقاءً على جمالها، وعقداً ملوناً ووردة نارية مشتعلة في فتحة صدرها، إلا أن أكثر ما أذكره الآن الطريقة التي دعتني بها إلى بيتها دون أدنى علامة على التردد، ودون أدنى احترام للصليب الرمادي المقدس الذي كان يحمله كلانا على جبهته. كان زوجها يعمل مرشداً على سفينة بنهر "مجدالينا"، كان في رحلة عمل منذ أثنى عشر يوماً، غريب في أن تدعوني زوجته بالمصادفة يوم سبت لتناول الشكولاتة بالبسكويت؟ إلا أن هذا الطقس تكرر باقي العام بينما الزوج على سفر مع السفينة، ودائماً ما بين الرابعة والسابعة، وقت البرنامج الشبابي في سينما "ريكس" الذي كان ذريعتي في بيت عمي "اليثيير" لأكون معها.

كانت مهنتها إعداد مدرسي المدارس الابتدائية لامتحانات الترقية، أفضلهم كانت تستقبلهم في ساعات الراحة لتناول الشكولاته بالبسكويت، ولذلك فإن الجيران لم يلفت نظرهم التلميذ الجديد في أيام السبت، كانت نعومة ذلك الحب السري مدهشة أيقظت الحب المجنون من مارس إلى نوفمبر، بعد السبتين الأولين اعتقدت أنني لا أستطيع أن احتمل الابتعاد عنها لساعة واحدة.

كنا بعيدين عن كل الأخطار؛ لأن زوجها كان يخبرها عند وصوله إلى المدينة بإشارة لتعرف أنه في طريقه لدخول الميناء. وهذا ما كان من السبت الثالث من حبنا، بينما كنا في السرير سمعنا هديراً بعيداً. انتبهتْ وقالت: "اسكت"، وانتظرت هديرين آخرين، ولم تقفز من السرير كما كنت أنتظر منها بسبب خوفي، بل ظلت رابطة الجأش:

– لازال أمامنا أكثر من ثلاث ساعات أخرى.

كانت قد وصفته لي "أسود بطول مترين وشبر وله ترباس رماة القنابل"، كنت على وشك الخروج على قواعد اللعبة تحت وطأة الغيرة، وليس بأية طريقة: كنت أريد قتله. لكن نضجها أنهى المشكلة، منذ ذلك الوقت أخذتني بين مشاكل الحياة الواقعية كذئب في جلد حَمَل.

كنت سيئاً في الدراسة ولم تكن لدي رغبة في الاستمرار، لكن "مارتينا" قررت حل مشكلتي الدراسية، فقد فوجئت بالطفولية في سيطرة حب الحياة على حب الدراسة، قلت لها:

– هذا طبيعي، لو كان هذا السرير هو المدرسة وأنت المعلمة سأكون من الأوائل ليس في الفصل فقط بل في المدرسة كلها.

أخذت الأمر كله على محمل الجد.

وقالت لي:

– هذا هو بالضبط ما سنفعله.

دون تضحيات كبيرة بدأت مهمتها في إعدادي بساعات ثابتة. كانت تساعدني على عمل الواجب المدرسي والاستعداد للدرس للأسبوع التالي، ما بين لحظات سريرية وتعنيف أمومي، إذا لم أتم واجباتي المدرسية بشكل جيد وفي الزمن المحدد كانت تحرمني من يوم سبت مقابل كل ثلاثة أخطاء متكررة. لم أتعد خطأين أبداً، وبدأت التغيرات تتضح عليّ في المدرسة.

إلا أن ما علمتني إياه عملياً كانت طريقة لا تخيب، للأسف لم أستفد منها إلا في آخر سنة من البكالوريا: لو أنني انتبهت إلى المعلم في الفصل وأقوم بعمل الواجبات المدرسية بنفسي بدلاً من نسخها من الزملاء من الممكن أن أحصل على درجات جيدة فأقرأ كما أريد في ساعات الفراغ، وأعيش حياتي دون سهر منهك أو مخاوف لا طائل من ورائها، بفضل هذه الوصفة السحرية كنت الأول على دفعتي تلك السنة- 1942- مع ميدالية الامتياز وكل أنواع مرتبات الشرف، إلا أن الفضل ذهب إلى الأطباء لأنهم استطاعوا شفائي من الجنون، وفي الحفل النهائي انتبهت إلى مدى الغباء العاطفي الذي قدَّمت به شكري خلال السنوات الماضية والاستحواذ على إنجازات لم تكن لي. وفي السنة الأخيرة، عندما رأيت أنني أستحق شرف هذه الإنجازات كان واجباً أن أقدم لها الشكر، لكنني قرأت من كل قلبي قصيدة "السيرك" لـ"جييرمو فالنسيا"، ألقيتها كاملة إلى أن توقفت عند نهايتها، لقد كنت أكثر رعباً من مسيحي في ساحة مصارعة الأسود.

قررت في إجازة ذلك العام الطيب أن أزور الجدة "ترانكيلينا" في "آراكاتاكا"، إلا أنها ذهبت على عجل إلى "بارانكيا" ليجروا لها عملية جراحية في عينيها، فرحتي برؤيتها اكتملت بقاموس الجد الذي قدمته لي هدية، لم تنتبه أبداً إلى أنها كانت تفقد بصرها، أو تعترف بذلك، إلى أن أصبحت مقعدة حبيسة غرفتها.

كانت العملية في مستشفى الرحمة سريعة وتبشر بنتائج طيبة، وعندما رفعوا الأربطة وهي جالسة في السرير فتحت عينيها مشرقة بشبابها الجديد، أضاء وجهها ولخصت فرحتها بكلمة واحدة:

- إني أرى.

أراد الجراح أن يعرف إلى أية درجة ترى، فمسحت الغرفة بنظرتها الجديدة ووصفت كل شيء بدقة عجيبة، حبس الطبيب أنفاسه؛ لأن الأشياء التي وصفتها لم تكن تلك التي توجد أمامها في غرفتها بالمستشفى، بل توجد في غرفة بيتها في "آراكاتاكا"، تتذكر نظامها من ذاكرتها، ولم تستعد نظرها بعدها أبداً.

أصر أبواي على أن أمضي الإجازة معهم في "سوكري"، وأن آخذ الجدة معي، التي كانت أكثر شباباً عما يشير إليه عمرها، وذاكرتها تسير على طريق الاضمحلال، فقد ازداد جمال صوتها وكانت تغني أكثر وبإلهام أكثر من أي وقت مضى. حرصت أمي على أن تكون نظيفة ومهندمة دائماً، كانت كعروسة ضخمة، كان واضحاً أنها تعلم ما يجري في الدنيا من حولها، ولكنها كانت تشير إلى الماضي، خاصة برامج الإذاعة، تتعرف على أصوات المذيعين المختلفين، وتتعرف عليهم كأصدقاء شبابها في "ريواتشا"؛ لأنه لم يكن لديها راديو في "آراكاتاكا" أبداً، كانت تعارض أو تنتقد بعض ما يقوله المذيعون، وكانت تناقش معهم موضوعات متعددة جداً، أو تكتشف أخطاءهم النحوية كما لو كانوا إلى جوار سريرها بلحمهم ودمهم، وكانت ترفض أن يُغَيِّروا لها ملابسها قبل أن تودعهم، حينها تقول بصوتها المهذب:

– ليلة طيبة يا سيد...

الكثير من أسرار الأشياء الضائعة والأسرار الخفية أو الموضوعات المحرمة، أوضحتها الجدة خلال حديثها مع نفسها: من حمل طلمبة المياه الضائعة من بيت "آراكاتاكا" بعد أن أخفاها في صندوق، ومن هو الأب الحقيقي لـ"ماتيلدي سالمونا" الذي أخطأه أشقاؤها بآخر وقتلوه برصاصة واحدة.

ولم تكن إجازتي الأولى في "سوكري" سهلة مع "مارتينا فونسيكا"، ولكن لم تكن هناك إمكانية واحدة لتذهب معي، مجرد فكرة أن أظل دون أن أراها لمدة شهرين كانت فكرة غير متخيلة، ولكن الأمر بالنسبة لها لم يكن كذلك، بالعكس، عندما حدثتها عن الموضوع، فهمت على الفور أنها كانت تسبقني بثلاث خطوات، وقالت لي بلا أدنى مواربة:

– كنت أريد أن أحدثك عن هذا، من الأفضل أن تذهب للدراسة في مكان آخر في هذا الوقت الذي نعيش فيه حباً جنونياً، وبذلك تفهم أن ما بيننا لن يكون أكثر مما كان.

أخذت الأمر على محمل الهزل:

- سأذهب الآن وأعود بعد ثلاثة أشهر لأبقى معك.

ردت عليّ بموسيقى تانجو:

- خاخا، خاخا، خاخا، خاخا.

فهمت عندها أن "مارتينا" من السهل أن تقتنع عندما تقول لا، ولكن من الصعب عندما تقول نعم، وهكذا أمسكت بالقفاز الغارق في الدموع وقررت أن أكون في الحياة شخصاً آخر غير الذي فكرت فيه هي: إلى مدينة أخرى ومدرسة أخرى، وأصدقاء آخرين وشخصية أخرى، لم أفكر في الأمر كثيراً، بفضل ميدالياتي الكثيرة كان أول ما قلته لأبي بكل جدية:

- إنني لا أريد العودة إلى مدرسة "سان خوسيه"، ولا أية مدرسة في "بارانكيا".

فقال هو:

- بحق الله، سألت نفسي دائماً من أين جاءتك الرومانتيكية لتدرس مع "الجزويت".

لم تعلِّق أمي على كلماته، وقالت:

- إذا لم يكن هناك فليكن في "بوجوتا".

فرد أبي على الفور:

- إذن لن يكون في أي مكان؛ لأننا لا نملك النقود الكافية.

كان الأمر غريباً؛ لأن فكرة عدم مواصلة الدراسة التي كانت حلم حياتي، بدت لي فكرة لا تصدق، إلى درجة أنني لجأت إلى حلم كنت أعتقد أنه بعيد الاحتمال، فقلت:

- هناك منح.

قال أبي:

- كثيرة جداً، لكنها للأثرياء.

جزئياً كان هذا صحيحاً، لكن ليس بسبب الوساطة، بل لأن خطوات التقدم لها كانت صعبة ولرداءة نشر قواعد التقدم لها، بسبب مركزية الإدارة، فكل من يرغب في منحة عليه أن يذهب إلى "بوجوتا"، ألف كيلومتر يقطعها في رحلة من ثمانية أيام، وتكلف ما يسمح للتلميذ البقاء في مدرسة داخلية ممتازة لثلاثة أشهر كاملة، ورغم هذا من الممكن أن تنتهي إلى لا شيء، عَبَّر أبي عن هذا:

– عندما نفتح ماكينة النقود نعرف من أين نبدأ ولكننا لن نعرف إلى أين ننتهي.

إضافة إلى هذا، كانت هناك واجبات متأخرة، "لويس إنريكي" الأصغر مني بعام واحد، كان مسجلاً في مدرستين محليتين وهجرهما بعد مضي أشهر قليلة، و"مارجريتا" و"عايدة" كانتا تدرسن بشكل جيد في المدرسة الابتدائية للراهبات، وبدأنا التفكير في مدينة قريبة أقل كلفة لدراسة البكالوريا، و"جوستافو" و"ليخيا" و"ريتا" و"خايمي" لم تكن احتياجاتهم عاجلة بعد، لكنهم كانوا ينمون بشكل مزعج، تماماً مثلهم مثل الثلاثة الآخرين الذين ولدوا بعدهم كانوا يتعاملون معي على أنني دائماً ما آتي لأذهب.

كانت سنة حاسمة بالنسبة لي، خلال الاحتفالات كانت جاذبية كل عربة في وجود الفتيات الجميلات المختارات بجاذبيتهن وجمالهن وملابس الملكات اللاتي كن يرتدينها، وكن يقرأن أشعاراً عن الحرب الرمزية بين نصفي القرية، أنا، الذي كنت لا أزال تحت وطأة الإحباط، كنت أتمتع بالحيادية، وكنت أُبيِّن هذا في أعمالي، إلا أنني في تلك السنة قبلت توسلات قادة حي "كونجوفيو" لأكتب لهم الأشعار التي ستقرأها شقيقتي "كارمن روسا"، التي ستكون ملكة عربة ضخمة، قبلت التكليف بحماس، لكني تجاوزت في مهاجمة الخصم لجهلي بقواعد اللعبة، ولم يكن أمامي من طريق لاتقاء الفضيحة سوى أن أكتب قصيدتي سلام: واحدة لمدح جميلة "كوجوفيو" والأخرى لمصالحة جميلة "تويليا"، تم إعلان الخبر على الملأ، والشاعر

المجهول الذي يكاد لا يعرفه أحد في القرية أصبح بطل لجنة التحكيم، الحدث قدمني للمجتمع وجعلني صديقاً لكلا الجانبين، منذ ذلك الوقت لم يكن لدي الوقت للمساعدة في إقامة حفلات غداء للأطفال، وافتتاح أسواق خيرية، ورئاسة توزيع يانصيب خيري، وحتى كتابة خطاب مرشح لعضوية المجلس البلدي.

بدأ "لويس إنريكي" شهرته كعازف جيتار موهوب وعلَّمني العزف معه، وكَوَّنَا ثلاثياً معه ومع "فيلاديلفو فيليا" حتى أصبحنا ملوك الاحتفالات. مع الفوز بالجائزة الكبرى كانت بعض مرتديات ملابس الرقص تفتحن بيوتهن لنا، كنا نوقظ الجيران وتستمر الحفلات حتى ساعة الإفطار. في تلك السنة ازدادت شهرة المجموعة بانضمام "خوسيه بالنسيا" الذي كان موسيقياً موهوباً قادراً على عزف أية آلة موسيقية تقع بين يديه، كان له مظهر فنان سينمائي، وكان راقصاً محترفاً، وله ذكاء خارق وحظ يحسد عليه مع العديد من أنواع الحب الطائر.

على العكس تماماً كنت أنا، لم أكن أجيد الرقص، ولم أفلح في تعلمه ولا حتى في بيت الأخوات "لويسياو"، ست شقيقات عاجزات بالمولد، إلا أنهن كن يدرسن الرقص دون أن يتركن كراسيهن. أبي الذي لم يكن حساساً أبداً تجاه الشهرة، اقترب مني برؤية جديدة، فكانت المرة الأولى التي ندخل فيها في حوار طويل، في الحقيقة، من رؤيتي له اليوم، لم أعش مع أبويَّ أكثر من ثلاث سنوات طوال حياتي، بما فيها الحياة في "آراكاتاكا"، و"بارانكيا" و"كارتاخينا"، و"ثينسي" و"سوكري"، كان الحوار تجربة جميلة جعلتني أتعرف عليه أفضل، قالت لي أمي:

- إنه أمر طيب أن تكون صديقاً لأبيك.

بعدها بأيام وعندما كانت تعد القهوة في المطبخ قالت لي ما هو أكثر:

- أبوك فخور بك جداً.

في اليوم التالي أيقظتني على أطراف أصابعها وأسرَّت في أذني:

- لقد أعد لك أبوك مفاجأة.

هذا حقيقة، عندما هبطت لتناول الإفطار، نقل إليّ الخبر أمام الجميع بكل تفاصيله:

- جهز كل احتياجاتك ستذهب إلى "بوجوتا".

أولاً شعرت بإحباط كبير، فقد كنت أريد وقتها أن أبقى غارقاً في الملهى الأبدي، ولكن انتصرت البراءة. وبالنسبة لملابس المناطق الباردة فلم تكن هناك مشكلة، كان أبي يمتلك بدلة سوداء من الفرو وأخرى من القطيفة، لم تكن أي منهما تساوي مقاس وسطه، وهكذا ذهبنا مع ب"درو ليون روساليس" المدعو ترزي العجائب، وفصلهما على مقاسي، إضافة إلى هذا اشترت لي أمي معطفاً من جلد الجمل لعضو بمجلس الشيوخ كان قد مات، عندما كنت أقيسه في البيت، أَسرَّت لي أختي "ليخيا" - كانت عرافة بالطبيعة- بأن شبح عضو مجلس الشيوخ كان يتنزه ليلاً في البيت مرتدياً المعطف، لم أهتم بقولها، لكن ربما كان كلامها صحيحاً، فعندما لبسته في "بوجوتا" نظرت إلى المرآة شاهدت وجه عضو مجلس الشيوخ الميت، فرهنته لدى بيت الرهونات بعشرة بيزوات وتركته يضيع.

الحياة المنزلية كانت قد تحسنت كثيراً إلى درجة أنني بكيت لحظة الوداع، لكن البرنامج تم تنفيذه حرفياً دون أدنى التفات للمشاعر، رحلت في الأسبوع الثاني من يناير إلى "ماجانجي" في السفينة "دافيد أرانجو"، أشهر سفينة في الشركة البحرية الكولومبية، وبعد أن قضيت ليلة كرجل حر، كان رفيقي في الغرفة ملاك يزن مائتين وعشرين رطلا وأمرد الجسد، كان يحمل اسم الشهرة "جاك نازع الأحشاء" وكان آخر الأحياء من جماعة من نازعي الأحشاء في سيرك من آسيا الصغرى، من أول نظرة فهمت أنه قادر على خنقي أثناء النوم، ولكن في الأيام التالية عرفت أنه ليس سوى ما يكشف عنه مظهره: طفل ضخم بقلب أكبر من جسده.

أقاموا في الليلة الأولى حفلاً، بأوركسترا وعشاء بالملابس الرسمية، لكنني هربت إلى سطح السفينة، تأملت لآخر مرة أضواء العالم الذي أستعد لنسيانه بلا

ألم وبكيت على راحتي حتى الفجر، أتجرأ اليوم على الاعتراف أنه الشيء الوحيد الذي أكون على استعداد للعودة من أجله طفلاً من جديد؛ لأستمتع بهذه الرحلة مجدداً، قمت بهذه الرحلة ذهاباً وإياباً أربع مرات خلال الفترة التي تبقت لي لاستكمال دراسة البكالوريا ومرتين خلال الدراسة الجامعية، وفي كل مرة تعلمت من الحياة أكثر مما تعلمت خلال الدراسة، وربما أفضل، خلال الفترات التي يكون جريان الماء في النهر كافياً، تحتاج الرحلة صعوداً من "بارانكيا" لميناء "سالاجار" إلى خمسة أيام، ومنها نقضي يوماً في القطار إلى "بوجوتا"، وخلال فترات التحاريق كانت الرحلات أكثر تسلية للإبحار إن لم تكن على عجلة من أمرك، لأنها يمكن أن تستمر لأكثر من ثلاثة أسابيع.

أسماء السفن كانت سهلة ومباشرة: "الأطلنطي"، و"ميديين"، و"كابتن كارو"، و"دافيد أرانجو"، وقباطنتها كقبطان "كنوراد"، كانوا متسلطين وذوي فطرة طيبة، يأكلون كالبدائيين ولا يعرفون النوم في قمراتهم الملكية، فالرحلات كانت بطيئة ومدهشة، نحن المسافرين نجلس على الشرفات طوال اليوم نشاهد القرى المنسية، والتماسيح تنام فاتحة أفواهها في انتظار الفراشات الغافلة عن مصيرها، وطيور البلشون تنطلق طائرة لرعبها من صوت السفينة، أما بط البحيرات الداخلية فإنها تغني بينما تطعم صغارها، كنت أستيقظ فجراً طوال الرحلة بسبب الجيف التي كانت ملقاة في النهر، أو توقظني من القيلولة رائحة بقرة غارقة، تسير بهدوء على حافة النهر والطيور جاثمة على بطنها.

من الأشياء الغريبة الآن أن يتعرف أحد على شخص آخر في الطائرة، لكن على السفن النهرية ننتهي نحن التلاميذ إلى أن نكاد نكون عائلة واحدة، لأننا نتفق كل عام على السفر على سفينة واحدة، أحياناً تغرس السفينة في كثبان رملية مدة خمسة عشر يوماً، لا أحد يهتم، فالاحتفالات تتواصل، ورسالة القبطان المختومة بشعار خاتمه تصلح كعذر للوصول إلى المدرسة متأخراً.

من أول يوم لفت انتباهي أكثر العائلة شباباً، يعزف الماندولين كما لو كان حالماً، ويتمشى طوال أيام كاملة على سطح الدرجة الأولى، لم أحتمل جسدي، فمنذ أن استمعت أول عزف للأكورديون على يد "فرانثيسكو الأومبري" في العشرين من يوليو في "آراكاتاكا" حاول جدي أن يشتري لي واحداً، ولكن جدتي وقفت بيننا بآرائها المعروفة عن أن هذه الآلة الموسيقية لا يعزفها سوى "الموخيجانجا" (البدائيون من سكان البلاد الأصليين الذين كانت تقلل من شأنهم). بعد حوالي ثلاثين عاماً أعتقد أنني تعرفت في "باريس" على عازف الماندولين الوسيم، على ظهر السفينة، في مؤتمر دولي عن طب الأعصاب، بعد أن فعل الزمن فعله: أطلق لحية بوهيمية وزادت الملابس من حجمها على جسده أكثر من مقياسين، ولكن ذكرى عزفه الرائع لم يترك مكاناً للخطأ، إلا أن رد فعله كان جافياً عندما سألته دون أقدم نفسي:

- كيف حال الماندولين؟

أجابني مذعوراً:

- لا أعرف عما تحدثني يا سيدي.

شعرت وكأن الأرض ابتلعتني، وقدمت له اعتذاراتي المتواضعة؛ لأنني أخطأته بتلميذ كان يعزف الماندولين على ظهر السفينة "دافيد أرانجو"، في بدايات يناير عام 44؟ حينها أضاء وجهه بالذكرى، لقد كان الكولومبي "سلمون حكيم" واحداً من أكبر أطباء الأعصاب في هذا العالم، وإحباطه جعله يغير الماندولين بالهندسة الطبية.

لفت نظري مسافر آخر بحفاظه على البقاء بعيداً، كان شاباً، ممتلئاً، جلده يميل إلى الشقرة ويضع على عينية نظارة قصر نظر، وصلعة في بدايتها يحافظ عليها بشكل جيد، أعتقد أنه كان الصورة المتكاملة للسائح، احتل الكرسي الأكثر راحة منذ اليوم الأول، ووضع على الطاولة عدة أكوام من الكتب الجديدة وظل يقرأ بلا اهتمام بالتسالي التي كانت طوال الصباح وحتى الليل، كان يظهر في

المطعم كل يوم بقميص مشجر ومختلف، أفطر وتغدى وتعشى وواصل القراءة وحيداً على طاولة جانبية، لا أعتقد أنه تبادل التحية مع أحد، عَمَّدته باسم: "القارئ الذي لا يرتوي".

لم أقاوم رغبة التلصص على كتبه، معظمها كانت كتباً عسرة الهضم عن القانون العام، التي كان يقرأها صباحاً، وهو يُخطط ويكتب هوامش على الحواشي، ومع ساعة العصرية يقرأ روايات، من بينها، واحدة أصابتني بالبله: "البديل" لـ"ديستوفسكي"، كنت حاولت سرقتها من مكتبة في "بارانكيا" ولكني لم أستطع، كنت مجنونا لقراءتها، إلى درجة أنني كنت أود أن أطلب منه إعارتها لي، لكني لم أجرؤ. وفي يوم من تلك الأيام ظهر برواية "مايلنز الكبير" التي لم أسمع عنها من قبل، والتي حصلت عليها بعد ذلك مع الأعمال الكبرى المفضلة لي، فيما كنت أحمل أنا معي كتباً قرأتها عدة مرات: "خيرومين" لـ"بدرو كولوما"، التي لم أنته من قراءتها أبداً، و"الدوامة" لـ"خوسيه أيوستاسيو ريفيرا"، و"من الأبنينو إلى الأنديرز" لـ"أدموندو دي أمسيث"، وقاموس الجد الذي كنت أقرأه على أجزاء، خلال ساعات طويلة، أما القارئ الذي لا يرتوي فقد كان على العكس، لم يكن يجد في وقته الكثير، ما أريد أن أقوله إنني على استعداد لدفع أي ثمن لأكون مثله.

المسافر الثالث، بالطبع كان "جاك نازع الأحشاء" رفيقي في الغرفة، كان يتحدث في نومه لساعات طويلة بلغة بربرية، لكلامه نغمة عميقة تحوَّلت إلى خلفية موسيقية لقراءاتي في الصباح المبكر، قال لي إنه غير واعٍ بهذا، ولا يعرف بأية لغة كان يحلم؛ لأنه عندما كان صغيراً كان يتفاهم مع أعضاء سيركه الذين ينتمون إلى ست لغات آسيوية، لكنه فقدها جميعاً عندما ماتت أمه، فقط بقيت اللغة البولندية، التي كانت لغته الأصلية، ولكننا استطعنا أن نكتشف أنها ليست اللغة التي كان يتحدث بها نائماً، لا أتذكر شخصاً محبوباً مثله عندما كان يدهن نفسه بالزيت أو يسن سكاكينه بلسانه الوردي.

مشكلته الوحيدة كانت في اليوم الأول في المطعم عندما أعلن للخدم أنه لا يستطيع الحياة طوال الرحلة إذا لم يقدموا له أربع وجبات، فشرح له الملاحظ أنه عليه أن يدفع ثمنها مع عمل خصم خاص له، ولكنه أكد أنه سافر في كل بحار العالم وكلهم كانوا يعترفون بحقه الإنساني في ألا يتركوه يموت جوعاً، وصلت القضية إلى القبطان، الذي قرر على الطريقة الكولومبية: أن يقدموا له وجبتين، وأن يتجاهلوا حصوله على وجبتين أخريين خلسة، وكان يساعد نفسه بالسطو بشوكته على أطباق زملاء الطاولة وبعض القريبين منه من قليلي الطعام، الذين كانوا يستمتعون بأفعاله، يجب أن تشاهده لتصدق.

لم أعرف ماذا أفعل مع نفسي، إلى أن صعدت مجموعة من التلاميذ كوَّنوا ثلاثيات ورباعيات طوال الليالي، وكانوا يغنون أغنيات جميلة وقصائد حب، وعندما اكتشفت أنه ينقصهم صوت قررت أن أتولى هذا الأمر بنفسي، كنت أتدرب معهم في المساء ونظل نغني حتى الفجر، أخيراً عثرت على ما يشغلني في ساعات فراغي، من لا يغني لا يمكنه أن يتخيل لذة الغناء.

في ليلة كان قمرها كبيراً، استيقظنا على صوت عويل يأتي من الشاطئ، القبطان "كليماكو كوندي أبيو" كان واحداً من كبار القباطنة، أصدر أوامره بالبحث بين الأعشاب عن مصدر هذا البكاء، كانت أنثى حيوان يدعى "أطوم" سقط في شرك أفرع الأشجار الساقطة، ألقى مساعدو الماكينات بأنفسهم إلى الماء، وتمكنوا من إخراجها، كانت حيواناً رائعاً، شكلها ما بين المرأة والبقرة، بطول حوالي أربعة أمتار، جلدها رقيق ولطيف، وضْرعها ضخم كثدي توراتية، وكان هذا القبطان نفسه الذي سمعته مرة يقول إن العالم في طريقه إلى الفناء لو أننا ظللنا نقتل حيوانات النهر، وحرَّم إطلاق النار من سفينته. صرخ:

– من يريد أن يقتل أحداً، عليه أن يقتله في بيته، وليس في سفينتي.

في 19 يناير 1961، ستة عشر عاماً بعد ذلك، لا زلت أذكره كيوم نحس،

بسبب صديق هاتفني من المكسيك ليحكي لي أن السفينة "دافيد أرانجو" قد احترقت، وتحولت إلى رماد في ميناء "ماجناجي"، وضعت السماء في قلبي المحطم؛ لأنني شعرت في ذلك اليوم أنني فقدت شبابي، والقليل الذي بقى لنا من ذكريات في نهرنا ذهب مع الريح، نهر "مجدالينا" اليوم ميت، ومياهه تعفنت وتم القضاء على حيواناته، وأعمال استعادته التي تحدثت عنها الحكومات المتعاقبة كثيراً لم تفعل شيئاً، مطلوب زراعة ستين مليون شجرة في تسعين بالمائة من أراضى الملكيات الخاصة، التي على ملاكها التبرع بها حباً في الوطن.

كل رحلة كانت تترك دروساً كبيرة في الحياة تربطنا بالقرى التي نمر بها بشكل لا يُنسى، حيث ارتبط مستقبل كثير منا بها بشكل أبدي، طالب طب شهير دخل حلبة الرقص بلا دعوة في حفل زواج، ورقص عنوة مع أجمل امرأة في الحفل، فقتله الزوج بطلقة واحدة، وآخر خلال مسابقة سكر تزوج أول فتاة التقى بها في ميناء "بيريو"، ولا يزال يعيش سعيداً معها ومع أبنائهما التسعة؛ "خوسيه بالنسيا"، صديق لنا من "سوكري"، فاز ببقرة في مسابقة للدق على الطبول في "تينيريفي"، وباعها هناك بخمسين بيزو: كانت ثروة حقيقية في تلك الأيام. في نفس حي "بارانكبيرميخو" عاصمة البترول، حدثت لنا مفاجأة عندما وجدنا "أنخيل كاسيخ بالنسيا" يعزف في أوركسترا أحد بيوت الدعارة، وهو ابن عم "خوسيه"، كان قد اختفى من "سوكري" منذ العام الماضي دون أن يترك أثراً.

أسوأ ذكرياتي كانت عن كانتين في ميناء "بيريو"، الذي أخرجنا منه البوليس مع أربعة ركاب دون أي تفسير، وحبسونا بتهمة اغتصاب تلميذة، وعندما وصلنا إلى مقر البوليس كانوا قد ألقوا القبض على الفاعلين دون أن يصيبهم أدنى أذى، كانوا صعاليك لا علاقة لهم بسفينتنا.

في آخر مرحلة، ميناء "سالجار"، كان علينا أن نهبط في الخامسة صباحاً مرتدين ملابس الأراضي العليا، الرجال بملابس سوداء، وبصدرية وقبعة،

والمعاطف معلقة على الأذرع، بحثاً عن الحيوانات الميتة. وفي ساعة الهبوط من السفينة كانت تنتظرني مفاجأة غريبة، صديقة وقتية أقنعت أمي أن تعد لي حقيبة، وبطانية صوف، ومبولة للطوارئ، كانت كل هذه الأشياء ملفوفة في حصير من القش، ومعقودة على هيئة صليب بحبال السرير، لم يفلح أصدقائي الموسيقيون في كتم ضحكاتهم عندما شاهدوني بهذه الحقائب الغريبة في عاصمة الحضارة، وأكثرهم ذكاء حل المسألة بطريقة ما كنت أجرؤ عليها: ألقاها في الماء، آخر ذكرياتي من تلك الرحلة أنني شاهدت المبولة تعود إلى أصلها بقوة دفع التيار.

كان قطار ميناء "سالجار" يصعد على كورنيش الصخور خلال الساعات الأربع الأولى كما لو كان يحبو، وفي المناطق الأكثر ميلاً كان يبدو معلقاً ليتخذ دفعة أكبر، ويعود من جديد محاولاً الصعود بلهاث تنين، أحياناً يجب على المسافرين الهبوط لتخفيف الحمل، ويسيرون على الأقدام إلى الكورنيش التالي، قرى الطريق كانت مؤسية وباردة. وفي المحطات الخالية كانت تنتظرنا فقط بائعات نعرفهن من قبل، يبعن عبر نوافذ العربات دجاجاتهن السمينات والصفراء، مطبوخة كاملة، وبطاطس مبردة طعمها لذيذ، وهناك شعرت لأول مرة بحالة جسدية غريبة ومجهولة بالنسبة لي: البرد، عند هبوط المساء، من حسن الحظ، سرعان ما تنفتح فراش الأرض عبر الأفق، خضراء وجميلة كما لو كانت بحراً من السماء، يعود العالم هادئاً وصغيراً. ويتحول الحال في القطار إلى آخر.

كنت قد نسيت تماماً القارئ الذي لا يرتوي، عندما ظهر فجأة وجلس أمامي وعلى هيئته حالة من التعجل، كان مدهشاً، كان معجباً بأغنية حب كنا نغنيها في ليالي السفينة، وطلب مني أن أنسخها له، لم أفعل ذلك فقط بل علَّمته كيف يغنيها، أدهشتني حدة سمعه وصوته عندما غناها وحده، مضبوطة وبشكل جيد، من المرة الأولى.

هتف منتعشاً:

– تلك المرأة ستموت عندما تسمعها!.

بهذا عرفت تشوقه لحفظها، فمنذ أن سمع الأغنية ونحن نغنيها في السفينة، شعر بأنها ستكون ثورة لخطيبته التي ودعها في "بوجوتا" قبل ثلاثة أشهر، وتنتظره في المحطة ذلك المساء، عدت لسماعها منه مرتين أو ثلاث، وكان قادراً على تقسيمها إلى مقاطع وإعادة تركيبها من جديد، وعندما وجدني وحيداً في القطار قرر أن يطلب مني هذا الجميل، وأيضاً تملكت شجاعتي لأطلب منه مباشرة، ودون لف أو دوران، ما أدهشني في كتبه خاصة كتاب من الصعب العثور عليه، فكانت دهشته حقيقية:

-ما هو؟

- البديل.

ضحك منشرحاً، وقال:

- لم أكمله بعد، ولكنه أحد الأشياء الغريبة التي وقعت بين يدي.

لم يتحدث عن شيء آخر، وشكرني بكل نغمات الأغنية، وودعني بالشد على يدي بحرارة.

بدأتْ في الإظلام عندما خفف القطار من سيره، ومر عبر أكوام من الخردة المؤكسدة ووقف على رصيف مظلم، أمسكت الصندوق من مقبضه وسحبته إلى الشارع قبل أن يهجم عليّ الناس، كنت على وشك الوصول حين سمعت من يناديني:

- يا فتى، يا فتى.

نظرتُ إلى الخلف، مثل عدد من الشباب، وآخرين أقل شباباً كانوا يجرون معي، عندما مر القارئ الذي لا يرتوي إلى جانبي وأعطاني الكتاب دون أن يتوقف، وزعق فيّ وتاه في الزحام:

- أتمنى لك وقتاً طيباً معه.

كان كتاب "البديل"، كنت ذاهلاً إلى درجة أنني لم أفهم ما حدث لي قبل

لحظات. وضعت الكتاب في جيب المعطف، وضربني هواء المساء البارد عندما خرجت من المحطة، وضعت الصندوق على الرصيف وجلست عليه لأستريح قليلاً من التعب، لم يكن في الشارع أحد على الإطلاق. كل ما تمكنت من رؤيته كانت ناصية الشارع الخالي والزلق من أثر المطر الخفيف، كنت على ارتفاع ألفي وأربعمائة متر من سطح البحر، والهواء القطبي يحبس الأنفاس.

انتظرت نصف ساعة وأنا متجمد من البرد، شخص ما كان يجب عليه أن يحضر لاستقبالي بعد أن أخبره "اليثيير توريس أرانجو" بتلغراف عاجل، إنه أحد أقاربه الذي سيكون مضيفي، لكن ما كان يزعجني ليس أن يأتي أحد أم لا، بل الخوف من أن أظل جالساً على هذا الصندوق الجنائزي دون أن أعرف أحداً في الجانب الآخر من العالم. فجأة هبط رجل مهندم من تاكسي، يحمل في يده شمسية حريرية ومعطفاً من وبر الجمل يصل إلى قدميه، فهمت أنه مضيفي، وإن كان لم يكد ينظر إليّ، ولم أفكر في أن أشير له بيدي، دخل إلى المحطة مسرعاً، وعاد إلى الخروج بعد دقائق دون علامة على الأمل، وأخيراً اكتشفني، أشار إليّ بإصبعه:

– أنت "جابيتو"، أليس كذلك؟

أجبته من أعماق روحي:

– تقريباً.

(4)

كانت "بوجوتا" في ذلك الوقت مدينة قديمة وحزينة تسقط عليها أمطار خفيفة مقلقة تعود إلى بدايات القرن السادس عشر، لفت نظري وجود رجال كثيرين يسيرون على عجل، يرتدون مثل الملابس التي كنت قد ارتديتها منذ وصولي إلى هناك، قماش أسود وقبعات قوية، ولم تكن هناك امرأة واحدة تفتح الشهية؛ لأن دخول المقاهي المظلمة بالمركز التجاري كان ممنوعاً على النساء، والقساوسة بعباءاتهم أو العسكريين بالزي الرسمي، كانت هناك في عربات الترام والمراحيض العامة لوحات إعلانية بائسة: "إذا لم تكن تخشى الله فاخش السفلس".

أدهشتني الخيول الضخمة التي كانت تجر عربات البيرة، وانطلاق الشرر من عجلات الترام عندما يدور حول المنحنى ومعاكسة المارة لمرور السائرين في الجنازات تحت الأمطار. كانت أكثر المشاهد بؤساً مشاهد الجنازات بعرباتها الفخمة التي تجرها خيول مزينة بالقطيفة والريش الأسود، وجثث الأثرياء التي ينزهها منتجو الموت. في فناء كنيسة "لاس نييفيس" شاهدت من التاكسي أول امرأة في الشوارع، كانت هيفاء وسريعة الحركة، ولها حضور قوي كما لو كانت ملكة الحِدَاد، إلا أنني بقيت إلى الأبد كسيفاً؛ لأنها كانت تغطي وجهها بحجاب كثيف.

كانت هناك حالة من الانهيار النفسي، فالبيت الذي قضيت فيه تلك الليلة كان كبيراً ومريحاً، إلا أنه بدا لي كبيت الأشباح بحديقته المعتمة والزهور القاتمة والبرد الذي يخترق العظام، كان ملكاً لعائلة "توريس جامبوا"، أقرباء لأبي ومن معارفي، لكني كنت أراهم خلال العشاء كغرباء وقد التفوا ببطاطين النوم، أفظع

إحساس لي عندما انزلقت تحت الغطاء فأطلقت صرخة مرعبة؛ لأنني شعرت أنه مبتل بسائل مثلج، وقالوا لي إنه شعور الليلة الأولى، وأنني سأعتاد على غرابة المناخ شيئاً فشيئاً، بكيت في صمت لساعات طويلة قبل أن أغرق في نوم تعس.

كانت هذه حالتي النفسية بعد أربعة أيام من وصولي، فبينما كنت أسير بسرعة ضد البرد والمطر في طريقي إلى وزارة التربية، حيث تقرر فتح باب التسجيل للمنح الوطنية لهذا العام، يبدأ الطابور في الطابق الثالث من الوزارة، من أمام باب مكتب التسجيل نفسه، ويهبط ملتوياً عبر السلالم وحتى البوابة الرئيسية، كان المشهد مدمراً للقلب، وعندما تم فتح باب التسجيل في العاشرة صباحاً كان الطابور قد امتد لشارعين حتى وصل إلى طريق "خيميني كيسادا"، وكان لا يزال هناك المزيد من الراغبين في التقدم للمنح الذين احتموا بمداخل العمارات، واعتقدت أنه من المستحيل انتظار أي شيء في هذا الزحام.

بعد منتصف النهار بقليل شعرت بنقرات خفيفة على كتفي، كان قارئ السفينة الذي لا يرتوي، تعرَّف عليّ من بين آخر الواقفين في الطابور، لكني بذلت جهداً لأتعرف عليه بقبعته وملابسه الجنائزية، هو أيضاً، وسألني:

– لكن ماذا تفعل هنا بحق الشيطان؟

أخبرته بالأمر، فقال ضاحكاً:

– يا له من أمر مسل جداً!، تعال معي.

وأخذني من ذراعي باتجاه الوزارة، لحظتها عرفت أنه الدكتور "أدولفو خوميث تامارا"، المدير الوطني للمنح بوزارة التربية.

كانت الصدفة الأقل انتظاراً وتعد لحظة من أفضل لحظات حياتي، جاءت نتيجة لمجرد مداعبة طلابية خالصة، قدَّمني "جوميث تامارا" لمساعديه كأفضل مطرب لأغاني الحب الرومانتيكية، قدموا لي القهوة وسجلوني بلا أية حاجة إلى إجراءات أخرى، ولكن بعد أن نبهوني إلى أنهم لم يتجاوزا القواعد؛ ولكنهم فعلوا هذا كنوع

من التكريم الذي تفرضه المصادفات الإلهية، ثم أخبروني أن الامتحان العام سيكون يوم الاثنين التالي بمدرسة "سان بارتيلوميه"، حسبوا حوالي ألف متقدم من جميع أنحاء البلاد للحصول على ثلاثمائة وخمسين منحة، أي أن المعركة ستكون طويلة وصعبة، وربما كانت ضربة قاتلة لأحلامي، المحظوظون سيعرفون النتيجة بعدها بأسبوع، وأسماء المدارس التي سيدرسون فيها، وهذا أخطر ما في الأمر بالنسبة لي، لأنه من الممكن أن يرسلوا بي إلى "ميديين" أو إلى "فيتشادا"، قالوا لي إنها يانصيب جغرافي تم الاتفاق عليه لتشجيع التبادل الثقافي بين المناطق المختلفة، عندما انتهت الإجراءات صافحني "جوميث تامامارا" بقوة الحماس نفسه الذي شكرني به على الأغنية العاطفية، وقال لي:

- انتبه، لقد أصبحت حياتك بين يديك.

عند الخروج من الوزارة تقدم مني رجل قصير القامة له ملامح قس وعرض عليّ الحصول على منحة دون أداء أي امتحان، والدراسة في المدرسة التي أرغب فيها مقابل دفع خمسين بيزو فقط، كان هذا المبلغ ثروة بالنسبة لي، لكني لو كنت أملكه لدفعته حتى أتجنب رعب الامتحان، بعدها بأيام تعرَّفت على صورة النصاب منشورة بالصحف كزعيم لعصابة من المحتالين المتخفين في زي رجال الدين ويمارسون أعمالاً منافية للقانون في المؤسسات الرسمية.

لم أفرغ الصندوق إزاء عدم تيقني من المكان الذي سيرسلون بي إليه والذي يمكن أن يكون أي مكان. كنت متشائماً إلى درجة أنه ليلة الامتحان ذهبت مع موسيقيي السفينة إلى كانتين رديء للغاية في حي "لوس كروثيس" التعس، كنا نغني مقابل كأس من "التشيشا"، ذلك المشروب المصنوع من الذرة المخمرة والذي يسميه السكارى بالبارود، لذلك وصلت الامتحان متأخراً، ورأسي يكاد ينفجر، ودون أن أتذكر أين كنت ولا مع من ذهبت إلى البيت بالسيارة في الليلة الماضية، ولكنهم استقبلوني بكرم في صالون ضخم جداً يعج بالمتسابقين. نظرة عامة على

ورقة الامتحان كانت كافية لأعرف أنني مهزوم مسبقاً، وحتى أُبعد أنظار المراقبين عني انكببت على أسئلة العلوم الاجتماعية، التي بدت لي أسئلتها أقل رعباً، وفجأة شعرت وكأنني مسكون بإلهام جعلني أبدع إجابات معقولة وشرارات إعجازية، إلا في الرياضيات، أما امتحان الرسم الذي أديته بسرعة وبشكل جيد، نجح في تخفيف حدة الخوف، "ربما كانت معجزة كئوس الليلة الماضية"، كما قال لي الموسيقيون. على أي حال أنهيت الامتحان في حالة من الاستسلام التام، واتخذت قراراً بكتابة رسالة إلى أبويَّ عن أسبابي حول عدم عودتي إلى البيت.

أكملت واجبي بالتعرف على النتيجة بعد أسبوع من الامتحان. يبدو أن موظفة الاستقبال تعرَّفت على علامة معينة في ملفي، لأنها أخذتني بلا سبب لمقابلة المدير، وجدته في حالة نفسية جيدة، مشمراً عن أكمام قميصه وبحمالات حمراء ملونة، راجع تقديرات امتحاني باهتمام مهني، تردد مرة أو مرتين، وأخيراً تنهد، وقال لنفسه:

– ليس سيئاً، عدا في الرياضيات، لكنك نجحت بصعوبة بفضل الدرجات الخمس التي حصلت عليها في الرسم.

استلقى على مقعده إلى الخلف وسألني عن المدرسة التي فكرت فيها. كانت تلك المرة واحدة من الإحساس التاريخي بالخوف، لكني لم أتردد:

– مدرسة "سان بارتيلوميه"، هنا في "بوجوتا".

وضع القلم من يده على أكداس من الأوراق كانت أمامه على المكتب، وقال:

– كل هذه رسائل لحيتان كبيرة توصية على أبنائهم وأقاربهم وأصدقائهم في المدارس هنا.

انتبه إلى أنه ما كان يجب أن يقول هذا، وواصل كلامه:

– لو تسمح لي بأن أساعدك، أفضل مكان لك هو "الليسيه الوطني" في "ثياكيريا" على بعد ساعة بالقطار من هنا.

كل ما كنت أعرفه عن تلك المدينة التاريخية أن بها مناجم للملح، شرح لي "جوميث تامارا" أنها مدرسة كولونيالية مؤممة من جماعة دينية طبقاً للقوانين الليبرالية الحديثة، وبها حالياً مجموعة من المعلمين الشباب الممتازين من ذوي العقول المتفتحة. فكرت أنه من واجبي أن أخرجه من شكوكه، فنبهته:

- أبي قوطي.

أطلق ضحكة، وقال:

- لا تكن جاداً إلى هذا الحد، أقول كلمة ليبرالي بمعناها الواسع.

استعاد على الفور طريقته الخاصة، وقرر أن مستقبلي موجود في ذلك الدير القديم الذي يعود إلى القرن السابع عشر، والذي تحول إلى مدرسة للمتشككين في مدينة حالمة ليس فيها من تسلية سوى الدراسة، فالحرم القديم كان بالفعل يحافظ على وحشته في الأبدية، كان في بدايته معروفاً بلوحة بحروف بارزة على الحجر مكتوب عليها: "بداية المعرفة هي حب الله"، لكن الشعار تم تغييره بشعار كولومبيا عندما كانت تحت إدارة حكومة الرئيس الليبرالي "ألفونسو لوبث بوماريخو" مُؤَمِّم التعليم في عام 1936. بينما كنت أتخفف من ثقل الصندوق في الإيوان، أصابني الفناء الصغير بالكآبة بمعماره الكولونيالي المنقوش على أحجار حية، بشرفته الخشبية المدهونة بالأخضر، ومنقوش عليها مزهريات بزهور كئيبة، كان يبدو كل شيء خاضعاً لنظام ديني، وكانت كل قطعة تكاد تكشف عن أنها لم تعرف يد امرأة طوال ثلاثمائة سنة، إنه لشيء سيء طبقاً لقوانين الكاريبي، ركبني الرعب من أن أعيش أربع سنوات حاسمة من مراهقتي في ذلك الزمن المتلاطم.

لا زلت حتى اليوم أرى أنه من المستحيل أو من الممكن جمع محل إقامة الطلاب وغرفة المدير وسكرتارية الإدارة في طابقين يحيطان بفناء مصمت والمبنى الآخر المبني على عجل في الأرض الداخلية، إضافة إلى الفصول الستة والمطبخ والمعمل الفيزيائي والكيميائي والمخازن، والخدمات الصحية والغرف العمومية ذات الأسرّة

الحديدية المتراصة في صفوف لتكفي خمسين طالباً مسحوبين زحفاً من مختلف المناطق المتخلفة في البلاد، وقليل منهم من ذوي الأملاك. لحسن الحظ، أن ذلك المنفى كان بفضل حسن طالعي، وبسببه سرعان ما تعلمت جيداً حال الوطن الذي كُتب عليَّ أن أولد فيه، كانت هناك دستة من بلدياتي الكاريبيين ضموني إليهم منذ وصولي واعتبروني واحداً منهم، وأنا بالطبع شعرت الشعور نفسه نحوهم، كانت بيننا وبين الآخرين فوارق كبيرة: أبناء البلاد الأصليين والأجانب.

المجموعات المختلفة الموزعة على أركان فناء الألعاب كانت علامة واضحة على مدى ثراء الأمة، لم تكن هناك منافسات مادام كل واحد منا يعمل في مجاله. علاقاتي المباشرة كانت مع أبناء شاطئ الكاريبي، وكنا نتمتع عن حق بأننا مثيرون للضجيج ومتطرفون، ويسيطر علينا تضامن الجماعة والرقص والتسلية، أنا كنت خارج هذا التصنيف، لكن أنطونيو "مارتين سييرا"، مطرب "كارتاخينا"، علَّمني رقص أحدث الرقصات في أوقات الفراغ الليلية، و"ريكاردو جونثالث ريبول"، شريكي الأكبر في المغامرات العاطفية السريعة، كان معمارياً شهيراً إلا إنه لم يقطع أبداً طربه بالأغنية التي يترنم بها بين أسنانه؛ وسيظل يرقص وحيداً حتى آخر أيام حياته.

"مينتشو بورجوس"، عازف بيانو بالسليقة وصل إلى أن يكون معلماً بالمدرسة، وكنت أود أن أتعلم على يديه العزف على أية آلة موسيقية، ولكنه علَّمني سر الصوت الثاني في الأغاني العاطفية وأغاني الوديان، إلا أن صفاءه الأكبر أنه شكَّل مع "جييرمو لوبث جيرا"، "البوجوتي" النقي، ثنائياً لعزف أسرار الفن الكاريبي الذي يعتمد على النغمات ثلاثة اثنين، ثلاثة اثنين.

كان "هيمبرتو جيمس"، البنك، تلميذاً شرساً لم يهتم أبداً بالرقص وكان يقضي نهايات الأسبوع ليستذكر دروسه في المدرسة، أعتقد أنه لم يشاهد في حياته كرة قدم ولا قرأ ملخصاً لأية مباراة من أي نوع، إلى أن أنهى دراسة الهندسة في

"بوجوتا" ودخل إلى مجلة "التيمبو" ليتعلم العمل محرراً بالقسم الرياضي، الذي أصبح رئيساً له وأحد أفضل معلقي كرة القدم في البلاد. على أي حال، فإن أكثر الأمور شذوذاً كان "سيلفيو لونا"، أسمر داكن جداً من "تشوكو"، أنهى دراسة القانون وبعدها درس الطب، وكان يبدو أنه مستعد لبدء دراساته لثالث مرة عندما لم أعد أعرف عنه أي شيء.

كانت أحوال "دانييل روثو" كما هي دائماً، حكيم في كل العلوم الإنسانية والإلهية، وكان يُعلمها في الدروس وأثناء الراحات، كنا نذهب إليه دائماً للاستعلام عن حال العالم خلال الحرب العالمية الثانية، التي كنا نتابعها من خلال الإشاعات، فلم يكن مسموحاً بدخول الصحف والمجلات إلى المدرسة، والإذاعة كنا نستخدمها فقط للرقص، ولم نستطع أبداً معرفة مصدر معلوماته عن المعارك التاريخية التي كان يكسبها الحلفاء دائماً.

"سيرخيو كاسترو"- الكيتامي- ربما كان أفضل تلاميذ الليسيه طوال كل السنوات، وحصل دائماً على أعلى الدرجات منذ دخوله للدراسة، وأعتقد أن سره يكمن في السر نفسه الذي نصحتني به "مارتينا فونسيكا" في مدرسة "سان خوسيه": "لا تُضيِع كلمة واحدة مما يقوله المعلم، أو تدخلات زملائك في الفصل، أن تكتب بآخر ما تملك من نفس للمعلمين، وان تنظمها في كراس بشكل جيد". ربما لهذا السبب لم يكن في حاجة إلى تضييع الوقت للاستعداد للامتحانات، وكان يقرأ كتب المغامرات في نهايات الأسبوع بينما نحن نقتل أنفسنا في التحصيل الدراسي.

أكثر زملائي حباً للتسلية البوجوتي الأصيل "ألفارو رويث توريس"، الذي كان يتبادل معي بشكل يومي أنباء الخطيبات في سهرات الليل، خلال نزهاتنا بالملابس العسكرية حول الفناء. آخرون كانوا "خايمي برافو" و"هومبرتو جيين" و"ألفارو بيدال بارون"، الذين كنت قريباً منهم في المدرسة، وظللنا نلتقي في الحياة لسنوات

طويلة بعد ذلك، كان "ألفارو رويث" يذهب إلى "بوجوتا" في جميع نهايات الأسبوع ليقضيها مع أسرته، ويعود محملاً بشكل جيد بالسجائر وأنباء الخطيبات، كان هو الذي شجعني على الإدمان في الاتجاهين خلال السنوات التي درسنا فيها معاً، وهو من أعارني خلال العامين الأخيرين أفضل ذكرياته لأثري بها مذكراتي.

لا أعرف ما هو بالضبط الذي تعلمته خلال سنوات الأسر في الليسيه الوطني، لكن السنوات الأربع من التعايش السلمي ساعدتني على تأسيس رؤيتي الموحدة للأمة، فقد اكتشفت كم نحن متعددو المشارب وفي أي شيء يفيدنا هذا، وتعلمت أنه خلال جمعنا معاً كان يوجد بلد متكامل. وربما كان هذا ما قالوه في وزارة التربية عن التحريك الإقليمي الذي تدعمه الحكومة. في العمر الناضج، خلال دعوتي لمشاهدة كابينة القيادة في إحدى الطائرات العابرات للأطلنطي، كانت أول كلمات وجهها إليّ الكابتن: "من أين أنا؟"، كان يكفيني أن أسمعه لأجيبه:

- أنا جنوبي جداً كما أنت من "سوجاموسو".

لأنه كانت له نفس العادات والإشارات، نفس قسمات صوت "ماركو فيديل بويا"، زميل الطاولة خلال دراستي في الصف الرابع في الليسيه. هذا الضرب من التنبؤ هو الذي تعلمته من الإبحار في بحيرات "ثييناجاس" تلك المقاطعة المدهشة، دون أن أستخدم بوصلة ولا سباحة ضد التيار، وربما كان هذا المفتاح الرئيسي في مهنتي ككاتب.

كنت أشعر وكأنني أعيش حلماً، فلم أتقدم للمنحة؛ لأنني كنت أريد الدراسة، بل لأحافظ على استقلالي من أي التزام بعيداً عن الأسرة. وتأمين ثلاث وجبات يومياً كافية لنعيش في هذا الملجأ أفضل من حياتنا في بيوتنا، في ظل نظام من الاستقلال المحكوم بأقل من نظام البيت، فقد كان في المطبخ نظام للتسوق يسمح لكل من يريد أن يهدي نصيبه على هواه، ولم تكن للنقود قيمة، فبيضتا الإفطار كانتا نقداً له قيمته، يمكن بهما شراء أي من الأطباق الثلاثة الأخرى، وكل شيء

له قيمته بالضبط، ولم يؤثر أي شيء على هذه التجارة الشرعية، وأكثر من هذا: لا أذكر شكوى واحدة لهذا السبب خلال أربعة أعوام في الملجأ.

المُعلمون الذين كانوا يأكلون على طاولة أخرى في نفس الصالون، لم يكونوا بعيدين عن المبادلات الشخصية بينهم، فقد كانوا لا يزالون يحافظون على بعض عادات حياتهم في مدارسهم الحديثة، أغلبهم كانوا غير متزوجين أو يعيشون هناك بعيداً عن زوجاتهم، ورواتبهم كانت قليلة جداً مثل مداخيل أُسرنا، كانوا يشكون من نوعية الطعام مثلنا تماماً، وفي إحدى الأزمات وصلنا إلى حد التضامن مع بعضهم للقيام بإضراب عن الطعام، كانوا يأكلون خارج الوجبات المسموح بها فقط عندما كانوا يستقبلون هدايا من الخارج، كسروا المساواة معهم مرة واحدة، وحدث هذا في السنة الرابعة، عندما وعدنا طبيب المدرسة بإحضار قلب ثور لدراسته خلال درس التشريح، وأرسله في اليوم التالي إلى ثلاجة المطبخ، كان لا يزال طازجاً وغارقاً في الدماء، وعندما ذهبنا للبحث عنه لإحضاره للدرس لم يكن هناك، وتم كشف اللغز في الساعة الأخيرة من الدرس، عندما لم يجدوا قلب الثور أمر الطبيب بنزع قلب عامل بناء لا أهل له مات على إثر سقوطه من الطابق الرابع، وقام الطباخون بإعداده بالصلصة معتقدين أنه قلب ثور ووضعوه في قائمة طعام المُعلمين. أعتقد أن العلاقة اليسيرة بين المُعلمين والتلاميذ كانت نتيجة للتعديلات الحديثة التي تم إدخالها على التعليم التي لم يبق منها شيء عبر التاريخ، ولكنها نفعتنا على الأقل للتخفيف من حدة البروتوكول، وأدت إلى تقليل الفارق بين الأعمار، وخففت من استخدام رباط العنق. ولم يقم أحد الدنيا ولم يقعدها؛ لأن المُعلمين والتلاميذ شربوا معاً نخباً على الطاولة نفسها، أو حضروا معاً إلى حلبة الرقص أيام السبت.

هذا المناخ كان ممكناً فقط لوجود هذه النوعية من المُعلمين الذين كانوا يسمحون بشكل عام بعلاقات شخصية سهلة، أستاذنا لمادة الرياضيات، بغزارة

علمه وميله إلى المزاح الحاد، كان يُحوِّل الفصل إلى احتفال مهيب، كان اسمه "خواكين خيرالدو سانتا" أول كولومبي يحصل على درجة الدكتوراه في الرياضيات، لسوء حظي ورغم جهودي الكبيرة لم أستطع أن اندمج مع دروسه على الإطلاق، وكان يُعلِّق دائماً بقوله إن مواهبي الشعرية كانت تعيق مواهبي في الرياضيات، والواحد منا لا ينتهي فقط إلى الاعتقاد في هذا بل يغرق في هذه المقولات، كانت الهندسة إلى حدٍ ما مفهومة بفضل ميل الأستاذ الأدبي، والحساب كان على العكس تماماً، فقد كانت بساطته معادية، ولا زلت حتى اليوم عليّ أن أقسّم الأرقام لأنتهي من عملية حسابية بسيطة، ومشكلتي مع رقمي سبعة وتسعة، أستطيع حفظ جدولهما، لذلك عندما أحسب سبعة زائد أربعة، أخصم اثنين من السبعة واحتسب الخمسة مضافة إلى الأربعة، ثم أعود وأضيف إليهما اثنين، ليصبح الناتج أحد عشر. والضرب كنت أخطئه دائماً؛ لأنني لم أتمكن أبداً من تذكر الأرقام التي أحفظها في ذاكرتي؛ أما الجبر فقد خصصت له أفضل حالاتي النفسية، ليس من أجل تاريخه الكلاسيكي ولكن بسبب احترامي وخوفي من المُعلم، كل ذلك كان جهداً ضائعاً بلا طائل، كنت أعيد الامتحان كل ثلاثة أشهر، ونجحت بملحق مرتين، وفي المرة الثالثة نجحت بشكل غير شرعي ورأفة بحالي.

المُعلمون الثلاثة الآخرون كانوا مُعلمي اللغات: الأول، معلم اللغة الإنجليزية، كان المستر "أبيا"، كاريبي أصيل، مدمن متكامل وله حماس مسيحي لقاموس "ويبسترز" الذي كان يقرأه بعينين مغمضتين، ومن حل محله "هيكتور فيجيروا"، مُعلم شاب وطيب وكان متحمساً كبيراً للأغنيات العاطفية التي كنا نغنيها بأصوات متعددة خلال الفسح. بذلت كل ما أستطيع لاحتمال الدروس والامتحان النهائي، لكنني أعتقد أن الدرجات الجيدة التي حصلت عليها لم يكن لشكسبير فضل فيها بقدر ما كان الفضل يعود إلى "ماريني" و"هوجو روماني"، المسئولين عن الكثير من جنان الحب والكثير من الانتحارات في سبيل الحب. أما مُعلم

الفرنسية في السنة الرابعة، مونسنيور "أنطونيو يلا ألبن"، فقد وجد أنني كنت مسمماً بالروايات البوليسية، وكانت دروسه تصيبني بالغثيان ككل الدروس الأخرى، ولكن إشاراته الفجائية بالفرنسية المتداولة في الشوارع، ساعدتني كثيراً حتى لا أموت جوعاً في باريس بعدها بسنوات.

معظم المُعلمين كانوا من خريجي العادية العليا، تحت إشراف الدكتور "خوسيه فرانثيسكو سوكاراس"، وهو طبيب نفسي بذل جهداً كبيراً في تغيير النظام التعليمي الكنسي الموروث من سنوات طويلة خلال الحكم المحافظ ليحوِّله إلى نظام منطقي إنساني. وكان "مانويل كويو ديل ريو" ماركسياً راديكالياً، وربما لهذا السبب كان معجباً بـ"لين جوتانج" ويؤمن بظهور الموتى، ومكتبة "كارلوس خوليو كالديرون" التي كان يرأسها مواطنه "خوسيه إيوستاسيو ريفيرا" مؤلف رواية "الدوامة"، فقد كان يوزع- على حد سواء- كلاً من الكلاسيكيين اليونانيين والمولدين الإسبان الأولين، والرومانتيكيين من جميع أنحاء الدنيا، بفضل هؤلاء وأولئك، فإننا نحن القلة من القراء النهمين اطلعنا على "سان خوان دي لا كروث" أو "خوسيه ماريا فارجاس فيلا"، ولكنا اطلعنا أيضاً على دعاة الثورة البوليتارية، أما "جونثالو أوكامبو" مُعلم العلوم الاجتماعية فقد كان يحتفظ في غرفته بمكتبة سياسية ممتازة، وكانت كتبها تتبادلها فصول الكبار، لكنني لم أفهم أبداً "أصل العائلة، الملكية الخاصة، والدولة" لـ"فريدريك إنجلز"، فقد كنا ندرسه في الأمسيات الحارقة لدروس الاقتصاد السياسي وليس أثناء دروس الأدب. كما لو كانت أسطورة لمغامرة بشرية جميلة، قرأ "جييرمو لوبث جيرا" أثناء الفسح بين الدروس "آنتي دوهرنج" لـ"إنجلز" أيضاً، أعارني إياه الأستاذ "جونثالو أوكامبو"، ومع ذلك عندما طلبت الكتاب لأناقشه مع "جييرمو لوبث" فإن "أوكامبو" قال لي إنه ليس على استعداد أن يقدم خدمة لتقدم البشرية، فقد كان طويلاً ومملاً وقد لا يدخل إلى التاريخ، ربما كانت هذه المبادلات الأيديولوجية وراء السمعة السيئة لليسيه

كمعمل لتفريخ الشذوذ السياسي، وكنت في حاجة إلى نصف قرن لأفهم أنها ربما كانت تجربة عفوية لإبعاد الضعفاء وتطعيم الأقوياء ضد أي نوع من الأفكار الثابتة.

كانت العلاقة المباشرة دائماً مع الأستاذ "كارلوس خوليو كالديرون"، أستاذ اللغة القشتالية في الصفوف الأولى، والأدب العالمي في الصف الرابع، والإسباني في الخامس والكولومبي في السادس. كانت هناك أشياء غريبة في تكوينه: الحسابات، ولد في "نيفا" عاصمة مقاطعة "ويلا"، ولم يكن يتعب من إبداء إعجابه بمواطنه "خوسيه ايوساتسيو ريفيرا"، هجر دراسة الطب والجراحة، وكان يذكرها كأكبر فشل في حياته، لكن حماسه للفنون والآداب لم ينقطع، وكان أول أستاذ يدمر كتاباتي الأولى بموضوعية.

على أي حال، كانت العلاقة بين الطلاب والمُعلمين طبيعية إلى حد كبير، ليس فقط في قاعات الدرس بل كانت طيبة بشكل خاص في فناء الألعاب بعد تناول العشاء، وهذا سمح بوجود تعامل مختلف عما كنا معتادين عليه، وكان عصراً مهماً في مناخ الاحترام والرفقة الذي كنا نعيشه.

ترجع إحدى المغامرات المرعبة إلى قراءتي للأعمال الكاملة لـ"فرويد"، التي كانت قد وصلت إلى المكتبة، فلم أفهم أي شيء من تحاليله الصعبة، إلا أن الحالات التي كان يقدمها كانت تحرمني النوم حتى النهاية، تماماً مثل تخيلات "خوان بيرنيت". طلب منا الأستاذ "كالدرون" في درس الأدب الإسباني أن نكتب قصة موضوعها حر، وخطر لي أن أكتب قصة مريضة عقلية عمرها لا يتجاوز سبع سنوات، ووضعت لها عنواناً غير شاعري على الإطلاق: "حالة من التطرف النفسي"، طلب المُعلم أن أقرأها في الفصل، أعلن زميلي الجالس إلى جواري رفضه الكامل لها لأنني كتبتها دون أن أمر بإعداد علمي ولا أدبي لموضوع معقد كهذا. شرحت القصة بنوع من التفشي أكثر منه تواضعاً، وقلت إنني استوحيتها من حالة وصفها

"فرويد" في مذكراته، ولم أكن أطمح أكثر من استخدام هذه الحالة لإنهاء كتابة القصة، ربما اعتقد الأستاذ "كالديرون" أنني أُحرجت من نقد زملائي في الفصل، فدعاني على انفراد خلال الراحة ليشجعني على مواصلة طريقي، وأشار إلى أنه في قصتي كان من الواضح أنني أجهل تقنية الإبداع الحديث، ولكنني أتمتع بالحس والرغبة، وأن القصة كانت مكتوبة بشكل جيد، وعلى الأقل أنني حاولت أن تكون جديدة. وحدثني لأول مرة عن البلاغة، وقدَّم لي بعض الخدع العملية للموضوعات الموسيقية ليمكنني تبين الأخطاء، أنهى حواره معي بتشجيعي على مواصلة الكتابة ولكن بعيداً عن الصحة العقلية. كان هذا الحوار هو الأول من حوارات كثيرة جرت بيننا خلال سنوات وجودي في الليسيه، سواء خلال أوقات الفراغ أو في ساعات أخرى حرة، والتي أُدين لها كثيراً في حياتي ككاتب.

مناخي المثالي، منذ أيام الدراسة في مدرسة "سان خوسيه" كان إدماني للقراءة، كنت أقرأ كل ما يقع بين يدي، فكنت أقضي أوقات فراغي كاملة في القراءة وكل وقت الدروس تقريباً. بسنواتي الست عشرة، وبخط جيد أم لا، كان يمكنني أن أقرأ وأعيد القراءة في نفس واحد وبلا مساعدة أو نظام، وكان كل هذا يتم تقريباً سراً أثناء الدروس المدرسية. أعتقد أنني قرأت مكتبة الليسيه كاملة، التي كانت مكونة من بقايا مكتبات أخرى سيئة: المجموعات الرسمية، وميراث المُعلمين، وكتب لا يعرف أحد كيف وصلت إلى هناك بعد عملية غرق، ولا أستطيع أن أنسى المكتبة القروية المنشورة في دار "مينيرفا"، والتي كان يمولها السيد "دانييل سامبر أورتيجا" ويوزعها على المدارس ومعاهد وزارة التربية. كانت مائة مجلد تحتوي على كل ما هو أفضل وأسوأ ما كتب في كولومبيا، قررت أن أقرأها بنظام التسلسل إلى حيث أستطيع. وما يثير رعبي أنني كدت أكملها خلال العامين الأخيرين، ولم أستطع خلال حياتي الباقية أن أعرف إن كانت قد أفادتني في شيء أم لا.

لحظات إشراق الفجر كان لها طعم قريب من طعم السعادة، عدا صوت الناقوس القاتل الذي يدق فجأة في السادسة والنصف، يقفز من السرير فقط اثنان أو ثلاثة من ضعاف العقول ليقفوا في الصفوف الأولى أمام صنابير المياه لحمامات غرف النوم، الباقون نظل نعصر آخر لحظات النوم إلى أن يأتي المُعلم المناوب ليجري بطول الصالة نازعاً بطاطين النائمين، تكون نصف ساعة من الحياة السرية المكشوفة لارتداء ملابس النظام، وتلميع الأحذية، ونستحم بالمياه السائلة من الصنابير، فيما كل واحد يتخفف من هزائمه الليلية بالصرخات ويسخر من هزائم الآخرين، وتكشف أسرار الحب، وتجري عمليات التجارة، ويتم الاتفاق على مبادلات المطعم، والموضوع العقلي الدائم للفصل المقروء في الليلة السابقة.

كان "جيبرمو جرانادوس" ينطلق في غناء كل ما يحتويه ذهنه الذي لا يكل من موضوعات التانجو. أغني مع "ريكاردو جونثالث ريبول"، جاري في غرفة النوم، في ثنائي كاريبي على أنغام خرقة تلميع الأحذية بجوار الأسرة، فيما يكون صديقي "ساباس كارافالو" يجري في صالة النوم من أقصاها إلى أقصاها عارياً كما أنجبته أمه، والفوطة معلقة بقضيبه الأسمنتي المسلح.

كان ممكناً أن نهرب فجراً في جماعة من هذا الملجأ الداخلي للقيام بواجبات تعهدنا بها خلال عطلة نهاية الأسبوع. لم تكن هناك حراسة ليلية ولا مُعلمين في غرف النوم، عدا مناوب الأسبوع، وبواب الليسيه الأبدي، "ريبيريتا". في الحقيقة يعيش ساهراً طوال الساعات فيما يقوم بواجباته اليومية، كان يعيش في غرفة الإيوان ويقوم بعمله جيدا، ولكننا كنا نقوم ليلاً برفع ترابيس الكنيسة، ونعيدها إلى مكانها دون إحداث ضجيج، ونقضي الليل في بيوت أخرى، ونعود قبل الفجر بقليل عبر الشوارع الجليدية. لم نعرف أبداً إن كان "ريبيريتا" نائماً فعلاً كميت أم لا، أم أنها طريقته في أن يكون متستراً علينا. لم يكونوا كثيرين الذين يهربون،

وأسرارهم تنام في ذاكرتنا كمتسترين على بعضهم، أمناء على أسرارهم، أعرف بعض من كانوا يقومون بالهرب كروتين يومي، والبعض قام به لتجربة الإحساس بقشعريرة المغامرة في الجسد، ويعودون منهوكين من الرعب، لم نعرف أبداً أن هناك من تم اكتشاف هروبهم.

كانت كوابيسي الليلية التي ورثتها عن أمي تمثل عيبي الاجتماعي الوحيد في المدرسة؛ لأنها كانت تقطع نوم الآخرين كصرخات قادمة من القبور، جيراني في السرير يعرفونها جيداً وكانوا يخافون فقط العواء الأول المنطلق في هدوء الفجر. وكان المُعلم المناوب الذي ينام في الغرفة الكرتونية يتجول بيننا ليلاً من أقصى الغرفة إلى أقصاها إلى أن يتم إحكام النظام، لم تكن حالات نوم فوضوية، بل كان لها علاقة بالإحساس بارتكاب الذنب؛ لأنها حدثت لي مرتين فقط في بيوت غريبة، وكانت غير مفهومة أيضاً؛ لأنها لم تكن تحدث في ساعات النوم القصيرة، بل خلال نومي سعيداً إلى جوار أشخاص أو في أماكن عامة تجعلهم ينظرون إليّ بشكل بريء. الكوابيس يمكن مقارنتها بكوابيس أمي، كان أصلها في رأسها هي وكانت تخرج مع القمل الذي لا يدعها تنام، لم تكن صرخاتي متبخرة، بل أصوات طلب استغاثة حتى يمكن أن يعطف عليّ أحد ويوقظني، لم يكن في غرفة نوم الليسيه وقت لأي شيء، فما إن أبدأ أولى أصواتي حتى تسقط على رأسي أمطار من الوسائد القادمة من الأسرَّة المجاورة، أقوم مذعوراً والقلب منقبض ولكني سعيد بأنني لا زلت على قيد الحياة.

كانت القراءة بصوتٍ عالٍ قبل النوم أفضل ما في الليسيه، وبدأت تلك القراءات بمبادرة من الأستاذ "كارلوس خوليو كالديرون"، بقراءة قصة لـ"مارك توين" مقررة على الصف الخامس، وسيمتحنون فيها في أولى ساعات الدروس لليوم التالي. قرأ المقاطع الأربعة الأولى بصوت مرتفع في غرفته الكرتونية لنقوم نحن- من لم يكن لدينا الوقت لقراءتها- بكتابة شروحها. كان الاهتمام كبيراً، ومن حينها تقرر

فرض عادة القراءة بصوت مرتفع قبل النوم كل ليلة، لم تكن البداية سهلة؛ لأن بعض المُعلمين المنافقين فرضوا الكتب التي يجب قراءتها، ولكن بوادر التمرد جعلتهم يضعون وجهة نظر التلاميذ في الحسبان.

بدأوا بنصف ساعة، وكان المُعلم المناوب يقرأ في غرفته المضاءة جيداً على مدخل غرفة النوم العمومية، في البداية كانوا يسكتونه بشخير ساخر، بعضه واقعي والآخر مصطنع، لكنه في معظمه مستحق، مدوها بعد ذلك إلى ساعة من القراءة، طبقاً للاهتمام بالقصة، وتم إحلال التلاميذ محل المُعلمين في دورات أسبوعية، وبدأت الأيام الجميلة برواية "نوستراداموس والرجل ذو القناع الحديدي" التي أعجبت الجميع، ولكن ما لم أفهمه حتى الآن النجاح الذي حازت عليه رواية "الجبل السحري" لـ"توماس مان"، التي تطلبت تدخل المدير لمنعنا من قضاء الليل كله ساهرين بانتظار قبلة "هانز كاستروب" و"كلاوديا شاوشات"، أو الانتباه الغريب للجميع جالسين في الأسِرَة حتى لا نُضيِّع المناظرة الفلسفية بين "نابتا" وصديقه "ستمبريني"، تواصلت القراءة في تلك الليلة لأكثر من ساعة زيادة عن الوقت المحدد وانتهت في غرفة النوم بعاصفة من التصفيق.

المُعلم الوحيد الذي بقي كواحد من الألغاز الكبيرة لشبابي كان هو المدير الذي وجدته عند وصولي، كان اسمه "أليخاندرو راموس"، كان جافاً ومحباً للعزلة، بعوينات زجاجية سميكة تبدو كعوينات أعمى، وسلطة لا تقبل الجدل تجعل كل كلمة له كما لو كانت قبضة حديدية، يهبط من ملجأه في السابعة صباحاً ليفتش على نظافتنا الشخصية قبل دخول المطعم، يرتدي ملابس مُحكمة ذات ألوان فاقعة، وياقة قوية كما لو كانت مصنوعة من البلاستيك، وأربطة عنق لافتة للنظر، وحذاءً لامعاً، أي خطأ في نظافتنا الشخصية تعني العودة إلى غرفة النوم لإصلاحه، ويبقي باقي اليوم مسجوناً في مكتبه بالطابق الثاني، ولا نعود إلى رؤيته حتى اليوم التالي في الساعة نفسها، أو خلال الاثنتي عشرة خطوة التي

يسيرها من مكتبه إلى الفصل الخامس، حيث يقوم بتدريس ساعة الحساب الوحيدة التي يُدرِّسها ثلاث مرات في الأسبوع، تلاميذه يقولون عنه إنه عبقري في الأرقام ومُسلٍ في الفصل، ويتركهم مشدوهين بحكمته ورعب الامتحان النهائي.

بعد وصولي بقليل كان عليّ أن أكتب الخطاب الافتتاحي لأحد احتفالات الليسيه الرسمية، وافق معظم المُعلمين على الموضوع، لكنهم تركوا الكلمة الأخيرة في هذه الحالة للمدير، كان يعيش في آخر السلم بالطابق الثاني، لكنني عانيت خلال تلك المسافة كما لو كانت رحلة حول العالم سيراً على الأقدام، لم أكن قد نمت ليلتها بشكل جيد، ووضعت رباط عنق ملابس الأحد ولم أكد أتذوق طعام الإفطار، خبطت على الباب بهدوء شديد إلى درجة أن المدير لم يفتح لي حتى المرة الثالثة، ودعاني إلى الدخول دون أن يحييني، وكان ذلك من حسن حظي؛ لأنني لم أكن أملك صوتاً لرد التحية، ليس بسبب جفائه ولكن بسبب رهبة النظام وجمال المكتب بأثاثه من الخشب النبيل المحشو بالقطيفة، والجدران المزينة بدواليب من الكتب المجلدة بالجلد الطبيعي. انتظر المدير برصانة شكلية حتى ألتقط أنفاسي، ثم أشار إلى كرسي أمام مكتبه وجلس هو على كرسيه.

كنت قد بذلت في إعداد أسباب زيارتي الجهد الذي بذلته في إعداد الخطاب، استمع إليّ في صمت ووافق على كل جملة بهزة من رأسه، ولكن دون أن ينظر إليّ، بل كان ينظر إلى الورقة التي كانت ترتعش في يدي، وفي بعض النقاط التي كنت أرى أنها مسلية حاولت أن أنزع منه ابتسامة، لكن جهودي باءت بالفشل، بل وأكثر من هذا: أنا كنت على ثقة تامة بأنه كان يعرف بزيارتي مسبقاً، ولكنه تركني أكمل طقوس شرح أسبابها.

ما إن انتهيت حتى مد يده على المكتب وأخذ الورقة، خلع نظارته ليقرأ بانتباه عميق، ولم يتوقف سوى مرتين ليجري بعض التصحيحات بقلمه، ثم أعاد وضع النظارة على عينيه وحدثني دون أن ينظر في عيني، بصوت حجري هز قلبي، قال لي:

– توجد هنا مشكلتان، حضرتك كتبت: "تناغماً مع ازدهار بلادنا التي قدَّمتْ للعالم الحكيم الإسباني "خوسيه ثيلستينو موتيس" في القرن الثامن عشر، نعيش في هذا الليسيه مناخاً فردوسياً". ولكن هذه الكلمة بها حرف خطأ، والأخرى ينقصها التشديد.

شعرت بالمهانة، لم تكن لدي إجابة للحالة الأولى، أما الحالة الثانية فلم يكن لدي شك، فأجبته على الفور بما تبقى لي من صوت:

– معذرة سيدي المدير، القاموس يقبل كلمة الفردوسي بتشديد وبدونه، ولكن أنا رأيت أن أكتبها هكذا؛ لأنها ستكون موسيقية أكثر.

يبدو أنه شعر بالهجوم عليه كما شعرت أنا، ولم يكن قد نظر إليّ بعد، فأخذ القاموس من على أحد الدواليب دون أن ينطق بكلمة، تحجّر قلبي؛ لأنه كان قاموس أطلس نفسه الذي كان يملكه جدي، كان جديداً ولامعاً، وربما لم يُستخدم من قبل. وفتحه في الصفحة المطلوبة في أول محاولة، وقرأ وأعاد قراءة الخبر وسألني دون أن يُحوِّل نظره عن الصفحة:

– حضرتك في أي فصل؟

قلت له:

– الثالث.

أغلق القاموس بضربة واحدة ونظر إليّ في عيني لأول مرة، وقال:

– برافو.. استمر على هذا النحو.

من ذلك اليوم لم ينقص زملائي سوى أن يطالبوا بإعلاني بطلاً، وبدأوا في تسميتي بكل التشريفات المطلوبة "ابن الشاطئ الذي تحدث مع المدير"، إلا أن ما أثر فيّ خلال تلك المقابلة، مرة أخرى، مأساتي الشخصية مع الإملاء، التي لم أفهمها أبداً، وحاول أحد مُعلمي أن يخرجني من تلك المأساة عندما أخبرني أن "سيمون بوليفار" لم يكن يستحق المجد الذي ناله بسبب كتابته الرديئة. وآخرون

كانوا يعزونني باعتباره مرض الكثيرين، وحتى اليوم، بعد نشر سبعة عشر كتاباً، فإن مصححي البروفات الطباعية يُشرفونني بتصحيح أخطائي الإملائية كما لو كانت أخطاءً في التصفيف.

كانت احتفالات "زيباكيريا" الاجتماعية تختلف بشكل عام حسب حالة كل واحد وموهبته وطريقته، مناجم الملح التي عثر عليها الإسبان حية كانت الجذب السياحي في نهايات الأسبوع، وكانت تستكمل بطبق الكرشة بالفرن والبطاطس الثلجية الغارقة في أحواض كبيرة من الملح، زملاء منطقة الشاطئ الكاريبي، بشهرتنا المستحقة كمثيرين للضجيج وسوء التربية، كنا نتمتع بالسمعة الطيبة في الرقص كفناني موسيقى الموضة، وذواقة في الحب حتى الموت.

كنت عفوياً جداً إلى درجة أنه في اليوم الذي عرفنا فيه بنهاية الحرب العالمية، خرجنا إلى الشوارع في مظاهرة عارمة بالرايات، والشعارات وهتافات النصر، طلب أحدهم متطوعاً ليخطب في الجموع، فخرجت إلى شرفة النادي الاجتماعي دون أن أفكر في الأمر لحظة واحدة، في منتصف الميدان الرئيسي، وبدأت أصرخ برنات عالية في خطاب اعتقد البعض أنني كنت أحفظه مسبقاً.

كان الخطاب الوحيد الذي وجدت نفسي مُجبراً على ارتجاله في سنواتي السبعين الأولى من حياتي، أنهيته باعتراف غنائي للأربعة الكبار، ولكن ما لفت الأنظار في الميدان كان ذكر رئيس الولايات المتحدة، الذي مات قبلها بقليل: "فرانكلين ديلانو روزفلت"، الذي كان كالسيد "القمبيطور" الذي يعرف كيف يكسب الحرب بعد موته"، ظلت هذه الجملة تسبح في المدينة لعدة أيام، وتم كتابتها على لافتات شوارعية وعلى صور "روزفلت" المعروضة في واجهات بعض المحلات، لذلك فإن أول نجاح شعبي لي لم يكن لكوني شاعراً أو روائياً، بل كخطيب، والأسوأ من كل هذا: كخطيب سياسي، منذ ذلك الوقت لم يكن هناك حفل رسمي في الليسيه دون أن يأخذوني إلى الشرفة، ولكن كانت أحاديث مكتوبة ومُصححة حتى آخر نفس.

مع مرور الزمن، أفادني ذلك الغرور حتى لا أُصاب بالرعب من الجماهير تماماً في حفلات العرس الكبرى كما في كانتين الهنود، التي كنا نسكر فيها حتى نزحف على بطوننا: في بيت "بيرينيثي"، الجميلة المتحررة، كنت محظوظاً؛ لأنها لم تتزوجني لجنونها بحب آخر، أو في مكتب التلغراف، التي كانت تقوم رائعتها "ساريتا" بعمل إجراءات القروض التلغرافية الكئيبة إلى أبويَّ لسد احتياجاتي الشخصية، وقدَّمتْ لي أكثر من مرة نقود تلك التلغرافات قبل وصولها، لإنقاذي من أكثر من ورطة، إلا أن الحب الذي لا يُنسى لم يكن حباً لشخص بقدر ما كان لحارسة مُدمني الشِّعر، كان اسمها "ثيثيليا جونثالث بيثانو"، وكانت ذات ذكاء سريع، وتتمتع بظرف خاص وروح طليقة في أسرة عميقة المحافظة، وذاكرتها غير الطبيعية فيما يختص بحفظ الشعر، كانت تعيش في البيت المواجه لليسيه مع عمتها الأرستقراطية العزباء في بيت ضخم مُحاط بحديقة كثيفة الأشجار. كانت العلاقة في البداية مرتبطة بالمسابقات الشعرية، لكن "ثيليا" تحولَّت في النهاية إلى أن تكون رفيقة الحياة، ضاحكة دائماً، وفي النهاية بدأت تحضر سراً وبموافقة الجميع دروس الأدب التي يقوم بها الأستاذ "كالديرون".

خلال سنوات "آراكاتاكا" حلمت بالحياة السعيدة مغنياً من احتفال إلى آخر، بالأكورديون والصوت الجميل، وهي الطريقة التي كنت أؤمن بأنها الأكثر قدماً وسعادة في قص الحكايا، فإذا كانت أمي قد تخلت عن البيانو من أجل الأولاد، وتخلى أبي عن الكمان ليحافظ علينا، فقد كان من العدالة أن يموت الأكبر من هؤلاء الأبناء جوعاً في سبيل الموسيقى، مشاركتي الدائمة كمطرب وعازف في فريق الليسيه أثبتت أن لي سمعاً لأتعلم العزف على آلة أكثر صعوبة، وأنه يمكنني الغناء.

لم تكن هناك سهرة أو حفل في الليسيه دون أن تكون لي فيها يد بطريقة أو أخرى، ودائماً بفضل الأستاذ "جييرمو كيبيدو ثورنوسا"، المؤلف الموسيقي ورجل

المدينة، المدير الدائم للأوركسترا البلدية ومؤلف موسيقي "أمابولا" - أغنية الطريق الحمراء كالقلب- أغنية شبابية كانت في وقتها روح كل السهرات والاحتفالات الشعبية. كنت أول من يعبرون الحديقة العامة لسماعه أيام الأحد بعد حضور الصلوات بالكنيسة، دائماً ما يبدأ بمقطوعة "جوثا لادرا" وكورال "مارتيا"، و"التروبادور"، وفي النهاية، لم يكن يعرف المايسترو أبداً، ولا يتجرأ على القول، إن حلم حياتي في تلك السنوات أن أكون مثله.

عندما طلبوا في الليسيه متطوعين لدروس التذوق الموسيقي، أول من رفعوا أصابعهم كنا، "جييرمو لويث" وأنا، كانت الدروس صباح أيام السبت، ويقودها الأستاذ "أندريس برادو توفار"، مدير أول برنامج للموسيقى الكلاسيكية في إذاعة "صوت بوجوتا"، ولم نكن نملأ ربع المطعم الإضافي، ولكن من اللحظة الأولى وجدنا أنفسنا أسرى كلام المُعلم. كان الأصيل المتكامل، من لذة منتصف الليل، يرتدي صدرية بسيطة وصوته هادئ متقطع. وما يمكن اعتباره اليوم تجديداً، ذلك المسجل الذي كان يديره باقتدار، وحب لترويض عجول البحر، كان يبدأ من فرضية- كانت صحيحة في هذا المجال- تقول إننا مستجدون تماماً، لذلك بدأ معنا من "كرنفال الحيوانات"، لـ"سان سيني"، وعلّمنا رؤية كل حيوان، بعدها عزف- ولم لا- "بدرو والذئب" لـ"بروكوفييف"، والسيئ في تلك اللحظة أنه ذكّرني بأن موسيقى كبار الموسيقيين كانت إدماناً سرياً، وكنت في حاجة إلى سنوات طويلة حتى لا أُصدر أحكاماً متعجلة للتفريق بين الموسيقى الجيدة والموسيقى الرديئة.

لم ألتقِ بالمدير مجدداً حتى العام التالي، عندما تولى تدريس مادة الهندسة للصف الرابع،.دخل الفصل يوم ثلاثاء في العاشرة صباحاً وألقي تحية الصباح بهمهمة، دون أن ينظر لأحد، ومسح السبورة حتى لم يبقَ شيء من الطباشير عليها، بعدها استدار نحونا وسأل "ألفارو رويث توريس":

- ما هي النقطة؟

لم يكن هناك مجال للإجابة؛ لأن مدرس العلوم الاجتماعية فتح الباب بلا استئذان، وقال للمدير: إن هناك مكالمة تليفونية عاجلة من وزارة التربية، خرج المدير مسرعاً للرد على التليفون ولم يعد إلى الفصل بعدها أبداً؛ لأن المكالمة كانت لإبلاغه بترك مكانه كمدير، العمل الذي أكمل واجباته طوال خمس سنوات في الليسيه، ثم أنهى حياة كاملة من العمل الجيد.

حل محله الشاعر "كارلوس مارتين"، الأكثر شباباً بين جماعة شعراء "حجر وسماء" الذي ساعدني "ثيسار دي بايي" على اكتشافه في "بارانكيا"، كان في الثلاثين من عمره وثلاثة كتب منشورة. كنت أعرف بعض قصائده، وشاهدته مرة في مكتبة في "بوجوتا"، لكنني لم أجد شيئاً أقوله له، ولا حتى كتبه لأطلب منه توقيعه عليها، ظهر فجأة ودون أن يعلنوا ذلك خلال راحة الغداء، ولم نكن ننتظره مبكراً هكذا، كان يبدو كما لو كان محامياً أكثر منه شاعراً بملابس مخططة على الطريقة الإنجليزية، كانت جبهته صافية وشاربه مستقيم بحذق وهو ما كان يشتم من شعره أيضاً، تقدم بخطوات محسوبة جداً نحو المجموعات الأقرب إلى مكان وجوده، هادئاً ومبتعداً قليلاً، ومد لنا يده:

- مرحباً، أنا "كارلوس مارتين".

كنت خلال تلك الفترة مهووساً بالشعر الغنائي الذي ينشره "ادواردو كارانثا" في القسم الأدبي لجريدة "التيمبو" ومجلة "السبت"، أعتقد أنه كان مُستلهماً من "بلاتيرو وأنا" لـ"خوان رامون خيمينيث"، الموضة المنتشرة بين الشباب الذين كانوا يأملون في مسح "جييرمو فالنسيا" من على الخريطة. كان الشاعر "خوسيه روخاس"، ورِيث لإرث، قد ساعد على نشرها باسمه، ونشر بعض المقاطع الأصلية التي أيقظت اهتماماً كبيراً بين جيله وأدت إلى توحيد الشعراء الجيدين المعروفين وقتها.

كان تغييراً عميقاً في العلاقات الداخلية، وتم تغيير الصورة الطيفية للمدير

السابق بحضور يحافظ على المسافة الواجبة، ولكنه كان دائماً في متناول اليد، قام بإلغاء التفتيش الروتيني على النظافة الشخصية وقواعد أخرى، وكان يتحاور أحياناً مع التلاميذ أثناء راحات الليل.

وضعني النظام الجديد على طريقي، ربما حدَّثَ كالدرون المدير الجديد عني، ففي أولى لياليه قام بمعرفة رأيي في علاقاتي مع الشعر الجديد، فأخرجت له كل ما كنت أحمله داخلي، فسألني إن كنت قرأت "التجربة الأدبية" كتاب حدثنا عنه ألفونسو رييس، فاعترفت له بأنني لم أقرأه، فأتاني به في اليوم التالي، التهمت نصفه تحت الطاولة خلال الدروس المتوالية، والباقي خلال الفسحة بملعب كرة القدم، وفرحتُ أن يقوم دارس له شهرته في دراسة الشعر الحديث، ينشغل بدراسة أغاني أجوستين لارا كما لو كانت قصائد شعرية، متعللاً بجملة عبقرية: "أن الأغنيات الشعبية لأجوستين لارا، ليست أغانيَ شعبية"، كان هذا بالنسبة لي كالحصول على الشعر مُذاباً في شربة الحياة اليومية.

تخلى مارتين عن شقة المدير الجميلة، ووضع مكتبه مفتوح الأبواب في الفناء الداخلي، وهذا قَرَبَّه أكثر من سهراتنا الليلية بعد العشاء، وأقام فترة طويلة مع زوجته وأبنائه في بيت كولونيالي محافظ عليه في إحدى زوايا الميدان، وأحد جدرانه مغطى بكل الكتب التي يمكن أن يحلم بها قارئ متذوق للمجددين في تلك السنوات. كان يزوره هناك أصدقاؤه القادمون من بوجوتا في نهاية الأسبوع، وبشكل خاص الرفاق في جماعة "حجر وسماء"، وفي يوم أحد غير محدد ذهبت إلى بيته للقيام بمأمورية غير محددة مع جييرمو لوبث جيرا، فكان هناك إدورادو كارانثا وخورخي روخاس، النجمان الكبيران. دعانا المدير إلى الجلوس بإشارة سريعة حتى لا يقطع الحديث، وظللنا هناك حوالي نصف الساعة دون أن نفهم شيئاً؛ لأنهم كانوا يتحاورون حول كتاب "بول فاليري"، الذي لم نسمع أحداً يتحدث عنه من قبل. كنت قد شاهدت كارانثا أكثر من مرة في مكتبات ومقاهي

بوجوتا، وكان يمكنني أن أُميِّزه عن غيره فقط برنة صوته ونعومته، التي تتوافق مع ملابسه وطريقته في الحياة: شاعر. أما خورخي روخاس، فعلى العكس ما كان لي أن أتعرَّف عليه بسبب ملابسه وطريقته الرسمية، إلى أن توجه إليه كارانثا باسمه مجرداً، وأنا كنت متشوقاً لأكون شاهداً على حوار حول الشعر بين الثلاثة الكبار، لكنه لم يحدث، ففي نهاية الموضوع، وضع المدير يده على كتفي، وقال لضيوفه:

- هذا شاعر كبير.

قالها كنوع من التأدب، بالطبع، لكنني شعرت بنفسي صريعاً، وأصر كارلوس مارتين أن يُصوِّرنا مع الشاعرين الكبيرين، لكنني لم أعد إلى سماع أخبار الصورة حتى نصف قرن بعد ذلك، في بيته على الشاطئ القطالوني بإسبانيا، حيث انسحب ليستمتع بحياة الشيخوخة الجميلة.

أصاب الليسيه هواء مجدد، فالراديو، الذي كنا نستخدمه فقط للرقص رَجَلاً لرجل، تحوَّل مع كارلوس مارتين إلى أداة نشر اجتماعية، وتمت مناقشة الأخبار الليلية لأول مرة خلال ساعات الفسحة، وزاد النشاط الثقافي بإنشاء مركز أدبي وإصدار جريدة. عندما وضعنا قائمة بأسماء الموهوبين المعروفين بميولهم الأدبية الواضحة، كان العدد اسماً للجماعة :"مركز الثلاثة عشر". نعترف أنها كانت ضربة حظ؛ لأنه كان تحدياً للخرافة، كانت المبادأة من جانب الطلاب أنفسهم، وكانت تتحدد في أن نجتمع مرة في الأسبوع لنتحدث عن الأدب في الواقع ولم نكن نفعل شيئاً آخر خلال أوقات فراغنا، داخل وخارج الليسيه، كل منا يقوم بواجبه، يقرأ كتاباً أو يعرضه للنقاش أمام الجميع، مندهشاً بهذا المثال، كنتُ أُشارك بكتابة سوناتات كنت أُوقِّعها باسم مستعار "خوسيه جارثيه"، الذي لم أكن أستخدمه في الواقع لأُعرف به بل لأتستر خلفه، كانت عبارة عن تدريبات تقنية مبسطة بلا استلهام ولا تطلع، ولم أكن أعرف أنها قيمة شعرية؛ لأنها لم تكن

تخرج من الروح، كنت بدأت بتقليد كيبيدو ولوبي دي بيجا، وأيضاً جارثيا لوركا، الذي كانت (ثُمانياته) عفوية جداً التي يكفي اتباعها بالقصور الذاتي. ذهبت بعيداً في حُمى التقليد تلك، إلى درجة أنني قررت أن أسخر من كل واحدة من سوناتات جارثيلاثو دي لا بيجا الأربعين. كتبت أيضاً ما كان يطلبه مني زملاء المدرسة الداخلية ليقدموه للصديقات على أنه من تأليفهم، واحدة منهن، في سرية تامة، قرأت لي مفعمة، الأبيات التي كتبها لها خطيبها وقدَّمها لها على أنها من تأليفه.

منحنا كارلوس مارتين مخزناً صغيراً في الفناء الثاني لليسيه بنوافذ محكمة الإغلاق بسبب الأمن، كنا خمسة أعضاء نضع جداول مهام الاجتماعات التالية، لم يكمل أي منهم طريقه ككاتب؛ لأن الأمر لم يكن يتعلق بهذا بل بمعرفة إمكانيات كل واحد، كان نناقش أعمال الآخرين، وكنا نصل إلى حد الخلافات الحادة كما لو كانت مباريات كرة قدم. وفي يوم من الأيام خرج ريكاردو جونثالث ريبول خلال الحوار، ففاجأ المدير وأذنه على الباب يتسمع إلى نقاشاتنا، اهتمامه كان مشروعاً؛ لأنه لم يكن محتملاً أن نخصص ساعات فراغنا للأدب.

مع نهايات مارس وصل نبأ أن المدير القديم السيد أليخاندرو راموس، أطلق رصاصة على رأسه في الغابات الوطنية في بوجوتا، لم يقتنع أحد أن السبب يرجع إلى شخصية الانعزالية وربما الاكتئابية، ولم نفهم سبباً معقولاً لإقدامه على الانتحار خلف تمثال الجنرال رفائيل أوريبي أوريبي، المحارب في أربع حروب أهلية والسياسي الليبرالي الذي أُغتيل بضربة فأس على أيدي بعض المتعصبين. حضر الجنازة وفد من الليسيه برئاسة المدير الجديد، وظل الحدث في ذاكرة الجميع كوداع لزمن مضى.

كان الاهتمام بالسياسة الوطنية قليلاً في القسم الداخلي، كنت أسمع في بيت جدي أن الفارق الوحيد بين الحزبين، بعد حرب الألف يوم، كان في أن الليبراليين كانوا يذهبون إلى القداس في الخامسة حتى لا يراهم أحد، والمحافظين يذهبون

إلى قُدَّاس الثامنة ليعتقد الناس أنهم مؤمنون، مع ذلك فإن الفوارق الحقيقية بدأ الشعور بها مجدداً بعد ثلاثين عاماً من الحرب، عندما خسر المحافظون السلطة وحاول أول الرؤساء الليبراليين فتح أبواب الوطن على رياح التغيير العالمية الجديدة. الحزب المحافظ، المهزوم بفقدانه السلطة المطلقة، بدأ يُجري عملية تنظيف داخل صفوفه تحت شعارات موسوليني البعيد في إيطاليا وضباب الجنرال فرانكو في إسبانيا، بينما حاولت الإدارة الليبرالية الأولى بقيادة الرئيس ألفونسو لوبث بوماريخو، المكوَّنة من مجموعة من الشباب المثقف، تهيئة الظروف المناسبة لليبرالية حديثة، وربما دون أن ينتبه إلى أنه كان يكمل الخطأ التاريخي في فصمنا إلى نصفين، المنقسم إليه العالم، كان محتما، في بعض الكتب التي أعارنا إياها المعلمون، عرفتُ مقولة منسوبة إلى لينين: "إذا لم تدخل السياسة، فإن السياسة سرعان ما تتدخل ضدك".

إلا أنه بعد ست وأربعين سنة من السيطرة الكهفية لرؤساء محافظين، كان السلام يبدو ممكناً، ثلاثة رؤساء شباب وعقلية حديثة فتحت آفاق الليبرالية، فبدأت تقشع ضباب الماضي. فقد كان ألفونسو لوبث بوماريخو، الأكثر بروزاً بينهم، مصلحاً مغامراً، ونجح في إعادة الانتخاب عام 1942 لفترة رئاسية ثانية، ولم يكن يبدو أن هناك ما يمكن أن يُعكِّر صفو التغيير، لذلك فإنه خلال سنتي الأولى في الليسيه كنت سكران بأنباء الحرب الأوروبية، التي كانت تقلقنا أكثر من السياسة الوطنية، لم تكن الصحافة تدخل الليسيه إلا في حالات خاصة جداً، ليس لأننا لم نكن معتادين على التفكير فيها، ولم تكن هناك أجهزة راديو نقالة، والراديو الوحيد في الليسيه كان في صالة المعلمين الذين يفتحوه في السابعة ليلاً بكل طاقته فقط للرقص، ولم نكن نفكر في ذلك الوقت أنه كانت تتكون جذور الحرب الأكثر دموية من كل الحروب.

دخلت السياسة إلى الليسيه فجأة، فانقسمنا إلى مجموعتين: ليبرالية

ومحافظة، ولأول مرة عرفنا في أي جانب كان كل منا. بدأ انتماء داخلي، ودِّي، وكان في بدايته أكاديمياً، ثم بدأ يتدهور مع تدهور الحالة في البلاد، لم تكن الخلافات الشخصية في الليسيه ظاهرة، ولكن لم يشك أحد في أن تأثير كارلوس مارتين على رأس المعلمين لم يخف انتماءه الأيديولوجي أبداً، وإذا لم يكن المدير الجديد منتمياً بوضوح، فعلى الأقل سمح بسماع الأخبار الليلية في راديو الصالة، وكانت الأخبار السياسية تتقدم منذ ذلك الوقت على موسيقى الرقص، يقولون دون تأكيد لتلك المقولة إنه كان يحتفظ في مكتبه بصورة لينين أو ماركس.

ربما كان الإضراب أحد النتائج المرة لذلك المناخ الشاذ في الليسيه، طارت الوسائد في غرفة النوم والأحذية احتلت محل القراءة والنوم، لم أتمكن من معرفة السبب، ولكني أعتقد – وكثير من الزملاء يتفقون معي– أن السبب كان في أحد فصول الكتاب المقرر قراءته بصوت مسموع في تلك الليلة: "غنِ بوضوح"، لمؤلف رومولو جاييجوس، كانت مشادة شاذة.

دخل كارلوس مارتين بعد استدعائه على عَجَل، إلى غرفة النوم، وقطعها عدة مرات من أقصاها إلى أقصاها، فَرَانَ الصمت الرهيب الذي فرضه حضوره. بعدها، في حالة من التسلط، وهو أمر غريب على شخصية مثله، أمرنا أن نغادر الغرفة بالبيجاما والخف، وأن نقف صفوفا في الفناء المثلج، وهناك عَنَّفَنا ووعدنا بنظام كامل، وأكملنا النوم، كانت الحادثة الوحيدة التي أتذكرها خلال سنوات الليسيه.

ماريو كونفريس، تلميذ وصل هذا العام ليدرس في الصف السادس، شغلنا بموضوع إصدار صحيفة مختلفة عن تلك التقليدية التي تصدرها المدارس الأخرى، كانت أول اتصالاته معي أنا، ووجدت أنه مقنع جداً إلى درجة أنني قبلت أن أكون مديراً للتحرير، كنت سعيداً ولكن لم تكن لدي أدنى فكرة عن مهمتي، والاستعدادات النهائية لإصدار الصحيفة توافقت مع القبض على الرئيس لوبث بوماريخو عن طريق مجموعة من ضباط الجيش في 8 يوليو 1944، عندما كان

في زيارة بجنوب البلاد، الحكاية التي قصها هو نفسه، لا رأس لها ولا ذَنَب، ربما لأنه فعلها دون إعداد جيد، قَدَّم للمحققين قصة جيدة، طبقاً لهذه القصة أنه لم يعرف بما حدث حتى تم إطلاق سراحه، كانت تبدو كما لو كانت قصة واقعية، فظل الانقلاب مثله مثل الكثير من فصول التاريخ الوطني المثيرة للسخرية.

استطاع ألبيرتو ييرا كامارجو أن يحافظ على البلاد هادئة بصوته وقدرته على الكلام الحاذق، فقد ظل يتحدث عدة ساعات ومن خلال الإذاعة الوطنية إلى أن تم تحرير الرئيس لوبث وإعادة النظام، لكن عادت حالة الطوارئ بقوة، وتم فرض الرقابة على الصحف، وكان المستقبل غير واضح، لقد حكم المحافظون البلاد من استقلالها عن إسبانيا عام 1830? وحتى انتخاب "أولايا هيريرا" بعد قرن كامل، وظلوا دون أن يتمكنوا من تحرير الوطن، والليبراليون على العكس من ذلك، يميلون إلى الفكر المحافظ مع كل يوم يمر، في بلد يترك كل يوم جزءاً منه في التاريخ، كانوا في تلك اللحظة يمتلكون طليعة تقدمية مشدوهة بمباهج السلطة، وأفضل مثال بينهم كان خورخي إليثير جايتان، الذي كان أحد أبطال طفولتي برفضه المطلق للقمع في مناطق الموز، وهو ما كنت أسمعه دون أن أفهمه منذ أن وعيت. كانت جدتي معجبة به، ولكنها كانت منزعجة من علاقته حينها بالشيوعيين، كنت أجلس خلفه عندما كان يخطب من شرفة بميدان ثيباكيري، وأدهشني رأسه الذي كان على شكل شمامة، وعنقه الأملس وجلده الهندي الأصيل، وصوته الرعدي، ولهجته التي تدل على انتمائه إلى ضواحي بوجوتا، ربما كان متطرفاً في حساباته السياسية، لم يتحدث في خطابه عن الليبراليين والمحافظين، أو عن المستغِلين والمستَغلين، كما كان يفعل جميع السياسيين، بل عن الفقراء والإقطاعيين، تلك الكلمة التي سمعتها أول مرة في ذلك الوقت والتي كانت تتردد في كل جملة، وبحثت عن معناها في القاموس.

كان محامياً حديثاً وتلميذاً نجيباً في روما للمحامي الجنائي الإيطالي إنريكو فيري. درس هناك فنون الخطابة عند موسوليني واستعار منه بعضاً من أدائه المسرحي على منصة الخطابة، أما منافسه جابرييل تورباي، فقد كان طبيباً مثقفاً وأنيقاً، يرتدي عوينات رقيقة من الذهب تمنحه شيئاً من ملامح الفنانين السينمائيين، ظهر في مؤتمر حديث للحزب الشيوعي، وألقى خطاباً لم يكن متوقعاً فاجأ الكثيرين وأقلق بعض رفاقه البرجوازيين، ولكنه اعتقد أنه لم يتخل عن كلمة ولا عن عمل حزبه الليبرالي ولا عن تطلعاته الأرستقراطية، وعلاقته بالدبلوماسية الروسية تعود إلى عام 1936عندما أقام في روما علاقات مع الاتحاد السوفييتي باعتباره سفيراً لكولومبيا. بعد سبع سنوات تم إعلان تلك العلاقة رسمياً عندما كان في واشنطن كوزير كولومبيا لدى الولايات المتحدة.

وعلاقته مع السفارة السوفييتية في بوجوتا كانت جيدة، وكانت له صداقات مع الكثير من زعماء الحزب الشيوعي يمكنهم أن يعقدوا اتفاقات انتخابية مع الحزب الليبرالي، وهو ما تحدثوا عنه كثيراً خلال تلك الأيام، ولكنهم لم يتحدثوا مطلقاً على وجه التحديد، وأيضاً خلال تلك الفترة، عندما كان سفيراً في واشنطن جرت في كولومبيا شائعات تقول إنه كان العشيق السري لواحدة من كبريات نجوم السينما في هوليوود، ربما كانت جان كروفورد أو باوليت جودارد، إلا أنه لم يتخل أبداً عن كونه الأعزب غير القابل للرشوة.

ما بين ناخبي جايتان وناخبي تورباي يمكن الحصول على أغلبية ليبرالية وفتح طرق جديدة داخل الحزب نفسه، ولكن أياً من النصفين المنفصلين لا يمكنه أن يفوز على المحافظين المتحدين والمسلحين.

مجلتنا "جازيتا ليتراريا" ظهرت في تلك الأيام الرديئة، وعندما كانت مطبوعة بين أيدينا في ثماني صفحات بحجم التابلويد فاجأنا تقديمها الرسمي، فقد كانت مطبوعة بشكل جيد، كان كارلوس مارتين وكارلوس خوليو كالديرون الأكثر

حماساً، وتحدث كلاهما خلال الفسحة عن بعض المقالات، من بينها، الأكثر أهمية الذي كتبه كارلوس مارتين الذي كتب المقال بناءً على طلبنا، والذي تحدث فيه عن حاجتنا إلى أن نعي أهمية النضال ضد محترفي الدعاية التجارية بشئون الدولة، والسياسيين المتسلقين ومثيري الشغب الذين يعرقلون مسيرة الوطن، نشرناه مع صورة كبيرة له بالصفحة الأولى، وكان هناك مقال لكونفريس عن العرق الهيسباني، ونثر غنائي لي موقعاً باسم خافيير جارثيس. أعلن لنا كونفريس أن هناك حماساً كبيراً بين أصدقائه في بوجوتا، وأن هناك إمكانية للحصول على تمويل لإصدارها كصحيفة إقليمية.

لم يصل أول عدد إلى التوزيع عندما وقع الانقلاب العسكري، ففي اليوم الذي تم فيه إعلان الطوارئ هجم عمدة ثيباكيري على الليسيه ومن خلفه فرقة من الجنود المسلحين وصادر النسخ التي كنا أعددناها للتوزيع، كان هجوماً سينمائياً، لا يمكن تفسيره سوى بأن هناك من وشى بأن الصحيفة كانت تحتوي على مواد ممنوعة، وجاءنا في اليوم نفسه إعلان من المكتب الصحفي برئاسة الجمهورية يشير إلى أن الصحيفة تم طبعها دون المرور على رقابة الطوارئ، وتم عزل كارلوس مارتين من الإدارة دون إعلان مسبق.

كان قراراً غريباً جعلنا نشعر بأننا مهانون وفي الوقت نفسه مهمون، لم يكن عدد النسخ المطبوعة من الصحيفة يتعدى مائتي نسخة لتوزيعها بين الأصدقاء، لكنهم أكدوا لنا أن الرقابة المسبقة إجراء لا يمكن تفاديه في حالة الطوارئ، وتم إلغاء تصريح النشر إلى حين أوامر أخرى لم تصل أبداً.

مر أكثر من خمسين سنة قبل أن يكشف كارلوس مارتين أسرار ذلك الحدث العبثي لهذه المذكرات، ففي اليوم الذي تمت فيه مصادرة "لا جازيتا" استدعاه وزير التربية نفسه الذي عينه- أنطونيو روتشا- إلى مقابلة في مكتبه في بوجوتا، وطلب منه تقديم استقالته، ووجد كارلوس على مكتب الوزير نسخة من "لا جازيتا

ليتراريا" وخطوطاً بقلم أحمر تحت العديد من الجمل المحظورة، وفعل الأمر نفسه مع مقال الافتتاحية ومقال ماريو كونفريس وأيضاً في قصائد لشاعر معروف مشتبه في أنها مكتوبة بشفرة معينة، وقال لهم كارلوس مارتين: "حتى الإنجيل مخطط بهذا الشكل المتطرف يمكنه أن يُعَبِّر عن عكس معناه الحقيقي"، فكانت ردة فعل الوزير غاضبة وهدده باستدعاء البوليس. وتم تعيينه رئيساً لتحرير مجلة "السبت"، بالنسبة لمثقف مثله كان يمكنه اعتبار هذا المنصب ترقية مهمة، إلا أن إحساساً بأنه كان ضحية لحيلة يمينية ظل يلازمه إلى الأبد، وتم الاعتداء عليه في مقهى في بوجوتا كاد أن ينتهي بطلقة رصاص، لكن وزيراً جديداً عينه بعد ذلك رئيساً للقسم القانوني، وقام بأعمال لامعة انتهت بالتقاعد مُحاطاً بالكتب والذكريات في مياه تارجونا الهادئة.

في نفس وقت استقالة كارلوس مارتين- ودون علاقة به بالطبع- جرت في الليسيه والبيوت وكناتين المدينة حكاية لا مصدر لها تقول: إن الحرب مع البيرو عام 1932 كانت بترتيب مع الحكومة الليبرالية لتبقى بالقوة في مواجهة المعارضة المحافظة، هذه الحكاية، تم نشرها حتى في أوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة، وتؤكد أن المأساة بدأت دون هدف سياسي عندما قام أحد الضباط البيروانيين بعبور نهر الأمازون على رأس دورية عسكرية، واختطف العشيقة السرية لكولومبي من قرية على الشاطئ الكولومبي اسمها "ليتيثيا"، كانت العشيقة خلاسية مزعجة كانوا يسمونها "لا بيلا"، اسم الدلع لبيلار وعندما اكتشف الكولومبي عملية الاختطاف، عبر الحدود برفقة مجموعة من العمال المسلحين واستعاد "لا بيلا" من الأراضي البيروانية، لكن الجنرال لويس سانشيث ثيرو، دكتاتور البيرو المطلق، انتهز فرصة المناوشة لغزو كولومبيا في محاولة لتغيير شكل الحدود الأمازونية لصالح بلاده.

أعلن أولايو هيريرا حالة الحرب- تحت ضغط الحزب المحافظ المهزوم بعد قرن من وجوده في الحكم المطلق- وأمر بالتعبئة الوطنية، وزرع في الجيش رجاله المقربين، وأرسل قوات لتحرير الأراضي التي اعتدى عليها البيروانيون. وخيمت على البلاد صرخة الحرب وأشعلت الثقة في أنفسنا: "عاشت كولومبيا.. تسقط البيرو". وقيل عن الحرب إنهم حوّلوا طائرات شركة النقل المدنية إلى طائرات عسكرية مسلحة كفرقة حربية، وإن إحداها كانت تنقصها القنابل، فألقت على قرية جيبي البيروانية ثمار جوز الهند وصواريخ ألعاب نارية من تلك التي كانوا يطلقونها خلال أعياد الأسبوع المقدس، إلى درجة أن الكاتب الكبير "خوان لوثانو"- كتب بطلب من الرئيس لكشف حقائق حرب الأكاذيب المتبادلة- كتب حقيقة الحادث بنثره العظيم، ولكن الحكاية الكاذبة ظلت مجرد حكاية متداولة لسنوات طويلة.

وجد الجنرال لويس ميجيل سانشيث ثيرو في الحرب فرصة إلهية؛ لتدعيم حكمه القائم على الحديد والنار، ومن جانبه نصب الرئيس أولايو هيريرا الرئيس المحافظ السابق ميجيل أباديا قائداً عاماً للقوات المسلحة الكولومبية الذي كان يوجد في هذه اللحظة في باريس، وعبر الجنرال المحيط الأطلنطي في سفينة مدفعية ودخل عبر ممرات نهر الأمازون إلى أن وصل ليتيثيا، عندما كان الدبلوماسيون من الجانبين يناقشون كيفية إطفاء نار الحرب.

ودون أدنى علاقة بين ما حدث في باستو ولا بما حدث في صحيفة الليسيه تم عزل كارلوس مارتين من إدارة المدرسة، وحل محله أوسكار اسبيتيا براند، معلم تربوي وفيزيائي شهير، أيقظ هذا في الداخلية كل أنواع التحليلات. موقفي المعادي له جعلني اتخذ موقفاً منه منذ أول تحية، ركَّزَ بصره على شَعري البوهيمي وشاربي الجبلي، كان ذو مظهر صعب وكان ينظر في العيون بشكل مباشر بتعبير حاد، أصابني بالرعب نبأ أنه سيكون معلمنا في مادة الكيمياء الحيوية.

كنا في منتصف البرنامج المسائي بالسينما في يوم سبت من تلك السنة، عندما أعلن صوت مزعج من خلال مكبرات الصوت أن هناك تلميذاً ميتاً في الليسيه، كان النبأ مريعاً إلى درجة أنني لم أستطع تذكر الفيلم الذي كنا نشاهده، لكني لا أستطيع أن أنسى تركيز كوديت كولبرت وهي على وشك إلقاء نفسها إلى النهر من على حاجز أحد الجسور. كان الميت تلميذاً من الصف الثاني، يبلغ السابعة عشرة، حديث الوصول من مدينة باستو البعيدة، بالقرب من الحدود مع الاكوادور، اصيب بضيق في التنفس خلال مسابقة جري نظمها معلم الألعاب في نهاية الأسبوع كعقاب لتلاميذه المتخلفين، كانت الحالة الوحيدة لتلميذ ميت لأي سبب من الأسباب خلال فترة وجودي، ونتج عنه حالة من الحزن ليس في الليسيه وحدها بل في المدينة كلها، اختارني زملائي لكي ألقي كلمة الودا ع خلال الجنازة، طلبت في تلك الليلة نفسها مقابلة مع المدير الجديد لأعرض عليه صلاتي الجنائزية، أصابني دخولي إلى مكتبه بالحالة نفسها التي أصبت بها خلال زيارتي الوحيدة للمدير الراحل، قرأ الأستاذ اسبيتيا ما كتبته بتعبير مأساوي، ووافق عليه دون أي تعليق، ولكن عندما وقفت لكي أخرج أشار لي بالعودة إلى الجلوس، كان قد قرأ بعض كتاباتي وأشعاري، من تلك الكثيرة التي كان يتم توزيعها خلال الفسحة، ورأى أن بعضها تستحق النشر في أحد الملاحق الأدبية، ما كدت أحاول التغلب على خجلي الذي لا يرحم، عندما عبر هو عن هدفه الخاص، نصحني أن أقص شعري البوهيمي، غير اللائق برجل جاد، وأن أشذب الشارب، وأن أترك استخدام القمصان المرسومة بالطيور والزهور التي تبدو كالكرنفال، لم أكن أنتظر شيئاً من هذا، ولحسن الحظ أنني تمالكت أعصابي حتى لا أردّ على وقاحته، انتبه هو إلى ذلك، فاتخذ صوته جرساً لفظياً دينياً ليشرح تخوفه من أن تنتشر عاداتي بين الزملاء الصغار بسبب شهرتي كشاعر، خرجت من المكتب مبهورا بالاعتراف بعاداتي وموهبتي الشعرية من واحد له مكانته، وكنت على استعداد أن أُلبي طلب المدير بتغيير شكلي في اللقاء المهيب.

إلى درجة أنني فسَّرت طلب الأسرة إلغاء التأبين على أنه فشل شخصي لي.

كانت النهاية قاتمة، اكتشف أحدهم أن زجاج التابوت كان مُضبباً عندما كان معروضا في قاعة مكتبة الليسيه، فتحه ألفارو توريس بناء على طلب الأسرة وتيقن من أنه كان بالفعل مُبللاً من الداخل، وتم البحث في أسباب بلل تابوت مغلق بإحكام، ضغط بأطراف أصابعه على صدر الميت، فصدر عن الجثة صوت مرعب، أرعبتنا الأسرة بفكرة أنه كان حياً، إلى أن شرح لهم الطبيب مُبيناً لهم أن الرئتين كانتا مليئتين بالهواء بسبب الاختناق وطردت الهواء بالضغط على الصدر. على الرغم من بساطة التشخيص، وربما كان بسبب هذا، بقي التخوف لدى البعض من أنه تم دفنه حياً، في هذه الحالة ذهبت لقضاء إجازة الصف الرابع، متشوقاً إلى التأثير على أبوي حتى لا أستمر في الدراسة.

وصلت إلى سوكري تحت سحابة من المطر الخفيف الشفاف، اعتقدت أن أرصفة الميناء كانت مختلفة عن تلك التي أحتفظ بها في ذاكرتي، كان الميدان أصغر حجماً وعارياً. الكنيسة والميدان مضاءان بضوء مختلف تحت ظلال أشجار اللوز، والزينات تعلن عن أعياد الميلاد، ولكنها هذه المرة لم توقظ فيّ ما أيقظته في سنوات سابقة، ولم أتعرف على أي من الرجال القلائل المنتظرين بمظلاتهم على الرصيف، إلى أن قال لي أحدهم عندما مر بجواري، وبلهجة ونغمة لا تخطئها الأذن:

– كيف الحال؟!.

لقد كان أبي، كان واضحاً عليه النحول، لم يكن يرتدي ملابسه البيضاء التي تُميِّزه من بعيد منذ سنوات مراهقته، بل كان يرتدي بنطلوناً منزلياً، وقميصاً استوائياً نصف كم، وقبعة غريبة تشبه قبعات رؤساء العمل، برفقته شقيقي الصغير جوستافو، الذي لم أتعرف عليه بعد الطول الذي طرأ على سنواته الثمانية.

لحسن الحظ، كانت العائلة لا تزال تحافظ على بقايا فقرها، والعشاء المبكر، كما لو كانت إعلاناً لتنبيهي إلى أن هذا البيت بيتي، النبأ الطيب خلال الجلوس إلى المائدة كان فوز أختي ليخيا بجائزة اليانصيب، والحكاية- كما قصتها هي نفسها- بدأت عندما حلمت أمنا أن أباها أطلق النار في الهواء لإبعاد لص فاجأه يسرق في بيت آراكاتاكا القديم. قصت أمي الحلم خلال الإفطار، وتطبيقاً لعادة عائلية، أوعزوا بشراء رقم يكون على نفس شكل مسدس الجد، وأخفق حظهم بسبب رقم اشترته أمي بقرض يتم دفعه من الجائزة نفسها، ولكن ليخيا، كانت وقتها في الحادية عشرة من عمرها، طلبت من أبي ثلاثين سنتيماً لدفع ثمن الرقم الخاسر، وثلاثين أخرى لشراء رقم غريب: 0207 خبأ شقيقنا لويس إنريكي الرقم ليخيف ليخيا، ولكن خوفه كان أكبر، يوم الاثنين التالي، عندما سمعها تدخل البيت صارخة كمجنونة بأنها فازت باليانصيب؛ لأنه خلال عجلة ارتكابه اللعبة المسلية نسي المكان الذي خبأ فيه الرقم، وخلال البحث عنه أفرغوا الصناديق والدواليب وقلبوا البيت رأساً على عقب حتى المراحيض، إلا أن الأكثر إقلاقاً كانت قيمة الجائزة: 770 بيزو.

النبأ الآخر أن أبويَّ أكملا أخيراً حلمهما بإرسال شقيقي لويس انريكي إلى إصلاحية "فوينتدونيا" في ميديين، معتقدين أنه مدرسة للأبناء العاقين، وأنه لم يكن كما كان في الحقيقة: سجناً لإعادة تأهيل المجرمين المراهقين الخطرين.

اتخذ أبي قراره الأخير بعد ما أرسل ابنه لتحصيل دين للصيدلية، وبدلاً من تسليم الثمانية بيزوات التي دفعوها له اشترى آلة موسيقية وتعلَّم العزف عليها كأفضل ما يكون، لم يقل أبي شيئاً عندما اكتشف الآلة الموسيقية في البيت، وظل يطالب ابنه بتحصيل الدين، لكن هذا كان يجيب دائماً بأن صاحبة البقالة لا تملك المال لتدفع دينها، مرت عدة أشهر قبل أن يكتشف لويس إنريكي أبي وهو يغني أغنية مرتجلة بمصاحبة الآلة الموسيقية: "انظر إليّ، أعزف على هذه الآلة التي تكلفت ثماني بيزوات".

لم نعرف أبداً كيف اكتشف أصل الحكاية، ولا لماذا تغافل عن شيطنة ابنه، ولكن لويس إنريكي اختفى من البيت إلى أن طالبت أمي أبي بعودته، وقتها سمعنا أول تهديدات أبي بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية ميديين، لكن لم يهتم أحد بتلك التهديدات، فقد كان أعلن من قبل أنه سيرسلني لدراسة الفقه الديني في أوكانيا، ليس لعقابي ولكن ليكون له شرف وجود رجل دين في بيته، ولم يمر وقت طويل قبل أن ينسى وعده، إلا أن الآلة الموسيقية كانت القطرة التي طفح بها الكأس.

دخول الإصلاحية لم يكن ممكناً إلا إذا كان بقرار من قاضي الأحداث، لكن أبي تغلب على هذا من خلال أصدقاء مشتركين، وبخطاب توصية من أرشيدوق ميديين، مونسينيور جارثيا بينيتيث، أما لويس إنريكي من ناحية فقد أثبت طاعته بقبوله دخول الإصلاحية كما لو كانت حقلاً.

لم تكن الإجازات بدونه عادية، فقد كان يتطابق مع فيلاديلفو فيليا، أهم عازف، بحرفية مطلقة، وبالطبع مع المايسترو فالديس. عندما كنا نغادر مراقص الأثرياء كانت تهاجمنا في ظلام الحديقة فتيات الليل الهواة من كل نوع، كانت هناك فتاة تسير بالقرب منا ولكنها لم تكن منهن، عرضتُ عليها خطأ أن تصحبني، فأجابتني إجابة منطقية بأنها لا تستطيع؛ لأن زوجها نائم في البيت، إلا أنه بعد ليلتين أخبرتني أنها ستترك باب الشارع بلا ترباس من الداخل، ثلاث مرات في الأسبوع، حتى يمكنني أن أدخل دون أن أطرق الباب عندما لا يكون الزوج هناك.

أتذكر اسمها ولقبها، ولكني أفضل تسميتها: نجرومانتا. في أعياد الميلاد كانت على وشك إكمال العشرين، كان لها وجه حبشي وجلد كاكاو، سريرها ضاحك وتجاوبها الجنسي مرعب، ومكدر. شعورها بالحب لم يكن بشرياً بل يشبه إحساساً بنهر جارف، جننا في السرير منذ اللحظة الأولى، زوجها- مثل خوان بيريا- كان له جسد عملاق وصوت طفلة، كان موظفاً في الأمن العام بجنوب

البلاد، وكانت تطارده شهرته بأنه كان يقتل الليبراليين كنوع من التدريب على إطلاق النار. كانا يعيشان في غرفة مقسمة بحاجز من الكرتون، وبوابة تطل على الشارع، وأخرى تطل على المقابر، كان الجيران يشكون غنجها المزعج لهدوء الموتى، فقد كانت تعوي ككلبة سعيدة، ولكن كلما زاد عواؤها كان الموتى أكثر سعادة لقلقهم بسببها.

هربتُ من الغرفة في الأسبوع الأول في الرابعة فجراً، لأننا أخطأنا التاريخ وكان الجاويش في طريقه إلى البيت في أية لحظة، خرجت من باب المقابر بين النيران الهائجة في جسدي وعواء الكلاب الليلية، وخلال إجازة العام الثانية شاهدت شبحاً ضخماً لم أتعرف عليه حتى التقيت به، لقد كان الجاويش شخصياً، كان يمكنه أن يعثر عليّ في بيته لو أننا تأخرنا خمس فقط.

قال لي بنغمة ودودة:

– صباح الخير أيها الأبيض.

أجبته أنا بلا اقتناع:

– ليحفظك الله أيها الجاويش.

توقف عند تلك اللحظة ليطلب مني كبريتاً، أعطيته الكبريت واقتربت منه جداً لحماية العود من رياح الفجر، وعندما ابتعد بالسيجارة مشتعلة، قال لي بموهبة جيدة:

– تفوح منك رائحة عاهرة لا تقدر عليها.

استمر الخوف أقل مما كنت أنتظر، وفي الأربعاء التالي بقيت نائماً، وعندما فتحت عيني، وجدت نفسي في مواجهة غريمي يتأملني في صمت من عند أقدام السرير. كان رعبي كبيراً إلى حد فقدت القدرة على التنفس، كانت هي أيضاً عارية، حاولت أن تقف بيني وبينه، لكن الزوج أبعدها بمقدمة المسدس، وقال لها:

– لا تتدخلي، قضايا السرير يتم إصلاحها بالرصاص.

وضع المسدس على المائدة، وفتح زجاجة روم، ووضعها إلى جوار المسدس، وجلسنا كل منا في مواجهة الآخر نشرب في صمت، ما كان يمكنني تخيل ما يمكنه فعله، لكني فكَّرت أنه لو كان يريد قتلي لفعل دون لف أو دوران، بعدها بقليل ظهرت "نجرامانتا" ملتفة في شرشف وقلنسوة كرنفالية، فوجه إليها المسدس.

وقال لها:

– هذا صراع رجال.

قفزت هي واختبأت خلف الساتر.

كنا قد أنهينا الزجاجة الأولى عندما انهمرت الأمطار، ففتح الزجاجة الثانية، وضع فوهة المسدس على دماغه ونظر في عيني بثبات بعينين باردتين، ضغط على الزناد إلى آخره، فانطلق الزناد في جفاء، لم يكد يسيطر على رعدة يده حتى قَدَّمَ لي المسدس، وقال لي:

– دورك.

كانت المرة الأولى التي أمسك فيها بمسدس في يدي، وفاجأني أن يكون ثقيلاً وساخناً إلى هذا الحد، لم أعرف ماذا افعل، كنت غارقاً في عرق لزج وبطني كإسفنج يغلي، أردت أن أقول شيئاً لكن صوتي لم يخرج، لم أفكر في إطلاق النار عليه، بل أعدت إليه المسدس دون أن أنتبه إلى أنها كانت فرصتي الوحيدة، سألني باحتقار مرح:

– ماذا؟، بُلت على نفسك؟، كان عليك أن تفكر في هذا قبل أن تأتي إلى هنا.

أردت أن أقول له أيضاً عن الكثيرين الذين يبولون على أنفسهم، لكني انتبهت إلى أنه تنقصني الشجاعة لمثل هذا المزاح الثقيل، عندها فتح خزنة المسدس، أخرج الطلقة الوحيدة وألقى بها على المائدة: كانت فارغة، لم يكن شعوري بالفرح بل بالذل القاتل.

خَفَّتْ حدة المطر قبيل الساعة الرابعة. كان كلانا خائر القوى تحت الضغط العصبي، ولم أذكر متى أمرني أن أرتدي ملابس، أطعته بشيء من الرهبة، فقط عندما عدت إلى الجلوس من جديد انتبهت إلى أنه هو الذي كان يبكي، بدموع غيرة وبلا توقف، مسح دموعه في النهاية بظهر يده، نفخ في أنفه بإصبعيه ووقف، وسألني:

– هل تعرف لماذا ستذهب من هنا بحياتك؟

ثم أجاب على نفسه:

–لأن أباك كان الوحيد الذي تمكن من علاجي من سيلان كلب عجوز وهو ما لم ينجح فيه أحد طوال ثلاث سنوات.

ربت على ظهري برجولة ودفع بي إلى الشارع، كان المطر لا يزال يسقط، وكانت القرية غارقة، إلى درجة أنني كنت أسير والماء حتى ركبتي، وبفرحة البقاء على قيد الحياة.

لم أعرف كيف عرفت أمي بالحدث، لكنها قادت في الأيام التالية مظاهرة حتى لا أخرج من البيت ليلاً، وفي الوقت نفسه كانت تعاملني كما تعامل أبي، بأعمال مسلية لم تصلح لشيء، كانت تبحث عن ما يدل على أنني خلعت ملابسي خارج البيت، كانت تكتشف آثار عطور حيث لا توجد، كانت تعد لنا أطعمة قوية استجابة للمقولات الشعبية التي تقول: إن الأبناء والزوج لا يمكنهم ممارسة الحب خلال فترة هضم الغذاء، وأخيراً، وفي ليلة لم يكن لديها ما تفعله لتجبرني على البقاء، جلست أمامي وقالت لي:

– يقولون إنك تعشق زوجة رجل بوليس وأنه أقسم أن يقتلك برصاصة واحدة.

تمكنت من إقناعها بعدم صحة ذلك، لكن الإشاعات استمرت، كانت "نجرامانتا" ترسل لي علامات على أنها توجد وحدها، وأن رجلها موجود في مهام رسمية، وأنها لم تعد تعرف مكانه منذ زمن. بذلت ما استطعت حتى لا ألتقي به،

ولكنه كان يسبقني بتحيتي من بعيد بإشارة من يده يمكنها أن تكون إشارة على المصالحة أكثر منها إشارة على التهديد، شاهدته آخر مرة خلال إجازة العام التالي، وفي ليلة صاخبة قدَّم لي كأساً من الروم الصافي لم أملك القدرة على رفضه.

لا أعرف أي نوع من فنون النبوءة جعل المعلمين والزملاء يُغَيِّرون نظرتهم لي. بعد أن كنت بالنسبة لهم تلميذاً مهملاً، بدأوا ينظرون إليّ منذ الصف الخامس كشاعر ملعون وريث المناخ المتحرر الذي شهدته فترة كارلوس مارتين، ألا يكون ذلك بسبب أنني كنت أبدو مُمثلاً لذلك، بعد أن بدأت أدخن في الليسيه عند بلوغي الخامسة عشرة؟، كانت أول مرة مزعجة جداً، قضيت منتصف الليل أنازع بين القيء على أرضية الحمَّام، وأشرق الصباح عليّ وأنا في انهيار تام، ولكن في صباح اليوم التالي للتدخين، بدلاً من أن يبعدني عنه أصابتني حالة من الرغبة في مواصلة التدخين، وهكذا بدأت حياة التدخين القاسية، إلى درجة أنني لا أستطيع التفكير في جملة واحدة ما لم يكن فمي مملوءاً بالدخان، كان التدخين في الليسيه مسموحاً به فقط خلال الفسحة، ولكنني كنت أطلب إذناً للذهاب إلى دورة المياه مرتين أو ثلاث مرات في كل درس، فقط لقتل إدماني، وهكذا وصلت إلى تدخين ثلاث علب من عشرين سيجارة لكل واحدة في اليوم، وقد أتعداها إلى الرابعة حسب حالة الليلة، وفي بعض الفترات، بعد انتهاء الدراسة، كنت أعتقد أنني جننت بسبب جفاف حلقي والآلام في عظامي، قررت ترك التدخين لكنني لم أستطع المقاومة أكثر من ثلاثة أيام.

لا أعرف إن كان هذا هو السبب في أن يدي جرت بشكل مغامر في كتابة النثر خلال دروس الأستاذ كالدرون، ومع كتب النظرية الأدبية التي كنت مُجبراً على قراءتها. واليوم، عند إعادة التفكير في حياتي، أتذكر أن نظرتي إلى القصة كانت بدائية على الرغم من القراءات الكثيرة التي قرأتها منذ إعجابي بقصص "ألف ليلة

وليلة"، إلى درجة أنني تجرأت على التفكير في أن العجائب التي كانت تقصها شهرزاد كانت تحدث حقيقة في الحياة اليومية لزمنها، وأنها توقفت عن الحدوث بسبب جُبن واقعية الأجيال التالية؛ ولهذا السبب اعتقدت أنه من المستحيل أن يكون في زمننا هذا من يمكنه أن يطير على المدن والجبال ممتطياً بساطاً، أو أن يعيش عبدٌ من كارتاخينا مائتي عام داخل زجاجة، إلا إذا كان مؤلف الحكاية قادر على إقناع قرائه بذلك.

كانت الدروس تصيبني بالضجر، عدا دروس الأدب - التي حفظتها عن ظهر قلب- وكنت بطلها الوحيد، ونظراً لضجري من استذكار الدروس فقد كنت أترك الأمر لحسن الحظ. كان عندي إحساس خاص بالنقاط الأكثر أهمية في كل مادة، أتنبأ تقريباً بما يهم المعلمين حتى لا أستذكر بقية المادة، ففي الحقيقة لم أفهم لماذا كان علينا أن نُضَيِّع الوقت ونجهد العقل في مواد لا تهمنا أو لا تفيدنا في حياتنا بشيء.

تجرأت على التفكير بأن معظم المعلمين كانوا يمنحونني درجات النجاح بسبب طريقتي في الحياة وليس بسبب أدائي في الامتحانات، فقد كانت تنقذني إجاباتي غير المتوقعة، ونكاتي المعتوهة، واختراعاتي اللامعقولة، إلا أنه عندما أنهيت السنة الخامسة، بحالات رعب أكاديمية، لم أكن أشعر أنني قادر على تخطيها، عرفت إمكانياتي، فقد كانت البكالوريا طريقاً مليئاً بالمعجزات، ولكن قلبي حدثني بأنه في نهاية الصف الخامس ينتظرني حائط لا يمكن تخطيه، والحقيقة بلا أدنى تزييف أنه كانت تنقصني الهمة، والنظام والمال والإملاء، حتى أدخل الدراسة الأكاديمية، أي: كانت السنوات تجري ولم تكن لدي أدنى فكرة عما سأفعله بحياتي، فقد كنت في حاجة إلى زمن طويل لأنتبه إلى أن هذه الحالة الانهزامية كانت حالة مَرضية، فليس هناك أي شيء من هذا العالم أو غيره لا يكون نافعاً للكاتب.

والوطن لم تكن حاله أفضل، تحت ضغط ردة الفعل الغاضبة للمعارضة

المحافظة، ترك الرئيس ألفونسو لوبث بوماريخو رئاسة الجمهورية في 31 يوليو 1945، وحل محله ألبرتو ييراس كامارجو، مُعيناً من قبل البرلمان لاستكمال العام الأخير من الفترة الرئاسية، ومنذ خطاب تسلم المنصب ولغته الأدبية العالية، بدأ ييراس مهمته في تهدئة أوضاع البلاد لإعدادها لانتخاب رئيس جديد.

عن طريق المونسنيور لوبث ييراس، ابن عم الرئيس الجديد، حصل مدير الليسيه على مقابلة لطلب دعم الحكومة لرحلة دراسية للشاطئ الأطلنطي، ولكنني لم أعرف لماذا اختارني المدير لمرافقته إلى تلك المقابلة بشرط أن أصلح من هندامي وشاربي الجبلي، المدعوون الآخرون كانوا: جييرمو لوبث جيرا، المعروف من الرئيس، وألفارو رويث توريس ابن أخ لاورا فيكتوريا، شاعر مشهور ومعروف بجرأته في الأجيال الجديدة، التي كان ينتمي إليها أيضاً ييراس كاماراجو، لم يكن أمامي طريق آخر: خلال ليلة السبت، وأثناء قراءة جييرمو جرانادوس- رواية لم تكن لها علاقة بحالتي- قام حلاق مبتدئ من الصف الثالث بقص شعري وشذَّب شاربي على طريقة التانجو، واحتملت لبقية الأسبوع سخرية الزملاء من الداخلية والخارجية، ومجرد فكرة دخولي إلى قصر الرئاسة كانت تجمد دمي، ولكنه كان خطأ قلبي؛ لأن العلامة الوحيدة على السلطة التي وجدناها هناك كانت الصمت الإلهي، فبعد فترة انتظار قصيرة في مدخل مُزيَّن بالستائر المدلاة حتى الأرض، قادنا عسكري مهندم إلى مكتب الرئيس.

كان ييراس كامارجو لا يشبه صوره كثيراً، وأدهشتني خلفية ملابسه المثلثة المصنوعة بإحكام من الجبردين الإنجليزي، ووجنته خلال الكلام، وشحوب الورق وأسنانه الطفولية التي كانت إلهام رسامي الكاريكاتير، وبطء حركاته وطريقته في السلام بيده ناظراً في العينين بشكل مباشر، لا أتذكر الفكرة التي كانت في رأسي عن الرؤساء، ولكني لم أكن أعتقد أنهم جميعاً يشبهونه، ومع مرور الزمن،

عندما تعرفت عليه أكثر، انتبهت إلى أنه هو شخصياً لم يكن يعرف أنه لم يكن أكثر من كاتب ضل طريقه.

بعد أن استمع إلى كلمات المدير بانتباه، بشكل مبالغ فيه، قال بعض التعليقات المناسبة، لكنه لم يقرر قبل أن يستمع إلى التلاميذ الثلاثة، وكرمنا باستماعه بالاهتمام نفسه والاحترام الذي تعامل به مع المدير. خلال دقيقتين فهمنا أنه يعرف في الشعر أكثر من معرفته في السفر البحري، وكان واضحاً أن الشعر يهمه أكثر.

وافق على كل مطالبنا، إضافة إلى أنه وعدنا بحضور حفل التخرج النهائي بالليسيه، بعد أربعة أشهر، وحضر بالفعل، فقد كان أكثر الحكام جدية، ولكنه ضحك كثيراً مع الكوميديا التي قدمناها على شرفه، وخلال الحفل النهائي شعرنا أنه مجرد تلميذ منا لا أكثر، وكانت صورته مختلفة عن تلك المعروفة عنه، ولم يتغلب على ممارسة أفعال صبيانية عندما مدَّ ساقه في طريق الذي كان يوزع أكواب الشراب الذي لم يجد الوقت الكافي لتجنبها.

بعد الحالة التي كنت عليها على إثر حفل التخرج، ذهبت لقضاء إجازات العام الخامس مع الأسرة، أول خبر أخبروني به كانت عودة شقيقي السعيدة لويس إنريكي من الإصلاحية بعد عام وستة أشهر، فاجأني بفطرته السليمة، فلم يكن يشعر بأدنى ضغينة ضد أحد بسبب الحكم ضده، وكان يحكي مأساته بسخرية لاذعة، وخلال مراجعة النفس وصل إلى نتيجة مؤداها أن أبويه كانا يبحثان عن صالحه، إلا أن الحماية الكنسية له لم تنقذه من حياة السجن الصعبة، والتي أثرت تجربته وميله إلى المرح.

أول عمل قام به بعد عودته كان سكرتارية عمدة سوكري، بعدها بقليل أُصيب العمد بالتهاب معوي ووصف له أحدهم وصفة سحرية حديثة: الكاليستار، تعاطاه العمدة دون أن يذيبه في الماء، بل ابتلع الحبة كاملة ولم يختنق بمعجزة وما تلا

ذلك من الآلام في المعدة، وعلى إثرها وصفوا له الراحة التامة لعدة أيام، لكنه رفض أن يحل محله أي من نوابه الشرعيين لأسباب سياسية، ومنح شقيقي كل التفويضات. بسبب هذه الحادثة الغريبة دخل لويس إنريكي - دون أن يكمل السن القانونية- تاريخ المقاطعة كأصغر عمدة للقرية.

أكثر ما كان يزعجني خلال تلك الإجازات أن الأسرة كانت تبني مستقبلها على ما تنتظره مني، وكنت أنا فقط من يعرف أنها أضغاث أحلام. جملتان أو ثلاث من أبي خلال مائدة الطعام أنبأتني بأنه علينا أن نتحدث طويلاً عن مستقبلنا المشترك، واستعجلت أمي الأمر بقولها: "لو استمر الوضع على هذا الحال، لن يمر وقت طويل وسنجد أنفسنا مجبرين على العودة إلى بيت كاتاكا"، لكن نظرة سريعة من أبي جعلتها تعيد تصحيح كلامها:

- أو إلى مكان حيث يمكننا أن نعيش.

كان كل شيء واضحاً وقتها: الرحيل إلى أي مكان كانت مسألة معروفة في العائلة، ولكن ليس لأسباب أخلاقية، سوى البحث عن مستقبل أفضل لأبنائهم، كنت قانعاً حتى تلك اللحظة بفكرة المساهمة في حياة القرية وأهلها، وحتى حياة أسرتي، نتيجة الروح الانهزامية التي كانت تسيطر عليّ. ولكن لهجة أبي المأساوية كشفت لي مرة أخرى أنه من الممكن دائماً العثور عن مسئول حتى لا يكون هو مسئولاً عنها.

ما كنت أشتَّمه في الهواء كان أكثر كثافة، كانت تبدو أمي مهمومة فقط بصحة خايمي، الابن الأصغر، الذي لم يستطع الخروج من مشكلة الأعوام الستة، كانت تقضي أكثر أوقات اليوم منطرحة إلى جواره في سرير غرفة النوم المعلق، تحت وطأة الحزن والحر المذلين، وبدأ البيت يكشف عن إهمالها، وكان أشقائي كما لو لم تكن لهم أم. ونظام الطعام تغيَّر حتى أصبحنا نأكل بلا أوقات معينة وعندما نصاب بالجوع. أبي، أكثر الرجال حباً للبقاء في البيت، كان يقضي اليوم بطوله

يراقب الميدان من الصيدلية، ويقضي الأمسيات يلعب مباريات لقضاء الوقت في نادي البلياردو. وفي يوم من الأيام لم أحتمل أكثر من ذلك، تمددت إلى جوار أمي في السرير المعلق، كما لم أفعله في طفولتي، وسألتها عن الهواجس التي أشتّمها في هواء البيت، ابتلعت نفساً كاملاً حتى لا يرتعش صوتها، وفتحت لي قلبها:

- أبوك عنده ابن في الشارع.

بسبب الراحة التي شعرت بها في صوتها، فهمت أنها ارتاحت إلى سؤالي، واكتشفت الحقيقة بإحساس الغيرة الخبيئة، عندما عادت البنت الخادمة لتخبرها بأنها شاهدت أبي يتحدث بالتليفون في مكتب التلغراف، ولكن امرأة غيور يهمها أن تعرف أكثر. كان التليفون الوحيد في القرية ويستخدم عادة للمكالمات البعيدة ومن خلال موعد مسبق، وفترات انتظار غير معروفة ودقائقه مرتفعة الثمن، ولا يُستخدم إلا في حالات الطوارئ. كل مكالمة، مهما كانت بساطتها، توقظ حالة من الحذر بين سكان الميدان، لذلك عندما عاد أبي إلى البيت راقبته أمي دون أن تقول له شيئاً، إلى أن مزق الورقة التي يحملها في جيبه التي تعلنه عن موعد قضية بسبب تخطي واجبات المهنة، انتظرت أمي اللحظة المناسبة لتسأله مباشرة عن من كان يتحدث معه بالتليفون؟ كان السؤال كاشفاً إلى درجة أن أبي لم يجد إجابة سريعة يمكن تصديقها:

- تحدثت مع المحامي.

قالت أمي:

- أنا أعرف هذا، ما أريد أن أعرفه أن تقص عليّ أنت نفسك ذلك بكل صراحة.

اعترفت أمي بعدها أنها هي التي أُصيبت بالرعب من العفن الذي تم الكشف عنه دون أن تنتبه، لأنه لو تجرأ على قول الحقيقة فإن هذا يرجع إلى أنه كان يعرف أنها على إطلاع على الحقيقة، أو كان مجبراً على أن يخبرها بها.

وهذا ما حدث، اعترف أبي أنه تلقى إعلانا لحضور جلسة لمحاكمته جنائياً باغتصابه ممرضة في عيادته بعد أن خدرها بحقنة مورفين، وقع الحادث في مكان بعيد كان قد قضى فيه بعض الأوقات ليعالج مرضى فقراء لا يملكون ثمن العلاج، وقدَّم ما يثبت نقاء شرفه على الفور: دراما التخدير والاغتصاب كانت من صنع أعدائه، ولكن الطفل ابنه، وحملت به أمه خلال علاقة عادية.

لم يكن سهلاً على أمي أن تتجنب الفضيحة، لأن شخصاً من النوع الثقيل كان يحرك خيوط الإشاعة في الخفاء، وكانت هناك سابقة أبيلاردو وكارمن روسا، اللذان عاشا معنا في أوقات مختلفة وبحب الجميع لهما، ولكنهما ولدا قبل زواج أمي بأبي، إلا أن أمي تغلبت على ضغينتها بسبب الابن الجديد وخيانة زوجها لها، وناضلت إلى جواره بوجه مكشوف لفضح عملية الاغتصاب.

عاد الهدوء إلى العائلة ومع ذلك بعدها بقليل، جاءت أخبار سرية من المنطقة نفسها، عن طفلة من أم أخرى اعترف أبي أنها من صلبه، وأنها كانت تعيش في حالة بؤس مدقع، لم تضيع أمي الوقت في قضايا وما شابه ذلك بل دخلت معركة الحصول على حضانتها وأخذتها لتعيش معها في بيتها، وقالت: "سأفعل نفس الشيء الذي فعلته مينا مع أبناء أبي المتفرقين هنا وهناك"، ولم تندم على ذلك أبداً، وهكذا نجحت بمفردها أن تأخذ الطفلة، دون فضائح عامة، وأدخلتها في عداد العائلة الكبيرة.

كل تلك الأشياء عفا عليها الزمن عندما عثر شقيقي خايمي في أحد احتفالات القرية على طفل يشبه شقيقي جوستافو تماماً، كان الابن الذي تسبب في المشاكل القضائية، كان قد كبر بعيداً عن سيطرة أمه، لكن أمنا فعلت كل ما تستطيع وأخذته ليعيش معنا في البيت- كنا أحد عشر- وساعدته على تعلم مهنة وشق طريقه في الحياة، وقتها لم أستطع إخفاء إعجابي بامرأة غيور جداً يمكن أن تفعل مثل هذه الأشياء، وأجابتني هي نفسها بجملة لا زلت أحتفظ بها كالماسة النفيسة:

- لا يمكن لدم مثل دم أبنائي أتركه هناك كأي شيء.

كنت أرى أشقائي خلال الإجازات السنوية، وبعد كل رحلة كان من الصعب التعرف عليهم، إضافة اسم جديد في الذاكرة، فقد كنا جميعاً نحمل اسماً آخر مع اسم التعميد، كانت تطلقه علينا العائلة لتسهيل التعامل اليومي، ولم يكن اسماً مستخرجاً من الاسم الحقيقي، بل عادة ما يكون اسماً عارضاً، فمن اللحظة التي ولدت فيها أسموني "جابيتو" وهو تصغير غير عادي من جابرييل طبقاً للهجة أبناء الشاطئ، وشعرت دائماً أنه اسمي الحقيقي، وأن اسم الدلع هو جابرييل، وقال أحد المندهشين: من هذا لماذا لم يفضل أبوانا أن يعمدانا بالاسم الآخر.

مع ذلك فإن حرية أمي كانت تبدو أنها تسير في الاتجاه المعاكس في معاملتها مع ابنتيها الكبريين، مارجوت وعايدة، حاولت معهن أن تعاملهن المعاملة نفسها التي تلقتها من أمها، فكانت تريد أن تهجر القرية، بينما أبي لم يكن في حاجة إلى سماع رغبتها أكثر من مرة واحدة ليعد حقائبه ويسير على طرق العالم، إلا أنه كان متشككاً هذه المرة. مرت عدة أيام قبل أن أعرف أن المشكلة كانت قصتي حب لشقيقتيَّ الكبريين مع رجلين مختلفين ولكنهما يحملان الاسم نفسه: رفائيل. لم أستطع كتم ضحكاتي عندما قصوا عليّ الحكاية، مسترجعاً رواية الحب التي عاشها أبي وأمي من قبل، وقلت لأمي ذلك، فقالت:

- الأمر مختلف هذه المرة.

فقلت مُصرّاً:

- بل هو نفسه.

فتراجعت:

-حسناً، هو نفسه، ولكن مرتين في وقت واحد.

وكما حدث معها من قبل، لم يفلح معها شرح أو رجاء، ولم نعرف أبداً كيف عرف الأبوان بالحكاية، لأن كل منهما اتخذت احتياطاتها حتى لا تنكشف

الحقيقة، ولكن الشهود كانوا من الذين لم نفكر فيهم أبداً، لأن كل واحدة منهن ذهبت للقاء الحبيب برفقة أحد الإخوة الصغار لإثبات البراءة، والأكثر إثارة للدهشة أن أبي شارك في التلصص عليهن، ليس بطريقة مباشرة، ولكن بنفس السلبية التي مارسها جدي نيكولاس ضد ابنته.

"كنا نذهب إلى الرقص وكان يدخل أبي ويأخذنا إلى البيت مرة أخرى إذا اكتشف أن الرفائيليين كانا هناك"، قالت عايدة روسا في مقابلة صحافية. ولم يكن يسمح لهن بالخروج للتنزه في الحقول أو الذهاب إلى السينما، أو كان يرسل معهن شخصاً لا تغيبان عن عينيه، كانت كل منهما منفردة تقدم أعذاراً غير واهية لتلتقي حبيبها، وهناك يظهر فجأة شبح يكشف سرهما، إنها ليخيا، الشقيقة الأصغر منهما، فقد اكتسبت سوء السمعة كجاسوسة وخباصة، لكنها كانت تبرر ذلك بالغيرة بين الأشقاء وأن هذه طريقة أخرى للحب.

حاولت في تلك الإجازة التدخل لدى أبويَّ حتى لا يكرران الخطأ الذي ارتكبه أهل أمي، فكنت أواجه بأسباب صعبة على فهمي، أكثر تخويفاً، أن الإعلانات التي كشفت أسراراً حقيقية أم مختلقة– لا تزال لدى العائلات المحترمة، فقد تم الكشف عن أبوة خفية، وخيانات زوجية مخجلة، وأشياء أخرى جرت في أَسرَّة غرف النوم من المخجل أن تكون على ألسنة العامة، ولكنهم لم يضعوا شيئاً واحداً لا يعلن شيئاً قد يحدث في أي وقت مهما تأخر، فقد ذكر أحد ضحاياها: "الإعلانات يتسبب فيها الواحد منا ضد نفسه".

وما لم ينتبه إليه أبواي أن ابنتيهما ستدافعان عن نفسيهما بالوسائل نفسها التي استخدمها الأبوان. أرسلوا مارجوت للدراسة في مونتيريا، أما عايدة فقد ذهبت إلى سانتا مارتا برغبتها الخاصة. كانتا في مدارس داخلية، وفي أيام الإجازات كان هناك من يرافقهن، ولكنهن وجدتا الوسائل التي كانتا تتصلان بها برفائيل ورفائيل، إلا أن أمي استطاعت أن تحقق ما لم يحققه أبوها وأمها معها،

فقد أمضت عايدة نصف حياتها في الدير، وظلت تعيش هناك بلا أي عمل إلى أن أصبحت بعيداً عن متناول الرجال، ومارجوت التي كانت تجمعني معها دائماً ذكريات الطفولة، عندما كنت أقوم أنا نفسي بمراقبة الكبار حتى لا يفاجئوها وهي تأكل الطين، فقد بقيت في النهاية في البيت كأم ثانية للجميع، وبشكل خاص لـ "كيكي" الذي كان أكثر الجميع حاجة إليها، وظل معها حتى لفظ آخر أنفاسه.

فهمت الآن فقط إلى أي حد كان حال أمي السيئ، والعلاقات الداخلية المشدودة في البيت، يتوافق مع الأحوال المتناقضة لبلد لم يكد يخرج من مشاكله، ولكن تلك المشاكل ظلت. كان على الرئيس بيراس الدعوة إلى انتخابات في العام الجديد، وكان المستقبل مظلماً، فالمحافظون الذين استطاعوا إغراق لوبث كانوا يلعبون مع من حل محله لعبة مزدوجة: يحيونه على حياده الكامل ولكنهم يشيعون الخوف في المقاطعة للعودة إلى الحكم سواء عن طريق الانتخابات أو بالقوة.

ظلت سوكري بعيدة عن العنف، والعنف القليل الذي وقع فيها ليست له علاقة بالسياسة. إحدى قضايا العنف كانت مقتل خواكين باجا، كان موسيقياً يعزف في الفرقة البلدية المحلية، وعندما كانوا يعزفون في السابعة مساء على باب السينما، قام قريب له عدو بضربه بسكين في عنقه المنتفخ بفعل ضغط الموسيقى، ونزف دماءه على الأرض، وكلاهما كان محبوباً في القرية، والسبب المعلن الوحيد وغير المؤكد أن المسألة كانت تتعلق بالشرف، في الوقت نفسه بالضبط كانوا يحتفلون بعيد ميلاد شقيقتي ريتا، وتسبب الخبر السيء في إلغاء الحفل المبرمج لساعات طويلة.

الحادث الآخر وقع قبل ذلك ولكنه لا يمحى من ذاكرة القرية، كان بين بلينيو بالماثيدا وديونيسيو باريوس، الأول كان عضواً في عائلة قديمة ومحترمة، وهو نفسه كان رجلاً ضخماً ولطيفاً، لكنه كان أيضاً من الباحثين عن المشاكل عندما يكون سكراناً. عندما يكون واعياً فهو ظريف ويكشف عن رجولة حقيقية، ولكنه عندما يسكر يتحول إلى آخر ويسهل عليه إخراج المسدس من وسطه ليقاتل به

أول من يقع في طريقه، حتى البوليس كان يحاول البقاء بعيداً، ولكن أعضاء أسرته المتعبين من إلقاء القبض عليه وحجزه في البيت عندما يكون في حالة سكر، تركوه يواجه مصيره وحده.

كان ديونيسيو باريوس عكسه تماماً: رجل خجول وفقير، لا يحب الشجار ولا يحب الشراب بالطبيعة، لم يحدث أن واجه مشاكل مع أحد، إلى أن بدأ يثيره بلينيو بالسخرية من ضيق ذات اليد، حاول هو الابتعاد عنه إلى أن وقع في يوم من الأيام في طريق بالماثيدا الذي شج وجهه؛ لأنه لم يرق له، حينها تغلب ديونيسيو على خجله وحظه السيء، وواجه المعتدي بإطلاق النار عليه، كانت مصارعة فجائية، خرج منها الاثنان بجروح بالغة، ولكن مات ديونيسيو فقط.

إلا أن المصارعة التاريخية للقرية كانت بالموت الثنائي بلينيو بالماثيدا وتاسيو أنانايس. جاويش البوليس شهير بتهذيبه والابن المثالي للسيد ماوريثيو أنانياس، الذي كان يعزف على الطبلة في فرقة خواكين باجا الموسيقية، كان مصارعة في منتصف الشارع، خرج كلاهما جريحاً جرحاً قاتلاً، وظلا يعانيان سكرات الموت فترة طويلة، كل منهما في بيته، استعاد بلينيو وعيه للحظة صغيرة وكان همه معرفة ما حل بأنانايس. والآخر أيضاً أثر عليه انزعاج بلينيو مما حدث له. وبدأ كل منهما يتمنى على الله ألا يموت الآخر، وظلت العائلتان تنقل أحوال كل منهما إلى الآخر طوال بقائهما على قيد الحياة، وعاشت القرية كلها لحظة من السكون في محاولاتها إبقائهما على قيد الحياة بكل ما استطاع سكانها من حيل.

بعد ثمان وأربعين ساعة من معاناة سكرات الموت، دق ناقوس الكنيسة ليعلن موت امرأة ماتت قبل قليل، وسمع الاثنان دقات الناقوس كل في سريره، فاعتقد كل منهما أن الناقوس يعلن موت الآخر، مات أنانايس على الفور حزناً، وهو يبكي موت بلينيو. وهذا الأخير عندما علم بموت أنانايس مات بعدها بأيام وهو يذرف الدموع بحاراً حزناً على الجاويش.

في قرية أهلها أصدقاء مسالمون كتلك، فإن العنف في تلك السنوات كان ممارسة غير قاتلة، ولكن أقل إيلاماً: الإعلانات، فقد كان الرعب يعيش في بيوت العائلات الكبرى، التي تنتظر اليوم التالي يانصيب الشر. في المكان الأقل اشتباهاً تظهر ورقة مكتوبة بخط اليد، تكون رحمة لما لا تقوله عن الواحد منا، وتكون أحياناً حفلاً سرياً لما تقوله عن آخرين. أبي، ربما كان الرجل الأكثر هدوءاً بين من عرفتهم، نظّف مسدسه المحبب الذي لم يطلق منه رصاصة أبداً، وأطلق لسانه في صالون البلياردو، زاعقاً:

– من يتجرأ على لمس أي من بناتي.. ستناله رصاصة من هذا المرعب.

هاجرت عدة عائلات خوفاً من أن تكون تلك الإعلانات جزءاً من العنف البوليسي الذي يدمر قرى كاملة داخل البلاد لإرهاب المعارضة.

وتحول التوتر إلى خبزنا اليومي. في البداية تم تشكيل دوريات مراقبة، ليس لاكتشاف موزعي الإعلانات، ولكن لمعرفة ما تقوله، قبل تمزيقها قبيل شروق الشمس. مجموعة من الساهرين عثرنا على موظف بالبلدية في الثالثة فجراً، كان جالساً يتبرد ببرد الصباح أمام باب بيته، ولكنه في الحقيقة كان يرصد من يلصقون الإعلانات، قال له شقيقي ما بين الهزل والسخرية إنما يقال في بعضها حقيقة، فأخرج مسدسه ووجهه إليه ضاغطاً على الزناد:

–كررها مرة أخرى.

حينها عرفنا أنهم في الليلة السابقة وضعوا إعلاناً عن ابنته غير المتزوجة، ولكن المعلومات كانت مشاعاً بين العامة، إلا أنه في البيت من لم يكن يعرف هو الأب نفسه.

في البداية كان واضحاً أن الإعلانات كان يكتبها شخص واحد، وبنفس القلم، وعلى ورق واحد، ولكن في سوق صغير كما في سوق الميدان، هناك محل واحد من يمكنه أن يبيع هذه الأدوات، وقد سارع صاحبه إلى إعلان براءته، من ذلك

الوقت عرفت أنني سأكتب رواية عن تلك الإعلانات، ليس لما تقوله، والتي كانت كلها تقريباً من إنتاج خيالات الرأي العام، ومثيرة للسخرية، ولكن بسبب التوتر غير المحتمل الذي خلقوه داخل البيوت.

في "ساعة نحس" روايتي الثالثة التي كتبتها بعد ذلك بعشرين سنة، اعتقدت أنه عمل شريف ألا أستخدم حالة معينة يمكن التعرف على أبطالها، وإن كانت هناك حالات واقعية كانت أفضل من تلك التي اختلقتها أنا، إضافة إلى أني لم أكن في حاجة إليها، فقد كنت مهتماً بالشكل الاجتماعي للحياة الخاصة لضحاياها. فقط بعد نشرها، عرفت أنه في المناطق المحيطة بالقرية، حيث كنا مكروهين نحن سكان الميدان الكبير، كان يتم الاحتفال بالكثير من تلك الإعلانات.

في الحقيقة ساعدتنى تلك الإعلانات على وضع نقطة البداية التي لم أستطع أن أحددها في أي وقت؛ لأن ما كنت أكتبه كان يدل على أن المشكلة سياسية وليست أخلاقية كما كنت أعتقد. واعتقدت دائماً أن زوج نجرمانتا كان نموذجاً صالحاً للعمدة العسكري في رواية "ساعة نحس"، ولكن عندما كانت تتطور كشخصية لم تكن تتطور كشخصية بشرية، ولم تكن لدي أسباب لقتلها، لأنني اكتشفت أن الكاتب لا يستطيع قتل الشخصية ما لم تكن لديه أسباب مقنعة، وفي هذا الحالة لم يكن الأمر كذلك.

أعرف اليوم أن تلك الرواية نفسها يمكن أن تكون رواية أخرى، كتبتها في فندق طلابي بشارع كوجاس في الحي اللاتيني بباريس، على بعد مائة متر من بوليفار سان ميشيل، وبينما كانت الأيام تمضي بلا رحمة في انتظار شيك لم يصل أبداً، وعندما أنهيتها، لففت الأوراق، وربطتها برباط عنق كنت أرتديه في أيام أفضل من تلك، ودفنتها في أعماق خزانة الملابس.

بعد ذلك بعامين في مدينة مكسيكو، لم أكن أعرف أين توجد الرواية، عندما طلبوها مني للمشاركة في مسابقة للرواية أقامتها شركة "إسو" الكولومبية،

بجائزة ثلاثة آلاف دولار من دولارات تلك الأيام، كان المشرف عليها المصور الفوتوغرافي جييرمو أنجولا، صديقي الكولومبي القديم، كان يعرف بوجود أصولها تحت الكتابة منذ أن كنت أكتبها في باريس، أخذها مني بالنهاية التي كانت عليها، وكانت لا تزال مربوطة برباط العنق، ودون أن يترك لي الوقت لكيها على البخار لضيق الوقت. وهكذا أرسلتها إلى المسابقة دون أمل في الحصول على جائزة يمكن بها شراء بيت. لكن بالطريقة التي أرسلتها بها تم إعلانها فائزة بلجنة التحكيم في 16أبريل ?1962وتقريباً في الساعة نفسها التي ولد فيها ابننا الثاني جونثالو، وخبزه تحت إبطه.

لم يكن لدينا الوقت للتفكير عندما كتبت رسالة إلى الأب فيلكس ريستريبو رئيس الأكاديمية الكولومبية للغة، ورجل طيب كان رئيساً للجنة الجائزة لكنه كان يجهل عنوان الرواية. عندها انتبهت إلى أنني لم أكتب العنوان في الصفحة الأولى الذي كان: "هذا البلد الملعون".

عندما علم به الأب ريستريبو، من خلال خيرمان بارجاس، طلب مني بلطف أن أُغيِّره باسم آخر أقل عنفاً، وقريباً من مناخ الكتاب، وبعد كثير من تبادل الآراء معه، اتخذت قراري بعنوان ربما لا يكشف كثيراً عن المأساة، ولكنه يصلح علامة للإبحار في بحار النفاق: "ساعة نحس".

بعد أسبوع، طلب الدكتور "كارلوس آرانجا بليس" سفير كولومبيا لدى المكسيك والمرشح لرئاسة الجمهورية، مقابلتي بمكتبه، ليخبرني أن الأب ريستريبو يرجوني أن أُغِّير كلمتين يرى أنهما غير مقبولتين في النص الفائز: الواقي الذكري، والعادة السرية. لا السفير ولا أنا استطعنا إخفاء ذهولنا، لكننا اتفقنا على إرضاء الأب ريستريبو لوضع نهاية سعيدة للمسابقة التي لا تنتهي بحل وسط، قلت له:

– حسن جداً، سيدي السفير، اشطب واحدة من الاثنتين، ولكن حضرتك تتشرف باختيارها.

شطب السفير كلمة "العادة السرية" بتنهيدة رضاء، وبذلك انتهت الإشكالية، وتم طبع الكتاب في دار نشر إيبروأمريكانا بمدريد، في طبعة كبيرة ودعاية عادية، كانت مغلفة بالجلد، وعلى ورق ممتاز، وطباعة فاخرة، إلا أنها كانت شهر عسل سريع الزوال، لأنني لم أقاوم الرغبة في إجراء عملية قراءة استطلاعية، فاكتشفت أن الكتاب المكتوب بلهجة الهنود تم ترجمته - كالأفلام المدبلجة- باللهجة المحلية لمدريد.

كنت قد كتبت: "وهكذا كما تعيشون حضراتكم الآن، فإنكم لستم في وضع آمن فقط بل تُشَكِّلون مثالاً سيئاً للشعب"، فكانت كتابة الناشر الإسباني تقول: "هكذا كما تعيشون الآن، ليس فقط أنكم في حالة غير آمنة، بل تُشكِّلون مثالاً سيئاً للشعب". والأكثر خطورة، بما أن قائل تلك الجملة قس، فإن القارئ الكولومبي يمكنه أن يعتقد أن هذه محاباة من المؤلف ليشير إلى أن القس إسباني، مما يُعَقِّد وضعه ويُشَوِّه الهدف الأصلي من الحكاية. لم يتوقف المصحح عند تصحيح الأخطاء النحوية للحوارات، بل سمح لنفسه بالتدخل في الأسلوب أيضاً، وانتهى الكتاب إلى الإصابة بحفر مدريدية ليس لها علاقة بالأصل، ونتيجة لذلك لم يكن أمامي طريق آخر إلا رفض الطبعة باعتبارها مشوهة، وجمع وإحراق النسخ التي لم تباع، فكانت إجابة المسئولين هي الصمت التام.

منذ تلك اللحظة اعتبرت أن الرواية لم تُنشر، وبدأت بالعمل الصعب على ترجمتها إلى لهجتي الكاريبية، لأن الأصل الوحيد كان هو الذي أرسلته إلى المسابقة، وهو نفسه الذي ذهب إلى إسبانيا لنشره، وعندما انتهيت من إعادة النص إلى أصله، وتصحيحه بطريقتي الخاصة، نشرته دار نشر "آرا" بالمكسيك، مع إشارة مطبوعة وواضحة بأن تلك كانت الطبعة الأولى.

لم أعرف أبداً أن رواية "ساعة نحس" كانت الكتاب الوحيد الذي يأخذني إلى زمنه ومكانه في ليلة من قمر مكتمل ونسيم ربيعي. كان يوم سبت، والنجوم تملأ

السماء، وبعد قليل من إعلان الساعة الحادية عشرة، حينما سمعت أمي في غرفة الطعام تهمهم بأغنية "فادو" عاطفية لينام الطفل الذي كانت تسير به بين يديها، سألتها عن مصدر الموسيقى فأجابتني على طريقتها الخاصة:

- من بيوت الأسراب.

أعطتني خمسة من البيزو دون أن أطلبها منها، لأنها رأتني أرتدي ملابسي لأذهب إلى حفل، ونبهتني قبل خروجي بطريقتها أنها ستترك باب الفناء بلا مزلاج حتى يمكنني أن أعود في أية ساعة دون إيقاظ أبي. لم أتمكن من الوصول إلى بيوت الأسراب؛ لأنه كانت هناك بروفة موسيقية في محل نجارة المعلم فالديس، الذي انضم إلى مجموعته لويس إنريكي بمجرد عودته إلى البيت.

انضممت إليهم في تلك السنة لأعزف على الثلاثي، وأغني مع معلميه الستة المجهولين حتى ساعات الفجر. بالنسبة لي كان شقيقي من أفضل عازفي الجيتار، لكن في تلك الليلة عرفت أنه حتى منافسيه الموتورين كانوا يعتبرونه شخصاً طيباً، لم تكن هناك مجموعة أفضل منهم، كانوا على ثقة بأنفسهم إلى درجة أنه عندما كان يتعاقد معهم أحد لإحياء حفل صلح، فإن المعلم بالديس يخفف من روعه مسبقاً:

- لا تنزعج، سنتركهم يعضون الوسائد.

إجازتي بدونه لم تكن إجازات، يشعل الفرح أينما حل، ولويس إنريكي وهو مع فيلاديلفو فيليا يُشكِّلون ثلاثياً محترفاً، في تلك الأيام اكتشفت وفاء الكحول وتعلمت بالمقلوب، أنام نهاراً وأغني ليلاً، أو كما تقول أمي: "طلقت الكلبة".

قيل عني كل شيء، وجرت إشاعة بأن رسائلي لم تكن تأتيني على عنواني في بيت أبويَّ بل في بيوت الأسراب، وتحولت إلى الزبون المخلص لأطباق لحمها وطبخها الهندي، التي تغذي لثلاث ليال متواصلة. لم أعد إلى القراءة ولا إلى الخضوع إلى روتين المائدة العائلية، وهذا كان استجابة لما كانت تقوله أمي عني

بأنني أفعل ما أريد وعلى طريقتي، فيما الشهرة السيئة كان يحملها على ظهره المسكين لوي إنريكي. فهو دون أن يعرف جملة أمي، قال لي في تلك الأيام: "ما ينقص أن يقال الآن إنني أفسدتك ويرسلون بي مرة أخرى إلى الإصلاحية".

قررت في أيام أعياد الميلاد، الهرب من مسابقة العربات. ومع صديقين حميمين هربت إلى قرية "ماخاجوال" القريبة، أعلنت في البيت أنني سأتغيب ثلاثة أيام وبقيت هناك عشرة، المسئولة كانت ماريا أليخاندرينا ثربانتيس، امرأة متحررة عرفتها في الليلة الأولى، وتعلمت معها أن أفقد وعيي في أكبر تسلية في حياتي، إلى يوم الأحد الذي استيقظت ولم أجدها في سريري واختفت إلى الأبد. استعدتها بعد ذلك بسنوات بسبب جمال رنة اسمها، وأعدتها إلى الحياة في إحدى رواياتي كي أتستر على أخرى، وقدمتها كصاحبة وسيدة بيت للذة لم يكن لها أدنى وجود.

أثناء عودتي إلى البيت، وجدت أمي تغلي القهوة في المطبخ في الخامسة صباحاً، قالت لي بالهمس المتواطئ أن أبقى معها؛ لأن أبي استيقظ قبل قليل، وعلى استعداد ليثبت لي أنني لست حراً ولا حتى في الإجازات كما كنت أعتقد. قدمت لي فنجاناً كبيراً من القهوة، رغم أنها كانت تعرف أنني لا أحبها، أجلستني إلى جوار الفرن، دخل أبي بالبيجامة، وعليه بقايا النعاس، وفوجئ عندما رآني بالفنجان المتبخر، لكنه وجَّه إليّ سؤالاً عرضياً:

ألم تقل إنك لا تشرب القهوة؟.

لم أعرف كيف أجيبه، ابتدعت أول ما مر برأسي:

- أشعر بالعطش دائماً في هذه الساعة.

رد:

- مثل كل السكارى.

لم ينظر إليّ بعدها ولم يعد إلى الحديث في هذا الأمر، ولكن أمي أخبرتني أن

أبي مكتئب منذ ذلك اليوم، وبدأ يتعامل معي على أنني حالة ميئوس منها، رغم أنه لم يتركني أشعر بهذا أبداً.

زادت مصروفاتي إلى درجة أنني قررت الاستيلاء على تحويشة أمي، وبراني لويس إنريكي بمنطقه الذي يقول إن الأموال المسروقة من الأبوين، لو استخدمت للذهاب إلى السينما وليس لممارسة الجنس مع العاهرات، تكون شرعية. عانيت من ضيقي من تواطؤ أمي حتى لا ينتبه أبي إلى أنني أسير في طرق سيئة، وكانت لديه الأسباب الكافية أنهم بدءوا يشعرون في البيت، لنومي ساعات طويلة بلا سبب في ساعات الغداء وكان صوتي كصوت الديك المبحوح، وكنت أسير ذاهلاً إلى درجة أني في يوم من الأيام لم أسمع سؤالين من أبي، فوجَّه إليّ أعنف تشخيصاته:

- أنت مريض بالكبد.

رغم كل شيء، استطعت أن أحافظ على المظاهر الاجتماعية، كنت أسير مهندماً ومؤدباً في حلبات الرقص وفي حفلات الغداء في المناسبات التي كانت تقيمها العائلات في الميدان الكبير، والتي تبقى بيوتها مغلقة طوال السنة وتُفتح فقط في أعياد الميلاد عندما أعود من الدراسة.

ذلك العام كان عام كايتانو جنتيلي، الذي احتفل بإجازته بثلاث حفلات رقص رائعة، كانت بالنسبة لي مناسبات محظوظة؛ لأنني رقصت دائماً مع المرأة نفسها، أخرجتها للرقص في الليلة الأولى دون أن أبذل جهداً لأعرف من تكون، ولا بنت من، ولا مع من، اعتقدت أنها هادئة جداً إلى درجة أنني في الرقصة الثانية عرضت عليها بجدية أن تتزوجني فكانت إجابتها أكثر غموضاً:

- يقول أبي إنه لم يولد بعد الأمير الذي سيتزوج مني.

شاهدتها بعدها بأيام تعبر الميدان تحت شمس الثانية عشرة الحارقة، بفستان من الأورجانزا البراق، وتمسك بيديها طفلاً وطفلة في عمر ست أو سبع سنوات،

وقالت لي ميتة من الضحك دون أن أسألها: "إنهم أبنائي"، إلى درجة أنني بدأت أفكر أن عَرْض زواجي منها لم يذهب مع الريح.

تعلمت النوم في السرير المعلق في بيت آراكاتاكا منذ كنت حديث الولادة، ولكن في سوكري فقط اعتبرته جزءاً من طبيعتي. فليس هناك ما هو أفضل منه لنوم القيلولة، وللنوم ساعة النجوم، وللتفكير ببطء، ولممارسة الحب دون إحساس بالذنب، في اليوم الذي عدت فيه من أسبوع الهروب علّقت السرير بين شجرتين في الفناء، كما كان يفعل أبي في أيام خوالي، ونمت هادئ البال، لكن أمي، المسوسة دائماً برعب أن يموت أبناؤها أثناء النوم، أيقظتني آخر النهار لتتأكد أنني لا زلت حياً، ثم تمددت إلى جواري وبدأت في طرح الموضوع الذي كان يعكر عليها حياتها:

– أبوك وأنا نريد أن نعرف ماذا يحدث لك.

لم تكن هناك جملة أكثر حقيقة من تلك، كنت أعرف أن أبويّ يشرك كل منهما الآخر قلقه للتغيرات التي طرأت على شخصيتي، وكانت هي ترتجل أسباباً لتهدئته، لا يمكن أن يحدث شيء في البيت دون أن تعرفه أمي، وغيظها كان معروفاً، ولكن الكأس فاض بعودتي إلى البيت في منتصف النهار طوال أسبوع كامل، وضعي الطبيعي كان تجنب الأسئلة، أو تركها لأوقات أكثر مناسبة، ولكنها كانت تعرف أنه أمر جاد لا يقبل سوى إجابات سريعة.

كل طروحاتها كانت شرعية: أختفي من أول الليل، مرتدياً ملابسي كما لو كنت ذاهباً إلى عرس، ولا أعود للنوم في البيت، ولكن في اليوم التالي أنعس في السرير المعلق حتى ما بعد ساعة الغداء. لم أعد للقراءة، ولأول مرة منذ مولدي تجرأت على المجيء إلى البيت دون أن أعرف أين مكانه، وقالت أمي: "لا تنظر حتى إلى إخوتك، وتخطئ في أسمائهم، وقَبَّلت قبل يومين حفيد كليمنتيا موراليس معتقداً أنه واحد منهم"، لكنها انتبهت فجأة إلى مبالغتها فتراجعت عنها بذكر حقيقة بسيطة:

– نهايته، لقد أصبحت غريباً في البيت.

قلت لها:

– كل هذا حقيقي، ولكن السبب سهل جداً: أنا مختنق بكل هذا.

– منا نحن؟.

كان يمكن لإجابتي أن تكون تأكيداً لسؤالها، ولكن ما كان يمكن أن تكون عادلة، فقلت:

– من كل شيء.

عندها حكيت لها وضعي في الليسيه. يحكمون عليّ بدرجاتي، وأبواي يتفاخران من نتائجي عاماً بعد عام، كانا يعتقدان أنني لست فقط التلميذ النجيب بل الصديق المثالي، والأكثر ذكاء وسرعة، والأكثر شهرة بظرفه، أو، كما كانت تقول جدتي: "الطفل الكامل".

مع ذلك، فإن الحقيقة كانت العكس تماماً. صحيح ظاهرياً، لأنني لا أملك الشجاعة والإحساس بالاستقلالية مثل شقيقي لويس انريكي، الذي يفعل فقط ما يحب، وبلا شك في أنه سيحقق سعادة ليست المأمولة للأبناء، ولكنها تسمح له أن يتغلب على إعزاز الخشونة، والخوف اللامنطقي وآمال الأبوين السعيدين.

عقدت لسان أمي الصورة المقلوبة التي رسموها في أحلامهم، فقالت بعد فترة صمت:

– لا أعرف ما الذي يمكننا فعله؛ لأننا لو قلنا كل هذا لأبيك سيموت بالسكتة، ألم تنتبه إلى أنك فخر العائلة؟.

بالنسبة لهم الأمر بسيط: إذا لم تكن هناك إمكانية أبداً في أن أكون الطبيب الذي حلم به أبي فإن هذا لن يعود إلى نقص الموارد المادية، فقد حلما على الأقل أن أكون المهني في أية وظيفة. أنهيت حديثي:

– لن أكون أي شيء في أي شيء، أرفض أن تجبروني أن أكون ما لا أريد أو تريدان لي أن أكون، وأرفض أن أكون ما تريده الحكومة.

استمر الصراع لباقي أيام الأسبوع، وأعتقد أن أمي كانت تريد أن تكسب

وقتاً للتحاور مع أبي، وهذه الفكرة منحتني بعض الراحة، وفي يوم من الأيام ألقت بعرض مدهش بدا كما لو كان مصادفة:

- يقولون لو أنك أردت يمكن أن تكون كاتباً جيداً.

لم أسمع أبداً كلاماً مشابهاً في أسرتي، فقد كنت معروفاً منذ طفولتي أنني أريد أن أكون رساماً أو موسيقياً أو مغنياً في كورال الكنيسة، أو حتى شاعراً في أيام الآحاد، فقد اكتشفت توجهاً معروفاً للجميع عن الكتابة المائلة وغيرها، ولكن ردة فعلي هذه المرة كانت مفاجأة، فأجبت على أمي:

- إذا كان عليَّ أن أكون كاتباً يجب أن أكون من الكبار، لأن للموت جوعاً هناك مهن أخرى أفضل.

في إحدى الأمسيات، بدلاً من أن تتحاور معي، بكت في صمت، هذا البكاء اليوم كان يمكن أن يصيبني بالذعر؛ لأن بكاءها بلا دموع، كان الحل الوحيد الذي تستخدمه النساء العظيمات للوصول إلى ما تريد، ولكن بسنواتي الثماني عشرة لم أعرف ما أقوله لأمي، أجهض صمتي دموعها، قالت:

- حسناً جداً، عدني بأن تكمل البكالوريا على الأقل بأفضل مما تستطيع، وأنا أتولى إصلاح الأمور الأخرى مع أبيك.

شعر كلانا بالراحة نفسها وأن كلاً منا فاز بطريقته، تماماً بالنسبة لها أو بالنسبة لأبي، لأنني كنت أخاف أن يموتا إذا لم نصل مبكراً إلى اتفاق، وهكذا عثرنا على الحل السهل أن أدرس القانون والعلوم السياسية، لأنها لم تكن تصلح فقط كقاعدة انطلاق ثقافية لأية مهنة، بل لأنها أيضاً دراسة إنسانية تصلح لأن أدرسها صباحاً، والمساء لممارسة العمل الحر. ومنزعجاً بالحمل العاطفي الذي تلقته أمي في تلك الأيام، طلبت منها أن تعدّ لي المناخ لكي أتحدث مع أبي وجهاً لوجه، فأكدت أننا سننتهي إلى القضاء، وقالت لي:

- ليس هناك رجلان متشابهان مثلك أنت وأبوك، وهذا هو أسوأ شيء للحوار.

اعتقدت دائماً عكس ذلك، وفقط الآن، بعد أن مررت بكل الأعمار مثل أبي الذي عاش حياة طويلة، بدأت أرى نفسي في المرآة أكثر شبهاً به، منه بي.

ربما تكون أمي في تلك الليلة شعرت أنها صاغت جوهرتها الحقيقية، لأن أبي جمع في تلك الليلة جميع العائلة على المائدة، وأعلن بشكل بدا عرضياً: "سيكون معنا في البيت محام"، وربما خائفة من أن يفتح أبي الحوار مع العائلة بالكامل، تدخلت أمي بأفضل علامات البراءة، وردت عليه:

– في حالتنا هذه وبهذا العدد من الأبناء، فكرنا أن أفضل حل هو أن تدرس دراسة تمكنك من الصرف على نفسك.

لكن الأمور لم تكن بالبساطة التي كانت تقولها، بالنسبة لنا كان يمكن أن تكون أقل الأمور سوءاً، ومشاكلها يمكن أن تكون الأقل دموية، ولذلك طلبت رأي أبي، لأتواصل معه في اللعبة، فكانت إجابته مباشرة وبجدية مذهلة:

– ماذا تريدني أن أقول لك؟، إنك تحطم قلبي، ولكن يبقى لي على الأقل الفخر في مساعدتك أن تكون ما تحب.

ثم كانت قمة الترف في يناير 1946، عندما سافرت في أول رحلة لي بالطائرة، بفضل خوسيه بالنسيا، الذي ظهر من جديد بمشكلة كبرى، درس خمس سنوات من البكالوريا في كارتاخينا ولكنه رسب في السنة السادسة، ووعدته أن أحصل له على مكان في الليسيه ليحصل على شهادته، ودعاني هو إلى السفر بالطائرة.

كانت الرحلة إلى بوجوتا مرتين أسبوعياً في طائرات من طراز «دي. سي. 3» لشركة "لانسا"، وأكثر أخطارها لم تكن الطائرة بل الأبقار الطليقة على ممر الصعود والهبوط المرتجل. كان على الطائرة أحياناً أن تدور عدة دورات حتى يبعدوا الأبقار عن الممر. لقد كانت الرحلة تجربة لبداية خوفي الشهير من الطائرة، في فترة كانت الكنيسة تحرم حمل القرابين المقدسة لحمايتها من الكوارث. يتم

قطع الرحلة في حوالي أربع ساعات، دون توقف، بسرعة ثلاثمائة كيلومتر في الساعة. ومن قطعنا المسافة في رحلة نهرية مدهشة، كنا نسترشد في السماء بالخريطة الحية لنهر ماجدالينا الكبير، نتعرف على القرى المصغرة، وقوارب الحبال، وتلك العرائس الصغيرة سعيدة تشير إلينا بعلامات التحية من أفنية المدارس. تقضي المضيفات الوقت في تهدئة المسافرين الذين يقطعون وقت السفر في الصلاة، وتسعفن المصابين بالدوار، وإقناع الكثيرين أنه لا خطر هناك من اصطدام الطائرة بأسراب الطيور الخائفة من النهر. المسافرون الأكثر خبرة يقصون تجاربهم السابقة كنوع من إبداء الشجاعة وتجارب الرحلات التاريخية. عندما صعدت الطائرة جبال بوجوتا دون أقنعة أكسيجين شعرت أن قنابل تدق في قلبي، وهزات الأجنحة تزيد من السعادة بقرب لحظة الهبوط، لكن المفاجأة الكبرى كانت وصولنا قبل تلغرافنا الذي أرسلناه قبيل السفر.

خلال مرورنا ببوجوتا، اشترى خوسيه بالنسيا آلات موسيقية لفرقة كاملة، ولا أعرف إن كان فعل ذلك بعد تفكير أم كنوع من الدعاية، ولكن ما إن شاهده المدير اسبيتيا يخطو خطوات واثقة محملاً بالجيتارات والطبول وآلات الهارموني، عرفت أنه مقبول. وأنا أيضاً، من ناحيتي، شعرت بمكانتي الجديدة منذ أن عبرت الإيوان: كنت طالباً بالصف السادس. إلى هذه اللحظة لم أكن أعي أنني أحمل على جبهتي نجمة كالتي كان يحلم بها الجميع، وأن هذا كان يمكن الشعور به من خلال طريقة الاقتراب منا، وحتى طريقة حديثه معنا كان فيها شيء من الرهبة، إضافة إلى أنها كانت سنة من الاحتفالات، وبما أن غرفة النوم كانت لذوي المنح فقط، فقد أقام خوسيه بالنسيا في أفضل فندق قريب من الميدان، كانت إحدى صاحباته تعزف البيانو، وتحولت حياتنا إلى يوم أحد لعام كامل.

كانت قفزة جديدة في حياتي، كانت أمي تشتري لي ملابس قابلة للتغير طوال فترة مراهقتي، وعندما لا تصلح لي كانت تعدلها لتصلح لأشقائي الصغار، ولكن

أكثر السنوات صعوبة كانت السنتان الأوليان، لأن ملابس القطيفة التي تصلح للمناخ البارد كانت غالية الثمن وصعبة، وعلى الرغم من أن جسدي لم يكن ينمو كما كان في السابق، فلم يكن ممكناً تفصيل الملابس لتصلح لقامتين في عام واحد، ولسوء الحظ فإن تغيير الملابس بين سكان الداخلية لم تكن قد بدأت موضتها بعد، لأن الكل يعرف ملابس الكل، ومرتدو الملابس الجدد لم يكونوا يسلموا من سخرية الآخرين، وتم حل هذه المشكلة جزئياً عندما فرض إسبيتيا على الجميع ملابس موحدة من قميص أزرق وبنطلون رمادي، فوحد المظهر وأخفى المبادلات.

خلال الصفين الثالث والرابع كانت تصلح فيها البدلة نفسها التي أصلحتها عند ترزي سوكري، ولكني اشتريت بدلة للصف الخامس حافظت عليها جيداً لتصلح للصف السادس، إلا أن أبي تحمس جداً لموافقتي على عرضه فأعطاني نقوداً لشراء بدلة تفصيل جديدة، وأهداني خوسيه بالنسيا بدلة في العام السابق كانت بالكامل من وبر الجمل ولم يكن استخدمها كثيراً. وسرعان ما اكتشفت إلى أي حد أن الملابس لا تصنع الشخصية، بالبدلة الجديدة، بتغييرها مع الملابس الرسمية للمدرسة، استطعت أن أحضر حفلات الرقص التي يفرض فيها أبناء الشاطئ الكاريبي ملكوتهم، فلم أفلح سوى في الحصول على فتاة واحدة لم تستمر معي طويلاً.

استقبلني إسبيتيا بحماس غريب، الدرسان الوحيدان لمادة الكيمياء كانا يبدوان كما لو خُصصا لي وحدي: كان يوجه إليَّ أسئلة سريعة ويطلب إجابات سريعة. هذا الاهتمام كان نقطة بداية للانطلاق وتنفيذ وعدي لأبويَّ بإنهاء الدراسة بشكل جيد، أما المواد الأخرى فقد كانت طبقاً للمنهج الوحيد والبسيط لمارتينا فونسيكا: الانتباه في الدرس وتقليل السهر لاتقاء رعب الامتحان. منذ قررت تطبيق هذا المنهج لم أعد أشعر بالهم، كنت أجيب على أسئلة المعلمين

بسهولة، فأصبحوا أكثر قرباً مني، وانتبهت إلى أنه من السهل جداً تنفيذ الوعد الذي قطعته على نفسي أمام أبويَّ.

ظلت مشكلتي الوحيدة المقلقة هي الكوابيس. وكان مشرف التلاميذ، والمحافظ على النظام وقتها - الأستاذ جونثالو - كان يتمتع بعلاقات طيبة معهم. وفي ليلة من النصف الثاني من العام دخل إلى غرفة النوم على أطراف أصابعه ليطلب مني مفاتيحه التي نسيت إعادتها له، ما إن وضع يده على كتفي حتى انطلقت في صرخات متوحشة أيقظت الجميع، فنقلوني في اليوم التالي إلى غرفة من ستة أسرَّة تم إعدادها على عجل في الطابق الثاني.

كانت حلاً لمخاوفي الليلية، ولكنه حل مثير للمغامرة، فقد كانت الغرفة فوق مخزن الأطعمة تماماً، فقام أربعة من التلاميذ بالهبوط إلى المطبخ وقاموا بالاستيلاء على ما فيه لإعداد عشاء بعد منتصف الليل. العفيف سيرخيو كاسترو، وأنا الأقل مغامرة منهم جميعاً بقيناً في أَسِرَّتنا لنقوم بعملية التفاوض في حالة الطوارئ، عادوا بعد حوالي ساعة بنصف خزين المطبخ لتقديمه على المائدة، فكانت أكبر وليمة في تاريخ بالداخلية، بالطبع مع عُسر هضم اكتشافنا بعد أربع وعشرين ساعة. فكرت أن كل شيء قد انتهى إلا أن حُسن تفاوض اسبيتيا أنقذنا من الطرد.

كانت فترة طيبة في الليسيه والأقل وضوحاً في مستقبل البلاد، فحياد الرئيس بيراس، غير المقصود، زاد من حدة التوتر الذي انتقل إلى المدرسة لأول مرة، إلا أنني، انتبهت اليوم أن التوتر كان داخلي من قبل، وأنه حينها فقط بدأت أعرف الوطن الذي أعيش فيه، بعض المعلمين الذين حاولوا البقاء على الهامش منذ العام السابق لم يتمكنوا من إبعاد التوتر عن الدروس، فكانوا يعلنون وجهات نظر صعبة الهضم عن توجهاتهم السياسية، وبشكل خاص منذ أن بدأت الحملة الرئاسية الصعبة.

كل يوم كان واضحاً أنه مع جايتان وتورباي في وقت واحد، فإن الحزب الليبرالي سيخسر رئاسة الجمهورية بعد خمس وعشرين سنة من السلطة المطلقة.

كانا مرشحين متناقضين جداً كما لو كانا من حزبين مختلفين، ليس بسبب أخطائهما الشخصية، بل بسبب حزم المحافظين الدموي الذي بدا واضحاً من أول يوم: فبدلاً من لاوريانو جومث، فُرض كمرشح مفضل أوسبينا بيريث، المهندس المليونير صاحب الشهرة العريضة كزعيم أبوي. الليبراليون ممزقون والمحافظون متحدون ومسلحون.. لم يكن هناك من طريق آخر: تم انتخاب أوسبينا بيريث.

منذ تلك اللحظة استعد لاوريانو جوميث ليحل محله باستخدام القوة الرسمية والعنف في كل الخطوط. لقد عادت الواقعية التاريخية للقرن التاسع عشر من جديد، لم نعش في سلام بل في أوقات هدنة زائلة بين ثماني حروب أهلية عامة وأربع عشرة محلية وثلاثة انقلابات عسكرية، وأخيراً حرب الألف يوم، التي خلَّفت ثمانين ألف قتيل من الجانبين في شعب تعداده أربعة ملايين بالكاد. ببساطة: كان برنامجاً عاماً للعودة إلى الخلف مائة عام.

الأستاذ خيرالدو، مع نهاية العام الدراسي، استثناني بشكل جعلني أشعر بالخجل. أعد لي مجموعة من الأسئلة المبسطة كملحق لمادة الجبر التي رسبت فيها قبل أربع سنوات، وتركني وحدي في مكتب المعلمين مع كل الشراك الخداعية في متناول يدي، عاد بعد ساعة وكله أمل، شاهد النتيجة الكارثية وشطب كل صفحة بعلامة صليب من أعلى إلى أسفل وعنَّفني بقوله: "هذا المخ متعفن"، إلا أنه في النتائج النهائية ظهرت مادة الجبر ناجحة، لكنني لم أقدم شكري للأستاذ الذي خالف قناعاته وواجباته من أجلي.

قبيل الامتحانات النهائية لتلك السنة، حدث لجييرمو لوبث جيرا وأنا، حدث سيء مع الأستاذ جونثالو أوكامبو خلال خناقة سكارى، دعانا خوسيه بالنسيا للدراسة في غرفته بالفندق، الذي كان جوهرة كولونيالية بمشهد رائع يطل على الحديقة العامة المزهرة والكاتدرائية كخلفية، وبما أنه لم يبق لنا سوى امتحان واحد، فقد واصلنا الليلة وعدنا إلى المدرسة عبر طريق كانتين الهنود الفقراء.

وكان الأستاذ أوكامبو مسئولاً عن النظام في تلك الليلة، عنَّفنا بسبب الساعة المتأخرة وحالتنا السيئة التي عدنا بها، فرددنا عليه نحن الاثنين معا. أيقظ رد فعله الغاضب وصرخاتنا - النائمين.

قرار لجنة الأساتذة كان أن لويث جيرا وأنا، لا يمكننا حضور الامتحان الوحيد الباقي. أي: أننا لن نحصل على البكالوريا في تلك السنة، لم نتمكن أبداً من معرفة المناقشات السرية التي دارت بين المعلمين، لأنهم تضامنوا بشكل لا يمكن اختراقه، ويبدو أن المدير قرر أن يتولى المشكلة بنفسه متحملاً نتيجة المخاطرة، وحصل لنا على تصريح بحضور الامتحان بوزارة التربية في بوجوتا، وهذا ما حدث، فقد رافقنا إسبيتيا بنفسه، وظل معنا أثناء إجابتنا على الأسئلة المكتوبة، والتي تم تصحيحها في المكان نفسه، وكانت النتيجة طيبة.

أعتقد أنها كانت حالة داخلية معقدة جداً؛ لأن أوكامبو لم يحضر الحفل النهائي، ربما بسبب الحل السهل الذي اتخذه المدير والنتائج الممتازة التي حصلنا عليها، وأخيراً بسبب نتائجي الشخصية، فقد حصلت على جائزة عبارة عن كتاب لا يُنسى: "حياة الفلاسفة المشهورين"، لمؤلف ديجونيس لاوريس، لم تكن أكثر مما انتظره مني أبواي؛ بل إضافة إلى هذا كنت أول دفعتي في تلك السنة، رغم أن زملاء الفصل -أنا أولهم - كنا نعرف أنني لم أكن الأفضل.

(5)

لم أتخيل مطلقاً أنه بعد حصولي على درجة البكالوريا بتسعة أشهر ستُنشر قصتي الأولى في الملحق الأدبي "نهاية الأسبوع" بجريدة "الاسبيكتادور" الصادرة في بوجوتا، أفضل وأكثر الصحف جدية في تلك الفترة، وبعدها باثنين وأربعين يوماً نُشرت القصة الثانية، إلا أن الأكثر إثارة للدهشة بالنسبة لي كانت الكلمة التي كتبها نائب رئيس تحرير الصحيفة ورئيس تحرير الملحق الأدبي، "ادواردو ثالاميا بوردا"، الذي كان يوقع باسم "أوليسيس"، الناقد الأدبي الأشهر في كولومبيا في ذلك الوقت والباحث دائماً عن المواهب الجديدة.

كانت حالة غير متوقعة وليس من السهل حكيها، كنت مسجلاً في بداية تلك السنة بكلية الحقوق بالجامعة الوطنية في بوجوتا، حسب اتفاقي مع أبويّ. كنت أعيش في وسط المدينة، في بنسيون بشارع فوريان، يشغل معظمه طلاب من الشاطئ الأطلنطي. خلال الأمسيات بدلاً من العمل كنت أقضي الوقت في القراءة بغرفتي أو في المقاهي التي تسمح بذلك. كانت الكتب مختارة بالصدفة، ومرتبطة بحسن حظي مع الصدفة، فأصدقائي الذين لديهم القدرة على شرائها كانوا يعيرونني إياها لأوقات ضيقة جداً فكنت أقضي الليالي ساهراً حتى أعيدها في موعدها، ولكن على عكس الكتب التي قرأتها في الليسيه التي كانت تستحق أن تبقى في مقابر المؤلفين الشهيرين، فقد كنت أقرأها كالخبز الساخن، حديثة الترجمة والنشر في بوينوس أيريس بعدَ فترة السكون الطويلة التي صاحبت الحرب الأوروبية. ولحسن حظي اكتشفت آخرين، إضافة إلى الذين اكتشفتهم من قبل، مثل: خورخي لويس بورخيس ودى. اتش. لورنس وألدوس هيكسلي وجراهام جرين وتشيسترتون، ووليام أيريش وكاترين مانسفيلد وآخرين.

كانت هذه الكتب الجديدة معروفة في معارض الكتب البعيدة عن متناول اليد، ولكن بعض نسخها كانت متداولة في مقاهي الطلاب، التي كانت مراكز نشطة في نشر الثقافة بين الطلاب الجامعيين بالإقليم، وكثير منهم كان له مكانه المحجوز سنة بعد أخرى، وهناك يستقبلون البريد وحتى التحويلات البريدية، بعض خدمات أصحاب وباعة الكتب الموثوق فيهم كانت حاسمة في إنقاذ شهادة العديد من الدارسين الجامعيين، والكثير من مهني البلاد يدينون لهم أكثر من ديونهم لأولئك المجهولين.

أنا فضَّلت "المولينو"، مقهى الشعراء الكبار، وعلى بعد مائتي متر فقط من البنسيون وعلى الناصية المهمة بين طريق "خيمينيث دي كيسادا" مع الطريق السابع، لا يسمحون بوجود طلاب على مائدة محددة، ولكنني كنت واثقاً من التعلُّم أكثر خلال المناقشات الأدبية التي كنا نستمع إليها من الموائد القريبة أكثر من الكتب الدراسية. كان المقهى عبارة عن بيت ضخم مُزيَّن برسوم الفنان "سانتياجو مارتينيث ديلجادو"، وبصور من فصول من معارك "دون كيخوتي" ضد طواحين الهواء. ورغم عدم وجود مكان محجوز لي، فقد كان الجرسونات يضعونني في المكان الأقرب من الأستاذ الكبير "ليون دي جريف" - ملتح خفيض الكلام ولطيف- يبدأ حلقة نقاشه عند حلول المساء مع بعض الكُتَّاب المشهورين في تلك اللحظة، وينتهي عند منتصف الليل مختنقاً بالكحول الرديء مع تلاميذه الذين يعلمهم لعبة الشطرنج. قليل من رجال الأدب والفن الكبار في البلاد من لم يمروا بتلك الطاولة، ونحن كنا نصمت كالموتى في طاولتنا حتى لا نُضَيِّع كلمة واحدة من كلماته. وإن كانوا يتحدثون أكثر عن النساء أو الحكايات السياسية عن كلامهم حول فنونهم، ولكن دائماً ما يقولون شيئاً جديداً يستحق أن نتعلمه. أكثر المهتمين كنا نحن أبناء الشاطئ الأطلنطي، لم نكن متحدين للتآمر على الكاريبيين أكثر من اتحادنا في إدمان الكتب. علَّمني "خورخي ألفارو اسبينوسا" طالب الحقوق -

الإبحار في الإنجيل، وعلّمني أن أحفظ في ذاكرتي الأسماء الكاملة لمحاوري "يعقوب"، في يومٍ ما وضع أمامي على الطاولة مجلداً ضخماً وحكم بقوة رأيه كقس:

- هذا إنجيل آخر.

نعم لقد كان "عوليس" لـ"جيمس جويس"، قرأته على قِطَع وبكثير من الصعوبة إلى أن توقفت ذاكرتي عن تقبل أكثر من ذلك. لقد كانت قراءة متعجلة، فبعدها بسنوات، وأنا ناضج متقبل، عدت لقراءته بجدية ولم يكن فقط اكتشافاً لعالم خاص لم أنتبه إليه داخلي، بل أيضاً مساعدة تقنية لا تقدر بثمن لحرية اللغة، والتعامل مع الزمن، وبناء كتبي.

كان "دومينجو مانويل بيجا" أحد زملائي في الصف الرابع، يدرس الطب، وكان صديقاً لي في "سوكري"، يشاركني إدمان القراءة، والآخر كان ابن عمي "نيكولاس ريكاردو"، الابن الأكبر للعم "خوان دي ديوس"، الذي كان يحافظ على فضائل العائلة حية. وصل "بيجا" في إحدى الليالي بثلاثة كتب اشتراها حديثاً، أعارني أحدها بالصدفة كما كان يفعل دائماً ليساعدني على النوم، ولكنه نجح هذه المرة في التوصل إلى عكس ما كان يرمي إليه: فلم أعد أنام بعدها أبداً بنفس اللذة، كان كتاب "ميتامورفيس" لـ"فرانز كافكا"، في ترجمتها المنتحلة لـ"خورخي لويس بورخيس" المنشورة في دار نشر" لوسادا" في "بوينوس أيريس"، التي فتحت أمامي طريقاً جديداً في الحياة من أول سطر، واليوم تعتبر واحدة من العملات الأدبية العالمية الكبرى: عندما استيقظ "جريجوريو سامسا" في صباح يوم من الأيام، بعد حلم قلق، وجد أن سريره تحول إلى حيوان خرافي. كانت كتب مليئة بالأسرار، لم تكن حوافها مختلفة بل كانت في كثير من الأحيان عكس كل الكتب التي عرفتها حتى تلك اللحظة، لم يكن مهماً تقديم الدليل: يكفي أن يكون الكاتب قد كتبها لتكون حقيقة، دون أية أدلة غير سلطة الموهبة وقوة صوت

الكاتب، كانت "شهرزاد" جديدة، ولكن ليس في العالم القديم والذي كان فيه كل شيء ممكناً، بل في عالم آخر لا يمكن استعادته؛ لأن كل شيء فيه قد ضاع.

عندما أنهيت كتاب "كافكا"، بقيت لهفتي التي لا تُقاوم، لكي أعيش في تلك الجنة البعيدة. فاليوم الجديد فاجأني في الآلة المسافرة التي أعارني إياها "دومينجو مانويل بيجا" نفسه، لكي أحاول شيئاً يشبه الموظف المسكين "كافكا" متحولاً إلى خنفس ضخم. لم أذهب إلى الجامعة خلال الأيام التالية خوفاً من فقدان السحر، وظللت أنشع قطرات من الحقد حتى نشر "ادواردو ثالاميا بوردا" في صفحاته مقالة قاتمة، يأسف فيها لأن الجيل الجديد من الكُتَّاب الكولومبيين يفتقدون إلى أسماء تبقى في الذاكرة، وليس هناك ما يدل على أنه في القريب سيكون هناك من يمكنه تكذيبه، لا أعرف بأي حق شعرت أنني مدعو باسم الجيل الجديد لمواجهة تحدي ذلك المقال، فعدت إلى القصة المهجورة لمحاولة تكذيب الهجوم، وضعت فكرة موضوعية عن الجثة الواعية في رواية "كافكا"، ولكني خففت أسرارها الأليفة وأحكامها الحيوانية.

على أي حال كنت أشعر بعدم الأمان لدرجة أنني لم أتجرأ على عرضها على أي من زملاء الطاولة، ولا حتى "جونثالو ماريينو"، زميلي بكلية الحقوق، والذي كان القارئ الوحيد لنثري الغنائي الذي كنت أكتبه خلال الدروس. أعدت قراءة القصة وتصحيحها لحد التعب، وأخيراً كتبت كلمة شخصية لـ"إدواردو ثالاميا" – الذي لم أره من قبل– والتي لم أعد أذكر منها حرفاً واحداً، ووضعت كل هذا في مغلف وسلمته بنفسي في مكتب استقبال صحيفة "الاسبكتادور"– سمح لي البواب بالصعود إلى الطابق الثاني حتى أسلمه في مكتب "ثالاميا" نفسه، ولكن مجرد الفكرة نفسها أصابتني بالشلل. فتركت المغلف على طاولة البواب وهربت.

كان ذلك في يوم ثلاثاء ولم يقلقني أي شيء عن مصير قصتي، لكني كنت واثقاً أنه في حالة نشرها، فإن هذا لن يكون قبل مضي بعض الوقت، وخلال تلك

الفترة تجولت بين المقاهي من مقهى إلى آخر، خلال أسابيع لأتغلب على إحساسي بالقلق كل مساء سبت، حتى 13سبتمبر، عندما دخلت مقهى "المولينو"، وعثرت على عنوان قصتي بعرض صحيفة "الاسبكتادور" التي خرجت من المطابع قبل قليل: "الخضوع الثالث".

أول رد فعل لي تأكدي المدمر بأنني لم أكن أملك الخمسة سنتيمات لشراء الصحيفة، وهذه كانت أكثر الرموز وضوحاً على الفقر؛ لأن الكثير من الأشياء الأساسية في الحياة، إضافة إلى الصحيفة، كانت تساوي خمسة سنتيمات: الترام، والتليفون العام، وفنجان القهوة، وتلميع الحذاء. انطلقت إلى الشارع بلا شيء يحميني من الأمطار الخفيفة التي لا تتوقف، لكني لم أجد في المقاهي القريبة أحداً من معارفي يمكنه التصدق عليّ بتلك القطعة المعدنية. ولا في البنسيون في تلك الساعة الميتة من يوم السبت، عدا صاحبته، التي كانت تعني لا أحد، لأنني كنت مديناً لها بسبعمائة وعشرين قطعة من فئة الخمسة سنتيمات حساب شهرين من أجرة السرير والخدمات، عندها عدت إلى الشارع على استعداد لعمل أي شيء، وجدت رجلاً أرسلته العناية الإلهية كان يهبط من التاكسي وفي يده "الاسبكتادور" فطلبت منه أن يهديني إياها.

وهكذا استطعت أن اقرأ قصتي الأولى مطبوعة بحروف المطبعة وبرسوم لـ"هيرنان ميرينو"، الرسام الرسمي للصحيفة، قرأتها مختبأ في غرفتي، وبقلب يدق بعنف وفي نفس واحد، كنت أكتشف في كل سطر سلطة الحرف المطبوع المدمرة، فما بنيته بكل الحب والألم كسخرية قانطة لعبقري عالمي، اكتشفت أنه عبارة عن مونولوج معقد وهش، يعتمد على ثلاث أو أربع جمل مسلية. انتظرت عشرين عاماً بعد ذلك لأتجرأ على قراءتها للمرة الثانية، ففي رأيي حينها- الذي لا يكاد يكون معتدلاً تحت سيطرة الحماس- أنها كانت غير مرضية.

الأصعب من كل هذا كان طوفان الأصدقاء المتحمسين الذين هجموا على غرفتي بنسخ الصحيفة والثناء على قصة من المؤكد أنهم لم يفهموها. من بين زملاء الجامعة، بعضهم قرأها والبعض الآخر فهمها أقل، وبعضهم الآخر لم يتخط السطر الرابع، لكن "جونثالو ميارينو"، الذي لم يكن من السهل عليّ الشك في أحكامه الأدبية، وافق عليها دون أدنى تردد.

كان ميلي الأكبر في بحثي عن رأي "خورخي ألفارو إسبينوسا"، الذي كان مشرطه النقدي أكثر تخويفاً؛ لأنه بعيد عن حلقتنا، فقد كنت أشعر بأحاسيس متناقضة: كنت أريد أن أراه على الفور لمعرفة رأيه، في الوقت نفسه كانت ترعبني مجرد فكرة مواجهته. اختفى حتى الثلاثاء، وهو ما لم يكن غريباً في قارئ لا يرتوي، وعندما ظهر في "المولينو" لم يبدأ حديثه معي بالكلام عن القصة بل عن جرأتي، قال لي وهو ينظر في عيني بعينيه اللتين تشبهان عيني كوبرا خضراء:

– من المؤكد أنك تعرف المأزق الذي وضعت نفسك فيه، فأنت الآن في المعرض إلى جوار أسماء الكُتّاب المعترف بهم، وعليك أن تبذل الكثير لتستحق هذه المكانة.

تحجرت أمام الرأي الوحيد الذي كان يمكنه أن يؤثر فيّ بعد رأي "أوليسيس"، ولكنه قبل أن ينهي كلامه كنت قررت أن أسبقه بما كنت اعتبره ولا أزال كحقيقة:

– تلك القصة رديئة.

رد عليّ هو بتحكم كامل أنه لا يستطيع أن يقول رأياً نهائياً لأنه قرأها بسرعة، ولكنه شرح لي أنه حتى لو كانت القصة سيئة جداً كما قلت، فإنه لا يمكنها أن تكون سيئة إلى حد التضحية بالفرصة الذهبية التي تقدمها لي الحياة، وأنهى كلامه بقوله:

– على أي حال، فإن هذه القصة تعود إلى الماضي، والمهم الآن هي القصة القادمة.

تركني في حالة يرثى لها، فقد وقعت فريسة البحث عن أسباب مخالفة، إلى

درجة إقناع نفسي بأنني لن أسمع نصيحة أكثر ذكاء من نصيحته، وتمسكت بفكرته الثابتة بأنه يجب أولاً البحث عن موضوع القصة وبعدها يأتي الأسلوب، ولكن كلاً منهما يعتمد على الآخر اعتماداً متبادلاً وهو ما كان العصا السحرية للكلاسيكيين. توقفت قليلاً عند رأيه المكرر عدة مرات بأنه تنقصني القراءة العميقة للإغريقيين وبشكل خاص "هوميروس"، الوحيد الذي قرأته كواجب مدرسي خلال دراستي للبكالوريا. وعدته بذلك، وكنت أريد أن أسمع أسماء أخرى، لكنه غيَّر الموضوع بموضوع "حافظات النقود المزيفة" لـ"اندريه جيد"، التي قرأها خلال نهاية الأسبوع، لم أتشجع أبداً لأقول له إنه ربما فتح لي حديثه آفاقاً جديدة. قضيت الليلة ساهراً أكتب معلومات عن قصة تالية بعيداً عن تأثير الأولى.

كانت لديّ شكوك بأن من حدثوني عنها لم يكونوا متأثرين بالقصة، ربما لم يقرأوها، ومن المؤكد أنهم لم يفهموها، ولكن لأنها نُشرت بشكل واسع في صحيفة مهمة- بداية، انتبهت إلى أن أهم سلبياتي: التعثر في الكتابة، وجهلي بالإحساس البشري، وبرز هذا واضحاً في قصتي الأولى، التي كانت عبارة عن تأمل تجريدي مشوش، مثقل بالكثير من المشاعر المصطنعة.

عندما كنت أبحث في الحياة عن موضوع للقصة التالية، تذكرت أن إحدى النساء الأكثر جمالاً اللاتي عرفتهن عندما كنت طفلاً قالت لي إنها تريد أن تسكن جسد قط غريب الجمال كانت تداعبه، فسألتها عن السبب، فأجابتني: "لأنه أكثر جمالاً مني"، عندها وجدت نقطة البداية للقصة الثانية، وعنواناً جذاباً: "حواء في قط"، أما باقي القصة فقد ابتدعته من لا شيء، ولهذا السبب- كما كنا نقول وقتها- كلاهما كان يحمل داخله جرثومة دماره الخاص.

تم نشر هذه القصة بالاهتمام نفسه للأولى، يوم السبت 25من أكتوبر 1947؟ ومزينة برسوم النجم الصاعد في سماء الفن الكاريبي: الفنان "إنريكي جراو"، ولفت انتباهي أن أصدقائي تلقوا القصة بشيء من الاعتياد كما لو كانت

لكاتب معروف، عانيت من الأخطاء، وتشككت في الآراء الصحيحة، ولكني استطعت أن أحافظ على روحي منتبهة، ثم جاءت الضربة الكبرى بعدها بأيام قليلة، من خلال كلمة نشرها "إدواردو ثالاميا"، باسمه المستعار "أوليسيس"، في ركنه اليومي بصحيفة "الاسبكتادور"، فقد ذهب مباشرة إلى القول: "قراء نهاية الأسبوع للملحق الأدبي لهذه الصحيفة انتبهوا إلى ظهور عبقري جديد، أصيل، له شخصية شديدة البريق"، وبعد ذلك: "في الخيال يمكن أن يحدث أي شيء، ولكن القدرة على تقديم اللؤلؤة بشكل طبيعي وببساطة وبلا لف أو دوران، ليس شيئاً يستطيع أن يقوم به كل الشباب في عمر العشرين الذين يبدأون علاقتهم بالأدب"، وينتهي: "مع جارثيا ماركيز يولد كاتب بارز جديد".

الكلمة- ولم لا- أصابتني بالسعادة، لكن في الوقت نفسه أدهشني أن "ثالاميا" لم يترك لنفسه مجالاً للتراجع، فقد تم كل شيء، وكان عليّ أن أفسر كرمه كنداء لوعيي، طوال بقية حياتي، وكشفت الكلمة أيضاً أن "أوليسيس" اكتشف شخصيتي من خلال أحد زملائه في التحرير، "جونثالو جونثالث"، ابن عم قريب لأبناء عمومتي الأقرباء، كتب طوال خمسة عشر عاماً ركناً يجيب فيه على أسئلة القراء باسم "جوج"، وكان يجلس على بعد خمسة أمتار من "ادواردو ثالاميا"، لحسن الحظ أنه لم يحاول التعرف عليّ ولا أنا بحثت عنه، شاهدته مرة جالساً إلى طاولة الشاعر "دي جريف" وتعرفت على صوته الجاف من أثر التدخين، وشاهدته من قريب في عدة أنشطة ثقافية، لكن أحداً لم يقدم أي منا إلى الآخر، بعضهم كان يعتقد أننا نعرف بعضنا، وآخرون كانوا يعتقدون أننا من المستحيل ألا نعرف بعضنا.

من الصعب تخيل إلى أي حد يمكن الحياة في ظلال الشعر، لقد كان حماساً لا يتوقف، طريقة أخرى في الحياة، لقد كانت شعلة من الحماس تسير بحرية في كل اتجاه. كنا نفتح الصحيفة، على القسم الاقتصادي أو على صفحة الحوادث،

أو نقرأ كرسي المقهى في عمق فنجان القهوة، فيكون هناك الشعر في انتظارنا ليحمل أحلامنا، أي أن الشعر كان نحن، أي أنه بالنسبة لنا نحن أبناء البلاد الأصليين القادمين من جميع المقاطعات، فإن كانت "بوجوتا" عاصمة الوطن ومقر الحكومة، إلا أنها كانت المدينة التي يعيش فيها الشعراء.. لم نكن نؤمن بالشعر فقط، ولم نكن نموت من أجله، بل كنا نعرف بتأكيد مطلق- كيف كتبه "لويس كاردوثا" و"أراجون"- "فالشعر هو الدليل الوحيد على وجود الإنسان".

العالم كان للشعراء، وكانت إصداراتهم الحديثة أهم بالنسبة لجيلي من الأخبار السياسية الحزينة. كان الشعر الكولومبي قد خرج من القرن التاسع عشر مضيئاً بالنجم الوحيد "خوسيه أسونثيون سيلفا"، الرومانتيكي الأعظم الذي أطلق النار وهو في الواحد والثلاثين من عمره على الدائرة التي رسمها له طبيبه وكانت تشير إلى القلب. لم أولد مبكراً لأتعرف على "رفائيل بومبو" أو "إدواردو كاستيو"- الغنائي الكبير- الذي يصفه أصدقاؤه كشبح هارب من مقبرته عند حلول المساء.. مرتدياً عباءة ملتفة عليه مرتين وجلد مُخضر من المورفين ووجه طائر كبير: الشكل الفيزيقي للشعراء الملعونين. مررت في إحدى الأمسيات بالترام أمام بيت كبير في الطريق السابع، وشاهدت على بابه أكثر الرجال إدهاشاً الذين رأيتهم في حياتي، مرتدياً بدلة محكمة، وقبعة إنجليزية، ونظارات سوداء على عينيه فاقدتي النور. لقد كان الشاعر "ألبيرتو أنخيل موتويا" رومانتيكياً صاخباً، نَشَرَ بعض قصائده الجيدة في زمنه، بالنسبة لجيلي كان كل هؤلاء أشباحاً للماضي، عدا الأستاذ "ليون دي جريف"، الذي تلصصت عليه طوال سنوات في مقهى المولينو.

لكن لم يستطع أي منهم أن يقترب من مجد "جييرمو بالنسيا"، الأرستقراطي الذي فرض نفسه كنبي للجيل المئوي قبل أن يكمل عامه الثلاثين، والجيل المئوي تم تسميته بهذا الاسم لتوافقه مع عام 1910 وهو مرور قرن على الاستقلال الوطني. معاصراه "إدواردو كاستيو" و"بورفيريو باربا جاكوب"، شاعران من كبار

الشعراء الرومانتيكيين، لم ينصفهما النقد الخاضع لسيطرة "بالنسيا" الرخامية، الذي كان ظله الأسطوري يسد الطريق أمام ثلاثة من الأجيال التالية. الجيل التالي مباشرة عام ?1925 والجدد، من بينهم "رفائيل مايا" و"ليون دي جريف"، اللذين لم يتم الاعتراف بكامل أعمالهما، بينما كان "بالنسيا" مستحوذاً على كل شيء، كان يتمتع حتى ذلك الوقت بكل المجد الذي حمله حتى أبواب رئاسة الجمهورية نفسها.

الوحيدون الذين تجرءوا على الوقوف في وجهه كانوا أعضاء جماعة "حجر وسماء" بكراساتهم الشبابية، التي كانت فضيلتها الوحيدة أنها لم تكن متأثرة به: "إدواردو كارانثا"، و"أرتورو كاماتشو راميريث"، و"أوريليو أرتورو"، و"خورخي روخاس" نفسه، الذي موّل نشر قصائدهم، لم يكونوا جميعاً على المستوى نفسه في الشكل أو الموضوع، لكن في مجموعهم تخطوا بقايا البرناسيين وأيقظوا للحياة شعر القلوب الجدي، مع تأثيرات خاصة لـ"خوان رامون خيمينيث" و"روبين داريو" و"جارثيا لوركا"، و"بابلو نيرودا"، أو "فيثنتي ويدوبروا". لم يكن القبول الجماهيري مباشراً ولا هم اعتقدوا أنهم مبعوثو العناية الإلهية لتنظيف بيت الشعر. إلا أن السيد "بالديمورو سانين كانو"، الناقد الأكثر احتراماً في ذلك الزمن، كتب دراسة لوقف أية جرأة في مواجهة "بالنسيا"، وكان قاسياً ضدهم، من بين آرائه القطعية كتب يقول إن "بالنسيا" "امتلك العلم القديم ليتعرف على روح الأزمنة السحيقة في الماضي، وتأملها من خلال نصوص معاصرة ليفاجئنا، وبالتالي امتلك سر الإنسان". فحكم عليه مرة أخرى بأنه شاعر لا زمن له ولا حدود، ووضعه إلى جانب أولئك الذين "مثل "لوريثيو" و"دانتي" و"جوته"، حافظوا على الجسد لإنقاذ الروح". ربما فكر أكثر من واحد أنه بصديق مثل هذا، فإن "بالنسيا" لم يكن في حاجة إلى أعداء.

رد "إدواردو كارانثا "على "سانين كانو" بمقال يقول كل شيء من أول العنوان: "حالة من تصفية الحسابات"، كانت أول محاولة لوضع "بالنسيا" في مكانه وفي

حدوده دون التقليل من قيمته أو من حجمه، واتهمه بأنه لم يستطع أن يشعل في كولومبيا شعلة الروح بل إن أشعاره عبارة عن تشوهات من الكلام، ووصف قصائده بأنها كلمات فنان مصطنع وحاذق، ونقاش وا ع، ووصل إلى نتيجة نهائية عبارة عن سؤال وجهه إلى نفسه بقي في النهاية كأفضل القصائد التي كتبها: "لو كان الشعر لا يصلح لدفع دمي إلى التدفق، ولفتح أبواب سرية ومساعدتي على اكتشاف العالم، ولمرافقة هذا القلب الحزين في عزلته، وفي الحب، في الفرح وفي البكاء، إذن في أي شيء يفيد الشعر؟". أنهى مقاله: "بالنسبة لي – وتلك خطيئتي- فإن "بالنسيا" مجرد شاعر جيد".

نُشر مقال "حالة من تصفية الحسابات" في "قراءات يوم الأحد" ملحق "التيمبو" التي كانت واسعة الانتشار في ذلك الحين، نتجت عنه حالة من الاضطراب الاجتماعي، ونتجت عنه أيضاً النتيجة المدهشة للبدء في إجراء امتحان عميق للشعر الكولومبي منذ بداياته، والذي لم يتم عمله بجدية منذ أن كتب "خوان كاستيانو" المائة والخمسين ألف مقطع في كتابه "مرثية الرجال البارزين في المناطق الهندية".

أصبح الشعر منذ تلك اللحظة سماءً مفتوحة. ليس فقط بالنسبة للجدد، الذين انتشروا كموضة بل للآخرين الذين تبعوهم بعد ذلك، وحاولوا احتلال مكانهم بالقوة. وأصبح الشعر شعبياً جداً إلى درجة أننا لم نفهم حتى اليوم إلى أي حد عاش كل عدد من مجلة "قراءات يوم الأحد" التي كان يديرها "كارانثا" أو ملحق "أيام السبت" الذي كان يديره في ذلك الوقت "كارلوس مارتين"، مديرنا القديم في الليسيه. إضافة إلى أشعاره، صنع "كارانثا" مجده عن طريق أن يكون شاعراً في السادسة مساء في الطريق السابع في بوجوتا، خلال تنزهه في منطقة من عشرة شوارع بكتبه في يده ملتصقة بقلبه، كان نموذجاً لجيله، وكوَّن مدرسة للجيل التالي، وكان كل منهم بطريقته الخاصة.

في منتصف العام وصل إلى بوجوتا الشاعر "بابلو نيرودا"، مقتنعاً بأن الشعر يجب أن يكون سلاحاً سياسياً. في تلك النقاشات البوجوتية (نسبة إلى بوجوتا) علم بمدى رجعية "لاوريانو جوميث"، وكنوع من الوداع كتب على شرفه سوناتا انتقامية أول رباعية منها تكاد تقولها جميعاً:

وداعاً، لوريانو بلا مجد

الوالي الحزين والملك الدخيل

وداعاً، إمبراطور الطابق الرابع

تذهب قبل موعدك وبلا أموال للقيصر.

على الرغم من ظرفه اليميني وصداقته الشخصية لـ"لوريانو جوميث" نفسه، فقد اهتم "كارانثا" بسوناتاته في صفحاته الأدبية، كسبق صحفي أكثر منه خطاباً سياسياً، لكن الرفض لتلك السوناتات كان شاملاً، خاصة تعارض نشرها مع التوجه الليبرالي للصحيفة ولصاحبها الرئيس السابق "إدواردو سانتوس"، المعادي لفكر "لاوريانو جوميث" الرجعي تماماً، كمعاداته لثورية "بابلو نيرودا"، ولكن رد الفعل الأكثر ضجيجاً كان لمن لم يقبلوا لأجنبي أن يهاجم شاعراً وطنياً، فقط أن تكون واحدة من السوناتات الثلاث والأكثر عبقرية هي التي تسببت في هذا الضجيج، كان ذلك دليلاً على سلطة الشعر في تلك السنوات. على أي حال، بعدما أصبح "لاوريانو جوميث" رئيساً للجمهورية منع "نيرودا" من دخول كولومبيا، وكذلك الجنرال "جوستافو بينيا"، ولكن "نيرودا" وصل إلى كارتاخينا وبوينابنتورا أثناء توقفاته في رحلاته البحرية بين أوروبا والتشيلي. وبالنسبة لأصدقائه الكولومبيين، فإن توقفاته هذه خلال الذهاب والعودة كانت احتفالاً كبيراً.

عندما دخلت كلية الحقوق عام 1947، كان تقاربي مع جماعة "حجر وسماء" لا يزال، وكان هناك معارف لهم شهرتهم في بيت "كارلوس مارتين"، في ثياكيري،

ولكن لم تكن لدي الشجاعة للاقتراب منهم وتذكيرهم بي، ولا حتى "كارانثا" الأكثر لطفاً من بينهم، فقد التقيت به في بعض المرات في مكتبة "جران كولومبيا" وحييته كمعجب ولم يتعرف عليّ، بخلاف الشاعر "ليون دي جريف" الذي وقف من طاولته في المولينو، ليحييني على طاولتي عندما حكى له أحدهم أنني نشرت قصة في الاسبكتادور، ووعدني أن يقرأها، لسوء حظي أنه بعد أسابيع حدث التمرد الشعبي في 19إبريل، وكان عليّ أن أغادر المدينة المحترقة، وعندما عدت بعد أربعة أعوام، كان مقهى المولينو قد اختفى تحت رماده، وانتقل الأستاذ بأدواته وأصدقائه إلى مقهى الأوتونوميكو، حيث بدأنا صداقة قامت على تبادل الكتب ومشروب الأجواردينتي، وعلّمني كيف أحرك قطع الشطرنج دون أمل كبير في إجادتها.

لم يقتنع أصدقاء الفترة الأولى من حياتي أن أكتب القصة، وأنا نفسي لم أفهم ذلك في بلد يعتبر الشعر فنه الأكبر. كنت أعرف منذ كنت طفلاً، بفضل نجاح قصيدة "البؤس الإنساني"، تلك القصيدة الشعبية التي كانت تُباع في أوراق مطبوعة بسنتيمين في أسواق ومقابر قرى الكاريبي. أما الرواية فقد كانت قليلة، منذ رواية "ماريا" لـ"خورخي إسحاق". كُتبت الكثير من الروايات دون ردة فعل كبيرة، أما "خوسيه فارجاس فيلا" فقد كان ظاهرة عجيبة باثنتين وخمسين رواية تدخل قلوب الفقراء مباشرة، كان المسافر الذي لا يتعب، وحقائبه الكثيرة لم تكن سوى كتبه الخاصة، كان يعرضها أمام أبواب فنادق أمريكا اللاتينية وإسبانيا فيختطفها القراء كالخبز، وروايته الشهيرة "أورا، أو زهرات الفيوليت" حطمت قلوباً أكثر من أفضل رواية معاصرة له.

الروايات الوحيدة التي عاشت بعد عصرها هي: "الجزار" المكتوبة ما بين 1600 و1638 في كولومبيا لمؤلفها الإسباني "خوان روديجيث فرايلي"، حكاية خارجة عن نطاق القياس الروائي وتاريخ حر لغرناطة الجديدة، وانتهت لأن تكون

رواية متقدمة في عصرها، ورواية "ماريا" لـ"خورخي إسحاق" الصادرة عام 1867 ورواية 1924 و"الهندي الأصيل" لـ"خوسيه أيوستاسيو ريفيرا"، عام "المركيزة يولومبو" لـ"توماس كاراسكيا" في عام 1926 ورواية "أربعة أعوام ممتطياً نفسي" لـ"ادواردو ثالاميا" في عام 1950 أي من هؤلاء الروائيين لم يصل إلى ما وصل إليه الشعراء من مجد عن جدارة أو بغيرها، في المقابل فإن القصة- التي كان لها القليل من السوابق وبشكل خاص "كاراسكيا" كاتب انتيكيا الكبير- قد غرقت في رجعية اللعب بالكلام الميت.

الدليل على أن موهبتي كانت موهبة روائي تلك الأبيات الشعرية الكثيرة التي تركتها في الليسيه، بلا توقيع أو حتى باسم مستعار؛ لأنني لم أكن أبداً متطلعاً إلى الموت بسبب تلك القصائد، وأكثر من هذا: عندما نشرت قصصي الأولى في الاسبكتادور، دخل كثيرون حلبة كتابة القصة، ولكن بلا موهبة كافية. أعتقد أنه يمكن فهم هذا اليوم على أن الحياة في كولومبيا، من عدة وجهات نظر، كانت لا تزال تعيش في القرن التاسع عشر، وبشكل خاص الحياة في بوجوتا خلال الأربعينيات، التي تعيش على ذكريات الاستعمار، عندما دخلت كلية الحقوق بالجامعة الوطنية بلا موهبة أو حماس حقيقي.

وحتى يمكن التأكد من ذلك يكفي المرور في الطريق السابع وطريق خيمينيث دي كيسادا، المعروفة طبقاً للتهويلات البوجوتية كأفضل زاوية في العالم، عندما تدق ساعة ميدان سان فرانثيسكو الثانية عشرة نهاراً، يتوقف الرجال في الشوارع أو يقطعون أحاديثهم في المقهى ليضبطوا ساعاتهم على الساعة الرسمية للكنيسة. وحول هذا الميدان وفي المناطق القريبة توجد الأماكن الأكثر ازدحاماً، حيث يلتقي فيها التجار مرتين في اليوم، وكذلك السياسيون والصحافيون- الشعراء بالطبع- يرتدون جميعاً الملابس السوداء، تماماً كمليكنا السيد "فيليبي الرابع".

خلال أيامي كتلميذ كان يتم في ذلك المكان قراءة صحيفة ليس لها مثيل في العالم، عبارة عن سبورة سوداء كتلك التي توجد في المدارس، تعلق في شرفة صحيفة الاسبكتادور في الثانية عشرة نهاراً وفي الخامسة مساء مكتوب عليها بالطباشير آخر الأنباء، في تلك اللحظات يكون من المستحيل مرور عربات الترام بسبب زحام الناس في حالة من نفاد الصبر، هؤلاء القراء الشوارعيون كانوا يمتلكون أيضاً إمكانية التصفيق للأنباء التي يعتقدون أنها طيبة أو الصفير أو إلقاء الحجارة على السبورة عندما لا تعجبهم أنباءها، كانت طريقة في المشاركة الديمقراطية اللحظية التي كانت الاسبكتادور تعتبرها المقياس الذي تقيس به اتجاهات الرأي العام.

لم يكن هناك تليفزيون، وكانت هناك نشرات أخبار كاملة في الراديو في ساعات ثابتة. قبيل الغداء أو العشاء، كنا ننتظر ظهور السبورة حتى نصل إلى البيت ومعنا صورة متكاملة عما يحدث في العالم، هناك عرفنا وتابعنا بمثالية رحلة طيران الكابتن "كونتشا فينيجاس" وحيداً من ليما إلى بوجوتا. عندما كانت أنباء مثل هذه، كانت السبورة تتغير عدة مرات في اليوم خارج أوقاتها المحددة مسبقاً لزيادة حماس الجمهور بنشرات غير عادية. لم يكن أي من قراء تلك الصحيفة التاريخية يعرف أن مخترعها وخادمها المخلص اسمه "خوسيه سالجار"، من أوائل المحررين في الاسبكتادور منذ عشرين سنة، وصل إلى أن أصبح صحافياً من الكبار دون أن يدرس بعد المدرسة الابتدائية.

مؤسسات بوجوتا التي تميزها كانت مقاهي وسط المدينة، والتي تمر حياة البلاد عبرها صباحاً ومساء، كل مقهى منها كان له تخصصه في لحظة زمنية ما- السياسية والأدبية والتجارية- أي أن جزءاً كبيراً من تاريخ كولومبيا في تلك السنوات له علاقة بأحد تلك المقاهي، ولكل واحد مقهاه المفضل كمؤشر يدل على شخصيته.

كُتّاب وسياسيو النصف الأول من القرن- من بينهم بعض الرؤساء- استذكروا دروسهم في مقاهي شارع أربعة عشر. أمام مدرسة روساريو، مقهى الوندسور، كتب تاريخه بحضور سياسيين شهيرين، وكان واحداً من المقاهي المزدهرة وكان ملجأ رسام الكاريكاتير "ريكاردو ريندون"، ورسم هناك أعماله الكبرى، وبعدها بسنوات فضل الرأس المشجوج برصاص المسدس في المخزن الخلفي لجران بيا.

عكس الأمسيات الكثيرة، كان الاكتشاف العرضي لصالة موسيقى مفتوحة للجمهور في المكتبة الوطنية؛ فحولّتها إلى ملجئي المفضل لأقرأ تحت رعاية كبار الملحنين، الذين كنا نطلب أعمالهم كتابة من خلال موظفة رقيقة. من بين الزوار المعتادين اكتشفت أنواعاً مختلفة من الموسيقى التي كنا نفضلها، فقد عرفت معظم الموسيقيين المفضلين لي عن طريق طلبات آخرين، من خلال الطلبات المختلفة والكثيرة، سئمت "شوبان" خلال سنوات طويلة؛ بسبب شخص مولع بموسيقاه كان يطلبه بشكل يومي، ودون رحمة.

في إحدى الأمسيات وجدت الصالة خالية تماماً؛ لأن نظام الموسيقى كان معطلاً، لكن المديرة سمحت لي بالجلوس للقراءة في صمت. شعرت في البداية بحالة من السلام التام، ولكن قبل أن أكمل ساعتين لم أتمكن من التركيز؛ لأن لحظات سريعة من الغثيان كانت تعطل قراءتي وتجعلني أشعر كما لو كنت خارج جلدي نفسه، مرت عدة أيام قبل أن أنتبه إلى أن سبب غثياني لم يكن صمت الصالة بل الحالة الموسيقية، والتي تحولت منذ ذلك الوقت إلى حالة من العشق السري والأبدي.

عندما كانوا يغلقون صالة الموسيقى، في أمسيات أيام الأحد، كانت تسليتي المفيدة السفر في عربات الترام الزجاجية الزرقاء، التي كانت تدور حول الميدان إلى طريق التشيلي بخمسة سنتيمات، فكنت أمضي فيها أمسيات المراهقة التي كانت تبدو كطابور لا ينتهي لأمسيات آحاد أخرى ضائعة. قراءة الأشعار الغنائية

الشيء الوحيد الذي كنت أفعله خلال السفر في تلك الدائرة المفرغة، ربما كانت قراءتي مربعاً من المدينة مع كل مربع من الكتاب، إلى أن يتم إشعال الأضواء الأولى لليل بين الأمطار الدائمة، حينها أبدأ في المرور على المقاهي الصامتة للحي القديم بحثاً عن شخص يعطف عليّ بنقاش حول القصائد التي انتهيت من قراءتها الآن، كنت أجده أحياناً- دائماً ما يكون رجلاً- ونظل حتى ينتصف الليل في مكان سيء، وننتهي إلى التقاط أعقاب السجائر التي دخناها نحن أنفسنا، ونتحدث عن الشعر بينما بقية البشرية تمارس الحب.

كان الجميع شباباً في ذلك الزمان، ولكننا كنا دائماً ما نجد من هم أقل شباباً منا، فقد كانت الأجيال تدفع بعضها البعض، خاصة بين الشعراء والمجرمين، ما إن يبدو أن هناك من فعل شيئاً حتى يظهر آخر يمكنه أن يهدد بالقيام بما هو الأفضل. كنت أعثر أحياناً في سلة المهملات على بعض الصور التي التقطها المصورون لنا في فناء كنيسة سان فرانتيسكو دون أن أسمح لنفسي بالتقاطها؛ لأنها لم تكن تبدو صورنا بل صور أبنائنا نحن أنفسنا، في مدينة مغلقة على نفسها حيث لا شيء سهل، ويصعب مغالبة الحياة أيام الأحد بلا حب. تعرفت هناك بعمي "خوسيه ماريا بالديبلانكيث" صدفة، عندما اعتقدت أنه جدي حينما كان يحاول أن يخترق طريقه بين مظلات الجموع الخارجة من قداس الأحد، لم تكن ملابسه تُغيِّر جزءاً صغيراً من شخصيته: مرتديا ملابس سوداء كاملة، وقميصاً أبيض بياقة مقواة، ورباط عنق مخطط بشكل جانبي، وصدرية وقبعة جافة ونظارات ذهبية، رفع مظلته بشكل تهديدي وواجهني:

– هل يمكنني المرور؟

قلت له خجلاً:

–معذرة، فقد اعتقدت أنك جدي.

ظل يستمع إليّ بعيني باحث في علوم الفضاء وسألني بسخرية:

– هل يمكن معرفة من يكون هذا الجد الشهير؟

قلت له الاسم كاملاً وأنا أغالب ارتباكي، فخفض المظلة وابتسم بطيبة، وقال:

- أعتقد أن هناك سبباً في تشابهنا، أنا ابن عمه.

كانت الحياة اليومية أكثر سهولة في الجامعة الوطنية، إلا أنني لم أتمكن من العثور في ذاكرتي على واقعها في ذلك الوقت؛ لأنني لم أكن طالباً بكلية الحقوق ولا ليوم واحد. ورغم أن درجاتي خلال العام الأول- الوحيد الذي أنهيته في بوجوتا- تسمح بالاعتقاد بعكس ذلك، فلم يكن هناك لا الوقت ولا الفرصة لإقامة علاقات شخصية كما في الليسيه، وزملاء الفصل يتفرقون في المدينة بمجرد الانتهاء من الدرس. أما مفاجأتي الطيبة كانت العثور على الكاتب "بدرو جومث فالديراما" في منصب سكرتير عام الكلية، وكنت أعرفه من مشاركته في الصفحات الأدبية منذ وقت مبكر، وكان أحد أصدقائي الكبار حتى وفاته.

كان "جونثالو ماريينو" زميلي المتعطش للقراءة منذ العام الأول، الوحيد المؤمن بأن بعض معجزات الحياة حقيقية حتى لو لم تكن واقعية، وكان هو من علَّمني أن كلية الحقوق لم تكن عقيماً، كما كنت أعتقد، فقد أخرجني منذ اليوم الأول من محاضرات الإحصاء والسكان في السابعة فجراً، وتحداني في مبارزة شعرية في مقهى المدينة الجامعية، وكان يقرأ من الذاكرة أشعاراً للكلاسيكيين الإسبان خلال ساعات الدرس الميتة، وكنت أجيبه بقصائد للشعراء الكولومبيين الشباب الذين فتحوا النار على المحاولات الأخيرة للجيل السابق.

دعاني إلى بيته في يوم أحد، حيث كان يعيش مع أمه وشقيقاته وأشقائه، في مناخ من التوتر الأخوي كما في بيت أبويَّ، فقد كان شقيقه الأكبر "فيكتور"، رجلاً مشغولاً بالمسرح بكامل وقته، وخطيباً لا يُبارى في عالم اللغة الإسبانية، ومنذ أن هربت من وصاية أبويَّ لم أعش مناخاً عائلياً كما في بيتي، إلى أن تعرفت على "بيبا بوتيرو" أم "ماريينو"، كانت قديمة الحس لكنها لم تمتزج بأرستقراطية بوجوتا، بذكائها الفطري ولغتها العجيبة، فقد كانت تعرف مكان الكلمات الرديئة

في اللغة الثربانتينية. كانت أمسيات لا تُنسى، خاصة مشاهدة لحظات الغروب على السفوح الزمردية، والبسكويت الساخن، وما تعلمته من "بيبا بوتيرو" بلغتها المنفتحة، وطريقتها في نطق أشياء الحياة العادية، كانت كنزاً لا تقدر قيمته للتعرف على رجعية الحياة الواقعية.

زملاء آخرون لي: "جييرمو لوبث جيرا" و"ألفارو بيدال بارون" كانا شركائي في ليسيه ثيباكيرا، إلا أنني في الجامعة كنت أرنو إلى "لويس بيار بوردا" و"كاميلو توريس ريستريبو"، اللذين كانا يعملان مجاناً في الملحق الأدبي "لا راثون"، مجلة شبه سرية يديرها الشاعر والصحافي "خوان لوثانو إي لوثانو". أيام إنهاء العمل في العدد، كنت أذهب معهم إلى إدارة التحرير لمساعدتهما في الأشياء العاجلة للحظات الأخيرة. التقيت في بعض الأحيان رئيس التحرير الذي كنت معجباً ببعض سوناتاته وترجمات الشخصيات الوطنية التي ينشرها في مجلة "السبت". كان يتذكر شيئاً من كلمة "أوليسيس" عني، لكنه لم يكن قد قرأ أياً من قصصي، فتهربت من الموضوع؛ لأنني كنت واثقاً من أنه لن يحبها، قال لي منذ اليوم الأول عند وداعي له إن صفحات الصحيفة مفتوحة لي، لكنني أخذت كلامه على أنه نوع من المجاملة البوجوتية.

قدمني زميلاي بكلية الحقوق: "كاميلو توريس ريستريبو" و"لويس بيار بوردا" إلى "بلينيو أبوليو ميندوقا" في مقهى أستورياس، رغم سنواته الست عشرة كان قد نشر مجموعة من الكتابات النثرية الغنائية، في الصفحات الأدبية لصحيفة "ألتيمبو"، ذلك الجنس الأدبي الذي كان موضة تلك الأيام في وطن "إدواردو كارانثا". لقد كانت سحنته لامعة وشعره غامق وناعم، يحدد تماماً مظهره الهندي، ورغم صغر سنه استطاع أن يحصل على الاعتراف بكتابته في ملحق "السبت" الذي أسسه أبوه، "بلينيو ميندوثا نيرا"، وزير الحرب القديم والصحافي الكبير الذي ربما لم يكتب سطراً واحداً طوال حياته المهنية، إلا أنه علم الكثيرين الكتابة

في الصحف التي أسسها بحسن سمعته، وكان يهجرها إلى المناصب السياسية العليا أو ليؤسس شركات كبرى سرعان ما تنتهي إلى كارثة، فلم أرَ الابن أكثر من مرتين أو ثلاث في تلك الفترة، دائماً برفقة زميليّ، أدهشني أنه رغم حداثة سنه كان يفكر كعجوز، لكني لم أفكر أبداً أننا سنتقاسم أياماً كثيرة من الصحافة بعد ذلك؛ لأنني لم أكن قد فكرت في اتخاذ الصحافة مهنة وكعلم كنت مهتماً بها أقل من القانون.

لم أفكر أبداً أنني سأهتم بالصحافة حتى تلك الأيام، حتى طلبت مني "ألبيرا ميندوثا" شقيقة "بلينيو" أن أجري حديثاً عاجلاً مع المغنية الأرجنتينية "بيرتا سينخيرمان" التي غيرت وجهة نظري بالكامل في مهنة الصحافة وفتحت لي مجال موهبة كنت أجهلها، أكثر منها حواراً كلاسيكياً من أسئلة وأجوبة- هناك العديد من الشكوك ولا تزال- كانت حواراً من أكثر الحوارات تجديداً في كولومبيا. بعدها بسنوات، عندما أصبحت "ألبيرا ميندوثا" صحافية دولية معترفاً بها وواحدة من أفضل صديقاتي، حكت لي أن تلك المقابلة كانت آخر أمل لها لإنقاذها من الفشل.

لأن وصول "بيرتا سينخيرمان" كان حدث اليوم، و"ألبيرا"- كانت تدير قسم المرأة في مجلة السبت- طلبت إذناً لإجراء المقابلة، وحصلت عليه بعد تمنع من أبيها نظراً لنقص خبرتها في هذا المجال، كانت إدارة تحرير السبت مكاناً للقاء المثقفين الأكثر شهرة في تلك السنوات، وطلبت منهم "ألبيرا" بعض الأسئلة لإعداد الحوار، لكن الرعب أصابها خلال مواجهتها لـ"بيرتا" في غرفتها الرئاسية بفندق جرانادا.

رفضت "بيرتا" الإجابة على أي سؤال؛ لأنها رأت أنها أسئلة غبية وبلهاء، دون أن تنتبه إلى أنه كان خلف كل سؤال كاتب جيد من الذين تعرفهم هي، وأبدت إعجابها بهم خلال زياراتها السابقة لكولومبيا، فبكت "ألبيرا" التي كانت دائماً

عبقرية حية، وابتلعت دموعها واحتملت تلك الكارثة، أنقذ الحوار دخول زوج "بيرتا" غير المتوقع، فقام هو بالسيطرة على الوضع بحنكته ورقته وميله إلى المزاح عندما كان الوضع على وشك الانقلاب إلى حادث خطير.

لم تكتب "ألبيرا" الحوار الذي استعدت له بإجابات المغنية الشهيرة، بل كتبت موضوعاً عن صعوبة التعامل معها، واستغلت تدخل الزوج وحولته إلى البطل الحقيقي للقاء، لكن "بيرتا" استشاطت غضباً بطريقتها التاريخية المعروفة عنها عندما قرأت الحوار، إلا أن مجلة السبت كانت المجلة الأوسع انتشاراً، ووصل توزيعها الأسبوعي إلى مائة ألف نسخة في مدينة عدد سكانها ستمائة ألف نسمة.

استغلت "ألبيرا ميندوثا" ببرودة دم حاجة "بيرتا سينخيرمان" إلى الكشف عن شخصيتها الحقيقية، وعرضت عليّ أن أفكر لأول مرة في عمل الموضوع، ليس كعمل إعلامي، بل ليكون أكثر من هذا: كعمل أدبي، لم تمر سنوات طويلة قبل أن أجرب هذا في حياتي نفسها، إلى أن وصلت إلى حد الاعتقاد، كما أعتقد الآن أكثر من أي وقت مضى، أن الرواية والموضوعات الصحافية ابنان من أم واحدة.

حتى ذلك الوقت لم أكن قد خاطرت بالشعر: قصائد ساخرة في مجلة مدرسة سان خوسيه وقصائد غنائية، وسوناتات حب متخيل على طريقة جماعة "حجر وسماء" في عدد صحيفة الليسيه الوطني الوحيد. قبلها بقليل، أقنع زميلي "ثيثيليو جونثالث" الشاعر والناقد "دانييل أرانجو" أن ينشر أغنية كتبتها أنا، تحت اسم مستعار في الملحق الأسبوعي ليوم الأحد من "ألتيمبو". نشر الأغنية لم يؤثر فيّ، ولم يجعلني أشعر أنني شاعر أكثر مما كنت، بينما في تحقيق "ألفيرا" انتبهت إلى الصحافي الذي كنت أحمله في قلبي، وتشجعت لكي أوقظه. منذ ذلك الوقت بدأت أقرأ الصحف بطريقة أخرى، وأكد لي "كاميلو توريس" و"لويس بيار" أنهما يوافقاني على ذلك، وأعادا عرض السيد "خوان لوثانو" للنشر في صفحاته

"لاراثون"، لكنني تجرأت فقط على نشر قصيدتين، وعرضا عليّ أن أتحدث مع "بلينيو أبوليو ميندوثا" عن مجلة "السبت"، لكن خجلي المسيطر عليّ حذرني من أنه ينقصني الكثير حتى أخاطر بالعمل في مهنة جديدة وأنا لا أزال بلا تجربة، إلا أن اكتشافي كانت له فائدة فورية، فقد كنت في تلك الأيام غارقاً في تفكيري بسوء كل ما أكتب، سواء كان نثراً أم شعراً، وحتى في أداء واجبات الليسيه الدراسية، فقد كانت كلها تقليداً واضحاً لجماعة "حجر وسماء"، فوضعت لنفسي خطة لتغيير عميق من القصة التالية، أثبتت لي التجربة أن ظرف الزمان المحدد القاطع يعتبر علامة على فقر اللغة، ولذلك بدأت في شطبه عندما كان يلح عليّ. وفي كل مرة كنت أرى أنه يجب أن أبحث عن شكل أكثر ثراءً وتعبيراً، ولم أعد استخدم ظرف الزمان المحدد في كتبي إلا في حالة نقل نص متكامل، لا أعرف، بالطبع، عما إذا كان مترجمو أعمالي اكتشفوا ذلك أيضاً، هذا الجنون بالأسلوب لأسباب مهنية.

تعدت الصداقة مع "كاميلو توريس" و"بيار بوردا" حدود الفصل الدراسي وصالة التحرير بسرعة، فقد كنا نقضي معاً أوقاتاً أطول في الشارع من الجامعة، كلاهما كان يغلي في صمت ضد الأوضاع السياسية والاجتماعية للبلاد. أما أنا الغارق في أسرار الأدب لم أحاول حتى تفهم تحليلاتهما الدائرية ولا دعواتهما القاتمة، ولكن آثار صداقتهما بقيت من أجمل ما انتفعت به خلال تلك السنوات.

أما دروس الجامعة فقد كانت على العكس هادئة، وندمت دائماً على عدم اهتمامي بفضائل الأساتذة ذوي الأسماء الكبيرة الذين احتملوا ضجرنا، من بينهم "ألفونسو لوبث ميتشيلسون"، ابن الرئيس الكولومبي الوحيد المنتخب في القرن العشرين، وربما جاءت من هنا الإشاعات المنتشرة بأنه مكتوب عليه أن يكون رئيساً بالميلاد، كان يبدأ درس المدخل إلى القانون في مواعيد منضبطة، مرتدياً جاكيت من كشمير لندن، يلقي محاضرته دون أن ينظر إلى أحد، بذلك المناخ السماوي لقصار النظر الذين يبدون وكأنهم يسبحون في أحلام غيرهم،

أعتقدت أن دروسه عبارة عن مونولوج بوتر واحد، تماماً كما كان أي درس بعيد عن الشعر، ولكن لسأم صوته فضيلة حاوي الثعابين، وثقافته الأدبية الواسعة تعتمد على قاعدة صلبة، يعرف كيف يستخدمها كتابة وحديثاً بصوت عال، لكني بدأت أقدره بعد أن التقينا مرة أخرى بعد ذلك بسنوات وأن نبدأ صداقة بعيداً عن محاضراته. أما شهرته كسياسي مغامر تتغذى من تأثير شخصيته السحرية وذكائه الخطر بحثاً عن المعنى الثاني الخبيئ في كلام الناس. وبشكل خاص من الذين يحبهم أقل، إلا أن فضيلته البارزة كشخصية عامة هي قدرته المدهشة على خلق أوضاع تاريخية بجملة واحدة.

توصلنا مع الزمن إلى إقامة صداقة متينة، ولكني لم أكن مواظباً في الجامعة على الحضور وكنت عملياً، وخجلي الذي لا علاج له جعلني أحافظ على مسافة بيننا لا يمكن تخطيها، وبشكل خاص مع من أعجب بهم، لكل هذا فقد فاجأني أن يطلبني للامتحان النهائي في السنة الأولى، رغم غيابي الكثير الذي جعلني طالباً غير مرئي. لجأت إلى حيلتي القديمة لإبعاد الأنظار بأدوات خداعية، ولكني انتبهت إلى أن الأستاذ كان واعياً لمكري، ولكنه ربما كان يقدره كإبداع أدبي، الخطأ الوحيد الذي ارتكبته خلال معاناة الامتحان أنني استخدمت كلمة "التقادم" فسارع بطلب أن أفسرها ليتأكد أنني أعرف عما أتحدث، فقلت:

- التقادم هو الحصول على ملكية بمرور الزمن.

فسألني على الفور:

- الحصول عليها أم فقدانها؟

كانت الشيء نفسه، لكني لم أناقشه لعدم تأكدي وربما كانت إحدى مزحه؛ لأنه لم يحتسبها خلال تقديره لدرجاتي، تحدثت معه عن هذا بعد مضي سنوات فلم يتذكرها، ولكن في وقتها لم يكن لا هو ولا أنا متأكدين من أن هذا الفصل كان حقيقة.

وجد كلانا في الأدب وسيلة لنسيان السياسة وأسرار التقادم، واكتشفنا الكتب المدهشة والكُتّاب المنسيين في حوارات لا تنتهي، تنتهي أحياناً بإنهاء الزيارات وإثارة حنق زوجتينا، أقنعتني أمي أننا أقرباء، وهذا صحيح، إلا أن حبنا للغناء الشعبي كان أفضل من أية علاقة دم خفية.

كان "كارلوس باريخا" أحد الأقرباء العرضيين الآخرين من ناحية الأب، وهو أستاذ الاقتصاد السياسي وصاحب مكتبة "جران كولومبيا" المحببة إلى الطلاب بسبب عرضها الكتب الجديدة لكبار الكُتّاب على طاولات مكشوفة وبلا رقابة. حتى نحن طلابه كنا نهجم على المكان خلال أوقات غياب الحراسة المسائية ونسرق كتب الفن الرقمي. طبقاً للقانون المدرسي، فإن سرقة الكتب جريمة ولكن ليست خطيئة. ليس بالفضيلة ولكن بسبب الخوف الفيزيقي، دوري في هذه الهجمات محدد بحماية ظهر زملائي، بشرط أن يأخذوا إضافة إلى كتبهم بعض الكتب لي. في إحدى الأمسيات، سرق أحد المتعاونين معي كتاب "المدينة بلا لاورا" لـ"فرانثيسكو لويس بيرنانديث"، عندما شعرت بيد تمسك كتفي بعنف وصوت عسكري:

-أخيراً يا شيطان!

استدرت مرتعباً، فوجدت نفسي في مواجهة الأستاذ "كارلوس باريخا"، فيما هرب ثلاثة من المتعاونين في لمح البصر. لحسن حظي، قبل أن أقدم اعتذاري انتبهت إلى أن الأستاذ لم يمسك بي كلص، بل لأنه لم يشاهدني في المحاضرات طوال ما يقرب من شهر، وبعد تعنيف اعتيادي سألني:

– هل حقيقة أنت ابن "جابرييل أليخيو"؟

كان حقيقة، ولكني أجبته بلا، لأنني كنت أعرف أن أباه وأبي كانا أقرباء لكنهما كانا متباعدين بسبب حادث شخصي لم أفهمه أبداً، ولكن فيما بعد عرفت الحقيقة، ومنذ ذلك اليوم عرفوني في المكتبة والدراسة كقريب له، وارتبطنا بعلاقة سياسية أكثر منها أدبية على الرغم من أنه كتب ونشر عدة كتب شعرية مختلفة

تحت اسم مستعار هو "سيمون لاتينو". الوعي بعلاقة القرابة، استخدمته فقط في عدم قيامي بالمشاركة الصورية في سرقة الكتب.

أستاذ ممتاز آخر "دييجو مونتانيا كويار"، كان على عكس "لوبث ميتشيلسون"، يبدو أنهما على علاقة سرية، فـ"لوبث كليبرالي" متمرد و"مونتانيا كويار كراديكالي" يساري. بينهما علاقة خارج الجامعة، وكنت أعتقد دائماً أن "لوبث ميتشيلسون" كان يراني كشاعر واعد، فيما كان "مونتانيا كويار" يراني مجرد منشور ثوري.

تعاطفي مع "مونتانيا كويار" بدأ عندما وقعت مشادة بينه وبين ثلاثة من ضباط الجيش الشباب الذين كانوا يحضرون دروسه بالملابس العسكرية الرسمية. كانوا يحافظون على المواعيد بطريقة حازمة، يجلسون في كراسيهم نفسها الموجودة في جانب منفصل، يسجلون المحاضرات بشكل صارم، ويحصلون على أفضل الدرجات في امتحانات صارمة، نصحهم "مونتانيا كويار" بشكل شخصي ألا يذهبوا إلى المحاضرات بالملابس العسكرية، فأجابوه بأدب إنها أوامر قيادتهم العليا، ولم يتركوا فرصة دون أن يدعوه يشعر بهذا. على أي حال، بعيداً عن وضعهم الغريب، فقد كانوا بالنسبة للطلاب والأساتذة مجرد ثلاثة من الطلاب العاديين.

يحضرون بملابسهم المتشابهة، المهندمة، ودائماً معاً وفي التوقيت المضبوط، يجلسون منعزلين، وكانوا من أكثر الطلاب جدية ومنهجية، لكنهم بدوا لي دائماً كما لو كانوا يعيشون في عالم مختلف عن عالمنا، لو توجه إليهم أحد بكلمة، يكونون منتبهين وظرفاء، ولكن في شكلية لا تقهر: لا يقولون أكثر مما يسألون. وفي أيام الامتحانات، كنا نحن المدنيين ننقسم إلى مجموعات من أربعة أفراد لنستذكر في المقاهي، أو نلتقي في حفلات الرقص أيام السبت، أو في المعارك الطلابية، وفي الكناتين الرخيصة، وبيوت دعارة تلك الفترة، ولكننا لم نكن نلتق أبداً بزملائنا العسكريين، ولو صدفة.

لا أذكر أنني وجهت إليهم ولا حتى التحية خلال العام الدراسي الطويل الذي انتظمنا خلاله في الجامعة، لم يكن هناك وقت، وأيضاً لأنهم يحضرون المحاضرات في الوقت المحدد، ويذهبون مع آخر كلمة للأستاذ، دون أن يتبادلوا كلمة مع أحد. كان هناك عسكريون شباب آخرون في الصف الثاني يجتمعون معنا خلال الاستراحات، لم أعرف اسم أي منهم مطلقاً، وفهمت اليوم أن تمنعهم لم يكن من جانبنا كما لم يكن من جانبهم، وأنني لم أستطع أبداً أن أتغلب على المرارة التي كان يتذكر بها جدي حروبه الخاسرة ومذابح شركات الموز الرهيبة.

كانت لأستاذ القانون الدستوري "خوسيه سوتو ديل كورال" شهرة بأنه يحفظ جميع دساتير العالم من الذاكرة، وكان يدهشنا في الدروس ببريق ذكائه وعلمه القانوني، لا يعيبه سوى فقدانه لحس الفكاهة، وأعتقد أنه كان أحد القلائل الذين يبذلون جهداً خلال المحاضرات حتى لا تظهر ميوله السياسية، ولكنها كانت تظهر أكثر مما كان يعتقد، من خلال إشارات يده وتأكيده على الأفكار، ففي الجامعة كان يمكن الشعور بنبض الوطن العميق الذي كان يعيش على حافة حرب أهلية بعد أكثر من أربعين عاماً من السلام المسلح.

على الرغم من غيابي الأبدي وجهلي القانوني، نجحت في المواد السهلة للسنة الأولى بقليل من الاستذكار في آخر لحظة، ونجحت في المواد الصعبة عن طريق حيلتي القديمة بتمييع الموضوعات بأدوات عبقرية. الحقيقة أنني لم أكن مستريحاً في وضعي هذا، ولم أكن أعرف كيف يمكنني أن أظل في هذا الركن المغلق، لا أفهم القانون الذي كان بالنسبة لي أقل أهمية من أية مواد أخرى من مواد الليسيه، وأشعر أنني كبرت حتى يمكنني أن أتخذ قراراتي الخاصة. في النهاية، وبعد ستة عشر شهراً من البقاء على قيد الحياة بمعجزة، لم يعد لي هناك سوى مجموعة من الأصدقاء الطيبين لبقية العمر.

قلة اهتمامي بالدراسة أصبحت أكثر بعد كلمة "أوليسيس"، خاصة الدراسة بالجامعة، حيث بدأ بعض زملائي يطلقون عليّ لقب أستاذ ويقدمونني ككاتب، جاء هذا في الوقت الذي قررت فيه تعلم تشكيل البناء والخيال في آن معاً، ودون خطأ، مستخدماً نماذج متكاملة مثل "أوديب ملكاً" لـ"سوفوكليس"، التي كان بطلها يبحث عن قاتل أبيه وينتهي إلى اكتشاف أنه هو نفسه القاتل، أو "ساق القرد" للكاتب "دبليو دبليو جاكوب" التي تعتبر القصة المتكاملة والتي كل أحداثها تقع صدفة، أو "كرة الدهن" لـ"موباسان"، وكُتّاب كبار آخرون رحمهم الله بواسع رحمته. في كل هذا كنت أقضي إحدى ليالي الأحد عندما حدث شيء يستحق أن أحكيه، كنت قد أمضيت كل اليوم تقريباً أحاول نسيان فشلي ككاتب مع "جونثالو ماريانو" في بيته بشارع التشيلي، وأثناء عودتي إلى البنسيون في آخر ترام، صعد في محطة تشابينيرو إله روماني من لحم ودم، لاحظت أن أياً من مسافري منتصف الليل القليلين لم يفاجأ بمشاهدته، دفعني هذا إلى التفكير في أنه لم يكن سوى أحد المتنكرين الذين يكثرون أيام الأحد لبيع أي شيء للأطفال، لكن الواقع أقنعني بأنه لا يجب أن أشك في حقيقته، لأن خوذته ولحيته كانت خشنة كلحية تيس جبلي، إلى درجة أنني شعرت برائحة كريهة قبل الوصول إلى شارع ?26التي كانت بها محطة المقابر، حيث هبط الإله وكأنه أب لعائلة واختفى بين أشجار الحديقة العامة.

بعد منتصف الليل، استيقظت بعد التقلب في سريري، سألني "دومينجو ماونيل بيجا" عما حدث، فحكيت له حلمي: "لقد صعد الترام إله روماني"، فرد بكامل وعيه قائلاً إذا كان هذا كابوس فيمكن أن يكون بسبب سوء الهضم، ولكن إذا كان موضوعاً للقصة المقبلة فإنه يعتقد أنها قصة ممتازة. في اليوم التالي لم أعد أعرف إن كان الإله الروماني في الترام حقيقة أم أنه كان مجرد خيال، بدأت أتقبل فكرة أنني نمت من التعب طوال النهار، وأنني حلمت حلماً واضحاً إلى درجة أنني لم أستطع فصله عن الواقع،

ولكن الأساسي لم يعد بالنسبة لي إن كان الإله حقيقة أم لا، بل أنني عشت تلك اللحظات كما لو كانت كذلك، وللسبب نفسه- واقع أم خيال- لم يكن من الشرعي اعتباره خيالاً ساحراً بل تجربة جميلة من تجارب حياتي.

وهكذا كتبت ما حدث في اليوم التالي في نَفَس واحد، وتركت القصة تحت الوسادة وعدت لقراءتها وإعادة قراءتها عدة ليال قبل النوم، وفي الصباح عند الاستيقاظ، كان الوصف خالياً من التجسيد وحرفياً لفصل الترام، تماماً وكما وقعت أحداثه، وبأسلوب بريء جداً تماماً كنبأ تعميد في صفحة الاجتماعيات، وفي النهاية، تحت ضغط التشكك قررت أن أضع الموضوع تحت اختبار الحرف المطبوع، ولكن هذه المرة ليس في "الاسبكتادور" بل في الملحق الأدبي لصحيفة "ألتيمبو"، ربما كانت رغبتي أن أعرف آراء أخرى تختلف عن آراء "إدواردو ثالاميا"، دون أن أضعه في حرج أمام مغامرة ليس مجبراً على المشاركة فيها، وأرسلت القصة مع زميل بالبنسيون مرفقة برسالة موجهة للسيد "خايمي بوسادا"، مدير التحرير الجديد والشاب جداً للملحق الأدبي للتيمبو، إلا أنه لم يتم نشر القصة ولا الرد على الرسالة.

قصص تلك الفترة، طبقاً لكتابتها ونشرها في ملحق "نهاية الأسبوع"، اختفت مع أرشيف الاسبكتادور في حريق اعتداء قوات الحكومة على الصحيفة في 6 سبتمبر 1952 وأنا لم تكن لدي صورة منها، ولا حتى أصدقائي، لذلك شعرت ببعض الراحة لأنها احترقت وذهبت إلى النسيان، إلا أن بعض الملاحق الأدبية الإقليمية أعادت نشرها في وقتها دون موافقتي، وقصص أخرى نشرتها مجلات مختلفة، إلى أن جمعتها دار نشر "الفيل" في مجلد واحد صدر في مونتيفيديو عام 1972 وتحمل عنوان إحدى تلك القصص "نابو، الزنجي الذي انتظرته الملائكة".

كانت هناك قصة ناقصة لم أضمَّها إلى أي كتاب، ربما بسبب عدم وجود نسخة موثوق فيها: "توبال قابيل يصنع نجمة"، المنشورة في الاسبكتادور في 17 يناير 1948 الذي واسم بطلها كما لا يعرف الجميع، الحداد التوراتي اخترع الموسيقى. كانت ثلاث قصص، مقروءة طبقاً للترتيب الزمني التي كتبت ونشرت فيها - تبدو غير مقبولة وتراجيدية، وبعضها مبالغ فيه ولا تعتمد أي منها على أساسيات واقعية. لم أتمكن مطلقاً من معرفة النسق الذي قرأها بها ناقد متمكن مثل "إدواردو ثالاميا"، إلا أنها بالنسبة لي لها أهمية لا يعرفها أحد غيري، لأن في كل منها هناك شيء يعكس تطور حياتي السريع في تلك الفترة.

معظم الروايات التي قرأتها في ذلك الوقت وأعجبت بها لم أكن أهتم سوى بما يمكن أن أتعلمه منها من تقنية، أي: بسبب تركيبها السري، من أول التجريد الميتافيزيقي للقصص الثلاث الأولى وحتى الثلاث الأخيرة. في تلك اللحظة، عثرت على إشارات محددة صالحة جداً للتكوين الأولي لأي كاتب، ولم يخطر على ذهني فكرة واحدة يمكن التعامل معها بطريقة أخرى، كنت أعتقد أن القصة والرواية ليسا فقط نوعين مختلفين من الأدب بل نسقين لهما طبيعة مختلفة ومن الخطأ الخلط بينهما، ولا أزال على اعتقادي هذا حتى اليوم، ومقتنع تماماً بتفوق القصة على الرواية.

خلق لي النشر في الاسبكتادور، على هامش النصوص الأدبية، مشكلات أكثر حياتية وتسلية، فهناك بعض الأصدقاء كانوا يستوقفوني في الشارع ويطلبون مني قرضاً لإنقاذهم من الإفلاس، لأنهم لا يستطيعون تصديق أن كاتباً له هذه الأهمية لا يحصل على كميات ضخمة من النقود مقابل نشر قصصه، ولم يصدق أي منهم حقيقة أنهم لم يدفعوا لي ولا سنتيما واحداً مقابل نشرها، ولا أنا كنت أتوقع أن يدفعوا؛ لأنها لم تكن تلك عادة الصحافة في البلاد، والأخطر من كل هذا كانت خيبة أمل أبي عندما أقنعته بأنني لا أستطيع أن أتحمل مصروفاتي

الشخصية عندما كان هناك ثلاثة من أشقائي يدرسون، وكانت العائلة ترسل لي ثلاثين بيزو في الشهر، يأخذ البنسيون وحده ثمانية عشر دون أن يقدموا لي في الإفطار بيضاً، ودائماً ما كنت أبحث عن دخل إضافي لسد عجز المصروفات غير العادية. لحسن الحظ، لم أعرف سر اعتيادي الرسم بشكل غير واع في هوامش الصحف، وفوط المطاعم الورقية، وموائد المقاهي الرخامية، وأتجرأ على القول إن ذلك الرسم كان نتيجة مباشرة لذلك الذي كنت أرسمه طفلاً على جدران غرفة جدي للأشغال اليدوية، وربما كانت صمامات أمان سهلة لتفريغ همومي، فقد كان هناك جليس عرضي بمقهى المولينو، له نفوذ في إحدى الوزارات استطاع العمل فيها كرسام دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن الرسم، عرض عليّ أن أقوم بعمله على أن نقتسم الراتب، لم أكن أقرب إلى الفساد طوال حياتي مما كنت في تلك اللحظة، ولكني لم أفكر لحظة في الندم على هذا.

ازداد اهتمامي بالموسيقى في تلك الفترة أيضاً التي كان فيها الغناء الشعبي الكاريبي- الذي رضعته في طفولتي- يفتح طرقاً جديدة في العاصمة بوجوتا، فالبرنامج الإذاعي الأكثر شعبية "الساعة الشاطئية" الذي يقدمه "باسكوال ديلفيتشيو"، كان مبعوث الشاطئ الأطلنطي في العاصمة، عاد إلى شعبيته في صباح أيام الأحد، فكنا نحن تلاميذ أبناء الكاريبي نذهب للرقص في مكاتب الإذاعة حتى الساعات الأولى من المساء، وكان هذا البرنامج وراء الشهرة الكبيرة لموسيقينا للانتشار داخل البلاد، وبعدها إلى أركانه الأخرى، وكان دعاية اجتماعية للتلاميذ الشاطئيين في بوجوتا.

كان شبح الزواج الإجباري هو القيد الوحيد. فلا أعرف من الذي أشاع الاعتقاد في العاصمة أن أسهل شيء هو الزواج من أبناء الشاطئ الكاريبي، فكانوا يحيكون لنا شراكاً في الأسرة لإجبارنا على الزواج بالقوة. وليس زواجاً نابعاً عن الحب، بل بحلم الحياة بنافذة مفتوحة على

البحر، لم أضع تلك الفكرة في رأسي أبداً، على العكس، فإن أسوأ ذكريات حياتي كانت في بيوت الدعارة الرديئة خارج أسوار بوجوتا، حيث كنا نذهب للتخلص من سكراتنا القاتمة، في أكثر هذه البيوت قذارة. كنت على وشك أن أترك القليل من الحياة التي كنت أحملها في جسدي، عندما ظهرت المرأة التي ضاجعتها عارية في الممر صارخة بأنهم سرقوا اثني عشر بيزو كانت تضعها في دولاب أدوات تجميلها، فقام اثنان من حراس البيت بطرحي أرضاً بلكماتهم، ولم يكتفوا بأخذ آخر بيزوات بقيت في جيبي بعد ممارسة حب مميتة، بل عرّوني حتى من حذائي وفتشوني بأصابعهم بحثاً عن النقود المسروقة. على أي حال قررا إنهاء المشكلة ليس بقتلي ولكن بتسليمي للبوليس، عندها تذكرت المرأة أنها غيَّرت مخبأ النقود في اليوم السابق وعثرت عليها كاملة.

من بين الصداقات التي بقيت لي من أيام الجامعة، كانت صداقة "كاميلو توريس" التي لم تكن الأقل قابلية للنسيان، بل الأكثر مأساوية في شبابنا، ففي يوم من الأيام تخلف عن الدراسة للمرة الأولى، وانتشر سبب هذا التخلف كالنار في الهشيم، فقد اتخذ قراره بالفرار من بيت العائلة ليدرس اللاهوت في "تشيكينيكيرا"، على بعد أكثر من مائة كيلومتر من بوجوتا، لحقت به أمه على محطة القطار وحبسته في المكتبة، زرته هناك، كان أكثر شحوباً من المعتاد، وأكثر جدية، فقد قرر دراسة اللاهوت تحت تأثير ميل طبيعي نجح في إخفائه جيداً، ولكنه قرر طاعته حتى النهاية، قال لي:

- لقد مرت الفترة الأصعب.

كانت تلك طريقته ليقول لي إنه ودَّع خطيبته، وإنها قبلت قراره عن طيب خاطر، وبعد أمسية ثرية أهداني هدية صعبة على الفهم: "أصل الأنواع" لـ"داروين"، ودعته بإحساس مؤكد غريب بأنها ستكون المرة الأخيرة.

لم أره طوال فترة وجوده في الدراسة اللاهوتية، وصلتني أنباء مشوشة عن سفره إلى لوفيانا لاستكمال دراساته اللاهوتية، وإن إخلاصه في الدراسة لم يُغيِّر من ميوله الطلابية وطريقة تفكيره العلمانية، والفتيات اللاتي كن يهمن به كن يعاملنه على أنه ممثل سينمائي يحتمي برداء القس.

بعد عشر سنوات، عندما عاد إلى بوجوتا كان قد امتثل جسداً وروحاً لأحكام ردائه ولكنه كان لا يزال يحتفظ بفضائل مراهقته، كنت أنا وقتها كاتباً وصحافياً بلا شهادة جامعية، متزوجاً ولي ابن، "ردوريجو" الذي ولد في 24 أغسطس 1959 بمستشفى باليرمو في بوجوتا، قررنا في العائلة أن يتولى "كاميلو" تعميده، وكان العرَّاب هو "بلينيو أبولايو ميندوثا"، الذي كانت تربطنا به علاقة صداقة أخوية، والعرابة كانت "سوسانا ليناريس"، زوجة "خيرمان بارجاس" الذي علمني فنون الصحافة الجيدة وأفضل الأصدقاء، وكان "كاميلو" أقرب إلى "بلينيو" منا نحن، ومن سنوات سابقة، لكنه رفض أن يكون عراباً لابني بسبب ميوله الشيوعية وقتها، وربما بسبب ميوله الساخرة التي يمكن أن تفسد جدية القداس، ووعدت "سوسانا" أن تتولى التعليم الروحي للطفل، ولم يجد "كاميلو" أو لم يرغب في العثور على أسباب أخرى ليغلق الباب أمام العراب.

تم التعميد في مذبح مستشفى باليرمو، وفي ضوء المساء البارد في السادسة تماماً، ولم يحضر أحد سوى العرابين وأنا وفلاح بشاله وصندله، اقترب بشكل جدي لحضور الحفل دون أن يشعر به أحد، وعندما جاءت "سوسانا" بالطفل حديث الولادة أطلق العراب الذي لا يمكن إصلاح حاله أول سخريته:

- سنخلق من هذا الطفل محارباً كبيراً.

رد عليه "كاميلو" الذي كان يعد قرابين القداس باللهجة نسفاً: "نعم، ولكن محارباً في سبيل الله"، ثم بدأ الحفل بقرار فخيم وغريب تماماً عن حفلات التعميد المعروفة وقتها:

- فلنعمده بالإسبانية حتى يفهم المتمنعون ما يعنيه سر الكنيسة.

كان صوته يتردد بالقشتالية عالياً فيما كنت أتبعه عبر لاتينية حفظتها أيام طفولتي كمساعد في كنيسة آراكاتاكا، وعند التطهر، اختلق "كاميلو" شكلاً آخر مثيراً:

– من يعتقدون في أنه في هذه اللحظة تهبط الروح القدس على المولود، فليركعوا.

العرّابان وأنا بقينا واقفين على أقدامنا، وربما مستاءين بعض الشيء من همهمات القس الصديق، فيما كان الطفل يتململ تحت المياه الساقطة عليه، والوحيد الذي ركع كان الفلاح الهندي بصندله، بقيت هذه الصورة عالقة في ذهني كعقوبة حادة لحياتي، لأنني ظللت على اعتقادي بأن "كاميلو" دعا الفلاح عن سبق إصرار ليعاقبنا بدرس من التواضع، أو– على الأقل– بحسن التربية.

عدت لرؤيته مرات قليلة ودائماً لأسباب باهتة وعاجلة، ولها علاقة دائماً بأعماله الصالحة لمساعدة المطاردين سياسياً، فقد ظهر في بيتي صباح أحد الأيام عندما كنت متزوجاً حديثاً ومعه لص خرج لتوه من السجن، ولكن البوليس لا يريد أن يتركه في حاله: كانوا يسرقون منه كل ما يحمل في جيوبه. أهديته مرة زوج من الأحذية الرياضية توفر له الحماية، بعدها بأيام، تعرفت خادمة البيت على الحذاء في صورة مجرم وجدوه قتيلاً في إحدى الحفر. كان صديقنا اللص.

لا أرغب في أن يكون هذا الفصل له علاقة بنهاية "كاميلو"، ولكني قابلته بعدها بأشهر قليلة في المستشفى العسكري في زيارة لصديق مريض، ولم أعد أسمع عنه شيئاً بعدها إلى أن أعلنت الحكومة أنه ظهر من جديد كمقاتل بين رجال جيش التحرير الوطني. ومات في 5 فبراير 1966 وهو في السابعة والثلاثين، خلال معركة مفتوحة مع إحدى دوريات الجيش.

دخول "كاميلو" للدراسة اللاهوتية جاء متفقاً زمنياً مع قراري الخاص بالتوقف عن الدراسة في كلية الحقوق، ولكني لم أكن في حالة تساعدني على مواجهة أبويّ،

علمت من شقيقي "لويس انريكي"- جاء إلى بوجوتا ليتسلم عملاً جيداً في فبراير 1948 أنهما كانا سعيدين جداً بنتائجي بالسنة الأولى في الحقوق، وأرسلوا لي بشكل مفاجئ أحدث آلة كاتبة خفيفة توجد في الأسواق، فكانت أول ماكينة أحصل عليها في حياتي، وأقلها حظاً، لأنني رهنتها في اليوم نفسه باثني عشر بيزو؛ كي أقيم حفل استقبال لشقيقي وزملاء البنسيون. في اليوم التالي، بجنون الصداع، ذهبنا إلى بيت الرهونات للتأكد من أن الآلة الكاتبة كانت هناك سليمة، والتأكد من أنها ستظل كذلك إلى أن ترسل لنا السماء نقود استعادتها، وجاءت فرصة جيدة لاستعادتها بالنقود التي دفعها لي الرسام المزيف، ولكننا قررنا في آخر لحظة تأجيل استعادتها ليوم آخر، وفي كل مرة كنا نمر فيها أمام بيت الرهونات، سواء كنا معاً أم منفصلين، نتأكد من الشارع أن الآلة الكاتبة لا تزال في مكانها، ملفوفة كجوهرة في ورق سوليفان وعليها شريط من الأورجاندا، بين العديد من الأدوات المنزلية المحكمة الحماية. بعد مرور شهر، حساباتنا التي أجريناها خلال سهرة السكر تلك لم تكتمل، ولكن الآلة الكاتبة ظلت في مكانها سليمة، وكان يمكنها أن تظل هناك ما دمنا ندفع الفوائد في مواعيدها المحددة كل ثلاثة أشهر.

أعتقد أنه في تلك الأيام لم نكن على وعي بالتوتر السياسي الذي بدأ يهز البلاد. ورغم الاحترام الذي كان يتمتع به الرئيس المحافظ المعتدل "اوسبينا بيريث" في السلطة، فإن معظم حزبه كان يعرف أن انتصارهم كان ممكناً بفضل انقسام الليبراليين، وهؤلاء تحت هول الضربة اتهموا "ألبيرتو بيراس" بأن حياده الانتحاري كان وراء الهزيمة، أما الدكتور "جابرييل تورباي"، تحت حمل حالته النفسية الاكتئابية قبل أن يكون بسبب الأصوات المعارضة له، ذهب إلى أوروبا بلا اتجاه معين أو حتى أسباب محددة، بحجة الحصول على تخصص أعلى في مجال جراحة القلب، ومات وحيداً ومهزوماً بالربو بعد عام ونصف من هزيمته السياسية بين زهور فندق بالاس أتينيي بباريس. أما "خورخي أليثيير جايتان" فلم يوقف

حملته الانتخابية يوماً واحداً استعداد للانتخابات التالية، بل إنه مارس الدعاية بأعمق ما يكون ببرنامج إصلاحي أخلاقي للجمهورية تعدى الانقسام التاريخي بين الليبراليين والمحافظين، بل قام بتعميق هذا الانقسام رأسياً وأكثر واقعية بين المستَغلين والمستغِلين: الوطن السياسي والوطن الوطني، بصرخته التاريخية "إلى الأمام"، وبحماسه غير الطبيعي، نشر بذرة المقاومة في أقصى الأرجاء بحملة ضخمة، مما جعله يكسب أرضاً جديدة في أقل من عام، إلى أن أصبح على أبواب ثورة اجتماعية حقيقية.

فقط في هذه اللحظة انتبهنا إلى أن البلاد بدأت تنطلق فيها أولى شرارات الحرب الأهلية الكامنة منذ الاستقلال عن إسبانيا، ووصلت إلى أحفاد أبطالها الأصليين. أما الحزب المحافظ الذي استعاد رئاسة الجمهورية بفضل انقسام الليبراليين بعد أربع دورات انتخابية متتالية، فقد كان مصراً على ألا يفقدها مجدداً بكل الوسائل الممكنة، وليحافظ على السلطة استخدمت حكومة "أوسبينا بيريث" سياسة الأرض المحروقة التي أدمت البلاد ودخلت حتى الحياة اليومية للبيوت.

لعدم وعيي السياسي ومن بين عماي الأدبي لم أنتبه إلى الواقع الظاهر من حولي حتى تلك الليلة التي واجهت فيها شبح وعيي، كانت المدينة خالية، تضربها الرياح المبللة القادمة من قمم الجبال المحيطة ومسكونة بالصوت المعدني المحكم لـ"خورخي أليثيير جايتان" في خطابه كل جمعة في المسرح الوطني، سعة المسرح لم تكن تزيد على ألف شخص محشورين حشراً، لكن الخطاب السياسي كان يذاع عبر الموجات المنطلقة، أولاً من خلال المكبرات في الشوارع القريبة وبعد ذلك من خلال الإذاعات المنطلقة بكل قوتها كسياط في مناخ المدينة الذاهلة، وكان الخطاب يسيطر على المستمعين بطول البلاد وعرضها لثلاث وحتى أربع ساعات.

انتبهت في تلك الليلة إلى أنني كنت الوحيد في الشارع، عدا الدورية البوليسية المرابطة

بالقرب من صحيفة "ألتيمبو" لحمايتها، كما كانت تفعل كل يوم جمعة كما لو كانت في حرب. كان المشهد كاشفاً لي، مما سمح لي بعدم تصديق "جايتان"، وفهمت فجأة في تلك الليلة أنه تخطى الوطن وتعداه إلى لغة الحوار الصريحة للجميع، ليس بما تقوله الكلمات ولكن القلق الذي ينشره ذلك الصوت المخادع، فهو نفسه، خلال خطاباته كان ينصح مستمعيه بنبرة أبوية أن يعودوا إلى بيوتهم في سلام، فيما يترجمون هم هذا كما لو كان أمراً للتعبير عن رفضهم ضد كل ما يمثل الفوارق الاجتماعية وسلطة الحكومة المطلقة، حتى رجال البوليس أنفسهم المنوط بهم الحفاظ على النظام يظلون ساكنين بصوت يعكس الأوامر.

كان موضوع الخطاب في تلك الليلة كشف حساب فاضح لأعمال العنف الرسمي الناتج عن سياسة الأرض المحروقة للقضاء على المعارضة الليبرالية، بأرقام غير محددة بعدد من القتلى نتج عن أعمال قوات الأمن العام في المناطق الريفية، وقرى كاملة مشردة في المدن بلا سقف أو خبز. وبعد تعداد أرقام متبخرة من الاغتيالات والصدامات، بدأ "جايتان" في رفع صوته ليستعيد كلماته واحدة بعد الأخرى، جملة بعد الأخرى، برجعية فاشستية مدهشة ومؤكدة، تصاعد قلق الجمهور مع درجات الصوت، إلى أن سبحت لحظة الانفجار النهائي في مناخ المدينة وتردد عبر الإذاعة في أقصى أركان البلاد.

انطلقت الجموع الغاضبة إلى الشارع في معركة طاحنة في ظل التسامح السري للبوليس، أعتقد أنني فهمت في تلك الليلة سبب قنوط الجد وروعة تحليلات "كاميلو توريس ريستريبو". أدهشني خروج طلاب الجامعة الوطنية سواء كانوا ليبراليين أم قوطيين، وعبر حلقات شيوعية. ولكن الحفرة التي كان يحفرها "جايتان" في البلاد كان يجب أن تمر من هناك، وصلت إلى البنسيون ذاهلاً تحت وطأة توتر الليلة فوجدت زميل غرفتي في سريره يقرأ "أورتيجا أي جاسيت" بهدوء. قلت له:

– جئت شخصاً آخر يا دكتور "بيجا"، أعرف الآن كيف ولماذا بدأت حروب الكولونيل "نيكولاس ماركيز".

بعدها بأيام قليلة - في 7 فبراير 1948 حضرت أول حفل سياسي لـ"جايتان" في أول وآخر مرة في حياتي: عرض جنائزي لضحايا العنف الرسمي في البلاد، وسط أكثر من ستين ألف امرأة ورجل في ملابس الحداد، وبأعلام الحزب الحمراء وأعلام الحداد الليبرالي السوداء، كان شعارها واحداً: الصمت التام، وتم تنفيذه بمأساوية مطلقة، وحتى في شرفات البيوت والمكاتب التي شاهدت مرور العرض خلال الشوارع الإحدى عشرة المكتظة بالجماهير، همهمت سيدة إلى جانبي بصلوات من بين أسنانها. فنظر إليها بدهشة رجل كان يسير إلى جوارها:

- سيدتي، من فضلك.

أصدرت هي همهمة أسف وغرقت في شبح المسيرة، إلا أن ما جذبني وأصابني باختناق البكاء كان انضباط خطوات وتنفس المتظاهرين بصمتهم الأسطوري. ذهبت إلى هناك بلا قناعة سياسية، منجذباً بحب استطلاع الصمت، وفجأة شعرت باختناق البكاء في حلقي، كان خطاب "جايتان" في ميدان بوليفار، من على شرفة إدارة البلدية، كان خطابه عبارة عن صلاة جنائزية معبقة بحماس مفزع، وضد كل تنبؤات حزبه أنهى خطابه بشعاره المعلن: بلا تصفيق واحد.

هكذا كانت "مسيرة الصمت" الأكثر حماساً في كل ما جرى في كولومبيا من مظاهرات، طبعت تلك الأمسية التاريخية- في ذاكرة المؤيدين والمعارضين- إن نجاح "جايتان" في الانتخابات لن يوقفه أحد، وكان المحافظون يعرفون هذا أيضاً، بسبب درجة التلوث الذي نشره العنف الرسمي في كل البلاد، نتيجة عنف بوليس النظام ضد الليبرالية غير المسلحة وتنفيذاً لسياسة الأرض المحروقة. أوضح تعبير عن الحالة التي كانت تعيشها البلاد، عاشه في نهاية الأسبوع جمهور حلبة مصارعة الثيران في ميدان بوجوتا، حيث هاجت المدرجات ضد استسلام الثور وتواضع المصارع وفشله في قتله، فرفضت الجماهير المتحفزة

الهتاف بحياة الثور، شاهد الكثير من الصحفيين والكُتَّاب ذلك الرعب أو عرفوا به بالسماع، فسّروه على أنه إشارة مرعبة للغضب المكتوم في البلاد.

في ذلك المناخ عالي التوتر تم افتتاح القمة الإبيروأمريكية التاسعة، في 30 مارس في الساعة الرابعة والصف مساء، تم تجديد العاصمة بتكلفة باهظة، برؤية الوزير "لاوريانو جوميث" الدعائية وتحت إشرافه كرئيس للجنة الإعداد للمؤتمر، وحضره وزراء خارجية جميع دول أمريكا اللاتينية، إضافة إلى الشخصيات الشهيرة في تلك الفترة. وتم دعوة جميع السياسيين الكولومبيين البارزين في ذلك الوقت كضيوف الشرف، عدا "خورخي أليثيير جايتان" الذي كان غيابه ملحوظاً، بسبب رفض "لاوريانو" لدعوته، وربما بسبب رفض بعض الزعماء الليبراليين الموافقة على مشاركته لكراهيتهم لهجومه على الطبقة السياسية من كلا الحزبين. أما نجم المؤتمر فقد كان الجنرال "مارشال"، ممثل الولايات المتحدة وبطل الحرب العالمية التي لم تكد تضع أوزارها، وبشهرته كفنان سينمائي، وبخطته التي كان يقودها لإعادة بناء أوروبا المدمرة في تلك الحرب.

إلا أنه يوم الجمعة 9 إبريل كان "خورخي أليثيير جايتان" نبأ اليوم، لنجاحه في الحصول على براءة الملازم "خيسوس كورتيس بوفيدا" المتهم بقتل الصحفي "إيدورو جلارثا أوسا"، وصل إلى مكتب المحاماة الذي يمتلكه في حالة من النشوة، وفي المعبر بين الطريق السابع وطريق خيمينيث كيسادا، قبل الثامنة صباحاً بقليل، على الرغم من أنه كان في المحكمة حتى قبيل الفجر. كان لديه العديد من المواعيد في الساعات التالية، إلا أنه قبل دعوة من "بيلينيو مندوثا نيرا" لتناول الطعام قبيل الساعة الواحدة، وخرج مع ستة من أصدقائه الشخصيين والسياسيين الذين ذهبوا إلى مكتبه لتهنئته بالنصر القضائي الذي لم تستطع الصحف نشره بعد، من بينهم طبيبه الشخصي "بدرو اليسيو كروث"، الذي كان في الوقت نفسه عضواً في جماعته السياسية.

جلست في هذا المناخ المتوتر لتناول الغداء في مطعم البنسيون الذي أعيش فيه، على بعد أقل من ثلاثة شوارع. لم يكونوا قد قدموا لي الطبق الأول بعد، عندما وقف أمام طاولتي "وليفريدو ماتيو" مرتعباً. وقال لي:

– لقد انتهى هذا الوطن، لقد قتلوا "جايتان" أمام القط الأسود.

كان "ماتيو" طالباً مثالياً بكلية الطب والجراحة، مولود في سوكري مثل الكثير من سكان البنسيون، لديه رؤية قاتمة للمستقبل، أعلن لنا من أسبوع أن المستقبل القريب يحمل نتائج مدمرة، ومن الممكن أن يكون مصرع "خورخي أليثيير جايتان". إلا أن إعلانه هذا لم يدهش أحداً؛ لأنه لم تكن هناك حاجة لافتراض مثل هذا التنبؤ.

خرجت طائراً لعبور طريق خيمينيث دي كيسادا والوصول مقطوع النفس أمام مقهى القط الأسود، تقريباً مع تقاطع الطريق السابع. كانوا قد حملوه للتو إلى المستشفى المركزي على بعد أربعة شوارع من هناك، كان لا يزال على قيد الحياة ولكن بلا أمل، كانت هناك مجموعة من الرجال يغمسون مناديلهم في الدماء الساخنة ليحتفظوا بها كأثر تاريخي. وسيدة بطرحة سوداء وشبشب من تلك اللواتي يبعن أشياء بخسة الثمن في ذلك المكان، صرخت بالمنديل المدمى:

– أبناء القحبة، لقد قتلوه.

حاول ماسحو الأحذية المدرعين بصناديقهم الخشبية كسر أبواب صيدلية "نويفا جرانادا" المعدنية، حيث كان قلة من رجال البوليس يحتجزون القاتل لحمايته من المتجمعين الغاضبين، كان هناك رجل طويل يبدو واثقاً من نفسه، بملابس رمادية محكمة كما لو كان في عرس، كان يحرضهم بصرخات محسوبة جيداً. جاءت صرخاته بنتيجة، فقد اضطر صاحب الصيدلية إلى رفع الستارة المعدنية خوفاً من إحراقها، والقاتل متمسك بحماية البوليس. أثار الذعر بين مجموعة من الغاضبين الذين انقضوا عليه، فيما كان يتوسل بلا صوت تقريباً:

- يا رجل البوليس، لا تدعهم يقتلوني.

لم أستطع نسيانه أبداً، كان شعره مشوشاً، وذقن غير حليق من يومين، وشحوب الموتى على وجهه وعيناه جاحظتان من الرعب، يرتدي بدلة من القطيفة البنية قديمة جداً وبخطوط رأسيه وعراويها ممزقة من جذب المتحلقين حوله، كانت لحظة خاطفة وأبدية؛ لأن ماسحي الأحذية جذبوه من بين يدي البوليس ضرباً بالصناديق وأنهوا عليه بالأقدام، خلال سقطته الأولى فقد فردة حذاء. فيما أمر الرجل المرتدي البدلة الرمادية الذي لم يتم التعرف على شخصيته أبداً صارخاً:

- إلى القصر، إلى القصر.

خضع له الجمع الغاضب، وجذبوا جسد القاتل من قدميه وسحبوه على أرضية الطريق السابع باتجاه ميدان بوليفار، ما بين عربات الترام الأخيرة المتوقفة بسبب الخبر، مطلقة أبواق الحرب ضد الحكومة، وانطلقت الصرخات والتصفيق من على الأرصفة والشرفات، فيما كانت الجثة الممزقة بالضربات تترك أجزاء من الجسد والملابس منثورة في الشارع، انضم العديد من الناس إلى المسيرة، التي تضخمت خلال مرورها في أقل من ست شوارع كدوامات الحرب، لم يبق من الجسد سوى ملابسه الداخلية وفردة حذاء.

ميدان بوليفار، حديث الإصلاح، لم يكن في أفضل حالاته التاريخية كما كان في أيام الجمعة الأخرى، فقدت الأشجار براعتها وارتدت التماثيل جمالاً رسمياً، وفي الكابيتول الوطني، حيث أُقيم قبل عشرة أيام المؤتمر الأمريكي اللاتيني، كان المشاركون في ساعة تناول الغداء، وهكذا استمرت المسيرة الجماهيرية حتى القصر الرئاسي، الخالي من حراسه، وتركوا هناك ما تبقى من الجثة العارية عدا ما تبقى من الملابس الداخلية وفردة الحذاء اليسرى، ورباطي عنق غير مفهومين معقدوين حول الرقبة، بعدها بدقائق وصل رئيس الجمهورية "ماريانو اسبينا بيريث" وزوجته بعد الانتهاء من غدائهما، حيث كانا يحضران حفل افتتاح معرض

لتربية الماشية في قرية أنجاتيفا، كانا يجهلان الخبر حتى تلك اللحظة؛ لأن راديو الأتوموبيل الرئاسي كان مغلقاً.

بقيت في مكان الجريمة حوالي عشر دقائق، مندهشاً من سرعة اختلاف رؤية الشهود المتغيرة الشكل والموضوع إلى أن يفقد الحدث أية علاقة له بالواقع. كنا في تقاطع شارعي خيمينيث والطريق السابع، في لحظة ذروة المرور وعلى بعد خمسين خطوة من مقر صحيفة "ألتيمبو"، عرفنا وقتها أسماء المرافقين لـ"جايتان" عند خروجه من مكتبه، كانوا "بدرو أليسيو كروث" و"أليخاندرو بايبخو" و"خورخي باديا" و"بلينو مندوثا نايرا"، وزير الحرب في حكومة "ألفونسو لوبث بوماريخو" الأولى، وكان هو من دعاه إلى تناول الغداء. كان "جايتان" قد خرج من المبنى الذي يقع به مكتبه، بلا حراسة من أي نوع، محاطاً بمجموعة من الأصدقاء المقربين، وفجأة سحبه "مندوثا" من ذراعه وتقدم به خطوة عن الآخرين، وقال له:

– ما أريد أن أقوله لك.

لم يستطع إكمال الجملة، فقد غطى "جايتان" وجهه بذراعه وسمع "مندوثا" الطلقة الأولى قبل أن يرى أمامه رجلاً يسدد مسدسه ويطلق ثلاث طلقات على رأس الزعيم ببرود قاتل محترف، بعدها بلحظة تحدثوا عن طلقة رابعة بلا اتجاه، وربما خامسة أيضاً.

"بيلينيو أبوليو مندوثا" الذي وصل مع أبيه وإخوته، و"ألبيرا" و"روسا أنيس"، أمكنه مشاهدة "جايتان" ملقى على الرصيف قبل دقيقة واحدة من نقله إلى المستشفى، وحكى لي بعدها: "لم يكن يبدو ميتاً كان كتمثال مؤثر ممدد على ظهره على الرصيف، بجوار بقعة من الدم القليل وحزن كثير ينبع من عينيه المفتوحتين الثابتتين"، خلال لحظات الهرج والمرج الأولى اعتقد أشقاؤه أن أبيهم مات أيضاً، فكانوا منزعجين إلى درجة أن "بيلينيو أبوليو" رفعه إلى الترام الذي مر من هناك ليبعده عن المكان، لكن السائق انتبه إلى ما حدث، ألقى بقبعته على الأرض وغادر

الترام في وسط الشارع وانضم إلى الصرخات الأولى للتمرد، بعدها بدقائق كان أول ترام تقلبه الجماهير المجنونة.

الخلاف حول عدد المشاركين ودور كل منهم كان واضحاً، هناك من الشهود من أكدوا أنهم كانوا ثلاثة تتابعوا في إطلاق النار، وآخر يقول إن القاتل الحقيقي اندسَّ بين الجماهير الغاضبة وذهب بهدوء في أول ترام مر من هناك، حتى "مندوثا نايرا" كان يريد أن يطلب من "جايتان" عندما أخذه من ذراعه، قليلاً مما تم الكلام عنه بعد ذلك، بل كان يريد أن يطلب منه تصريحاً بإنشاء معهد لإعداد الزعماء العماليين، أو كما سخر منه والد زوجته قبلها بأيام: "مدرسة لتعليم السائقين الفلسفة"، ولم يتمكن من أن يقول له شيئاً عندما انفجرت أمامهم أول طلقة.

بعد خمسين عاماً، لا تزال ذاكرتي مركزة على الرجل الذي يبدو أنه كان يحرض الناس أمام الصيدلية، ولم أعثر عليه في أي مكان في أي من الشهادات التي قرأتها عن ذلك اليوم، لقد رأيته عن قرب، بملابس فاخرة، وجلده كان لامعاً كالرخام وسيطرة كاملة على تحركاته، وهذا لفت نظري إلى درجة أنني ظللت أتتبعه إلى أن التقطته سيارة جديدة تماماً بمجرد رفع جثة القاتل، ومنذ تلك اللحظة يبدو ممحواً من الذاكرة التاريخية، وحتى من ذاكرتي أنا، وحتى سنوات طويلة بعد ذلك خلال عملي كصحفي، قفز إلى ذهني أن ذلك الرجل نجح في أن يحرض على قتل قاتل مزيف ليحمي هوية القاتل الحقيقي.

خلال تلك اللحظات الخارجة عن نطاق السيطرة كان هناك الزعيم الطلابي "فيديل كاسترو"، في العشرين من عمره، ممثلاً لجامعة هافانا لحضور مؤتمر طلابي منعقد كرد ديمقراطي على مؤتمر الدول الايبروأمريكية. كان قد وصل منذ حوالي ستة أيام قبل ذلك، برفقة "الفريدو جيفارا" و"انريكي أوفاريس" و"رفائيل ديل بينو"- طلاب كوبيون مثله- وكانت أول تحركاته طلب مقابلة مع "خورخي أليثيير جايتان"، الذي كان معجباً به، وبعد يومين التقى "كاسترو" و"جايتان"،

وتواعد معه على لقائه الجمعة التالية، وكتب "جايتان" هذا الموعد بنفسه في أجندة مكتبه، وفي الصفحة الموافقة ليوم 9 إبريل: "فيدل كاسترو، 2 مساء".

وطبقاً لما قاله هو نفسه للعديد من وسائل الإعلام وفي فرص عديدة، وخلال استعادة الحادث مرات لا تُعد طوال علاقة الصداقة القديمة التي تجمعنا، أن "فيديل" عرف بأول خبر عن الجريمة عندما كان يسير بالقرب من المكان انتظاراً لحلول موعد اللقاء بينهما، ولكنه فوجئ ببداية الهرج على الصرخة العامة:

– قتلوا "جايتان".

لم ينتبه "فيديل" حتى مرور بعض الوقت، إلى أن موعده ما كان له أن يتم بأي حال من الأحوال قبل الرابعة أو الخامسة بسبب دعوة الغداء التي قدمها "مندوثا نايرا لجايتان".

لم يكن هناك شخص آخر في مكان الجريمة، فقد كان المرور متوقفاً والترامات مقلوبة، لذلك توجهت إلى البنسيون لإنهاء غدائي، عندما اعترضني أستاذي "كارلوس باريخا" أمام باب المكتب وسألني إلى أين أنا ذاهب، فقلت له:

– ذاهب لتناول طعام الغداء.

– عليك اللعنة.

قالها لي، بطريقة الكاريبي الغاضب:

–كيف تجرؤ على الغداء وقد قتلوا "جايتان"؟

ودون أن يترك لي وقتاً لأي كلام آخر، أمرني أن أذهب إلى الجامعة وأن أقود مظاهرة الاحتجاج الطلابية، الغريب أنني أخذت بنصيحته ضد طبيعتي، وتابعت السير عبر الطريق السابع باتجاه الشمال، بعكس اتجاه المحتجين الذين كانوا يهرولون باتجاه مكان الجريمة استجابة لحب الاستطلاع والألم والغضب. كانت أتوبيسات الجامعة يقودها الطلاب المتحمسون في مقدمة المظاهرة، وفي حديقة سانتاندير على بعد مائة متر من موقع الجريمة، كان العمال يسدون الطريق بكل

سرعة أمام فندق جرانادا- الأكثر فخامة في المدينة- حيث يقيم في تلك الأيام وزراء خارجية وضيوف مؤتمر الأمم الإيبروأمريكية.

فيما كانت مجموعة من الفقراء يتجمهرون في جميع الاتجاهات، كثير منهم مسلحون بسكاكين سرقوها من بعض الحوانيت في بداية تظاهرهم، ويبدو أنهم متشوقون لاستخدامها. أما أنا فلم أكن على وعي واضح بنتائج الاغتيال الممكنة، وكنت لا أزال أفكر في الغداء أكثر من الاحتجاج، ولذلك عدت إلى طريقي نحو البنسيون، صعدت الدرج قفزاً متأكداً من أن أصدقائي المسيسين يشاركون في الحرب، لكن لا: كان المطعم لا يزال خالياً، وشقيقي و"خوسيه بالنسيا"- يسكنان في الغرفة المجاورة- يغنيان برفقة زملاء الغرفة، صرخت:

- قتلوا "جايتان".

أشاروا بما ينبئ أنهم يعرفون بالخبر، ولكنهم كانوا في حالة استرخاء أكثر منهم في حالة حزن جنائزي، ولم يقطعوا أغنيتهم، جلسنا بعدها لتناول الغداء في المطعم الخالي، مقتنعين بأنه لن يحدث هنا أي شيء، إلى أن رفع أحدهم صوت المذياع لينتبه من لم ينتبه، فقام "كارلوس باريخا" بالتأكيد على ما قاله لي قبلها بساعات، وأعلن عن تشكيل المجلس الثوري للحكومة المكون من أشهر الليبراليين اليساريين، من بينهم وأكثرهم شهرة الكاتب والسياسي "خورخي ثالاميا". أول اتفاق توصلوا إليه كان تشكيل اللجنة التنفيذية، وقيادة البوليس الوطني، وكل المؤسسات الدستورية للدولة، بعدها تحدثوا عن أعضاء آخرين من اللجنة لهم اتجاهات غير مقبولة.

أول ما فكرت فيه خلال جلال الموقف ما يمكن أن يفكر فيه أبي عندما يعلم أن ابن عمه، القوطي صعب المراس، كان الزعيم الأكبر لثورة من اليسار المتطرف. فوجئت صاحبة البنسيون أمام حجم أسماء المرتبطين بالجامعة أنهم لم يتصرفوا كأساتذة بل كطلاب سيئي التربية، كان يكفي قلب رقمين من الزاوية لنجد أنفسنا

في بلد مختلف. في الإذاعة الوطنية، كان الليبراليون الرسميون يدعون إلى الهدوء، وفي إذاعات أخرى كانوا يحرضون ضد الشيوعيين التابعين لموسكو، وقتما الزعماء الليبراليون الرسميون الكبار يتحدون أخطار الشارع المشتعل، ويحاولون الوصول إلى قصر الرئاسة ليتوصلوا إلى اتفاق وحدوي مع الحكومة المحافظة.

ظللنا على ذهولنا بسبب اختلاط الأمور إلى أن صرخ ابن صاحبة البنسيون فجأة بأن البيت يحترق، هذا صحيح، تم فتح كوة في الجدار الموجود في العمق، ودخان أسود وثقيل بدأ في تعبيق هواء غرف النوم، كان قادماً ولا شك من مبنى الحكومة المحلية المجاور للبنسيون، الذي أشعل المتظاهرون فيه النار، ولكن الجدار كان قوياً وقادراً على الاحتمال، لذلك هبطنا من على الدرج قفزاً لنجد أنفسنا في مدينة في حالة حرب، المعتدون كانوا يلقون عبر النوافذ ما يعثرون عليه في مكاتب الحكومة المحلية، وضَبَّبَ دخان الحرائق الهواء، وتحولت السماء إلى غطاء قاتل، فيما جماعات غاضبة، مسلحة بالسكاكين وكل أنواع الأدوات المسروقة من محلات الحدائد، يقفزون على المحال التجارية بطول الطريق السابع والشوارع المجاورة ويشعلون فيها النار بمساعدة البوليس المتجمع هناك، نظرة واحدة كانت كافية لمعرفة أن الحالة خارج السيطرة، سبق شقيقي تفكيري بصرخة:

- اللعنة، الآلة الكاتبة.

جرينا باتجاه بيت الرهونات الذي كان سليماً حتى تلك اللحظة، وبوابته المصنوعة من القضبان الحديدية مغلقة بإحكام، ولكن الآلة الكاتبة لم تكن في مكانها الذي كانت فيه دائماً، لم ننزعج، وفكرنا أنه يمكننا استعادتها خلال الأيام القادمة، دون أن ننتبه بعد إلى أن هذه الكارثة المريعة لن يكون بعدها أيام تالية.

(6)

في نهاية يوم من الارتجاجات القاتلة في الطرقات المنحنية، وصلت سيارة وكالة البريد إلى مكانها الذي تستحقه: غرزت في كومة من السمك المتعفن على بعد نصف فرسخ من كارتاخينا. "من يسافر على ظهر شاحنة لا يعرف مكان موته"، استعْدت ذكريات جدي. المسافرون المحشورون عراة طوال ست ساعات كاملة في الشمس ورائحة البحر العفنة دفعتهم إلى القفز دون انتظار لوضع سلم النزول، وبدءوا في إلقاء الدجاجات من الفتحات، وصرر الموز وجميع أنواع الأشياء القابلة للبيع أو الموت التي استخدموها للجلوس على سطح الشاحنة، قفز السائق وأعلن بصوت زاعق:

- لا اوريكا.

كان ذلك الاسم الرمزي المعروفة به كارتاخينا لأمجادها الماضية، التي يجب أن تكون هناك، لكنني لم أرها؛ لأنني لم أكن قادراً على التنفس في بدلتي القطيفية السوداء التي أرتديها منذ 9إبريل. البدلتان الأخريان في حقيبة ملابسي انتهتا النهاية نفسها التي انتهت إليها الآلة الكاتبة في بيت الرهونات، ولكن الحكاية المشرفة التي قصصتها على أبويَّ كانت أن الآلة الكاتبة وأشياء شخصية أخرى اختفت خلال التمرد. السائق المتسلط، الذي سخر خلال الرحلة من شكلي اللصوصي، كان يضحك ملء شدقيه عندما شاهدني ألف وأدور حول نفسي دون أن أعثر على المدينة، وصرخ فيَّ وفي الآخرين:

- إنها هناك في مؤخرتك، واحترس، هم هناك يكرمون الجبناء.

"كارتاخينا دي انديِاس"، بالضبط، كانت هناك خلف ظهري منذ أربعمائة عام،

ولكن لم يكن سهلاً عليَّ تخيلها على بعد نصف فرسخ من أكوام العفونة، كانت مختبئة خلف أسوار عظيمة حافظت عليها من هجمات قراصنة أيامها العظيمة، وانتهت إلى الاختفاء خلف أكوام من الأشجار الفارعة برءوسها الصفراء، لذلك انضممتُ إلى تجمع المسافرين وسحبتُ الحقيبة على الحشائش الموشاة بسرطانات البحر الحية التي كانت قواقعها تنفجر تحت كعب الحذاء كصواريخ صغيرة، ولم يكن عسيراً أن أتذكر الآن اللفة التي قذف بها زملائي إلى نهر مجدالينا في رحلتي الأولى، أو الصندوق الجنائزي الذي سحبته بطول البلاد باكياً من الحنق خلال سنوات الليسيه الأولى، وانتهيت إلى أن أكون في النهاية حاملاً لدرجة البكالوريا. كنت أعتقد دائماً أن هناك شيئاً ليس لي في هذه الحمولات الزائدة عن الحد التي لا أستحقها، ولم تكن السنوات الطويلة في حياتي كافية لتكذيبها.

ما كدنا نلمح أشكال بعض الكنائس والأديرة في ضباب المساء حتى هبت علينا سحابة من الوطاويط الطائرة على رءوسنا، وفقط بقدرة الطبيعة لم تلقِ بنا إلى الأرض، كانت أصوات أجنحتها تشبه انطلاقة البرق وتترك من ورائها رائحة الموت، تركت الحقيبة من مفاجأة الرعب وانحنيت على الأرض رافعاً ذراعيّ على رأسي، إلى أن صرخت فيَّ امرأة عجوز كانت تسير إلى جانبي:

– صلِ صلاة البديعة.

أي: الصلات السرية لفك سحر هجوم الشيطان، تلك الصلاة الملعونة من الكنيسة والمقدسة من كبار الملحدين عندما لا يصلون إلى حد التجديف، انتبهت السيدة إلى أنني لم أكن أعرف الصلوات، أمسكتْ بحقيبتي من الطرف الآخر لتساعدني على حملها، وقالت لي:

– صلِ معي، ولكن هكذا: بإيمان.

وهكذا بدأت تُملي عليَّ أشعار "البديعة" وكنت أردد من ورائها بصوت مرتفع وبإيمان لم أشعر به أبداً بعد ذلك، أما سحابة الوطاويط، التي لا يمكنني أن

أصدق وجودها اليوم، اختفت في السماء قبل أن نُنهي صلاتنا. فقط بقي صوت البحر العظيم في جرف الشاطئ.

وصلنا باب الساعة الكبير. طوال مائة سنة كان هناك جسر متحرك يربط المدينة القديمة بحزام حي "خيتسماني" وأكواخ الفقراء المتراكمة، لكنهم كانوا يرفعون الجسر من التاسعة مساء حتى الفجر، ليبقى سكانها معزولين ليس فقط عن بقية العالم بل وعن التاريخ أيضاً. يقولون إن المستعمرين الإسبان بنوا ذلك الجسر خوفاً من قيام فقراء الأحياء الهامشية بالهجوم عليهم في منتصف الليل وذبحهم أثناء نومهم، إلا إنه يبدو أن شيئاً من حسناته بقيت بالمدينة، لأنه كان كافياً لي أن أخطو خطوة واحدة داخل الأسوار لأراها في كل عظمتها تحت الأضواء الوردية للسادسة مساء، ولم أستطع كتم مشاعر إحساسي بالميلاد من جديد.

لم يكن أقل من هذا، فقد تركت بوجوتا في بداية الأسبوع غارقة في بحيرة من الدماء والطين، والجثث المجهولة ترقد بين بقاياها المحترقة. وفجأة، ينقلب العالم إلى آخر في كارتاخينا. لم يكن هناك أثر للحرب التي تدمر البلاد، وكنت أبذل جهداً لأفهم هذه العزلة وذلك البحر الواسع، وذلك الإحساس بما كان يحدث لي في أسبوع واحد، وفي الحياة نفسها.

من كثرة ما سمعت من أحاديث عنه منذ ميلادي، تعرَّفت على الميدان الذي كانت تتوقف فيه عربات الخيول وعربات الكارو التي تجرها الحمير، وفي العمق حيث توجد حوانيت السوق الشعبي الذي يزدحم بالبهجة، وإن لم يكن معترفاً به في الذاكرة الرسمية بهذا الوصف، فقد كان آخر قلوب المدينة النابض منذ ميلادها، كانوا يسمونه خلال الاستعمار "باب التُجار"، ومنه كانوا يسيطرون على تحريك تجارة العبيد في الخفاء، ويتم إشعال النفوس ضد المحتل الإسباني، أسموه بعد ذلك "باب الكتبة"، لجلوس الكتبة بصدرياتهم القطيفية والأكمام المستعارة يكتبون رسائل الحب والغرام وكل أنواع الوثائق للأميين الفقراء،

معظمهم باعة كتب ممنوعة، وبشكل خاص الكتب التي كانت تمنع محاكم التفتيش تداولها، ويُعتقد أنهم كانوا أدوات التآمر ضد أحفاد الإسبان، ومع بدايات القرن العشرين كان أبي يمتحن قدراته كشاعر بكتابة رسائل الغرام في هذا الباب، وللحقيقة لم ينجح في هذه المهنة كما فشل في غيرها؛ لأن بعض زبائنه الفقراء لم يكونوا يطلبون منه كتابة الرسائل فقط، بل ويطلبون منه خمسة ريالات لإرسالها بالبريد.

يسمونه منذ عدة سنوات "باب الحلوى"، بمظلاته العفنة والشحاذين الذي يأتون لتناول الطعام من مخلفات السوق، وصرخات الحرب الهندية للذين يقبضون الثمن غالياً حتى لا يبلغوك بساعة موتك المشئومة، وتتأخر سفن الكاريبي الشراعية في الميناء لشراء الحلوى ذات الأسماء الجريئة التي يخترعها صناعها وينادون عليها بالغناء: "الجردة للقردة"، و"الشياطين للعيانين"، و"والجوز لفرقع لوز"، و"البانيلا لمانويلا". بالطيب والرديء فإن الباب لا يزال كما كان مركز المدينة التي يتم فيها مناقشة أمور الدولة من خلف ظهر الحكومة، والمكان الوحيد في العالم الذي يعرف فيه الباعة اسم الحاكم القادم قبل أن تختار بوجوتا رئيس الجمهورية.

خلال الإعجاب اللحظي بالضجيج، فتحت طريقي مُعرقلاً بحقيبتي التي أجرجرها بين الزحام في السادسة مساء، وقف عجوز بارز العظام ونظر إليَّ دون أن ترمش عيناه من رصيف ماسحي الأحذية، كانت عيناه باردتين، توقفت فجأة عن السير، وما إن لاحظ أنني رأيته حتى عرض عليَّ أن يحمل حقيبتي، شكرته، فقال في لغته الأم:

– ثلاثون تيساً.

مستحيل، ثلاثون سنتيماً لحمل حقيبة يعتبر قضمة هائلة للبيزوات الأربعة التي أحملها في جيبي حتى يصلني دعم أبويَّ الأسبوع القادم، قلت له:

– هذا ثمن الحقيبة بكل ما تحويه.

إضافة إلى أن البنسيون الذي سألتقي فيه مع جماعة بوجوتا لم يعد بعيداً، فوافق العجوز على ثلاثة، وعلق الحبال التي يحملها في عنقه ووضع الحقيبة على كتفه بقوة أكبر من قدرة عظامه، أسرع كعداء بقدميه الحافيتين عبر صف من البيوت الكولونيالية الكالحة بمرور القرون، كاد قلبي يقفز من فمي برغم سنواتي العشرين محاولاً ألا يضيع العداء الأولمبي عن عيني الذي اعتقدت أنه لم يتبق له من الحياة سنوات كثيرة، وبعد خمسة شوارع دخل باب الفندق الكبير، وقفز السلم درجتين درجتين، ووضع الحقيبة على الأرض دون أن يبدو عليه التعب، ومد كفه:

- ثلاثون تيساً.

ذكَّرته بأنني دفعت له، لكنه أصرّ على أن السنتيمات الثلاثة أجر الحمل حتى البوابة ولا تتضمن الصعود على السلم، أكدت صاحبة الفندق التي خرجت لاستقبالنا كلامه: صعود السلم له أجر منفصل. وقدَّمت لي وصفة استفدت منها بقية حياتي:

- سترى أن كل شيء مختلف في كارتاخينا.

ثم واجهت النبأ السيئ بعدم وصول أي من رفاقي في بنسيون بوجوتا، وإن كانت هناك حجوزات مؤكدة لأربعة أفراد، من بينهم أنا، وطبقاً للبرنامج المتفق عليه معهم أن نلتقي في الفندق قبل السادسة مساء في ذلك اليوم، لكن استبدال الأتوبيس الاعتيادي بشاحنة وكالة البريد أخرني ثلاث ساعات، ومع ذلك كنتُ أنا أول من وصل قبل الجميع، مع عجزي عن عمل أي شيء بالبيزوات الأربعة التي أملكها، ينقصها الثلاثة والثلاثون سنتيماً، فصاحبة الفندق كانت أماً حنوناً لكنها عبدة لقواعدها الخاصة، فقد كان يجب التأكيد على الإقامة خلال الشهرين في فندقها، ولم تقبل تسجيلي إذا لم أدفع الشهر الأول مقدماً: ثمانية عشر بيزو، متضمنة ثلاث وجبات يومياً في غرفة لستة أفراد.

لم يكن من المنتظر أن تصل مساعدة أبويَّ قبل أسبوع، ولهذا السبب فإن حقيبتي لن تمر من الباب ما لم يصل أصدقائي الذين يمكنهم مساعدتي، جلست في انتظارهم على كرسي مزين بزهور مرسومة، كنت متعباً بعد يوم كامل تحت الشمس الحارقة في شاحنة سوء حظي. الحقيقة لم يكن هناك أحد يثق في أحد في تلك الأيام، واتفاقنا على اللقاء هناك في ساعة محددة ويوم محدد بالضبط كان اتفاقاً يفتقد إلى الواقعية؛ لأننا لم نجرؤ على أن نقول، ولا حتى لأنفسنا، أننا في بلد في حالة حرب دامية ولها أذيالها في المقاطعات منذ سنوات، ومفتوحة وقاتلة في المدن منذ أسابيع.

بعد مرور ثماني ساعات، جالساً في فندق كارتاخينا لم أفهم ما الذي حدث لـ"خوسيه بالنسيا" وأصدقائه، فبعد ساعة من الانتظار دون خبر جديد، خرجت للتعرف على الشوارع الخالية. كان الليل يهبط مبكراً في إبريل، وكانت الأنوار العامة مضاءة، وكانت فقيرة جداً، ويمكن الخلط بينها وبين النجوم بين قمم الأشجار، دورة واحدة من خمس عشرة دقيقة بين منحنيات الجزء الكولونيالي كانت كافية لاكتشاف بفرح كبير أن تلك المدينة ليس لها أدنى علاقة بتلك الأثرية المحفوظة التي كانوا يحدثوننا عنها في المدارس.

لم يكن هناك أحد في الشارع، زحام البشر الذين جاءوا مع الفجر من الأحياء الهامشية للبيع والشراء انسحب إلى أحيائها في الخامسة مساء، وسكان الحي المسوَّر انغلقوا في بيوتهم للعشاء ولعب الدومينو إلى منتصف الليل. امتلاك السيارات الخاصة كان من عادات السكان خارج الحي المسوَّر، والخدمات القليلة لتلك السيارات بقيت خارج الأسوار، ولا يزال الموظفون يأتون إلى الميدان في أتوبيسات مصنوعة محلياً، ومن هنا يتجهون إلى مكاتبهم أو قفزاً على حوانيت باعة الأشياء الرخيصة المعروضة على الأرصفة العامة. وظل أحد حكام المدينة يأتي من حي المختارين ليصل إلى ميدان العربات في الأتوبيس نفسه الذي كان يذهب فيه إلى المدرسة.

عدم دخول السيارات كان إجبارياً؛ لأنه يجري عكس حركة الواقع التاريخي: لم تكن الشوارع الضيقة كافية لسير تلك السيارات في الحي القديم دون أن تصيب العربات التي تجرها الخيول، وخلال الأيام الحارة جداً، عندما يتم فتح الشرفات ليدخل نسيم الحدائق، كنا نسمع الحوارات الخاصة جداً كتردد أصوات الأشباح، والعجزة كانوا يستمعون إلى الخطوات المترددة على أرضية الشوارع الحجرية، يصغون إليها دون أن يفتحوا عيونهم ليتعرفوا عليها، ويقولون: "هناك تسمع خطوات "خوسيه" ذاهباً إلى حيث تسكن "تشابيلا"، والشيء الوحيد في الحقيقة الذي يثير غيظ النائمين كانت ضربات قطع الدومينو على الطاولات، التي كانت ترن في الحي المسوَّر كله.

كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي، فما أكاد أتعرف على واقع كتابات الفلسفة الكلامية في الكتب التي هزمتها الحياة، حتى شعرت بالبكاء أمام قصور النبلاء القدامى، هي نفسها التي كانت أمام عيني، بلا أبواب وينام الصعاليك في مداخلها. شاهدت الكاتدرائية بلا نواقيس؛ لأن القرصان "فرانثيس ريك" أخذها ليصنع منها مدافع. والقلة التي نجت من النهب أصابها الصدأ بعد أن حكم عليها سحرة الدين بالحرق في النيران بسبب أصواتها الكريهة الرنين التي تستدعي الشيطان. شاهدت الأشجار الذابلة والتماثيل التي لم تكن تبدو منحوتة من الرخام بل موتى من لحم ودم؛ لأنها لم تكن محفوظة في كارتاخينا ضد الأكسدة: الزمن يحفظ الأشياء على أصولها بينما العصور تشيخ، كان الأمر كذلك حتى ليلة وصولي، فقد كشفت لي المدينة عن حياتها الخاصة، ليست كأثر كرتوني صنعه المؤرخون، بل كمدينة من لحم ودم لم تعد تعتمد على الأمجاد العسكرية بل على كرامة بقاياها.

عدت إلى البنسيون بهذه الروح الجديدة، كانت الساعة تدق العاشرة في البرج، أخبرني الحارس النصف نائم أن أصدقائي لم يصلوا بعد ولكن حقيبتي في أمان بمخزن الفندق، حينها فقط انتبهت إلى أنني لم آكل شيئاً منذ إفطار بارانكيا

الرديء، وساقاي خائرتان من أثر الجوع، ولكني على استعداد لتقبل مجرد أن تتركني صاحبة البنسيون أنام هذه الليلة على كرسي في الصالون، ضحك الحارس من حسن نيتي، وقال بلهجته الكاريبية الحادة:

- لا تكن أبلهاً، بكل أكوام الأموال التي تمتلكها السيدة فهي تنام في السابعة مساء وتستيقظ في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي.

رأيت أنه سبب وجيه، فجلست على كرسي في حديقة بوليفار، في الناحية الأخرى من الشارع، في انتظار وصول أصدقائي دون إقلاق أحد. تكاد الأشجار الذابلة لا تظهر للعيان في ضوء الشارع؛ لأن أعمدة الإنارة تُضاء فقط أيام الأحد وفي الأعياد الرسمية، والكراسي الرخامية عليها آثار كتابات ممحوة ومُعاد الكتابة عليها بأيدي شعراء قبحاء. وفي قصر محاكم التفتيش، خلف الواجهة الملكية المحفورة من الحجارة وبوابتها التي تشبه بوابة كاتدرائية، تُسمع أنات طائر مريض لا يمكن أن يكون منتمياً إلى هذا العالم، قفزت رغبتي في التدخين في تلك اللحظة مع رغبتي في القراءة، ادمانان اختلطا معاً في شبابي، فتذكرت "النقطة المعاكسة" رواية "الدوس هيكسلي" التي منعني الرعب من مواصلة قراءتها في الطائرة، كنت أنام ومعي مفتاح حقيبتي، أشعلت السيجارة الأخيرة بإحساس غريب بالراحة والرعب، ثم أطفأتها في منتصفها كاحتياط لليلة بلا صباح.

الآن وأنا في حالة استعداد كامل للنوم على كرسي الحديقة الذي كنت أجلس عليه، بدا لي أن شيئاً ما كان مختفياً بين ظلال الأشجار الثقيلة، إنه تمثال "سيمون بوليفار"، ولا أقل من الجنرال "سيمون خوسيه انطونيو دي لا سانتيسيما ترينيداد بوليفار أي بلاثيوس"، بطلي الأوحد منذ أن أمرني جدي بتمجيده، بملابس الشرف البرّاقة ورأس إمبراطور روماني، وعليه براز النوارس.

لا تزال شخصيتي المحبوبة التي لا تُنسى، رغم تناقضاتها أو ربما بسبب تلك التناقضات نفسها، في النهاية لا يمكن مقارنتها بتلك التي حصل جدي بسببها

على درجة كولونيل، ووضع حياته في خطر من أجلها في الحرب عدة مرات محافظاً على وقوف الليبراليين ضد الحزب المحافظ الذي أسسه "سيمون بوليفار"، كنت غارقاً في تلك الحكايات الضبابية عندما أعادني إلى الواقع صوت حاد من خلف ظهري:

- يداك إلى أعلى.

رفعتهما فرحاً، من المؤكد أنهم أصدقائي فإذا بي أجد نفسي أمام اثنين من رجال البوليس في خرق مهلهلة، يوجهان إليّ بنادقهما الجديدة، كانا يريدان أن يعرفا لماذا خرجت على حالة حظر التجول التي تُطبق في هذه الساعة، لم أكن أعرف حتى إنهم طبقوا حظر التجول الأحد الماضي، كما أخبراني بذلك، ولا حتى استمعت صفارة حظر التجول أو ناقوسها أو أي شيء آخر يسمح لي بمعرفة منع السير في الشوارع، كان الجنديان متضايقان أكثر منهما رحيمان بي، عندما اطلعا على أوراق هويتي بينما كنت أشرح لهما لماذا أنا هناك، أعادا الأوراق دون الإطلاع عليها، وسألاني عن النقود التي أحملها في جيبي فقلت لهما إنني لا أملك سوى أربعة بيزوات، في تلك اللحظة طلب مني الأكثر سلاطة لسان أن أقدم له سيجارة، قدمت له بقايا السيجارة التي معي والتي كنت أفكر في تدخينها قبل النوم، أخذها مني ودخنها هو حتى احترقت أصابعه، بعد قليل أخذاني من ذراعي وسارا بي بطول الشارع، فيما أعتقد لرغبتهما في التدخين أكثر من رغبتهما في تطبيق القانون، بحثنا عن محل مفتوح لشراء سجائر فرط من فئة السنتيم، كانت الليلة ساكنة ورطبة تحت القمر المكتمل، والصمت مادة غير مرئية يمكن تنفسه كالهواء. في تلك اللحظة فهمت ما كان يحكيه لنا أبي دون أن نصدقه، عندما كان يتدرب على عزف الكمان فجراً في صمت المقابر ليشعر بأن ألحان "فالس الحب" يمكن سماعها في جميع أنحاء الكاريبي.

بعد التعب من البحث عن السجائر خرجنا من الأسوار باتجاه رصيف الميناء حيث الحياة هناك لها نوعية أخرى خلف السوق، حيث ترسو السفن المدرعة

وأخرى أصغر حجماً، كان مكان الساهرين المرحين والنافعين للمدينة، لهم الحق في الحصول على تصريح بالسير ليلاً بعد تطبيق حظر التجول بسبب مهنتهم، يأكلون حتى وقت متأخر من الليل في مطاعم في الهواء الطلق وبأسعار رخيصة ورفقة أفضل، هناك يتوجه ليس فقط العمال بل كل من يريد أن يأكل عندما لا يكون هناك طعام في أي مكان، لم يكن للمكان اسم رسمي ويطلقون عليه اسماً لا ينطبق عليه أبداً: الكهف.

وصل رجلا البوليس إلى هناك كما لو كانا في بيتهما، كان واضحاً أن الزبائن الجالسين على الطاولة يعرفونهما من وقت بعيد، ويشعران بالراحة بينهم، من الصعب معرفة الألقاب؛ لأنهم جميعاً يتعاملون بأسماء الشهرة، ويتحدثون بصوت مرتفع وجميعاً في نَفَسٍ واحد دون أن يفهم أي منهم الآخر، ولا حتى ينتظرون الرد ولا النظر في وجوه بعضهم البعض، يرتدون جميعاً ملابس العمل، عدا واحداً كان يرتدي بدلة اسموكنج من طراز عتيق، وله رأس أشيب، بجواره زوجته الكبيرة السن التي لا تزال عليها مسحة من جمال قديم، والكثير من الحلي الذهبية، حضورها ربما يكون علامة على مهنتها، لأن النساء اللاتي يسمح لهن رجالهن بالجلوس هناك كن قليلات جداً بسبب سوء شهرة المكان، كان يمكنني أن أعتقد أنهما سائحان لولا المرح البادي عليهما واللهجة المختلطة وعلاقتهما بالجميع. بعدها عرفت أنهما ليسا كما يدل عليه مظهرهما، ولكنهما زوجين عجوزين من كارتاخينا ضلا طريقهما ويرتديان ملابس السهرة لأي سبب من الأسباب ليتناولا طعام العشاء خارج البيت، وفي تلك الليلة وجدا مضيفهما نائماً والمطاعم مغلقة بسبب حظر التجول.

صاحب الكهف وجرسونه الوحيد اسمه "خوسيه دولوريس"، زنجي مراهق تقريباً، جميل جمالاً مقلقاً، يتمنطق بحرام ناصع البياض كالذي يرتديه المسلمون، يضع وردة قرنفل خلف أذنه، ولكن أكثر ما يبدو ظاهراً فيه هو

ذكاؤه المفرط، الذي يعرف كيف يستخدمه بلا حدود ليكون سعيداً وينشر السعادة من حوله، كان واضحاً أنه ينقصه القليل جداً ليصبح امرأة، وله شهرة لها ما يبررها بأنه ينام فقط مع زوجه. لم يحاول أحد أن يمزح معه حول وضعه؛ لأنه يمتلك طريقة وسرعة للرد، لا تمر حسنة دون شكر أو سوء نية دون رد، يقوم وحده بعمل كل شيء، من أول الطبخ عارفاً بما يفعل ويعرف ما يفضله كل زبون، إلى قلي قطع الموز الأخضر بيد وتلقي حسابات الزبائن باليد الأخرى، دون مساعدة من أحد، عدا طفل في حوالي السادسة من عمره يناديه بـ"ماما"، عندما انصرفنا شعرت أنني ممتن لهذا الاكتشاف، ولم أكن أتخيل أن هذا المكان الذي يأوي إليه الساهرون سيكون واحداً من الأماكن التي لا يمكن أن أنساها في حياتي.

بعد تناول الطعام رافقت الجنديين لاستكمال جولاتهما المتأخرة. بدأت نسمات الصباح، فكانت تحمل معها من بعيد مقطوعات موسيقية وصرخات نابعة من حالة سعادة بعيدة، لكن رجلي البوليس كانا يعرفان أنه في الأكواخ الفقيرة لا أحد يذهب إلى السرير تنفيذاً لحظر التجول، بل يقيمون حفلات الرقص كل ليلة في بيت مختلف، دون الخروج إلى الشارع حتى مطلع الفجر.

عندما دقت الساعة الثانية توجهنا إلى الفندق متأكدين أن أصدقائي قد وصلوا، لكن الحارس لعننا؛ لأننا أيقظناه من نومه بلا فائدة، فانتبه رجلا البوليس لحظتها إلى أنني لا أملك مكاناً لقضاء الليل فيه، فقررا مصاحبتي إلى معسكرهما، اعتقدت أنها سخرية زائدة عن الحد أخرجتني عن طوري فشتمتهما، فوجئ أحدهما برد فعلي الرجولي، فأوقفني عند حدي بوضع فوهة الرشاش في بطني. وقال لي ضاحكاً:

– لا تكن جباناً، تذكر أنك لا زلت مقبوضاً عليك بسبب خرقك لحظر التجول.

وهكذا نمت أول ليلة سعيدة لي– في غرفة حجز لستة أفراد على سرير غارق في عرق الغرباء– في كارتاخينا.

الغوص حتى أعماق روح المدينة أسهل من الحياة في أول يوم، قبل مرور أسبوعين كنت قد توصلت إلى حل لعلاقتي مع أبويَّ، اللذين وافقا بلا تحفظ على قراري الحياة في مدينة بعيدة عن الحرب، صاحبة الفندق، النادمة على حكمها عليَّ بالنوم أول ليلة في السجن، أسكنتني مع عشرين طالباً آخرين في عنبر حديث البناء على سطح بيتها الكولونيالي الجميل. لم تكن لدي شكوى من أي شيء لأنه كان نسخة كاريبية طبق الأصل من غرفة نوم الليسيه الوطني، وأقل تكلفة من بنسيون بوجوتا شاملاً كل شيء.

دخول كلية الحقوق تم حله في ساعة واحدة من خلال امتحان أمام السكرتير، "اجناثيو بيليث مارتينيث"، أستاذ الاقتصاد السياسي، لم أتمكن من العثور على اسمه في ذاكرتي. كان كالعادة، في حضور طلاب السنة الثانية جميعاً، من خلال الظلال لفت انتباهي وضوح الحكم ولغة الأساتذة المحددة، في منطقة داخل البلاد شهيرة بألعابها اللفظية. أول موضوع، كان من خلال الاختيار، حرب الانفصال في الولايات المتحدة، التي كنت أعرف عنها القليل جداً إن لم يكن لا شيء، كانت خسارة أنني لم أكن قد قرأت الروائيين الأمريكيين الجدد، الذين لا يكادوا يصلون إلينا، لكني كنت محظوظاً بأن الدكتور "بيليث مارتينيث" بدأ محاضرته العرضية برواية "كوخ العم توم" التي كنت أعرفها جيداً منذ البكالوريا، أمسكت بموضوعها فوراً، يبدو أن الأستاذين الآخرين كانا تحت تأثير ذكريات قديمة، فقد ذهبت الستون دقيقة المحددة للامتحان في عرض حماسي عن مخازي النظام العبودي في الولايات المتحدة. وتوقفنا عند هذا الحد، بشكل ما كنت أعتبره لعبة الروليت الروسية انتهت إلى أن يكون الامتحان مجرد محادثة شيقة استحقت درجات جيدة وبعض التصفيق الحميم.

وهكذا دخلت الجامعة لإنهاء السنة الثانية في القانون، مع وعد لم أكمله أبداً، بالتقدم لامتحان تكميلي كملحق في مادة أو مادتين كانتا باقيتين من

السنة الأولى في بوجوتا، بعض الزملاء تحمسوا لطريقتي في التعامل مع الموضوعات؛ لأنهم كانوا فيما بينهم يتفقون على الحرية التعبيرية في جامعة ساكنة في الصرامة الأكاديمية، كانت تلك من أحلامي اليومية منذ الليسيه، ليس لعدم اقتناعي المجاني، بل لأنها كانت أملي الوحيد لاجتياز الامتحانات بلا استذكار. إلا إنهم هم أنفسهم الذين كانوا ينادون بالاستقلالية في الفصول لم يتمكنوا سوى الخضوع أمام القدر، فكانوا يتقدمون للامتحانات بمجلدات غير عادية من كتب النصوص الاستعمارية التي حفظوها عن ظهر قلب، لحسن الحظ، فقد كانوا أساتذة مدربين على فن البقاء على قيد الحياة في الرقص أيام الجمعة، رغم أخطار القمع التي كانت تتزايد كل يوم بشكل فاضح من خلال اتفاقات مع النظام العام يتم توقيعها باليد اليسرى بينما ظل حظر التجول قائماً، وعندما انتهى حظر التجول ولدوا من جديد بطريقتهم في القمع السابق عليه، خاصة في توريثيس وخيتسماني أو عند أقدام جبال البويا، كانت تلك المنطقة تضم الأحياء الأكثر مرحاً خلال تلك الأيام المظلمة، يكفي النظر من النافذة لاختيار الحفل الذي نفضله أكثر من غيره، وبخمسين سنتيما يمكن الرقص حتى الفجر تحت تأثير الموسيقى الأكثر اشتعالاً في الكاريبي، مضخمة برنين المكبرات، والرفيقات المدعوات على شرف الحفل كن أنفسهن الطالبات اللاتي كنا نراهن خلال خروجهن من المدرسة طوال الأسبوع، فقط كن يرتدين الملابس الموحدة للذهاب إلى قداس الأحد، ويرقصن كنساء مرشحات للحياة الطيبة تحت مراقبة أعين العمات الخبيرات أو الأمهات الليبراليات، في إحدى تلك الليالي كنت أسير في حي خيتسيماني، الذي كان خلال الاستعمار حياً لسكن العبيد، تعرفت كنوع من الإشارة ضربة على الظهر والصوت الذي لا يمكن إنكاره:

– أيها الصعلوك.

لقد كان "مانويل ثاباتا اوليفيي" من سكان شارع مالا كريناثا، حيث كانت تعيش عائلة أجداده الأفارقة. تعرفنا على بعض من قبل في بوجوتا، في وسط نيران 9 إبريل، وكانت أول دهشة لنا في كارتاخينا أن يعثر كل منا على الآخر على قيد الحياة، إضافة إلى أن "مانويل" كان طبيباً متبرعاً فقد كان روائياً، وناشطاً سياسياً، وداعية للموسيقى الكاريبية، لكن موهبته المسيطرة كانت حل مشاكل كل الناس، لم نكد نتبادل خبرات تجربتنا في يوم الجمعة المشئوم وخططنا للمستقبل، حتى عرض أن أجرب حظي في الصحافة. قبلها بشهر أنشأ الزعيم الليبرالي "دومينجو لوبث ايثكاورياسا" صحيفته "اليونفرسال" وكان يرأس تحريرها "مانويل ثابالا". سمعت عنه ليس كصحافي ولكن كمطَّلع على جميع أنوا ع الموسيقى، وكشيوعي متقاعد، أصر "ثاباتا اوليفايي" على أن نذهب لمقابلته، لأنه يعرف أنهم كانوا يبحثون عن أشخاص جدد ليقدم المثال على صحافة خلاقة ضد الصحافة الروتينية المسالمة التي تتربع على عرش الإعلام في البلاد، وبشكل خاص في كارتاخينا، التي كانت في ذلك الوقت من المدن المتخلفة.

كنت أعرف بشكل واضح أن الصحافة ليست مهنتي، أريد أن أكون كاتباً مختلفاً، ولكني أحاول أن أكون كذلك من خلال تقليدي لكُتاب آخرين لا علاقة لهم بي، لذلك كنت في تلك الأيام في حالة هدنة تأملية، لأنه بعد قصصي الثلاث في بوجوتا التي أشاد بها كثيرا "ادواردو ثالاميا" ونقاد آخرون وأصدقاء جيدون وسيئون، كنت أشعر أنني في حارة سد، أصر "ثاباتا اوليفايي" ضد كل مبرراتي في أن الصحافة والأدب سينتهيان في نهاية الأمر إلى أن يكونا شيئاً واحداً، وعلاقة مع "اليونفرسال" يمكنها أن تؤمن ثلاثة اتجاهات في واحد: حل مشكلة حياتي بشكل كريم ونافع، العمل في وسيلة إعلامية مهنية، وهي مهنة محترمة في حد ذاتها، والعمل مع "كليمنتي مانويل ثابالا"، أفضل أستاذ في الصحافة يمكنني أن أتخيله، صعوبة الخجل التي أصابتني به تلك المبررات البسيطة جداً أمكنها أن

تنقذني من كارثة، لكن "ثاباتا اوليفايي" لم يكن يعرف الحياة بلا مواجهة الفشل، وتواعد معي في اليوم التالي في الخامسة مساء في المبنى رقم 381 بشارع سان خوان دي ديوس، مقر الصحيفة.

نمت في تلك الليلة نوماً متقطعاً، وفي اليوم التالي، في الإفطار، سألتُ صاحبة الفندق أين يقع شارع سان خوان دي ديوس، وأشارت لي بإصبعها من النافذة، وقالت لي:

– هناك، على بعد شارعين من هنا.

كانت هناك مكاتب "اليونفرسال" أمام الجدار الحجري الضخم لكنيسة سان بدرو كليفر أول قديس في الأمريكتين، بجسده الكامل معروض منذ أكثر من مائة عام تحت المذبح الأكبر، في مبنى كولونيالي قديم محاط بترميمات جمهورية وبابين كبيرين ونوافذ يمكن منها رؤية الصحيفة. لكن رعبي الحقيقي كان خلف شرفة بلا حواجز خشبية على بعد ثلاثة أمتار من النافذة: رجل ناضج ووحيد ويرتدي بدلة بيضاء وربطة عنق، داكن البشرة وشعر جاف وأسود يشبه شعر الهنود، يكتب بقلم رصاص على مكتب قديم بين أوراق متراكمة. عدت من جديد للسباحة عكس أحاسيس متناقضة، تشككت مرتين وفي الثالثة والرابعة لم يكن لدي شك في أن هذا الرجل هو "كليمنتي مانويل ثابالا"، تماماً كما تخيلته، لكن أكثر إثارة للخوف، اتخذت قراري مرتعباً بألا أذهب إلى الموعد في ذلك المساء مع رجل يكفي رؤيته من خلال النافذة لأكتشف أنه يعرف أكثر من اللازم عن الحياة والمهن. عدت إلى الفندق وأهديت نفسي يوماً آخر من تلك الأيام التي لا أشعر فيها بالندم، مستلقياً على ظهري في سريري مع رواية "حوافظ النقود المزيفة" لـ"اندريه جيد"، وأدخن بلا توقف. في الخامسة مساء، انفتح باب الغرفة بعنف بضربة خشنة كطلقة رشاش. وصرخ "ثاباتا اوليفايي" عند دخوله:

– هيا عليك اللعنة، "ثابالا" ينتظرك، لا أحد في هذا البلد يمكنه أن يدعه ينتظر.

في البداية كان الأمر أصعب مما تخيلته في كابوس، استقبلني "ثابالا" دون أن يعرف ماذا يفعل، كان يدخن بلا توقف إضافة إلى اختناق الحر، طاف بنا في الصحيفة كلها، من ناحية توجد إدارة التحرير والمكاتب الإدارية، ومن الناحية الأخرى صالة التحرير والورشة بثلاثة مكاتب خالية في تلك الساعة المبكرة، وفي العمق ماكينة طباعة خارجة لتوها من الحرب، وماكينتي لينوتيب وحيدتين.

المفاجأة الكبيرة أن "ثابالا" قرأ قصصي الثلاث ويرى أن مقال "ثالاميا" عني عادل، فقلت له:

– أنا لا أرى ذلك، فأنا لا أحب تلك القصص، كتبتها بشكل غير واعٍ وبعد أن قرأتها مطبوعة لم أعد أعرف كيف أستمر.

نفث "ثابالا" الدخان بعمق وقال لـ"ثاباتا اوليفايي":

– هذه علامة طيبة.

انتهز "مانويل" الفرصة بسرعة وقال له إنني يمكن أن أكون نافعاً في الصحيفة خلال أوقات فراغي بالجامعة، فقال "ثابالا" إنه فكر في الشيء نفسه عندما طلب منه "مانويل" موعداً لمقابلتي، قدمني للدكتور "لويث اثكاوريانثا" مدير الصحيفة كمتعاون محتمل عما تحدثا فيه في الليلة السابقة.

قال المدير بابتسامته الأبدية كفارس قديم:

– سيكون أمراً عظيماً.

لم نتفق على شيء، لكن الأستاذ "ثابالا" طلب مني أن أعود في اليوم التالي ليقدمني لـ"هيكتور روخاس هيريثو"، الشاعر والرسام الممتاز وكاتب عمود أساسي. نتيجة خجلي الذي لا أجد له مبرراً حتى اليوم، لم أقل له إنه كان أستاذي في مادة الرسم بمدرسة سان خوسيه، عند خروجي من هناك، قفز "مانويل" في ميدان الجمارك من فرط السعادة، أمام واجهة كنيسة سان بدرو كليفر، وصرخ بفرحة سابقة لأوانها:

– ها قد رأيت، أيها النمر، المستقبل مفتوح أمامك.

أجبته بعناق وديّ حتى لا أحبطه، لكن كانت لدي شكوكي حول مستقبلي، سألني حينها "مانويل" رأيي في "ثابالا"، فأجبته بالحقيقة، أرى إنه صائد أرواح، ربما كان هذا هو السبب الرئيسي للمجموعات الشبابية التي تتغذى من حذره، أنهيت، لا شك في أن مظهره الخادع كشيخ قبل الأوان، وربما كانت طريقته في التعامل وراء إحباط دوره في الحياة العامة في البلاد.

هاتفني "مانويل" ليلاً غارقاً في الضحك من أثر حوار له مع "ثابالا"، فقد حدثه هذا عني بحماس كبير، وأشار إلى ثقته في أنني سأكون إضافة هامة لصفحة الرأي، وأن المدير كان يعتقد الشيء نفسه، لكن السبب الحقيقي لمكالمته كان يريد أن يحكي لي أن الشيء الوحيد الذي يزعجه هو خجلي المريض الذي يمكن أن يكون عقبة كبيرة في حياتي.

إذا كنتُ قد قررت في آخر لحظة العودة إلى الصحيفة ذلك لأن زميلي في السكن فتح باب الحمّام ووضع أمامي صفحة الرأي في "اليونفرسال"، كانت هناك مقالة مرعبة حول وصولي إلى المدينة، تلزمني ككاتب قبل أن أثبت إنني كاتب وكصحافي قبل أربع وعشرين ساعة من رؤيتي لصحيفة من الداخل لأول مرة في حياتي، أما "مانويل" الذي هاتفني على الفور ليهنئني، فقد حمّلته مسئولية كتابة هذا بغضب شديد قبل أن يستشيرني، إلا أن شيئاً تغير في حياتي وربما إلى الأبد، عندما علمت أن المقالة كتبها الأستاذ "ثابالا" بخط يده، فقمت بارتداء بنطلوني وعدت إلى صالة التحرير لأشكره، فقدمني إلى "هيكتور روخاس هيريثو"، الذي كان يرتدي بنطلوناً كاكياً وقميصاً مزيناً بالزهور الأمازونية، وكلمات كبيرة منطلقة من صوته الجهير، الذي لا يتوقف عن الحوار حتى يمسك بفريسته. تعرف عليَّ هو، بالطبع، كتلميذ من بين تلاميذ مدرسة سان خوسيه في بارانكيا.

الأستاذ "ثابالا"- كما يناديه الجميع- وضع في حوارنا ذكرى صديقين أو ثلاثة مشتركين، وآخرين يجب أن أتعرف عليهم، ثم تركنا بعدها وحدنا وعاد إلى حربه الطاحنة مع قلمه الرصاص يكتب على أوراقه العاجلة، كما لو كان منبت الصلة تماماً عنا، واصل "هيكتور" حديثه معي عن قطرات اللينوتيب كما لو لم تكن له مع "ثابالا" أية علاقة، كان متحدثاً لا يتعب، وذكاء لغوي لا يضاهيه أحد، ومغامر خيالي يخترع وقائع بعيدة الاحتمال ينتهي إلى تصديقها هو نفسه، تحدثنا لساعات طويلة عن أصدقاء آخرين أحياء أو أموات، وكُتبٌ ما كان يجب كتابتها أبداً، وعن نساء نسينهن وأخريات لا نستطيع نسيانهن، وعن شواطئ الغرام الكاريبية في تولوو- حيث ولد هو- وعن السحرة وكوارث اراكاتاكا التوراتية، عن كل ما كان وما كان يجب أن يكون، دون أن نشرب شيئاً، ودون أن نتنفس، ولكننا كنا ندخن بشراهة كما لو كنا نخاف ألا تعطينا الحياة الفرصة لنتحدث عن كل ما نريد أن نتحدث عنه.

في العاشرة ليلاً، عندما تم إغلاق الصحيفة، وضع الأستاذ "ثابالا" الجاكيت، وأمسك برباط عنقه، وبخطوات راقص باليه بقيت له من الشباب، دعانا إلى تناول الطعام، في الكهف، كما كان متوقعاً، حيث كانت تنتظره مفاجأة "خوسيه دولوريس" وعدد من زبائنه المتخلفين الذين تعرفوا عليّ كزبون قديم، وازدادت المفاجأة عندما مرَّ أحد الجنديين اللذين رافقاني خلال زيارتي الأولى، وأطلق نكتة حول ليلتي الأولى في المعسكر، وصادر مني علبة سجائر لم أكن دخنت منها شيئاً، وتولى "هيكتور" مع "خوسيه دولوريس" القيام بحوار مزدوج المعنى أضحك الحاضرين أمام صمت الأستاذ "ثابالا" المتواطئ، وتجرأت أنا على حشر بعض الردود غير المضحكة، أفادتني على الأقل ليتعرفوا عليّ كواحد من الزبائن القليلين الذين يخصهم "خوسيه دولوريس" بالطعام المؤخر الدفع حتى أربع مرات في الشهر.

بعد تناول الطعام، واصلنا "هيكتور" وأنا حديث المساء على ممر الشهداء، الذي تكومت أمامه بقايا قمامة السوق الشعبي، كانت ليلة رائعة في مركز العالم، أعطاني "هيكتور" في فجر تلك الليلة أول خيوط التاريخ السري لكارتاخينا، الغارقة في حمّام من الدموع، والتي ربما تكون أقرب إلى الحقيقة منها إلى خيال الأكاديميين المتواطئ، حدثني عن الشهداء العشرة الذين كانت أنصبتهم التذكارية على جانبي الميدان تخليداً لبطولاتهم، تقول الحكاية الشعبية- يبدو أنها حكايته هو- إنهم عندما وضعوا النصب الأصلية لم يكن النحاتون قد كتبوا أسماء الشهداء بعد ولا تواريخهم، لذلك عندما رفعوها لحفرها عليها لم يعرفوا أياً منها يعود إلى أي من الشهداء والتواريخ، فاضطروا إلى وضعها بشكل عشوائي دون معرفة أي من تلك النصب تشير إلى أي من هؤلاء الشهداء، دارت الحكاية كنكتة لسنوات طويلة، لكنني فكرت، على العكس من ذلك، إنها كانت حالة من حالات العدالة التاريخية التي تولت منح القدسية المجهولة بلا أسماء ولا اهتمام بنهايتهم المشتركة.

تكررت تلك الليالي الساهرة يومياً تقريباً خلال سنواتي في كارتاخينا، ولكن منذ الليلة الأولى أو الثانية انتبهت إلى أن "هيكتور" كانت لديه القدرة على الجاذبية اللحظية، وبرؤية معقدة للصداقة لا يفهمها إلا نحن من نحبه كثيراً وبلا تحفظ، فقد كان رقيقاً وقادراً في الوقت نفسه على الانفجار غضباً، وأحياناً بنتائج كارثية، يحتفل بها بعد ذلك على أنها من أفضال الإله الصغير. كنت أفهم حالته في ذلك الوقت، وإذا كان "ثابالا" يقوم بالمستحيل لأننا كنا نحبه جداً، في الليلة الأولى، مثل ليالٍ أخرى، بقينا في ممر الشهداء حتى بزوغ أضواء الفجر الأولى، تحمينا من حظر التجول مهنتنا كصحافيين، كان لـ"هيكتور" صوتاً وذاكرة حادين، فعندما شاهد انعكاس اليوم الجديد على صفحة البحر، قال:

– أتمنى أن تنتهي هذه الليلة كما في "كاسا بلانكا".

ولم يزد شيئاً، لكن صوته كشف ببريقه عن صورة "همفري بوجارت" و"كلود راينز" يسيران كتفاً لكتف في ضباب الفجر باتجاه الأفق اللامع وتلك الجملة العظيمة للنهاية المأساوية السعيدة: "هذه بداية صداقة عظيمة".

استيقظت بعدها بثلاث ساعات على هاتف من الأستاذ "ثابالا" بجملة أقل سعادة:

- إلى أين وصلت في هذا العمل الكبير؟

احتجت إلى بضع دقائق لأفهم إنه كان يشير إلى تعاوني مع الصحيفة في اليوم التالي، لا أذكر أننا توصلنا إلى أي اتفاق، ولا أنني قلت: لا نعم ولا لا عندما طلب مني كتابة أول مقال، لكنني شعرت في ذلك الصباح أنني قادر على القيام بأي شيء بعد المسابقة الكلامية الأوليمبية لليلة السابقة، من الممكن أن يكون "ثابالا" قد فهم على هذا النحو، فقد كان قد حدد بعض موضوعات افتتاحية اليوم وأشرت عليه بموضوع آخر اعتقدت إنه أكثر حضوراً: حظر التجوال.

لم يقدم لي أية توجيهات، كنت أريد أن أحكي مغامرتي في أول ليلة لي في كارتاخينا وهذا هو ما فعلته، كتبتها بخط يدي؛ لأنني لم أعرف التفاهم مع الآلة الكاتبة التاريخية الموجودة في إدارة التحرير، كانت عملية ولادة في أربع ساعات تقريباً، وقام الأستاذ بمراجعتها دون أدنى علامة على وجهه تكشف عن وجهة نظره، إلى أن عثر على الطريقة الأقل مرارة ليقوله لي:

- ليست سيئة، ولكن من المستحيل نشرها.

لم يفاجئني، بل على العكس، كنت أتوقع رأيه، وشعرت للحظات بأنه خفف عني حمل أن أكون صحافياً، ولكن أسبابه الحقيقية، التي كنت أجهلها، كانت حاسمة: منذ 9إبريل يوجد في كل صحيفة رقيب من الحكومة يجلس على مكتب في إدارة التحرير من السادسة مساء كما لو كان في بيته، ويملك سلطة منع نشر حرف واحد يمكن أن يشير إلى الأمن العام.

كانت لأسباب "ثابالا" بالنسبة لي ثقلاً أكثر من ذلك الثقل الذي تمثله أسباب الحكومة، وأنا لم أكتب تقريراً صحافياً، بل رأي شخصي في حدث خاص دون أن أهدف إلى كتابة افتتاحية صحافية، أيضاً، أنني لم أتناول حظر التجول كأداة حكومية شرعية، ولكن كأداة استخدمها رجلا البوليس ليحصلا على سجائر ثمنها سنتيماً واحداً، لحسن الحظ، قبل أن يصدر حكم الإعدام عليّ، أعاد لي الأستاذ "ثابالا" المقال الذي يجب أن أعيد كتابته من البداية، لا ليقرأه هو ولكن ليقرأه الرقيب، وتمنى عليّ ألا يزيد عن ورقتين، قال لي:

– الموهبة الأدبية أنت تمتلكها، هذا لا يمكن الشك فيه، ولكن سنتحدث عن هذا فيما بعد.

هكذا كان هو، منذ اليوم الأول لي في الصحيفة، وعندما تحدث معي "ثابالا" ومع "ثاباتا اوليفيي"، أثار انتباهي عادته الغريبة في الحديث بالنظر إلى وجه الآخر، فيما تكون أظافره على شعلة السيجارة نفسها، في البداية سبب لي هذا إحساساً بعدم الأمان المقلق، وأكثر الأشياء الغبية التي حدثت معي، بسبب الخجل المطلق، كان عندما استمتعت إليه بانتباه حقيقي واهتمام كبير، ولكن دون أن أنظر إليه هو بل إلى "مانويل" لأعرف من وجهيهما نتائجي الخاصة. بعدها، عندما تحدثنا مع "روخاس هيارثو"، وبعدها مع المدير "لوبث اسكاورياثا"، ومع آخرين، انتبهت إلى أنها كانت عادة "ثابالا" الخاصة عندما يتحدث مع مجموعة من الناس، وفهمته على هذا النحو، وهكذا استطعنا هو وأنا أن نتبادل الأفكار والمشاعر عبر تواطؤ آخرين غافلين ووسطاء أبرياء، مع ثقة الأيام تجرأت على أن أخبره برأيي هذا، وشرح لي هو دون أدنى دهشة أنه كان ينظر إلي الآخر جانبياً حتى لا يلقي بدخان السجائر في وجهه، لقد كان هكذا: لم أعرف في حياتي شخصاً عنده فضيلة الصبر والهدوء، وبإحساس متمدين مثله، لأنه عرف دائماً أن يكون ما أراد: علامة في الظل.

في الواقع، كنت قد كتبت من قبل خطباً وأشعاراً ناقصة خلال وجودي في ليسيه ثيباكيريا، ونداءات وطنية، ومذكرات احتجاج عن سوء الأغذية، والقليل الآخر منه رسائلي إلى العائلة التي كانت أمي تعيد لي بعضها بعد تصحيح أخطائي الإملائية حتى وأنا مُعترف بي ككاتب، وأخيراً تم نشر المقال في صفحة الافتتاحية ولكن لم تكن له علاقة بمقالي الذي كتبته. ما بين تدخلات الأستاذ "ثابالا" والرقيب، فما تبقى لم يكن أكثر من نثر غنائي لا معنى ولا أسلوب له وقضى على ما تبقى منها التطرف اللغوي للمصحح، في الساعة الأخيرة اتفقنا على عمود يومي، ربما لتحديد المسئولية، باسمي كاملاً وتحت عنوان: نقطة ومن أول السطر.

تمكن "ثابالا" و"روخاس"، بخبرتهما الطويلة، من مساعدتي على تخطي هموم مقالي الأول، وبعدها تجرأت على مواصلة كتابة المقال الثاني والثالث، فكانا أفضل. وبقيت في التحرير عامين تقريباً أنشر مقالين يومياً، أحدهما بتوقيع والآخر بلا توقيع، وكنت على وشك الزواج من ابنة شقيق الرقيب.

لا زلت أتساءل كيف كان يمكن أن تكون حياتي دون قلم الأستاذ "ثابالا" وضغوط الرقابة، التي كان وجودها تحدياً خلاقاً، ولكن الرقيب كان أكثرنا انتباهاً لهوسه بالقمع، فالإشارة إلى كبار الكتاب يعتقد أنها شراك خداعية تثير الشبهة، كما كانت في الكثير منها تهدف إلى هذا، يرى أشباحاً حيث لا توجد، كان عاشقاً لثربانتيس كلاماً، يفترض معاني متخيلة، في ليلة من لياليه السيئة الحظ قضى في الحمّام ربع ساعة، واعترف لنا مرة أنه كان على وشك الجنون بسبب حالات الرعب التي كنا نتسبب له فيها، فصرخ:

– اللعنة، بهذه السرعة لن يتبقى لي مؤخرة.

تمت عسكرة البوليس كنوع من التعبير عن حزم الحكومة في التعامل مع العنف السياسي الذي كان يُدمي البلاد، مع قليل من الاعتدال في مناطق الشاطئ

الأطلنطي، إلا إنه في بدايات مايو أطلق البوليس النار بلا أسباب واضحة على مسيرة دينية بميدان الكارمن دي بوليفار خلال احتفالات الأسبوع المقدس، على بعد عشرين فرسخاً من كارتاخيا، وأنا كنت أشعر بضعف خاص تجاه تلك البلدة، حيث نشأت العمة "ماما"، وحيث اخترع جدي أسماكه الذهبية، فيما كان الأستاذ "ثابالا" مولوداً في قرية سان خاشينتو المجاورة، فطلب مني طلباً غريباً، وهو أن أتولى أمر الافتتاحية خلال تلك الأحداث دون أدنى اهتمام بتعليمات الرقابة وتحمل كل تبعاتها، فكان مقالي الأول بلا توقيع في صفحة الرأي طالبت فيه الحكومة إجراء تحقيق حول الحادث ومعاقبة المسئولين عنه، وأنهيت المقال بسؤال: "ما الذي حدث في بلدة الكارمن دي بوليفار؟". وأمام الصمت الرسمي، وخلال حرب مفتوحة مع الرقابة، قررنا الاستمرار في طرح السؤال مع مقال يومي في الصفحة نفسها وبقوة متزايدة، وعلى استعداد لإثارة غضب الحكومة إلى أكثر مما هي غاضبة، وبعد ثلاثة أيام، أكد مدير الصحيفة لـ"ثابالا" إني كنت متفقاً مع إدارة التحرير كلها، وكان هو موافقاً على أنه يجب علينا أن نستمر في طرح الموضوع، ولذلك ظللنا نطرح السؤال، مع ذلك الشيء الوحيد الذي وصلنا من الحكومة: أنهم أصدروا أمراً أن يتركونا وحدنا نطرح الموضوع كما لو كنا مجموعة من المجانين، وحتى تتوقف أسطوانتنا وحدها، لم يكن الأمر سهلاً، لأن سؤالنا اليوم كان في الشارع على كل لسان كتحية شعبية: "أهلاً يا أخي: ماذا حدث في بلدة كارمن ديل بوليفار؟".

في ليلة هادئة أغلقت دورية مسلحة من الجيش شارع خوان دي ديوس بضجيج هائل من الأصوات والسلاح، ودخل الجنرال "أرنستو بولونيا بويو" قائد البوليس الجيش بخطوات واثقة إلى مبنى "اليونفرسال"، كان يرتدي ملابسه العسكرية البيضاء التي يستخدمها في الاحتفالات الكبرى، وسيفه معلق إلى جانبه بخيوط من الحرير، وكانت أزراره تلمع كما لو كانت من الذهب، يستحق

شهرته كرجل أنيق ولطيف، رغم أننا كنا نعرف إنه صعب خلال لحظات الحرب والسلام، وهو ما استطاع إثباته بعد ذلك بسنوات عندما كان يقود الفرقة الكولومبية في الحرب الكورية، لم يتحرك أحد طوال ساعتين من التوتر التي تحدَّث خلالها مع المدير خلف الباب المغلق، شربوا خلالها اثنين وعشرين فنجاناً من القهوة السوداء، بلا تدخين ولا كأس خمر واحد؛ لأن كلاهما لم يكن يمارس هذه العادة، عند خروجه، كان الجنرال لا يزال متوتراً رغم أنه ودعنا واحداً واحداً، ومعي توقف أكثر قليلاً عن غيري، ونظر إلى عينيَّ بشكل مباشر بعيني قطٍ متوحش، وقال لي:

- حضرتك ستصل بعيداً.

قفز قلبي بين ضلوعي، لأنني فكرت أنه يعرف كل شيء عني، والبعيد بالنسبة له يمكن أن يكون الموت، وخلال الحوار بين المدير و"ثابالا" عن حواره مع الجنرال كشف له أنه كان يعرف أسماء وألقاب كُتاب مقالات الافتتاحيات اليومية، وقال المدير في إشارة تكشف عن شخصيته إنه أكد له أنها أوامره الخاصة، وأن الأوامر في الصحف تماماً مثل الأوامر في المعسكرات لا بد من تنفيذها، على أية حال نصحه الجنرال أن يخفف من حملته، حتى لا يجد مجنوناً في الكهف يحاول أن ينتقم بنفسه باسم الحكومة، وفهم المدير وكلنا فهمنا حتى ما لم يقله الجنرال، لكن أكثر ما أدهش المدير أن يعرف الجنرال الحياة اليومية للصحيفة كما لو كان يعيش معنا، لم يشك أحد في أن الرقيب كان عينه علينا، رغم أن الرقيب أقسم ببقايا أمه أنه لم يكن هو، الشيء الوحيد الذي لم يحاول الجنرال مناقشته هو الإجابة على سؤالنا اليومي، ونصحنا المدير المشهور بأنه خبير بالأمور أن نصدق ما قاله لنا؛ لأن الحقيقة يمكن أن تكون أسوأ.

منذ أن ألزمت نفسي بالحرب ضد الرقابة تخليت عن الجامعة والقصص، ولحسن الحظ إن معظم الأساتذة لم يكونوا يسجلون الحضور والغياب، وهذا لم يكشف قلة حضوري، إضافة إلى أن الأساتذة الليبراليين كانوا على علم

بمغامراتي مع الرقابة، ويعانون من أجل البحث عن الطريقة التي يساعدوني بها في الامتحانات. اليوم، وأنا أحاول أن أحكي هذا، لا أعثر على تلك الأيام في ذاكرتي، وانتهيت إلى أن أصدق النسيان أكثر من الذاكرة.

كان أبواي ينامان هادئين منذ أن أخبرتهما أن ما أكسبه من الصحيفة كان كافياً لأعيش. وهذا لم يكن صحيحاً؛ لأن الراتب الشهري لصحفي تحت التمرين لم يكن يكفيني لأسبوع واحد، وقبل مرور ثلاثة أشهر كان عليَّ أن أغادر البنسيون بديون غير قابلة للدفع قايضتها المالكة مقابل مقال في صفحة الاجتماعيات بمناسبة عيد ميلاد حفيدتها الخامس عشر. لكنها قبلت هذه المقايضة مرة واحدة.

غرفة النوم الأسهل والأكثر برودة في المدينة كانت لا تزال ممر الشهداء، وحتى في ظل تطبيق حظر التجول، كنت أنام هناك جالساً عندما كنت أنتهي من مناقشات الفجر، وفي أحيان أخرى أنام في مخزن الصحيفة مفترشاً لفائف الورق، أو أظهر بسريري المعلق تحت إبطي في غرفة الطلاب المتعقلين، ماداموا يحتملون كوابيسي وعاداتي السيئة بالحديث أثناء النوم، وهكذا عشت بفضل الحظ والصدفة، آكل ما أجد وأنام حيث يريد الله، إلى أن عرضت عليَّ عائلة فرانكو مونيرا الحنونة وجبتين يومياً بسعر أقرب إلى الإحسان. أب العائلة- بوليفار فرانكو باريخا- كان مُعلماً تاريخياً في مدرسة ابتدائية، وله عائلة مرحة، مجنونة بالفنانين والكُتاب، يجبرونني على الأكل أكثر من الذي دفعت لهم ثمنه حتى لا يجف مخي، وفي أحيان كثيرة لم أكن أملك ثمن الطعام، ولكنهم كانوا يقنعون بأن أقرأ عليهم قصائد بعد تناول الطعام، من القصائد الكثيرة التي كنت ألجأ إليها في هذه المقايضة أغاني الحب التي كتبها خورخي مانريكي بعد موت أبيه، أو "الرومانث الغجري" لجارثيا لوركا.

بيوت الدعارة تحت السماء المفتوحة على شواطئ توسكا، بعيداً عن صمت الأسوار المثير للتوتر، كانت أكثر طمأنينة عن فنادق السائحين المنتشرة على الشواطئ، كنا نصف دستة من الطلاب نقيم في "الثيثني" من أول الليل للاستعداد للامتحانات النهائية تحت الأضواء القوية لفناء الرقص، كانت تُغنينا نسمات البحر وأصوات السفن عن ضجيج نحاس الموسيقى الكاريبية واستفزاز الفتيات اللاتي كن يرقصن بلا ملابس داخلية؛ وبفساتين واسعة جداً لترفعها نسمات البحر حتى وسطهن، تدعونا بعض العجائز للنوم معهن ببقايا الحب لزمن مضى، واحدة منهن، التي لا زلت أذكر جيداً حجمها واسمها، تركت نفسها تنجذب إلى الحكايات التي كنت أقصها عليها أثناء نومها، وبفضلها نجحت في أداء امتحان مادة القانون الروماني بسهولة، وهربت من عدة هجمات بوليسية تحرِّم النوم في الحدائق، كنا نتفاهم كزوجين سعيدين، ليس فقط في السرير، بل والقيام بالواجبات المنزلية التي كنت أقوم بها فجراً لتنام هي بضع ساعات.

حتى تلك اللحظة بدأت أعتاد جيداً على العمل في كتابة الافتتاحية، والتي كنت أعتبرها نوعاً من أشكال الأدب أكثر منها كتابة تتعلق بمهنة الصحافة، بقيت بوجوتا مثل كابوس من الماضي على بعد مائتي فرسخ؛ وأكثر من ألفي متر عن سطح البحر، التي لم أعد أذكر منها سوى رائحة رماد 9إبريل، كنت لا أزال مستمراً مع حمى الفنون والأدب، خاصة في مناقشات منتصف الليل، لكني بدأت أفقد حماسي لأكون كاتباً، كان هذا حقيقة إلى درجة أنى لم أعد لكتابة القصة بعد القصص الثلاث الأولى التي نشرتها في "الاسبكتادور"، إلى أن عثر عليَّ "ادواردو ثالاميا" مع بدايات يوليو وطلب مني بوساطة خاصة من "ثابالا" أن أرسل له قصة جديدة لصحيفته بعد ستة أشهر من الصمت، وبما أن الدعوة جاءت منه عدت إلى أفكار ضائعة في كتاباتها الأولى، وكتبت "ضلع الموت الآخر"، والتي لم تكن سوى استمرار لسابقتها، ولا زلت أذكر جيداً أنه لم يكن موضوعاً مسبقاً، وكنت ابتدعه من خلال الكتابة نفسها. نُشرت في 25 من يوليو عام

في الملحق "نهاية الأسبوع"، تماماً كالقصص السابقة، ولم أعد لكتابة 1948 قصص أخرى حتى العام التالي، عندما كانت حياتي مختلفة. ولم يبق لي سوى أن أترك الدروس القليلة في كلية الحقوق التي كنت لا أزال أحضرها من وقت لآخر، لكنها كانت آخر حججي للإبقاء على حلم أبويّ.

أنا نفسي لم أكن أشك في أنني سأكون في القريب العاجل أفضل طالب في مكتبة جوساتفو ايبارا ميرلانو العامة، الصديق الجديد لـ"ثابالا" و"روخاس هيراثو"، قدماني له بحماس كبير، عاد من بوجوتا قبل وقت قصير بعد حصوله على الدرجة العليا وبدأ العمل فورا في اليونفرسال والمشاركة في نقاشات الفجر بممر الشهداء، ما بين طلاقة لسان "هيكتور" البركانية وتردد "ثابالا" الخلاق، أضاف "جوستافو" صرامة منظمة كانت تحتاجها أفكاري المرتجلة والمشتتة الصادرة من قلبي، كل هذا برقة كبيرة وشخصية حديدية.

دعاني من اليوم التالي إلى بيت أبويه بشاطئ ماربيا، وبحر لا ينتهي خلف فنائه، ومكتبة بطول حائط من اثني عشر متراً، جديدة ومنظمة حيث يحتفظ بالكتب التي يجب أن يقرأها ليعش حياة هانئة، كانت عنده طبعات للكلاسيكيين الإغريق، واللاتينيين، والإسبان تحتفظ برونقها كما لو كانت لم تمس من قبل، ولكن هوامش صفحاتها غاصة بالإشارات الحكيمة، بعضها مكتوب باللاتينية، كان يقولها "جوستافو" بصوت جهير، وعندما يقولها فإنها تغزو جذور شعر الرأس، وكان هو نفسه يختبرها بسخرية قاتل، قال لي صديق قبل أن أتعرف عليه: "إنه من نوعية الرهبان". فهمت سريعاً لِمَ كان من السهل تصديقه، وإن كان بعد التعرف عليه جيداً يصبح من المستحيل ألا أصدق أنه كذلك.

تحدثنا في تلك المرة الأولى دون توقف حتى الفجر، وتعلمت أن قراءاته كانت طويلة ومتنوعة، ومعتمدة بشكل كبير على قراءة الكتاب الكاثوليكيين لذلك الزمان، الذين لم أسمع عنهم مطلقاً، كان يعرف كل ما يجب معرفته عن الشعر، بشكل

خاص الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين قرأتهم في طبعاتهم الأصلية، كانت له آراء معتمدة على معرفة جيدة بالأصدقاء المشتركين، وقدم لي معلومات كان من المهم أن أعرفها لأحبه أكثر، وأكد لي أيضا أهمية أن أتعرف على ثلاثة من صحافيي بارانكيا- "تيبيدا" و"بارجاس" و"فوينماير"- الذين كثيراً ما حدثني عنهم "روخاس هيراثو" والأستاذ "ثابالا". لفت انتباهي أنه إضافة إلى فضائله كمثقف ومتمدين كان سباحاً أوليمبياً. بجسد مكون ومعد ليكون كذلك، أكثر ما أزعجه مني آرائي واحتقاري للكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين، الذين كنت أعتقد أنهم مملون ولا فائدة ترجى من ورائهم، عدا "الأوديسا"، التي قرأتها واعدت قراءتها متقطعة عدة مرات في الليسيه، لذلك قبل أن أودعه أخذ من المكتبة كتاباً وقدمه لي بشيء من الوقار. وقال لي: "يمكنك أن تصبح كاتباً جيداً، ولكنك لن تكون ممتازاً ما لم تعرف الكلاسيكيين الإغريق"، كان الكتاب عبارة عن الأعمال الكاملة لـ"سوفوكليس". أصبح "جوستافو" منذ تلك اللحظة من الأشخاص المؤثرين في حياتي، لأن "أوديب ملكاً" كشف لي من القراءة الأولى إنه العمل المتكامل.

كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي، لاكتشافي "جوستافو ايبارا" و"سوفوكليس" في وقت واحد، ولأنه بعدها بساعات كان يمكنني أن أموت بشكل سيئ في غرفة عشيقتي السرية في الثيثني. لا زلت أتذكر هذا كما لو كان بالأمس، عندما جاء أحد أصدقائها القدامى الذي كانت تعتقد أنه مات منذ سنوات، دخل من الباب صارخاً كوحش بضربة قدم واحدة. تعرفت عليه على الفور؛ لأنه كان زميلاً في المدرسة الابتدائية باراكاتاكا، عاد هائجاً ليحتل مكانه في سريرها. لم نكن قد التقينا منذ المدرسة، وكان حاذقاً بإبداء عدم الانتباه، عندما وجدني عارياً وغارقاً في رعب السرير.

تعرفت في تلك السنة أيضاً على "راميرو" و"أوسكار"، متحدثين لا يتوقفان أبداً، خاصة في البيوت الممنوعة لمخالفتها الأخلاق المسيحية، كانا يعيشان مع

أبويهما في تورباكو، على بعد ساعة من كارتاخينا، ويظهران يومياً تقريباً في مناقشات الكتاب والفنانين من عشاق الكلام الأمريكي، كان "راميرو" طالباً بكلية الحقوق في بوجوتا وقريباً من جماعة اليونفرسال، ينشر عموداً مرعباً. أبوه محامٍ صعب وليبرالي غير ملتزم، وزوجته اللطيفة سليطة اللسان، لكليهما عادة الحديث مع الشباب، خلال أحاديثنا الطويلة تحت أشجار تورباكو الوارفة، قدما لي معلومات ثمينة عن حرب الألف يوم، وهو الإرث الأدبي الذي فقدته بموت جدي. ولا زلت أحتفظ لها هي برؤية أكثر توثيقاً للجنرال "رفائيل اوريبي"، بمظهره المحترم وعظمة كفيه.

أفضل شهادة عن شخصية "راميرو" وأنا في تلك الأيام خلدتها في لوحة زيتية الفنانة "ثيثيليا بوراس"، التي كانت تشعر كما لو كانت في بيتها بين الرجال المسليين، على عكس أخلاق المجتمع المحيط بها، صورة لنا نحن الاثنين جالسين إلى طاولة المقهى الذي نلتقيه فيه، مع أصدقاء آخرين مرتين في اليوم، عندما بدأنا- "راميرو" وأنا- طريقين مختلفين دخلنا في صراع حول ملكية اللوحة، حلتها "ثيثيليا" بقرارها الحكيم بقطعها إلى نصفين لكل منا جزء، ظل النصف الخاص بي لسنوات بعدها ملفوفاً في دواليب بشقة كاراكاس ولم أتمكن من استعادته أبداً.

بعكس باقي البلاد، فإن العنف الرسمي لم يفعل فعله في كارتاخينا حتى بدايات تلك السنة، عندما تم اختيار صديقنا "كارلوس أليمان" ليكون عضواً في البرلمان المحلي عن منطقة مومبوكس المتميزة، كان محامياً حديث التخرج؛ وله شخصية مرحة، ولكن لعب الشيطان لعبته خلال الجلسة الافتتاحية عندما انفض خلاف بين الحزبين بطلقات الرصاص أصابت إحداها كتفه. ففكر "أليمان" لحظتها أن سلطة تشريعية مثل هذه لا فائدة ترجى منها، ولا تستحق التضحية بالحياة من أجلها، وفضّل أن يصرف راتبه من البرلمان برفقة أصدقائه.

أما "أوسكار" فقد كان محباً للمرح المحكم، كان متوافقاً مع "وليام فوكنر" في أن بيوت الدعارة أفضل سكن للكاتب؛ لأن أوقات الصباح فيها هادئة، وهناك حفل كل ليلة وعلاقته بالبوليس بها طيبة دائماً، نفذ عضو البرلمان "أليمان" هذه النصيحة حرفياً، وتحول إلى مضيفنا بكامل وقته، في إحدى تلك الليالي ندمت على أنني وثقت في رؤية "فوكنر" عندما جاء زوج "لأرى رييس" القديم، صاحبة البيت، وألقى بالباب أرضا بضرباته ليأخذ ابنهما، في حوالي الخامسة من عمره، الذي كان يعيش معها، زوجها الحالي الذي كان ضابطاً في البوليس، خرج من غرفة النوم بملابسه الداخلية ليدافع عن شرفه وممتلكات البيت بمسدسه الرسمي، واستقبله الآخر برشة من الرصاص رنت في صالة الرقص كطلقات مدفع، ارتعب الزوج البوليسي واختبأ في غرفته، وعندما خرجتُ من غرفتي بنصف ملابسي، وتأمل السكان من غرفهم كيف أن الطفل كان يبول في آخر الممر، بينما أبوه يعدل من تسريحة شعره بيده اليسرى والمسدس في يده اليمنى. ولا يُسمع في البيت سوى شتائم "ماري" التي كانت تعنف زوجها الآخر لجبنه.

في تلك الأيام دخل إلى مكاتب اليونفرسال دون إذن رجل ضخم الجثة؛ خلع قميصه بحركة مسرحية وتمشى في صالة التحرير ليفاجئنا بظهره وذراعيه الموشاة بآثار تبدو إسمنتية الطابع، كان متأثراً بما تركه فينا من حماس، فشرح لنا بصوت رنان سبب عذابات جسده:

– إنها مخالب الأسود.

لقد كان "ايميليو رازوري"، الذي وصل كارتاخينا حديثاً ليعد فترة عمل سيركه العائلي الذي يعتبر واحداً من أكبر سيركات العالم، خرج من هافانا في الأسبوع السابق في عابر الأطلنطي "ايوسكيرا" تحت علم إسباني، وكان ينتظر وصوله السبت التالي، كان يبدو أن "رازوري" وُلِد في السيرك من قبل ميلاده، ولم يكن في حاجة للتمثيل لاكتشاف أنه مروض وحوش كبير، كان ينادى وحوشه

بأسمائها كما لو كانت أفرادا في عائلته وترد عليه هي بصوتها المتوحش الأليف، يدخل أقفاص الأسود والنمور بلا سلاح ليقدم لها طعامها بيديه، عانقه دبه المفضل ليقبله قبلة حب تركته في المستشفى ربيعاً كاملاً، إلا أن الجاذبية الكبرى للسيرك لم يكن آكل النار، بل الرجل الذي يخلع رأسه ويتنزه بها بين يديه حول الحلبة، ما لا ينسى من "ايميليو رازوري" هي طريقته في السير ثابتاً في الأرض، وبعد الاستماع إليه منجذباً لساعات طويلة نشرت في اليونفرسال مقالاً افتتاحياً، تجرأت على كتابة إنه "الرجل الأكثر إنسانية الذي عرفته في حياتي"، ولم يكونوا كثيرين في عمري الذي لا يتعدى الحادي والعشرين، ولكن لا زلت أعتقد أن تلك الجملة لا تزال صالحة حتى هذه اللحظة، كنا نأكل في الكهف مع زملاء الصحيفة، وحصل هناك أيضاً على صداقة الجميع من خلال حكاياته عن الحيوانات الإنسانية. في إحدى تلك الليالي، وبعد تفكير عميق، تجرأت على أن أطلب منه أن يأخذني معه في السيرك، ولو لغسل الأقفاص عندما لا تكون النمور فيها، لم يقل لي شيئاً، ولكنه مدَّ لي يده في صمت، وأنا فهمت الإشارة على أنها طريقة رجال السيرك في التفاهم، واعتبرت أنه وافق، لم أعترف بذلك لأحد سوى لـ"سلفادور ميسا نيكولز"، الشاعر المجنون بخيمة السيرك، وصل حديثاً إلى كارتاخينا كشريك محلي لـ"رازوري"، ذهب هو أيضاً مع سيرك عندما كان في مثل عمري، فحذرني من أن من يروا المهرجين يبكون في المرة الأولى ويرغبون في الذهاب معهم، ولكنهم يندمون في اليوم التالي، إلا إنه لم يوافق فقط على قراري، بل اقنع المروض بشرط أن نحتفظ بذلك سراً حتى لا يتحول إلى خبر قبل موعده، انتظار وصول السيرك الذي كان حتى تلك اللحظة عاطفية، تحولت إلى رغبة لا تقهر.

لم تصل السفينة "الاوسكيرا" في الموعد المحدد سلفاً، وكان مستحيلاً إجراء اتصال بها، بعد أسبوع آخر وضعنا في الصحيفة راديو للهواة لمعرفة حالة الطقس في منطقة الكاريبي. لكننا لم نستطع أن نمنع أحداً من البدء

في الحديث في الصحافة حول المصير المفجع، ظللنا "نيكولز" وأنا مع "ايميليو رازوري" في غرفته بالفندق بلا طعام أو نوم، شاهدناه يغرق في ألمه وينكمش حجمه في انتظار لا ينتهي، إلى أن تم تأكيد الخبر بأن الايوسكيرا لن تصل إلى أي مكان، ولن يعرف أحد مصيرها النهائي، ظل المروض يوماً كاملاً محبوساً بمفرده في غرفته، وقد زارني في الصحيفة في اليوم التالي ليقول لي أن مائة عام من الكفاح الشاق اختفت في يوم واحد، لذلك فإنه سيعود إلى ميامي بلا قشة واحدة، ولا عائلة، ليعيد تكوين سيركه من جديد قطعة قطعة، ومن لا شيء، أدهشني إصراره رغم المأساة، فصحبته إلى بارانكيا لأودعه في الطائرة المتجهة إلى ميامي، وقبل صعوده شكرني على قراري بالانضمام إلى سيركه، ووعدني أن يبحث عني عندما يكون لديه شيء محدد، ودعني بعناق حار فهمت منه مدى الحب الذي يكنه لأسوده. ولم أعرف عنه بعدها أي شيء.

طارت الطائرة المتجهة إلى ميامي في العاشرة صباحاً من اليوم الذي ظهر فيه مقالي عن "رازوري": في 16من سبتمبر عام 1948 كنت أستعد للعودة إلى كارتاخينا في ذلك المساء نفسه، عندما قررت أن أمر بصحيفة الناسيونال، الصحيفة التي كان يكتب فيها "خيرمان بارجاس" و"الفارو ثيبيدا"، أصدقاء أصدقائي في كارتاخينا، كانت صالة التحرير في مبنى متآكل من المدينة القديمة، بصالون فارغ طويل له شرفة خشبية، في آخر الصالون كان هناك رجل شاب وأشقر، يشمر عن أكمام قميصه، يكتب على آلة كاتبة تقفز حروفها القشتالية بصواريخ صغيرة في الصالون الخالي، اقتربت منه على أطراف أصابعي تقريباً خوفاً من الصوت الصادر عن الأرضية الخشبية، وانتظرت في الشرفة إلى أن نظر إلي وقال لي بجفاء، وبصوت متناسق لمذيع خبير:

– ماذا حدث؟

كان شعره قصيراً، وعيناه مسطحتين ومركزتين؛ وبدا كما لو كان غاضباً بسبب قطع حبل أفكاره. أجبته كما استطعت، حرفاً حرفاً:

- أنا جارثيا ماركيز.

فقط بمتابعة اسمي أنا بنفسي منطوقاً بالطريقة التي كنت أنطقه بها انتبهت إلى أن "خيرمان بارجاس" ربما لا يعرف من أكون، مع إنه في كارتاخينا قالوا لي إنهم يتحدثون عني كثيراً مع أصدقائهم في بارانكيا منذ أن قرءوا أول قصة لي. وكانت الناسيونال نشرت مقالاً حماسياً لـ"خيرمان بارجاس"، لكن الحماس الذي تلقاني به أكد لي أنه يعرف من أكون أنا، وأن حبه لي كان حقيقياً، ويؤكد ما قالوه، بعد ساعة تعرفت على "الفونسو فونماير" و"الفارو ثيبيدا" في مكتبة الموندو، وتناولنا معاً مقبلات في مقهى كولومبيا، والسيد "رامون فينيس" الذي اشتقت كثيراً إلى رؤيته، وكان يرعبني أن أعرفه، لم يأت في ذلك المساء إلى لقاء الساعة السادسة، وعندما خرجنا من مقهى كولومبيا بعد خمسة كئوس كنا نبدو كما لو نعرف بعضنا منذ سنوات.

كانت ليلة طويلة من الأعمال البريئة، فقد كان "ألفارو" سائق السيارة الرائع والمؤتمن، خاصة عندما يكون في حالة سكر، أكمل طريق الفرص التاريخية التي لا تنسى. في "لوس المندروس" كانتين تحت الأشجار المزهرة في الهواء الطلق حيث لا يقبلون سوى زبائن من المتعصبين لنادي الديبورتيفو جونيور، تسبب عدد من الزبائن في خناقة كانت على وشك أن تتحول إلى معركة. حاولت تهدئتهم، إلى أن نصحني "ألفونسو" بعدم التدخل؛ لأنه في هذا المكان الخاص بدكاترة الكرة لا يحبون المؤمنين، قضيت الليلة في مدينة لم تكن بالنسبة لي هي نفسها التي عرفتها، ولا مدينة أبويَّ خلال سنوات زواجهما الأولى، ولا بؤسها مع أمي، ولا أيام مدرسة سان خوسيه، بل أول ليلة بارانكيتي كناضج في جنة بيوت الدعارة.

كان الحي الصيني عبارة عن أربعة شوارع من الموسيقى المعدنية التي تزلزل

الأرض، وكانت لديهم أيضاً تسجيلات منزلية تقترب من طلب الإحسان، كانت هناك بيوت دعارة عائلية يخدم أصحابها وزوجاتهم وأبناؤهم زبائنهم القدامى طبقا لقواعد الأخلاق المسيحية، وتحضر السيد "مانويل انطونيو كارينيو"، بعضهم يأتمنون بعضهم على المبتدئات فينمن مع زبائن معروفين كنوع من الإقراض، "مارتينا الفاراداو"، أكثرهن خبرة، لها باب سري وتعريفة مخفضة لرجال الدين النادمين، لم يكن هناك استهلاك مغشوش ولا حسابات قابلة للتأخير، ولا مفاجآت تناسلية، آخر تلميذات المدارس الفرنسية الأولى بعد الحرب العالمية كن يجلسن على الأبواب مع لحظات المساء الأولى تحت أضوائهن الحمراء، انتظاراً للجيل الثالث الذي يؤمن ببراعتهن الافرودية. كانت هناك بيوت بصالونات مكيفة لعقد جلسات الصلح، وكملجأ للعمد الهاربين من زوجاتهم.

القط الأسود، بفناء رقصه تحت المظلة المزهرة، كان جنة بحارة السفن التجارية، اشترته هندية تغني بالإنجليزية، وتبيع من تحت الطاولة مراهم مخدرة للسيدات والرجال. في ليلة تاريخية من تلك الليالي، لم يحتمل "ألفارو ثيبيدا" و"كيكي سكوبيل" عنصرية دستة من البحارة النرويجيين في طابور أمام غرفة الزنجية الوحيدة، بينما هناك ست عشرة من البيضاوات يشخرن جالسات في الفناء، فتحدوهم باللكمات، الاثنا عشر ضد اثنين في معركة باللكمات النظيفة أجبرتهم على الهرب بمساعدة البيضاوات اللاتي استيقظن سعيدات وأنهين عليهم بالكراسي، في النهاية توّجن الزنجية كملكة للنرويج.

كانت هناك بيوت أخرى شرعية أو غير شرعية خارج الحي الصيني، وكلها على علاقة طيبة بالبوليس، واحدة منها كانت في فناء من أشجار اللوز الكبيرة المزهرة بالحي الفقير، على بوابتها دكان رديء للغاية، غرفة نوم بسريرين للإيجار. بضاعتها فتيات صغيرات من الحي يكسبن بيزو واحد في ضربة واحدة مع السكارى، اكتشف "ألفارو ثيبيدا" بالصدفة مكاناً منها، بعد أن تاه في إحدى

الأمسيات تحت الأمطار المنهمرة فلجأ إلى الدكان، قدمت له صاحبة الدكان زجاجة بيرة وعرضت عليه طفلتين بدلاً من واحدة، مع حقه في التكرار إذا استمر المطر، ظل "ألفارو" يدعو أصدقاءه لشرب البيرة الباردة تحت أشجار اللوز، لا ليمارسوا الجنس مع الفتيات ولكن ليعلموهن القراءة والكتابة، وأكثرهن ذكاء حصل لهن على منح للدراسة في المدارس الرسمية. واحدة منهن كانت تعمل ممرضة في مستشفى للفقراء. تخلت له المالكة عن البيت على سبيل الهدية، فتحول بيت الدعارة القذر مع كثير من التوسعات إلى: "بيت الفتيات اللاتي يضاجعن الرجال بسبب الجوع".

بالنسبة لي كانت تلك الليلة التاريخية في بارانكيا؛ لأنهم اختاروا بيت "لانجرا ايوفيميا"، ذي الفناء الضخم للرقص، بين شجيرات التمر الهندي المزهرة، كانت هناك كبائن تؤجر بخمسة بيزوات في الساعة، وطاولات وكراسي مدهونة بالألوان الحية حيث تعيش الكروانات حرة طليقة وعلى هواها، كانت ايوفيميا نفسها، ضخمة وتكاد تقترب من المائة من عمرها، تستقبل وتختار الزبائن على المدخل، تجلس خلف مكتب عدتها الوحيدة عليه- بشكل لا يصدق- مسمار كنيسة ضخم، كانت تختار الفتيات بنفسها بتربيتهن وملاحتهن الطبيعية، وتضع لكل منهن الاسم الذي يعجبها، وبعضهن يفضلن ما وضعه عليهن "ألفارو ثيبيدا" من خلال عشقه للسينما المكسيكية: "ايرما الشريرة"، و"سوسانا سيئة السمعة"، و"عذراء منتصف الليل".

كان يبدو مستحيلاً الحديث في حضور أوركسترا كاريبية تعزف بأقصى قوتها بالطبول الجديدة لـ"بيريث برادا" أغنية رومانتيكية لنسيان ذكريات الهجر، لكننا كنا جميعاً خبراء في الحديث صراخاً، موضوع الليلة أطلقه "خيرمان" و"ألفارو" عن العناصر المشتركة بين الرواية والتحقيق الصحفي، كانوا متحمسين لتحقيق "جون هيرزي" الذي نشره حديثاً عن القنبلة الذرية على هيروشيما، لكنني كنت

أفضل الشهادة الصحافية المباشرة "يوميات عام الطاعون"، إلى أن أوضح الآخرون لي أن "دانييل ديفو" لم يكن قد بلغ الخامسة أو السادسة من عمره عند حدوث طاعون لندن الذي استخدمه كنسق.

من خلال هذا الطريق وصلنا إلى لغز "الكونت دي مونتكريستو" وهو حوار كان ثلاثتهم تناقشوا فيه منذ فترة طويلة كاكتشاف للروائيين: كيف تمكن "الكساندر دوماس" أن يجعل من بحار برئ جاهل وفقير ومسجون بلا ذنب، يهرب من قلعة حصينة لا يمكن الدخول أو الخروج منها، ويحوله إلى رجل ثري ومثقف من زمنه؟ فكانت الإجابة أن "ادموند دانتي" دخل قلعة اف وفي ذهنه أن يكون هو فاريا، الذي نقل إليه في السجن حكمته، وكشف له ما كان ينقصه معرفته في حياته الجديدة: المكان الذي كان يخفي فيه الكنز وطريقة الهرب، أي أن "دوماس" بنى شخصيتين مختلفتين، قام بعدها بتبديل مصيرهما، بطريقة أن دانتي عندما هرب كان شخصية في داخل الأخرى، وكل ما تبقى له من شخصيته الخاصة جسده كسباح ماهر.

كان "خيرمان" يرى بوضوح أن "دوماس" جعل من شخصيته بحاراً ليهرب من جانب اللوحة ويسبح حتى الشاطئ عندما يلقون به في البحر، أما "الفونسو"، القارئ والأكثر انتباها، فقد رد أن هذا لم يكن كافياً ليؤمن شيئاً؛ لأن الستين بالمائة من بحارة كريستوفر كولومبس لم يكونوا يعرفون السباحة. لم يكن يجعلهم يشعرون باللذة كما تلك الذرات الصغيرة من الفلفل على الطبق، تحت تأثير سكرة الأدب، بدأت أشرب دون توقف كئوس الروم بالليمون التي كان يشربها الآخرون برشفات صغيرة، المحصلة النهائية للمتحدثين الثلاثة كانت أن موهبة وقدرة "دوماس" على تحريك المعلومات في تلك الرواية، ربما كان أيضاً في كل أعماله، كانت تدل على أنه صحافي أكثر منه روائياً.

بقي في النهاية واضحاً أن أصدقائي الجدد يحبون كثيراً "كيبيدو" و"جيمس جويس" تماما كما يقرعون لـ"كونان دويل"، ويمتلكون حساً فكاهياً لا ينضب،

وكانوا قادرين على قضاء الليالي كاملة يغنون أغنيات حب رومانتيكية، أو يقرأون بلا توقف أفضل أشعار العصر الذهبي. وعبر طرق متعددة نصل إلى قمة الشعر العالمي التي تمثلها قصائد "خورخي مانريكي" في رثاء أبيه. تحولت الليلة إلى فسحة مرحة وانتهت بآخر أحكام يمكنها أن تقبل صداقتي لتلك المجموعة المريضة بالحروف. شعرت أنني في حالة من الراحة بينهم ومع الروم المتوحش، خلعت قميص خجلي، وقامت "سوسانا الشريرة"، التي كسبت في ذلك العام جائزة مسابقة الرقص في الكرنفال، وأخرجتني للرقص، فهربت الدجاجات والكروانات من الحلبة، والتفوا من حولنا لتشجيعنا.

رقصنا سلسلة من رقصات رقم 5 لـ"داماسو بيريث برادا"، وبما تبقى لي من أنفاس غنيت لأكثر من ساعة أغنيات حب لـ"دانييل سانتوس". و"اغوستين لارا" و"بينبنيدو جراندا"، وبينما كنت أغني شعرت أنني استرد وعيي تحت ضربات النسيم، لم أعرف أبداً إن كان ثلاثتهم فخورين بي أم خجلين مني، ولكن عندما عدت إلى الطاولة استقبلوني كواحد منهم.

كان "ألفارو" قد بدأ موضوعاً لم يناقشه الآخرون أبداً: السينما، كانت بالنسبة لي اكتشافاً كبيراً؛ لأنني كنت دائماً ما أعتبر السينما فناً يتغذى من جميع أنواع الفنون، من المسرح أكثر من الرواية، فيما كان "ألفارو" يراها تقريباً- كما أرى أنا الموسيقى- فناً مطلوباً من كل الفنون الأخرى.

عندما وصلنا إلى الفجر، ما بين نائم وسكران، دفع "ألفارو" السيارة كسائق تاكسي محترف مترع بالكتب الحديثة وملاحق نيويورك تايمز الأدبية، تركنا "خيرمان" و"الفونسو" في بيوتهما وأصر "الفارو" على أن يأخذني إلى بيته لأتعرف على مكتبته، التي تغطي ثلاثة جدران من غرفة نومه وحد السقف، أشار إليها بالسبابة بدورة كاملة، وقال لي:

- هؤلاء هم الكُتَّاب الوحيدون في العالم الذين يعرفون الكتابة.

كنت أنا في حالة من الإثارة جعلتني أنسى ما كان من أمس من الجوع والنعاس، فقد كان الكحول لا يزال داخلي كفضيلة إلهية. قدم لي "ألفارو" كتبه المفضلة، بالإسبانية والإنجليزية، وكان يتحدث عن كل واحد منها بصوت صدئ، تحدث عن "اثورين" و"ساروبان"- أحب الكُتَّاب إليه- وعن آخرين، وتحدث عن حياتهم الخاصة والعامة التي يعرفها حتى الملابس الداخلية، كانت أول مرة أسمع فيها اسم "فيرجينيا وولف"، التي كان يسميها هو "وولف" تماما كما العجوز "فوكنر"، وضعته دهشتي في حالة من الهذيان، فأمسك بمجموعة من الكتب التي عرضها أمامي باعتبارها المفضلة لديه ووضعها بين يدي، وقال لي:

- لا تكن أحمقا.. خذها كلها، وعندما تنتهي من قراءتها سنذهب للبحث عنها حيث توجد.

كانت هذه الكتب بالنسبة لي ثروة ما كان يمكنني أن أفكر فيها، ولم أجرؤ على المخاطرة دون أن يكون لدي مكان لحفظها، وأخيراً اكتفى بإهدائي النسخة الإسبانية من "السيدة دوللي" لـ"فرجينيا وولف"، مع توقعه أنى سأحفظها عن ظهر قلب.

كنا في الفجر، وكنت أريد العودة إلى كارتاخينا في أول أتوبيس، لكن "ألفارو" أصر أن أنام في السرير المجاور لسريره، وقال بآخر ما فيه من أنفاس:

- اللعنة، ابق لتعيش هنا وغداً نحصل لك على عمل ممتاز.

ألقيت بنفسي على السرير، وحينها فقط شعرت في جسدي بمدى ثقل إحساسي بالبقاء على قيد الحياة، فعل هو الشيء نفسه ونمنا حتى الحادية عشر صباحاً، عندما قامت أمه، الرائعة الخجولة "سارا ساموديو"، بطرق الباب بقبضتها معتقدة أن ابنها الوحيد في حياتها كان ميتاً، قال لي "ألفارو" من أعماق نعاسه:

- لا تهتم بها يا مُعلمي الكبير، فهي تقول الشيء نفسه كل صباح، والخطير أنه في يوم من الأيام سيكون حقيقة.

عدت إلى كارتاخينا وكأنني اكتشفت العالم، ولم يعد نقاشنا على مائدة الغداء في بيت "فرانك مونيرا" يتعلق بقصائد العصر الذهبي و"عشرون قصيدة حب" لـ"نيرودا"، بل مقاطع من "السيدة دوللي" وهذيانات شخصيتها المميتة، "سيبتيموس وارن سميث"، انقلبت إلى شخص آخر، متشوق وصعب، إلى درجة أن "هيكتور" والأستاذ "ثابالا" اعتقدا أنني مقلد واعٍ لـ"ألفارو ثيبيدا". قضي "جوستافو ايبارا" - برؤية قلبه الكاريبي الرحيم - وقتاً مرحاً بحكايتي عن ليلة بارانكيا، بينما كان يثرثر بقصائد إغريقية، ما عدا "يوربيدس"، وعلمني اكتشاف "مليفيل": وجمال "موبي ديك" الأدبي، النشيد الأعظم عن جونز لصائدي الحيتان الموزعين في جميع البحار، وأعارني "البيت ذو الأسقف السبعة" لـ"ناتانييل هاوزورن"، الذي غير ملامح حياتي، حاولنا معاً التوصل إلى نظرية عن فاجعة الماضي في مغامرة "يوليسيس اوديس"، التي ضعنا فيها دون أن نعثر على طريقة للخروج منها، بعد نصف قرن وجدت حلها في نص رائع لـ"ميلان كونديرا".

في تلك الفترة كان لقائي الوحيد مع الشاعر الكبير "لويس كارلوس لوبث"، المعروف باسم "الأعور" الذي ابتدع طريقة مريحة ليكون ميتاً دون أن يموت، ومدفوناً دون أن يُدفن، والأفضل دون تأبين، كان يعيش في وسط المدينة التاريخي في بيت تاريخي وشارع تابلون التاريخي، حيث وُلد ومات دون أن يزعج أحداً، كان له قليل من الأصدقاء الدائمين، بينما كانت شهرته كشاعر كبير تزداد خلال حياته كما تزداد الشهرة بعد الموت.

يسمونه الأعور دون أن يكون أعورَ، لأنه في الحقيقة كان أحول فقط، ولكن بطريقة مختلفة، ومن الصعب ملاحظة حوله، كان شقيقه "دومينجو لوبث اسكوارياثا" مدير اليونفرسال يخشى دائماً الإجابة نفسها للذين يسألون عنه:

- إنه هناك.

كان يعتقد أنها إجابة لا تقول شيئاً، ولكنها كانت الحقيقة الوحيدة: إنه هناك، أكثر حياة من أي شخص آخر، لكنه كان حياً دون أن يعرف عنه أحد أكثر من ذلك، يعرف كل ما يجري من حوله، ولكنه قرر أن يدفن نفسه بنفسه، يتحدثون عنه كما لو كان أثراً تاريخياً، خاصة بين الذين لم يقرءوه كثيراً، إلى درجة أنني منذ جئت إلى كارتاخيا لم أحاول رؤيته، احتراماً لتفرده بأنه الرجل الخفي، كان وقتها في الثامنة والسبعين من عمره، ولم يشك أحد في أنه كان أكبر شاعر في لغتنا في كل العصور، برغم أننا قلة من نعرف من هو ولماذا، لم يكن ذلك سهلاً بسبب غرابة نوعية أعماله.

كنا جميعاً "ثابالا" و"روخاس هيريثو" و"جوستافو ايبارا" نحفظ قصائده، ونذكرها دائماً دون أن نفكر فيه، وذلك بشكل عفوي وحقيقي، نزين بها أحادثينا. لم يكن متوحداً بل كان خجولاً، وحتى اليوم لا أذكر أنني رأيت صورة له، لو كانت هناك صورة، بل بعض الرسوم الكاريكاتيرية السهلة التي كانوا ينشرونها مكان صورته، وأعتقد أنه بسبب عدم رؤيتنا له كنا ننسى أنه لا يزال على قيد الحياة، في إحدى الليالي التي كنت أنهي فيها مقال اليوم سمعت صرخة مكتومة لـ"ثابالا":

- اللعنة إنه الأعور.

رفعت عينيَّ عن الآلة الكاتبة فرأيت الرجل الأكثر غرابة في حياتي. كان أقصر كثيراً مما تخيلته، وشعره أبيض ضارب إلى الزرقة ومشعث حتى يكاد يبدو كما لو كان مستعاراً، لم يكن أعور بعينه اليمنى بل شهرته تشير إليها أفضل: كانت مائلة قليلاً. كان يرتدي ملابسه، كما لو كان في البيت، بنطلوناً قاتم اللون وقميصاً مخططاً ويده اليمنى على مستوى كتفه، وولاعة فضية وسيجارة مشتعلة لا يدخنها، يُسقط رمادها دون أن ينفضه.

مر بنا في صمت حتى مكتب شقيقه وخرج بعدها بساعتين، لم يكن هناك في صالة التحرير سوى و"ثابالا" وأنا، في انتظار تحيته، مات بعدها بحوالي عامين، الاضطراب الذي أحدثته وفاته بين محبيه لم يكن كما لو مات، بل كما لو كان قد عاد إلى الحياة من جديد، عندما كان في التابوت لم يكن يبدو ميتاً أكثر مما كان على قيد الحياة.

في الفترة نفسها ألقى الكاتب الإسباني "داماسو الونسو" وزوجته الروائية "ايولاليا جالباريتا" محاضرتين في قاعة محاضرات الجامعة. الأستاذ "ثابالا" الذي لا يحب التدخل في حياة الآخرين تغلب على نفسه وطلب مقابلة معهما، رافقناه "جوستافو ايبارا" و"هيكتور روخاس هيراثو" وأنا، حدث تجاذب كيميائي فوري معهما، ظللنا معهما حوالي أربع ساعات في صالون خاص بفندق الكاريبي، تبادلنا خلالها وجهات النظر حول رحلتهما إلى أمريكا اللاتينية وعن كُتابنا الجدد، قدَّم لهما "هيكتور" كتاباً شعرياً، وأنا قدمت لهما نسخة مصورة من قصة نشرتها في الاسبكتادور. كان يهمنا قبل كل شيء صراحتهما في التحفظ في الحديث؛ لأنهما كانا يستخدمانه كتأكيد لتقريظهما.

وجدت في أكتوبر بمقر اليونفرسال رسالة من "جونثالو ميارينو" يقول لي فيها إنه ينتظرني مع الشاعر "ألفارو موتيس" في فيلا توليبان، بنسيون لا يُنسى في مصحة بمنطقة بوكاجراندي. على بعد أمتار قليلة من المكان الذي هبط فيه تشارلز ليندبرج بطائرته قبل عشرين عاماً، "جونثالو"، رفيقي في قراءة الأشعار في الجامعة، كان يمارس مهنة المحاماة بعد تخرجه حديثاً، ودعاه "موتيس" ليتعرف على البحر، من منطلق وظيفته كرئيس لمكتب العلاقات العامة بشركة لانسا، شركة الطيران التي أسسها طياروها.

قصائد "موتيس" وقصصي نُشرا معاً مرة واحدة على الأقل في ملحق "نهاية الأسبوع". وما إن التقينا حتى بدأنا حواراً لا يزال مستمراً حتى هذه اللحظة، في

أماكن متعددة من العالم، وطوال أكثر من نصف قرن. تساءل عنه أولاً أبناؤنا وبعدها أحفادنا كثيراً عن أي شيء نتحدث بكل هذا الحماس، أجبناهم بالحقيقة: نتحدث عن الشيء نفسه.

صداقاتي الخطرة مع الكبار في عالم الفن والأدب ساعدتني على الاستمرار في الحياة في تلك السنوات التي لا زلت أتذكرها، الأكثر قلقاً في حياتي، نشرت في 10 يوليو آخر مقال لي في صحيفة اليونفرسال "نقطة ومن أول السطر"، بعد ثلاثة أشهر استطعت خلالها أن أتغلب على حواجز عملي كمبتدئ، وفضلت وقف الكتابة هرباً قبل فوات الأوان، ولجأت إلى فراغ الكتابة في صفحة الافتتاحية، بلا توقيع، إلا في الحالات المطلوب فيها رأي شخصي، وظللت محافظاً على ذلك كنوع من الروتين حتى عام 1950 وكانت آخرها مقالة عن "ادجار الان بو"، تميزها الوحيد أنها كانت الأسوأ.

كنت ألح طوال تلك السنة على الأستاذ "ثابالا" ليعلمني أسرار كتابة التحقيقات. لم يتخذ قراره أبداً، بطريقته الغريبة، لكنه تركني أتخبط في تحقيق حول طفلة تبلغ الثانية عشر ظلت محنطة في دير سانتا كلارا، وكان شعرها ينمو بعد موتها لأكثر من عشرين متراً خلال قرنين. لم أتخيل مطلقاً أنني سأعود لتناول هذا الموضوع بعد عشرين سنة لأحكيه في رواية رومانتيكية تتداخل فيها مواقف مرعبة. لكنها لم تكن أفضل أيامي للتفكير، كنت أشتط غيظاً لأي سبب، وأختفي من العمل بلا أسباب إلى أن يرسل الأستاذ "ثابالا" من يخفف من غلواء موقفي، نجحت في الامتحانات النهائية للسنة الثانية بكلية الحقوق بشيء من حسن الحظ، ولم يتبق لي سوى مادتين للملحق، واستطعت أن أسجل اسمي في السنة الثالثة، ولكن جرت إشاعة بأنني تمكنت من ذلك بسبب ضغوط سياسية للصحيفة، واضطر المدير أن يتدخل عندما ألقوا القبض عليَّ أثناء خروجي من السينما بتصريح عسكري مزيف ووضعوني ضمن قائمة المشاغبين.

في إهمالي السياسة لتلك الأيام لم انتبه إلى أنهم عادوا إلى تطبيق حظر التجول في البلاد مرة أخرى بسبب تدهور حالة الأمن العام، وضغطت الرقابة السياسية على الصحافة مجدداً، وتدهور المناخ العام كما في أسوأ الأيام، وكان البوليس مدعوماً بصغار المجرمين ينشر الذعر في الجامعة، واضطر العنف الليبراليين إلى مغادرة أراضيهم وبيوتهم، ومرشحهم المحتمل، "داريو ايتشانديا"، أستاذ الأساتذة في القانون المدني، والمتردد بالميلاد والقارئ المتحمس باللاتينية والإغريقية، صوّت لصالح عدم المشاركة الليبرالية في الانتخابات العامة، فبقي الطريق مفتوحاً أمام انتخاب "لاوريانو جوميث" الذي يبدو أنه كان يحرك الحكومة في الخفاء من نيويورك.

لم أكن واعياً بوضوح بأن تلك الحوادث الخطيرة لم تكن مجرد إشاعات ليبرالية، بل علامة واضحة على تغييرات سيئة في حياتنا، إلى أن جاءت ليلة مثل ليالٍ كثيرة في الكهف، طرأ على ذهني أن أقرر ممارسة فلسفة الاختيار لأفعل ما أريد، عندما ثبت الأستاذ "تابالا" في الهواء ملعقته التي كان على وشك وضعها في فمه، ناظراً إليَّ من أعلى إطارات نظارته، وأوقفني بجفاء:

– قل لي يا "جابرييل"، هل انتبهت إلى أن كل ما يحدث يدل على أن هذا البلد في طريقه إلى الانتحار؟

أصاب السؤال الهدف، فقد نمت سكرانَ تماماً على أحد كراسي ممر الشهداء حتى الفجر تحت أمطار غزيرة هاطلة بللت عظامي، بقيت بعدها في المستشفى أسبوعين نتيجة التهاب رئوي استخدموا في علاجه أول أنواع المضادات الحيوية المعروفة، كانت شهيرة بأن لها أعراض جانبية مخيفة كفقدان الرجولة، تركتني هيكلاً عظمياً وشاحباً بالطبيعة، هاتفني أبواي من سوكري ليوقفا غرقي في العمل حتى الأذنين– كما قالا في رسالتهما– ووصلت مع اليونفرسال إلى أبعد من ذلك، فقد كتبوا مقالاً افتتاحياً وداعياً دشنني كصحافي وكاتب يمتلك مواهب

الأستاذية، وفي أخرى كمؤلف لرواية لم يكن لها وجود على الإطلاق وبعنوان لم يكن لي: "لنشذب الحشائش الآن"، الغريب أن هذا جاء في وقت لم أكن مستعداً فيه للعودة إلى الكتابة الإبداعية، الحقيقة أن ذلك العنوان البعيد عن تفكيري اختلقه "هيكتور روخاس هيراثو" أثناء كتابته على الآلة الكاتبة، تماماً كعنوان آخر من إضافات "ثيسار جيرا فالديس"، كاتب متخيل ينتمي إلى أصول أمريكية لاتينية، اختلقه ليثري معاركنا، نشر "هيكتور" الخبر في اليونفرسال بمجرد وصوله إلى كارتاخينا وكتبت له أنا تحية في عمودي "نقطة ومن أول السطر"، على أمل نفض التراب عن الوعي النائم لرواية أمريكية لاتينية حقيقية، على أية حال، فإن الرواية المتخيلة بعنوانها الجميل كتب لها "هيكتور" بعد ذلك بسنوات عرضاً في دراسة عن كتبي دون أن أعرف السبب، ولا من أين جاء بها، وتحدث عنها كعمل روائي مهم في الأدب الجديد.

المناخ العام الذي عثرت عليه في سوكري كان مشجعاً لأفكاري في تلك الأيام، كتبت لـ"خيرمان بارجاس" أطلب منه أن يرسل لي بعض الكتب، كتباً كثيرة، العدد الذي يمكنه الحصول عليه حتى أغرق في أعمال مهمة تشعرني باللذة لستة أشهر، كانت القرية غارقة في مطر غزير، وكان أبي قد تخلى عن عبودية الصيدلية وبنى عند مدخل القرية بيتاً يكفي أولاده، فقد كنا أحد عشر بعد مولد "اليخيو"، قبل ستة أشهر، بيت كبير يغمره الضوء، وشرفة تطل على النهر بمياهه الداكنة ونوافذ مفتوحة لجذب نسمات يناير، مكوَّن من ست غرف جيدة التهوية بسرير في كل منها، وليس بسريرين كما كان من قبل، وحلقات لتعليق الأسرة المعلقة على مستويات مختلفة حتى في الممرات، أما الفناء غير المسوَّر فقد كان يمتد حتى الجبل نفسه، بأشجار فاكهة تدخل في الملكية العامة، وحيوانات خاصة وغريبة تتجول داخل الغرف، حتى أمي التي كانت تشتاق لفناء بيت طفولتها في بارانكاس واراكاتاكا حاولت أن يكون البيت الجديد أقرب إلى المزرعة، مليء

بالدجاج والبط الداجن والخنازير الطليقة التي تدخل المطبخ لتتغذى على بقايا الغداء، وكان ممكناً استغلال فصول الصيف للنوم بنوافذ مفتوحة، في ظل أصوات الدجاجات التي تبيض، ورائحة الفاكهة الناضجة التي تسقط من أفرع الأشجار فجراً بضربات فجائية ورنانة. كانت أمي تقول: "الدجاجات تصرخ كما لو كانت أطفالاً"، خفف أبي من استقبال مرضى عيادة الصباح ليقتصروا على قلة من مرضى الطب التجانسي، وواصل قراءة كل ما يقع بين يديه من أوراق مطبوعة، فيما يقضي بقية اليوم ممدداً في سريره المعلق بين شجرتين، وأصابته حمى لعبة البلياردو لمواجهة كآبة الأمسيات، وترك عادته في ارتداء البدل البيضاء ورباط العنق، وكان يسير في الشارع بملابس لم يكن يُقبل عليها من قبل، بقمصان شبابية قصيرة الأكمام.

كانت الجدة "ترانكلينا" قد ماتت قبل شهرين، عمياء وفاقدة للذاكرة، لكنها ظلت على تنبؤاتها خلال سكرات الموت بصوت براق مملية أسرار العائلة بإحكامٍ تام، كان معاش الجد، موضوعها الأبدي حتى لفظت آخر أنفاسها، كفَّن أبي جسدها بالكهرمان الحافظ وغطاها بطبقة من الجير داخل التابوت لتتحلل ببطء، كان "لويس سانتياجو" معجباً دائماً بعشق أمه للزهور الحمراء فزرع لها حديقة في آخر الفناء حتى تظل تلك الأزهار دائماً على قبرها، أزهرت الحديقة بشكل غير عادي إلى درجة أن الغرباء كانوا يأتون لمعرفة إن كانت تلك الأزهار يانعة بفضل الله أم بفضل الشيطان.

تلك التغييرات في حياتي وشخصيتي كانت استجابة للتغيرات التي جرت في البيت، ففي كل زيارة كنت أعتقد أنه بيت مختلف بسبب التجديدات والرحيل الدائم الذي كان يعيشه أبواي، أو لأشقائي الذين يولدون ويكبرون بشكل متشابه حتى أصبح من السهل أن أخطئهم ولا أتعرف عليهم، "خايمي"، الذي بلغ العاشرة كان أكثر إخوتي في عدم التخلي عن صدر أمه لإصابته بالربو، ولم تكن أمي قد

فطمته بعد عندما وُلد "هرناندو" (ناتشي)، بعده بثلاث سنوات ولد "الفريدو ريكاردو" (كوكي) وبعد عام ونصف "اليخيو" (يوجو) كان الأخير الذي اكتشف في تلك الإجازة معجزة الحبو.

إضافة إلى هؤلاء كنا نحسب أبناء أبي قبل وبعد زواجه: "كارمن روسا" و"ابيلاردو" اللذان كانا يمضيان معنا بعض الأوقات في سوكري، و"خيرماني هاناي" (ايمي) الذي اعتبرته أمي ابناً لها بموافقة إخوتي، وأخيراً "انطونيو ماريا كلاريت" (تونيو) الذي تربى في أحضان أمه في سينثي، وكان يزورنا كثيراً. مجموعهم خمسة عشر، كنا نأكل كثلاثين عندما يتوفر لدينا الطعام، ونجلس حيث يمكننا ذلك.

الحكايات التي يحكيها إخوتي الكبار عن تلك السنوات يمكنها أن تعطي فكرة واضحة عن كيف كان البيت الذي لم يكن قد ربَّا طفلاً ليولد آخر، كانت أمي نفسها تعي أنها مذنبة، وترجو بناتها أن يتولين رعاية الصغار، كادت شقيقي "مارجوت" أن تموت من الرعب عندما علمت أن أمها حامل من جديد؛ لأنها كانت تعرف أنها لا تستطيع وحدها تربيتهم جميعاً، لذلك قبل أن تذهب إلى المدرسة الداخلية في مونتيريا رجت أمها بكل جدية أن يكون الابن القادم هو الأخير، وعدتها أمي بذلك، كما كانت تفعل دائماً، إلا أنها وعدتها ترضية لها؛ لأنها كانت واثقة من أن الله سيحل بحكمته المشكلة بأفضل طريقة ممكنة.

تناول الطعام معاً على المائدة كانت كارثة، لأنه لم تكن هناك طريقة لجمعهم جميعاً في وقت واحد، وأمي وشقيقاتي كن يقدمن الأطباق طبقاً للقادمين أولاً، ولكن لم يكن غريباً أن يدخل الرعاة لطلبوا نصيبهم من الطعام. وخلال الليل يمر أشقائي الصغار بسرير أمي وأبي، منهم من لم يتمكن من النوم بسبب الحر أو البرد، أو من ألم الأسنان أو الخوف من الموتى، أو حباً في الأبوين أو غيرة من الآخرين، وينتهون جميعاً إلى التكوم في سرير الأبوين حتى الصباح، وإذا كان لم

يُولد طفل بعد "اليخيو" فإن هذا كان بفضل "مارجوت" التي عادت من المدرسة الداخلية وفرضت على أمها أن تفي بوعدها.

لسوء الحظ فرض الواقع أحكامه على شقيقتيّ الكبيرتين اللتين بقيتا بلا زواج مدى الحياة، "عايدة" كما في القصص الرومانتيكية الوردية دخلت الدير لتبقى راهبة إلى الأبد، وهجرته بعد اثنين وعشرين سنة عندما لم تجد "رفائيل" ولا أي رجل آخر يرغب فيها، و"مارجوت"، بشخصيتها الصارمة، فقدت رفائيلها بسبب خطأ وقع من كليهما، وحكم عليها بالحزن الأبدي، أما "ريتا" فقد تزوجت من أول رجل أعجبها وعاشت سعيدة بخمسة أولاد وتسعة أحفاد. الأخريات- "ليخيا" و"ايمي"- تزوجتا بمن أحببن بعد أن تعب أبواي من النضال ضد الحياة الواقعية التي فرضت قوانينها.

كانت تبدو هموم العائلة كما لو كانت جزءاً من الأزمة التي تعيشها البلاد من تدهور الاقتصاد إلى استنزاف العنف السياسي، الذي وصل إلى سوكري ودخل البيت في صمت، ولكن بخطوات ثابتة، في ذلك الوقت كنا قد انتهينا من الخزين القليل الذي كنا نملكه، وأصبحنا فقراء كما كنا دائماً في بارانكيا قبل الرحيل إلى سوكري. ولكن أمي لم تسكت، بسبب ثقتها المعروفة بأن كل طفل يأتي إلى العالم ويحمل خبزه تحت إبطه. هذا هو وضع البيت عندما جئت إليه من كارتاخينا، في حالة نقاهة من الالتهاب الرئوي، لكن العائلة بذلت جهدها في أسرع وقت حتى لا أشعر به.

طعام اليوم الشائع في القرية كان علاقة صديقنا "كايتانو جنتيلي" بمُعلمة مدرسة بقرية "تشابارال" القريبة، فتاة جميلة تنتمي إلى طبقة اجتماعية مختلفة عن طبقته، لكنها جادة جداً ومن عائلة محترمة، لم يكن الأمر غريباً: فقد كان "جايتانو" دائماً نحلة، ليس فقط في سوكري بل أيضاً في كارتاخينا، حيث درس البكالوريا وبدأ دراسة الطب. لكن لم يعرف أحد له علاقة نسائية جادة في

سوكري، ولا زميلة مفضلة في الرقص.

شاهدناه في إحدى الليالي يصل إلى مزرعته على ظهر أفضل خيوله، والمُعلمة تركب على السرج بينما هو على عجز الحصان من خلفها محتضنها من وسطها، لم تفاجئنا مدى الثقة المتبادلة بين الاثنين، بل جرأتهما على دخول سوق الساحة الرئيسية في ساعة ذروة الحركة وفي قرية سيئة الظن، شرح "جايتانو" لمن أراد أن يسمعه أنه وجدها على مدخل المدرسة تنتظر أحداً يعطف عليها ويحملها إلى القرية في هذه الساعة من الليل، حذرته من احتمال أن تظهر في أية لحظة على أبواب القرية ورقة من تلك تتحدث عن العلاقة، هز كتفيه بعلامة معروفة عنه ورد عليّ بنكتة:

– لا يجرؤن على الحديث عن الأثرياء.

بالضبط، فقدت أوراق الفضائح فاعليتها بالسرعة التي ظهرت بها، وفكروا أنه ربما يكون دليلاً آخر على الوضع السياسي السيئ الذي يسيطر على البلاد، فعاد النوم إلى عيون من كانوا يخافونها، بالمقابل، بعد أيام قليلة من وصولي شعرت بأن شيئاً تغير نحوي في عقول بعض زملاء أبي، بعد أن اتهموني بأنني كاتب بعض المقالات المعادية لحكومة المحافظين المنشورة في اليونفرسال. لم يكن ذلك صحيحاً، فإذا صادف أنني كتبت بعض الافتتاحيات فقد كان ذلك بلا توقيع، وتحت مسئولية إدارة التحرير، منذ أن تم التوقف عن طرح السؤال حول ما حدث في كارمن ديل البوليفار. أما المقالات التي تحمل توقيعي فقد كانت تكشف بوضوح سوء الحال الذي وصلت إليه البلاد. وتغلغل العنف والظلم، لكنها لم تكن تحمل شعارات أي حزب، وبالفعل، لا في ذلك الوقت ولا في أي وقت آخر كنت منتمياً إلى أي منها، أزعجت الاتهامات أبويّ وبدأت أمي تشعل شمعة للقديسين، خاصة عندما كنت أبقى خارج البيت حتى وقت متأخر، وشعرت لأول مرة بأنني محاط بمناخ قمعي فقررت التقليل من خروجي من البيت.

في تلك الأيام المشئومة ظهر في عيادة أبي رجل كان يبدو كما لو كان شبحه الخاص، جلده يسمح برؤية شكل عظامه والبطن مستدير ومنتفخ كالطبلة. كانت جملة واحدة كافية حتى لا ننساه إلى الأبد:

- دكتور، جئتك لكي تخرج لي القرد الذي جعلوه ينمو في بطني.

بعد فحصه، فهم أبي أن الحالة تخرج عن قدرته، فأرسله إلى زميل جراح لم يعثر على القرد الذي كان يعتقد المريض بوجوده، بل عثر على كائن حي له كيانه المستقل، ما يهمني هنا، ليس الحيوان ساكن البطن بل القصة التي حكاها لنا المريض عن العالم السحري في "سييربي"، بلدة أسطورية داخل حدود قرية سوكري يمكن الوصل إليها فقط عبر المداخن، أحد مراحلها الاعتيادية الانتقام من إهانة بفعل شرير مثل ذلك المخلوق الشيطاني في البطن.

كان سكان سييربي كاثوليكيين مؤمنين لكنهم يمارسون الدين بطريقتهم الخاصة، بتلاوات سحرية في كل صلاة. يعتقدون في الله والعذراء والثالوث المقدس، لكنهم يقدسون أي شيء يكتشفون أن له علامات إلهية ظاهرة، مما يبدو طبيعياً بالنسبة لهم أن شخصاً يمكن أن ينمو في بطنه مخلوق شيطاني، تماماً كاتهام الجراح بالكفر.

سرعان ما فوجئت بأن جميع الناس في سكوري يعرفون بوجود سييربي كواقع مقبول، وأن المشكلة الوحيدة التي كانت تقابلهم هي أن الوصول إليها لا يتم إلا عن طريق محفوف بالعقبات الجغرافية والعقلية. واكتشفت مؤخراً وبالصدفة أن الأستاذ الخبير في موضوع سسيربي هو صديقي "انخيل كاسيخ" الذي شاهدته أخر مرة يغني في أوركسترا الحي الصيني في بارانكابيرميخا في رحلتي الثانية أو الثالثة عبر نهر مجدالينا. وجدته في هذه المرة أكثر تعقلاً، وبحكاية مبهرة عن زياراته لسييربي. فعرفت منه كل ما يمكن معرفته عن "لاماركيسيتا"، مالكة وسيدة كل هذه المملكة الكبيرة التي تحتوي على صلوات

سرية لعمل الخير والشر، ولإبراء مريض مرض الموت دون معرفة أي شيء عنه أكثر من وصفه الفيزيقي والمكان المحدد الذي يوجد فيه، أو لإرسال حية عبر البحيرات لقتل عدو قبل مرور سبعة أيام.

الشيء الوحيد المحرم في كل هذا إحياء الموتى، لأنه يدخل في إطار الأسرار الإلهية. عاشت تلك المرأة كل السنوات التي أرادتها في الحياة، من المفترض أنها عاشت حتى مائتين وثلاثة وثلاثين سنة، ولكن دون أن تبدو عليها علامات الشيخوخة بعد إكمالها عامها السادس والستين. وقبل موتها جمعت قطعانها الرائعة وجعلتها تدور حول بيتها طوال يومين وليلتين، إلى أن تم صنع حدود سييربي، وهي عبارة عن بحر موشى بأشجار فسفورية. ويقال أنه في وسطها توجد شجرة تحمل فاكهة من ذهب، وجذعها مربوط إلى قارب يسبح كل يوم 2 نوفمبر- يوم الأموات- بلا ملاح حتى يقترب من الشاطئ الآخر، وتحرسها تماسيح بيضاء وحيات بأجراس من ذهب، حيث دفنت "لاماركسينا" كنزها.

منذ أن قصَّ عليَّ "انخيل كاسيخ" هذه الحكاية الرائعة بدأت اختنق بالرغبة في زيارة جنة سييربي المغروسة في الواقع. أعددنا كل شيء، خيول محجبة بصلوات عكسية، وقوارب غير مرئية، ودليل سحري، وكل ما نحن في حاجة إليه لكتابة تحقيق عن ذلك الواقع الميتافيزيقي.

مع ذلك، بعد إعداد البغال، فإن بطء معافاتي من الالتهاب الرئوي وسخرية الأصدقاء في حلبات الرقص بالساحة، وتهكم الأصدقاء الكبار، أجبرتني على إرجاء الرحلة لما بعد، ولم تتم أبداً، وأستحضرها اليوم، مع ذلك، كما لو كانت عقبة حسنة الحظ، لأن افتقادي إلى "لاماركسيتا" الرائعة جعلني أغوص حتى الأعماق ومن اليوم التالي في كتابة أول رواية لي، والتي لم يبق منها سوى العنوان: "البيت".

كنت أود أن أكتبها لتعبر عن مأساة حرب الألف يوم في الكاريبي الكولومبي، وهو ما تحدثت عنه مع "مانويل ثاباتا اولفايي"، في زيارة سابقة لكارتاخينا، في

هذه الفرصة ودون علاقة تذكر بالمشروع، أهداني كتيباً كتبه أبوه عن مقاتل قديم في تلك الحرب، كانت صورته مطبوعة على الغلاف، بملابس عسكرية وشارب ملون بالدخان، ذكرني بطريقة ما بجدي، لا أذكر اسمه، ولكن لقبه ظل معي إلى الأبد: "بويندیا"، لهذا فكرت في كتابة رواية بعنوان "البيت"، حول سيرة عائلة فيها الكثير من عائلتنا خلال الحروب العقيم للجنرال "نيكولاس ماركيز".

كان العنوان مبنياً على أساس الهدف ألا تخرج الأحداث أبداً من البيت، وبدأت عدة بدايات ووضعت خريطة جزئية للشخصيات التي وضعت لها أسماء من العائلة استخدمتها فيما بعد في كُتب أخرى، أنا حساس جداً تجاه أية جملة تتفق فيها كلمتان في التقفية فيما بينهما، حتى لو كانت التقفية مجرد حروف صوتية، وأفضل عدم نشرها ما لم أحل هذه المشكلة، لهذا كنت على وشك التخلي عن اللقب "بويندیا" بسبب قافيته التي تتفق دائماً مع صيغة الماضي الكامل، إلا أن اللقب فرض نفسه في النهاية؛ لأنه استطاع أن يكوِّن لنفسه شخصية مقنعة.

كنت في هذا عندما أشرق الصباح في بيت سوكري بصندوق من الخشب بلا اسم مكتوب ولا أية إشارة دالة عليه، تلقته شقيقتي "مارجوت" دون أن تعرف مرسله، وكانت مقتنعة بأنه صندوق متخلف عن الصيدلية التي بعناها، وفكرت أنا في الأمر نفسه وتناولت إفطاري مع العائلة وقلبي هادئ في مكانه، أوضح أبي أنه لم يفتح الصندوق؛ لأنه اعتقد أنه يحتوي على باقي حاجياتي، دون أن أتذكر أنه لم يعد لي حاجيات في أي مكان من العالم، شقيقي "جوستافو"، كان على وشك إكمال الثالثة عشر من عمره، قرر فتحه دون إذن، بعدها بقليل سمعنا صرخة:

– إنها كتب.

قفز قلبي قبلي، بالضبط، كتب بلا علامات تدل على المرسل، مرصوصة بيد خبيرة حتى أقصى مكان في الصندوق، ومعها رسالة من الصعب قراءتها

بحروفها الهيلوغريفية والغنائية المغلقة لـ"خيرمان بارجاس": "هذه المشكلة لك، يا أستاذ، ولنر أخيراً أن كنت تتعلم شيئاً"، موقعٌ عليها أيضاً من "الفونسو فوينماير"، وخاتم عرفت أنه للسيد "رامون فييتيس"، الذي لم يكن يعرفني بعد، وتحذير وحيد بألا أرتكب عملية سرقة أدبية واحدة يمكن اكتشافها بسهولة. في داخل أحد كتب "فوكنر" كانت هناك كلمة من "ألفارو ثيبيدا"، بخط يده ومكتوبة على عجل، يخبرني فيها أنه في الأسبوع التالي سيذهب لمدة عام لحضور دورة دراسية بمدرسة الصحافة في جامعة كولومبيا بنيويورك.

أول شيء فعلته عرض الكتب على مائدة الطعام، بينما كانت أمي ترفع بقايا الإفطار. وأمسكت بمقشة لإبعاد الأبناء الصغار الذين كانوا يريدون قص الصور بمقص لقص الأشجار، وكذلك الكلاب الضالة التي كانت تتشمم الكتب كما لو كانت صالحة للأكل، وأنا أيضاً كنت أتشممها، كما كنت أفعل دائماً مع كل الكتب الجديدة، ومررت عليها دون ترتيب قارئاً بعض المقاطع بشكل سريع، غيرت مكاني ثلاث أو أربع مرات في الليل؛ لأنني لم أكن أعثر راحتي، أو لانتهاء ضوء الفناء الميت، وأصبحت بظهري منحنٍ ودون أدنى فكرة عن كيفية الاستفادة التي يمكنني أن أحصل عليها من تلك المعجزة.

اثنتان وعشرون عملاً متميزاً لكُتاب معاصرين، كلها باللغة الإسبانية أو مختارة بهدف واضح هو لقراءتها لتعلم الكتابة، وفي ترجمات حديثة جداً مثل "الصوت والغضب" لـ"وليام فوكنر". بعد خمسين عاماً لا أزال أستطيع أن أتذكر القائمة كاملة والأصدقاء الثلاثة الأبديين الذين يعرفون أنهم هنا لأتذكرهم، لم أكن قرأت من هذه الكتب سوى "السيدة دوللي" لـ"فرجينيا وولف"، و"الطباق" لـ"لالدوس هيكسلي". وأفضل ما أتذكره من هذه الكتب كان لـ"وليام فوكنر": "المدينة المتخلفة"، "الصوت والغضب"، "بينما كنت أنازع الموت"، "النخيل المتوحش". وأيضا "مانهاتن ترانسفير" وربما كاتب آخر، من كتب "جون دوس باسوس"،

و"اورلاندو" لـ"فيرجينيا وولف"، و"عن الفئران والرجال" و"عناقيد الغضب"، لـ"جون شتاينبك"، و"وصورة جيني" لـ"روبرت ناثان"، و"طريق الدخان" لـ"اريسكن كلادويل". من بين العناوين التي لا أتذكرها بفعل المسافة الزمنية لنصف قرن مضى كان هناك أحدها لـ"هيمنجواي"، وربما كانت مجموعة قصصية، وكان من أحبها إلينا وإلى أصدقاء بارانكيا، وكتاب لـ"خورخي لويس بورخيس"، ومن المؤكد أيضاً أنه كان يحتوي على مجموعة قصصية، وربما كتاب آخر لـ"فليسبيرتو هيرنانديث"، كاتب القصة الاوروجواي العجيب الذي اكتشفه أصدقائي مؤخراً، قرأت كل هذه الكتب في الأشهر التالية، بعضها بانتباه كبير والبعض الآخر بانتباه أقل، وبفضل هذه الكتب تمكنت من الخروج من حالة التيبس الخلاق التي كنت فيها.

منعوني من التدخين بسبب الالتهاب الرئوي، ولكني كنت أدخن في الحمّام كما لو كنت أهرب من نفسي، ولكن الطبيب انتبه إلى ذلك وحدثني بجدية، لكني لم أستطع إتباع تعليماته، وفي سوكري، بينما كنت أحاول أن أقرأ الكتب التي استلمتها بلا توقف، كنت أشعل سيجارة من نار الأخرى، إلى أن عجزت عن الاستمرار، وصل تدخيني إلى أربع علب يومياً، أقطع تناول الطعام لأدخن، وأحرقت الشراشف لأنني كنت أنام والسيجارة مشتعلة، والخوف من الموت كان يوقظني في أية ساعة من الليل، ولم تكن هناك طريقة أخرى للتغلب عليه إلا بالتدخين أكثر، إلى أن توصلت إلى أنني أفضل الموت على ترك التدخين.

بعد أكثر من عشرين سنة بعد ذلك، كنت متزوجاً ولي ابنان، واصلت التدخين، فحصني طبيب وشاهد رئتي على الشاشة فقال لي منزعجاً، أنني لن أستطيع التنفس بعد عامين أو ثلاثة أعوام، أصابني الرعب، بقيت جالساً ساعات وساعات دون أن أفعل شيئاً، لأنني لم أستطع مواصلة القراءة، أو

سماع الموسيقى، أو الحديث مع الأصدقاء أو الأعداء بدون تدخين، في إحدى الليالي وخلال عشاء في أحد البيوت شرح طبيب نفساني صديق للآخرين أنه ربما يكون أسهل شيء هو التخلص من إدمان التدخين، تجرأت على سؤاله عن الكيفية، فكانت إجابته بساطتها قاتلة:

- تركك للتدخين سيكون بالنسبة لك كقتل شخص عزيز على نفسك.

كانت كانتهاء النبوءة، لم أعرف السبب أبداً، ولم أحاول أن أعرفه، فقد أنهيت السيجارة التي انتهيت من إشعالها خلال محبسي ولم أعد إلى تدخين سيجارة أخرى على الإطلاق، دون غثيان أو ندم، فيما تبقى من حياتي.

الإدمان الآخر لم يكن أقل صعوبة، دخلت خادمة من البيت المجاور لبيتنا في إحدى الأمسيات وبعد أن تحدثت مع الجميع توجهت إلى الشرفة وطلبت الحديث معي بكل أدب، ولم أتوقف عن القراءة حتى سألتني:

- هل تذكر "ماتيليدي"؟

لم أذكر من تكون، لكنها لم تصدقني، وقالت لي بتقسيم حروف الاسم.

-لا تبدي غباء، يا سيد "جابيتو"، إنها "ني-جرو-مان-تا".

عندها كل الحق: أصبحت "نيجرومانتا" في هذا الوقت سيدة حرة، ولها ابن من رجل البوليس الميت، وتعيش وحيدة مع أمها وعائلات أخرى في بيت واحد، ولكنها كانت تعيش في غرفة نوم منفصلة لها باب يؤدي إلى خلفية المقابر، ذهبت لرؤيتها، عودتنا إلى اللقاء استمرت لأكثر من شهر، وفي كل مرة كنت أؤخر عودتي إلى كارتاخينا وكنت أريد البقاء في سوكري للأبد. إلى أن فاجأتني عاصفة في فجر أحد الأيام في بيتها، تشبه تلك العاصفة ليلة لعبة الروليت الروسية مع زوجها، حاولت حماية نفسي تحت حواف البيوت، ولكني في النهاية ألقيت بنفسي في منتصف الشارع والمياه وصلت حتى ركبتي، من حسن حظي أن أمي كانت في المطبخ وحدها، فأخذتني إلى

غرفة نومي عبر طرق الحديقة حتى لا يعلم أبي بما حدث، وساعدتني على خلع قميصي المبتل، وأبعدته حتى آخر طول ذراعها ممسكة إياه بأطراف السبابة والإصبع الكبير، وألقت به إلى الركن بتنهيدة غثيان، وقالت:

- لقد كنت عند العاهرة.

تحجرت تماماً:

- كيف عرفتِ هذا؟!

قالت بضجر:

- لأنها الرائحة نفسها. مرة أخرى، لحسن حظك أن رجلها مات.

فاجأني عدم إحساسها بالرحمة لأول مرة في حياتها. أعتقد أنها تنبهت إلى هذا، فأكملت دون تفكير:

- الموت الوحيد الذي أسعدني عندما علمت به.

سألتها مذهولا:

- كيف عرفت من تكون؟!

تنهدت:

- أي بني، الله يخبرني بكل شيء يتعلق بكم.

ثم ساعدتني على خلع البنطلون المبتل وألقت به إلى الركن مع باقي الملابس، "كلكم ستكونون تماماً مثل أبيكم"، قالتها بتنهيدة عميقة، بينما كانت تجفف ظهري بفوطة من التيل، أنهت بكل إحساسها:

- ليرد الله أيضاً أن تكونوا أزواجاً طيبين مثله.

الرعاية التي خصتني بها أمي ربما كانت نابعة من محاولتها تفادي عدم تعرضي مرة أخرى للالتهاب الرئوي، إلى أن انتبهت أنها هي نفسها كانت تحيك من حولي الشراك لتمنعني من العودة إلى سرير البرق و"نيجرامانتا"، فلم أعد لرؤيتها إلى الأبد.

عدت إلى كارتاخينا معافى ومرحاً، بنبأ مهم أنني كنت في حالة كتابة رواية "البيت"، وكنت أتحدث عنها كما لو كانت مكتملة مع أنني كنت فقط في بدايات الفصل الأول. استقبلني "ثابالا" و"هيكتور" كما الطفل العجيب، وفي الجامعة كان يبدو أن أساتذتي الطيبين قبلوني كما أنا، وواصلت في الوقت نفسه كتابة المقالات بشكل عرضي التي كانوا يدفعون لي مقابلها في اليونفرسال. وواصلت مسيرتي ككاتب قصص قصيرة بكتابة القليل جداً منها، فقط لإرضاء الأستاذ "ثابالا": "حوار المرايا"، و"مرارة من أجل ثلاثة سائرين أثناء النوم"، ونشرتا كلاهما في الاسبكتادور. رغم أن القصتين فيهما ملامح عودة إلى الأربع السابقة لم أتمكن من التخلص منها.

كانت كارتاخينا وقتها ملوثة بالتوتر السياسي المسيطر على باقي البلاد، وكنا نعتبر هذا مؤشراً على أن شيئاً خطيراً سيحدث، مع نهاية السنة أعلن الليبراليون عدم المشاركة في أي نشاط سياسي احتجاجاً على وحشية المطاردة السياسية، لكنهم لم يتوقفوا عن الممارسة السياسية السرية لإسقاط الحكومة، ازداد العنف في الريف فهرب الفلاحون إلى المدن، ولكن الرقابة كانت تُجبر الصحف على الكتابة بعكس ما يحدث، إلا أن الجماهير كانت تعرف أن الليبراليين المقموعين سلحوا ميليشيات في العديد من مناطق البلاد. خاصة في السهول الشرقية- محيط عظيم من المراعي الخضراء يحتل أكثر من ربع مساحة الأراضي الوطنية- تحت قيادة الجنرال "جوادالوبي سالثيدو" الذي كانت له شهرته كشخصية أسطورية، خاصة في الجيش، وكان يتم توزيع صوره في السر، ونسخها بالمئات، ويشعلون لها شموعاً في محراب الكنائس.

"آل دي لا اسبريا"، فيما يبدو، يعرفون أكثر مما يعلنون، كان الحديث داخل المدن المسوّرة يتم بشكل عادي عن انقلاب عسكري على وشك الوقوع ضد المحافظين، لم أكن أعرف التفاصيل، لكن الأستاذ "ثابالا" حذرني من أنه في

اللحظة التي انتبه فيها إلى وجود أي تظاهرة في الشارع يجب أن أذهب إلى الصحيفة على الفور، كان يمكن لمس التوتر باليدين عندما دخلت إلى محل مرطبات "هيلادريا امريكانا" للوفاء بموعد في الثالثة مساء، قام أحد زملائي القدامى لم أتحدث معه عن السياسة مطلقاً، مر إلى جواري وقال دون أن ينظر إليّ:

- اذهب إلى الصحيفة، ستبدأ المعركة.

فعلت عكس ما طُلب مني: كنت أريد أن أعرف هذا في وسط المدينة بدلاً من انغلاقي في صالة التحرير. بعدها بدقائق جلس إلى طاولتي ضابط صحافة من الحكومة المحلية، كنت أعرفه جيداً، ولم أعرف أنهم خصصوه لي ليراقبني، تحدثت معه حوالي نصف ساعة بطريقة لا واعية، وعندما نهضت لأذهب اكتشفت الصالون الضخم الفارغ من الزبائن دون أن انتبه، تابع نظرتي وتبين الساعة: الواحدة وعشر دقائق.

قال لي براحة مكبوتة:

- لا تنزعج.

بالضبط، فقد قامت المجموعة المهمة من الزعماء الليبراليين، منزعجين من العنف الرسمي، اتفقوا مع العسكريين الديمقراطيين الأعلى رتبة لوضع حد للمذبحة التي يمارسها النظام المحافظ بطول البلاد وعرضها في محاولة منه للبقاء في السلطة بأي ثمن، معظمهم شارك في مباحثات 9إبريل لإحلال السلام من خلال الاتفاق مع الرئيس "اوِسبينا بيريث"، وما كاد يمر عشرون شهراً بعدها حتى انتبهوا إلى أنهم كانوا ضحية لخدعة كبرى، اتفاق ذلك اليوم تم بموافقة رئيس الإدارة الليبرالية شخصياً، "كارلوس بيراس ريستريبو" من خلال "بلينيو ميندوثا ينيرا"، الذي كان على علاقة جيدة بالقوات المسلحة عندما كان وزيراً للحرب في الحكومة الليبرالية، العمل المنظم من خلال "ميندوثا نييرا" بالتعاون مع

المؤيدين في كل البلاد كان يجب أن يبدأ مع فجر اليوم التالي بقصف القصر الرئاسي بطائرات القوات الجوية، كانت الحركة مدعومة بالقواعد البحرية في كارتاخينا ومعظم القادة العسكريين في البلاد والمنظمات المهنية للسيطرة على السلطة وإقامة حكومة مدنية للمصالحة الوطنية.

فقط بعد فشل الحركة عرفنا أنه قبل يومين من التاريخ المحدد لبدء العمل، اجتمع الرئيس السابق "ادواردو سانتوس" في بيته ببوجوتا مع القادة الليبراليين وزعماء الانقلاب لوضع اللمسات الأخيرة للمشروع، وخلال المناقشات، سأل أحدهم السؤال الطقسي:

- هل سيكون هناك سفك دماء؟

لم يرد أحد أن يكون أبله أو غبياً ليجيب بلا، زعماء آخرون أكدوا أنهم اتخذوا احتياطياتهم حتى لا تُراق الدماء، ولكن لا توجد وصفات سحرية تمنع وقوع ما هو غير متوقع، لخوفهم من حجم مؤامرتهم قامت الإدارة الليبرالية بتوزيع الأوامر بلا نقاش، وكثيرون من المشاركين لم تصلهم التعليمات في الموعد المحدد فتم القبض عليهم أو اغتيالهم في المحاولة، آخرون نصحوا "ميندوثا" بأن يواصل دوره منفرداً حتى يتم الاستيلاء على السلطة، ولم يعمل بتلك النصيحة لأسباب أخلاقية أكثر منها سياسية، لكن لا الوقت ولا الوسائل مكنته من تحذير كل المشاركين. تمكن هو من اللجوء إلى السفارة الفنزويلية وعاش أربع سنوات في المنفى بكاراكاس، ونجا من محاكمة عسكرية حكمت عليه بالسجن خمسة وعشرين عاماً، بعد اثنتين وخمسين عاماً أكتب بكل ثقة- دون الحصول على إذن منه- أنه ندم بقية حياته خلال منفاه عما نتج عن بقاء المحافظين في الحكم: لا أقل من ثلاثمائة ألف قتيل في عشرين سنة.

بالنسبة لي أيضاً، بطريقة ما، كانت تلك لحظة حاسمة، كنت قد نجحت في امتحانات السنة الثالثة بكلية الحقوق قبل ثلاثة أشهر، ووضعت نهاية لعلاقة مع

صحيفة اليونفرسال، فلم أكن راصداً للمستقبل لا في هذه ولا تلك، ولكني أعلنت أن السبب هو الحصول على وقت فراغ أنهي فيه الرواية التي لم أكد أكتب فيها شيئاً ، وإن كنت في أعماقي أعرف أنها في الحقيقة لم تكن أكثر من كذبة، وأنني سريعاً ما اكتشفت أن المشروع لم يكن سوى شكلٍ من أشكال البلاغة، مع قليل من الكتابة الجيدة التي عرفتها من استخدام "فوكنر"، مضاف إلى كل ما هو سيئ الناتج عن قلة الخبرة، وتعلمت سريعاً أن حكي حكايات متوازية للذين لا يكتبون- دون كشف محتواها- جزء مهم من موضوع الكتابة نفسها، لكن هذا لم يكن القضية وقتها، بل أنه ينقص شيء يؤكد أنني أبدعت رواية شفهية لتسلية المستمعين وخداع نفسي.

هذا الوعي أجبرني على إعادة التفكير في المشروع الذي لم يكن بين يدي منه أكثر من أربعين صفحة متفرقة، فراجعته من أول نقطة إلى آخر نقطة، ومع ذلك ذكروا الرواية في أكثر من مجلة وصحيفة- وأنا أيضاً فعلت ذلك- وحتى نشروا أجزاء من مقالات نقدية عنها لجذب القراء المتخيلين. حقيقة أسباب هذه العادة بالحديث عن مشروعات متوازية لا يجب أن تستحق التقريع بل الشفقة: رعب الكتابة لا يحتمل تماماً كالكتابة نفسها، وفي حالتي، إضافة إلى هذا كنت مقتنعاً بأن حكي القصة الحقيقية يجلب سوء الحظ، ومع ذلك يعزيني أنه في بعض الأحيان يمكن أن تكون الحكاية الشفهية أفضل من المكتوبة، ودون أن أعرف كنا نختلق نوعاً جديداً ينقص الأدب: خيال الخيال.

حقيقة الحقيقة أنني لم أكن أعرف كيف أواصل الحياة. نقاهتي في سوكري نفعتني في الانتباه إلى أنني لا أعرف اتجاه الحياة، ولكنها لم تقدم لي إشارة على الطريق القويم ولا سبباً جديداً لأقنع أبويَّ أنهما لن يموتا لو أنني اتخذت قراري بحرية ولحسابي الخاص، لذلك ذهبت إلى بارانكيا ومعي مائتا بيزو أعطتني إياهم أمي قبل عودتي من كارتاخينا، اقتطعتهم من مصاريف البيت.

في 15 ديسمبر 1949 دخلت مكتبة الموندو في الخامسة مساء؛ لأنتظر أصدقائي الذين لم ألتقيهم بعد ليلتي تلك في مايو التي ذهبت فيها لأودع السيد "روزاري" الذي لا يُنسى، لم أكن أحمل سوى حقيبة شاطئ مع أخرى للملابس، وبعض الكتب، وحقيبة جلدية بأصول قصصي، بعدها قليل من وصولي جاءوا جميعاً إلى المكتبة واحداً بعد الآخر، وكان ترحيبا صاخباً من "الفارو ثيبيدا" الذي كان لا يزال في نيويورك. وعندما اكتملت المجموعة انتقلنا لتناول المقبلات الذي لم يعد في مقهى كولومبيا القريب من المكتبة بل في مقهى آخر لأصدقاء أقرب على الرصيف المقابل: مقهى جابي.

لم يكن لدي خط سير محدد، لا هذا المساء ولا في بقية حياتي، الغريب أنني لم أفكر أبداً أن خط السير هذا يمكن أن يكون في بارانكيا، وأنني لو ذهبت إلى هناك لن يكون إلا للحديث عن الأدب وتقديم شكري على الكتب التي أرسلوا لي بها في سوكري. الأول كان كناقد تحدثنا بما فيه الكفاية، ولكن لا شيء عن الثاني برغم أنني حاولته عدة مرات، لأن المجموعة كان لديها رعب مقدس من الاعتياد على تقديم أو تقبل الشكر فيما بينهم.

جهز "خيرمان بارجاس" ليلتها طعاماً لاثني عشر شخصاً، من جميع الأصناف، من صحافيين إلى رسامين إلى محامين، وحتى رئيس القسم، محافظ كلاسيكي من بارانكيا، له طريقته الخاصة في التمييز والحكم، انسحب أكثرهم عند منتصف الليل وانقسم الباقون، تسربوا في جماعات صغيرة، إلى أن بقينا، "الفونسو" و"خيرمان" وأنا، مع الحاكم، تقريباً كما اعتدنا على السهر في مراهقتنا.

خلال النقاش الطويل لتلك الليلة تلقيت درساً مفاجئاً عن شخصية حكام المدينة خلال السنوات الدامية، أحتسب أنه بين نتائج تلك السياسة المتوحشة الأقل أملاً هناك رقم رهيب من اللاجئين بلا سقف ولا خبز في تلك المدن.

أنهى حديثه قائلاً:

- بهذه الطريقة فإن حزبي بمساعدة السلاح سيبقى بلا معارضين في الانتخابات القادمة، ويصبح مالك السلطة المطلق.

الاستثناء الوحيد كانت بارانكيا، المتوافقة مع ثقافتها في التعايش السياسي التي يطبقها المحافظون المحليون حول تلك المدينة إلى ملجأ للسلام في قلب البركان، أردت أن أقول له تحفظاً أخلاقياً، لكنه أسكتني بجفاء بإشارة من يده، وقال:

- آسف، هذا لا يعني أننا نعيش على هامش الحياة الوطنية، بالعكس: بسبب سياستنا السلمية فإن المأساة الاجتماعية في البلاد بدأت تدخل إلى مدينتنا من الباب الخلفي، وأنها تعيش بيننا.

عرفت لحظتها أن هناك حوالي خمسة آلاف لاجئ جاءوا من الداخل في أسوأ بؤس، ولا يعرفون كيف يعيدون تأهيلهم، ولا أين يخبئونهم حتى لا يتم إعلان المشكلة، ولأول مرة في تاريخ المدينة هناك دوريات عسكرية تقيم حراسة في الأماكن الحساسة، وكل العالم يراها، لكن الحكومة تنفيها، والرقابة تمنع الإعلان عنها في الصحف.

عند بزوغ الفجر، وبعد ذهاب الحاكم زحفاً تقريباً، ذهبنا إلى شوب سويي، مطعم إفطار كبار الساهرين، اشترى "الفونسو" من كشك الناصية ثلاث نسخ من الهيرالدو، كانت في صفحة افتتاحيتها مقالة موقعة باسم "بوك" اسمه المستعار في العمود اليومي، كانت فقط عبارة عن تحية لي، ولكن "خيرمان" سخر منه؛ لأن المقالة تقول أنني كنت هناك في إجازة غير رسمية.

وسخر خيرمان:

- من الأفضل أن تقول أنه سيبقى ليعيش معنا هنا حتى لا نكتب مقالة تحية وبعدها نكتب أخرى لوداعه، وبذلك نوفر لصحيفة بخيلة مثل الهيرالدو.

وبعدها بجدية، فكر "ألفونسو" أنه لن يكون سيئاً كتابة عمود آخر في صفحة الرأي، لكن "خيرمان" كان متمرداً مع ضوء الصباح.

- سيكون طابوراً خامساً؛ لأن بالصحيفة أربعة.

لم يستشرني أي منهم ليعرف مدى استعدادي، كما كنت أتمنى، لأقول لهما نعم، لم نتحدث عن الموضوع أكثر من هذا، ولم نكن في حاجة إلى ذلك؛ لأن "ألفونسو" قال لي في تلك الليلة إنه تحدث مع إدارة الصحيفة، ويعتقدون أنه يمكن أن تضم الصحيفة كاتباً جديداً، إذا كان جيداً، ولكن دون مقابل كبير، على أي حال لم يتفقوا على شيء محدد حتى مضت أعياد الميلاد وبداية العام الجديد، لذلك قررت البقاء بحجة العمل الجديد، وإن كانوا قد قالوا لي: لا، في فبراير.

(7)

كانت مقالتي الأولى المنشورة في صفحة الافتتاحية لصحيفة الهيرالدو، يوم 5 يناير 1950 لم أوقعها باسمي تحسباً للفشل وعدم تمكني من استعادة نجاحي الذي حظيت به في اليونفرسال، لم أفكر مرتين في اختيار الاسم المستعار: "سيبتيموس"، المأخوذ من "سيبتيموس وارن سميث"، شخصية "فرجينيا وولف" المعتوهة، في رواية "السيدة دالاوى"، وعنوان العمود- "الزرافة"- كان اسم الشهرة السري الذي لم يكن يعرفه أحد غيري لرفيقتي الوحيدة في حلبات الرقص في سوكري.

كانت نسمات يناير تبدو لي كما لو كانت تهب أكثر من أي وقت في السنة، ونكاد لا نستطيع السير عكسها في الشوارع التي تخضع لهباتها حتى شروق الصباح، كانت الأحاديث دائماً عمَّا تخلفه الرياح المجنونة من ضرر خلال الليل، فكانت تأخذ معها النعاس وحظائر الدجاج، وتحوِّل زنك أسقفها إلى مقاصل طائرة.

أعتقد اليوم أن تلك النسمات المجنونة كنست آثار ماضٍ عقيم، وفتحت لي أبواب حياة جديدة، فقد تحولت علاقتي مع المجموعة من علاقة الإعجاب المتبادل إلى علاقة المشاركة المهنية. كنا في البداية نتحاور حول المشروع أو نتبادل الملاحظات بلا تنظير ولكن بلا نسيان. وأكثر اللحظات حسماً بالنسبة لي كانت في صباح أحد الأيام عندما دخلت مقهى جابي، وكان "خيرمان بارجاس" قد انتهى لتوه من قراءة "الزرافة" في صمت، في قصاصة من صحيفة اليوم، وكان باقي أعضاء المجموعة في انتظار حكمه حول طاولة في إطار مناخ مرعب يحوم

على الصالة. ما إن انتهى، ودون حتى أن ينظر إليّ، مزقها "خيرمان" إلى قطع صغيرة دون أن ينطق بكلمة واحدة، وألقى بها في الطفاية بين بقايا أعقاب السجائر والكبريت المحترقة، لم ينطق أحد بحرف، ولم يتغير حال الجالسين حول الطاولة، ولم يتم مناقشة هذا الموضوع في أية لحظة أخرى. ولكن هذا الدرس أفادني حتى هذه اللحظة عندما يطرأ على ذهني في لحظات معينة، أو تهب عليّ الرغبة في كتابة مقطع لمجرد أداء الواجب.

في الفندق الرخيص الذي عشت فيه ما يقرب من السنة، كان أصحابه يعاملونني كواحد من أفراد العائلة، كانت ممتلكاتي الوحيدة في ذلك الوقت تتكون من صندل تاريخي وغيارين داخليين كنت أغسلهما في الدش، والحقيبة الجلدية التي سرقتها من صالون الشاي الفاخر في بوجوتا خلال التمرد الشعبي ليوم 9 إبريل. كنت أحملها معي إلى كل مكان بأصول الكتابات التي كتبتها، وكانت الشيء الوحيد الذي أخشى عليه من الضياع، ولم أكن على استعداد للمخاطرة بها ولا حتى تحت سبعة مفاتيح في خزانة أحد البنوك، ولم أكن أأتمن عليها سوى شخص واحد هو "لثيدس" الهادئ، بواب الفندق، الذي قبلها كضمان لأجر الغرفة، أدهشته الأوراق الملفوفة المكتوبة على الآلة الكاتبة والمليئة بالتصحيحات، فخبأها في درج مكتبه. واستعدتها في اليوم التالي وفي الساعة المتفق عليها، وواصلت بعدها الوفاء بمواعيد الدفع بحزم تام، لدرجة أنه كان يأتمنني حتى أجر ثلاث ليالٍ متتالية، وتحول ما بيننا إلى اتفاق جاد، لدرجة أنني كنت أترك الحقيبة أحياناً على مكتبه دون أن أقول له أكثر من تحية المساء، وأتناول المفتاح من لوحة المفاتيح وأصعد إلى غرفتي.

كان خيرمان يعيش مهموماً باحتياجاتي في كل ساعة، إلى درجة أنه كان يعرف إن كان لدي مكان لتناول الطعام أم لا، ويعطيني بيزو ونصف لأجر السرير. لم أعرف مطلقاً كيف كان يعلم بهذا، وبفضل حسن سلوكي استطعت أن

أحصل على ثقة العاملين في الفندق، إلى درجة أن بنات الهوى الساكنات بالفندق كن يقدمن لي صابون الحمَّام الخاص بهن. وكانت السيدة "كاتالينا جراندي" بنهديها الضخمين ورأسها الشبيه بالقرعة تجلس على كرسي الإدارة، وفتوتها كان الخلاسي "خوسيه سان فيثنتي"، عازف بوق شهير فقد فكه خلال هجوم لصوص عليه لانتزاع آلته الموسيقية، تركوه جريحاً وغير قادر على النفخ فقام بتغيير مهنته، ولم يتمكن من الحصول على أفضل مكان لعضوه سوى سرير "كاتالينا" الذهبي، وهي أيضاً كان لها كنزها الخفي الذي ساعدها على الصعود خلال عامين فقط من العمل على رصيف الميناء إلى الجلوس على عرشها كأم كبرى. تعرفت على عبقريتهن وأيديهن الممتدة لنشر السعادة بين أصدقائهن، ولكنهن لم يفهمن أبداً كيف أنني في عدة مرات لم أكن أملك البيزو ونصف البيزو لدفع أجر الغرفة، ومع ذلك كان يرافقني كثير من أصحاب عربات الليموزين الرسمية.

خطوة أخرى سعيدة في تلك الأيام أنني تحولت إلى المرافق الوحيد لقرد الحرب، سائق تاكسي أشقر جداً كما لو كان مثلجاً، وذكي جداً وظريف إلى درجة أنهم اختاروه كعضو شرف في المجلس البلدي بلا دعاية انتخابية، كانت اللحظات التي يقضيها في آخر الليل بالحي الصيني كما لو كانت جزءاً من فيلم سينمائي، لأنه كان يتولى إثراءها بنفسه، وأحياناً إضفاء مسحة من الجنون عليها- بعجرفة غير متوقعة- كان يخبرني عندما تكون لديه ليلة هادئة، وكنا نقضيها معاً في الحي الصيني البائس، حيث تعلم آباؤنا وآباء آباؤنا كيف ينجبوننا إلى هذا العالم.

لم أفهم مطلقاً اكتشاف سبب، خلال هذه الحياة البسيطة، لغرقي في يأس غير متوقعٍ، وروايتي التي كنت أكتبها "البيت" وبدأتها قبل ستة أشهر، بدت لي سخرية شيطانية، وأسوأ منها ما كنت أقوله بأنني مستمر في كتابتها. والحقيقة لم تكن

سوى بعض الأجزاء التي نشرتها في عمود "الزرافة" وفي "كرونيكا" عندما لم يكن لدي موضوع أكتبه، وخلال عزلة نهاية الأسبوع عندما يلجأ الآخرون إلى بيوتهم وأبقى وحيدا في مدينة تعيش حالة من الكسل، كنت فقيراً فقراً مطلقاً وخجلي يفوق خجل السمان، كنت أحاول التغلب عليه بالسهر والحديث الصريح القاتل، كنت أشعر أنه لا حاجة لهم بي في أي مكان، بل بعض معارفي كانوا يشعرونني بذلك، هذه الحالة تصبح مقلقة في صالة تحرير "الهيرالدو"، حيث كنت أكتب حتى عشر ساعات في أحد الأركان البعيدة دون أن أتحدث مع أحد، ملتفاً في دخان سجائري التي كنت أدخنها في عزلة تامة وبلا توقف، كنت أكتب بسرعة شديدة وفي أحيان كثيرة حتى إشراق الصباح، وعلى ورق مطبعة أتنقل به إلى كل الأماكن في حقيبتي الجلدية.

في إحدى المرات نسيتها في التاكسي، وفهمت هذا على أنه لا يعدو أن يكون سوء حظ، ولم أبذل أي جهد لاستعادتها، لكن "ألفونسو فوينماير" المنزعج من سهوي، كتب مقالة ونشرها في نهاية الصحيفة: "في السبت الأخير فقدت حقيبة أوراق في سيارة من الخدمة العامة، وبما أن صاحب هذه الحقيبة وكاتب هذه السطور هما نفس الشخص، فإننا نشكر من يعثر عليها أن يتفضل بإبلاغنا. الحقيبة لا تحتوي على أوراق لها قيمة تذكر: فقط "زرافات غير منشورة"، بعد يومين ترك أحدهم الأوراق في مدخل الهيرالدو، ولكن بلا حقيبة، وبثلاثة أخطاء إملائية مُصححة بحروف جميلة مكتوبة بالحبر الأخضر.

الراتب اليومي كان يكفي بالضبط أجر الغرفة، ولكن أقل ما كان يهمني في تلك الأيام هو جحيم الفقر. خلال الأيام التي لم أكن أستطيع فيها دفع أجر الغرفة كنت أذهب للقراءة في مقهى روما، كما كنت في الواقع: وحيداً مفلساً كما كنت في ممر بوليفار، أحيي أحداً من معارفي من بعيد، هذا إذا كلفت نفسي بالنظر إليه. أمر مباشرة إلى مكاني المعتاد، حيث كنت أقرأ في كثير من الأحيان حتى

تغشاني الشمس؛ لأنه حتى ذلك الوقت كنت لا أزال قارئاً نهماً دون أي نوع من النظام، خاصة الشعر، حتى الشعر السيئ لأنني كنت مقتنعاً بأن الشعر السيئ؛ سيقودني في يوم من الأيام إلى الشعر الجيد.

مقالاتي في "الزرافة" كانت تجعلني شديد الحساسية تجاه الثقافة الشعبية، بعكس قصصي التي كانت تبدو ألغازاً كافكاوية كتبها شخص لا يعرف في أي بلد يعيش. إلا أنه في الحقيقة، كانت روحي تشعر بمأساة كولومبيا كصدى بعيد، وتقلقني فقط عندما تطفح أنهار الدماء، كنت أشعل سيجارة قبل الانتهاء من الأخرى، أتنفس الدخان بشوق للحياة يشبه تشوق مرضى الربو لتنفس الهواء، العلب الثلاث التي استهلكها يومياً كانت تترك آثارها على أظافري وكحة تشبه نباح كلب عجوز مزق شبابي، لقد كنت خجولاً وحزيناً ككاريبي طيب، وغيوراً على أسراري الخاصة، لدرجة أن أي سؤال عنها كنت أجيب عليه برد فعل غاضب. كنت مقتنعاً أن سوء حظي أصيل ولا علاج له، خاصة فيما يتعلق بالنساء والمال، لكن هذا لم يكن يزعجني؛ لأنني كنت أعتقد أن حسن الحظ لا ينقصني لأكون كاتباً جيداً، لم أكن أحلم بالمجد، ولا بالمال، ولا الشيخوخة؛ لأنني كنت واثقاً من أنني سأموت في عز شبابي وفي الشارع.

سفري مع أمي لبيع بيت أراكاتاكا أنقذني من الجحيم، ويقيني من روايتي الجديدة، كان إشارة على مستقبل مختلف، كانت رحلة حاسمة من بين رحلات كثيرة في حياتي؛ لأنها أكدت لي أن الكتاب الذي كنت أحاول أن أكتبه ليس سوى محض خيال ولا يعتمد على أية حقيقة شاعرية. المشروع، بالطبع، تمزق بمجرد احتكاكه بالواقع في تلك الرحلة الكاشفة.

نسق السيرة الذي حلمت به لم يكن شيئاً آخر غير سيرة عائلتي، التي لم تكن لها البطولة أو كانت ضحية شيء، بل شاهداً وضحية لكل شيء، بدأت في كتابتها في لحظة العودة نفسها، فلم تعد تنفعني كل التحضيرات الاصطناعية المسبقة،

ولكن الشحنة العاطفية التي كنت أحملها في داخلي دون أن أنتبه إليها، وظلت تنتظرني كاملة في بيت الجدين- فمنذ الخطوة الأولى في رمال القرية الحارقة، انتبهت إلى أن نسقي لم يكن أكثر سعادة لحكي ذلك الفردوس الأرضي للبؤس والحنين، وإن كنت قضيت وقتاً طويلاً وعملاً كثيراً لكي أعثر على النسق المحدد- إن نشر أجزاء منها في "كرونيكا" التي كانت على وشك الصدور، لم يكن عقبة، بل على العكس تماماً: إيقاف منظم للولع.

عدا "ألفونسو فوينماير" - الذي فاجأني في حالة الحمى الإبداعية بعد ساعات من البدء في كتابتها- لإن بقية أصدقائي اعتقدوا ولزمن طويل أنني أواصل مشروعي القديم "البيت". وقررت أنا أن يظلوا على اعتقادهم بخوف صبياني من أن يكتشفوا فشل فكرة حدثتهم عنها كثيراً كما لو كانت عملاً عظيماً، وأيضاً فعلت ذلك لاعتقادٍ لا زلت أؤمن به، بأن حكاية قصة وكتابة أخرى مختلفة أمر مطلوب حتى لا يعرف أحد أيهما الحقيقية. خاصة في الحوارات الصحافية التي تعتبر نوعاً من الإبداع الخطر بالنسبة للكُتَّاب الخجولين الذين لا يريدون الحديث بأكثر مما يجب، برغم هذا فإن "خيرمان بارجاس" اكتشفها بطريقته الغريبة؛ لأنه بعد أشهر من سفر السيد "رامون" إلى برشلونة قال له في رسالة: "أعتقد أن جابيتو هجر مشروع "البيت" ومتورط في رواية أخرى"، بالطبع كان السيد "رامون" يعرف هذا قبل ذهابه.

كنت واثقاً منذ أول سطر أن الكتاب يجب أن يعتمد على ذكريات طفل في السابعة نجا من مذبحة عام 1928 بمنطقة الموز. لكنني سرعان ما تخليت عن هذه الفكرة؛ لأن الحكاية ستصبح محدودة بوجهة نظر شخصية واحدة لا تملك الأدوات الشاعرية لتحكي، ووعيت أن مغامرتي في قراءة "أوليسيس" في العشرين من عمري وبعدها قراءة "الصخب والعنف" مشروعا روايتين غير ناضجتين، لا مستقبل لهما، قررت إعادة قراءة فترة غير معروفة، بالضبط، أكثر مما كنت أعتقد

أنها مغلقة عند "جويس" و"فوكنر"، فقد كشفت لي في ذلك الوقت جمالية وبساطة مرعبة، ففكرت في توزيع المونولوجات بأصوات من القرية، كما لو كانت كورس إغريقي حكَّاء، على طريقة "بينما كنت أرقد محتضراً" التي هي ليست سوى رؤى عائلة محيطة بمريض يعاني سكرات الموت، لم أشعر أنني قادر على إعادة عنصره البسيط للإشارة إلى أسماء النصوص المسرحية، ولكنها أعطتني الفكرة لاستخدام فقط ثلاثة أصوات للجد والأم والطفل، نغماتها مختلفة جداً ويمكنها أن تدل عليهم من خلالها هي نفسها، الجد في الرواية لن يكون أعور كجدي لكنه كان أعرج، والأم ذاهلة عن الدنيا، لكنها ذكية، كجدتي، والطفل ساكن، خائف ومتأمل، كما كنت دائماً في تلك السن، لم يكن اكتشافاً إبداعياً، بل هو مجرد عنصر تقني.

لم يتم إجراء تغيير أساسي في الكتاب الجديد خلال الكتابة ولا في أية رؤية مختلفة عن الرؤية الأصلية، عدا حذف وإعادة الكتابة طوال عامين- قبل الطبعة الأولى، تقريباً استجابة للرغبة في التصحيح حتى الموت، صوَّرت القرية مختلفة تماماً عن واقعها عندما عدت إلى آراكاتاكا مع أمي ولكنها بالاسم نفسه- تماماً كما حذرني السيد رامون الحكيم- رأيت أنه اسم غير مقنع تماماً مثل اسم بارانكيا، لأنه لقرية تفتقد إلى ريح أسطورية مثل تلك التي كنت أبحث عنها للرواية. ولهذا قررت أن أسميها بالاسم الذي كنت أعرفه بها خلال الطفولة، ولكن محتواها السحري لم يكن قد كشف لي بعد عن نفسه حتى تلك اللحظة: "ماكوندو".

اضطررت إلى تغيير العنوان "البيت"- كان معروفاً جداً في ذلك الوقت بين أصدقائي- لم تكن له أية علاقة بالمشروع الجديد، لكنني ارتكبت خطأ بكتابة العناوين التي خطرت على بالي في كراسة مدرسية أثناء كتابة الرواية، وكان لديّ أكثر من ثمانين عنواناً، وأخيراً عثرت عليه دون أن أبحث عنه خلال النسخة الأولى التي قاربت على الاكتمال، عندما قبلت كتابة مقدمة المؤلف. قفز العنوان في

وجهي، كأكثرها ازدراء وفي الوقت نفسه رحمة بجدتي، ويدخل في ملامحها كأرستقراطية، عَمَّدتها شركة الفاكهة المتحدة في احتضارها: "الورقة الجافة".

المؤلفون الذين استلهمتهم أثناء الكتابة كانوا الروائيين الأمريكيين، وبشكل خاص الذين أرسلهم لي أصدقاء بارانكيا في سوكري، خاصة بفضل التوجهات المختلفة التي تغطي كل اتجاهات الثقافات، من أول ثقافات الجنوب العميق وحتى ثقافة الكاريبي، والتي أنتمي إليها انتماء كاملاً، فهي أساسية ولا يمكن استبدالها بأخرى في تشكيلي كشخصية إنسانية وككاتب، منذ أن وعيت وبدأت اقرأ كروائي محترف. ليس من أجل اللذة، بل لإشباع حب الاستطلاع النهم لاكتشاف كيف كانت كتب الحكماء مكتوبة، فقرأتها أولاً بالطريقة العادية وبعدها بالعكس، وكنت أخضعها لشكل من أشكال التشريح الجراحي حتى أستخرج أحشاءها العميقة في بنائها، وللهدف نفسه فإن مكتبتي لم تكن أبداً أكثر من أداة عمل، حيث أستطيع أن أطلع في لحظة على فصل من كتاب لـ"دستيوفسكي"، والتأكد من معلومة عن مصرع "يوليوس قيصر" أو عن طريقة عمل كربيراتير سيارة. ولدي حتى كتيبات تشرح كيف يمكنك أن ترتكب جريمة قتل كاملة، ربما تحتاجه بعض شخصياتي المسكينة، والباقي تولى عمله الأصدقاء الذين وجهوني في قراءاتي، وبعضهم أعاروني الكتب لأقرأها في اللحظة المناسبة تماماً، والبعض الآخر قرأوا أصول كتاباتي قراءة نقدية صارمة قبل نشرها.

أمثلة كهذه زادتني وعياً جديداً عن نفسي، ومنحني مشروع كرونيكا أجنحة. كانت روحنا عالية جداً رغم العقبات الصعبة التي واجهتنا، وتمكنا من الحصول على مكاتب خاصة بنا في طابق ثالث بلا مصعد، ما بين صيحات الباعة وأبواق الأوتوبيسات التي لا تحترم قواعد المرور في شارع سان بلاس، الذي كان سوقاً مزعجة منذ بزوغ الفجر وحتى السابعة مساء، يكاد المكتب لا يكفينا معاً، لم يكن هناك تليفون بعد، والتكييف كان خيالاً يمكنه أن يكلفنا أكثر من مجلتنا

الأسبوعية، لكن "فوينماير" كان لديه الوقت ليملأ المكتب بجميع أنواع الموسوعات المزقة، وقصاصات الصحف في أية لغة، وكتيباته عن المهن الغريبة، في طاولته كمدير كانت هناك "أندروود" التاريخية التي أنقذها مخاطراً بحياته في حريق السفارة، والتي تعتبر اليوم جوهرة ثمينة في المتحف الرومانتيكي لبارانكيا. وفي الطاولة الأخرى الوحيدة التي كنت أجلس إليها، بآلة كاتبة معارة من الهيرالدو، باعتباري مدير التحرير المبجل. وكانت هناك طاولة رسم لـ"أليخاندرو أوبريجون"، و"أورلاندو جيرا" و"ألفونسو ميلو"، ثلاثة من الرسامين المشهورين التزموا بكامل وعيهم برسم موضوعات المجلة مجاناً، وقاموا بهذا بالفعل، أولاً بفضل كرمهم الأصيل، وأخيراً لأننا لم نكن نملك سنتيماً واحداً لأنفسنا، والفوتوغرافي الثابت والأكثر تضحية كان "كيكي سكوبيل".

بخلاف عمل التحرير الأكثر التصاقاً بوظيفتي كان عليّ مراقبة مراحل الطباعة، ومراقبة مصحح البروفات، برغم أخطائي الإملائية. وكنت أيضاً لازال على التزامي مع الهيرالدو بمواصلة كتابة "الزرافة"، ولذلك لم يكن لدي الكثير من الوقت للكتابة المستمرة لكرونيكا. ولكن لدي وقتاً لكتابة قصصي في ساعات الفجر الميتة.

وضع "ألفونسو"، المتخصص في جميع أنواع المهن، كل إيمانه في كتابة القصص البوليسية واختيارها، فيما كنت أنا أقوم بتبسيطها شكلياً وهو ما أفادني في مهنتي؛ فقد كان عملي توفير مساحة لها، ليس بحذف الكلمات الزائدة فقط بل والأحداث الهامشية، إلى أن أترك لبها الأساسي دون أن أقلل من قدرتها على الإقناع. أي، حذف كل ما يمكن أن يكون زائداً في نوع محكم، كل كلمة فيها لها مكانها في البناء. كانت هذه المهمة تدريباً مفيداً لبحثي المتواصل لتعلم تقنية حكي القصة.

من أفضل تلك القصص التي كتبها "خوسيه فيلكس فوينماير" أنقذتنا عدة أسابيع، ولكن التوزيع ظل يراوح مكانه، ولكن قشة الإنقاذ الدائمة كانت في يد

"ألفونسو فوينماير" الذي لم يعترفوا أبداً بفضله كرجل أعمال، ووضع كل جهده للتغلب على نفسه وحاول بنفسه التغلب على كل الصعاب بحسه الساخر، كان يقوم بكل شيء، من كتابة الافتتاحيات المضيئة إلى كتابة المقالات التافهة بالإلحاح نفسه الذي يحصل به على الإعلانات، والقروض المعدومة والأعمال الخاصة من متعاونين متمنعين، لكن كل هذه كانت معجزاتٍ عقيماً، عندما عاد الباعة بعدد النسخ نفسه التي أخذوها للبيع، حاولنا استخدام التوزيع الشخصي في المطاعم المفضلة، من أول "الرجل الثالث" وحتى الحوانيت القذرة بالميناء النهري، حيث كنا نشتري حاجياتنا بالقليل الذي نبيعه.

أحد أكثر المتعاونين معنا انتظاماً، كان أكثرنا من حيث عدد القراء، إنه "فيتي أوسيو"، من أول عدد من كرونيكا كان أكثرنا نشاطاً، وزاويته "يوميات عاملة على الآلة الكاتبة" بالتوقيع المستعار "دوللي ميلو" غزت قلوب القراء، ولم يصدق أحد أن كل هذه الحرف المتعددة قام بها رجل واحد ومجاناً.

كان يمكن لـ"بوب بريتو" أن ينقذ كرونيكا من الغرق بأي اكتشاف طبي أو أثري من العصور الوسطى، لكن فيما يختص بالعمل كانت له قاعدة ثابتة: إذا لم يدفعوا لا يوجد إنتاج، وفجأة وقبل أن يحل الموعد توقف عن الإنتاج.

من "خوليو ماريو" تمكنا من الحصول على بعض القصص الملغزة مكتوبة باللغة الإنجليزية، كانت يترجمها "ألفونسو" برغبة صياد يعسوب بين أوراق أكثر القواميس غرابة، وكان يرسمها "أليخاندرو أوبريجون" بخطوط فنان كبير، إلا أن "خوليو ماريو" المسافر أبداً، وباتجاهات متناقضة تحول إلى شريك خفي، فقط "ألفونسو فوينماير" كان يعرف أين يمكن العثور عليه، وكشف لنا سره بجملة مقلقة:

– في كل مرة أرى طائرة تمر أفكر أن "خوليو ماريو سانتو دومينجو" موجود فيها.

باقي المتعاونين غير الثابتين كانوا ينتظرون حتى آخر لحظة لإغلاق العدد أو دفع الأجر.

اقتربت بوجوتا منا على قدم المساواة لكن أياً من أصدقائنا القادرين لم يبذل أي جهد لمساعد المجلة الأسبوعية على مواصلة الصدور، عدا "خورخي ثالاميا" الذي تفهم توجهات مجلته ومجلتنا وعقد معنا اتفاقاً لتبادل المواد، كانت نتيجته طيبة، وأعتقد حقيقة أن أحداً لم يقدر معجزة "كرونيكا". كان المجلس الاستشاري مكوناً من ست عشرة شخصية اخترناها نحن طبقاً لقيمة كل منهم المعترف بها، كانوا جميعاً من لحم ودم، لكنهم كانوا من المهمين والمشغولين في مجالات أنشطتهم إلى درجة أنه يمكن الشك في وجودهم.

كانت لكرونيكا بالنسبة لي أهمية حيوية؛ لأنها أجبرتني على ارتجال قصص عاجلة لملء فراغات غير متوقعة في لحظات الإغلاق الحرجة، كنت أجلس إلى الآلة الكاتبة بينما عمال اللينوتيب على ماكيناتهم، وعمال التركيب في عملهم، وأختلق من لا شيء قصة بحجم المساحة المطلوبة، وهكذا كتبت "كيف تقوم ناتائيل بزياراتها" التي حلت لي مشكلة عاجلة وقت الفجر، و"عيون الكلب الأزرق" بعدها بخمسة أسابيع.

أول هاتين القصتين كانت البداية في سلسلة للشخصية نفسها التي استعرت اسمها دون إذن من "أندريه جيد"، وبعدها كتبت "نهاية ناتائيل" لحل مشكلة درامية في آخر لحظة، شكلتا معاً جزءاً من كتاب مكون من ست قصص، وضعتها على الرف عندما انتبهت إلى أنها لم تكن لها أدنى علاقة بي. من تلك التي بقيت ناقصة أتذكر واحدة دون أية فكرة عن موضوعها: "عن كيف ترتدي ناتائيل ملابس العرس". الشخصية لا تشبه أية شخصية أعرفها، ولم تكن مبنية بحياة مستقلة بها أو لغيرها، ولم أستطع حتى أن أتذكر كيف أمكنها أن تكون واحدة من قصصي بموضوع خاطئ جداً.

ناتائيل، في النهاية، كانت مخاطرة أدبية لا أهمية إنسانية لها، ومن الجيد تذكر هذه الكوارث حتى لا أنشئ شخصيات لا تتخلق من لا شيء، كما كنت أريد أن أفعل مع ناتائيل. لحسن الحظ فإن الخيال لم يساعدني لأصل بعيداً عن نفسي، ولسوء الحظ أيضاً أنني كنت مقتنعاً بأن العمل الأدبي يجب أن يقابله عائد مادي جيد تماماً مثل دفع ثمن الطوب، وإذا كنا ندفع بشكل جيد وفي المواعيد المحددة لطابعي الآلة الكاتبة، فإن هذا يعتبر سبباً كافياً لندفع للكُتَّاب.

أفضل صدى جاءنا من كرونيكا، وصلنا في رسالة للسيد "رامون" إلى "خيرمان بارجاس". كان مهتماً بالأخبار التي تحتل أقل حيز في تفكيرنا، وبأخبار الأصدقاء وما يحدث في كولومبيا، وكان "خيرمان" يرسل إليه قصاصات صحافية ويحكي له في رسائل مطولة عن الأنباء التي تمنعها الرقابة. أي بالنسبة له كانت هناك مجلتان لكرونيكا: تلك التي كنا نصدرها نحن، وتلك التي كان يلخصها له "خيرمان" في كل أسبوع. تعليقات السيد "رامون" الحماسية والقاسية على مقالاتنا كانت حرصنا الأكبر.

من الأسباب المتعددة التي حاولوا بها شرح تعثر كرونيكا، ورغم شكوك المجموعة، عرفت صدفة أن بعضها يعود إلى سوء حظي أنا المتأصل والمعدي. وكدليل قاتل كانوا يذكرون تحقيقي عن بيراسكوتشيا، لاعب كرة القدم البرازيلي، الذي كنا نريد أن نصالح به الرياضة مع الأدب من خلال نوع جديد، فكان سبباً في الإخفاق النهائي. عندما علمت أن شهرتي السيئة كانت معروفة بين زبائن مقهى جابي، تحدثت مع "خيرمان بارجاس" وأنا في حالة من الإحباط، كان يعرف الموضوع، مثله مثل باقي المجموعة، قال لي دون شك:

-اهدأ، يا أستاذ، أن تكتب كما تكتب أنت لا يمكن أن يكون سوى حسن حظ لا يمكن لأحد أن يهزمه.

لم تكن كل الليالي سيئة، فليلة 27 يوليو عام 1950 في بيت حفلات "لانجرا أيوفيميا"، كانت ليلة لها قيمة تاريخية في حياتي ككاتب، لا أعرف السبب البهيج الذي جعل صاحبة البيت تأمر بطبق من اللحم الخفيف المكون من أربعة أصناف، والكروانات التي كانت تحلق من حولنا مارست جميع أنواع الصرخات حول الفرن، فأمسك زبون عصبي برقبة كروان ووضعه حياً في الإناء الذي يغلي، لم يتمكن الطائر من إصدار صرخة الألم، وبضربة جناح نهائية حتى غاص في أعماق الجحيم. حاول القاتل المتوحش الإمساك بآخر لكن "لانجرا أيوفيميا" كانت تقف على عرشها بكل سلطتها، وصرخت:

- مكانك، عليك اللعنة، ستقتلع الكروانات عينيك.

كنت أنا الوحيد الذي لا يرغب في تذوق اللحم المذبوح، وبدلاً من الذهاب للنوم جريت إلى مكتب "كرونيكا" وكتبت في نَفَس واحد قصة زبائن بيت الدعارة الثلاثة التي نزعت الكروانات عيونهم ولم يصدقها أحد- كانت فقط في أربع ورقات من حجم الورق المهني بمسافة مضاعفة، محكية براوٍ جماعي له صوت ولكن بلا اسم- كانت القصة من الواقعية الشفافة ومع ذلك الأكثر إلغازاً بين قصصي، إضافة إلى أنها فتحت لي طريقاً كنت على وشك الرجوع عنه لعدم استطاعتي السير فيه، بدأت الكتابة في الرابعة من فجر الجمعة وأنهيتها في الثامنة من صباح السبت معذباً بالإلهام الإلهي. بتواطؤ من "بورفيريو ميندوثا"، عامل التركيب التاريخي بالهيرالدو، قمت بتعديل صفحة كانت معدة من كرونيكا للعدد الصادر في اليوم التالي، وفي اللحظة الأخيرة، مرتعباً من ضيق لحظات الإغلاق، قمت بإملاء العنوان النهائي على "بورفيريو" بعد لحظات من عثوري عليه، وكتبه هو على الرصاص المصهور مباشرة: "ليلة الكروان".

كانت تلك القصة بالنسبة لي بداية لمرحلة جديدة بعد تسع قصص كانت لا تزال في الفراغ الميتافيزيقي، وفي لحظة لم يكن فيها أي مشروع للاستمرار في

هذا النوع الذي لم أتمكن من الإمساك به، أعاد "خورخي ثابالا" نشرها في العدد التالي من "كريتيكا"، مجلة الشعر الكبرى. عدت لقراءتها بعد خمسين عاماً قبل كتابة هذا الجزء، وأعتقد أنني لن أغّير فيها فاصلة واحدة، ففي وسط الفوضى التي كنت أعيش فيها كانت تلك القصة بداية لربيع كامل.

كانت البلاد على العكس تماماً، فقد دخلت الدوامة، وعاد "لاوريانو جوميث" من نيويورك ليتم إعلانه مرشحاً لرئاسة الجمهورية. فيما قرر الليبراليون الامتناع عن مواجهة إمبراطورية العنف، وتم انتخاب "جوميث" بمفرده يوم 7 أغسطس 1950. وبما أن البرلمان كان مغلقاً، فقد تقلد المنصب في المحكمة العليا.

لم يكد يمارس الحكم بحضوره الجسدي، فبعد خمسة عشر شهراً انسحب من الرئاسة لأسباب صحية حقيقية، وحل محله الفقيه القانوني والبرلماني المحافظ "رويرتو أوردانيتا أربالييث"، باعتباره أول مرشحي الجمهورية، وهو ما فهمه المطلعون على أنها أفضل طريقة ليترك "جوميث" السلطة بين أيد أخرى، ولكن دون أن يفقدها واقعياً، فيظل يحكم من بيته بواسطة الشخص المختار. وفي الحالات العاجلة بالتليفون.

أعتقد أن عودة "ألفارو ثيبيدا" بشهادته من جامعة كولومبيا، قبل شهر من ذبح الكروان، كانت حاسمة لمساعدتي على تحمل تلك الأيام المشئومة. عاد بقليل من شعر الرأس وفقد شاربه الخشن، وأكثر انغلاقا على نفسه، كنا ننتظره- "خيرمان" وأنا- منذ عدة أشهر مع الخوف من أن يكون قد فقد حماسه في نيويورك، متنا ضحكاً عندما شاهدناه يهبط من الطائرة بجاكيت ورباط عنق، وملوحاً بالتحية من على السلم بباكورة أعمال "هيمنجواي": "على الضفة الأخرى من النهر وبين الأشجار"، نزعتها من بين يديه، و تحسستها من الناحيتين، وعندما أردت أن أسأله، سبقني "ألفارو":

- إنها قاذورات.

غارقاً في الضحك، همس "خيرمان بارجاس" في أذني: "لقد عاش الحياة نفسها"، إلا أن "ألفارو" أوضح لنا بعد ذلك أن حكمه على الكتاب كان مجرد هزل، لأنه لم يكن قد أتم قراءته خلال الرحلة من ميامي. على أي حال، فإن ما رفع من معنوياتنا أنه عاد أكثر من أي وقت مضى مترعاً بحمى الصحافة، والسينما والأدب. ففي الأشهر التالية، بعد أن اعتاد على المناخ، أشعل فينا حمى من أربعين درجة.

كان معدياً على الفور، "الزرافة" التي كانت تدور منذ عدة أشهر حول نفسها تطيح بضربات عمياء، بدأت في التنفس بمقطعين مسروقين من مسودة رواية "البيت"، لم يكن "ابن الكولونيل"، الذي لم يولد أبداً، بل كانت "ان. واي" الطفلة الهاربة التي طرقتُ بابها مرات كثيرة بحثاً عن طرق جديدة ولم تجبني أبداً، استعدت أيضاً اهتمامي كناضج بالرسوم المتحركة الساخرة، لا للتسلية أيام الآحاد بل كنوع أدبي جديد محكوم عليه بلا سبب ليسكن غرف الصغار، ولم لا، استعدت عشقي للسينما التي شجعني عليها الجد وغذاها فيّ "أنطونيو داكونتي" في آراكاتاكا، وحولها "ألفارو ثيبيدا" إلى غرام توراتي في بلد أفضل أفلامه معروفة كروايات مهاجرة، كان حظاً طيباً أن عودته تزامنت مع افتتاح عرض فيلمين رائعين: "الدخيل في التراب" الذي أخرجه "كليرنس براون"، عن رواية "وليم فوكنر"، و"صورة جيني" من إخراج "وليام ديتريل"، عن رواية لـ"روبرت ناثان"، عرضت لهما في "الزرافة" بعد مناقشة طويلة مع "ألفارو ثيبيدا"، خرجت منها مهتماً جداً إلى درجة أنني بدأت أرى السينما بعين جديدة. قبل أن أتعرف عليه هو لم أكن أنا أعرف أن الأهم هو اسم المخرج، وهو الأخير الذي يظهر على الشاشة. بالنسبة لي كانت الحكاية ببساطة مسألة كتابة السيناريو وإدارة الممثلين، والأشياء الأخرى يقوم بها العديد من الأشخاص الأعضاء في الفريق، عندما عاد "ألفارو" علّمني بالضرب خلال دورة كاملة عبر الصرخات والروم الأبيض حتى الفجر طوال أشهر،

وفي أسوأ الحانات، ما تعلمه من سينما في الولايات المتحدة، وكان يأتي علينا الصباح حالمين أن نفعل الشيء نفسه في كولومبيا.

بعيدا عن الشروح الوضاحة، فإن رؤية الأصدقاء الذين كنا نتابع "الفارو" في سرعة عابر القارات، لم يكن جاداً إلى الحد الذي يجلس فيه ليكتب، ومن كنا نعايشه عن قرب لم نستطع إجباره على الجلوس إلى مكتب أكثر من نصف ساعة، إلا أنه في شهرين أو ثلاثة أشهر بعد عودته دعتنا "تيتا مانوتاس"- خطيبته لسنوات طويلة وزوجته لمدى الحياة- مرتعبة لتحكي لنا أن "ألفارو" باع سيارته التاريخية، ونسى في حقيبتها أصول قصصه غير المنشورة التي لا يملك صورة منها، ولم يكلف نفسه عناء البحث عنها، بحجته الخاصة جداً، إنها "كانت ست أو سبع قصص رديئة"- قام الأصدقاء والمراسلون بمساعدة "تيتا" في البحث عن السيارة التي بيعت عدة مرات بطول الشاطئ الكاريبي والأرض الداخلية حتى ميديين، وأخيراً عثرنا عليها في ورشة بسينثيليخوس، على بعد مائتي كيلومتر، كانت الأصول مكتوبة على ورق مطبوع ممضوغة وناقصة، وضعناها في عهدة "تيتا" خوفاً من أن يعود "ألفارو" إلى فقدها بإلقائها في القمامة، إهمالاً أو عمداً.

اثنتان من تلك القصص تم نشرهما في كورنيكا، والباقي احتفظ بها "خيرمان بارجاس" طوال ما يقرب من عامين بحثاً عن حل للنشر في كتاب، وقامت الفنانة التشكيلية"ثيثيليا بوراس"، الوفية دائما للمجموعة، بوضع رسوم مستلهمة منها، وكانت عبارة عن صورة لـ"ألفارو" مرتدياً من ملابس لكل ما يمكن أن يكونه في وقت واحد: سائق شاحنة ومهرج في الأسواق، وشاعر مجنون، وطالب بجامعة كولومبيا، أو أية مهنة أخرى، عدا أن يكون إنساناً عادياً. نشرت الكتاب مكتبة ألموندو تحت عنوان "كلنا كنا ننتظر"، وكان حدثاً في عالم النشر، اهتم به الجميع عدا النقد الأكاديمي. وبالنسبة لي- وكتبت هذا في وقتها- كان أفضل كتاب قصصي نشر في كولومبيا.

أما "ألفونسو فوينميار" من ناحيته فقد كتب مقالة نقدية تدل على أستاذية في النقد الصحافي، ولكنه كان خجلاً من جمع مقالاته تلك في كتب، كان قارئاً نهماً، يكاد يقارن بـ"ألفارو موتيس" أو "إدواردو ثالاميا". كان و"خيرمان بارجاس" ناقدين حادين، وكانا أكثر حدة مع قصصهما الخاصة أكثر من قصص الآخرين، ولكن ميلهما إلى البحث عن مواهب شابة لم تخنهما أبداً، كان ربيعاً خلاقاً جرت فيه إشاعة تقول إن "خيرمان" يقضي الليل يكتب قصصاً رائعة، لم يعرف أحد شيئاً عنها حتى مرور سنوات طويلة بعد ذلك، عندما حبس نفسه في غرفة نومه في بيت أبويه، وحتى ساعات قليلة قبل زواجه من صديقتي "سوسانا ليناريس"، ليتأكد أنه لن يقرأها أحد، ولا حتى هي. كان مفترضاً أنها قصص أو دراسات، وربما كانت مسودة رواية، لكن "خيرمان" لم ينطق كلمة واحدة لا قبلها ولا بعدها، فقط قبيل زواجه اتخذ احتياطاته حتى لا يعرف أحد، ولا حتى المرأة التي ستكون زوجته في اليوم التالي. عرفت بالأمر "سوسانا"، لكنها لم تدخل الغرفة لتمنعه، لأن حماتها لم تسمح لها بذلك، قالت لي "سوسي" بعد سنوات بسخريتها المتعسفة:

- "في ذلك الزمن، أية خطيبة لم يكن مسموحاً لها أن تدخل غرفة خطيبها قبل الزواج".

لم يكن قد مضى عام عندما بدأت تصبح خطابات السيد "رامون" أقل وضوحاً، وفي كل مرة أكثر حزناً وندرة، دخلت مكتبة موندو في 7 مايو 1952؟ في الثانية عشرة نهاراً، ولم يكن على "خيرمان" أن يخبرني بأي شيء لأعرف أن السيد "رامون" قد مات، قبل يومين في برشلونة أحلامه، كانت جملة وحيدة ننطقها عند وصولنا إلى المقهى عند منتصف النهار، جملة واحدة للجميع:

- يا لها من مأساة.

لم أكن وقتها واعياً أنني كنت أعيش سنة مختلفة من حياتي، وأشك اليوم في أنها كانت حاسمة، كنت مقتنعاً حتى ذلك الوقت بهيئتي كماجن. كنت محبوباً

ومحترماً من الكثيرين، وأثير إعجاب البعض، في مدينة يعيش فيها كل فرد بطريقته الخاصة وحسب راحته، أمارس حياة اجتماعية مركزة، أشارك في احتفالات فنية واجتماعية بصندلي كمهاجر يبدو أنه مُشترى لتقليد "ألفارو ثيبيدا"، وببنطلون وحيد من القماش وقميصين كنت أغسلهما في الدش.

من يوم لآخر، ولأسباب مختلفة- بعضها طائش- بدأت في تحسين ملابسي وحلقت شعري كجندي مجند، وحففت شاربي، وتعلمت استخدام الأحذية التي أهداها لي جديدة، الدكتور "رفائيل مادرياجا"، عضو المجموعة المتجول ومؤرخ المدينة؛ لأنها كانت أكبر من مقاسه. وبالديناميية غير الواعية بالصعود الاجتماعي، بدأت أشعر أنني كنت أختنق من الحر في غرفة ناطحات السحاب، كما لو كانت آراكاتاكا توجد في سيبريا، وبدأت أعاني من الزبائن غير المعتادين الذين يتحدثون بصوت مرتفع عندما يقفون، ولم أكن أتعب من إبداء تأففي؛ لأن عاهرات الليل تواصلن قيادة جماعات كاملة من بحارة المياه العذبة.

انتبهت اليوم إلى أن صعلكتي لم تكن فقرا، ولا لأنني كنت شاعراً، بل لأن طاقتي كانت مركزة في عنادي لتعلم الكتابة، بشكل سريع حتى استطعت أن أرى الطريق الصحيح فغادرت ناطحات السحاب، ورحلت إلى حي ألباردو الهادئ، في الطرف السكني والاجتماعي الآخر، على بعد شارعين من بيت "ميرا ديلمار"، وعلى بعد خمسة شوارع من الفندق التاريخي الذي يرقص فيه أبناء الأثرياء مع عشيقاتهم العذراوات بعد قداس الأحد، أو كما قال "خيرمان": بدأت أتحسن إلى الأسوأ.

كنت أعيش في بيت شقيقات "أفيلا"- "إستر" و"مايتو" و"تونيا"- اللاتي عرفتهن في سوكري، وكن يبذلن جهداً منذ زمن لإبعادي عن الصعلكة، فبدلاً من غرف الكرتون التي ضيعت فيها الكثير من الوقت في السفسطة، لي غرفة نوم مستقلة بحمَّام خاص ونافذة تطل على الحديقة، والوجبات الثلاث اليومية، بأكثر قليلاً من

راتبي كحوذي. اشتريت بنطلوناً ونصف دستة قمصان استوائية بزهور وطيور مرسومة، بفضلها حزت لبعض الوقت على شهرة بأنني من الشواذ. بعض الأصدقاء القدامى قاطعوني ولم يكونوا يتبادلون معي الحديث عند لقائي بهم في أي مكان، ومع ذلك اكتشفت أنهم كانوا يحفظون عن ظهر قلب بعض مقاطع "الزرافة"، وأنهم من مدمني كرونيكا بسبب ما كانوا يسمونه الشرف الرياضي، ويقرءون حتى قصصي دون أن يتوصلوا إلى فهمها، التقيت "ريكاردو جونثالث ريبول"، زميلي في غرفة الليسيه الوطني، الذي سكن في بارانكيا بعد حصوله على دبلوم في الهندسة المعمارية، وفي أقل من عام واحد حل مشكلة حياته بعربة شيفورليه قديمة جداً، يحمّلها منذ الفجر حتى ثمانية مسافرين. يأخذني من بيتي في أول الليل ثلاثة أيام في الأسبوع لنذهب معاً للتسلية مع أصدقاء جدد مهووسين بإصلاح حال البلاد، بعضهم بأشكال من السحر السياسي، وآخرون بالعراك مع البوليس.

عندما علمت أمي بهذه المستجدات، أرسلت لي رسالة على طريقتها تقول: "النقود تنادي النقود". لم أخبر أحداً من المجموعة بأمر تغيير السكن إلى أن عثرتُ عليهم في إحدى الليالي جالسين إلى طاولة بمقهى جابي، فتعلقت بالوصفة السحرية لـ"لوبي دي بيجا": "نظمت نفسي بما يمكن أن يخضع لنظام عدم انتظامي"، لم أذكر ردة فعل مماثلة ولا حتى في ملعب كرة قدم، راهن "خيرمان" بأنني لن أستطيع أن أحصل على فكرة واحدة خارج سكني في ناطحات السحاب، وطبقا لـ"ألفارو" فإنني لن أستطيع مواصلة الحياة بالوجبات الثلاث أو الالتزام بمواعيدها، على العكس كان "ألفونسو" الذي احتج على تدخلهم في حياتي الخاصة وأغلق الحوار في هذا الموضوع بنقاش عن أهمية اتخاذ قرارات عاجلة لتحديد مستقبل كرونيكا. أعتقد أنهم في داخلهم يشعرون أنهم مذنبون بمسئوليتهم عن عدم انتظامي، لكنهم كانوا أكثر احتراماً ليشكروني على قراري بإبداء الارتياح.

على عكس ما كان متوقعاً، فإن صحتي وحالتي النفسية تحسنتا، كنت أقرأ أقل لقلة الوقت، ولكني رفعت من حدة لهجة "الزرافة"، وعدت إلى مواصلة الكتابة في "الورقة الجافة" في غرفتي الجديدة بالآلة الكاتبة التي أعارني إياها "ألفونسو فوينماير"، وذلك في ساعات الفجر التي كنت أسيء قضاءها مع قرد الحرب. في أمسية عادية بصالة تحرير الصحيفة كان يمكنني أن أكتب "الزرافة" وإحدى الافتتاحيات، وبعض الأخبار التي لا أوقعها باسمي، وإزالة الشوائب من قصة بوليسية، وأكتب كذلك مقالات اللحظات الأخيرة لإغلاق كرونيكا. لحسن الحظ بدلاً من أن تصبح كتابة الرواية سهلة مع مرور الأيام، فإنها بدأت تفرض قواعدها الخاصة على قواعدي، وفهمت هذا على أنها علامة من علامات رياح مناسبة.

كانت الأمور تسير بشكل جيد إلى درجة أنني ارتجلت كتابة قصتي العاشرة- أحدهم حطم نظام تلك الزهور- لأن المعلق السياسي الذي حجزنا له ثلاث صفحات في كرونيكا أُصيب بأزمة قلبية حادة في الساعات الأخيرة، وبعد تصحيح البروفات الأخيرة للقصة اكتشفت أنها كانت دراما ساكنة أخرى من تلك التي كنت أكتبها دون وعي. هذا التراجع زاد من حدة ندمي على أنني أيقظت صديقاً قبيل منتصف الليل بقليل ليكتب لنا مقالة في أقل من ثلاث ساعات. في هذه الحالة السيئة كتبت القصة في الوقت نفسه، وعدت يوم الاثنين لأعرض على مجلس التحرير ضرورة أن ننزل إلى الشارع لإخراج المجلة من سكونها بتحقيقات صادمة، إلا أن الفكرة- التي كانت تهم الجميع- تم رفضها مرة أخرى لأسباب زادت من سعادتي: إذا نزلنا الشارع بمفهومنا لمعنى التحقيقات، فإن المجلة ستعود إلى الطبع في موعدها- هذا إذا عادت- فقبلت الرفض كنوع من التقريظ لفكرتي، ولكني لم أستطع أن أتغلب على فكرتي الرديئة أبداً، بأن السبب الحقيقي وراء قرارهم هو الذكرى السيئة التي تركها تحقيقي عن لاعب كرة القدم "بيراسكوتشيا".

من أجمل ما حدث في تلك الأيام المكالمة الهاتفية لـ"رفائيل أسكالونا"، مؤلف الأغاني الذي كان يغني ولا يزال في هذا الجانب من العالم، فقد كانت بارانكيا مركزاً حيوياً لكثرة مرور الشعراء الجوالين بالأكورديون الذين عرفتهم في أعياد آراكاتاكا، وانتشارها الكثيف عبر محطات الإذاعة بمنطقة الشاطئ الكاريبي. كان "جييرمو بويتراجو "من أهم المغنين المعروفين في ذلك الوقت، فكان يحاول أن يضع مستمعي الإقليم على علم بأحدث الأغاني، وآخر كان معروفاً جداً بين الجماهير هو "كريستثيو سالثيدو"، ذلك الهندي الحافي الذي كان يقف على ناصية شارع الغداء الأمريكي ليغني أغانيه الخاصة وأغاني الآخرين بصوت فيه شيء من صدى الصفيح، بصوته بلا موسيقى، لكن باحتراف فني خاص به فرضته على زحام سان بلاس اليومي. قضيت فترة طويلة من شبابي إلى جواره أستمع إليه دون أن أوجه له ولو مجرد التحية، ودون أن أدعه يراني، إلى أن حفظت جميع أغانيه.

تراكم هذا العشق وصل إلى قمته في إحدى الأمسيات التي قاطعني فيها التليفون. عندما كنت أكتب "الزرافة". وإذا بصوت معروف كالأصوات الكثيرة التي عرفتها في طفولتي يحييني بلا أي نوع من الشكليات:

– هيه، أخي، أنا "رفائيل إسكالونا".

التقيته بعدها بخمس دقائق في مقهى روما لنبدأ صداقة لمدى الحياة، ما إن بدأنا المصافحة حتى بدأت أعتصر "إسكالونا" ليغني لي آخر أغنياته، من خلال قصائد متفرقة، وبصوت خفيض جداً ومحسوب، يرافقها بالدق بالأصابع على الطاولة، فكان الشعر الشعبي لأرضنا يتنزه مع كل مقطع في شكل جديد. غنى "سأعطيك فرعاً من زهور لا تنسى أن تفعلي ما يقوله معنى اسمها". من ناحيتي بينت له أنني أحفظ أفضل أغاني بلاده، حفظتها منذ طفولتي في النهر الجاري للإرث الشفهي، ولكن أكثر ما أدهشه أنني كنت أحدثه عن المقاطعة التي يعيش فيها كما لو كنت أعرفها.

قبلها بأيام، سافر "إسكالونا" بالأوتوبيس من فيانويبفا إلى فالدوبار، بينما كان يؤلف في ذاكرته الموسيقى لكلمات أغنية جديدة لكرنفال الأحد التالي، كانت هذه طريقته كأستاذ؛ لأنه لم يكن يعرف كتابة الموسيقى ولا عزف أي نوع من أنواع الآلات. صعد في بعض القرى التي توقف فيها الأوتوبيس مغن جوال بنعل وأكورديون، أحد أفراد العدد الهائل الذي كان يتجول في المنطقة ليغني من سوق إلى سوق. أجلسه "إسكالونا" إلى جواره وغنى له في أذنه المقطعين اللذين انتهى من وضع موسيقاهما من أغنيته الجديدة.

هبط المغني الجوال سعيداً في محطة فيانويفا، وواصل "إسكالونا" في الأوتوبيس حتى فالدوبار، حيث كان عليه أن يلزم الفراش نتيجة حمى حرارتها أكثر من أربعين درجة، وبعد ثلاثة أيام... يوم أحد الكرنفال، كانت الأغنية ناقصة اللحن، التي أسرّ بها في أذن صديق الطريق، تتغلب على كل الموسيقى القديمة والجديدة من فيانويفا وحتى نهاية المقاطعة. فقط هو الذي كان يعرف من الذي أذاعها، فيما كان هو يعاني حمى الكرنفال، والذي وضع لها اسماً: "سارا العجوز".

التاريخ صادق، لكنه ليس غريباً في هذه المنطقة وفي مهنة تعتبر أن الطبيعي هو المدهش، فالأكورديون الذي لا يعتبر آلة موسيقية خاصة بموسيقانا وعاماً في كولومبيا يعتبر الأكثر شعبية في مقاطعة فيادوبار، ربما لأن مستورده هو "أروبا أي كوراثاو"، لكن عندما انقطع استيراده من ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، استمرت الآلات التي كانت في المقاطعة بفضل حفاظ أصحابها من أبناء البلاد عليها، أحدهم هو "ليناردو دياث"، نجار، لم يكن فقط مؤلفاً موسيقياً رائعاً أو معلماً للأكورديون، بل كان الوحيد الذي يجيد إصلاحه خلال السنوات التي استمرت فيها الحرب، على الرغم من أنه كان أعمى بالميلاد. طريقة حياة هؤلاء الجوالين هي الانتقال من قرية إلى قرية لغناء أحداث لطيفة وبسيطة مأخوذة من

الحياة اليومية، في الأعياد الدينية أو الوثنية، وبشكل خاص خلال فوضى الكرنفالات. حالة "رفائيل إسكالونا" مختلفة، فهو ابن الكولونيل "كليمنتي إسكالونا"، وابن شقيق قس ثيليون وحامل البكالوريا الشهير "بليسيه سانتا مارتا" الذي يحمل الاسم نفسه، بدأ في تأليف الموسيقى منذ طفولته ليكون شر العائلة، التي كانت تعتبر أن الغناء بالأكورديون مهنة العاطلين. لم يكن فقط المغني الجوال الوحيد حامل البكالوريا، بل كان واحداً من القلائل الذين يجيدون القراءة والكتابة في تلك الأيام، والرجل المغازل والمحب للنساء الذي وجد على ظهر الأرض. لكنه ليس الأول ولن يكون الأخير: فهم الآن بالمئات وفي كل يوم أكثر شباباً. لقد فهم "بيل كلينتون" الأمر على هذا النحو خلال الأيام الأخيرة له في الرئاسة عندما استمع إلى مجموعة من أطفال المدارس الابتدائية الذين غنوا أمامه بالبيت الأبيض.

من حسن حظي في تلك الأيام أنني التقيت "مرثيدس بارتشا"، ابنة صيدلي سوكري التي عرضتُ عليها الزواج عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وبعكس المرات الأخرى قبلت في النهاية دعوتي على الرقص يوم الأحد التالي في فندق ألبرادو، عندها فقط عرفت أنها انتقلت لتعيش مع عائلتها في بارانكيا بسبب الأوضاع السياسية التي تزداد كل يوم قمعاً، كان أبوها "ديمتريو" ليبرالياً عنيداً لم ينحنِ أمام أول تهديدات تلقاها خلال تلك الأيام التي ازداد فيها العنف السياسي وانتشرت فيها أوراق الفضائح، إلا أنه إزاء ضغوط أهله باع ما تبقى له من متاع قليل في سوكري وافتتح صيدلية في بارانكيا بالقرب من فندق ألبرادو، رغم أنه كان من عمر أبي فقد حافظ دائماً على علاقة شبابية معي اعتدنا على تدفئتها في الكانتين المقابل، وانتهينا في أكثر من مرة سكارى مع جميع أفراد المجموعة في "الرجل الثالث". كانت "مرثيدس" تدرس في ميديين في ذلك الوقت، وتذهب إلى بيت العائلة في أيام إجازات أعياد الميلاد، مرحة دائماً ولطيفة معي، لكنها تتمتع بموهبة

مذهلة في طرح الأسئلة والإجابات دون أن تترك لأحد أن يحدد شيئاً، قبلت هذا على أنها إستراتيجية أكثر رحمة منها للرفض أو القبول، وقنعت برؤيتي لأبيها وأصدقائه في الكانتين المقابل. إذا كان هو قد شعر باهتمامي بها خلال تلك الإجازات الشيقة فقد كان هذا هو السر الخفي طوال عشرين قرناً من المسيحية، تفاخر عدة مرات في "الرجل الثالث" بجملة قالتها هي خلال رقصتنا الأولى معاً في سوكري: "أبي يقول إنه لم يولد بعد الأمير الذي سيتزوجني"، ولكني لم أعرف إن كانت هي صدقت هذا، ولكنها كانت تتصرف كما لو كانت قد صدقت هذه الجملة، حتى قرب حلول أعياد الميلاد التي قبلت فيها أن نلتقي الأحد التالي في رقص فندق ألبرادو الصباحي. كنت مخرفاً إلى درجة أنني اعتقدت أن قبولها كان للتسريحة الجديدة والشارب الأنيق اللذين شذبهما لي الحلاق، وبدلة التيل البيضاء الناصعة ورباط العنق الحريري التي اشتريتها لهذه المناسبة من سوق الأتراك. كنت متأكداً من أنها ستذهب برفقة أبيها، الذي كان يرافقها إلى كل مكان، فدعوت شقيقتي "عايده روسا" التي كانت تقضي إجازتها معي. لكن "مرثيدس" جاءت وحدها ورقصت بشكل طبيعي وبمرح جعل أي عرض يمكن أن يتحول إلى شيء مثير للسخرية. في ذلك اليوم كانت افتتاحية موسم صديقي "باتشو جالان"، المبدع المجيد لرقصة "الماركومبي" التي رقصها الشباب طوال أعوام، وكانت أصل المناخ الكاريبي الجديد الذي لا يزال حياً حتى الآن، كانت ترقص بشكل رائع على موسيقى الموضة، وكانت تنتهز بأستاذية وسحر كل العروض التي كانت تحيط بها. كان يبدو أن تخطيطها يرمي إلى أن أعتقد أنها لم تكن تتعامل معي بجدية، ولكن مع كل هذه الحيل فقد وجدت الطريقة لمواصلة طريقي.

في الثانية عشرة تماماً ذعرتْ من دقات الساعة، وتركتني وحدي في منتصف الرقصة، ولم ترغب في أن أرافقها حتى باب بيتها، اعتبرتْ شقيقتي أن ما حدث غريب جداً، وشعرت بطريقة أو أخرى أنها تتحمل ذنب ما حدث، ولا زلت أتساءل

حتى هذه اللحظة إن كان ذلك المثال السيئ سبباً في إصرار شقيقتي المفاجئ على دخول دير الراهبات بميديين. منذ ذلك اليوم قمنا- "مرثيدس" وأنا- باختراع كود شخصي نتفاهم من خلاله دون أن نقول شيئاً وحتى دون أن نلتقي.

عدت لمعرفة أخبارها بعد حوالي شهر، في 22يناير من العام التالي، عن طريق رسالة قصيرة تركتها لي في الهيرالدو: "قتلوا كايتانو". بالنسبة لنا ليس هناك غير واحد: "كايتانو جنتيلي"، صديقنا في سوكري، كان على وشك التخرج كطبيب وراقص وموهوب في العشق. أول خبر كان يقول إن شقيقا معلمة مدرسة تشاربال، التي شاهدناها معه على ظهر جواده، قتلاه طعناً بالسكاكين، وخلال اليوم من تلغراف إلى تلغراف اكتملت القصة كلها.

لم يكن وقتها وقت التليفونات السهلة، والمحادثات البعيدة كانت تتم عبر تلغرافات مسبقة، كانت ردة فعلي الأولى كصحفي، فقررت السفر إلى سوكري لأكتب الحدث، ولكنهم في الصحيفة فسروه على أنه نتيجة لضغوط المشاعر الخاصة، وأنا اليوم أفهمه على هذا النحو؛ لأننا منذ ذلك اليوم نحن الكولومبيين نقتل بعضنا بعضاً بلا سبب، وأحياناً ما نخترع الأسباب لنواصل ممارسة القتل، لكن الجرائم العاطفية كانت تتم بعيداً عن أثرياء المدن. اعتقدت أن الموضوع أبدي فبدأت في جمع معلومات عن الشهود، إلى أن اكتشفت أمي نيتي الخفية ورجتني ألا أكتب التحقيق الصحافي. على الأقل خلال حياة أم "كايتانو"، السيدة "خوليتا تشيمنو"، التي كانت صديقتها وشقيقتها في التعميد، لأنها كانت عرابة تعميد "هيرناندو"، شقيقي الثامن، والسبب- لا يمكن الغنى عنه في تحقيق جيد- كانت قيمته كبيرة، لاحق شقيقا المعلمة "كايتانو" عندما حاول الهرب واللجوء إلى بيته، لكن السيدة "خوليتا" أغلقت الباب الخارجي بسرعة معتقدة أن ابنها كان في غرفته، وهكذا من لم يستطع دخول البيت كان هو، واغتالاه طعناً بالسكاكين أمام باب بيته المغلق.

كانت ردة فعلي المباشرة أنني جلست أكتب التحقيق حول الجريمة لكنني واجهت جميع أنواع العقبات، ولم يعد ما يهمني هو الجريمة بل الموضوع الأدبي عن المسئولية الجماعية، إلا أن جميع الأسباب لم تفلح في إقناع أمي التي كانت تعتقد أن الكتابة دون إذن تعتبر عدم احترام. مع ذلك فمنذ ذلك اليوم لم يمر يوم دون أن أشعر بالرغبة في كتابة التحقيق. بدأت في تقبل الأمر الواقع، لكن بعد سنوات طويلة، كنت في انتظار الخروج إلى الطائرة في مطار الجزائر، انفتح باب صالة انتظار الدرجة الأولى ودخل أمير عربي بعباءته الناصعة ونبله وعلى قبضة يده أنثى صقر مهاجر، وبدلاً من قناع الصقر الجلدي الكلاسيكي المعروف عنه كان يرتدي قناعاً من الذهب الموشى بالماس. في تلك اللحظة تذكرت "كايتانو جنتيلي"، الذي كان قد تعلم من أبيه فنون الكبرياء، أولاً باستخدام طيور وطنية وبعدها بأنواع رائعة مولدة من الجزيرة العربية، وفي لحظة موته كانت عنده أقفاص لتربية الصقور، فيها صقران صغيران وآخر مدرب على صيد السمان، وآخر إسكتلندي مدرب على الدفاع عن النفس. لكنني كنت أعرف وقتها الحوار الصحفي التاريخي الذي أجراه "جورج بليمبتون" مع "إرنست هيمنجواي" في مجلة "باريس رفيو" حول مراحل تحويل شخصية من الحياة الواقعية إلى شخصية روائية، أجاب "هيمنجواي" بقوله: "لو أنني شرحت كيف يتم ذلك، فإن هذا سيصبح كتالوجاً للمحامين المتخصصين في قضايا القذف والسب العلني"، إلا أنه منذ ذلك الصباح المحروس بالعناية الإلهية في الجزائر، كان وضعي عكسياً تماماً: لم أكن أرغب في مواصلة الحياة بسلام ما لم أكتب قصة موت "كايتانو".

لكن أمي ظلت على عنادها في منعي بكل الوسائل، حتى مرت ثلاثون سنة على وقوع المأساة، عندما اتصلت بي هي بنفسها في برشلونة لتبلغني بالنبأ السيئ أن السيدة "خولييتا تشيمنتو"، أم "كايتانو"، قد ماتت قبل أن تتعافى من حزنها على رحيل ابنها، ولكنها هذه المرة، كانت روحها المعنوية مرتفعة، لم تجد أمي أسبابا

لتمنعني من كتابة التحقيق، وقالت لي:

- أطلب منك شيئاً واحداً كأم، أن تتعامل مع "كايتانو" كما لو كان ابني أنا.

الحكاية، بعنوان "وقائع موت معلن" نُشرت بعد عامين، لم تقرأ أمي الكتاب لأسباب أحتفظ بها لنفسي كجوهرة خاصة بها في متحفي الشخصي: "الشيء الذي يكون رديئاً جداً في الحياة لا يمكن أن يكون أفضل في كتاب".

رنّ جرس مكتبي في الخامسة مساء بعد مرور أسبوع من موت "كايتانو"، وعندما كنت أكتب عملي المعتاد في الهيرالدو، كانت المكالمة من أبي، فقد وصل لتوه إلى بارانكيا دون أن يعلمني، وكان ينتظرني على وجه السرعة في مقهى روما. أصابني توتر صوته بالفزع، ولكني انزعجت أكثر عندما شاهدته، كان غير مهندم وغير حليق الذقن، ببدلته الزرقاء السماوية التي حصلت عليها في 9 إبريل، كانت مكرمشة بفعل عرق الطريق، ويكاد لا يعتمد سوى على استسلامه للهزيمة.

أصابني القنوط إلى درجة أنني غير قادر على وصف الضيق الذي أخبرني به أبي عن كارثة العائلة. سوكري، جنة الحياة السهلة والفتيات الجميلات سقطت تحت زلزال العنف السياسي، وموت "كايتانو" لم يكن أكثر من علامة. قال لي:

- أنت لا تعرف ذلك الجحيم لأنك تعيش في واحة سلام، ولكن نحن من لا نزال نعيش هناك.. ذلك أن الله يعرفنا.

كان واحداً من الأعضاء القليلين من الحزب المحافظ الذين كان عليهم الاختباء من الليبراليين الغاضبين بعد 9 إبريل، والآن فإن أصدقاءه الذين عاشوا في ظله يكرهونه، رسم لي صورة مرعبة- وواقعية- تؤيد قراره النهائي بترك كل شيء، وأخذ العائلة للعيش في كارتاخينا، أنا لم أكن أملك سبباً أو قلباً لأقف ضده، ولكني حاولت أن أؤجل قراره بحلول أقل جذرية من الرحيل العاجل.

كنت في حاجة إلى الوقت لأفكر، تناولنا زجاجتي مرطبات في صمت، استعاد مثاليته قبل أن يكمل مشروبه وتركني في حالة من الذهول، قال بتنهيدة: "عزائي

الوحيد في كل هذا هو سعادتي بأنك أخيراً ستنهي دراستك". لم أقل أبداً كم هزتني تلك الجملة الخيالية لتحقيق هدف عائلي جدا، شعرت بريح باردة في بطني، تحت وطأة فكرة أن رحيل العائلة لم يكن سوى مكر من جانبه ليجبرني على أن أكون محامياً، نظرت في عينيه مباشرة فكانتا كبحيرتي ماء راكد. انتبهت لحظتها أنني كنت عارياً أمامه من أي دفاع وراغباً في ألا يجبرني على أي شيء. لكنه كان يؤمن إيماناً إلهياً بأنني سأصدق في النهاية، ويمكنني أن أستسلم تعباً، وأكثر من ذلك: بنفس الروح المستعبدة كشف لي أنه حصل لي على عمل في كارتاخينا، وكل شيء جاهز لاستلام العمل الاثنين التالي. وظيفة كبرى، شرح لي، غير مطلوب مني أكثر من الذهاب كل خمسة عشر يوماً لأتسلم راتبي.

كان الأمر أكبر من أن أهضمه، عاقداً على أسناني أخبرته ببعض العلامات التي تعده للرفض النهائي، حكيت له الحوار الطويل مع أمي في رحلة آراكاتاكا التي لم أسمع منه أي تعليق عليها، ولكني فهمت أن عدم اهتمامه بالموضوع كان أفضل إجابة، والأكثر إثارة للحزن أنني كنت أعرف أنني ألعب بآخر أوراقي، لأنني أعرف أنهم لن يقبلوني في الجامعة بعد أن خسرت مادتي السنة الثانية، ولم أكمل امتحانهما أبداً، وثلاث مواد أخرى لا يمكن الامتحان فيها من السنة الثالثة، أخفيت كل هذا عن عائلتي لتجنيبهم حزناً لا فائدة منه، ولم أكن على استعداد ولا حتى تخيل رد فعل أبي لو أنني حكيت له هذا فيما بعد. في بداية الحديث كنت قد قررت عدم قبول أي ضعف عاطفي، لأنه كان يؤلمني أن رجلاً كريماً جداً يدع أبناءه يرونه مهزوماً، رغم هذا أعتقد أنه كان يثق في الحياة أكثر من اللازم، وأخيراً قبلت الشكل الأسهل لأطلب منه أن يمنحني ليلة للتفكير، فقال:

– موافق، ولكن عليك أن تفكر دائماً أن مستقبل العائلة بين يديك.

لم أكن في حاجة إلى توجيهاته، فقد كنت أعرف ضعفي جيداً، لدرجة أنني عندما ودعته عند محطة الأتوبيس في السابعة مساء اضطررت إلى الضغط على

أحاسيسي حتى لا أذهب معه في الكرسي المجاور لكرسيه، فقد كان واضحاً بالنسبة لي أن مرحلة قد انتهت، وأن العائلة عادت لتصبح فقيرة جداً ولا يمكنها أن تواجه مطالب الحياة ما لم يكن بتعاون الجميع.

لم تكن ليلة طيبة لاتخاذ قرار في أي شيء، فالبوليس استخدم القوة لطرد عدة عائلات مهاجرة كانت تقيم في حديقة سان نيكولاس هرباً من العنف الذي يسيطر على الريف، ومع ذلك، فإن سلام مقهى روما كان مستمراً، واللاجئون الإسبان كانوا يسألونني دائماً عن أخبار السيد "رامون فينيس"، وكنت أرد عليه ساخراً أن رسائله لم تكن تحمل أنباء عن إسبانيا، ولكن أسئلة عن الحال في بارانكيا، ومنذ أن مات لم يعودوا يذكرونه، ولكنهم احتفظوا بكرسيه أمام الطاولة فارغاً، هنأني أحد رفاق الجلسة بسبب مقال "الزرافة" المنشور في اليوم السابق لأنه ذكَّره برومانتيكية "ماريانو خوسيه دي لارا"، ولم أعرف السبب أبداً. أنقذني البروفيسور "بيريث دومنيك" من أحد المواقف الصعبة بجملة مناسبة: "أرجو ألا تعمل بالمثل السيئ وتطلق على نفسك رصاصة"، أعتقد أنه ما كان يمكنني أن أفعلها لو أنني عرفت كيف ستنتهي تلك الليلة.

بعد نصف ساعة أخذت "خيرمان بارجاس" من ذراعه إلى أقصى مقهى جابي. وما إن قدموا لنا المشروبات حتى قلت له إنني أريد أن أستشيره في أمر عاجل، توقفت يده في منتصف الطريق بالمشروب الذي كان على وشك رشفه- تماماً كما كان يفعل السيد رامون- وسألني منزعجاً:

- إلى أين تريد أن تصل؟

أذهلني تنبؤه، فقلت:

- بأي شيطان عرفت؟

لم يكن يعرف شيئاً، لكنه توقعه، وأعتقد أن تراجعي سيكون نهاية كرونيكا، وأي انعدام للمسئولية يمكن أن يدمغني ما تبقى من حياتي. أفهمني أن هذا لا

يقل عن الخيانة، وأنه لا أحد يمكنه أن يتجرأ على قول هذا سواه، لم يكن يعرف أي منهم ما الذي يمكننا أن نفعله بكرونيكا، لكننا كنا نعي جميعاً أن "ألفونسو" حافظ عليها في اللحظات الحرجة، حتى بمصروفات تفوق إمكانياته، ولذلك لم أستطع أبداً أن أنزع من رأس "خيرمان" الفكرة السيئة بأن رحيلي المحتوم سيكون حكماً بالإعدام على المجلة. كنت واثقاً من أنه فهم كل شيء، وكان يعرف أن مبرراتي لا يمكن تلافيها، ولكنه قام بواجبه الأخلاقي بقول ما كان يفكر فيه.

في اليوم التالي، وبينما كان يرافقني إلى مكاتب كرونيكا، أبرز "ألفارو ثيبيدا" إشارة مزعجة تدل على مدى الخلاف الذي كان يسيطر على علاقاته مع أصدقائه المقربين، لاشك في أنه عرف من "خيرمان" بقراري بالسفر، وخجله المثالي أنقذ كلانا من البحث عن مبررات لا فائدة تُرجى من ورائها. قال لي:

– اللعنة، الذهاب إلى كارتاخينا ليس كالذهاب إلى أي مكان، الأسوأ منه الذهاب إلى نيويورك كما حدث معي، ومع ذلك فأنت تراني هنا غير منقوص.

كانت تلك إجابات مطلقة تنفع في حالات كحالتي لدفعي إلى البكاء، وللسبب نفسه فاجأني بأنه يفضل الحديث لأول مرة عن مشروع إنتاج سينمائي في كولومبيا. كنا واصلناه بلا نتائج ما تبقى لنا من حياة، تحدث عنه سريعاً كنوع من منحي بعض الأمل، وتوقف فجأة ما بين الأصوات المزدحمة وأصوات أواني مطعم شارع سان بلاس.

صرخ فيّ عبر النافذة:

– أنا قلت لـ"ألفونسو" فلتذهب المجلة إلى الجحيم ولنصدر أخرى مثل "التايم".

الحوار مع "ألفونسو" لم يكن سهلاً، لا بالنسبة لي ولا بالنسبة له؛ لأنه كان بيننا سوء تفاهم منذ حوالي ستة أشهر في حاجة إلى الإيضاح، وكلانا كان في المواقف الصعبة يعاني نوعاً من التلعثم العقلي. فقد حدث في إحدى حالات الغضب التي تصيبني في صالة التوضيب أن رفعت اسمي ووظيفتي من ترويسة

كرونيكا، كان كناية عن تقديم استقالتي بشكل رسمي، وعندما مرت العاصفة حدث أنني نسيت أن أعيدهما إلى مكانهما، ولم ينتبه أحد قبل "خيرمان بارجاس" حتى مرور أسبوعين بعد ذلك، وتحدث في هذا الشأن مع "ألفونسو"، فكانت مفاجأة له أيضاً. "بورفيريو"، رئيس قسم التوضيب، حكى له سبب غضبي، فاتفقوا على أن يتركوا الأوضاع على ما هي عليه حتى أشرح لهم مبرراتي، ولسوء حظي فقد نسيت الأمر إلى اليوم الذي اتفقنا فيه- "ألفونسو" وأنا- على ترك كرونيكا، وعندما انتهينا ودّعنا ضاحكاً إلى حد الموت بإحدى نكاته، كانت نكتة قوية ولكن يمكن تحملها، قال:

- من حسن الحظ ليس مطلوباً منا ولا حتى رفع اسمك من على الترويسة.

عندها فقط استعدت الحادث كطعنة سكين، وشعرت أن الأرض تميد من تحت قدمي، ليس بسبب ما قاله "ألفونسو" بشكل عفوي جداً، بل لأنني نسيت أن أوضح له ما حدث. أما "ألفونسو"، كما كان متوقعاً منه، فقد قدم لي شرحاً وافياً، فإذا كان هذا الحدث العرضي الشيء الوحيد الذي لم نوضحه فقد كان من الأفضل عدم تركه في الهواء بلا توضيح، والباقي يقوم به "ألفونسو" مع "ألفارو" و"خيرمان"، وإذا كان لا بد من إنقاذ السفينة بتعاوننا جميعا فأنا أيضاً أستطيع العودة في ساعتين. اعتمدنا على مجلس التحرير كخط دفاع أخير، كان نوعاً من العناية الإلهية التي لم نستطع مطلقاً جمعهم حول المائدة الطويلة المعدة للحوارات الكبرى.

نقاش "خيرمان" و"ألفارو" منحني الشجاعة التي كنت أفتقد إليها لكي أغادر. وفهم "ألفونسو" مبرراتي وقابلها بارتياح، لكنه لم يجعلني أفهم أن كرونيكا يمكن أن تتوقف بسبب استقالتي، على العكس، نصحني أن أواجه الأزمة بهدوء، وهدأت بسبب فكرة تكوين قاعدة ثابتة مع مجلس التحرير، وأنهم سيخبرونني حينما يمكنهم فعل أي شيء يستحق الاهتمام.

كانت تلك أولى الإشارات الدالة على أن "ألفونسو" كان واثقاً من إمكانية اختفاء كرونيكا، وهذا ما جرى، دون أسف ولا ندم، في 28 يونيو بعد إصدار ثمانية وخمسين عدداً في أربعة عشر شهراً، وبعد مرور نصف قرن لدي انطباع بأن المجلة كانت حدثاً مهماً في الصحافة الوطنية، لم يتبقَ منها مجلد واحد كامل، بل فقط ستة أعداد، وبعض القصاصات في المكتبة القطالونية للسيد" رامون فينيس".

من الصدف الجميلة في حياتي أنه في البيت الذي كنت أقيم فيه كانوا يريدون تغيير أثاث الصالون، وعرضوه عليّ بثمن زهيد، قبيل الرحلة، كنت قد قمت بتصفية حساباتي مع الهيرالدو، وقبلوا منحي مقدماً ستة أشهر من "الزرافة". اشتريت بجزء من هذه النقود أثاث "مايتو" لبيتنا في كارتاخينا؛ لأنني كنت أعرف أن العائلة لم تأخذ أثاثها من سوكري، ولا تملك ما تشتري به غيره، لا أستطيع أن أنسى ذكر أنه بعد خمسين عاماً من الاستخدام لا يزال الأثاث محفوظاً بشكل جيد ولا يزال يستخدم؛ لأن الأم الشاكرة لم تسمح ببيعه.

انتقلت إلى كارتاخينا بعد أسبوع من زيارة أبي، وكانت حمولتي الوحيدة هي الأثاث، والقليل مما كنت أرتديه، بعكس المرة الأولى، كنت أعرف ما يمكن احتياجه، وكنت أعرف كل ما نحن في حاجة إليه في كارتاخينا، وأريد من كل قلبي أن تكون العائلة في أفضل حال، أما بالنسبة لي فإن ما يقع من شرّ فإنه يحدث كعقاب على نقص في شخصيتي.

كان البيت في مكان ممتاز من حي بوبا، تحت ظلال الدير التاريخي الذي كان يبدو دائماً على وشك الانهيار، غرف النوم الأربع وحمامان في الطابق الأرضي كانت محجوزة لأبويَّ والأبناء الأحد عشر. أنا الأكبر، كنت في السادسة والعشرين تقريباً، و"إليخيو" الأصغر في الخامسة. كنا جميعاً حسني التنشئة على ثقافة الأسرة المعلقة الكاريبية والفرش على الأرضية، أما الأسِّرة فهي عندما يكون لها مكان.

في الطابق العلوي كان يعيش العم "هيرموخينيث سول"، شقيق أبي، مع ابنه "كارلوس مارتينيث سيمهان". لم يكن البيت كله كافياً لهذا العدد، ولكن الإيجار كان متواضعاً بسبب علاقة العم التجارية مع المالكة، التي لم نكن نعرف عنها سوى أنها ثرية جداً ويدعونها "بيبا". العائلة التي تتمتع بحس الفكاهة المحكم لم يمر وقت طويل لتعثر لها على لقب في شكل أغنية: "بيت بيبا في قدم بوبا".

وصول الذرية كان بالنسبة لي ذكرى غامضة، انقطع النور في نصف المدينة وحاولنا أن نعد البيت في الظلام لإنامة الأطفال، كنا نتعارف بالصوت مع أشقائي الكبار، لكن الصغار تغيروا كثيراً منذ زيارتي الأخيرة، فقد كانت عيونهم الكبيرة والحزينة ترعبني في أضواء الشموع. وفوضى الصناديق والصرر والأسرة المعلقة في الظلام جعلتني أعاني كما لو كان 9 إبريل المنزلي، إلا أن الانطباع الأكبر شعرت به عندما حاولت أن أحرك كيساً بلا شكل محدد كان يهرب من بين يدي، لقد كانت بقايا الجدة "ترانكيلينا" أخرجتها أمي وحملتها لتدفنها في مقبرة سان بدرو كلافير، حيث توجد بقايا أبي والعمة "ألبيرا" في القبو نفسه.

كان عمي "هيرموخينيث سول" المنقذ في تلك الكارثة، فقد عينوه سكرتيراً عاماً للبوليس المحلي في كارتاخينا، أول قرار راديكالي له كان فتح حفرة بيروقراطية لإنقاذ العائلة، بما فيهم أنا. فالمضلل السياسي بسوابقه كشيوعي لم يكسبني الأيدلوجية لكنه فاز عليّ بطريقتي في اللبس، كان هناك عمل للجميع، فقد وضعوا أبي في وظيفة إدارية بدون مسئولية سياسية، وشقيقي "لويس إنريكي" عينوه مخبراً، وأنا منحوني منصباً قانونياً بمكتب الإحصاء الوطني الذي كانت الحكومة المحافظة تبذل جهدها لإجرائه، ربما للحصول على أية فكرة تقدر لهم عدد المعارضين الباقين على قيد الحياة. الثمن الأخلاقي للوظيفة كان بالنسبة لي أكثر خطورة من الثمن السياسي؛ لأنني كنت أتلقى راتبي كل أسبوعين ولا أظهر في المكاتب بقية الشهر لأتقي الأسئلة. التعليل الرسمي- ليس بالنسبة لي فقط بل أكثر من مائة موظف آخرين- أننا في مهام رسمية خارج المدينة.

كان مقهى موكا مقابل مكتب الإحصاء غاصاً بالموظفين المزيفين من القرى المجاورة الذين كانوا يذهبون إلى العمل لتسلم رواتبهم فقط. لم أكن أحصل على سنتيم واحد للاستخدام الشخصي طوال الوقت الذي كنت أوقع فيه على كشف الرواتب، لأن الراتب كان عبارة عن دعم ويذهب بكامله إلى الميزانية المنزلية. بينما كان يحاول أبي أن يسجلني في كلية الحقوق، اكتشف الحقيقة التي أخفيتها عنه، أن يعرف هو الحقيقة جعلني أشعر بالسعادة كما لو حصلت على الشهادة، وكانت سعادتي مستحقة؛ لأنه بين كل العقبات فقد وجدت أخيراً الوقت والمساحة لإنهاء الرواية.

دخولي للعمل بصحيفة اليونفرسال جعلني أشعر كما لو عدت إلى بيتي، كانت السادسة مساء، الساعة الأكثر نشاطاً، الصمت الذي تسبب فيه دخولي أوقف عمال اللينوتيب والكتبة على الآلة الكاتبة جعلني على وشك البكاء. كان الأستاذ "ثابالا" كما لو لم يزد عمراً بشعره الهندي الأسود، كما لو أنني لم أذهب أبداً، فقد طلب مني أن أتكرم بكتابة مقالة افتتاحية متأخرة، كان يحتل ماكينتي مبتدئ مراهق سقط أرضاً بسبب تسرعه لترك مكانه لي، أول ما فاجأني هو صعوبة كتابة مقالة افتتاحية بلا توقيع، بعد عامين من اغتراب "الزرافة". كنت قد كتبت صفحة واحدة عندما اقترب مني المدير "لوبث إسكاورياثا" ليحييني. رباطة جأشه البريطانية كانت حديثاً عاماً في حوارات الأصدقاء ورسامي الكاريكاتير السياسي، أثر فيّ فرحه بتحيتي بالعناق. وعندما أنهيت المقالة، كان "ثابالا" ينتظرني بورقة وضع فيها المدير حساباته ليعرض عليَّ راتباً من مائة وعشرين بيزو شهرياً مقابل المقالات الافتتاحية، أثر فيّ الرقم؛ لأنه كان غريباً في تلك الأيام وفي هذا المكان، لدرجة أنني لم أجبه ولا حتى شكرته بل جلست أكتب مقالتين أخريين، منتشياً بإحساس أن الأرض تدور بالفعل حول الشمس.

كنت كما لو عدت لأصولي، الموضوعات نفسها المصححة بقلم أحمر ليبرالي يضعها الأستاذ "ثابالا"، محذوفة بالرقابة نفسها لرقيب مهزوم بمكر المحررين،

ومنتصف الليل نفسه تنقلاً بين الكهف ومحاولة إصلاح الكون حتى بزوغ الفجر في ممر الشهداء. كان "روخاس هيريثو" قد أمضى عاماً يبيع لوحات ليرحل إلى أي مكان، إلى أن تزوج من "روسا إيسابيل"، الكبيرة، ورحل إلى بوجوتا، وفي نهاية الليل كنت أجلس لأكتب "الزرافة" التي أرسلها للهيرالدو بأكثر الوسائل حداثة في ذلك الوقت والتي كانت البريد العادي، مع الحرص على ألا تتوقف تحت ضغط الحاجة إلى دفع الديون.

الحياة مع العائلة كاملة وفي أوضاع مشئومة لم يكن من صنع الذاكرة بل من صنع الخيال، الأبوان ينامان في غرفة بالطابق الأرضي مع بعض الصغار، والشقيقات الأربع كن في حاجة إلى غرفة لكل واحدة منهن- وفي الثالثة ينام "هيرناندو" و"ألفريدو ريكاردو" تحت رعاية "خايمي"، الذي كان يسيطر عليهما بخطاباته الفلسفية والحسابية، أما "ريتا" التي كانت تقترب من الرابعة عشرة من عمرها فقد كانت تستذكر دروسها حتى منتصف الليل أمام باب الشارع تحت ضوء الإنارة العامة لتوفير نور البيت. لا زلت أحتفظ بدروسها التي حفظتها من الذاكرة والتي كانت تغنيها بصوت مرتفع وبطريقة محببة وبمخارج ألفاظ جيدة، والكثير من الأشياء الغريبة التي تضمها كتبي نتيجة لطريقتها في ممارسة القراءة، البغلة التي تذهب إلى الطاحونة، وشيكولاتة الولد أبو برنيطة، والعرّاف الذي يهوي السكر، كان البيت حيوياً وأكثر إنسانية منذ منتصف الليل، ما بين الذهاب إلى المطبخ للشرب أو الجري لقضاء الحاجة السائلة أو الجافة، أو تعليق الأسرة في الممرات متقاطعة فيما بينها وعلى مستويات مختلفة. كنت أعيش في الطابق الثاني مع "جوستافو" و"لويس إنريكي"- بعد أن انتقل العم ليعيش في بيت عائلته- وبعدها انضم إلينا "خايمي"، بعد إخضاعه لأوامرنا ألا يمارس نبوءاته بعد التاسعة مساء، قضينا ليلة ساهرين لعدة ساعات حتى الفجر تحت وطأة ثغاء خروف افتقد أمه، قال "جوستافو" بنفاد صبر:

- يبدو كفنار.

لم أنسَ تلك الجملة أبداً، لأنها كانت من ذلك النوع من الجمل التي كنت ألتقطها "على الطاير" من الحياة الواقعية لأستخدمها في روايتي التي كانت على وشك الاكتمال.

كان هذا البيت أكثر حيوية من كل البيوت في سكناها في كارتاخينا، التي كانت تسوء مع مرور الزمن وتضاؤل دخل العائلة. في بحثنا عن أحياء أرخص بدأنا العد التنازلي من درجة إلى أخرى حتى وصلنا إلى حي توريل، حيث كان شبح امرأة يظهر ليلاً، من حسن حظي أنني لم أكن هناك، ولكن شهادة الأبوين والإخوة كانت تسبب لي رعباً كما لو كنت أسكن هناك، كان أبوي يرقدان على الأريكة بالصالة في الساعات الأولى من الليل، وشاهدا شبحاً على هيئة امرأة مرت بهما دون أن تنظر إليهما، وتجولت بين الغرف، كانت ترتدي فستاناً موشى بالزهور الحمراء وشعرها القصير معقوص إلى خلف الأذنين بمشابك ملونة. وصفتها أمي حتى أدق تفاصيل ألوان فستانها ونوع حذائها، فيما كان أبي ينكر أنه رآها حتى لا يرعب زوجته ولا يثير الخوف بين الأبناء، ولكن الطريقة التي كان يتحرك بها شبح المرأة منذ حلول المساء لم يكن يسمح بتجاهلها، استيقظت شقيقتي "مارجوت" في فجر أحد الأيام وشاهدتها تقف عند طرف سريرها تراقبها بنظرة مركزة، ولكن ما أثارها أن تعرف أن هناك من يراقبها من الحياة الأخرى.

يوم الأحد وأثناء الخروج من القداس، أكدت جارة لأمي أنه لم يسكن أحد في ذلك البيت منذ سنوات طويلة بسبب جرأة المرأة الشبح التي ظهرت في غرفة الطعام ظهراً عندما كانت العائلة تتناول الغداء، وخرجت أمي في اليوم التالي برفقة اثنين من إخوتي الصغار بحثاً عن بيت آخر وعثرت عليه في أربع ساعات. إلا أن معظم إخوتي عانوا كثيراً للتغلب على فكرة أن شبح المرأة الميتة رحل معهم.

في بيت البوبا، على الرغم من الوقت الكثير الذي كنت أتمتع به فقد كنت أكتب بشهوة كبيرة إلى درجة أنني كنت أشعر أن الأيام كانت تمر بسرعة، وهناك ظهر من جديد "راميرو دي لا اسبيريا"، بشهادة الدكتوراه في القانون، ومتحدثاً في السياسة أكثر من أي وقت مضى، وكان متحمساً بقراءاته في الروايات الحديثة، وبشكل خاص رواية "الجلد" لـ"كوريثيو مالابارت"، التي تحولت في تلك السنة إلى الكتاب الأساسي لجيلي؛ قوة النثر، وحساسية الذكاء، والموضوع الذي يعكس قسوة التاريخ المعاصر كان يسرقنا حتى الفجر، مع ذلك فإن الزمن أثبت أن "مالابارت" كان مرشحاً ليكون مثالاً نافعاً للمزايا التي كنت أبحث عنها، وانتهت بالتغلب على صورته، بعكس كل ما حدث لنا في الوقت نفسه تقريباً مع "البير كامو".

كان "آل اسبيريا" يعيشون بالقرب منا، وكان في بيتهم مخزن للخمور العائلية كنا نُغير على زجاجاته ونبدلها بزجاجات مشروبات عادية ونأخذها إلى بيتنا، وضد نصائح السيد "رامون" كنت أقرأ أجزاء طويلة من مسوداتي بحضورهم وحضور إخوتي، كنت أقرأها قبل تنقيتها من الزوائد كما هي من أوراق المطبعة الطويلة التي كنت أكتب عليها طوال ليالي السهر في اليونفرسال.

في تلك الأيام عاد "ألفارو موتيس" و"جونثالو مايلرينو"، لكن حسن خجلي منعني من أن أطلب منهم أن يقرءوا المسودة قبل اكتمالها ودون أن أضع لها عنواناً. كنت أريد أن أحبس نفسي بلا توقف لأنجز أول نسخة في أوراق رسمية قبل أن أقوم بعمل التصحيحات النهائية. كتبت حوالي أربعين صفحة أكثر من النسخة المتوقعة، لكنني كنت أجهل أن هذا يمكن أن يكون خطأ خطيراً، وبعدها عرفت أنه خطأ: أنا عبد للكمال الذي يدفعني إلى حساب مسبق لطول الكتاب، بعدد معين من الصفحات لكل فصل وعدد محدد لكل كتاب. أي خطأ في الحساب يدفعني إلى إعادة النظر في الكتاب كله، حتى الخطأ الإملائي يمكنه أن يجعلني

أشعر وكأنه خطأ في الإبداع، كنت أعتقد أن هذه الطريقة المطلقة ترجع إلى قاعدة مثيرة للمسئولية، لكنني أعرف اليوم ببساطة أنه رعب بسيط صافي وفيزيقي.

بالمقابل، رافضاً إتباع نصائح السيد "رامون" مرة أخرى، بمجرد الانتهاء من الكتاب أرسلت المسودة كاملة إلى "جوستافو إيبارا" رغم أنه كان بلا عنوان، دعاني إلى بيته بعدها بيومين. وجدته في شرفة منزله المطلة على البحر، يتشمس وفي حالة استرخاء بملابس البحر، أثارتني الرقة التي كان يتحسس بها أوراقي بينما كان يحدثني، إنه أستاذ حقيقي، لم يقل شيئاً عن الكتاب ولا حتى قال رأياً حسناً أو سيئاً، بل جعلني أفهم واعياً بقيمه الأخلاقية. بعد أن انتهى تأملني وأنهى حديثه ببساطته اليومية:

- إنها أسطورة "أنتيجون".

من تعبيرات وجهي انتبه إلى أنني انطفأت، فأخذ من مكتبته كتاباً لـ"سوفوكليس" وقرأ ما يريد أن يقول، فالوضع الدرامي لروايتي، بالضبط، كان ينبع من "أنتيجون" نفسها، محكوم عليه بأن يدفن جثة شقيقه "بولينيس" بأمر من الملك "كريون". أنا كنت قد قرأت "أوديب في كولونا" في نفس المجلد الذي أهداني إياه "جوستافو" خلال الأيام التي تعرفنا فيها، لكنني كنت أتذكر أسطورة "أنتيجون" بشكل سيئ وأعيد كتابتها من الذاكرة في دراما خاصة بمنطقة الموز، التي لم تنتبه إلى تحديد عواطفها حتى تلك اللحظة. شعرت بروحي مغمورة بالسعادة وخيبة الأمل. عدت تلك الليلة لأقرأ العمل من جديد، بمزيج غريب من الفخر بأنني كتبت بحسن نية موضوعاً يتطابق مع موضوع لكاتب كبير؛ وفي الوقت نفسه كنت أشعر بألم من خجلي لارتكابي خطيئة السرقة الأدبية. بعد أسبوع من التأزم قررت إجراء بعض التعديلات الأساسية التي تنقذ حسن نيتي، لم أنتبه حتى تلك اللحظة من زهوي غير الطبيعي لتعديل كتاب لي حتى لا يتشابه

مع "سوفوكليس". وأخيراً- مستسلما- شعرت بحقي الأدبي في أن أستخدم جملة له كمدخل إشاري وهكذا فعلت.

رحيلنا إلى كارتاخينا أنقذنا من التردي الخطر لسوكري قبل فوات الأوان، ولكن أكثر الحسابات كانت خاطئة، بالنسبة لقلة الدخول أو بالنسبة لحجم العائلة، تقول أمي إن أبناء الفقراء يأكلون أكثر وينامون بسرعة أكبر من أبناء الأثرياء، ولبيانه يكفي أن تأخذ المثال من بيتها. فرواتب الجميع لم تكن كافية للحياة بلا مشاكل.

تولى الزمن الآخرين: تحول "خايمي" بتواطؤ العائلة جميعاً إلى مهندس معماري، فقد كان الوحيد من العائلة الذي قدر الشهادة كمرتبة شرفية، وتحول "لويس إنريكي" إلى معلم في الحسابات، فيما أنهى "جوستافو" دراسته كرسام خرائط، ولكنهما ظلا كعازفي جيتار ومغنيين في احتفالات الآخرين، وفاجأنا "يوجو" منذ صغره بموهبته الأدبية المحددة جداً وبقوة شخصيته، التي أثبتها أمامنا عندما كان لا يزال في الخامسة حينما فاجأوه وهو يحاول إضرام النار في دولاب الملابس ليحقق حلمه في رؤية رجال المطافئ في البيت وهم يطفئون الحريق. وبعدها أيضاً عندما دعاه زملاء المدرسة الكبار مع شقيقه "كوكي" لتدخين الماريجوانا، ولكن "يوجو" رفض الدعوة مرتعباً. أما "الكوكي" فعلى العكس، كان دائماً ميالاً لحب الاستطلاع والتهور، وجربهما حتى الأعماق. غرق بعدها بسنوات في إدمان المخدرات، وحكى لي هذا منذ الرحلة الأولى قال: "اللعنة، لا أريد أن أفعل في حياتي أكثر من هذا". في الأربعين عاماً التالية، وبحماس لا مستقبل له، لم يفعل شيئاً سوى الوفاء بوعده أن يموت طبقاً لقانونه الخاص. في الثانية والخمسين دخل جنته الخيالية عن عمد، فأُصيب بأزمة قلبية عامة قضت عليه.

أما "نانشي" -أكثر رجال العالم مسالمة- فإنه واصل العمل في الجيش بعد أداء الخدمة العسكرية الإجبارية، وتدرب على جميع أنواع الأسلحة الحديثة؛

وشارك في العديد من المناورات، لكنه لم يحظ بالمشاركة في أي من حروبنا الدائمة. لذلك اكتفى بممارسة مهنة رجل المطافئ بعد أن ترك الجيش، ولا حتى هناك شاء حظه ليشارك في إطفاء حريق واحد خلال خمس سنوات. إلا أنه لم يشعر أبداً أن ظنه قد خاب، كان محباً للسخرية مما جعله مشهوراً في العائلة كأستاذ النكتة السريعة، وهذا سمح له أن يشعر بالسعادة لمجرد أنه يستمر على قيد الحياة.

"يوجو"، خلال أكثر سنوات الفقر صعوبة، عمل كاتباً وصحافياً بقوة الرغبة ودون أن يدخن أبداً أو يشرب كأساً زيادة عن المطلوب، تمكنت موهبته الأدبية العنيفة وإبداعه الحثيث من التغلب على كل العقبات، مات في الرابعة والخمسين بعد وقت قليل من نشره كتاب في أكثر من ستمائة صفحة يحتوي على بحث رائع حول الحياة السرية لرواية "مائة عام من العزلة"؛ عمل فيه سنوات طويلة دون أن أعرف عنه شيئاً، ولم يطلب مني أبداً معلومات مباشرة.

"ريتا"، تكاد لا تكون مراهقة، عرفت كيف تتعلم الدرس من محنة الآخرين، عندما عادت إلى البيت بعد غياب طويل، وجدتها تعاني من مطهر الأخريات نفسه لقصة حبها من شاب أسمر مخالف لطباعها، جاد وهادئ واختلافه الوحيد معها في طول قامته، في تلك الليلة نفسها وجدت أبي يستمع إلى الأخبار ممدداً في السرير المعلق بالغرفة، خفضت من صوت الراديو، وجلست في السرير المقابل وسألته بحقي كابن أكبر عمّا حدث بالنسبة لقصص حب "ريتا". أطلق الإجابة التي لا شك أنها كانت معدة لقولها في أية لحظة:

- ما حدث أن هذا الولد نشّال.

هذا هو بالضبط ما لم أكن أنتظره، فسألته:

- نشال ماذا؟

قال لي دون أن ينظر إليّ:

- نشّال نشّال.

سألته دون رحمة:

- لكن ما الذي سرقه؟

واصل هو دون أن ينظر إليّ، وأخيراً زفر:

- حسن، هو لا، ولكن له شقيق مسجون في قضية سرقة.

قلت له بغباء سهل:

- إذن ليست هناك مشكلة؛ لأن "ريتا" لا تريد أن تتزوجه بل تريد أن تتزوج من الذي لا يوجد في السجن.

لم يرد، فقد فاق شرفه جميع الحدود من الإجابة الأولى، لأنه كان يعرف أن إشاعة شقيقه المسجون ليست صحيحة، حاول التعلق بأسطورة الكرامة:

- حسناً جداً، فليتزوجا ويخلصونا، فأنا لا أريد علاقات خطوبة طويلة في هذا البيت.

ردي كان عاجلاً وبنغمة تفتقر إلى الرحمة التي لم أغفرها لنفسي أبداً:

- غدا في أول ساعة.

ردّ أبي منزعجاً ولكن مع أول بسمة:

- يا رجل، لا يجب أن نبالغ، هذه الفتاة لا تملك بعد ما ترتديه.

آخر مرة شاهدت فيها العمة "با"، كانت في عمرها الذي يكاد يصل التسعين، كان ذلك في أمسية حارة جداً عندما وصلت إلى كارتاخينا دون سابق إنذار، كانت قادمة من ريواتشا في تاكسي سريع بحقيبة مدرسية، وحداد كامل وبعمامة من الخرق السوداء، دخلت سعيدة، بذراعين مفتوحتين، وصرخت في الجميع:

- جئت أودعكم؛ لأنني سأموت.

احتضناها، ليس لأنها كانت من كانت، بل لأننا كنا نعرف إلى أي حد كانت تعرف علاقتها بالموت. ظلت بالبيت، تنتظر ساعتها في غرفة الخدم، الغرفة

الوحيدة التي قبلت النوم فيها، وماتت هناك في عذريتها وعمرها العام الأول بعد المائة طبقاً لحساباتنا.

كانت تلك الفترة الأكثر نشاطاً في اليونفرسال، كان "ثابالا" يوجهني بحنكته السياسية لتقول مقالاتي ما يجب أن تقوله دون أن تصطدم بقلم الرقابة، واهتم لأول مرة بفكرتي القديمة لكتابة التحقيقات للصحيفة. لم يمر وقت طويل حتى ظهر موضوع السائحين الذين كانت تهاجمهم الحيتان القاتلة في شواطئ ماربيا، إلا أن الفكرة التي تفتقت عنها البلدية تقديم خمسين بيزو عن كل حوت ميت، وفي اليوم التالي وصل عرض الحيتان التي تم اصطيادها ليلاً إلى أقصى أفرع شجر اللوز، فكتب "هيكتور روخاس" ساخراً من بوجوتا في عموده الجديد في "التيمبو". سخر من تطبيق صيد الحيتان ونصح بالإمساك بها من ذيول آذانها. فتح هذا أمامي فكرة كتابة تحقيق عن مطاردة الحيتان الليلية، وقف "ثابالا" إلى جواري بحماس، لكن الفشل بدأ منذ اللحظة الأولى لركوبي البحر، عندما سألوني إن كانت تصيبني دوخة البحر فقلت لا، وإن كنت أخاف البحر، والحقيقة كانت نعم، فقلت لهم لا، وأخيراً سألوني إن كنت أجيد العوم- كان يجب أن يكون هذا هو السؤال الأول- ولم أجرؤ على الكذب بأنني أعرف. على أي حال، من على اليابسة ومن خلال الحوار مع البحارة عرفت أن الصيادين كان يذهبون إلى "لاس بوكاس دي ثينثو" على بعد تسعة وثمانين ميلاً بحرياً من كارتاخينا، ويعودون محملين بالحيتان البريئة ويبيعونها بخمسين بيزو على أنها الحيتان القاتلة. النبأ الكبير انتهى في يومه الأول، وقضى على أملي في كتابة التحقيق، فنشرت في مكانه قصتي الثامنة "نابو، الزنجي الذي انتظرته الملائكة"، واثنان من النقاد الجادين على الأقل وبعض أصدقائي الحادين اعتبروها تحولاً جديداً.

لم أعتقد أن نضجي السياسي كان كبيراً ليؤثر في حياتي، لكن الحقيقة أنني عانيت من سقطة مشابهة للسابقة، فشعرت أنني متورط إلى درجة أن تسليتي

الوحيدة كانت السهر حتى الفجر مغنياً مع السكارى في كهوف السور، التي كانت بيوتاً للدعارة للتسرية عن الجنود خلال عهد الاستعمار، وبعدها تحولت إلى سجن سياسي فظيع. قضى الجنرال "فرانثيسكو دي باولا" هناك حكماً بثماني أشهر قبل أن ينفيه زملاء السلاح والقضية إلى أوروبا.

حارس تلك الآثار التاريخية كان عامل اللينوتيب المتقاعد الذي كان ينضم إليه زملاؤه العاملون بعد إغلاق طبعة الصحيفة ليحتفلوا معه كل يوم بميلاد اليوم الجديد بحفل من الروم الأبيض المهرب، كانوا من طابعي الآلة الكاتبة المثقفين بالعادات العائلية، ونحويون دراميون ومن كبار عشاق السُكر أيام السبت. فانضممت إلى نقابتهم.

الأكثر شباباً بينهم اسمه "جييرمو دافيلا"، تمكن من العمل في الشاطئ على الرغم من عناد بعض زعماء النقابة الإقليميين الذين كانوا يرفضون قبول هندي في نقابتهم، ربما حاز على هذا العمل بفنه، فهو بالإضافة إلى احتراف مهنته وظرفه الشخصي، كان مشعوذاً مدهشاً. كان يحافظ علينا يقظين بحركاته السحرية التي تخرج طيوراً حية من أدراج المكاتب؛ أو يمحو الكتابة من أوراقنا بعد الانتهاء من تسليم المقالة الافتتاحية قبيل إغلاق الطبعة بقليل. الأستاذ "ثابالا"، الحازم في أداء الواجب، ينسى "بادرفوسكي" وثورة البوليتاريا للحظات ويطلب تصفيقا للساحر، بتحذيره دائماً بأن تكون هذه آخر مرة. بالنسبة لي، فإن مقاسمتي الروتين اليومي مع ساحر كان كما لو أنني اكتشفت الواقع أخيراً.

في أحد تلك الصباحات في قباب لسور نقص عليّ "دافيليا" فكرته عن إصدار صحيفة مقاس أربعة وعشرين في أربعة وعشرين سنتيمتراً- نصف ورقة- يتم توزيعها مجاناً في لحظة الذروة قبيل إغلاق السوق، ستكون أصغر صحيفة في العالم، تقرأ في عشر دقائق، وهذا ما حدث، أطلق عليها اسم "كومبريميدو"، كنت أكتبها أنا في ساعة في الحادية عشرة صباحاً، ويوضبها ويطبعها "دافيليا" في ساعتين، ويوزعها موزع مغامر لم يكن يتنفس مرة واحدة أثناء النداء عليها.

صدرت الثلاثاء 18 من ديسمبر 1951 وكان من المستحيل فهم النجاح الهائل والقصير الذي لقيته: ثلاثة أعداد في ثلاثة أيام، اعترف لي "دافيليا" إنه ولا حتى بتطبيق السحر الأسود كان يمكنه توقع نجاح فكرة كبيرة بتكاليف قليلة، كانت تحتل حيزاً صغيراً جداً، ويتم تنفيذها في زمن قصير وتختفي بالسرعة نفسها. الغريب أنني فكرت في اليوم التالي للحظات، تحت تأثير اهتمام القراء بأن حل مشكلة حياتي يمكن أن يكون سهلاً جداً، استمرت أحلامي هذه حتى الخميس، عندما قال لنا المدير الإداري إن عدداً آخر سيعني إفلاسنا، وحتى قبل أن نحل مسألة الإعلان التجاري، لأنها يجب أن تكون إعلانات صغيرة جداً ومرتفعة الثمن فلم يكن هناك حل عقلاني، فنجاح الصحيفة كان في حجمها، لكنها كانت تحتوي على بذرة دمارها: كانت تزداد مشاكلها كلما كان توزيعها أكبر.

الرحيل إلى كارتاخينا كان مفيداً بعد تجربة "كرونيكا" إضافة إلى أنه منحني دفعة لمواصلة كتابة "الورقة الجافة"، وبشكل خاص بسبب الحمى الإبداعية التي كنا نعيشها في بيتنا، حيث الأكثر غرابة يبدو دائماً ممكناً، كان يكفي أن أعلن عن غداء لنتحدث مع أبي عن الصعوبة التي يواجهها الكُتَّاب أثناء كتابة مذكراتهم عندما اكتشفت أنه لم يعد أحد يتذكر شيئاً، "الكوكي"، كان يكاد لا يبلغ السادسة، توصل إلى المحصلة النهائية ببساطة شديدة، قال:

– إذن، أول ما يجب أن يفعله الكاتب هو أن يكتب ذكرياته، عندما يكون لا يزال يتذكرها.

لم أجرؤ على الاعتراف بأنه في "الورقة الجافة" كان يحدث معي ما حدث في "البيت": بدأت اهتم بالتقنية أكثر من الموضوع. بعد سنة كاملة من العمل بحماس، تبين لي أنني كما لو كنت في متاهة دائرية بلا مخرج أو مدخل، أعتقد اليوم إنني أعرف السبب. فالروايات التي اعتمدت العادات والتقاليد وقدمت أمثلة من التجديد

في بداياتها انتهت إلى تحجير الموضوعات الوطنية الكبرى التي كانت تحاول أن تجد لها مخرجاً عاجلاً، الأمر أنني لم أعد أشك ولا لحظة واحدة، لم يكن ينقصني سوى أن أُجرب التواريخ ونوعية الأسلوب قبل وضع النقطة النهائية، ومع ذلك، كنت غارقاً بعد هذا فترة طويلة من العمل في الضباب، إلى درجة أنني كنت أرى الكتاب يغرق دون أن أعرف أين خروقه، والأسوأ من كل هذا أنه عند هذه النقطة من الكتابة لا تنفع نصائح أحد؛ لأن الخروق لم تكن في النص بل فيّ أنا، وأنا وحدي الذي يمكنه أن يراها ويعانيها. وربما لنفس هذا السبب أوقفت "الزرافة" دون أن أفكر طويلاً عندما انتهيت من دفع ديوني للهيرالدو التي استلمتها مقدماً لشراء الأثاث.

لسوء الحظ، لا العبقرية ولا المقاومة ولا حتى الحب، كانوا كافيين لهزيمة الفقر، مؤسسة الإحصاء انتهت في عام واحد وراتبي في اليونفرسال لم يكن يكفي لتغطية النفقات. لم أعد إلى كلية الحقوق، على الرغم من جهود بعض الأساتذة الذين تآمروا من أجل دفعي إلى الدراسة رغم رفضي لها. لم تكن نقود الجميع تكفي البيت، ولكن الفارق كان كبيراً ومساهماتي لم تكن كافية أبداً؛ وانعدام الأمل كان يصيبني بالإحباط أكثر من نقص المال.

قلت على الغداء في يوم حاسم:

– لو كان علينا أن نغرق جميعاً، فاتركوني أنجو حتى أحاول أن أرسل لكم ولو حتى بمجداف.

لذلك فإنه في الأسبوع الأول من ديسمبر، رحلت مجدداً إلى بارانكيا، بخضوع الجميع، مع الاطمئنان بأن القارب سيعود. أعتقد أن "ألفونسو فوينماير" تخيل من أول نظرة عندما رآني أدخل مكتبنا القديم في الهيرالدو بلا سابق إنذار، لأن كرونيكا كانت قد توقفت، نظر نحوي من أعلى الآلة الكاتبة كما لو كنت شبحا، وصرخ منزعجاً:

- أي شيطان تفعل هنا.

في لحظات قليلة من حياتي قلت شيئاً أقرب إلى الحقيقة من تلك اللحظة:

- أنا أختنق يا أستاذ.

رد بطريقته المعروفة عنه دائماً وبالقصيدة الأكثر كولومبية من النشيد الوطني:

- آه، حسن، لحسن الحظ، فإن العالم كله على هذا الحال، كلنا نئن تحت السلاسل.

لم يبدِ ولو قليلاً من حب الاستطلاع لمعرفة سبب رحلتي، وأعتقد أنه نوع من التواصل الذهني الجميل بيننا؛ لأن كل من كان يسأله عني خلال الأشهر الأخيرة كان يجيبه أنني قد أصل في لحظة لأبقى. وقف من مكتبه سعيداً بينما كان يرتدي الجاكيت؛ لأنني ظهرت صدفة كما لو كنت هبطت من السماء. كان متأخراً نصف ساعة بسبب موعد شخصي، ولم يكن قد كتب المقالة الافتتاحية لليوم التالي وطلب مني أن أنهيها، لم أكد أسأله عن الموضوع حتى أجابني من الممر بكل سرعة وبكل بناعة خاصة بعلاقة صداقتنا:

- اقرأها وستعرف.

في اليوم التالي كانت هناك آلتان للطباعة كل واحدة في مواجهة الأخرى في مكتب الهيرالدو، وأنا كنت أكتب "الزرافة" مرة أخرى، للصفحة نفسها التي كانت فيها دائماً- ولم لا - وبالثمن نفسه، وحسب قواعد الاتفاق الخاص بيني وبين "ألفونسو"، وباتفاق أن يكون في المقالات الافتتاحية مقاطع لي ومقاطع له، وكان مستحيلاً التفرقة بينها، بعض طلاب الصحافة أو الأدب أرادوا التفرقة بينها في الأرشيف ولم يتوصلوا إلى ذلك. عدا في حالة بضعة موضوعات معدودة وليس بالأسلوب ولكن بالمعلومات الثقافية.

في "الرجل الثالث" آلمني خبر موت صديقي اللص الصغير، الذي خرج في إحدى الليالي لممارسة مهنته كالمعتاد، وكل ما عرفناه عنه بلا أي تفاصيل أنهم

أطلقوا عليه النار برصاصة في القلب في أحد البيوت التي كان يسرقها. طالبت شقيقته الكبرى بجثته، كانت الفرد الوحيد الباقي من عائلته، ولم يحضر جنازته سوى نحن وصاحب الحانة.

عدت إلى بيت الشقيقات "أفيلا" مرة أخرى، و"ماريا ديلمار" كجارة مرة أخرى، عادت لتؤنس وحدة ليالي السيئة في "القط الأسود"، كانت وشقيقتها "آليثيا" كما لو كانتا توأماً لتشابه شخصيتيهما ولقدرتهما على إعادة الزمن مرة أخرى للجريان عندما نكون معهن، وواصلتا علاقتهن بالمجموعة بطريقة خاصة جداً، كن تدعوننا مرة على الأقل في السنة إلى مائدة لذيذة من الحلوى العربية التي كانت تغذي أرواحنا، ونلتقي في منزلهن بشخصيات معروفة خلال سهرات فجائية، من كبار الفنانين من أي نوع من أنواع الفن وحتى الشعراء صعاليك، أعتقد أنهن كن من تولين مع الأستاذ "بدرو فيادا" وضع نظام لولعي بالموسيقى الفوضوي، ووضعاني في مكاني بين جماعتهن السعيدة بالمركز الفني.

أعتقد اليوم أن بارانكيا منحتني رؤية أفضل عن "الورقة الجافة" فما إن حصلت على مكتب خاص بآلة كاتبة حتى بدأت عملية التصحيح باندفاع مجدد. تجرأت في تلك الأيام على عرض نسخة مقروءة على أعضاء المجموعة مع العلم بأنها لم تكن كاملة، وتحدثنا عنها أكثر من أي تحذير معروف، ظل "ألفونسو" يكتب أمامي يومين دون أن يذكر حتى اسمها. في اليوم الثالث، عندما أنهينا عملنا مع نهاية المساء، وضع المسودة مفرودة أمامي على المكتب، وقرأ الصفحات التي كانت مشاراً إليها بقطع ورقية. أكثر من أن يبدو ناقداً كان باحثاً عن الأخطاء الإملائية والأسلوبية، كانت إشاراته حقيقية جداً إلى درجة إنني استخدمتها جميعاً. عدا واحدة اعتقد هو أنها مأخوذة من الشعر، بعد بيان أنها كانت فصلاً واقعياً من طفولتي.

قال ضاحكاً:

- حتى الواقع يخطئ عندما يكون الأدب سيئاً.

كانت طريقة "خيرمان بارجاس" كأنه عندما يكون النص جيداً لا يعلق عليه بل يعطيه نظرة مهدئة، وينتهي بوضع علامة تعجب:

- رائع!

لكنه يظل في الأيام التالية يطلق أفكاراً متناثرة عن الكتاب، تنتهي في أية ليلة بحكم صائب. وإذا لم يكن يرى أن المسودة جيدة، يطلب حضور المؤلف ويقول له رأيه بصراحة تامة ورقة متناهية، فلا يكون أمام المبتدئ سوى شكره من كل قلبه رغم رغبته في البكاء. لم تكن هذه حالتي. ففي اليوم غير المتوقع ألقى "خيرمان" بتعليق عن مسوداتي أعاد الحياة إلى جسدي.

اختفى "ألفارو" من مقهى جابي دون أن يترك إشارة على أنه على قيد الحياة، بعد أسبوع تقريباً عندما لم نكن ننتظره، سد طريقي بسيارته في ممر بوليفار وصرخ فيّ بأعلى صوته:

- اصعد، يا أستاذ، سأنتقم منك لقسوتك.

كانت تلك جملته المهدئة، درنا عدة دورات بوسط المركز التجاري بلا اتجاه معين وقد احترقنا من الحر الشديد، فيما كان يطلق "ألفارو" صرخات تحليلية عاطفية ولكن مدهشة عن قراءته، كنت أقاطعه كلما شاهدت أحد معارفي على أحد الأرصفة أزعق فيه بجملة رقيقة أو ساخرة، ثم يواصل هو جمله الهائجة، بصوت متموج من الجهد. شعره مشعث وعيناه زائغتان تبدوان كما لو كانتا تنظران إليّ من بين القضبان. انتهيت إلى شرب البيرة المثلجة في شرفة مقهى لوس المندروس، يحيط بنا مشجعو نادي الجونيور والأسبورتنج على الرصيف المقابل، وفي النهاية هجم علينا زحام الهاربين من الإستاد الساخط من التعادل بهدفين مقابل هدفين. وكان حكمه النهائي على مسودتي ألقى به "ألفارو" من نافذة العربة:

– على أي حال، يا أستاذ، لا زال لديك الكثير من العادية.

وأنا شاكراً تمكنت من أن أصرخ فيه:

– لكنه من الجيد الذي يمارسه "فوكنر"!

أنهى هو كل ما لم يقل ولم يذكر ببسمة رائعة:

– لا تكن ابن قحبة.

بعد خمسين عاماً مضت، في كل مرة أتذكر تلك الأمسية، أعود إلى سماع ضحكاته الخاصة التي ترددت كانهمار الحجارة في شارع مشتعل.

أصبح واضحاً أن الثلاثة أعجبتهم الرواية، مع بعض التحفظات الشخصية التي ربما تكون صحيحة، لكنهم لم يقولوا ذلك بوضوح، ربما لأنهم كانوا يعرفون أنها أداة سهلة، لم يتحدث أي منهم عن نشرها، وهذا كان أيضاً من طباعهم، لأن المهم بالنسبة لهم هو الكتابة، وما عدا ذلك فهو يخص الناشرين.

أي: كنت مرة أخرى في بارانكايتنا التي اعتدنا عليها دائماً، لكن مصيبتي كانت في هذه المرة أنني لم أكن مستعداً للإبقاء على "الزرافة"؛ لأنها أدت دورها بفرض عدة النجارة اليومية لتعلم الكتابة من الصفر، مع الإصرار على أن أكون كاتباً مختلفاً، وفي كثير من الأحيان لم أكن أستطيع التعامل مع الموضوع، فكنت أغيره بآخر عندما أنتبه إلى أنه لا يزال فضفاضاً، على أي حال، كانت تدريباً أساسياً في تشكيلي ككاتب، مع الوعي مسبقاً بأنها لم تكن أكثر من مادة مريحة للتغذية بلا أي التزام تاريخي.

البحث عن موضوع يومي كان مرارتي اليومية طوال الأشهر الأولى، فلم يكن لدي وقت لأي شيء آخر: أضيع الوقت في البحث في الصحف الأخرى، كنت أسجل حوارات خاصة، أتوه في خيالات تقلق نومي، إلى أن عادت الحياة الواقعية إليّ. في هذا المجال فإن تجربتي الأكثر سعادة كانت في مساء شاهدت خلاله من نافذة الأوتوبيس لافتة على باب أحد البيوت: "سعف جنائزي للبيع".

أول اندفاع لي كان أن أطرق الباب بحثاً عن معلومات حول ذلك، لكن خجلي تغلب عليّ. لذلك فإن الحياة علمتني أن أحد أسرار الكتابة المفيدة تعلم قراءة حروف الواقع الهيلوغريفية دون الطرق على أي باب للسؤال عن شيء. كان هذا يزداد وضوحاً عندما كنت أعيد قراءة الأربعمائة "زرافة" المنشورة في الأعوام الأخيرة، ومقارنتها ببعض النصوص الأدبية التي تسببت في وجودها.

مع أعياد الميلاد جاءت إجازات الإدارة العليا للاسبكتادور، من أول المدير العام السيد "جابرييل كانو"، وكل أبنائه: "لويس جابرييل" والمدير الإداري: "جييرمو"، ونائب المدير وقتها: "ألفونسو"، ونائب المدير الإداري "فيدل"، والأصغر والمتدرب. وجاء معهم "إدواردو ثالاميا". "أوليسيس"، الذي كانت له قيمته الخاصة بالنسبة لي لنشره قصصي ومقالته التي قدمتني، فقد اعتادوا على الاستمتاع بشكل جماعي خلال الأسبوع الأول من العام في منتجع برادو-مار، على بعد عشرة فراسخ من بارانكيا، حيث يقضون معظم وقتهم في البار، والشيء الوحيد الذي أذكره بشكل محدد من تلك الجلبة أن "أوليسيس" شخصياً كان أكبر مفاجأة في حياتي. كنت أراه كثيراً في بوجوتا، في البداية في المولينو وبعدها بسنوات في الأوتوماتيكو، وأحياناً في جلسات الأستاذ "دي جريفي". كنت أذكره بوجهه المستدير وصوته المعدني، الذي توصلت منه إلى نتيجة أنه ليس سوى سريع الغضب، في الحقيقة كانت تلك شهرتي بين قرائي في المدينة الجامعية، ولذلك فقد تجنبت عدة فرص حتى لا أشوه صورتي التي اخترعتها لاستخدامي الشخصي. أخطأت. فقد كان أحد الأشخاص الأكثر عاطفية بين الذين عرفتهم، رغم أنني أتفهم أنه كان في حاجة إلى مبرر عقلي أو قلبي خاص. ومادته الإنسانية لا علاقة لها بالسيد "رامون فينيس"، و"ألفارو موتيس" أو "ليون دي جريفي"، لكنه يشترك معهم في قدرته على خلق الأستاذية في كل ساعة، والغريب أنه قرأ كل الكتب التي كان يجب قراءتها.

أصبح لأبناء "كانو" الشباب- "لويس جابرييل" و"جييرمو" و"ألفونسو" و"فيديل"- أكثر من صديق عندما عملت محرراً في الاسبكتادور، وليس من المستحسن تذكر حوار طويل من تلك الحوارات التي كان فيها الجميع ضد الجميع في كل ليالي برادومار، لكن أيضا لا يكون مستحيلا نسيان إصرارهم غير المقبول في مرض الصحافة والأدب القاتل، فقد مارسوا معي طريقتهم كما لو كنت كاتبهم الخاص الذي اكتشفوه وتبنوه ليكون لهم فقط، لكنني لا أتذكر- مثل كل ما قيل- أن أحداً منهم طلب أن أعمل معهم. لم أندم على هذا؛ لأنه في اللحظة السيئة لم تكن لدي أدنى فكرة عن ماذا سيكون مستقبلي النهائي ولا منحوني الفرصة لاختياره.

تحمس "ألفارو موتيس" لحماس "آل كانو" وعاد إلى بارانكيا عندما كان قد تسلم عمله كرئيس لمكتب العلاقات العامة في شركة إسو كولومبيا للبترول، وحاول إقناعي بالعمل معه في بوجوتا. ولكن مهمته الحقيقية كانت أكثر درامية من هذا: بسبب خطأ مرعب نتج عن قيام المورد المحلي بملء خزانات المطار ببنزين سيارات بدلاً من بنزين الطائرات، مما يجعل من المستحيل على أي طائرة أن تذهب إلى أي مكان، ومهمة "موتيس" تدارك الخطأ في سرية تامة قبل الفجر، وقبل أن يصل النبأ إلى موظفي المطار أو يتسرب إلى الصحافة. وقام بمهمته، فقد تم تغيير البنزين في أربع ساعات قضاها في شرب الويسكي مع موظفي المطار المحلي. وكان لدينا الوقت لنتحدث عن كل شيء. لكن الموضوع المتخيل بالنسبة لي كان أن تقوم دار نشر لوسادا في بوينس أيريس بنشر روايتي التي كنت على وشك إنهائها. كان "الفارو موتيس" يعرف طريقاً مباشراً مع المدير الجديد لدار النشر في بوجوتا، "خوليو ثيسار فييجاس"، وزير سابق في حكومة البيرو، ولاجئ في كولومبيا من فترة قليلة.

لا أتذكر شحنة عاطفية أكثر قوة، فقد كانت دار نشر لوسادا واحدة من أفضل دور النشر في بوينس أيريس، ملأوا الفراغ الذي تركته الحرب الأهلية الإسبانية،

فقد كان ناشروها يغذوننا يومياً بالجديد والمفيد ولم يكن لدينا الوقت الكافي لقراءة ما تنشره. كان موزعوها يصلوننا في مواعيدهم المحددة بالكتب التي نكلفهم بها، وكنا نتلقاها كما لو كانت رسول السعادة. إن مجرد فكرة أن تقوم أي منها بنشر رواية "الورقة الجافة" كانت على وشك أن تصيبني بالانزعاج، فلم أكد أن أودع "موتيس" في طائرة ممونة بالبنزين الصحيح، حتى جريت إلى الصحيفة لمراجعة موادها بشكل كامل.

خلال الأيام التالية تفرغت لمراجعة النص الذي كان يمكن أن يضيع من بين يدي. لم يكن أكثر من مائة وعشرين ورقة بمسافة مضاعفة، لكني قمت بعمل الكثير من الإصلاحات والتغييرات والتخليقات، التي لم أعرف أبداً إن كانت أضافت إلى النص أم أساءت إليه، أعاد "خيرمان" و"ألفونسو" قراءة الآراء الأكثر حساسية وتفضلوا عليّ بعدم تقريعي، خلال هذه الحالة من الغثيان راجعت النسخة النهائية وقلبي في يدي واتخذت قراراً جاداً بعدم نشرها. في المستقبل، تحول هذا الإحساس إلى مرض، عندما أشعر بالرضا عن كتاب انتهى، يظل لدي الإحساس القاتل بأنني لا أستطيع أن أكتب أفضل منه.

اشتبه "ألفارو موتيس" في مبرر تأخري، وعاد إلى بارانكيا ليأخذ النسخة الوحيدة النهائية ويرسلها إلى بوينس أيريس دون أن يترك لي المجال لإجراء قراءة أخيرة. لم تكن هناك طابعات فوتوكوبي تجارية، ولم يكن أمامي سوى المسودة الأولى المصححة على الهوامش؛ وما بين الأسطر بحبر مختلف الألوان لتفادي الخلط، ألقيت بها إلى سلة المهملات ولم أستعد جديتي خلال أشهر طويلة تأخرت فيها الإجابة.

في يوم من الأيام سلموني في الهيرالدو رسالة كانت قد فقدت بين أوراق رئيس التحرير. كانت تحمل شعار دار نشر لوسادا في بوينس ايريس فتجمد قلبي، لكنني تمالكت نفسي حتى لا أفتحها هناك وانتظرت إلى أن أصل إلى ركني

الخاص. بفضل هذا استطعت أن أواجه وحدي وبلا شهود لخبر أن "الورقة الجافة" تم رفضها. لم أكن في حاجة إلى قراءة الأسباب كاملة؛ لأنني شعرت في هذه اللحظة ببرودة الموت.

كانت الرسالة تحمل القرار الأعلى للسيد "جييرمو دي توري" رئيس المجلس الاستشاري لدار النشر ويعتمد على مجموعة من المبررات البسيطة التي تبرر القرار. الشيء الغريب كان الاعتراف النهائي: "يجب الاعتراف بموهبة المؤلف في الملاحظة كشاعر". إلا أنني كنت لا أزال مذهولاً حتى اليوم من خجلي لمواجهة هذا الموقف.

لم أنسخ الرسالة ولم أعرف أبداً أين نصها الأصلي بعد أن مررته على أصحابي خلال أشهر في بارانكيا، الذين بحثوا عن جميع أنواع المبررات في محاولة لتعزيتي. للحق أقول إنه عندما حاولت الحصول على نسخة لتوثيق هذه المذكرات، خمسون عاماً بعد ذلك، لم يكن هناك أي أثر لدار نشر لوسادا في بوينس أيريس. ولا أذكر إن كان الخبر قد نُشر أم لا، رغم أنني لم أسعَ مطلقاً إلى هذا، لكنني أعرف أنني احتجت لوقت طويل لاستعادة توازني وكتابة أية رسالة غضب لنشرها دون إذن مني. هذه الرسالة سببت لي ألماً أكبر؛ لأن رد فعلي النهائي كان استغلال أي جزء إيجابي من القرار وتصحيح كل ما يمكن تصحيحه، طبقاً لوجهة نظري ومتابعة المسيرة.

أفضل تشجيع أخذته من رأي "خيرمان بارجاس" و"ألفونسو فوينمايز" و"ألفارو ثيبيدا"، وجدت "ألفونسو" داخل السوق العام، حيث اكتشف واحة للقراءة بعيداً عن حركة المرور التجارية، استشرته عما إذا كان عليَّ أن أترك روايتي كما كانت أم أحاول أن أعيد كتابتها في شكل آخر؛ لأنني كنت أعتقد أن النصف الثاني يفتقد إلى التركيز عن الأول، استمع إليّ "ألفونسو" بشيء من نفاذ الصبر ثم أصدر حكمه، قال لي في النهاية كمعلم حقيقي:

- انظر، يا أستاذ، "جييرمو دي توري" محترم جداً كما يعتقد هو عن نفسه، لكني لا أعتقد أنه مطلع على الرواية المعاصرة.

في أحاديث عابرة أخرى في تلك الأيام كان عزائي أن "جييرمو دي لا توري" كانت له سابقة من قبل، فقد رفض كتاب "الإقامة في الأرض" لـ"بابلو نيرودا" عام 1927. ويعتقد "ألفونسو فوينماير" أن مصير روايتي كان يمكن أن يكون أفضل لو أن من قرأها كان "خورخي لويس بورخيس"، من ناحية أخرى كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ بالنسبة لي لو أن الرفض جاء منه.

أنهى "ألفونسو" الحديث:

- لا تهتم، روايتك جيدة كما قلنا نحن، وكل ما هو عليك الآن هو أن تواصل الكتابة.

أما "خيرمان"- كان أميناً مع نفسه وطريقته- لم يحاول أن يزايد ويعتقد أن الرواية لم تكن سيئة إلى الحد الذي يمكن معه رفض نشرها في قارة تعاني فيه الرواية من أزمة، وليست ممتازة بحيث نعتبرها فضيحة دولية؛ لأنه في هذه الحالة سيكون المؤلف المبتدئ المجهول هو الخاسر الوحيد. لخص "ألفارو ثيبيدا" رأيه في "جييرمو دي لا توري" بجملة من جمله الشهيرة:

- أعتقد أن الإسبان قساة.

عندما انتبهت إلى أنني لم أكن أملك نسخة أخرى من الرواية، فقد أخبرتني دار النشر عن طريق شخص ثالث أو رابع أن من قواعدها عدم رد الأصول إلى أصحابها. لحسن الحظ أن "خوليو ثيسار بييجاس" كان قد صورها قبل إرسال نسختي إلى بوينس أيريس، فأرسلها لي. بدأت في حينه تصحيحاً جديداً تنفيذاً لنصائح الأصدقاء. حذفت فصلاً طويلاً تتأمل فيه البطلة خلال هطول الأمطار من الممر، وحولته بعد ذلك إلى قصة "مونولوج إيسابيل وهي ترى هطول الأمطار في ماكوندو". وحذفت حواراً للجد الكولونيل "أوريليانو بويندیا" قبيل المذبحة بقليل،

إضافة إلى ثلاثين صفحة كانت تعرقل شكل ومحتوى هيكل الرواية. بعد حوالي عشرين سنة، عندما اعتقدت أنني نسيتها، فإن أجزاء من تلك الفصول ساعدتني على احتمال الذكريات عندما كنت أكتب رواية "مائة عام من العزلة".

كنت على وشك التغلب على الأزمة عندما نشروا خبراً يقول إن الرواية الكولومبية التي اختارتها دار نشر لوسادا لنشرها بدلاً من روايتي هي "المسيح مولياً ظهره" لـ"إدواردو كابايرو كالدرون"، لقد كان خطأ أو تزييفاً بقصد شرير؛ لأن الأمر لم يكن متعلقاً بمسابقة بل ببرنامج دار نشر لوسادا لدخول السوق الكولومبي بمؤلفين كولومبيين، وروايتي لم ترفض في المسابقة بل أن "جييرمو دي لا توري" لم يعتبرها صالحة للنشر.

كانت الفاجعة مضاعفة بأكثر مما اعترفت به حينه، وكانت لدي الشجاعة لتحملها دون إقناع نفسي. وهكذا ذهبت لرؤية صديق طفولتي "لويس كارميلو كوريا" في مزرعة إشبيلية بمنطقة الموز- على بعد عدة فراسخ من أراكاتاكا- حيث كان يعمل في تلك السنوات مراقباً ومفتشاً ضرائبياً، قضينا يومين نستعيد فيها ذكريات طفولتنا معاً كما كنا نفعل دائماً، ذاكرته وتوقعاته وصراحته كانت كاشفة لي لدرجة أنها سببت لي رعباً حقيقياً. عندما كنا نتحدث، كان هو يصلح بعض متطلبات البيت بمعداته اليدوية، وأنا كنت أستمع إليه ممدداً في سرير معلق مستمتعاً بنسيم المزارع. "نينا سانشيث"، زوجته، كانت تصحح لنا ترهاتنا وأحداثاً نسيناها، وهي تقهقه بالمطبخ. في النهاية، أثناء نزهة بشوارع آراكاتاكا الخالية، فهمت إلى أية نقطة استعدت عافية حماسي ولم يعد لدي أدنى شك في أن "الورقة الجافة"- مرفوضة أم لا- كانت الكتاب الذي قررت أن أكتبه بعد رحلتي مع أمي.

متشجعاً بتلك التجربة ذهبت للبحث عن "رفائيل إسكالونا" في جنته بفيادوبار، محاولاً الهروب من عالمي حتى الجذور. لم يفاجئني، لأن كل ما كنت أعثر عليه،

وكل ما كان يحدث لي، وكل الناس الذين التقيتهم تبين كما لو كنت قد عشت أنا ذلك وليس أناس آخرين، وليس في حياة أخرى بل في هذه التي كنت أعيشها. بعد ذلك في إحدى رحلاتي الكثيرة تعرفت على الكولونيل "كليمنتي إسكالونا"، والد "رافائيل"، الذي أدهشني منذ اليوم الأول بوقاره وطريقة تعامله كرب عائلة على الطريقة القديمة. كان نحيفاً ومستقيماً كجذع شجرة، جلده أملس وعظامه قويه، ووقاره ليس فيه شك. منذ شبابي المبكر كنت مطارداً برعب واحترام جدي الذي أنتظر بوقاره معاش التقاعد حتى آخر أيامه. إلا أنه بعد أربع سنوات، عندما كتبت الكتاب في الفندق الباريسي القديم، فإن الصورة التي كانت في ذاكرتي دائماً ليست صورة جدي، بل كانت صورة السيد "كليمنتي إسكالونا"، كما لو كان تناسخاً فيزيقياً للكولونيل الذي لم يجد من يكاتبه.

عرفت من "رفائيل اسكالونا" أن "مانويل ثاباتا أولفايي" يقيم ويعمل طبيباً للفقراء في قرية "لاباث"، على بعد كيلومترات قليلة من فيادوبار. فذهبنا إلى هناك، وصلنا مع حلول المساء، وكان هناك شيء في الهواء يكاد يمنع عني الهواء. فذكر لي "ثاباتا" و"إسكالونا" أنه قبل عشرين يوماً فقط كانت القرية ضحية هجوم بوليسيي بذر الرعب في المنطقة كلها لفرض السيطرة الرسمية. كانت ليلة مرعبة، قتلوا بلا تمييز، وأحرقوا خمسة عشر بيتاً.

لم نعرف بحقيقة ما حدث بسبب الرقابة الصارمة. ومع ذلك لم تكن لدي الفرصة لأتخيله، "خوان لوبث". أفضل موسيقي في المنطقة، غادر القرية منذ تلك الليلة السوداء. و"بابلو"، شقيقه الأصغر، طلبنا منه أن يعزف لنا في منزله، فقال لنا ببساطة:

- لن أغنيَ أبداً بعد هذه اللحظة.

عندها عرفنا أنه ليس هو فقط، بل جميع موسيقيي القرية علقوا أكورديوناتهم وطبولهم ولن يعودوا إلى الغناء حداداً على أمواتهم. كل ذلك كان مفهوماً، وحتى

"إسكالونا" نفسه، الذي كان أستاذا للكثيرين منهم، و"ثاباتا أوليفيي"، الذي أصبح طبيب الجميع، لم يستطع إجبار أحد على الغناء.

أمام إصرارنا، حضر سكان القرية لعرض مبرراتهم، لكنهم في أعماق أنفسهم كانوا يشعرون أن الحداد لا يمكن أن يستمر أكثر من ذلك. "كما لو كانت القرية قد ماتت مع الموتى"، قالت امرأة كانت تضع وردة حمراء خلف أذنها، وأيدها الناس. لحظتها شعر "بابلو لوبث" أنه مصرح له بالغناء لخنق ألمه، ودون أن ينطق بكلمة واحدة دخل البيت وخرج بأكورديون وغنى كما لم يغن من قبل، بينما كان يغني بدأ الموسيقيون الآخرون يأتون. وفتح أحدهم الحانة التي كانت مقابلنا وقدم الكئوس على حسابه الخاص. ففتحت الدكاكين الأخرى أبوابها على مصراعيها بعد شهر من الحداد، وأُضيئت الأنوار، وغنينا جميعاً. بعد نصف ساعة كانت القرية كلها تغني، وخرج أول سكران منذ شهر إلى الساحة الخالية وبدأ يغني بصوته أغنية لـ"اسكالونا"، تكريماً له؛ لأنه أعاد الحيّاة إلى القرية.

لحسن الحظ، فإن الحياة تتواصل في بقية العالم. بعد شهرين من رفض أصول روايتي تعرفت على "خوليو ثيسار بيبجاس"، كان قد ترك دار نشر لوسادا، وعينوه ممثلاً لدار نشر "جونثالث بورتو" في كولومبيا، كانوا يبيعون الموسوعات والكتب العلمية والتقنية بالتقسيط. كان "بيبجاس" الرجل الأكثر طولاً والأكثر قوة والأكثر وداً في الحياة الواقعية، مستهلك لا يبارى للويسكي الثمين، متحدث لا يمكن تلافيه وقاص صالونات. في ليلة أول لقاء لنا في الجناح الرئاسي لفندق البرادو خرجت محملاً بحقيبة بائع كتب مسافر مملوءة بعينات من الموسوعات المرسومة والكتب الطبية وكتب القانون والهندسة الصادرة عن دار نشر "جونثالث بورتو". بعد كأس الويسكي الثاني قبل أن يحولني إلى موزع كتب بالتقسيط في مقاطعة "باديا"، من فيادوبار إلى جواخيرا. مكاسبي كانت عشرين بالمائة مقدماً، يمكنها أن تسمح لي بالحياة بلا خوف بعد دفع جميع مصروفاتي، بما فيها الفندق.

كانت هذه الرحلة التي جعلتها أنا شهيرة بسبب نقص خبرتي وعدم تبين أهدافي بوضوح زمني، الأسطورة أنني خططت للبحث عن جذوري في أرض أجدادي، متخذاً الطريق الرومانتيكي الذي سارت عليه أمي لإنقاذ عامل تلغراف آراكاتاكا. في الحقيقة فإن رحلتي لم تكن واحدة بل رحلتين قصيرتين ومشوشتين.

في الرحلة الثانية عدت فقط إلى القرى المحيطة بفيادوبار. عندما وصلت إلى هناك، بالطبع كنت مخططاً لمواصلة الطريق حتى فيلا على الطريق نفسه الذي سلكته أمي العاشقة، لكني وصلت إلى ماناوري دي لا سيرا، ولا باث، وفيانويفا، على بعد فراسخ قليلة من فيادوبار. لم أكن أعرف وقتها لا سان خوان ديل ثيسار ولا بارانكياس، التي تزوج فيها جدي وكانت مسقط رأس أمي، وحيث الكولونيل "نيكولاس ماركيز" قتل "ميدرادو باتشيكو"، ولم أعرف ريواتشا، أصل كل العائلة، حتى عام ?1984 عندما أرسل الرئيس "بيليساريو بيتانكو" من بوجوتا مجموعة من الأصدقاء المدعوين لافتتاح مناجم حديد ثيريخون. كانت رحلتي الأولى إلى جواخيرا الأسطورية التي تخيلتها في طفولتي مرات عديدة دون أن أعرفها، لكن هذا ليس لزيف ذكرياتي ولكن بسبب الهنود الذين اشتراهم جدي بمائة بيزو لكل واحد منهم للخدمة في بيت آراكاتاكا. كانت أكبر مفاجأة لي، بالطبع، رؤيتي الأولى لريواتشا، مدينة الرمل والملح التي ولد فيها أول جذر للعائلة، حيث شاهد جدي عذراء لوس ريميديوس تطفئ فرناً بنفخ الهواء البارد عندما كان الخبز على وشك الاحتراق، وحيث مارس جدي حروبه وعانى السجن لارتكابه جريمة حب، وحيث بدأت أنا كنطفة في شهر عسل أبويَّ.

في فيادوبار لم يكن لدي الوقت لبيع الكتب، سكنت في فندق ويلكوم، بيت كولونيالي جميل بالقرب من الساحة الكبيرة، كانت فيه أشجار نخيل بطول الفناء الريفي بطاولات وبار وأسِرَّة كاريبية معلقة في حلقات. "فيكتور كوهين"، صاحب الفندق، كان يراقب من مكمنه البيت كله، بطريقته الأخلاقية التي تهدد الغرباء،

فقد كان أيضاً بيروتانياً لغوياً فكان يقرأ "ثربانتيس" من الذاكرة، وكان يشكك في أخلاقيات "جارثيا لوركا". أقمت معه علاقات صداقة لحفظه أشعار "أندريس بيو"، وحفظه أيضاً الرومانتيكيين الكولومبيين، ولم نكن على وفاق لرفضه تحطيم القواعد الأخلاقية لمناخ الفندق. بدا كل هذا بطريقة سهلة جداً؛ لأنه كان الصديق القديم لعمي "خوان دي ديوس"، وكان سعيداً جداً باستعادة ذكرياته معه.

كنت أقرأ خلال الساعات الكثيرة التي كنت لا أعمل فيها مستقلياً في سرير معلق تحت حر الظهر. خلال أيام الجوع قرأت في كتب الجراحة وحتى نصوص تعليم المحاسبة دون أن أفكر في أنها قد تنفعني في مغامرتي ككاتب. كان العمل وقتياً تقريباً؛ لأن معظم الزبائن كانوا يمرون بطريقة أو أخرى بفناء "آل أجواران" و"لوس كوتيس"، وكان يكفيني زيارة واحدة تطول حتى ساعة تناول الغداء بحجة أشغال عائلية. بعضهم كان يوقع على التعاقد دون أن يقرأه ليكون مع العائلة على موعد الغداء تحت ظلال الأكورديون، ما بين فيادوبار ولا باث استطعت تخيل أكبر قدر ممكن خلال أسبوع واحد، وعدت إلى بارانكيا بحماس؛ لأنه المكان الوحيد في العالم الذي كنت أفهمه.

في 13يونيو في ساعة مبكرة كنت في الأوتوبيس في طريقي لا أعرف إلى أين عندما علمت أن القوات المسلحة تولت السلطة في بوجوتا بعد الفوضى التي عمت الحكومة والبلاد كلها. في 6سبتمبر للعام السابق قامت جماعة محافظة يدعمها البوليس بملابسه الرسمية فأحرقوا مباني صحيفتي: التيمبو والاسبكتادور بمدينة بوجوتا، الصحيفتان الأكثر أهمية في البلاد، وهاجموا مقار إقامة الرئيس السابق "ألفونسو لوبث بمواريخو" و"كارلوس بيراس ريستريبو"، رئيس الحزب الليبرالي. وهذا الأخير، المعروف عنه بأنه سياسي عنيد، وصل إلى حد تبادل إطلاق النار مع المهاجمين، لكن أُجبر في النهاية على الهرب عبر سطح البيت المجاور. أصبح العنف الرسمي الذي كان يسيطر على البلاد منذ 9إبريل غير محتمل.

إلى فجر يوم 13 يونيو، عندما قام الجنرال "جوستافو روخاس بينيا" بإخراج القائم بأعمال الرئيس "روبرتو أوردانيتا أربيلايث" من القصر الرئاسي، فحاول الرئيس الفعلي "لاوريانو جوميث" تولي السلطة من كرسيه المتحرك وأن يقوم بانقلاب ضد نفسه، وتولي الحكم للخمسة عشر شهراً التي بقيت له طبقاً للدستور. لكن" روخاس بينيا" وقيادة الجيش العليا جاءوا إلى السلطة ليبقوا.

الدعم الوطني كان سريعاً وجماعياً خلال الجمعية العامة التي منحت الانقلاب شرعيته. وتسلم الجنرال "روخاس بينيا" السلطات للفترة المتبقية من الرئاسة وحتى أغسطس للعام التالي، أما "لاوريانو جوميث" فقد سافر مع أسرته إلى بني دورم على الشاطئ الإسباني، تاركاً من ورائه الأمل في أن زمنه العنيف قد ولى. نادى الزعماء الليبراليون بالوحدة الوطنية، وكانت الصورة الأكثر تعبيراً التي نشرتها الصحف في الأيام التالية لليبراليين يتقدمون مغنين أغنية العرس تحت شرفة القصر الرئاسي. تقدم هذه المظاهرة "روبرتو جارثيا بينيا" مدير التيمبو وأحد أهم معارضي النظام المنهار.

على أي حال، فإن الصورة الأكثر إثارة في تلك الأيام كانت طوابير المحاربين الليبراليين وهم يسلمون أسلحتهم في السهول الشرقية، حيث كان يقودهم "جوادالوبي سالثيدو"، الذي كانت صورته كلص مطارد قد حفرت مكانها في أعماق قلوب الكولومبيين ضحايا العنف الرسمي. كان جيلاً جديداً من المقاتلين ضد النظام المحافظ، ينتمون بطريقة أو أخرى إلى بقايا حرب الألف يوم، كانت لهم علاقات سرية بالزعماء الليبراليين.

كان على رأسهم "جوادالوبي سالثيدو" الذي نشرت له صورة أسطورية على جميع مستويات البلاد. ربما لهذا- بعد سبع سنوات من تمرده- اغتالته قوات الشرطة في مكان ما من بوجوتا، لم يتم الإعلان عنه أبداً ولا تم إعلان ملابسات اغتياله.

التاريخ الرسمي 6 يونيو1977 والجسد المسجى في حفل جنائزي مهيب في قبو بالمقبرة المركزية في بوجوتا وبحضور عدد من السياسيين المعروفين. فقد حافظ "جوادالوبي سالثيدو" من معسكراته الحربية على علاقات ليس فقط سياسية بل واجتماعية مع الزعماء الليبراليين المطاردين. إلا أنه كانت هناك على الأقل ثماني روايات مختلفة عن موته، وبعضها لا يصدق، وهناك من لا يزال يتساءل عما إذا كانت هذه الجثة جثته، وإن كان حقيقة تلك الجثة التي تم وضعها في المقبرة له.

في ظل هذه الأحوال بدأت رحلتي الثانية إلى المقاطعة، بعد أن أكدت مع "بيجاس" أن كل شيء منتظم، تماماً كالمرة السابقة، قمت بعمليات بيع سريعة في فيادوبار مع زبائن لديهم قناعة مسبقة. وذهبت مع "رفائيل إسكالونا" و"بانتشو كوتيس" إلى فيانويفا، ولا باث، وباتيال، ومانوري دي لا سيرا لزيارة أطباء بيطريين ومهندسين زراعيين. بعضهم تحدث مع مشترين خلال رحلتي السابقة وكانوا ينتظرون بطلبات شراء خاصة. وأية ساعة كانت صالحة لإقامة الحفل مع الزبائن أنفسهم، ونظل حتى الصباح نغني مع الأكورديونات الكبرى دون إيقاف وعود أو دفع قروض عاجلة؛ لأن الحياة اليومية تتواصل برتابتها الطبيعية على نار التسلية. كنا في فيانويفا مع عازف أكورديون وآخرين يدقان على الصندوق، يبدو أنهما كانا حفيدي أحد المغنين الذين كنا نسمعهم في طفولتنا في آراكاتاكا. وبهذه الطريقة فإن ما كان إدماناً طفولياً انكشف خلال هذه الرحلة كمهنة غير متوقعة رافقتني إلى الأبد.

تعرفت في هذه المرة وفي قلب الجبل على قرية رائعة وهادئة وتاريخية في العائلة؛ لأنهم أخذوا أمي إلى هناك لقضاء بعض الوقت للنقاهة عندما كانت طفلة، لإصابتها بحمى لم تقبل أي نوع من أنواع الدواء. كنت سمعت الحديث عن مانوري كثيراً وعن أمسياتها في مايو وصومها الطبي، لدرجة أنني عندما كنت فيها للمرة الأولى تذكرتها كما لو كنت تعرفت عليها في حياتي السابقة.

كنا نشرب البيرة المثلجة في الكانتين الوحيد للقرية عندما اقترب من طاولتنا رجل كان يبدو كشجرة، بملابس الركوب وحزام مسدسات حرب. قدمنا "رفائيل إسكالونا" لبعضنا، وبقي هو ناظراً في عيني، بينما كانت يدي في يده، وسألني:

– هل لك علاقة بالكولونيل "نيكولاس ماركيز"؟

قلت له:

– أنا حفيده.

فقال لي:

– إذن، جدك قتل جدي.

أي أنه كان حفيد "ميدرادو باتشيكو"، الرجل الذي قتله جدي في مزرعة ليد، لم يكن لدي الوقت لأصاب بالرعب، لأنه قالها بطريقة حميمة، كما لو كانت أيضاً طريقة تعبر عن القرابة، ظللنا في السهرة معه خلال ثلاثة أيام وثلاث ليال في شاحنته ذات الأرضيتين، كنا نشرب البراندي الساخن ونأكل لحم الماعز المطبوخ في ذكرى الجدين، مضت أيام عديدة قبل أن يعترف لي بالحقيقة: اتفق مع "إسكالونا" لإثارة الرعب في قلبي، ولكنه لم يكن قادراً على الاستمرار في نكتة الجدين الميتين. كان اسمه في الحقيقة "خوسيه برودنثيو أجيلار"، وكان يمارس التهريب كمهنة وفن، وله قلب طيب. في ذكراه عمدت اسمه وأطلقته على منافس "خوسيه أركاديو بوينديا" الذي قتله بطعنة حربة في حظيرة في رواية "مائة عام من العزلة".

السيئ في هذه الرحلة ذات الذكريات، أنه في نهايتها لم تكن الكتب المباعة قد وصلت والتي بدونها ما كان يمكنني أن أحصّل مقدم ثمنها، بقيت بلا أي سنتيم وعداد الفندق كان أسرع من ليالي الساهرة. وبدأ "فيكتور كوهين" يفقد صبره القليل الذي بقي، والشيء الوحيد الذي أعاد لي بعض السحر كانت قصص الحب التي أقمتها في "حق الميلاد" للسيد "فيليكس كايجنيت". والتي أعاد رواجها الشعبي الحيوية إلى رحلاتي مع الأدب البكائي. والقراءة غير المتوقعة لرواية

"العجوز والبحر" لـ"هيمنجواي"، ثم جاءت مجلة "لايف باللغة الإسبانية" بشكل فجائي لتعيد إصلاح ما فسد.

مع البريد نفسه وصلت شحنة كتب كان يجب تسليمها لأصحابها وتحصيل مقدم ثمنها، دفعوا جميعاً في مواعيدهم، لكني كنت مديناً للفندق بأكثر من ضعف ما كسبته، وحذرني "بييجاس" أنني لن أحصل على سنتيم واحد قبل مرور ثلاثة أسابيع أخرى. تحدثت مع "فيكتور كوهين" بجدية وقبل هو إيصالاً بضامن. وبما أن "إسكالونا" ومجموعته لم يكونوا في متناول اليد، فقد وقع صديق على الإيصال كرد جميل دون التزام، فقط لأن قصة أعجبته كانت منشورة في كرونيكا، إلا أنه عندما حانت ساعة الجد لم يتطوع لدفع الدين.

تحول الإيصال إلى ورقة تاريخية فيما بعد عندما كان "فيكتور كوهين" يعرضه أمام زائريه، ليس كوثيقة اتهام بل كجائزة. آخر مرة رأيته فيها كان عمره حوالي المائة عام، وكان لا يزال متورداً وحاضر البديهة، وسخريته لا تزال على حالها. خلال تعميد ابن صديقتي "أراوخونوجيرا"، الذي كنت أنا عرابه، شاهدت الإيصال غير المدفوع بعد خمسين سنة تقريباً. عرضه "فيكتور كوهين" على جميع من أرادوا رؤيته، بطريقته الساحرة المعتادة. فاجأتني عنايته بالوثيقة المكتوبة بخط يده، وقوة الرغبة في الدفع التي يمكن تبينها من توقيعي. احتفل "فيكتور" بالإيصال في تلك الليلة بالرقص برشاقة كما لم يفعل أحد من قبل. وفي النهاية، شكرني كثير من الأصدقاء على عدم دفع الدين في موعده؛ لأن هذا الإيصال كان سبباً في تلك الليلة التي لا تُنسى.

سحر جاذبية الدكتور "بييجاس" لا تزال تقدم المزيد، ولكن ليس بالكتب، إذ ليس من الممكن نسيان أستاذيته في محاورة المقترضين والسهولة التي كانوا يتفهمون بها مبرراته حتى لا يدفع في الوقت المحدد. أكثر موضوعاته جاذبية في ذلك الوقت له علاقة برواية "أغلقوا الطرق" للكاتبة البارانكية "أولجا سالثيدو

ميدينا"، التي تسببت في حركة غير عادية اجتماعية أكثر منها أدبية، لكنها كانت سابقة عهدها في المنطقة. كانت مدعومة بالنجاح الذي حققته رواية "الحق في الميلاد" التي تابعتها باهتمام متزايد خلال شهر، فكرت وقتها أننا كنا أمام حالة شعبية لم نستطع نحن الكُتَّاب تجاهلها. دون أن نذكر حتى الدين الذي ندين به لـ"بييجاس" عند عودتي من فيادوبار، وعرض عليّ هو أن أكتب لها إعداداً إذاعيا ماكراً لزيادة روادها المتعلقين بدراما "فيلكس ب. كايجنت".

قمت بعمل الإعداد ليذاع في الإذاعة خلال أسبوعين أغلقت فيهما الباب على نفسي، فاكتشفت خلالهما أكثر مما كنت أتوقع، باتخاذ حوارات ودرجة تركيز ومواقف وأزمنة سريعة لا تشبه شيئاً كتبته من قبل. لعدم خبرتي في الحوارات- التي لا تزال بعيداً عن أن تكون من نقاط قوتي- كانت التجربة قيمة. مع ذلك، فأنا لم أشكُ من هذا؛ لأن "بييجاس" منحني مقدماً ووعدني بإلغاء الدين السابق من أول دخل من الكتابة الإذاعية.

تم التسجيل في إذاعة أتلانتكو، بأفضل توزيع إقليمي ممكن وأخرجها بلا خبرة ولا إلهام "بييجاس" نفسه. وكراوٍ عرضوا على "خيرمان بارجاس" القيام بالدور، باعتباره مذيعاً مختلفاً بصوته وحسمه ورنته في الإذاعة المحلية. أول مفاجأة كبيرة كانت أن "خيرمان" قبل العرض، والثانية أنه مع التجربة الأولى رأى أنه ليس الأفضل. فقرر "بييجاس" أن يتولى بنفسه دور الراوي بنغمة صوته الإنديزية، فانتهى إلى تشويه تلك المغامرة غير المحسوبة.

انتهت الرواية الإذاعية دون نتائج إيجابية تذكر، ولكنها كانت تجربة رائعة لتطلعاتي التي لا تنتهي لممارسة أية نوعية من الكتابة. حضرت التسجيل، الذي تم مباشرة على أسطوانة بإبرة حفارة تترك ذرات سوداء ومضيئة، لا تكاد ترى، كما لو كانت بصل ملائكة، كنت آخذ كل ليلة حفنة أوزعها على أصدقائي كهدايا غريبة، ما بين الأخطاء والتقطيع واللصقات التي لا يمكن حكيها، أذيعت الرواية الإذاعية في موعدها من خلال حفل كبير من إبداع خبير في الدعاية.

لم يستطع أحد أن يختلق مبرراً ليقول لي إن الرواية أعجبته، لكني حصلت على جمهور كبير ودعاية كافية لإنقاذ ماء الوجه. بالنسبة لي، لحسن الحظ، فقد حصلت على بريق في نوع أعتقد أنه منطلق إلى آفاق واسعة. إعجابي بـ"فيلكس ب. كايجنت" وصل إلى حد أن طلبت منه مقابلة خاصة بعدها بعشر سنوات، عندما عشت بضعة أشهر في هافانا كمحرر للوكالة الكوبية "برنسا لاتينا". ولكن رغم من كل أنواع المبررات فقد رفض تماماً أن نلتقي، وفقط بقي لي منه درس رائع قرأته في إحدى مقابلاته الصحافية قال: "الناس تريد أن تبكي دائماً: والشيء الوحيد الذي أفعله هو أن أقدم لهم السبب". سحر "بييجاس"، من ناحيته، لم يتقدم بأكثر من هذا. فقد تعقدت الأمور أيضاً مع دار نشر "جونثالث بورتو"- كما حدث من قبل مع لوسادا- ولم تكن هناك طريقة لتصفية حساباتنا الأخيرة، لأنه ترك أحلام عظمته وعاد إلى بلاده.

أخرج لي "ألفارو ثيبيدا" من درجه فكرة قديمة لتحويل الناسيونال إلى صحيفة حديثة على الطريقة التي تعلمها في الولايات المتحدة، حتى هذه اللحظة بعيداً عن المشاركة في كرونيكا والتي كانت أدبية، أتيحت له الفرصة فقط لممارسة الصحافة المضغوطة في جامعة كولومبيا والقصاصات التي كان يرسلها من ميسوري. في النهاية، في عام 1953 اتصل بصديقنا "خوليان دافيس اتشانديا"، الذي كان أول رئيس لـ"ألفارو" ليتولى إدارة الناسيونال، وكان "ألفارو" نفسه قد قدم له مشروعات كبرى بمجرد عودته من نيويورك، لكن ما إن حصل على المال حتى اتصل بي كي أساعده دون درجة معينة ولا واجبات محددة. ولكن مع أول راتب مقدم استطعت أن أعيش دون أن أحصل عليه كاملاً.

كانت مغامرة قاتلة، وضع "ألفارو" الخطة كاملة بنماذج من الولايات المتحدة، كما الله في عليائه، وبقي لـ"دافيس اتشانديا"، بطل الصحافة المحلية المثيرة، الرجل الأكثر غموضاً من بين من عرفتهم في حياتي. طيب بالميلاد وأكثر حساسية

وتفهماً، وباقي هيئة التحرير كانوا من كبار الصحافيين لهم حصيلة كبيرة، كلهم أصدقاء فيما بينهم، وزملاء خلال سنوات طويلة، نظرياً، لكل منهم دائرة نشاطه المحددة. ولكن بعيداً عن تلك الدوائر لم يعرف أحد أبداً من فعل ماذا، ليبقى الجهد التقني في النهاية دون أن يتمكن من تخطي الخطوة الأولى. الأعداد القليلة التي تمكنت من الصدور كانت نتيجة عمل بطولي ولكن لم يعرف أحد من كان وراءها. ساعة الدخول إلى الصحافة كانت الألواح سهلة، وكانت المواد العاجلة تختفي فيما نصاب نحن بالجنون. لا أذكر أن الصحيفة خرجت في موعدها ولا مرة واحدة، ودون نواقص، بسبب الشياطين الساكنة في الورش، لم يعرف أحد أبداً ما حدث، والمبررات التي قيلت ربما كانت الأقل شراً: بعض قدامى المحنكين لم يحتملوا المناخ المجدد فتضامنوا مع زملائهم وتمكنوا من إفشال المشروع.

ذهب "ألفارو" دون استئذان، وأنا كان لدي عقد عمل يمكنه أن يكون ضماناً في الحالات العادية ولكنه في هذه الحالة كان كما لو كان قميص السجن، كنت متشوقاً لعمل شيء في الوقت الضائع فحاولت تركيب الماكينات بأي شيء يصلح للنشر، نشرت مقاطع من "البيت"، وسخرية "فوكنر" في "ضوء في أغسطس"، ومطر الطيور الميتة لـ"ناثنييل هاوثورت"، وبعض القصص البوليسية التي كانت تصيبني بالغثيان لتكرارها، وبعض الحكايات التي تبقت لي من رحلتي مع أمي إلى آراكاتاكا، تركتها تنساب على هواها في مكتبي العقيم، حيث لم يبق لي أكثر من الطاولة والآلة الكاتبة لأكتب حتى آخر نفس، وحتى أصل إلى العنوان النهائي: "يوم بعد السبت". قصة أخرى من القصص القليلة التي كنت راضياً عنها من أول مسودة.

هجم عليّ في الناسيونال بائع ساعات نبضية متجول. لم تكن لدي ساعة أبداً لأسباب واضحة خلال تلك السنوات، والساعة التي عرضها عليّ كانت باهظة الثمن وضخمة، اعترف لي البائع أنه عضو في الحزب الشيوعي وأنه مكلف ببيع الساعات كطعم لاصطياد أعضاء جدد.

وقال لي:

- تماماً كشراء الثورة بالتقسيط.

أجبته بأدب:

- الفارق أنك تعطيني الساعة على الفور أما الثورة فلا.

لم يقبل البائع النكتة وانتهى ببيعي ساعة أكثر رخصاً، اشتريتها ترضية له وبنظام التقسيط المريح؛ وكان يأتي بنفسه لتحصيلها كل شهر. كانت الساعة الأولى التي حصلت عليها، مضبوطة ولا أزال أحتفظ بها كأثر لتلك الأيام.

عاد "ألفارو موتيس" في تلك الأيام بخبر رائع وميزانية لإقامة مؤسسة ثقافية والظهور القريب لمجلة "لالمبرا"، المتحدث الأدبي باسمها، وإزاء طلبه أن أتعاون معه عرضت عليه مشروعاً عاجلاً: كتابة أسطورة "لا سييربي". فكرت أنه إذا كنت أريد أن أحكيها في يوم من الأيام فلا يجب أن يكون ذلك عن طريق أية رؤية ضيقة بل استعادتها من الخيال الجمعي كما كانت: حقيقة جغرافية تاريخية. أي- أخيراً- تحقيق صحافي كبير.

قال لي "موتيس":

- افعل ما تريد، ولكن اكتبه بالنبرة والمناخ المناسبين اللذين نبحث عنهما للمجلة.

وعدته أن أقدمه له بعد أسبوعين، وقبل أن يذهب اتصل بمكتبه في بوجوتا وأمر بدفع مبلغ مقدماً، وصل الشيك بالبريد بعد أسبوع وتركني مقطوع الأنفاس، بل وأكثر من هذا أنه عندما ذهبت لتحصيله فإن مظهري أقلق صراف البنك، فأخذوني إلى مكتب أعلى، حيث التقيت المدير اللطيف جداً أكثر من اللازم، وسألني أين أعمل، فقلت في الهيرالدو كما تعودت وإن كنت في هذه اللحظة لا أعمل، فحص المدير الشيك في مكتبه، ونظر إليه بشيء من الشك المهني وأصدر حكمه في النهاية:

- إنه شيك لا غبار عليه.

في المساء نفسه، بينما بدأت في كتابة "لاسييربي"، طلبوني لمكالمة في البنك، فكرت أن الشيك مشكوك فيه بأي من المبررات التي لا تُحصى ولا تُعد في كولومبيا. ما كدت أبتلع ريقي حتى قام موظف البنك على الطريقة الإندينية اللعينة، بتقديم اعتذاراته بأنه لم يكن يعرف أن الصعلوك الذي جاء لتحصيل الشيك ليس سوى مؤلف "الزرافة".

عاد "موتيس" مرة أخرى مع نهاية العام، فما كاد يتذوق الإفطار ليساعدني على التفكير بطريقة ثابتة وللأبد حتى أستريح، فإذا كانت الحلوى أفضل فقد أعلن لـ"آل كانو" أنني مستعد للعمل في الاسبكتادور، برغم أن فكرة الذهاب إلى بوجوتا كنت تقلقني، لكن "ألفارو" لا يتركني أستريح عندما يتعلق الأمر بمساعدة صديق، وقال لي:

– فلنفعل شيئاً، سأرسل لك تذاكر السفر لتسافر عندما تريد ولنرَ ما الذي سيحدث لنا؟!

كان أكثر من أن أقول لا، لكنني كنت واثقاً من أن آخر طائرة في حياتي كانت تلك التي أخرجتني من بوجوتا، بعد 9إبريل. إضافة إلى إن الرواية الإذاعية القليلة، ونشر الفصل الأول من "لا سييربي" في مجلة "لاالمبرا" لا يصلح أي مبرر حتى لا أرسل إنقاذاً للعائلة في كارتاخينا، لذلك قاومت مرة أخرى فكرة الرحيل إلى بوجوتا.

"ألفارو ثيبيدا" و"خيرمان" و"ألفونسو" ومعظم أصدقائي في مقهى جابي ومقهى روما حدثوني بكلمات جميلة عن "لا سييربي" عندما نشرت في "لاالمبرا" الفصل الأول، ووافقوا على أن الشكل المباشر للتحقيق الصحافي كان على الحدود الخطرة التي لا يمكن سوى تصديقه. "الفونسو"، بطريقته ما بين السخرية والجدية، قال لي وقتها شيئاً لا أستطيع نسيانه أبداً: "الصدق يا عزيزي يتوقف كثيراً على شكل الوجه الذي يضعه الواحد منا عندما يحكي"، كنت على وشك أن

أخبره عن عروض العمل مع "ألفارو موتيس"، لكني لم أجرؤ، وأعرف اليوم أنه كان خوفاً من موافقتهم. عاد "موتيس" لطلبه عدة مرات، حتى بعد أن حجز لي مقعداً على الطائرة، وقمت بإلغائه في آخر لحظة، وأقسم أنه لا يقوم بعمل أشياء قد تبدو خفية للاسبكتادور ولا من أجل أية وسيلة مكتوبة أخرى، وأن هدفه النهائي الوحيد- أصر حتى النهاية- هو الحديث حول مجموعة من التعاون الثابت مع المجلة؛ وبحث بعض التفاصيل التقنية عن السلسلة الكاملة لتحقيق "لا سييربي" الذي كان فصله الثاني على وشك الظهور. كان "ألفارو موتيس" يبدي ثقة من أن هذه النوعية من التحقيقات يمكنها أن تقضي على العاداتية في أرضها، مع كل الأسباب التي عرضها عليّ وقتها، كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أفكر.

في يوم ثلاثاء ممطر انتبهت إلى أنني لا أستطيع الذهاب حتى لو كنت أريد؛ لأنني لم أكن أمتلك ملابس أكثر من قمصان الرقص. في السادسة مساء لم أعثر على أحد في مكتبة موندو، فوقفت أنتظر على الباب، غارقاً في دموعي من الغروب الحزين الذي بدأ يحدث لي. في الرصيف المقابل كانت هناك واجهة عرض لملابس رسمية لم أشاهدها في حياتي أبدا، رغم أنها كانت هناك منذ الأبد، ودون تفكير عبرت شارع سان بلاس تحت رماد المطر، ودخلت- بخطوات واثقة- أغلى محل بالمدينة، اشتريت بدلة كهنوتية من القطيفة الزرقاء للاستخدام الليلي، تصلح تماماً لبوجوتا في تلك الأيام، وقميصين بيضاوين بياقة مقواة ورباط عنق مخطط بزاوية وحذاء، التي وضعها كموضة "خوسيه موخيكا" قبل أن يتحول إلى قديس. ولم أقل لأحد أنني ذاهب سوى لـ"خيرمان" و"ألفارو" و"ألفونسو"، الذين وافقوني كقرار جاد بشرط ألا أعود للنظر إلى الخلف.

احتفلنا بالقرار في"الرجل الثالث" بحضور المجموعة بكاملها، كحفل متقدم لعيد ميلادي المقبل، لأن "خيرمان بارجاس" الذي كان الحارس القدسي، أعلن أنه في

مـارس القادم سـأكمل عـامي الـسـابع والـعشـرين، من بـين الـتـمنيات الـطيبـة 6 لأصدقـائي الكبار، شعرت أنـني على اسـتعداد لأكل الثلاثة والسبعين الباقية لي حتى أكمل مائة عام.

(8)

اتصل بي "جييرمو كانو" مدير تحرير صحيفة الاسبكتادور تليفونياً عندما علم أنني في مكتب "الفارو موتيس"، أربعة طوابق أعلى من طابقه، في مبنى حديث البناء على بعد خمسة شوارع من مقره القديم. كنت قد وصلت قبلها بقليل وأستعد لتناول الغداء مع مجموعة من أصدقائي، لكن "جييرمو" أصرّ على أن نمر لتحيته أولاً. وقمنا بذلك، بعد العناق الحميم على طريقة سكان العاصمة، وبعض التعليقات على أنباء اليوم، أمسك بذراعي وتنحى بي جانباً بعيداً عن الزملاء المحررين، وقال لي ببراءة لا شك فيها: "اسمعني يا "جابرييل"، لم لا تقدم لي خدمة وتكتب مقالة افتتاحية تنقصني لإغلاق طبعة الصحيفة اليوم؟" وأشار بإصبعه الكبير والسبابة بحجم نصف كوب، وأنهى كلامه:

- بهذا الحجم.

المثير أنني سألته عن المكان الذي يمكنني الجلوس فيه، أشار إلى مكتب خالٍ وعليه آلة كاتبة قديمة. جلست إلى المكتب دون طرح أية أسئلة أخرى، مفكراً في موضوع جيد يصلح لهم، وظللت جالساً على هذا الكرسي، وأمام الطاولة نفسها وبالآلة الكاتبة نفسها خلال الثمانية عشر شهراً التالية.

بعد دقائق قليلة من وصولي خرج من المكتب المجاور لـ"ادواردو ثالاميا بوردا"، نائب المدير غارقاً في التفكير وبين يديه لفة من الأوراق. أفزعته رؤيتي، وزعق باسمي الذي اخترعه لي في بارانكيا كبديل لاسم "جابيتو" والذي كان يستخدمه هو فقط. ولكن هذه المرة عممه في صالة التحرير وظلوا يستخدمون كتابة: "جابو".

لا أتذكر موضوع المقال الافتتاحي الذي كلفني به "جييرمو كانو"، لكنني كنت

أعرف جيداً الأسلوب العائلي في الكتابة في الاسبكتادور منذ عملي في الناسيونال. وبشكل خاص ركن "من يوم ليوم" في صفحة الافتتاحية، التي كانت تتمتع بشهرة مستحقة، وقررت تقليد هذا الأسلوب بالدم البارد الذي كانت تواجه به "لويسا سانتياجو" شياطين العقبات. انتهيت من المقالة في نصف ساعة، ثم قمت بإجراء بعض التصحيحات بيدي وسلمتها لـ"جييرمو كانو"، الذي قرأها واقفاً من أعلى إطار نظارة قصر النظر. تركيزه كان يبدو خاصاً به، لكنه كان من مميزات العائلة كلها، منذ "فيديل كانو" مؤسس الصحيفة في عام 1887 وتواصلاً بشقيقه "لويس" وتمكنت في ابنه "جابرييل"، وتلقى الدم الناضج حفيده "جييرمو"، الذي تسلم منصبه كمدير عام وهو في الثالثة والعشرين. تماماً كما فعل سابقوه، وضع بعض التصحيحات السريعة لتجنب شكوك صغيرة، ثم أنهاها باسمي المبسط الجديد:

– حسن جداً يا "جابو".

في ليلة عودتي انتبهت إلى أن بوجوتا لم تعد كما كانت من قبل بالنسبة لي طالما ظلت ذكرياتي قائمة. تماماً مثل كل كوارث الوطن الكبرى فإن يوم 9 إبريل عمل على النسيان أكثر من بحثه عن مكان له في التاريخ، تم تدمير فندق جرانادا بحديقته، وأقيم مكانه مبنى أبيض جديد لبنك الجمهورية. وشوارع سنواتنا القديمة لا تشبه شيئاً فيما كانت من قبل سوى تراماتها المضيئة، وفقدت الناصية التي وقعت فيها الجريمة التاريخية عظمتها بالفراغات الكبرى التي تركتها الحرائق. "نعم تبدو الآن مدينة كبرى"، قال أحد مرافقينا مندهشاً. وانتهى بتمزيق روحي بالجملة الطقسية:

– يجب أن نشكر إبريل الجديد.

من ناحية أخرى، لم أكن أبداً في أفضل حالاتي كما كنت في البنسيون مجهول الاسم الذي وضعني فيه "الفارو موتيس". بيت مجّمل بالكارثة قريب من

الحديقة الوطنية، التي حاولت فيها التغلب على حسدي لسكان الغرفة المجاورة الذين كانوا يمارسون الحب كما لو كانت حرباً بهيجة. وفي اليوم التالي، عندما شاهدتهما يخرجان لم أصدق أنهما كانا هما: طفلة ضامرة ترتدي ملابس ملجأ الأيتام الحكومي ورجل متقدم في السن، مفضض وطوله متران، يمكن أن يكون جدها. اعتقدت أنني أخطأت، لكنهما توليا تأكيده في كل الليالي التالية بصرخاتهما حتى الفجر.

نشرت صحيفة الاسبكتادور مقالتي في صفحة الافتتاحية وفي أبرز مكان. أمضيت فترة الصباح متجولاً بين كبريات المخازن لشراء الملابس التي فرضها عليَّ "موتيس" بلكنته الإنجليزية الطنانة ليسلي الباعة. تناولنا الغداء مع "جونثالو مايارينو" وعدد آخر من الكُتاب الشبان المدعوين لتقديمي للمجتمع. لم أعد لمعرفة أي شيء عن "جييرمو كانو" حتى ثلاثة أيام بعدها، عندما اتصل بي هاتفياً في مكتب "موتيس".

قال لي بجفاء مصطنع لمديرٍ يتولى الرئاسة:

– اسمع يا "جابو"، ما الذي حدث لك؟ أغلقنا طبعة الصحيفة أمس في وقت متأخر بانتظار مقالتك.

نزلت إلى صالة التحرير لكي أتحدث معه، وحتى هذه اللحظة لم أفهم كيف أنني واصلت كتابة المقالات بلا توقيع كل مساء طوال أكثر من أسبوع، دون أن يحدثني أحد عن وظيفة أو راتب. كان المحررون في حوارات المقهى خلال فترات الراحة يتعاملون معي كواحد منهم. وهو ما كان حقيقة دون أن أتخيل إلى أي حد كان ذلك.

ركن "من يوم ليوم" الذي لم يكن يحمل توقيعاً أبداً، كان يضع "جييرمو كانو" دائماً في مقدمته مقالة سياسية. طبقاً لنظام وضعته إدارة التحرير، وبعدها مقالة ذات موضوع حر لـ"جونثالو جونثالث"، الذي كان يكتب أيضاً الركن الأكثر شهرة وذكاء في الصحيفة "أسئلة وإجابات"، التي كان يجيب فيها على أسئلة القراء

مستخدماً الاسم المستعار"جوج"، ليس مأخوذاً من "جيوفاني بابيني" بل من اسمه هو شخصياً، وبعدها ينشرون مقالاتي، وفي أحيانٍ قليلة جداً ينشرون مقالات خاصة لـ"ادواردو ثالاميا"، الذي يحتل يوميا أفضل مكان في صفحة الافتتاحية- المدينة والعالم"- موقعة بالاسم المستعار "اوليسيس"، ليس متخذاً من" هوميروس -كما كان يقول دائماً- بل مستعاراً من "جيمس جويس".

كان على "الفارو موتيس" أن يقوم برحلة إلى بويرتو برنثيبي خلال الأيام الأولى من العام الجديد، ودعاني لمرافقته، كانت هاييتي وقتها وطن أحلامي بعد أن قرأت "مملكة هذا العالم" لـ"اليخو كاربنتيير". لكني لم أكن قد أجبت "الفارو" حتى يوم 18 فبراير، عندما كتبت مقالة عن الملكة الأم البريطانية الضائعة في عزلتها بقصر بيكنجهام الضخم. لفت نظري أنهم نشروه في مكان ركن "من يوم ليوم"، وأنه وجد صدى طيباً في مكاتبنا، في تلك الليلة، في حفل قليل الحضور في بيت مدير التحرير "خوسيه سالاجار"، قال "ادواردو ثالاميا" تعليقا أكثر حماسة. وقال لي أحد الحاضرين أنه بعد هذا التعليق تحدثوا عن أن تقدم لي الإدارة عرضاً رسمياً لعمل ثابت.

في اليوم التالي مبكراً طلبني "الفارو موتيس" بمكتبه ليعلن لي النبأ الحزين بأن رحلة هاييتي قد أُلغيت. وما لم يقله لي هو أنه قرر إلغاء الرحلة خلال حوار عابر مع "جييرمو كانو"، الذي طلب منه هذا الأخير أن يرافقه إلى بويرتو برينثيبي، وأراد "الفارو" الذي لم يكن يعرف هاييتي أن يعرف السبب، فقال له "جييرمو": "عندما تعرفه ستفهم أن هذه الرحلة التي يحبها "جابو" أكثر من أي شيء في العالم". أنهى الأمسية بضربة معلم:

- لو ذهب "جابو" إلى هاييتي فلن يعود أبداً.

فهم "الفارو"، وقرر إلغاء الرحلة، وأخبرني بقراره كما لو كان قرار الشركة. وهكذا لم أعرف بويرتو برينثيبي أبداً، لكني لم أعرف المبررات الحقيقية حتى

سنوات قليلة بعد ذلك، عندما أخبرني "الفارو" في إحدى حواراتنا التي لا تنتهي. أما "جييرمو" من ناحيته، عندما قيدني بتعاقد مع الصحيفة، كرر خلال سنوات أنه فكر في التحقيق الصحافي الكبير عن هاييتي، لكني لم أستطع الذهاب أبداً، ولم أخبره بالسبب.

لم يمر بذهني أبداً أن أعمل محرراً في الاسبكتادور. اعتقدت أنهم كانوا ينشرون قصصي لقلة المادة الصحافية وفقر هذا النوع في كولومبيا، لكن التحرير اليومي في صحيفة شهيرة كان يعني تحدياً يومياً لشخص غير معتاد على صحافة المواجهة، بعد نصف قرن من الحياة. في بيت بالإيجار، وفي ماكينات التيمبو القديمة- صحيفة ثرية، وقوية ومتعجرفة- فإن الاسبكتادور تعتبر صحيفة متواضعة من ست عشرة صفحة مكتظة، لكن الخمسة آلاف نسخة التي توزعها بشكل سيئ تتغلب عليها تقريباً عند أبواب المطابع. ويتم قراءتها في خلال نصف ساعة بمقاهي المدينة القديمة الكئيبة. كان "ادوارد ثالاميا بوردا" قد صرح شخصياً من خلال إذاعة البي بي سي اللندنية أنها كانت أفضل صحيفة في العالم. لكن الأكثر إلزاماً لم يكن التصريح في حد ذاته، بل أن معظم العاملين ومعظم القراء كانوا مقتنعين بأن هذه هي الحقيقة.

يجب أن أعترف أن قلبي قفز بين ضلوعي في اليوم التالي لإلغاء رحلة هاييتي، عندما طلب "لويس جابرييل كانو"، المدير الإداري، مقابلتي في مكتبه، فاللقاء بكل رسمياته لم يزد عن خمس دقائق. كان "لويس جابرييل" معروفاً بأنه رجل متجهم، كريم كصديق وبخيل كمدير إداري، لكني أرى- وكما كان معي دائماً- أنه لطيف ومحدد. كان عرضه في كلمات جادة أن أبقى في الصحيفة كمحرر ثابت أكتب الأخبار العامة، ومقالات الرأي، وما هم في حاجة إليه في اللحظات الأخيرة لإغلاق الطبعة، وبراتب شهري تسعمائة بيزو. لم أنطق، وعندما استعدت أنفاسي عدت لسؤاله عن الرقم، أعاد عرضه حرفاً حرفاً: تسعمائة. كانت دهشتي كبيرة،

إنه بعد أشهر عندما تحدثت عن هذا في إحدى الحفلات فإن عزيزي "لويس جابرييل" كشف لي أنه فسر دهشتي على أنها إشارة على الرفض. وكان آخر شك كشف لي عنه السيد "جابرييل"، أن خوفه كان مؤسساً على حقائق، فقد قال عني: "كان نحيلاً وشاحباً إلى درجة أنه قد يموت منا في المكتب". وهكذا دخلت كمحرر ثابت في الاسبكتادور، حيث استهلكت أكبر قدر من الورق في حياتي في أقل من عامين.

كانت صدفة حسنة، الرجل الأكثر خطراً في المؤسسة السيد "جابرييل كانو"، كبير العائلة تحول بقرار فردي إلى أكبر ممثل لمحاكم التفتيش في إدارة التحرير. كان يقرأ بعدسته المكبرة حتى الفاصلة الأقل شأناً في الطبعة اليومية، مشيراً بقلم أحمر تحت الأخطاء في كل مقالة، وكان يعرضها في لوحة المحررين المعاقبين ترافقها تعليقاته القاسية. وتم وضع عنوان اللوحة منذ اليوم الأول "حائط الفضائح"، ولا أذكر أن محرراً واحداً هرب من رئتها الدموية.

تعيين "جييرمو كانو" كمدير تحرير شهير للاسبكتادور في الثالثة والعشرين من عمره لا أعتقد أنه كان في غير أوانه، بل جاء استجابة لنبوءة كانت مكتوبة قبل ميلاده، لذلك فإن أول مفاجأة لي كانت التأكد من أنه المدير الحقيقي، عندما كان كثيرون منا يعتقدون أنه لم يكن أكثر من الابن المطيع، وأكثر ما لفت انتباهي سرعته في معرفة الأخبار.

وفي أحيان كثيرة كان يقف في مواجهة الجميع دون مبررات كثيرة، إلى أن يتمكن من إقناعهم بحقيقته الخاصة، كانت تلك فترة لم تكن الصحافة تُدّرس في الجامعات، بل يتم تعلمها في الممارسة. باستنشاق حبر المطبعة. كان يعمل في الاسبكتادور أفضل المهنيين من طيبي القلب؛ ولكنهم قساة في العمل. بدأ "جييرمو كانو" عمله هناك منذ أن تعلم أول حرف، فكان يكتب مقالاتٍ محكمة عن مصارعة الثيران، تبدو كما لو كان كاتبها موهوباً في المصارعة وليس صحافياً. لذلك فإن

أصعب تجربة في حياته كانت في ترقيته ما بين يوم وليلة من تلميذ إلى مدير تحرير دون المرور بالدرجات المتوسطة بينهما، ما كان لأحد لا يعرفه عن قرب أن يتوقع، خلف طريقته الرقيقة في التعامل، طرقاً أخرى أقل لطفاً. دخل معارك كبرى وخطرة بالحماس نفسه دون أن يتوقف أبداً أمام أنه في المعارك النبيلة دائماً ما يسقط قتلى.

لم أتعرف على أحد متمرد على الحياة العامة ويهرب من التقريظ الشخصي وأكثر هروباً من قوة السلطة مثله. كان قليل الأصدقاء لكنهم من أفضل الأصدقاء على قلتهم، وشعرت منذ اليوم الأول أنني واحد منهم. ربما كان وراء هذا أنني كنت من صغار السن في صالة التحرير بين مخضرمين، مما خلق بيننا نوعاً من التواطؤ لم يتخفَ أبداً. وربما كانت هذه الصداقة مثالية لقدرتها على تخطي عقبة اختلافاتنا. فقد كانت خلافاتنا السياسية عميقة جداً، وزادت حدتها على وقع خطى انقسام العالم، لكننا عرفنا دائماً كيف نجد مساحة اتفاق لنواصل النضال معاً في سبيل القضايا التي نعتقد أنها عادلة.

كانت صالة التحرير ضخمة، بمكاتب على الجانبين، وينتشر فيها مزاج مرح ونكات قاسية. كان هناك "داريو باوتستا"، نوع غريب من نقيض لوزير مالية يبدأ منذ صياح الديك في الصباح في نشر المرارة على كبار الموظفين، متوقعاً لهم دائماً مستقبلاً كارثياً، وكثيراً ما يصدق. هناك المحرر القضائي "فيليبي جونثالث توليدو"، صحافي بالميلاد كثيراً ما استبق التحقيقات في الكشف عن جريمة. و"جييرمو لاناو" الذي كان يتابع عدة وزراء في وقت واحد، وحافظ على سره كطفل حتى بلغ أوائل سنوات الشيخوخة. و"روخيليو اتشيبيريا"، شاعر من الكبار، مسئول عن الطبعة الصباحية، والذي لم نكن نراه نهاراً أبداً. وابن عمي "جونثالو جونثالث"، بساقه المحبوسة في الجبس بعد مباراة كرة قدم سيئة، كان يذاكر ليرد على أية أسئلة؛ وانتهى بأن أصبح خبيراً في كل شيء، رغم أنه كان

في الجامعة لاعباً لكرة القدم من الدرجة الأولى، ومن المؤمنين بالدراسات النظرية لأي شيء فوق أية تجربة عملية. خلال بطولة البولو للصحافيين، ركز على دراسة قواعد القوانين الفيزيقية للعبة بدلاً من ممارستها مثلنا في الملعب حتى الفجر، وأصبح هو بطل السنة.

بهذا الجمع فإن صالة التحرير كانت مرحاً دائماً، مرتبطة دائماً بشعار "داريو باوتستا" أو "فيليبي جونثالث توليدو": "من يتهم يستحق الهزيمة". كنا نعرف جميعاً موضوعات الآخرين ونمد يد العون أينما طُلب منا وكيفما يُطلب. وكانت المشاركة جماعية إلى درجة يمكن القول معها أن العمل كان تقريباً بصوت مرتفع. ولكن عندما تصبح الأشياء صعبة لا يمكن سماع ولا حتى صوت التنفس. من مكتبه في آخر الصالة كان "خوسيه سالجار" يجري في صالة التحرير مبلغاً معلومات أو مستعلماً عن كل شيء، بينما روحه تخبو بدواء الألعاب البهلوانية.

أعتقد أن الأمسية التي أخذني فيها من طاولة إلى طاولة ليقدمني إلى الزملاء، كانت تجربة نارية لخجلي الغلاب. فقدت النطق وكانت ساقاي ترتعشان عندما أطلق "داريو باوتستا" سخريته دون أن ينظر إليَّ أحد بصوته الرعديد:

– لقد جاء العبقري!

لم يخطر على بالي سوى أن أستدير نصف استدارة حول نفسي رافعاً ذراعي إلى أعلى محيياً الجميع، وقلت لهم الجملة الأقل إثارة التي خرجت من كل قلبي:

– في خدمة حضراتكم.

ولا زلت أعاني من ردة الفعل، ولكني شعرت براحة ذراعي والكلمات الطيبة التي حياني بها كل واحد منهم على سبيل الاستقبال. منذ تلك اللحظة أصبحت واحداً من تلك النمور الأليفة، بصداقة وروح لم تنتهِ أبداً. كل المعلومات التي كنت أحتاجها لأية مقالة، مهما كان صغرها، كنت أطلبها من المحرر المختص فيها، ولم يخذلني أحد.

أول درس كبير لي كمحرر تلقيته من "جييرمو كانو" وعاشته صالة التحرير بالكامل في أمسية سقطت فيها على بوجوتا أمطار طوفانية طوال ثلاث ساعات بلا توقف. جرفت المياه الهادرة كل ما وجدته في طريقها بطول شارع خيمينيث دي كيسادا، وتركت في الشراع آثاراً كارثية. توقفت السيارات بكل أنواعها، ووسائل النقل العامة في الأماكن التي فاجأتها فيها الأمطار، ولجأ الآلاف من المارة إلى المباني الغارقة حتى لم يعد هناك مكان لأحد. محررو الصحيفة، المفاجئون بالكارثة في لحظات إغلاق الطبعة، كنا نتأمل المشهد الحزين من النوافذ دون أن نعرف ماذا نفعل، كنا كأطفال معاقبين بوضع أيديهم في جيوبهم. وفجأة استدار "جييرمو كانو" إلى الصالة المشلولة، كما لو كان استيقظ من نومه، وصرخ:

– هذا الطوفان خبر جيد!

كان ذلك أمراً غير موجه لأحد تم تنفيذه على الفور، جرينا نحن المحررين إلى أماكن قتالنا للحصول تليفونياً على بيانات عدد المصابين الذين كان يقدمهم لنا "خوسيه سالجار" لنكتب مقاطع متفرقة فيما بيننا لعمل تحقيق صحفي عن أمطار القرن. توقفت سيارات الإسعاف والهواتف بسبب العربات المتوقفة في منتصف الشوارع. ومواسير المجاري المنزلية كانت طافحة بالمياه، ولم يكف رجال المطافئ عن القيام بواجبهم العاجل. تم إخلاء أحياء كاملة بالقوة لانهيار سد بالقرب من المدينة، وفي أحياء أخرى انفجرت المجاري. والأرصفة غاصة بالعجزة، وفي كل هذه الفوضى، قام خمسة من مُلاك قوارب الصيد بمسابقة في طريق كاراكاس. المعلومات التي كنا نحصل عليها كل لحظة يكررها "خوسيه سالجار" على المحررين لنعدها للطبعة الخاصة التي تم إعدادها بسرعة. المصورون ملتفون بعباءتهم المضادة للماء يبعثون بالصور ساخنة. قبيل الساعة الخامسة بقليل، كتب "جييرمو كانو" الحكم النهائي لواحدة من الأمطار الأكثر درامية التي عاشت في ذاكرة المدينة. عندما أنهى الطبعة العاجلة من الاسبكتادور التي بيعت مثل كل الأيام بساعة واحدة من التأخير.

علاقتي الأولية بـ"خوسيه سالجار" كانت الأصعب، لكنها كانت خلاقة دائماً مثل علاقاتي الأخرى. أعتقد أن مشكلته كانت عكس مشكلتي: يجري دائماً محاولات أن يقدم محرروه أفضل ما عندهم، بينما كنت أنا في شوق إلى الدخول في عجلة العمل. ولكن أعمالي الأخرى مع الصحيفة كانت تقيدني، ولم يكن أمامي من الوقت أكثر من ساعات يوم الأحد. يبدو أن "خوسيه سالجار" وضع عينه عليَّ كمحرر، بينما كان الآخرون قد اعتبروني مختصاً بالسينما، والتعليقات الافتتاحية والشئون الثقافية، لأنني كنت معروفاً بينهم باعتباري كاتب القصص. لكني كنت أحلم أن أكون محرراً منذ أولى أحلامي على الشاطئ، وكنت أعرف أن "سالجار" أفضل مُعلم، لكن يبدو أنه كان مُغلق الباب على أمل أن أدفعه بالقوة. كنا نعمل بشكل جيد، بلطف وديناميكية، وفي كل مرة أعطيه مواداً، مكتوبة بالاتفاق مع "جييرمو كانو" أو "ادواردو ثالاميا"، كان يقبلها دون عناد كبير، لكنه لم يكن يغفر لي ممارسة هذا الطقس. يقبلها بإشارة من يفتح زجاجة بالقوة، وكان يقول لي أي شيء بجدية أكثر مما يعتقد هو:

– اقصف عنق الإوزة.

مع ذلك، لم يكن عنيفاً أبداً، بل العكس تماماً: رجل لطيف مصنوع على نار ساخنة، صعد السلم بعمله، من أول توزيع القهوة في الورش عندما كان في الرابعة عشرة من عمره، إلى أن أصبح مديراً للتحرير كأفضل مهني في البلاد. أعتقد أنه لم يغفر لي أن أترك الغنائية في بلد يحتاج إلى محررين مناضلين. فيما اعتقدت أنا، على العكس تماماً، أن أي نوع من الصحافة لا يمكن أن يكون أفضل من التحقيق الصحفي للتعبير عن الحياة اليومية. مع ذلك، أعرف اليوم أن العناد الذي كان يتعامل به كلانا كان من أجل تحقيق حلمي الهارب: أن أكون محرراً.

جاءتني الفرصة وحدها في الحادية عشرة وعشرين دقيقة من صباح 9 يونيو عام 1954? أثناء عودتي من زيارة صديق بسجن بوجوتا الحديث، كانت هناك

قوات من الجيش مسلحة كما لو كانت في حالة حرب تمنع مظاهرة طلابية من التقدم بالطريق السابع، على بعد شارعين من الناصية نفسها التي جرى فيها اغتيال "خورخي اليثيير جايتان" قبل ست سنوات. كانت المظاهرة احتجاجاً على موت أحد الطلاب في اليوم السابق على يد أحد عناصر فرقة كولومبيا المدربة للقتال في كوريا، وكان هذا أول صدام بين المدنيين والقوات المسلحة. من مكاني كنت أسمع فقط صرخات الحوار بين الطلاب الذين يحاولون الوصول إلى القصر الرئاسي وبين العسكريين الذين يمنعون تقدمهم. لم نستطع أن نفهم ما يصرخون به، لكن التوتر كان مسيطراً. فجأة، وبلا مقدمات سمعنا طلقات مدفع رشاش تبعتها طلقات أخرى مرتين متتاليتين. مات في الحال عدة طلاب وبعض المارة. الآخرون حاولوا أخذ الجرحى إلى المستشفى لكنهم قُوبلوا بوابل من ضربات كعوب البنادق. أخلت القوات المكان وسدت الشوارع، خلال ثوان عدت إلى لحظات الرعب التي عشتها يوم 9إبريل، في الساعة نفسها والمكان نفسه.

صعدت السلم قفزاً نحو مقر الاسبكتادور، وجدت هيئة التحرير في حالة استنفار. حكيت بنفسٍ متقطع كل ما استطعت مشاهدته في مكان المذبحة، لكن ما لم أكن أعرفه جيداً أنهم كانوا يكتبون خبراً سريعاً حول أسماء الطلاب التسعة الذين اغتيلوا وحالة الجرحى بالمستشفيات. كنت واثقاً من أنهم سيطلبون مني حكاية الواقعة باعتبار أني كنت الشاهد الوحيد الذي رأى كل شيء، لكن "جييرمو كانو" و"خوسيه سالجار" اتفقا على أنه يجب أن يكون الخبر جماعياً يضع فيه كل واحد ما لديه. كان "فيليبي جونثالث توليدو" هو المحرر المسئول عن وضع التحقيق في صيغته النهائية، قال لي "فيليبي" منزعجاً من خيبة أملي:

- اهدأ، فالناس تعرف أننا هنا نعمل في كل شيء حتى لو لم يكن العمل يحمل توقيعاً.

من ناحيته، عزاني "اوليسيس" بفكرة أن المقالة الافتتاحية التي أكتبها قد تكون الأهم باعتبارها تتناول حدثاً خطيراً؛ ومشكلة مؤثرة في الأمن العام. كان محقاً،

لكنها كانت مقالة حساسة جداً وتحمّل الصحيفة مسئولية سياسية، فتمت كتابتها من خلال عدة أشخاص على أعلى مستوى. أعتقد أنه درس عادل للجميع، أما أنا فقد اعتبرته خيبة أمل. فقد كان ذلك الحدث نهاية شهر العسل بين حكومة القوات المسلحة والصحافة الليبرالية. كان قد بدأ قبل ثمانية أشهر بتسلم الجنرال "روخاس بينيا" السلطة والذي وعد أن يكون لحظة من الراحة بعد حمّامات الدم التي أغرقت البلاد في ظل حكومات المحافظين المتعاقبة، واستمرت إلى ذلك اليوم. وكانت بالنسبة لي تجربة حية لحلمي أن أكون محرراً.

بعدها بقليل نُشرت صورة لجثة طفل مجهول لم يتمكنوا من تحديد هويته بصالة الطب الشرعي، واعتقدت أنا أنها تشبه تماماً صورة طفل آخر مختفٍ كانت منشورة قبلها بأيام. عرضتها على رئيس قسم الحوادث "فيليبي جونثالث توليدو" فاتصل بأم الطفل الأول الذي لم يتم العثور عليه بعد، كان درساً أبدياً لي. كانت أم الطفل المختفي تنتظرنا- "فيليبي" وأنا- في المدخل. رأيتها فقيرة جداً وضئيلة حتى أنني بذلت جهداً عظيماً مع قلبي حتى لا تكون الجثة لطفلها. في القبو الطويل البارد، تحت ضوء باهر، كانت هناك عشرون طاولة معروضة، عليها صفوف من الجثث كتماثيل حجرية تحت شراشف متسخة. واصل ثلاثتنا السير خلف الحارس الرصين حتى الطاولة قبل الأخيرة في العمق، تحت أطراف الغطاء كانت تبدو أطراف حذاء صغير حزين، حدوات كعبها متآكلة من كثرة الاستخدام. تعرفت عليه المرأة، فازرّق وجهها، لكنها تحاملت بآخر ما تملك من قوة إلى أن نزع الحارس الغطاء برشاقة مصارع ثيران. الجسد كان لطفل في الثامنة من عمره تقريباً. وبعينين مفتوحتين وذاهلتين. بملابسه الممزقة التي عثروا بها عليه ميتاً في حفرة بالطريق. أطلقت الأم عواءً وانهارت على الأرض ملتفة بالصراخ. رفعها "فيليبي" وسيطر عليها بهمهمات معزية. فيما كنت أتساءل إن كان كل هذا يستحق أن يكون المهنة التي حلمت بها. أخبرني "ادواردو ثالاميا" بلا. فقد فكر

هو أيضاً أن الأخبار الحمراء التي تجد قبولاً كبيراً بين القراء تعتبر من التخصصات الصعبة التي تحتاج إلى موهبة خاصة وقلب مدرب. بعد تلك اللحظة لم أحاول هذا أبداً.

واقع آخر مختلف أجبرني على أن أعمل ناقداً سينمائياً. لم يخطر على بالي أبداً أن أمارس هذه النوعية من الكتابة، لكن في مسرح اوليمبيا للسيد "انطونيو داكونتي" في اراكاتاكا وبعد ذلك في المدرسة المتنقلة لـ"الفارو ثيبيدا" تعلمت العناصر الأساسية لكتابة مقالات ذات توجهات سينمائية؛ وفقا لوجهة نظر سهلة كانت مستخدمة في كولومبيا حتى ذلك الوقت. كان "ارنستو فولكنج" كاتبا وناقدا أدبيا ألمانيا كبيرا، يقيم في بوجوتا منذ الحرب العالمية، يذيع من خلال الإذاعة الوطنية تعليقات على الأفلام المعروضة، لكنه يقتصر على التوجه إلى جمهور متخصص. كان هناك معلقون آخرون ممتازون لكنهم غير دائمين يعيشون حول الناشر القطالوني "لويس فينيس" الذي عاش في بوجوتا خلال الحرب الأهلية الإسبانية، وهو أول من أسس نادياً للسينما بتواطؤ مع الفنان التشكيلي "انريكي جراو" والناقد "هيرنانجو سالثيدو"، وباهتمام خاص من الصحفية "جلوريا فالنثيا دي كاستانيو كاستيو"، التي كانت تحمل كارنيه رقم واحد. كان في البلاد جمهور كبير لأفلام الحركة والدراما الباكية، لكن السينما الجيدة كانت تقتصر على عدد محدود من الهواة المثقفين، والعارضين المغامرين لعرض أفلام لمدة ثلاثة أيام فقط. البحث عن جمهور جديد بين هذه الجماهير المجهولة والدعوة لخلق زبائن لدخول أفلام ذات نوعية جيدة، ومساعدة العارضين الذين يرغبون في عرض هذه النوعية لكنهم لا يستطيعون تمويلها. كانت العقبة الكبرى أن هؤلاء كانوا يهددون الصحافة بمنع إعلانات السينما عنها -كانت تشكل دخلاً كبيراً للصحف- عقاباً لها على النقد السلبي، والاسبكتادور أول صحيفة خاطرت في هذا الاتجاه، وكلفوني بمهمة التعليق على افتتاح الأفلام كل أسبوع بكتابة مربع بدائي للهواة

ذي نوعية دعائية. أحد الاتفاقات كانت أن أحتفظ بتذكرة دخولي دائماً، كتجربة كنت أثبت أنني اشتريت التذكرة من شباك التذاكر.

أول مقالاتي هدأت من روع العارضين؛ لأنني كنت أتناول أفلاماً فرنسية، من بينها، "بوثيني"، كانت تتناول قصة حياة الموسيقي الكبير. والقمم الذهبية، التي تحكي قصة حياة المغنية "جريس مور"، و"حفل انريكيتا"، كوميديا لـ"جان ديلون"، أصحاب الصالات الذين كنت التقي بهم أثناء خروجي من المسرح كانوا يعلنون رضاءهم عن مقالاتي النقدية. أما "الفارو ثيبيدا" فقد كان على العكس، أيقظني في السادسة صباحا من بارانكيا عندما علم بعدد قرائي، وصرخ فيَّ غارقاً في الضحك بالتليفون:

- كيف تتجرأ على نقد أفلام دون أن تحصل على إذن مني، وأنت الذي لا تفهم في السينما!

تحول إلى مستشاري الدائم رغم أنه لم يكن متفقاً معي أبداً بأنه بإمكاننا أن ننشئ مدرسة، بل توجيه جمهور بسيط بلا تعليم أكاديمي. لم يكن شهر العسل مع أصحاب صالات العرض حلواً كما كنا نعتقد في البداية، عندما واجهنا السينما التجارية حتى الأكثر تفهماً، تقدموا بشكاوى من قسوة تعليقاتنا. "ادواردو ثالاميا" و"جييرمو كانو" تحليا بالمهارة الكافية لشغلهم بالتليفون. إلى نهايات إبريل عندما قام صاحب صالة عرض يميل إلى الزعامة اتهمنا في رسالة مفتوحة بأننا نثير رعب الجمهور والإساءة إلى مصالحهم، اعتقدت أن أصل المشكلة أن كاتب الرسالة لا يفهم معنى كلمة "رعب"، لكني شعرت بأنني على وشك الهزيمة، لأنني لم أعتقد أن الصحيفة يمكنها أن تواجه أزمة في الوقت الذي كانت تنمو فيه، أو أن السيد "جابرييل كانو" يمكنه أن يضحي بإيراد الإعلان حباً في الاستمتاع الجمالي. في اليوم نفسه الذي تلقى فيه الرسالة دعا إلى اجتماع عاجل مع أبنائه و"اوليسيس"، وتوقعت أن قسم النقد السينمائي سيموت ويدفن،

ومع ذلك عندما مر بعد الاجتماع من أمام مكتبي، قال السيد "جابرييل" دون تحديد للموضوع، وبمكر جد عجوز:

- كن هادئاً يا سميي.

في اليوم التالي ظهرت الإجابة على صاحب صالة العرض في ركن "من يوم ليوم"، مكتوبة بتوقيع "جييرمو كانو"، بأسلوب أكاديمي ويقول في نهايتها: "لا نرعب الجمهور ولا نضر بمصالح أحد عندما ننشر نقداً سينمائياً جاداً ومسئولاً، يشبه قليلاً ما يُكتب في بلاد أخرى، ويقاطع قليلاً المدارس القديمة، ويقدم ما هو جيد، تماماً كالنقد الشرير". لم تكن الرسالة الوحيدة ولا الإجابة الوحيدة. فقد واجهنا موظفو السينما بصرخات مريرة، وتلقينا رسائل متناقضة من القراء المخدوعين. ولكن كل هذا كان جيداً: عاش الركن إلى أن تحول النقد السينمائي إلى حالة دائمة في البلاد، وتحول إلى روتين صحافي وإذاعي.

منذ ذلك الحين، وفي أقل من عامين، نشرت خمساً وسبعين مقالة نقدية في الافتتاحية، وخبراً موقعاً باسمي، وآخر غير موقع كل ثلاثة أيام، وعلى الأقل ثمانين تحقيقاً صحفيا ما بين ما تحمل توقعي أو مجهلة، وبدأت المقالات الأدبية تنشر من ذلك الوقت في الملحق "مجلة الأحد" للصحيفة نفسها، من بينها عدة قصص وسلسلة كاملة عن "لاسييربي" التي توقفت عن نشرها في مجلة "لالمبرا" لخلافات داخلية.

كان أول رخاء في حياتي، ولكن بلا وقت للاستمتاع به، والشقة المفروشة التي استأجرتها بخدمة الغسيل والحمام والتليفون والإفطار في السرير، ونافذة كبيرة مطلة على المطر الأبدي في هذه المدينة الأكثر تعاسة في العالم، كنت أستخدمها فقط من الساعة الثالثة فجراً وبعد ساعة من القراءة، وحتى سماع أخبار الإذاعة الصباحية لأكون على علم بتوجهات أخبار اليوم الجديد.

لم أترك التفكير مع بعض القلق، للمرة الأولى يكون لي فيه مكان دائم وخاص بي أعيش فيه دون أن يكون لدي الوقت حتى الانتباه إلى ذلك. كنت مشغولاً جداً

لمواصلة أمور حياتي الجديدة، إلى درجة أن مصاريفي المعروفة كانت المبلغ الذي كنت أرسله مع نهاية كل شهر لإنقاذ العائلة. وانتبهت اليوم فقط إلى أنه لم يكن لديّ الوقت للانشغال بحياتي الخاصة. ربما كانت تعيش في داخلي الأمهات الكاريبيات، وأن بنات العاصمة يستسلمن لأبناء الشاطئ بلا حب فقط لاستكمال الحلم بالحياة في مكان يقع في مواجهة البحر. مع ذلك، ففي شقتي الأولى كأعزب في بوجوتا استطعت أن أحصل على هذا دون أخطار، منذ أن سألت البواب إن كان مسموحاً بزيارات صديقات منتصف الليل، فأجابني بالإجابة التي كنت أعرفها:

- ممنوع يا سيدي، لكني لا أرى ما لا يجب رؤيته.

مع نهايات يوليو ودون علم مسبق وقف "خوسيه سالجار" أمام مكتبي بينما كنت أكتب مقالتي الافتتاحية، ونظر إليّ طويلاً، وفي صمت، توقفت في منتصف الجملة وقلت له مستسلماً:

- يا لها من مشكلة!

لم يرمش حتى بعينيه، كان يلعب بقلمه الملون، وبابتسامة شيطانية يبدو توجهها واضحاً أكثر من اللازم، شرح لي دون أن أسأله لماذا لم يصرح لي بعمل تحقيق صحفي حول مذبحة الطلاب في الطريق السابع؛ لأنها كانت في رأيه معلومات صعبة بالنسبة لمحرر مبتدئ. فيما الآن، يعرض عليّ مسئوليته شهادة محرر تحقيقات بشكل مباشر، ولكن دون أي تفكير في التحدي، إذا كنت قادراً على قبول عرض قاتل:

- لماذا لا تذهب إلى ميديين وتحكي لنا بأي شيطان حدث ما حدث هناك؟

لم يكن من السهل فهمه، لأنه كان يحدثني عن شيء حدث قبل أسبوعين، وهو ما يجعلني أشك في أنه سيكون طعاماً قديماً لا يمكن إنقاذه، معروف أنه يوم 12 يوليو حدث انهيار أرضي في منطقة "مديا لونا"، مكان وعر يقع إلى الشمال من

ميدين، لكن الفضيحة الصحافية وفوضى السلطات والرعب المنتشر بين المصابين تسببت في تعقيدات إدارية وإنسانية تخفي الحقيقة، لم يطلب مني "سالجار" أن أبحث عما حدث بكل الطرق الممكنة، بل أن أعيد ترتيب وقائع ما حدث على أرض الواقع، ولا شيء أكثر من الحقيقة، في أقل وقت ممكن. مع ذلك، كان هناك شيء في طريقته في الحديث جعلني أشك في أنه قرر أن يترك لي الحبل على الغارب.

حتى ذلك الوقت، لم يكن يعرف العالم عن ميديين سوى أنه في هذا المكان مات مطرب التانجو "كارلوس جارديل"، متفحماً في كارثة جوية. وأنا كنت أعرف أنها أرض كُتاب وشعراء كبار، وأن هناك توجد مدرسة "لا بريسنتاثيون" التي بدأت فيها "مرثيدس بارتشا" دراستها خلال ذلك العام. إزاء مهمة مثل هذه لم يكن من المعقول إعادة تركيب الجبل المنهار قطعة قطعة، ومنها طرت إلى ميديين في الحادية عشر صباحاً في ظل عاصفة رهيبة جعلتني أحلم بأن أكون آخر ضحايا هذا الانهيار الأرضي.

تركت حقيبتي في فندق نوتيبارا بملابس يومين ورباط عنق للطوارئ، واندفعت إلى الشارع، في مدينة لا تزال تعيش تحت رعب العاصفة. رافقني "الفارو موتيس" في تلك الرحلة ليساعدني على تحمل خوفي من الطائرة، وقدم لي عناوين بعض الأشخاص الخبراء بحياة المدينة. ولكن الحقيقة أنه لم تكن لدي أدنى فكرة عن من أين أبدأ. سرت في الشوارع كيفما اتفق، تحت ذرات من الذهب وشمس ما بعد العاصفة الرائعة. وبعد حوالي ساعة اضطررت إلى اللجوء إلى أحد المحال لأن الأمطار عادت تهطل من جديد فوق الشمس. حينها بدأت أشعر في صدري بأول أحاسيس الرعب. حاولت إخفاءها بوصفة جدي السحرية أثناء القتال، لكن الخوف من الخوف انتهى بالقضاء على حالتي المعنوية. وانتبهت وقتها إلى أنه لا يمكن أن أنجز ما طلبوه مني أبداً، ولم تكن لدي الشجاعة الكافية لقول هذا. فهمت وقتها أن الشيء الوحيد الجاد هو أن أكتب رسالة لـ"جييرمو كانو" وأعود

إلى بارانكيا للحالة البائسة القديمة التي كنت أعيش فيها قبل ستة أشهر.

بشعور أنني خرجت من الجحيم ركبت تاكسياً في طريق عودتي إلى الفندق، بدأت نشرة أخبار منتصف النهار بتعليق من خلال صوتين حكيا كيف حدث الانهيار الأرضي. انطلق السائق زاعقاً ضد خيبة الحكومة وسوء تقديم المساعدة للضحايا، فشعرت بأنني مذنب وأتحمل مسئولية غضبه. لكن في هذه اللحظة عدت إلى خوفي وتحول الهواء إلى سكون أمام انفجار ألوان الزهور في حديقة بيريو. وفجأة، دون أن أعرف لماذا، شعرت بأولى رياح الجنون، فقلت للسائق:

- هل لك أن تقدم لي جميلاً. قبل المرور بالفندق خذني إلى مكان الانهيار الأرضي.

قال لي:

- لا يوجد هناك شيء يستحق المشاهدة، فقط الشموع المشتعلة والصلبان المنصوبة على أرواح الموتى الذين لم يتمكنوا من إخراج جثثهم.

فانتبهت إلى أن الضحايا والأحياء يوجدون في مكانين مختلفين من المدينة، وأن هؤلاء اندفعوا جماعات لإنقاذ أجساد الضحايا عند أول انهيار ارضي، ثم كانت المأساة الكبرى عندما اقترب محبو الاستطلاع من المكان وانهار جزء آخر من الجبل وزحف على الجميع. أي أن من تمكنوا من الحديث هم القلة الذين نجحوا في الهرب من الانهيارات المتتالية، وكانوا من أحياء الجانب الآخر من المدينة.

قلت للسائق محاولاً السيطرة على ارتعاش صوتي:

- أفهمك، خذني إلى حيث يوجد الأحياء.

دار نصف دورة في منتصف الشارع وانطلق في الاتجاه المعاكس. صمته لم يكن نتيجة لسرعته الآن، بل أملاً في أن يقنعني بمبرراته.

في بداية الخيط كان هناك طفلان من ثماني وإحدى عشر عاماً، خرجا من منزلهما للبحث عن الأخشاب للتدفئة في السادسة من صباح الثلاثاء 12 يوليو،

وابتعدا ما يقرب من مائة متر عندما شعرا بزحف الأرض المنهارة والحجارة تتجه نحوهما بجانب المنحدر، هربا في آخر لحظة. وتركا في بيتهما ثلاثة من إخوتهما الصغار وأمهما وشقيقاً حديث الولادة، لم يبق من هذه الأسرة سوى الشقيقين والأب الذي خرج للعمل مبكراً على بعد عشرة كيلومترات من البيت.

كان الموقع عبارة عن مكان أجرد قاحل بالقرب من طريق ميديين إلى ريونجرو، ولم يكن في الثامنة صباحاً فيه بقية من أهل الموتى، وأذاعت الإذاعات النبأ بشكل مُبالغ فيه من خلال تقديم تفاصيل كثيرة دفعت بالكثيرين إلى الاقتراب من مكان الحدث قبل وصول رجال الإطفاء، ومع منتصف النهار حدث انهياران آخران بلا ضحايا، لكنه زاد من التوتر العام، وقامت إحدى الإذاعات بوضع ميكروفونات في المكان لتذيع الكارثة على الهواء مباشرة. في تلك الساعة كان هناك تقريباً كل سكان القرى المجاورة والأحياء القريبة، إضافة إلى الفضوليين الذين جاءوا بعد سماع الإذاعة، والمسافرين الذين هبطوا من الأوتوبيسات فكان هبوطهم معرقلاً أكثر منه لمساعدة الضحايا. وإضافة إلى الجثث القليلة التي بقيت تحت الانهيار الأول فإن حوالي ثلاثمائة ضحية نتجت عن الانهيارات التالية. مع ذلك وعندما كان الليل على وشك الهبوط، كان هناك أكثر من ألفي متطوع يواصلون تقديم المعونة بحثاً عن الأحياء، وعندما حل المساء لم يكن هناك مكان للتنفس. فالزحام كان كثيفاً وفوضوياً بحلول السادسة، عندها حدث انهيار جديد من ستمائة ألف متر مكعب من الأرض برعد رهيب تسبب في مزيد من الضحايا كما لو كانوا في حديقة بيريو بميديين. كانت كارثة سريعة وضعت أمام الدكتور "خافيير مورا"، سكرتير الأشغال العامة بالبلدية، جثة أرنب لم يستطع الهرب في الوقت المناسب.

بعد أسبوعين، عندما وصلت إلى المكان، كانوا قد أخرجوا أربعاً وسبعين جثة فقط، كثيرون تم إنقاذهم أحياء، معظمهم لم يكن ضحية للانهيار الأرضي بل بسبب عدم الحيطة والتضامن الفوضوي. تماماً كما في زلازل لم يتمكن أحد من

إحصاء عدد الأفراد الذين استغلوا الفرصة للهرب من مشاكلهم دون أن يتركوا أثراً، للهرب من ديون أو لتغيير الزوجة. مع ذلك، فإن حسن الحظ لعب دوراً مهماً، فقد أثبتت التحقيقات التالية أنه منذ اليوم الأول، وبينما كانوا يحاولون إنقاذ الضحايا، حدث انهيار آخر مكون من حجارة ضخمة كان يمكنه أن يتسبب في قذف خمسين ألف متر مكعب. وأكثر من خمسة عشر يوما بعدها، أمكنني بمساعدة الأحياء إعادة ترتيب وقائع الحكاية التي ما كان ممكناً التعرف عليها لحظة الحدث بسبب العقبات التي يفرضها الواقع.

اقتصرت مهمتي على البحث عن الحقيقة الضائعة في زحمة الافتراضات المتناقضة، وإعادة تركيب الدراما الإنسانية طبقاً لوقوعها بعيداً عن الحسابات السياسية والعاطفية. وضعني "الفارو موتيس" على الطريق الصحيح عندما أرسل لي خبيرة الدعاية "ثيثيليا وارن" التي نظمت لي البيانات التي عدت بها من مكان الكارثة. تم نشر التحقيق على ثلاث حلقات، وكان له على الأقل فضيلة إعادة الاهتمام بالحدث المنسي بتأخير أسبوعين، ووضع المأساة في مكانها.

إلا أن أفضل ذكرياتي عن تلك الأيام لم تكن ما فعلته أنا بل ما كنت على وشك أن أفعله، بفضل خيال صديقي القديم في بارانكيا "اورلاندو ريفيرا" المعروف باسم شهرته "فيجوريتا"، الذي عثرت عليه خلال إجراء تحقيقي، كان يعيش في ميديين منذ عدة أشهر، وكان سعيداً بعد زواجه الحديث من "سول سانتاماريا"، راهبة لطيفة جداً، ومنطلقة الروح كان قد ساعدها على الخروج من الدير بعد سبع سنوات من الفقر، والطاعة والحرمان. وخلال إحدى سكراتنا، كشف لي "فيجوريتا" بأنه مع زوجته، ودون دافع من أحد، وضعا خطة رائعة لإخراج "ميرثيدس بارتشا" من المدرسة الداخلية، وهناك قس صديق مشهور بفنه في تزويج البشر، كان مستعداً للقيام بدوره في أية لحظة، بشرط واحد، أن توافق "ميرثيدس" بالطبع، لكننا لم نجد طريقة لاستشارتها وهي داخل أربعة جدران.

أشعر اليوم أكثر من أي وقت مضى أنني نادم على عدم تنفيذ هذه الخطة، أما "ميرثيدس" من ناحيتها فلم تكن تعرف شيئاً، وبعد خمسين سنة قرأتها في مسودات هذا الكتاب.

كانت تلك إحدى المرات الأخيرة التي شاهدت فيها "فيجوريتا"، في كرنفال عام 1960 كان يرتدي قناع نمر كوبي، وانزلقت قدمه من على العربة التي كان يستقلها أثناء عودته إلى البيت بعد معركة الزهور، وسقط في بتلات الزهور وبقايا الكرنفال.

في الليلة الثانية من عملي عن الانهيار الأرضي بميديين كان ينتظرني في الفندق اثنان من شباب الصحفيين من مجلة "الكولومبيانو"- كانا أصغر سناً مني- يرغبان في إجراء مقابلة معي عن قصصي المنشورة حتى ذلك الوقت، بذلا جهداً كبيراً لإقناعي، لأنني كنت دائماً- وربما كان هذا خطأ- ضد المقابلات الصحافية المفهومة على أنها جلسة أسئلة وأجوبة تدفع الطرفين إلى بذل جهد كبير للتوصل إلى حديث يكشف معلومات معينة، ظل معي إيماني بعقم المقابلات في الصحيفتين اللتين عملت فيهما، خاصة في كرونيكا، حيث حاولت أن أنقل رفضي هذا إلى مساعدي. إلا أنه في النهاية نزلت عند رغبتهما لإجراء المقابلة الأولى لمجلة "لكولومبيانو"، وكانت جادة إلى حد الانتحار.

عدد المقابلات التي كنت ضحيتها لا يحصى على مدى خمسين عاماً، وفي رحلاتي عبر العالم ولم أتمكن حتى الآن من إقناع نفسي بأهمية هذا النوع من الصحافة، لا من ناحيتي ولا من ناحيتهم. فمعظم المقابلات التي فشلت في تجنبها عن أي موضوع من المفترض اعتبارها جزءاً من أعمالي الإبداعية. فهي لم تكن سوى: تخيلات عن حياتيَ. العكس تماماً، فأنا أعتقد أنها نوع آخر من الصحافة وقيمته أكبر، ليس بسبب نشرها، ولكن كمادة أساسية للتحقيق الصحفي الذي أقدره كنوع من الأنواع التي تنتجها أفضل مهنة في العالم.

على أي حال فإن ذلك الوقت لم يكن يصلح لإقامة الاحتفالات، فحكومة الجنرال "روخاس بينيا" الذي أصبح على عداء مفتوح مع الصحافة، وجانب كبير من الرأي العام العالمي، توج شهر سبتمبر بقرار يقضي بتوزيع مقاطعة "تشاكو" المنسية بين جيرانها من المقاطعات الأخرى: انتيوكيا وكالداس وفالي. بالنسبة لعاصمة تلك المقاطعة "كيبيدو" يمكن الوصول إليها فقط من ميديين عبر طريق ضيق من اتجاه واحد، ويحتاج إلى عشرين ساعة لقطع مائة وستين كيلومتراً فقط. وحال الطريق اليوم ليست أفضل من حالته في السابق.

اعتبرنا في هيئة تحرير الصحيفة أن هناك الكثير لعمله لمنع تمزيق المقاطعة بقرار حكومة لها علاقة سيئة مع الصحافة الليبرالية. أخبرنا "بريمو جيريرو" مراسل الاسبكتادور في كيبيدو بعد ثلاثة أيام أن هناك مظاهرة شعبية لعائلات كاملة، حتى الأطفال احتلت الساحة الرئيسية، مقررة البقاء هناك تحت الشمس الحارقة حتى تتراجع الحكومة عن تحقيق هدفها. كانت الصور الأولى للأمهات المتمردات بأطفالهن بين أذرعهن وهن يواجهن إجهاد الأيام في العراء. كنا نقوي تلك الأخبار في هيئة التحرير بآراء وتصريحات بعض السياسيين والمثقفين التشيكوانو المقيمين في بوجوتا. لكن يبدو أن الحكومة قررت ألا تلقي بالاً لكل هذا. بعد عدة أيام، اقترب "خوسيه سالجار" من مكتبي وعرض عليَّ أن أذهب إلى هناك للتحقق عمَّا يجري في الواقع في تشاكو. حاولت مقاومة الفكرة بالسلطات القليلة التي كنت أملكها بعد نجاح التحقيق الذي كتبته عن ميديين. لكن حيلتي لم تفلح، فقد زعق "جييرمو كانو" الذي كان يكتب مولياً ظهره لنا:

– اذهب يا "جابو"، نساء تشاكو أفضل من تلك اللاتي كنت تريد رؤيتهن في هاييتي.

ذهبت دون أي أسأل نفسي حتى كيف يمكنني كتابة تحقيق عن مظاهرة احتجاجية ترفض العنف. رافقني المصور "جييرمو سانشيث"، الذي كان يطاردني

منذ عدة أشهر لنذهب معاً لإجراء تحقيق في الحرب. ومن إرهاقي سماع جملته تلك صرخت فيه:

– أية حرب؟!

أطلق في وجهي تلك الحقيقة:

– لا تكن جباناً، يا "جابو"، فأنا أسمعك في كل لحظة تقول أن هذا البلد يعيش حالة حرب منذ الاستقلال.

جاء في صباح 21سبتمبر إلى صالة التحرير مرتدياً ملابس رجال حرب العصابات، مدعماً بكاميرات وحقائب صغيرة معلقة في كل أجزاء جسده لنذهب معاً لتغطية الوقائع الحربية. أول مفاجأة كانت أن الوصول إلى تشاكو يتم قبل الخروج من بوجوتا عن طريق مطار ثانوي لا توجد به أية خدمات من أي نوع، من بين بقايا سيارات قديمة وطائرات مؤكسدة. كانت طائرتنا، لا تزال على قيد الحياة بفضل فنون سحرية، كانت من نوع كاتالينا الشهيرة في الحرب العالمية الثانية جهزتها شركة مدنية لتكون طائرة نقل، لم تكن بها كراسي. داخلها كئيب ومظلم بنوافذ صغيرة وقذرة محملة بشحنة ألياف مخصصة لصناعة المقشات. كنا نحن الاثنين المسافرين الوحيدين، وكان مساعد الطيار مشمراً عن أكمامه، شاب يتحرك كطياري السينما، علّمنا كيف نجلس على الشحنة لنكون في وضع مريح، لم يتعرف عليَّ لكني كنت أعرف أنه كان أحد لاعبي البيسبول المعروفين في دوري كارتاخينا.

صعود الطائرة كان مرعباً، وبشكل خاص بالنسبة لمسافر مثل "جييرمو سانشيث" الذي يطير لأول مرة، وأصوات قعقعة أجزاء الطائرة التي كانت تبدو على وشك التفكك، ولكن ما أن استقرت الطائرة في السماء المنبسطة حتى انزلقت كمحارب مخضرم. إلا إنه قبل ميديين بقليل فاجأتنا عاصفة من الأمطار عندما كنا نطير فوق منطقة من الغابات بين مرتفعين، وكان علينا أن نمر بينهما، في تلك

اللحظة عشنا ما أعتقد أن القليل من البشر عاشه في حياته: هطلت الأمطار داخل الطائرة عبر شقوق توصيلات الأجزاء. قفز مساعد الطيار الصديق، بين شحنة المقشات وقدم لنا بعض صحف اليوم لنستخدمها كمظلات واقية من المطر. غطيت وجهي بالصحيفة لا لاتقاء المطر ولكن حتى لا يراني أحد أبكي من الرعب.

مالت الطائرة على جانبها الأيسر، بعد حوالي ساعتين من حسن الحظ والصدفة، وبدأت في الهبوط في وضع هجومي فوق الغابات الكثيفة، ثم دارت دورتين استطلاعيتين على الساحة الرئيسية لمدينة كيبيدو فيما استعد "جييرمو سانشيث" لالتقاط صور المظاهرة من السماء، لم يعثر إلا على ساحة خالية تماماً. ثم دار الطيار ليتأكد من أنه ليست أمامه أية عقبات حية ولا ميتة في نهر اتراتو الهادئ، وهبط هبوطه السعيد مع قيلولة منتصف النهار.

كانت الكنيسة محاطة بألواح خشبية، والكراسي الأسمنتية عليها بقايا الطيور، وبغلة طليقة تأكل من أفرع شجرة ضخمة، كانت هذه كل مظاهر الحياة الدالة على وجود بشري في الساحة المتربة التي تشبه عاصمة أفريقية. أول هدف لنا كان التقاط صور جوية للمتظاهرين وإرسالها إلى بوجوتا مع الطائرة العائدة، بينما نبحث عن معلومات كافية ومباشرة لإرسالها عبر التلغراف للطبعة الصباحية. لم يكن أي من هذا سهلاً، لأنه لم يحدث أي شيء.

قطعنا الشارع الطويل الموازي للنهر دون أن نعثر على أحد، وتوجد على الجانبين الدكاكين المغلقة في ساعة الغداء، والبيوت السكنية بشرفاتها الخشبية البيضاء وأسقفها المؤكسدة. كانت الخلفية المطلوبة، ولكن ينقصها حركة الدراما. صديقنا الطبيب "بريمو جيريرو" مراسل الاسبكتادور، كان في ساعة القيلولة ممددا في سريره المعلق تحت سقيفة بيته، والصمت المحيط به يشبه هدوء القبور. والصراحة التي شرح لنا بها مغامرته لتحقيق هدفه كانت موضوعية. فبعد مظاهرات الأيام الأولى خفت حدة التوتر ولم يعد لديه موضوع آخر للعمل. فقرر

تحريك القرية كلها في مظاهرة احتجاجية مستخدماً تقنية مسرحية، وتم التقاط بعض الصور التي لم تُنشر لأنها لم تكن مقنعة، وتم إلقاء عدة كلمات وطنية هزت البلاد. لكن الحكومة ظلت ساكنة، فقرر "بريمو جيريرو" أن يبقي على الاحتجاج حياً في الصحافة من خلال التلغرافات فقط.

مشكلتنا المهنية كانت بسيطة: أننا لم نبدأ مغامرتنا الطرزانية لنخبرهم بأن نبأ المظاهرات ليس صحيحاً. بالمقابل كانت بين أيدينا الوسائل ليكون الخبر صحيحاً ونكمل مهمتنا بتحقيق هدف مراسلنا. عرض علينا "بريمو جيريرو" حينها إعداد مظاهرة احتجاجية متنقلة مرة أخرى. ولم يخطر على بال أي منا فكرة أفضل. وكان مساعدنا المتحمس هو "لويس كانو" الحاكم الجديد المُعين بعد استقالة الحاكم الأخير احتجاجا على قرار الحكومة، ووصل تعاونه إلى حد تأخير إقلاع الطائرة لتتمكن الصحيفة من الحصول على صور "جييرمو سانشيث" الساخنة. وهكذا تحول الخبر الذي اخترعناه تحت ضغط الحاجة ليصبح الحقيقة الوحيدة، وتم توسيعها في الصحافة ومنحها أهمية لتنتشر بطول البلاد وعرضها، وتلقفتها الحكومة العسكرية لإنقاذ ماء الوجه. وبدأت في تلك الليلة حركة تظاهرية عامة بقيادة سياسيين ينتمون إلى تشاكو- بعضهم لهم تأثير واسع في بعض قطاعات المجتمع- وبعدها بيومين أعلن الجنرال "روخاس بينيا" إلغاء قراره السابق بتوزيع مقاطعة تشاكو على جيرانها.

لم نعد "جييرمو سانشيث" وأنا إلى الصحيفة على الفور، بل استطعنا أن نقنعهم بالسفر في جولة داخل تشاكو لنتعرف على الواقع الحقيقي لذلك العالم المدهش. وبعد عشرة أيام من الصمت، عندما دخلنا صالة التحرير محترقين بالشمس، ونكاد نسقط على الأرض من النعاس، استقبلنا "خوسيه سيالجار" سعيداً، ولكن في إطار قانونه الخاص، وسألنا بحقيقة لا تقبل الجدل:

- هل تعرفون منذ متى انتهت أخبار تشاكو؟

وضعني هذا السؤال لأول مرة أمام واقع الصحافة القاتل. بالفعل لم يعد أحد يهتم بأخبار تشاكو منذ أن تم نشر القرار الرئاسي بعدم تمزيقها، إلا أن "خوسيه سالجار" دعمني متحملاً مخاطر طبخ ما يمكن من هذه السمكة الميتة.

ما كنا نريد أن نوصله عبر أربعة تحقيقات صحافية هو اكتشاف بلد آخر لا يعرفه أحد في كولومبيا نفسها، والذي لا نهتم بوجوده. وطن سحري بطبيعته المزهرة ومياهه الجارية الأبدية، يشكل كل شيء فيه صورة غريبة للحياة اليومية. وكانت هذه الكمية الهائلة من الأنهار المتوحشة تمثل الصعوبة الكبرى أمام تعبيد طريق أرضي، ولم يكن هناك أكثر من جسر واحد في كل هذه الأرض. عثرنا على طريق عبر الأدغال البرية، تكلفت مبلغاً ضخماً من المال لربط قرية "اتسمينا" مع قرية "يوتو"، لكن الطريق لم يكن يمر لا بهذه القرية ولا تلك، عقاباً من المقاول على القضايا المعلقة بينه وبين عمدتي القريتين.

في بعض القرى الداخلية طلب منا ساعي البريد أن نحمل لزميله في اتسمينا بريد الأشهر الستة الأخيرة. كان ثمن علبة سجائر هناك ثلاثون سنتيما مثل باقي مناطق البلاد، ولكن عندما تتأخر الطائرة الأسبوعية المكلفة بتوزيع السجائر يتضاعف ثمنها مع كل يوم تأخير. إلى أن يجد السكان أنفسهم مجبرين على تدخين السجائر الأجنبية التي تصبح أرخص من السجائر الوطنية. وجوال الأرز يزيد ثمنه خمسة عشر بيزو عن سعره في مكان زراعته، لأنهم يحملونه على ظهور البغال التي تحبو على السفوح كالقطط. ونساء القرى الفقيرات تبحثن عن الذهب والبلاتين في مجاري الأنهار، بينما الرجال يصطادون ويبيعون حصيلتهم كل سبت للتجار الجوالين، كل دستة سمك وأربعة جرامات من البلاتين مقابل ثلاثة بيزوات فقط.

كل هذا يحدث في مجتمع شهير بحبه للدراسة، لكن المدارس قليلة ومتفرقة، وعلى التلاميذ أن يسافروا كل يوم عدة فرسخ سيراً على الأقدام، أو في قوارب

ذهاباً وعودة. بعض تلك المدارس كثافتها عالية إلى درجة أنهم يستخدمون المكان أيام الاثنين والأربعاء والجمعة للأولاد، وأيام الثلاثاء والخميس والسبت للبنات. بقوة الواقع كانت تلك المدارس الأكثر ديمقراطية في البلاد، لأن ابن الغسالة الذي يكاد لا يملك طعامه اليومي يدرس في المدرسة نفسها التي يدرس فيها ابن العمدة.

قليل منا نحن الكولومبيين يعرف أنه في قلب الغابات توجد أحدث مدينة في البلاد. اسمها "انداجويا"، عند التقاء نهري سان خوان وكوندوتو، وبها نظام تليفوني مضبوط، وأرصفة بحرية للقوارب واللنشات التي تمتلكها المدينة بشوارعها الجميلة ومساحاتها الخضراء المشجرة، وبيوتها صغيرة ونظيفة، بها مساحات مسوَّرة وسلالم من الخشب على أبوابها، تبدو كما لو كانت مزروعة في النجيل. يوجد في وسط المدينة كازينو وكباريه ومطعم وبار يشربون فيه المشروبات الكحولية المستوردة بأقل سعر عن باقي البلاد. مدينة يسكنها أناس من جميع أنحاء العالم، نسوا ذكرياتهم القديمة ويعيشون هناك أفضل من أي أرض أخرى في ظل إدارة السلطات المحلية لمدير منطقة تشكو الباسيفيكية. انداجويا في الواقع كانت بلداً أجنبياً وممتلكات خاصة، ينهب سكانها الذهب والبلاتين من أنهارها البدائية، ويحملونه في سفن خاصة تخرج إلى جميع بقاع العالم بلا أية رقابة على مخرج نهر سان خوان.

هذه كانت مقاطعة تشاكو التي كنا نريد كشفها للكولومبيين دون أية نتيجة، لأنه ما إن مر الخبر حتى عاد كل شيء إلى مكانه، وظلت تلك المنطقة الأكثر تخلفاً ونسياناً في البلاد. وأعتقد أن السبب واضح: كانت كولومبيا دائماً تحمل الشخصية الكاريبية المفتوحة على العالم عن طريق حبلها السري في بنما. ولكن الاقتطاع الإجباري لتلك الأرض حكم علينا أن نكون ما نحن عليه الآن: وطن بعقلية تنتمي إلى الانديز مع الحكم علينا بأن تكون علاقتنا بالمحيطين الأطلنطي

والباسيفيكي محكومة بالولايات المتحدة التي تمتلك قناة الربط بينهما.

وقع الحياة الأسبوعي في صالة التحرير كان يمكن أن يكون قاتلاً لولا وجود أمسيات الجمعة، فما إن نُنهي العمل حتى نتجمع في بار فندق كونتنينتال، على الرصيف المقابل، بحثاً عن حالة استرخاء كثيراً ما تطول حتى فجر اليوم التالي. أطلق "ادواردو ثالاميا" على تلك الليالي اسماً خاصاً بها: "أيام الجمعة الثقافية". كانت فرصتي الوحيدة لتبادل الحديث معه حتى لا يضيع مني قطار المستجدات الأدبية في العالم، والتي كان يعرفها دقيقة بدقيقة بفضل نهمه للقراءة الذي لا يشبع. كان من يعيشون من تلك النقاشات المطولة- إضافة إلى اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء الدائمين لـ"اوليسيس"- كنا نحن المحررين الذين لا نخشى قصف عنق الأوزة حتى ظهور أشعة الصباح الأولى.

لفت نظري دائماً أن "ثالاميا" لم يعلق أبداً على مقالاتي، رغم أن الكثير منها كانت مستلهمة من مقالاته، إلا أنه عندما بدأنا أمسيات "الجمعة الثقافية" أطلق لسانه بالتعليق على هذه النوعية من الصحافة. واعترف لي أنه لم يكن متفقاً بمبررات الكثير من مقالاتي، ويرغب في أن أكتب غيرها، ليس بلهجة الرئيس في العمل لتلميذه، ولكن من كاتب لكاتب.

ملجأ آخر كنا نغشاه بعد أمسيات نادي السينما، مناقشات منتصف الليل في شقة "لويس بيثنس" وزوجته "نانسي"، على بعد مسافة قليلة من الاسبكتادور. كان هو معاوناً لـ"مارسيل كولين ريفال"، مدير تحرير مجلة "سينماتوغرافيك فرانسواز" التي تصدر في باريس، استبدل أحلامه السينمائية بالعمل بائعاً للكتب في كولومبيا، بسبب الحرب الأوروبية. كانت تتعامل "نانسي" معنا كمضيفة ساحرة قادرة على زيادة عدد كراسي غرفة طعامها إلى اثني عشر بدلاً من أربعة، تعارفا في بوجوتا عام 1937 في عشاء عائلي. لم يبقَ فيه سوى كرسي واحد إلى جوار "نانسي" التي أصابها الرعب عندما شاهدت دخول المدعو الأخير، بشعره

الأبيض وملامحه المحترقة تحت الشمس. قالت لنفسها: "يا لسوء الحظ، كُتب عليَّ أن أجلس إلى جوار هذا البولندي الذي يكاد لا يعرف اللغة الإسبانية"، كانت على وشك أن تعرف لغته، لأن القادم الحديث كان يتحدث اللغة القطالونية المغلقة المطعمة بالفرنسية، فيما كانت هي طليقة اللسان في اللغة. لكنهما تفاهما جيداً منذ أول تحية، واتفقا على الحياة معاً والى الأبد.

بدأت سهراتهم عفوية بعد كل حفل لفيلم جديد في الشقة التي تختلط فيها جميع أنواع الفنون، حيث لا يوجد مكان لأية لوحة جديدة للفنانين المبتدئين في كولومبيا، بعضهم أصبح فيما بعد شهيراً في العالم كله، ضيوفهما صفوة من بين أكبر الفنانين والكُتاب، ومنهم من هم من مجموعة بارانكيا الذين يظهرون هناك من وقت لآخر. دخلت أنا كما لو كنت أدخل بيتي منذ أن نشرت أول مقالة في النقد السينمائي، وعندما كنت أخرج من الصحيفة قبيل منتصف الليل، أسير على قدمي المسافة القريبة وأجبرهما على السهر. المعلمة "نانسي"، إضافة إلى أنها طباخة ماهرة كانت عاشقة لجمع الرءوس في زواج سريع، وحاولت كثيراً أن تضعني أمام الأمر الواقع مع فتيات جميلات جداً ومتحررات ينتمين إلى عالم الفن، ولم تغفر لي أبداً أن موهبتي الحقيقية أنني لم أكن كاتباً ولا صحافياً، بل الأعزب الذي لا يُغلب.

كان "الفارو موتيس" يستغل المساحات القليلة من وقته خلال رحلاته في العالم كله، ليدخلني عالمه. بفضل عمله كرئيس للعلاقات العامة لشركة أسوّ في كولومبيا، كان ينظم حفلات غداء في أفخم المطاعم، ومن خلالها يضع كل ما يملك لدعم الفنون والآداب، فكان يدعوني كثيراً مع مدعوين من مدن أخرى، فالشاعر "خورخي جايتان دوران" الذي كان يهذي برغبته في إصدار مجلة أدبية مكلفة للغاية قدم له "الفارو موتيس" جزءاً من تكاليفها من خلال ميزانية دعم الثقافة. أما "الفارو كاستانيوكاستيو" وزوجته "جلوريا فالنثيا"، كانا يحاولان منذ سنوات

إنشاء إذاعة تتوجه بكاملها لنشر الموسيقى الجيدة، وتضع البرامج الثقافية في متناول يد الجميع. وكنا جميعاً نسخر من مشروعهما، إلا أن "الفارو موتيس" فعل كل ما يستطيع لمساعدتهما، وبمساعدته بدأت محطة "العالم في بوجوتا" في العمل بقوة 500 وات، وهو الحد الأدنى المطلوب في ذلك الزمن. وكانت "جلوريا فالنثيا" أول من ابتدع تقديم عرض الأزياء عبر الإذاعة.

الراحة الوحيدة التي كانت تسمح بها تلك الأيام المجهدة ، أمسيات أيام الأحد البطيئة في بيت "الفارو موتيس" الذي علمني الاستماع إلى الموسيقى دون أحكام مسبقة. نستلقي على السجادة ونستمع بقلوبنا لكبار المؤلفين دون ترهات مثقفة. أصل هذا العشق اكتشفته في صالة الاستماع بالمكتبة الوطنية، ولن أنساها أبداً. أستمع اليوم إلى كمية من الموسيقى التي استطعت الحصول عليها، وبشكل خاص الرومانتيكية للحجرة التي أعتبرها قمة الفنون. عندما كنت في المكسيك أكتب "مائة عام من العزلة"- ما بين عامي 1965و -1966 لم يكن لدي سوى اسطوانتين استهلكتا من كثرة الاستماع: مقطوعة "استهلالات" لـ"ديبوسي" و"يا لها من ليلة في ذلك اليوم" لـ"البيتلز". بعدها، عندما أصبح لديَّ في برشلونة كل ما أردت من اسطوانات، اعتقدت أن تصنيفها بالشكل الكلاسيكي على أساس حروف الأبجدية أمراً غير مقبول، ولتسهيل تعاملي الخاص ابتدعت تنظيماً يعتمد على الأدوات المستخدمة في العزف: التشيللو، وهي المفضلة، من "فيفالدي" إلى "برامز"، والكمان من "كوريلي" إلى "شونبرج"، والبيانو من "باخ" إلى "باترتك"، إلى أن اكتشفت معجزة أن كل شيء يمكن أن يرن بالموسيقى، حتى الأطباق والملاعق في الغسالة، بشرط أن تشير إلينا بما يحدث في الحياة.

مشكلتي كانت أنني لا أستطيع الكتابة أثناء الاستماع إلى الموسيقى؛ لأنني كنت أنتبه إلى ما كنت أسمعه أكثر من الذي أكتبه، ولا زلت أحضر حفلات موسيقية قليلة جداً، لأنني أشعر أن الكرسي يضعني في مساحة خاصة تتداخل

مع مساحات الآخرين المجاورين لي. إلا أنه، مع مرور الزمن وإمكانية امتلاك الموسيقى في البيت، تعلمت الكتابة مع وجود الموسيقى كخلفية مناسبة للكتابة نفسها. "ليليات" "شوبان" تتناسب مع الفصول المسترخية، أما "سداسيات" "برامز" فهي للأمسيات السعيدة، على العكس لم أعد إلى سماع "موزارت" طوال سنوات، منذ أن تملكتني فكرة شريرة بأن "موزارت" غير موجود؛ لأنه عندما يكون "بيتهوفن" رائعاً يكون "هايدن" سيئاً.

خلال السنوات التي أتذكرها في هذه المذكرات لم أتمكن من الحصول على معجزة أن أي نوع من أنواع الموسيقى لا تؤثر فيَّ سلباً أثناء الكتابة، مع أنه قد لا أكون واعياً لفضائلها الأخرى، فقد كانت مفاجأتي الكبرى أن اثنين من الموسيقيين القطالونيين، في شبابهما المبكر، اعتقدا أنهما اكتشفا توجهات عجيبة في روايتي السادسة "خريف البطريرك" تربطها بالكونشرتو الثالث للبيانو لـ"بيلا باتروك". حقيقي أنني كنت أستمع إليه بنهم بينما كنت أكتب؛ لأنه كان يخلق لديَّ حالة خاصة جداً وغريبة بعض الشيء، لكنني لم أفكر أبداً أنني خضعت لتأثيراته عليَّ، أو أنه يمكن ملاحظته في كتابتي. لا أعرف كيف علم أعضاء الأكاديمية السويدية بضعفي تجاه تلك الموسيقى لأنهم وضعوها أثناء تسلمي جائزتي. شكرتهم من كل قلبي، بالطبع، لكنهم لو كانوا سألوني- بكل امتناني واحتراماتي لهم ولـ"بيلا باتروك"- كنت أفضل لو أنهم وضعوا أياً من رومانثيات "فرانثيسكو الاومبري" التي كان يعزفها في أعياد طفولتي.

لم يكن في تلك الفترة في كولومبيا أي مشروع ثقافي، أو كتاب يستحق الكتابة، أو لوحة يمكن رسمها قبل أن تمر أولاً على مكتب "موتيس". أنا كنت شاهداً على حواره مع فنان شاب أعد مشروعاً لرحلة إلى أوروبا، لكن تنقصه النقود للسفر، وقبل أن يكمل حكاية مشروعه أخرج "موتيس" من درج مكتبه ملفاً سحرياً، وقال:

- هذه تذكرة السفر.

كنت أرى تلك المعجزات التي يصنعها مندهشاً من طبيعيته، ولهذا لازلت أتساءل إن كانت له يد في طلبي حضور كوكتيل سكرتير الجمعية الكولومبية للكُتاب والفنانين، "أوسكار ديلجادو"، وأن أشارك في المسابقة الوطنية للقصة التي كانت على وشك الإلغاء. قالها بطريقة سيئة إلى درجة إنني شعرت أن الطلب كان خارجاً عن حدود الأدب، ولكن أحدهم سمع "أوسكار" يتحدث، وأوضح أنه لا يمكن لأحد في بلد مثل بلدنا أن يكون كاتباً دون أن يعرف أن المسابقات الأدبية ليست سوى لعبة اجتماعية. أنهى حديثه بمكر قائلاً: "حتى جائزة نوبل"، ودون أن يفكر وضعني في حالة دفاع من وقتها لانتظار قرار آخر بعد سبعة وعشرين عاماً.

كانت لجنة تحكيم مسابقة القصة مكونة من "هيرناندو تيليث" و"خوان لوثانو أي لوثانو"، و"بدرو جوميث فالديراما"، وثلاثة آخرين من كبار الكُتاب والنقاد. ولهذا لم أضع في اعتباري مبررات أخلاقية ولا اقتصادية، سوى أنني أمضيت ليلة كاملة لإجراء التصحيحات النهائية لقصة "يوم بعد السبت"، القصة التي كتبتها في بارانكيا تحت إلهام مكاتب صحيفة الناسيونال. وبعد أن رقدتْ أكثر من عام في ملفها اعتقدت أنها يمكن أن تعجب أعضاء اللجنة المُحكمة، وهذا هو ما حدث، مع حصولي على مبلغ ثلاثة آلاف بيزو.

في تلك الأيام، ودون أية علاقة بالمسابقة هبط عليَّ في مكتبي السيد "صامويل ليزمان باو" الملحق الثقافي بسفارة إسرائيل، وكان قد افتتح قبل قليل داراً للنشر وأصدر أول كتاب يضم أشعاراً للأستاذ "ليون دي جريفي": الخليط الخامس ماماتريتو، كانت الطبعة جيدة، وكذلك الأخبار عن "ليزمان باوم". ولهذا قدمت له نسخة مصححة من "الورقة الجافة" وقررنا أن نتحدث في موضوع النشر فيما بعد، وبشكل خاص عن النقود، التي في النهاية- وهذا حقيقة- كانت الشيء الوحيد الذي لم نتحدث عنه أبداً، وقامت الفنانة "ثيثليا بوراس" بتصميم غلاف

تجديدي- ولا هي تلقت ثمن عملها- معتمدة على وصفي لشخصية الطفل. وقامت ورشة الزنكوغراف بصحيفة الاسبكتادور بتقديم الأكليشيهات ذات الألوان الأربعة هدية.

لم أعد أعرف أي شيء بعدها عن الموضوع، وحتى مرور خمسة أشهر، عندما اتصلت بي دار نشر سيبا في بوجوتا- لم أسمع عن اسمها أبداً من قبل- لتقول لي أنها طبعت أربعة آلاف نسخة، وأنها جاهزة للتوزيع، لكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بها؛ لأن السيد "ليزمان باوم" اختفى ولا يعرفون أي شيء عنه. ولا حتى محرري الصحيفة أنفسهم استطاعوا العثور عليه حتى طلوع شمس اليوم، فعرض "اوليسيس" على المطبعة أن تبيع النسخ للمكتبات على أن يتولى هو بنفسه بعمل الدعاية الصحافية والتي بدأها بمقالة لم أشكره عنها حتى هذه اللحظة. كان نقد الرواية رائعاً، لكن معظم الطبعة ظل في المخازن ولم يعرف أحد أبداً كم عدد النسخ المباعة، ولا تلقيت من أحد ولا ثمن مصاصة حلوى.

بعدها بأربع سنوات، قام "ادواردو كاباييرو كالديرون" مدير المكتبة الأساسية للثقافة الكولومبية بإعداد طبعة جيب من "الورقة الجافة"، لتُنشر ضمن مجموعة من الأعمال تُباع في شوارع بوجوتا ومدن أخرى. دفع حقوق النشر المتفق عليها، كانت قليلة، ولكنه دفعها حسب المواعيد المحددة، فكانت لها عندي قيمة عاطفية باعتبارها أول نقود أحصل عليها مقابل كتاب. كانت في الطبعة بعض التغييرات لم أتعرف عليها، ولم أهتم بأن تتضمنها الطبعات التالية. بعد ثلاثة عشر عاماً، عندما مررت بكولومبيا بعد إصدار "مائة عام من العزلة" في بوينس ايريس، عثرت في أماكن البيع بشوارع بوجوتا على بعض النسخ الباقية من طبعة "الورقة الجافة"، واشتريت منها العدد الذي تمكنت من حمله. ومنذ ذلك الوقت عثرتُ في الكثير من مكتبات أمريكا اللاتينية على بقايا من تلك الطبعة، كانوا يبيعونها في مكتبات بيع الكتب التاريخية القديمة. وقبل عامين قامت شركة إنجليزية

متخصصة في الكتب القديمة ببيع نسخة موقعة مني من الطبعة الأولى من رواية "مائة عام من العزلة" بمبلغ ثلاثة آلاف دولار.

لم تفلح أي من تلك الحالات في إبعادي عن التفكير في الصحافة ولا ثانية واحدة، فالنجاح الأول للتحقيقات المسلسلة أجبرنا على البحث عن مصادر لتغذية الوحش الذي لا يشبع. والتوتر اليومي أصبح لا يُحتمل، ليس فقط في تحديد هوية الموضوعات والبحث عنها، بل في حالة كتابتها أيضاً، فقد كانت الكتابة مهددة بخيال الإبداع. لم يكن هناك شك في صحيفة الاسبكتادور: المادة الأساسية في العمل المهني هي الحقيقة وليس أكثر من الحقيقة، وهذا كان يضعنا في حالة توتر دائم. انتهينا "خوسيه سالجار" وأنا إلى حالة من الإدمان لا تدعنا في سلام ولا حتى خلال راحات أيام الأحد.

في عام 1956 انتشرت إشاعات تقول أن البابا "بيو الثاني عشر" أصيب بحالة من الزغطة يمكنها أن تقضي على حياته. الحالة السابقة عليها كانت تذكرني بها قصة "ب أو و" لـ"سومرست موم"، التي مات بطلها في منتصف المحيط الهندي مصاب بداء الزغطة التي قضت عليه في خمسة أيام، بينما العالم كله يرسل إليه جميع أنواع الوصفات الغريبة. لكني أعتقد أننا لم نكن نعرف القصة في تلك الفترة، إلى درجة أنه خلال نهاية الأسبوع لم نكن نجرؤ على الذهاب بعيداً عن مقر الصحيفة لنكون على استعداد لإصدار طبعة خاصة غير عادية في حالة وفاة البابا. أنا كنت من أنصار إعداد الطبعة وتجهيزها، مع ترك فراغات يمكن ملئها بأول أنباء عن الموت، بعد عامين عندما كنت مراسلاً في روما، كنت لا أزال في انتظار موت البابا.

مشكلة أخرى في الصحيفة لا تُقاوم، الميل إلى الاهتمام فقط بالموضوعات المثيرة التي تجذب قراء أكثر، وأنا كنت لا أريد أن أفقد الجمهور الذي يفكر بالقلب فقط، من بين القليل الذي تمكنت الحصول عليه، لازلت أحتفظ بالتحقيق

الأكثر بساطة الذي أمسكت به من خلال نافذة الأوتوبيس. فقد كان على باب بيت كولونيالي جميل برقم 567 بالطريق الثامن، لافتة تقلل من شأن نفسها: "مكتب البريد الوطني المتأخر". لم أتذكر أنني فقدت شيئاً في تلك الأيام، لكني هبطت من الترام وطرقت الباب. الرجل الذي فتح لي كان المسئول عن المكتب مع ستة موظفين مثاليين، منغرسين في أكسيد الروتين، مهمتهم الرومانتيكية العثور على أية رسالة مجهولة العنوان.

كان البيت جميلاً، ضخماً ومترباً، بأسقف مرتفعة وحوائط أكلها السوس، وممرات مظلمة وغرف غاصة بأوراق لا صاحب لها. يدخله في المتوسط مائة رسالة مجهولة العنوان كل يوم، منها عشر رسائل على الأقل تم وضع الطوابع عليها، ولكن المظروف أبيض بلا عنوان، ولا يوجد عليها حتى اسم المرسل. يعرفها موظفو المكتب باسم "رسائل إلى الرجل الخفي"، ويبذلون كل جهدهم لتوصيلها إلى أصحابها أو إعادتها إلى مرسليها. لكن طقوس فتحها بحثاً عن علامات دالة كانت من العمليات البيروقراطية التي لا فائدة منها، رغم الجهد المبذول فيها.

تم نشر التحقيق المكتوب في حلقة واحدة تحت عنوان "ساعي البريد يطرق الباب ألف مرة"، وبعنوان فرعي: "مقبرة البريد المفقود". عندما قرأه "سالجار" قال لي: "هذه الأوزة لا يجب قصف عنقها لأنها وُلدت ميتة". ونشر التحقيق، على المساحة التي يستحقها، لا أكثر ولا أقل، لكني لاحظت أنه كان مثلي يشعر بالمرارة لما كان يمكن أن يكون عليه التحقيق. ربما لأن "روخيليو اتشابيريا" كان شاعراً، فقد فرح به بجملة لا أستطيع نسيانها أبداً: "إن "جابو" يمسك في أي مسمار ساخن".

شعرت بالكآبة بطريقتي الخاصة- ودون أن أحكي ذلك لـ"خوسيه سالجار"- قررت أن أبحث عن عنوان رسالة تستحق تحقيقاً خاصاً بها. كانت مرسلة إلى مستشفى الأمراض العقلية "اجواس دي ديوس"، وموجهة لسيدة الحِداد التي

تذهب إلى قداس الخامسة مساء بكنيسة "لاس اجواس"، بعد محاولات فاشلة مع القس راعي الكنيسة ومساعديه، واصلت لقاء مؤمني القداس لعدة أسابيع دون أن أتوصل إلى شيء. فاجأني أن أكثر رافضي الكلام هم من كبار السن، ويرتدون دائماً ملابس الحداد، لكن لا يوجد أي منهم على علاقة بمستشفى الأمراض العقلية "اجواس دي ديوس". كان فشلاً ذريعاً تأخرت كثيراً في نسيانه، ليس حزناً على نفسي وجهدي الضائع، أو لعدم قدرتي على القيام بفعل الخير، بل لأنني كنت واثقاً من أنه وراء حكاية هذه السيدة هناك حكاية أخرى أكثر إثارة.

على الوتيرة التي كنت أغرق فيها في بحيرات التحقيقات، كانت علاقتي بمجموعة بارانكيا تزداد عمقاً وتركيزاً، لم تكن رحلاتهم إلى بوجوتا كثيرة، لكني كنت أسطو عليهم تليفونياً في أية ساعة، ولحل أية مشكلة أواجهها. خاصة "خيرمان بارجاس"، بفضل تعريفه التربوي للتحقيق. كنت أطلب عونهم عند مواجهتي لأية مشكلة، وكانت كثيرة. أو هم يتصلون بي ليهنئوني. كنت أعتبر دائماً "الفارو ثيبيدا" كزميل يجلس على الكرسي المجاور. بعد السخريات اللطيفة المتبادلة بيننا التي كانت تتم دائماً في إطار محدد داخل المجموعة، ينتزعني من البحيرة ببساطة تغرقني في الدهشة دائماً. فيما كانت مساجلاتي مع "الفونسو" على العكس تماماً أدبية أكثر من أي شيء آخر. كنت أثق في أنه دائماً ما ينقذني بالإشارة إلى كلمات لكبار المؤلفين، أو ليملي عليَّ جملة منقذة مأخوذة من جعبته التي لا تنضب. نكتته الكبرى كانت عندما طلبت منه عنواناً لمقالة عن باعة الطعام الجوالين الذين تطاردهم السلطات الصحية. رد عليَّ "ألفونسو" على الفور:

– من يبيع الطعام لا يموت من الجوع أبداً.

شكرته من كل قلبي ورأيت أن تلك الجملة مناسبة جداً إلى درجة لم أستطع معها سؤاله عن قائلها، أوقفني "الفونسو" بقسوة الحقيقة بأنني أنا قائلها:

– إنها مقولتك يا مُعلمي.

بالضبط، كنت ارتجلتها في إحدى مقالاتي التي لم أكن أوقعها، لكني نسيتها، دارت هذه الحكاية بين أصدقاء بارانكيا لعدة سنوات، والذين لم أستطع أبداً إقناعهم بأنها لم تكن مداعبة على الإطلاق.

في رحلة عرضية لـ"الفارو ثيبيدا" إلى بوجوتا أخرجني لبضعة أيام من اختناق الأخبار اليومية. جاء على أساس إنجاز فيلم لم يكن يملك منه سوى العنوان: "الجرادة الزرقاء"، كان خطأ مؤكداً؛ لأن "لويس بيثينس" و"انريكي جاو" والمصور الفوتوغرافي "نيريو لوبث" أخذوا الموضوع بجدية. ولم أعد أعرف أي شيء عن المشروع إلى أن أرسل لي "بيثينس" مسودة سيناريو، وطلب مني أن أضيف عليه شيئاً من جانبي على أساس الفكرة الأصلية التي كانت لـ"ألفارو". أضفت شيئاً لا أذكره اليوم، لكن الحكاية كانت مسلية، وبها كمية كافية من الجنون لتصبح خاصة بنا.

كل منا أضاف ما استطاع، لكن الأب الحقيقي للفكرة كان "لويس بيثينس"، الذي وضع الكثير من العناصر التي بقيت من مسيرته في باريس. كانت مشكلتي تكمن في بعض تلك التحقيقات المطولة التي لا تترك لي وقتاً للتنفس، وعندما تمكنت من التحرر منها كان الفيلم في مرحلة التصوير في بارانكيا.

كان عملاً بدائياً جداً، أفضل ما فيه سيطرة البديهة، والتي ربما كانت للملاك "الفارو ثيبيدا". ففي أحد عروضه المنزلية المتعددة في بارانكيا حضر المخرج الإيطالي "انريكو فولتشيجونوني"، الذي فاجأنا بحماسه: رأى أن الفيلم يبدو جيداً. وبفضل عناد "تيتا مانوتاس"، زوجة "الفارو"، فما بقي من "الجرادة الزرقاء" تم عرضه في العالم كله عبر العديد من المهرجانات الجريئة.

كانت تلك الأشياء تمنحنا الوقت لنسيان واقع الوطن، الذي كان مرعباً. اعتبروا أن كولومبيا خالية من رجال العصابات منذ أن استولت القوات المسلحة على السلطة تحت شعار السلام والوفاق بين الأحزاب. لم يشك أحد في أن شيئاً

تغير، حتى مجزرة الطلاب في الطريق السابع. فالعسكريون، المتشوقون بأسبابهم، أرادوا أن يبينوا لنا نحن الصحفيين أن هناك حرباً مختلفة عن تلك الأبدية بين الليبراليين والمحافظين. كنا كلنا نعيش هذا المناخ عندما اقترب "خوسيه سالجار" من مكتبي بإحدى أفكاره المرعبة:

– استعد لتتعرف على الحرب.

بلا أية تفصيلات، كنا في الخامسة فجراً نستعد للذهاب إلى قرية فيلاريكا، على بعد مائة وثلاثة وثمانين كيلومتراً من بوجوتا. وكان الجنرال "روخاس بينيا" في انتظار زيارتنا، في منتصف الطريق، في إحدى استراحاته العسكرية المتعددة في ميلجار، ووعد بعقد مؤتمر صحافي ينتهي قبل الخامسة مساء، ليتيح لنا وقتاً كافياً للعودة بصور وأخبار مباشرة.

المدعوون للتعرف عليها، كانوا "راميرو اندرادي" مراسل التيمبو مع المصور "خيرمان كايثيدو"، إضافة إلى أربعة آخرين لم أتمكن من تذكرهم، و"دانييل رودريجيث" وأنا من الاسبكتادور، بعضهم كان يرتدي ملابس الميدان العسكرية، وتم تحذيرنا من أنه ربما يكون علينا أن نتوغل بضع خطوات في الغابات.

ذهبنا إلى ميلجار في اوتومبيل، وهناك وزعونا على ثلاث طائرات هليوكبتر أخذتنا عبر ممر جبلي ضيق ووحيد في سلسلة الجبال الوسطى، بقمم عالية ومدببة. أكثر ما أدهشني كان التوتر البادي على الطيارين الشبان الذين كانوا يتجنبون مناطق معينة أسقط فيها رجال حرب العصابات طائرة هيلوكبتر وأصابوا أخرى في اليوم السابق. هبطنا بعد حوالي خمس عشرة دقيقة في ساحة ضخمة ومنعزلة في فيلاريكا، أرضيتها لا تحتمل ثقل الطائرة. كانت حول الساحة بيوت من الخشب تحيط بها مخازن مهدمة ومساكن خالية، عدا واحداً منها مدهوناً حديثاً، لقد كان فندق القرية إلى أن نبت الرعب هناك.

في مواجهة الطائرة وبعيداً على حافة السفح هناك بيت وحيد من الزنك يكاد لا

يرى في غبش السفح البعيد. طبقاً لما قاله الضابط الذي رافقنا أن المتمردين كانوا هناك. ومعهم أسلحة كافية لقتلنا، لذلك علينا أن نجري باتجاه الفندق بانحرافات ملتوية، والجسد منحنياً كنوع من الحيطة لتجنب أية رصاصات قادمة من السفح. وعندما وصلنا اكتشفنا أن الفندق قد تحوّل إلى معسكر.

كان هناك كولونيل في ملابس الميدان، ويتحرك كفنان سينمائي، لطيف وذكي، شرح لنا دون انزعاج كبير أنه في ذلك البيت على السفح توجد مقدمة المتمردين منذ عدة أسابيع، وحاولوا الهجوم على القرية ليلاً عدة مرات، وكان الجيش واثقاً أنهم سيحاولون عمل شيء عندما يرون الهليوكوبتر في الساحة، وأن هناك قوات مستعدة لمواجهتهم. إلا أنه بعد حوالي الساعة من الاستفزازات التي استخدم الجيش فيها حتى مكبرات الصوت، لم يبد المحاربون أية إشارة على وجودهم. أرسل الكولونيل، مُحبطاً، دورية استطلاعية ليتأكد أن هناك من بقي في البيت.

خفت حدة التوتر، وخرجنا نحن الصحافيين من الفندق واستطلعنا الشوارع المجاورة، وحتى أقلها تجميلاً حول الساحة، بدأنا المصور وأنا وعدد من الزملاء في الصعود إلى السفح عبر طريق ملتوٍ. وجدنا عند أول منحنى مجموعة من الجنود منبطحين على الأرض في وضع استعداد لإطلاق النار، ونصحنا أحد الضباط بالعودة إلى الساحة، لكننا لم نلقِ بالاً لنصيحته. كان هدفنا الصعود إلى أن نعثر على أية مقدمة للمتمردين تنقذ يومنا من الانتهاء بلا أي خبر كبير.

لم يكن هناك وقت، سمعنا فجأة عدة أوامر متوالية وتبعها إطلاق نارٍ كثيف، انبطحنا أرضا بقرب الجنود، وفتح هؤلاء النار باتجاه البيت على السفح. خلال لحظات الهرج فقدت المصور "رودريجيث" من أمام عيني، الذي أسرع للبحث عن وضع استراتيجي يسمح له بالتقاط أفضل الصور، كان تبادل إطلاق النار قصيراً، ولكنه كثيف، خيَّم بعدها الصمت على المكان.

ما إن عدنا إلى الساحة حتى شاهدنا دورية عسكرية تخرج من الغابة وتحمل جثة على نقالة. رئيس الدورية، متلذذاً، لم يسمح لنا بالتقاط الصور، بحثت بعيني عن "رودريجيث" فشاهدته يظهر على بعد خمسة أمتاز إلى اليمين، عندها عشت لحظة مكثفة موزعاً بين الشك في أن أصرخ فيه ألا يلتقط الصور خوفاً من أن يطلقوا النار لتحذيره، وبين الحس المهني لالتقاط الصورة بأي ثمن. لم يكن لدي الوقت للاختيار، في لحظة سمعت صرخة رئيس الدورية:

– لا يجب أخذ هذه الصورة.

خفض "رودريجيث" الكاميرا بهدوء واقترب إلى جانبي، مرت صفوف الجنود بالقرب منا فشعرنا بإحساسٍ مر بالأجساد الحية وصمت الميت. ما إن مروا حتى همس "رودريجيث" في أذني:

– التقطت الصورة.

هذا ما حدث، ولكن لم يتم نشرها أبداً، فقد انتهت الدعوة إلى كارثة، كان هناك جريحان من الجنود، وقُتل اثنان على الأقل من المتمردين، وتم سحب جثتيهما حتى الملجأ. تغيرت حالة الكولونيل النفسية من خلال حركة مسرحية، أخبرنا ببساطة أن الزيارة ألغيت، وأنه أمامنا نصف ساعة لتناول الغداء وسنعود على الفور إلى ميلجار براً؛ لأن الطائرات الهيلوكبتر محجوزة لنقل الجرحى والجثث. ولم يكشفوا لنا عدد أي منها.

لم يعد أحد يذكر لنا شيئاً عن المؤتمر الصحافي المقرر عقده مع الجنرال "روخاس بينيا"، مرت بنا العربة الجيب أمام بيته في ميلجار، ووصلنا إلى بوجوتا بعد منتصف الليل. كانت تنتظرنا صالة التحرير بكامل هيئتها، فقد اتصلوا بهم من مكتب الاستعلامات بالقوات المسلحة ورئاسة الجمهورية ليخبروهم دون تفاصيل بأننا سنصل براً، لكنهم لم يذكروا لهم إن كنا سنصل أحياء أم أمواتاً.

حتى ذلك الوقت، كان تدخل الرقابة العسكرية في الصحافة فقط في حالة الطالب الذي قُتل في وسط بوجوتا، ولم يكن هناك رقيب في الصحيفة بعد ذلك الأخير ممثل الحكومة السابقة الذي استقال والدموع في عينيه، عندما لم يعد يحتمل الأخبار الكاذبة وسخرية المحررين. كنا نعرف أن مكتب الاستعلامات والصحافة لم يكن يغفل عينه عنا. وكثيراً ما أرسلوا لنا تحذيرات تليفونية ونصائح أبوية. والعسكريون الذين أقاموا في البداية علاقات طيبة مع الصحافة، عادوا ليكونوا غير مرئيين ولزموا الصمت المُحكم. إلا أن هناك خيطاً وحيداً ظل ينمو في صمت، تم نشر معلومة بلا أساس من الصحة تقول أن رئيس تلك المعركة في توليما كان شاباً في الثانية والعشرين من عمره، درس القانون، وأن اسمه لم يؤكده أحد ولا تم نفيه: "مانويل مارولاندا فيليث" أو "بدرو انطونيو مارين"، الشهير باسم "تيروفيخو" (الطلقة الثابتة)، عند البحث عن هذه المعلومة أكد "مارولاندا" زعيم حركة "الفراك" أنه لا يذكر إن كان في الواقع هو أم لا.

لم يكن ممكناً العثور على خبر آخر، وأنا كنت متشوقاً لاكتشافه منذ عدت من فيلاريكا، لكني لم أعثر على باب أطرقه، ومكتب الاستعلامات والصحافة بالرئاسة كان مغلقاً أمامنا، وما حدث في فيلاريكا كان مدفوناً تحت ستار السر العسكري. ألقيت بآخر آمالي في سلة المهملات عندما وقف في مواجهتي تماماً "خوسيه سالجار" مبرزا دمه البارد الذي لم يكن من شيمه أبداً، وأبرز لي تلغرافاً وصله في التو. وقال:

– هنا ستجد ما لم تره في فيلاريكا.

كانت دراما جماعة من الأطفال تم إخراجهم من القرى بالقوة المسلحة بلا أية خطة أو ميزانية، حتى يمكن تسهيل حرب الإبادة التي يقوم بها الجيش ضد المتمردين في توليما. انتزعوهم من آبائهم للتعرف عليهم، من ابن من؟ وكثير منهم لا يعرفون الإجابة

عن هذا السؤال، وبدأت المأساة بوصول ألف ومائتين من الكبار إلى العديد من القرى القريبة من توليا. بعد زيارتنا لميلجار مباشرة. وتم تسكينهم بأية طريقة، ومغادرتهم بعد ذلك تحت رحمة الله. الأطفال المنتزعون من أحضان آبائهم لأسباب لوجيستيكية بحتة تم توزيعهم على عدة ملاجئ في البلاد. كان عددهم حوالي الثلاثة آلاف من مختلف الأعمار والحالات، ثلاثون منهم من الأيتام، أباً وأماً، ومن بين هؤلاء توأم يبلغ عمرهما ثلاثة أيام فقط، تمت العملية في إطار السرية المطلقة، وتحت حماية الرقابة على الصحافة إلى أن تمكن مراسل الاسبكتادور من إرسال أول إشارة لنا من امباليما، على بعد مائتي كيلومتر من فيلاريكا.

في أقل من ست ساعات عثرنا على ثلاثمائة أقل من عمر خمس سنوات في ملجأ "الامبارو ديل النينيو" في بوجوتا. كثيرون منهم بلا انتماء ويكاد بعضهم لا ينطق اسمه، "هيلي رودريجيث" من عمر سنتين لم يكد ينطق اسمه. لا يعرف شيئاً عن أي شيء. ولا حتى أين كان، ولا ماذا؟ ولا يعرف أسماء أبويه؟ ولم يتمكن من تقديم ما يمكن معرفة شيء للعثور عليهما. كل ما كان يتمتع به أن يحصل على البقاء في الملجأ حتى يبلغ الرابعة عشرة من عمره. وميزانية الملجأ عبارة عن مساعدة حكومية من ثمانين سنتيماً لكل طفل شهرياً، وهرب عشرة من هؤلاء الأطفال خلال الأسبوع الأول بهدف السفر في القطارات المتجهة إلى توليما، ولم نعثر على أثر لأي منهم.

تم إعادة تعميد الكثيرين منهم بشكل إداري، وإطلاق أسماء وألقاب عليهم من منطقتهم حتى يمكن التعرف عليهم، لكنهم كانوا كثيرين ومتشابهين ومتحركين، بحيث كان من الصعب التعرف عليهم، وبشكل خاص في برد الشتاء، حيث كانوا يستدفئون بالجري في الممرات وعلى السلالم. كانت زيارتي لهم مؤلمة لأسألهم إن كانت الجماعات المسلحة التي قتلت الجندي في المعركة أمكنها أن تترك آثاراً مدمرة بين هؤلاء الأطفال في فيلاريكا.

تلك الحكاية المزعومة تم نشرها في العديد من الأخبار المتوالية دون استشارة أحد. والتزمت الرقابة الصمت، ورد العسكريون بتقديم التفسير المعهود: أحداث فيلاريكا كانت جزءاً من حركة واسعة للشيوعيين ضد حكومة القوات المسلحة. كان سطراً واحداً من ذلك الإعلان كافياً لأضع في ذهني فكرة الحصول على معلومات مباشرة من "خيلبرتو فييرا" السكرتير العام للحزب الشيوعي، الذي لم أره في حياتي أبداً.

لا أذكر أنني اتخذت الخطوة التالية بعد الحصول على إذن الصحيفة، أم أنها كانت مبادرة مني، لكني أذكر أنني اتخذت إجراءات عديدة لم تفلح للاتصال بأي زعيم من الحزب الشيوعي السري، لكي أطلب منه معلومات عن الوضع في فيلاريكا. كانت العقبة الرئيسية في الحصار العسكري المضروب حول الشيوعيين السريين بشكل لم يكن له مثيل من قبل. عندها اتصلت ببعض الشيوعيين الأصدقاء، وبعدها بيومين ظهر في مكتبي بائع ساعات آخر، كان يبحث عني ليحصل على الأقساط التي لم أتمكن من دفعها في بارانكيا، وقلت له إنني في حاجة إلى الحديث العاجل مع بعض زعمائه الكبار. لكنه أجابني بطريقة معروفة بأنه يملك هو شخصياً أن يقول لي شيئاً. إلا أنه في ذلك المساء نفسه، ودون سابق إنذار، فاجأني في التليفون صوت متناغم وهادئ:

- أهلا، "جابرييل"، أنا "خيلبرتو فييرا".

رغم إنه كان الأكثر شهرة بين مؤسسي الحزب الشيوعي، فإن "فييرا" لم يعرف السجن ولا المنفى دقيقة واحدة، إلا أنه رغم خطورة أن يكون أي من التليفونين مراقباً، أملاني عنوان بيته السري لأزوره في ذلك المساء.

كانت شقة مكونة من صالون صغير مغمور بالكتب السياسية والأدبية، وغرفتين بالطابق السادس بسلالم مظلمة، الصعود عليها يقطع الأنفاس، ليس بسبب الارتفاع فقط، بل بسبب الوعي بأني سأكون في المكان الأكثر سرية في

البلاد. كان يعيش "فييرا" مع زوجته، "ثيثيليا" وابنة حديثة الولادة، وبما أن الزوجة لم تكن في البيت، فقد كان يضع سرير طفلته بالقرب منه، يحركه لإسكات بكائها خلال الحوارات الطويلة. سواء كانت هذه الحوارات عن السياسة أم الأدب، وإن لم يكن ميالاً للسخرية، كان من المستحيل تخيل أن ذلك الأربعيني المتورد الأصلع، ذا العينين الوضاحتين، ونطقه الدقيق، يكون الرجل الذي يبحث عنه البوليس السري في البلاد.

ما إن دخلت حتى انتبهت إلى أنه كان على علم بحياتي منذ اشتريت الساعة في الناسيونال في برانكيا. كان يقرأ تحقيقاتي في الاسبكتادور ويتعرف على مقالاتي المجهولة التوقيع، ويحاول تفسير أهدافها الخفية. إلا أنه كان يتفق معي على أن أفضل خدمة يمكن أن أقدمها للوطن، هي أن أبقى بعيداً عن الانتماءات السياسية.

دخل في الموضوع مباشرة عندما حانت لنا أول فرصة للحديث عن سبب زيارتي له. كان يعلم بالأوضاع في فيلاريكا كما لو كان هناك لحظة وقوعها، والتي لم نستطع نشر أية كلمة عنها بسبب الرقابة الرسمية. إلا أنه قدم لي معلومات مهمة لأفهم أن ما حدث ما هو إلا جزء من الحرب الأبدية التي بدأت قبل قرن من خلال مناوشات عرضية. كانت لغته، في ذلك اليوم وذلك المكان، فيها من عناصر لغة "خورخي اليثيير جايتان" أكثر منها من لغة "ماركس". ولحل الأزمة بالنسبة له ليست باحتلال العمال السلطة، بل أن يكون هناك نوع من التحالف بين المقهورين ضد المسيطرين. حظ تلك الزيارة لم يكن فقط إيضاح بعض ما كان يحدث وقتها، بل لفهم ما كان يحدث بطريقة أفضل. وهكذا شرحت لـ"جييرمو كانو" و"ثالاميا"، وتركت الباب موارباً، ربما تظهر ذيول للتحقيق الناقص. يكفي القول أن "فييرا" وأنا بدأنا علاقة صداقة سهلت علينا التواصل حتى في الأيام الصعبة من إقامته السرية.

مـأسـاة أخرى ظلت تنمو إلى أن حطمت الحصار المفروض عليها، في فبراير 1954 عندما نشرت الصحافة أن واحداً من المحاربين القدامى في كوريا باع نياشينه الرسمية ليحصل على طعامه، كان فقط واحداً من أكثر من أربعة آلاف تم تجنيدهم بالصدفة في لحظة من اللحظات الغريبة في تاريخنا. عندما كانت أية جهة أفضل من لا شيء بالنسبة للفلاحين المطرودين تحت وابل الرصاص من أراضيهم بسبب العنف الرسمي. فالمدن غصّت بالسكان المهاجرين، ولا تقدم لهؤلاء أي أمل في حياة أفضل. وكولومبيا، كما قيل في كل يوم تقريباً، في المقالات الافتتاحية، وفي الشوارع والمقاهي، والحوارات العائلية، كانت جمهورية مستحيل الحياة فيها. وبالنسبة للكثير من الفلاحين المهاجرين والشباب فإن حرب كوريا كانت الحل لمشاكلهم الشخصية. وهناك كان كل شيء متداخلاً؛ دون نظر إلى الخلافات المحددة، ولم يكن مطلوباً سوى التمتع بجسد صحيح، تقريباً في نفس الظروف التي جاء فيها الإسبان لاكتشاف أمريكا. وعند العودة إلى كولومبيا، فإن هذه المجموعة غير المتجانسة تم تسميتها اسماً عاماً: المحاربون القدامى. يكفي أن يقوم أحدهم بالدخول في خناقة حتى يتم اتهام الجميع بالذنب. أغلقوا أمامهم أبواب العمل بمبرر سهل، وهو أنه ليس لهم حق العمل؛ لأنهم غير متزنين عقلياً. بالمقابل، لم يبكِ أحد على الذين ضحوا بحياتهم وعادوا في ألفي رطل من الرماد.

نبأ رهن النياشين كشف عن الوجه المرعب لنبأ آخر منشور قبله بعشرة أشهر، عندما عاد آخر المحاربين القدامى إلى البلاد بما يقرب من مليون دولار ورقية، عندما تم استبدالها في البنوك انخفض سعر الدولار في كولومبيا من ثلاثة بيزوات وثلاثين سنتمياً للدولار الواحد إلى بيزوين وتسعين سنتيماً. وانخفضت مكانة المحاربين القدامى عند مواجهتهم للواقع في البلاد، قبيل عودتهم نشروا أنباء عن أنهم سيحصلون على منح خاصة للدراسة، وإنهم سيحصلون على رواتب

تقاعد مدى الحياة، وتسهيلات لمن يريد منهم أن يقيم في الولايات المتحدة. والحقيقة كانت العكس تماماً: بعد قليل من وصولهم تم إبعادهم من الجيش، ولم يبقَ أمامهم سوى ما تبقى في جيوبهم، ومعظمهم لم يبقَ في جيوبهم سوى صور الفتيات اليابانيات اللاتي كن يلتقين بهم في معسكرات الاستراحة في اليابان، حيث كانوا يبعثون بهم على فترات خلال الحرب.

كان من المستحيل ألا تدفعني تلك المأساة الوطنية إلى تذكر جدي الكولونيل "ماركيز"، الذي انتظر انتظاراً أبدياً وصول راتبه التقاعدي كمحارب قديم. والتي دفعتني إلى التفكير في أن حالته كانت عقاباً للكولونيل؛ لأنه دخل حرباً دموية ضد سيطرة المحافظين. أما الأحياء من الحرب الكورية فقد حاربوا ضد الشيوعية، ودفاعاً عن السيطرة الإمبريالية للولايات المتحدة الأمريكية. مع ذلك فإن معظم هؤلاء المحاربين عند عودتهم لم تكن أسماؤهم تنشر في صفحات الاجتماعيات، بل في صفحات الحوادث، أحدهم قتل بريئين بالرصاص وبعدها سأل قضاته: "إذا كنت قد قتلت مائة في كوريا لماذا لا يمكنني قتل عشرة في بوجوتا؟"

ذلك الرجل، تماماً كغيره من المجرمين، وصلوا إلى الحرب عندما كان قد تم التوقيع على نهايتها. إلا أن كثيرين منهم كانوا ضحية للنظرة الرجولية الكولومبية، التي برزت خلال الإعلان عن مسابقة قتل محاربي كوريا القدامى. ولم يكونوا قد أكملوا ثلاث سنوات منذ عودة أول فرقة منهم حتى بدأ موتهم في حوادث دموية بالعشرات. لأسباب مختلفة، بعضهم قُتل في معارك غير مجدية بعد قليل من عودته، وواحد منهم أصيب بطعنة في خلاف حول تكرار اسطوانة في كانتين، كان السرجنت المغني، المشهور بهذا الاسم، ويغني بجيتار الاستراحة من الحرب، ثم قُتل بعدها بقليل بطلقة رصاص. محارب آخر طعنوه أيضاً في بوجوتا. ولدفنه تطلب تنظيم جمع تبرعات بين الجيران للوفاء بمتطلبات الجنازة. أما بالنسبة لـ"انخيل فابيو جوييز" الذي فقد في الحرب إحدى عينيه ويده قتله ثلاثة مجهولين، لم يتم القبض عليهم أبداً.

أتذكر- كما لو كان بالأمس- أنني كنت أكتب في آخر حلقة من السلسلة، رن جرس التليفون على مكتبي وتعرفت على الفور على الصوت البراق لـ"مارتينا فونسيكا":

- آلو؟

تركت المقالة في منتصف الصفحة تحت ضغط دقات قلبي، وعبرت الشارع لألتقي بها في فندق كونتيننتال بعد اثنتي عشرة سنة دون أن أراها. لم يكن من السهل تمييزها من بين السيدات اللاتي كن يتناولن الغداء في المطعم الغاص بالبشر، إلى أنْ أشارت لي بقفازها. كانت ترتدي فستاناً بذوقها الشخصي المعروف، ومعطفاً من الجلد، بثعلب على إحدى الكتفين وقبعة صياد، بدأت السنوات تبدو على ملامحها المحترقة من أثر الشمس، وكانت منكمشة ببدايات الشيخوخة. كان علينا أن ينتبه كلانا إلى أنه مرت اثنتا عشر سنة، وهي كثيرة في العمر. لكننا كنا نتحملها بشكل جيد. حاولت أن أبحث عنها في بارانكيا، لكني عرفت أنها تعيش في بنما، حيث يعمل رجلها مدرباً في القناة، ولكن لم يكن تعالياً بل كان خجلاً، أنني لم أطرق هذا الموضوع.

أعتقد أنها كانت قد انتهت من غدائها مع شخص تركها وحدها قبيل حضوري. شربنا ثلاثة فناجين من القهوة، ودخنّا معاً نصف علبة سجائر بحثاً عن الحديث بلا كلام، إلى أن تجرأت هي على سؤالي إن كنت فكرت فيها يوماً. عندها فقط قلت لها الحقيقة: إنني لم أنسها أبداً. لكن وداعها كان قاتلاً إلى درجة أنه غيَّر شخصيتي. كانت هي أكثر عاطفية مني:

- لا أنسى أبداً أنك مثل ابني.

كانت قد قرأت مقالاتي الصحافية وقصصي وروايتي الوحيدة، تحدثت معي عنها بشكل ذكي، ما كان ممكناً سوى بالحب أو العناد. إلا إنني حاولت تجنب شراك الذكريات بسبب جبني. وعندما تمكنت في النهاية من التغلب على التوتر

تجرأت على سؤالها إن كانت قد أنجبت الطفل الذي كانت تريده، قالت هي بفرح:

- وُلِدَ، وعلى وشك الانتهاء من الدراسة الابتدائية.

سألتها بمسكنة تنبع من الغيرة:

- أسود كأبيه؟

لجأت هي إلى حسها الفكاهي الدائم وقالت:

- أبيض مثل أمه، لكن أباه لم يذهب من البيت، كما كنت أخشى بل اقترب مني أكثر.

وأمام اختناقي الواضح أكدت لي بابتسامة قاتلة:

- لا تنزعج: إنه ابنه، وأيضاً ابنتان متماثلتان تماماً كما لو كانتا طفلة واحدة.

أعلنتْ عن فرحها بحضوري، وانشغلنا ببعض ذكريات ليست لها علاقة بي، واعتقدت أنها كانت تنتظر مني إجابة أكثر خصوصية. لكني أيضا، مثل جميع الرجال، أخطأت الزمان والمكان، نظرتْ هي في ساعتها عندما طلبت القهوة الرابعة وعلبة سجائر، وقفتْ بلا مقدمات، وقالت منهية حديثها:

- حسن يا طفلي، أنا سعيدة لرؤيتك؛ لأنني لم أعد أحتمل قراءة كتاباتك دون أن أعرف كيف أنت الآن.

وتجرأتُ على سؤالها:

- وكيف أكون؟

ضحكت من كل قلبها:

- آه، لا، هذا ما لن تعرفه أبداً.

عندما التقطت أنفاسي أمام الآلة الكاتبة تنبهت إلى أنني كنت دائماً متشوقاً لرؤيتها، وأن الرعب منعني من البقاء إلى جوارها ما تبقى لنا من حياة. والرعب نفسه الذي لا عواء منه منذ ذلك اليوم الذي رن فيه جرس التليفون.

بدأ العام الجديد، عام 1955 بالنسبة للصحافيين يوم 28 فبراير بنبأ عن ثمانية من بحارة المدمرة "كالداس" من البحرية الوطنية، سقطوا في البحر واختفوا خلال عاصفة، عندما كان ما تبقى من الرحلة ساعتان للوصول إلى الميناء. كانت المدمرة قد بدأت رحلتها قبل أربعة أيام من موبايل بالباهاما، بعد عدة أشهر لإجراء إصلاحات روتينية.

بينما كانت هيئة التحرير تستمع إلى أول نشرة أنباء إذاعية عن الكارثة، استدار "جييرمو كانو" نحوي في كرسيه الدائري وأمرني بنظرة منه أن أكون على استعداد للسفر، "خوسيه سالجار"، في طريقه إلى الورش، توقف أيضاً أمامي بأعصاب ترتعش من الخبر، كنت قد عدت من بارانكيا قبلها بساعة واحدة، حيث أعددت تحقيقاً عن الدراما الأبدية لمناجم "لاس بوكاس نجراس"، وبدأت أتساءل من جديد في أية ساعة تكون الطائرة التالية إلى الشاطئ، للكتابة عن البحارة الغرقى الثمانية. إلا أنه بدا واضحاً من النشرة الإذاعية أن المدمرة ستصل كارتاخينا في الثالثة مساء دون أنباء جديدة؛ لأنه لم يتم العثور على جثث الغرقى الثمانية. أنهى "جييرمو كانو":

– يا لها من خسارة، لقد غرقت الحكاية.

تم تحجيم الكارثة إلى عدد من الأنباء والمعلومات التي تم تبادلها بإحكام، ولتكون تأبيناً للذين سقطوا خلال أداء الخدمة، ولا شيء أكثر من هذا. مع قدوم نهاية الأسبوع، كشفت البحرية أن أحد الغرقى، "لويس اليخاندرو فيلاسكو"، وصل متعباً إلى شاطئ أورابا. مجهداً لكن يمكنه التغلب على مشاكله الصحية، وبعد أن بقي عشرة أيام في قارب بلا مجاديف دون طعام أو شراب. اتفقنا جميعاً على أنه يمكن أن يكون تحقيق العام، لو أننا تمكنا من البقاء معه بمفردنا حتى ولو نصف ساعة.

لم يكن ممكناً. حافظتْ عليه البحرية بعيداً عن الأعين خلال استعادته لعافيته في المستشفى البحري بكارتاخينا. قابله خلال دقائق سريعة المحرر الماكر

"انطونيو مونتانيا" من صحيفة التيمبو الذي دخل المستشفى متخفياً في زي طبيب. لكن نتيجة اللقاء اقتصرت على رسومات بالقلم الرصاص لوضع الغريق على المركب عندما قذفت به العاصفة إلى البحر. وبعض التصريحات المختصرة التي بدا منها واضحاً أن لديه أوامر بعدم رواية حكايته. صرح بعدها "فيلاسكو" بقوله:

- لو كنت أعرف أنه صحافي لكنت ساعدته.

ما إن استعاد عافيته، وتحت إشراف البحرية أدلى بحديث لمراسل الاسبكتادور في كارتاخينا، "لاثيديس اوروثكو"، لم يتمكن من الوصول إلى حيث كنا نريد أن نعرف: كيف كانت الرياح التي تسببت في مثل هذه الكارثة وخلفت سبعة من القتلى.

بالضبط لقد كان "لويس اليخاندرو فيلاسكو" خاضعاً لرقابة صارمة تمنعه من التحرك أو التعبير بحرية، حتى بعد أن نقلوه إلى بيت أبويه في بوجوتا. أي جانب فني أو سياسي كان يحله لنا بخفة الملازم البحري "جييرمو فونسيكا"، وبنفس الرقة كان يتفادى فيها ذكر معلومات أساسية، وهو ما كنا نرغب فيه في ذلك الوقت. وهي حقيقة المغامرة. ولمجرد كسب الوقت كتبت سلسلة من المقالات عن المناخ الذي عاد فيه الغريق إلى بيت أبويه، عندما كان مرافقوه من البحرية يمنعوني من الحديث معه. بينما كانوا يسمحون له بالإدلاء بأحاديث مع الإذاعة المحلية. عرفنا وقتها أننا كنا بين يدي أساتذة في الفن الرسمي لتجميد الأخبار، وبدأت أفكر لأول مرة أنهم كانوا يحاولون إخفاء حقائق خطيرة عن الرأي العام، وأكثر منه اشتباها كان شبه مؤكد.

جاء شهر مارس برياح باردة وأمطار متناثرة تزيد من حدة تأنيب الضمير. قبل أن أواجه هيئة التحرير حزيناً من هزيمتي، لجأت إلى فندق كونتننتال وطلبت كأساً مزدوجاً، تناولته في رشفات بطيئة، دون أن أتخلى عن معطفي الثقيل،

عندما شعرت بصوت جميل جداً يكاد يهمس في أذني:

– من يشرب وحده يموت وحده.

أجبت وروحي على كفي متأكداً من أنه صوت "مارتينا فونسيكا":

– يسمعك ربنا يا حلوة.

ترك الصوت في الهواء بقايا ياسمين هادئ، لم تكن هي، رأيتها تخرج من الباب الدائري وتختفي تحت مظلة صفراء لا تُنسى، تحتمي بها من الأمطار الخفيفة. بعد رشفة أخرى عبرتُ الشارع ووصلتُ إلى صالة التحرير محاولاً الحفاظ على توازني من الرشفتين الأوليين، عندما شاهدني "جبيرمو كانو" أدخل أطلق صرخة فرح معلنة للجميع:

– هيا لنرى ما الذي جاء لنا به "جابو"؟

أجبته بالحقيقة:

– لا شيء غير سمكة ميتة.

عندما انتبهت إلى أن الساخرين الذين لا يرحمون في هيئة التحرير بدءوا في حبهم لي عندما شاهدوني أمرُّ في صمت مجرجراً قدمي، ولم يجرؤ أي منهم على البدء في الطقس المعروف.

ظل "لويس اليخاندرو فيلاسكو" مستمتعاً بمجده المكبوت. مراقبوه لم يكونوا يسمحون له فقط بالحديث، بل كانوا يهيمنون على الحملات الدعائية، دفعوا له خمسمائة دولار وساعة جديدة ليحكي في الإذاعة عن أن بطولته الحقيقية احتماله للبقاء في العراء وحيداً، ومصنع أحذية التنس دفع له ألف دولار ليحكي أنه لم يقضم حذائه لإسكات الجوع، وفي اليوم نفسه ألقى خطاباً وطنياً، وترك نفسه لملكة الجمال لتقبله وتقدمه للأيتام كمثال على التضحية الوطنية. بدأت أنساه في اليوم الذي لا يُنسى عندما أخبرني "جبيرمو كانو" أنه معه في مكتبه، وعلى استعداد لتوقيع تعاقد ليحكي لنا مغامرته كاملة، شعرت بالإهانة:

– لم يعد سمكة ميتة بل متعفنة.

أول مرة، والأولى التي أرفض فيها إجراء تحقيق للصحيفة، وهو أداء لواجبي. اضطر "جييرمو كانو" إلى قبول الأمر الواقع واستقبل الغريق بنفسه دون أي شرح. حكى لي بعدها أنه بعد أن ودعه بدأ يفكر ولم يقنع نفسه بما فعل. عندها أمر البواب أن يرسل له الغريق مرة أخرى، واتصل بي بالتليفون بإعلاني بلا أدنى نقاش؛ لأنه اشترى حقوق القصة كاملة.

لم تكن هذه المرة الأولى، ولا يجب أن تكون الأخيرة التي يراهن فيها "جييرمو" على قضية خاسرة وتنتهي بالتتويج. حذرته مكتئباً، ولكن بأفضل طريقة ممكنة، أنني سأجرى التحقيق فقط تنفيذاً لأوامر رب العمل، ولكني لن أضع عليه توقيعي. ودون أن أفكر في هذا، كان هذا القرار عرضياً، لكنه مفيد للتحقيق، إنه يجبرني على كتابته كراوٍ باسم البطل الذي حدثت له الوقائع، بطريقته في الحكي والتفكير، وموقعاً باسمه. وهكذا أحافظ على نفسي إزاء أي غريق آخر على أرض يابسة. أي، سيكون المونولوج الداخلي لمغامرة منفردة حرفاً حرفاً، كما كنت أفعلُ طوال حياتي. كان القرار عجيباً؛ لأنني اكتشفت أن "فيلاسكو" كان ذكياً، ولديه حساسية وتربية لا يمكن نسيانهما، وميل للسخرية في زمانه ومكانه، وبعد هذا كله، لحسن الحظ، كان محكوماً بشخصية متماسكة.

كان الحوار طويلاً، وتضمن أبسط النقاط، خلال ثلاثة أسابيع كاملة ومنهكة، قمت بالعمل مع يقيني أنه ليس للنشر هكذا، ولكن ليكون مطبوخاً على يد آخرين: تحقيق صحفي. بدأت- بعدم إيمان- محاولاً أن يقع الغريق في تناقضات؛ لأكتشف الحقائق التي يحاول إخفاءها، ولكن سرعان ما اكتشفت أنه لم يخفِ شيئاً. لم أحاول أن أجهده، كان التحقيق كما لو كان نزهة في سهل بين الزهور، وبحرية عليا في الاختيار. كان "فيلاسكو" يصل في موعده تماماً، في الثالثة مساء، بمكتبي في إدارة التحرير. كنا نراجع النقاط السابقة ونستمر في الخط نفسه، كل فصل يحكيه لي أكتبه ليلاً ليُنشر في المساء التالي. كان الأسهل

والأفضل أن نكتب المغامرة كاملة ثم ننشرها بعد ذلك، بعد مراجعتها والتأكد من كل معلوماتها. لكن لم يكن هناك وقت، فالموضوع كان يفقد طزاجته في كل دقيقة، وأي خبر يحدث ضجيجاً يمكن أن يهزمه.

لم نستخدم جهاز تسجيل، كانت حديثة الاختراع وأفضلها كبيرة وثقيلة مثل آلة كاتبة، وشريطها المغناطيسي كان يلتف كالحلوى، وتفريغه بعد ذلك عملية معقدة، فنحن نعرف اليوم أن التسجيلات أدوات ميسرة للتذكر، ولكن لا يجب إهمال ملامح وجه المتحاور التي يمكنها أن تقول الكثير، بل أكثر مما يقوله صوته، وفي أحيانٍ كثيرة تقول الملامح عكس الصوت. كان عليّ أن أقنع بالطريقة العادية في كتابة المقالات في كراسات مدرسية، وبفضل هذه الطريقة أعتقد أنني لم أفقد ولا كلمة واحدة، ولا شرح واحد خلال الحوار، أمكنني التعمق أفضل في كل خطوة. الخطوتان الأوليان كانتا صعبتين، لأن الغريق كان يريد أن يحكي كل شيء دفعة واحدة، إلا أنه سرعان ما تعلم نظام وهدف كل سؤال من أسئلتي. وخاصة بإحساسه كراوٍ، وسهولة فهمه لمتطلبات المهنة.

لإعداد القارئ قبل أن نلقي به إلى المياه، قررنا أن نبدأ القصة من الأيام الأخيرة للبحار في موبايل. وألا ننهيها بوصوله إلى الأرض اليابسة، بل بلحظة وصوله إلى كارتاخينا واستقبال الجماهير له، وهي النقطة التي يمكن للقراء أن يتابعوها بطريقتهم بخيط الرواية والمعلومات المنشورة، كل هذا يعطينا أربعة عشر فصلاً تبقي على ارتباط القراء بنا لمدة أسبوعين.

أول فصل نُشر في 5 إبريل 1955 طبعة الاسبكتادور تحت إلحاح إعلان الإذاعي ونفدت في ساعات قليلة، العقدة المتفجرة كانت في اليوم الثالث، عندما بدأنا نكتشف السبب الحقيقي وراء الكارثة، التي كانت طبقا للرواية الرسمية عاصفة دون تحديد نوعيتها، وبحثاً عن تحديد أكثر طلبت من "فيلاسكو" أن يحكي لي كل التفاصيل، كان قد تعلم طريقتنا المشتركة التي أشعت في عينيه بمكر قبل

أن يجيبني:

– المشكلة أنه لم تكن هناك عاصفة.

ولكن ما حدث- حدد- أنه كانت هناك رياح مستمرة طوال عشرين ساعة، وهي رياح معروفة في تلك المنطقة في هذا الفصل من السنة، وإن لم تكن في حسابات المسئولين عن الرحلة، كان البحارة قد تلقوا رواتب عدة أشهر متأخرة قبيل الإبحار مباشرة، فقرروا صرفها في الساعات الأخيرة بشراء جميع أنواع الأدوات المنزلية لأخذها للبيت. وهو شيء لم يكن في الحسبان، ولكنه لم يقلق أحداً عندما زادت الحمولة عن حدود المساحة المسموح به داخل السفينة، فربطوها على السطح في صناديق كبيرة: ثلاجات وغسالات كهربائية ودفايات. حمولة ممنوعة في أي سفينة عسكرية، وبكميات شغلت مساحات حيوية على السطح، ربما فكروا أنها رحلة لا تأخذ الطابع الرسمي ولأقل من أربعة أيام إبحاراً، وتحت ظروف جيدة حسب التقديرات المسبقة للمناخ، أدى كل هذا إلى عدم الاهتمام بتطبيق القواعد المحكمة، كم من مرة فعلها آخرون، وسيظل آخرون يفعلونها بعد ذلك؟ ولكن سوء الحظ بالنسبة للجميع هبوب رياح تكاد لا تكون أقوى من الرياح المعلنة، وتحت شمس رائعة، أدت إلى ميل السفينة بأكثر مما كان متوقعاً، فحطمت أربطة الحمولة سيئة الربط. ولولا أنها سفينة بها بحارة مخضرمون لذهبت إلى القاع بلا رحمة. لكن ثمانية من حرس السطح سقطوا من عليها. أي أن السبب الأكبر للحادث لم يكن العاصفة، كما تُصر المصادر الرسمية من أول يوم، بل طبقاً لما صرح به "فيلاسكو" في التحقيق:

– الحمولة الزائدة للأدوات المنزلية سيئة الربط على سطح المركب الحربي.

مظهر آخر ظل خافياً تحت الطاولة، وهو: ما نوع قوارب النجاة التي كانت في متناول الذين سقطوا إلى البحر، وفي أيها تمكن "فيلاسكو" من إنقاذ نفسه؟ من المفترض أن يكون على ظهر السفينة نوعان من قوارب النجاة التي سقطت معهم.

كانت من الفلين والمطاط بطول ثلاثة أمتار، ومتر ونصف المتر عرضاً، وفي منتصفها قاعدة تأمينية، وكل متطلبات الحياة من ماء عذب وطعام ومجاديف، وصندوق إسعافات أولية، وأدوات صيد، وأدوات إبحار، والكتاب المقدس. في تلك الحالة يمكن لعشرة أفراد أن يعيشوا على القارب طوال ثمانية أيام دون استخدام أدوات الصيد. ومع ذلك فإنه في المدمرة "كالداس" كانت هناك قوارب نجاة صغيرة، لا توجد بها أية استعدادات من أي نوع. وطبقا لرواية "فيلاسكو"، فإن قاربه لم يكن به أي شيء. وظل السؤال الذي يسبح في الهواء:

– كم مرة تمكن الغرقى من النجاة بركوب قوارب لم تذهب بهم إلى أي مكان؟

كانت بلا شك الأسباب الأكثر أهمية التي تأخرت الجهات الرسمية في شرحها. إلى أن انتبهوا إلى أن روايتهم لا يمكن تصديقها؛ لأن باقي البحارة كانوا في بيوتهم يستريحون، ويقصّون ما حدث كاملاً في كل البلاد. أصرت الحكومة حتى النهاية على الرواية الرسمية التي تتهم العاصفة بالتسبب في الكارثة. ولم تصل الرقابة إلى حد منع نشر الفصول الباقية. أما "فيلاسكو" من ناحيته، فقد واصل الغموض، ولم نعرف أبداً إلى أية درجة تعرَّض معها لضغوط حتى لا يكشف الحقائق، ولم يطلب منا ولا حاول منع كشفها.

بعد الفصل الخامس، فكرنا أن نعيد نشر الفصول الأربعة الأولى تلبية للطلب المتزايد عليها من القرّاء الذين يريدون تجميع الحكاية كلها. أما السيد "جابرييل كانو" الذي لم نره في صالة التحرير في تلك الأيام العصيبة، فقد هبط من برجه وذهب مباشرة إلى مكتبي، وسألني:

– قل لي، يا سميي، كم عدد الفصول التي ستنشرها في حكاية الغريق؟

كنا نُعد الفصل السابع عندما أكل "فيلاسكو" بطاقة زيارة كطعام وحيد بين يديه، ولم يتمكن من مضغها، أي تبقى لنا سبعة فصول أخرى. أصيب السيد "جابرييل" بالذعر. ورد بعنف:

– لا يا سميي، لا، يجب أن تكون على الأقل في خمسين فصلاً.

قدمت له مبرراتي، لكن مبرراته تعتمد على أن توزيع الصحيفة على وشك التضاعف. وطبقاً لحساباته، يمكنها أن تصل إلى رقم لم تصل إليه الصحافة الوطنية من قبل. تم عقد اجتماع عاجل لهيئة التحرير في صالة الاجتماعات، وقاموا بدراسة الجوانب الفنية والاقتصادية والصحافية، وتوصلوا إلى اتفاق أن يكون العدد المقبول من عشرين حلقة، أي: ست حلقات أخرى أكثر من التي كان متفقاً عليها.

رغم أن توقيعي لم يكن يظهر في الفصول التي تم نشرها، فإن طريقة العمل انتشرت في الخارج، وفي ليلة ذهبت للقيام بواجبي كناقد سينمائي، كانت تجري في مدخل المسرح نقاشات حادة حول حكاية الغريق، ومعظمهم كانوا من الأصدقاء الذين كنا نتبادل الآراء في المقاهي القريبة بعد العروض السينمائية. ساعدتني آراؤهم كثيراً لإيضاح آرائي في المقال الأسبوعي، أما بالنسبة لحكاية الغريق- عدا استثناءات قليلة- لم تمتد إلى المدى الممكن.

من بين تلك الاستثناءات كانت من رجل ناضج ورصين، بمعطف جميل من وبر الجمل وقبعة طويلة، تابعني إلى مسافة قريبة من المسرح عندما كنت وحدي في طريقي إلى الصحيفة، كانت ترافقه سيدة ليست أقل إحكاما في ملابسها منه، خلع قبعته ليحييني، وقدّم لي نفسه باسم لا أذكره، وقال لي مباشرة أنه لا يستطيع أن يوافقني على تحقيق الغريق؛ لأنني ألعب فيه لعبة الشيوعيين. شرحت له ببساطة أنني لم أكن أكثر من ناقل للحكاية التي حكاها بطلها نفسه. لكن كانت لديه أفكاره الخاصة، ويعتقد أن "فيلاسكو" جاسوس مدسوس في القوات البحرية يعمل لحساب الاتحاد السوفييتي. انتبهت لحظتها إلى أنني كنت أتحدث مع ضابط كبير بالقوات المسلحة أو البحرية، فتشجعت لتقديم إيضاح أكبر، لكن يبدو أنه أراد فقط أن يقول لي هذا، فقال لي:

- أنا لا أعرف إن كنت حضرتك منتبهاً إلى هذا أم لا، لكن أياً كان وعيك بذلك، يجب ألا تسئ إلى الوطن لحساب الشيوعيين.

انزعجت زوجته الجميلة وحاولت سحبه من ذراعه وهي ترجوه بصوت خفيض: "من فضلك "روخيليو"". أنهى حواره بالطريقة نفسها التي بدأها بها:

– صدقني، من فضلك، فقط اسمح لي أن أقول لك هذا للإعجاب الذي أشعر به تجاه ما تكتبه.

مد يده ليحييني من جديد وترك نفسه لدفع زوجته له، ومرافقته المذعورة، لم يفُلح في تذكر أنه كان عليه أن يودعني.

كانت هذه أول سلسلة من الحوادث جعلتنا نفكر بجدية في أخطار الشارع، في كانتين فقير يقع خلف الصحيفة، يقدم خدماته للعمال فجرا، حاول مجهولان الاعتداء المجاني على "جونثالو جونثالث" عندما كان يحتسي هناك آخر قهوة له بالليل. لم يفهم أحد الأسباب التي يمكن أن تكون ضد الرجل الأكثر هدوءاً في العالم، عدا أنهما خلطا بينه وبيني بسبب "ج" في اسمه "جوج". على أي حال فإن أمن الصحيفة حذرني ألا أخرج ليلاً في المدينة التي أصبحت تزداد خطورتها. بالنسبة لي، فإنني كنت على العكس مطمئناً إلى درجة أنني كنت أذهب إلى شقتي سيراً على الأقدام، بعد أن أنهي عملي.

في فجر أحد تلك الأيام رأيت أن ساعتي قد حانت بسبب المطر الزجاجي الذي انهمر عليَّ نتيجة طوبة ألقيت من الشارع على نافذة غرفة نومي. لقد كان "اليخاندرو اوبريجون"، فقد مفتاح شقته ولم يعثر على صديق مستيقظ، أو مكان في فندق. وبعد أن تعب من البحث عن مكان ينام فيه، ودق الجرس المعطل، قرر حل المسألة باستخدام طوبة من مبنى قريب تحت البناء. لم يكد يحييني عندما فتحت له الباب حتى استلقى على الأرض العارية ونام حتى منتصف النهار.

التدافع لشراء الصحيفة على أبواب الاسبكتادور قبل طرحها للبيع في الشارع كان في تزايد. فقد كان عمال المركز التجاري يتأخرون لشراء الصحيفة وقراءة فصل حكاية الغريق أثناء العودة في الأوتوبيس، أعتقد أن اهتمام القراء بدأ

لأسباب إنسانية، وتابعوا الحكاية لأسباب أدبية، وأخيراً لأسباب سياسية، ولكن كل هذا كان مرتبطاً دائماً بقوة التوتر الداخلي للحكاية. حكى لي "فيلاسكو" فصولاً اشتبهت في أنه اخترعها هو شخصياً، تحتوي على رموز عاطفية، مثل أول نورس طار حوله ولم يرغب في مغادرته، أثناء حكيه له كانت تلمع بجمال سينمائي. سألني صديق بحار كيف استطعت أن أتعرف على أسرار البحر، أجبته إنني لم أفعل شيئاً سوى أن أكتب ما رواه لي "فيلاسكو" حرفياً. وعند نقطة محددة لم يكن لديّ ما أضيفه إلى الحكاية.

كانت قيادة البحرية غاضبة، قبيل انتهاء الحلقات بقليل، أرسلوا للصحيفة رسالة احتجاجاً لأننا تناولنا المأساة طبقاً لرؤية متوسطية، وأن ما حدث كان يمكنه أن يحدث في أي مكان، ولأية وحدة بحرية. "رغم الحداد والألم الناتج عن فقدنا لسبعة بيوت كولومبية محترمة، وكل رجال البحرية، لم يتوقف الكاتب أمامها ليقدمها من خلال استخدام كلمات وتقنيات غير مقبولة، وغير منطقية، ونقلاً عن فم البحار الذي نحترم إنقاذ حياته"، ولهذه الأسباب فإن البحرية تطالب بتدخل مكتب الاستعلامات والصحافة برئاسة الجمهورية لتصحيح- بمساعدة ضابط بحري- ما سيتم نشره مستقبلاً عن الحادث، واستطعنا أن نبدي عدم اهتمام إلى الأسبوع التالي.

في نشر النص النهائي بالكامل طلبنا من الغريق أن يساعدنا بقائمة وعناوين زملائه الذين يمتلكون كاميرات فوتوغرافية، أرسل هؤلاء لنا مجموعة من الصور الملتقطة خلال الرحلة. كان فيها من جميع الأشياء، لكن معظمها كانت ملتقطة لمجموعات على السطح، وفي الخلفية كانت تبدو صناديق الأدوات الكهربائية المنزلية- ثلاجات ودفايات وغسالات- بماركاتها بارزة. ضربة الحظ هذه كانت كافية لتكذيب الرواية الرسمية. كان رد فعل الحكومة سريعاً ونهائياً، وتعدى الملحق كل التوقعات في التوزيع. لكن "جييرمو كانو" و"خوسيه سالجار" كان

عندهما سؤال واحد:

- والآن ماذا سنفعل؟

في تلك اللحظة من نشوة المجد، لم تكن لدينا إجابة محددة. فكل الموضوعات كانت تبدو لنا لا قيمة لها.

بعد خمسة عشر عاماً من نشر الحكاية في الاسبكتادور، نشرتها دار توسكيت ببرشلونة في كتاب بغلاف ذهبي، بيع كما لو كان مخصصاً للطعام. وتحت شعور الامتنان تجاه البحار البطل كتبت في نهاية المقدمة: "هناك كتب لا تعتبر لمن كتبوها، ولكن لمن عاناها، وهذا الكتاب واحد منها، وحقوق المؤلف نتيجة لذلك ستكون لمن يستحقها: مواطني المجهول الذي عاش هذه المأساة طوال عشرة أيام، بلا طعام ولا شراب، في قارب ليكون هذا الكتاب ممكناً".

لم تكن جملة واحدة خالية من المعنى، فقد تم دفع حقوق المؤلف بالكامل إلى "لويس اليخاندرو فيلاسكو"، من دار النشر توسكيت، بتعليمات مني، طوال أربعة عشر عاماً. إلى أن قام المحامي "جييرمو ثيا فرنانديث" في بوجوتا، بإقناع البحار بأن حقوق المؤلف من حقه بقوة القانون، رغم أنه كان يعرف أنها ليست له، بل كانت له بقرار مني تحية لبطولته، وموهبته في الحكي والصداقة.

تقدم بقضية ضدي في المحكمة رقم 22 المدنية في بوجوتا، محاميَّ الخاص وصديقي "الفونسو جوميث مينديث"، أمر دار نشر توسكيت برفع المقطع الأخير من المقدمة في الطبعات التالية، وطلب منها ألا تدفع سنتيماً واحداً حتى تقرر العدالة. وهذا ما حدث، بعد حوارات ونقاشات طويلة انتهت الوثائق والشهادات الفنية إلى أن تقوم المحكمة بإصدار حكمها بأن المؤلف الوحيد لهذا العمل هو أنا، ورفضت المطالب التي تقدم بها محامي "فيلاسكو"، وبالتالي فإن ما حصل عليه من دفعات سابقة من حقوق النشر كانت تنازلاً مني بقرار شخصي، وليس اعترافاً مني بأن البحار كان المساعد لي في التأليف. وحقوق النشر من ذلك

الوقت، بقرار خاص مني، ذهبت إلى مؤسسة خيرية محترمة.

لم نستطع الحصول على حكاية مثل تلك؛ لأنها لم تكن من ذلك النوع الذي يمكن كتابته على الورق، ولكن تكتبها الحياة، ودائماً ما تكون من خلال ضربات حظ، ونتعلمها نحن فيما بعد، عندما حاولنا أن نكتب السيرة الذاتية لبطل الدراجات الكولومبي الشهير "رامون هويوس"، الذي تُوج خلال هذا العام كبطل قومي للمرة الثالثة. فقد طرحنا قصته بالطريقة التي تعلمتها خلال نشر قصة البحار، وزدنا عدد حلقاتها حتى تسعة عشر فصلاً، وقبل أن ننتبه، اكتشفنا أن الناس تفضل رؤية "رامون هويوس" يصعد الجبل ويصل أولاً إلى قمة النهاية، ولا تريد أن تراه في حياته الواقعية.

ظهر شعاع من الأمل في أمسية اتصل بي فيها "خوسيه سالجار" تليفونياً، وطلب مني أن ألتقي به فوراً في بار فندق كونتيننتال. كان هناك صديق قديم وجاد قدّم له مرافقاً له بشعر أبيض، كان يبدو مضيئاً حتى في ظلمة البار، صديق "سالجار" رجل أعمال معروف، وقدم له مهندس مناجم كان يقوم بحفريات في أرض بور قريبة من الاسبكتادور، بحثاً عن كنز أسطوري كان ملكاً للجنرال "سيمون بوليفار"، رفيقه صديق جداً لـ"سالجار"، وأصبح صديقي أيضاً منذ ذلك الوقت، أكد لنا الحقيقة التاريخية، كانت تثير الاشتباه بسبب بساطتها: عندما كان مُحرر أمريكا اللاتينية يستعد لمواصلة رحلته الأخيرة إلى كارتاخينا، مهزوماً ومريضاً، افترضوا أنه فضل ألا يأخذ معه كنزه الشخصي الذي جمعه طوال سنوات، في حروبه، لتكون احتياطه خلال أيام الشيخوخة. وعندما كان يستعد لمواصلة رحلته- لا يعرف أحد إلى كاراكاس أم إلى أوروبا- احتاط بتركه مختبئاً في بوجوتا، تحت حماية نظام من الرموز الاسبرطية كانت معروفة في زمنه، ليعثر عليه فيما بعد عندما يحتاجه، ومن أي مكان من العالم. سجلت هذه الأنباء، بجاذبية لا تُقهر، عندما كنت أكتب رواية "الجنرال في مصيدته"، التي كان يمكن

لحكاية الكنز أن تصبح جزءاً أساسياً منها، لكني لم أحصل على معلومات كافية لتكون قابلة للتصديق، واعتقدت أنها لا تصلح لطرحها كمادة مؤلفة، تلك الثروة الأسطورية، التي لم يحصل عليها صاحبها أبداً، وكان يبحث عنها المهندس بكل حماس، لم أفهم لماذا كشفوا لنا عن الحكاية، إلى أن شرح لي "سالجار" أن صديقه المُعجب بحكاية الغريق، أراد أن يضعني معه في الصورة إلى أن يتمكنوا من الحصول على ما يريدون، وعندها يمكننا أن ننشرها بالصورة نفسها.

ذهبنا إلى مكان الحفر، كانت الأرض الخالية الوحيدة غرب حديقة الصحافيين، وقريبة جداً من شقتي الجديدة، وشرح لنا الصديق على خريطة استعمارية علامات الكنز من خلال معلومات واقعية عن جبال مونسرات وجوادالوبي. كانت الحكاية رائعة، والكنز سيكون خبراً خاصاً بنا، تماماً كالغريق، بل وسيكون له صدى عالمياً.

واصلنا زيارة المكان في مرات عديدة؛ لنكون دائماً على علم بآخر التطورات، كنا نستمع إلى المهندس خلال تناول كئوس الاجواردينتي والليمون، فكنا نشعر في كل مرة بالابتعاد عن المعجزة إلى درجة أنه مر وقت طويل نزع عنا الحلم بالعثور عليه. الشيء الوحيد الذي اشتبهنا فيه فيما بعد، أن حكاية الكنز لم تكن سوى تمويهٍ للحصول على تصريح للحفر في منجم لشيء له قيمة ثمينة في وسط العاصمة، وربما كان تمويهاً أيضاً لإبعاد الأنظار عن كنز الجنرال.

لم تكن تلك الأيام تصلح للأحلام، نصحوني منذ حكاية الغريق أن أبقى خارج كولومبيا لبعض الوقت، إلى أن تنقطع التهديدات بالموت، حقيقية كانت أم خيالية، والتي كانت تصلنا بوسائل عديدة، فكان أول ما فكرت فيه عندما سألني "لويس جابرييل كانو" عن الذي أفكر في عمله الأربعاء المقبل. وبما أنه لم تكن لديَّ أية خطة جاهزة، فقد قال لي بطريقته الخاصة المعتاد عليها، أن أعد أوراقي للسفر كمندوب خاص للصحيفة لحضور مؤتمر الأربعة الكبار، الذين سيجتمعون الأسبوع التالي في جنيف.

أول شيء فعلته هو الاتصال تليفونياً بأمي، التي اعتبرتْ أن الخبر كبيراً إلى درجة أنها سألتني إن كنت أشير إلى مزرعة اسمها جنيف؟ فقلت لها: "إنها مدينة في سويسرا"، ودون أن تصمت، وبكل رصانة مؤكدة لتتفهم أخبار أبنائها سألتني: إلى متى سأبقى هناك؟ أجبتها أنني قد أتأخر حتى أسبوعين. في الحقيقة كنت سأذهب فقط لمدة أربعة أيام التي يستمر خلالها الاجتماع، إلا أنه لأسباب ليست لها علاقة برغبتي الشخصية، لم أبقَ هناك أسبوعين؛ بل ثلاث سنوات تقريباً. لأنه حينها كنت أنا من يحتاج إلى قارب الإنقاذ، وإن كان فقط لمجرد الحصول على وجبة طعام كل يوم، لكني حرصت جيداً على ألا تعرف العائلة أي شيء، أراد أحدهم أن يثير قلق أمي في إحدى المرات بقوله إن ابنها يعيش في باريس كأمير، بعد أن خدعها بقوله إنه كان سيقضي هناك أسبوعين فقط، فقالت له بابتسامة بريئة:

– "جابيتو" لا يخدع أحداً، لكن المسالة أنه حتى الله يرغب أحياناً أن يحول الأسابيع إلى عامين.

لم أنتبه أبداً إلى أنني كنت بلا هوية واقعية مثل كل الملايين من المهاجرين هرباً من العنف. لم أدلِ بصوتي أبداً؛ لأنني لم أكن أمتلك بطاقة. وفي بارانكيا كنت معروفاً ببطاقتي كمحرر في الهيرالدو، التي يوجد بها تاريخ ميلاد مزور، هرباً من أداء الخدمة العسكرية، مما يعني أنني كنت هارباً من تلك الخدمة منذ عامين، في حالات الحاجة العاجلة كنت أقدم نفسي من خلال بطاقة قدمتها لي عاملة التلغراف في ثيباكيريا، ووضعني صديق مهم في اتصال مع مدير لشركة سياحة وعد أن يسفّرني في الطائرة في الموعد المحدد، من خلال دفع مبلغ مائتي دولار وتوقيعي على عشر ورقات بيضاء تحمل خاتماً رسمياً. علمت بعدها أنها لعبة متداخلة، وأن رصيد حساباتي في البنك كانت به كمية مذهلة من النقود لم يكن لديَّ الوقت لصرفها بسبب عملي كمحرر. المصروف الوحيد المعروف كان قارب النجاة الشهري الذي كنت أبعث به لإنقاذ العائلة.

قبيل السفر، نادى مدير شركة السفر أمام اسمي مع كل ورقة يضعها على المكتب حتى لا يخطئها: بطاقة الانتخاب، أداء الخدمة العسكرية، أوراق المصالحة مع الضرائب، وشهادات التطعيم ضد الجدري والحمى الصفراء. وفي النهاية طلب مني مبلغاً إضافياً للفتى الذي طعمّوه بدلاً مني مرتين، وباسمي، وهو يتم تطعيمه كل يوم لحساب زبائن المكتب.

سافرت إلى جنيف في وقت ضيق جداً، لكي أشهد مؤتمر "أيزنهاور" و"بولجانين" و"ايدن" و"فوري"، دون لغة أخرى غير الإسبانية وبطاقة لفندق من الدرجة الثالثة، ولكني كنت معتمداً على حساب مصرفي. كانت العودة محجوزة بعد خمسة أسابيع، ولكن لا أعرف السبب الغريب الذي جعلني أوزع كل شيء في شقتي بين أصدقائي، بما فيها مكتبتي السينمائية الرائعة، التي جمعتها خلال عامين بمساعدة "ألفارو ثيبيدا" و"لويس بيثينس".

جاء الشاعر "خورخي جايتان دوران" ليودعني عندما كنت أمزق بعض الأوراق، فبدأ يبحث في سلة المهملات ربما يعثر على شيء يصلح للنشر في مجلته، أمكنه إنقاذ بعض الأوراق التي قرأها بعد ضمها إلى بعضها على سطح الطاولة. وسألني من أين خرجت هذه الأوراق، أخبرته إنها من بقايا رواية الورقة الجافة، وحذرته من أنها منشورة من قبل في كرونيكا والاسبكتادور، لكنه لم يأبه بشيء. ولا أذكر أنني صرحت له بنشرها أثناء هبوطنا في المصعد. قام "جايتان دوران" بنشرها في العدد التالي بمجلته "ميتو".

كان الوداع قبلها في بيت "جييرمو كانو" عاصفاً، إلى درجة أنني وصلت إلى المطار بعد إقلاع طائرة كارتاخينا، حيث كنت أريد أن أنام في تلك الليلة هناك لوداع العائلة، ولحسن الحظ تمكنت من اللحاق بطائرة أخرى عند منتصف النهار. قمت بعمل طيب؛ لأن المناخ العائلي تحوّل منذ آخر مرة، وأبويَّ وأشقائي كانوا

يشعرون أنهم قادرون على الحياة بدون قارب الإنقاذ الذي كنت أرسله لهم، والذي سأكون في حاجة إليه في أوروبا.

سافرت إلى بارانكيا براً في اليوم التالي، مبكراً جداً لأستقل الطائرة إلى باريس في الثانية مساء. التقيت في محطة أوتوبيسات "كارتاخينا بلاثيديس"، بواب ناطحات السحاب الذي لا يُنسى. الذي لم أكن قد رأيته منذ ذلك الوقت. قفز عليَّ في عناق حقيقي والدموع في عينيه، دون أن يعرف ما يجب أن يقوله، ولا كيف يتعامل معي. وأخيراً بعد تبادل العناق، لأن الأوتوبيس الذي سيستقله كان قد وصل لحظة خروج الأوتوبيس الذي أسافر فيه، قال لي بعاطفية اخترقت روحي:

– ما لا أفهمه، يا سيد "جابرييل"، لماذا لم تقل لي أبداً من أنت؟

أجبته أكثر إحساساً بالألم منه:

– أي عزيزي "لاثيديس"، لم أستطع أن أقول لك شيئاً؛ لأنني لا زلت لا أعرف من أكون؟

بعدها بساعات في التاكسي الذي أقلني إلى المطار من بارانكيا تحت سماء شفافة أكثر من أي مكان آخر، انتبهت إلى أنني كنت أمر في شارع العشرين من يوليو، ومن خلال لحظات قليلة اكتشفت أنه يمثل جزءاً من حياتي منذ خمس سنوات، نظرت باتجاه بيت "ميرثيدس بارتشا"، كانت هناك، كما التمثال تجلس أمام الباب نحيلة وبعيدة، بملابس موضة السنة، بفستان أخضر مطرز بالذهبي، والشعر مقصوص على هيئة جناح السنونو، وعلى هيئتها شكل من ينتظر شخصاً لا يأتي. لم أتمكن من السيطرة على شعوري بأنني سأفقدها إلى الأبد في يوم خميس من يوليو في ساعة مبكرة، وفي لحظات فكرت في إيقاف التاكسي لكي أودعها، لكني فضلت ألا أتحدى قدراً غير مأمون كقدري مرة أخرى.

بينما كانت الطائرة تطير، كنت لا أزال تحت تأنيب الضمير لعدم اتخاذي

لقراري، كانت وقتها هناك عادة وضع أوراق في ظهر الكرسي الأمامي، وهو شيء يمكنه أن يساعد رومانتيكيا في كتابة رسالة. ورقة بحواشٍ مذهبة، وغلافها من الورق نفسه من ورق التيل الوردي، أو الأصفر أو الأزرق، أحياناً ما يكون معطراً. استخدمت هذه الأوراق خلال رحلاتي السابقة القليلة لكتابة قصائد وداع كنت أحوّلها إلى حمام ورقي أطيره في الهواء عند نزولي من الطائرة، أخذت واحدة زرقاء سماوي وكتبت أول رسالة رسمية لـ"مرثيدس" الجالسة أمام باب بيتها في السابعة صباحاً، بفستانها الأخضر كعروس بلا عريس، وشعرها كسنونو غير واثق من نفسه، دون أن تنتبه لِمَنْ ارتدت فستانها مع طلوع النهار؟ كتبتها في مقالاتٍ أخرى لمجرد التسلية، كنتُ أرتجلها بالصدفة، وكنت أتلقى منها فقط إجابات شفوية، ودائماً ما تكون هروبية عندما كنا نلتقي صدفة. في تلك الرسالة لم أكن أريد أن تكون أكثر من خمسة أسطر أبلغها فيها رسمياً برحلتي. مع ذلك أضفت إليها في النهاية ملاحظة أعمت عيني كالبرق في منتصف النهار في لحظة توقيعها قبل شهر: "إذا لم أتلقَ إجابتك على هذه الرسالة قبل مرور شهر سأبقى لأعيش في أوروبا إلى الأبد". سمحت لنفسي بوقت للتفكير مرة أخرى قبل وضع الرسالة في الثانية صباحاً في الصندوق الوحيد بمطار مونتيجوبي، كان ذلك صباح الجمعة. يوم الخميس من الأسبوع التالي، وعندما دخلت الفندق في جنيف بعد يوم ضائع بين الخلافات الدولية، وجدت إجابتها.

انتهى